لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثاني

الطابعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير:

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

« . . . أهلُ الجنةِ طابت لهم حدائقُها ، وأهل النار أحاط بهم سرادِقُها ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن أنْ تعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة . . جَلَّتْ الأحدية ، وتقدَّسَتْ الصمدية .

وَمَنْ وقعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تقع عليه قَتَرَةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجدَ حُظْوَةً لدينا ، ومن نَقَلَ قَدَمَهُ نحونا غفرنا له ما قَدَّمه ، ومن رفَعَ إلينا يَدَاً أجزلنا له رَغَدَاً ، ومن التجأ إلى سُدَّةِ كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمِنا ، ومن شـكا فينا غليلاً ، مَهَّدْنا له فى دار فضلنا مقيلاً »

عبد الكريم القشيري

عند

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّرْ

تبرَّأنا مِمّا منّا مِنَ الحوْلِ والمُنَّةِ، وتحقَّقْنا بما منْكَ مِنَ الطَّوْلِ وَالمِنَّةِ، فلا تجْعلْنا عُرْضَةً لِسِهامِ أحكامِك، وارْحمْنا بِلُطفِكَ وَإكْرامِك، وَنجِّنا ممَّنْ غضِبْتَ عليْهِمْ فأذْللْتَهمْ، وبكَىٰ فِراقكَ وَسمْتَهمْ.

عبد الكريم القشيري

عند

سورة يونس

السورة التى تذكر فيها التوبة

جرَّد الله — سبحانه — هذه السورة عن ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » لِيُعْلَمَ أنه يَخُصُّ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويُفْرِدُ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء ، ليس لِصُنْعِه سَبَبٌ ، وليس له فى أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ ، واتَّضَحَ للكافه أن هذه الآية أُثْبِتَتْ فى الكتاب لأنها مُنَزَّلَة ، وبالأمر هنالك مُحَصَّلَة .

ومَنْ قال : إنه لم يذكر التسميةَ فى هذه السورة لأنها مفتتحةٌ بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً فى الإشارة — فضعيفٌ ، وفى التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : « لم يكن الذين كفروا »(1) وقوله : « ويلٌ لكل همزةٍ لُمَزةٍ »(2) وقوله : « تبَّتْ يدا أبى لهبٍ وتب »(3) وقوله : « قل يأيها الكافرون »(4) . . . هذه كلها مفاتِحُ للسُّوَرِ . . وبسم الله الرحمن الرحيم مُثْبَتَةٌ فى أوائلها — وإن كانت مُتَضَمِّنَةً ذِكرَ الكفار . على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت فى ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإنْ تَضَمَّنَتْهُ تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تُصَدَّرْ بذِكْرِ الرحمة .

ويقال إذا كان تجرُّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرِىِّ أن يُخْشى أنَّ تجردَ الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ برآءةٌ مِّنَ اللهِ ورسُولِه إلى الذين عاهَدتُّم مِّنَ المشركين ﴾

---

(1) آية 1 سورة البينة .
(2) آية 1 سورة الهمزة .
(3) آية 1 سورة المسد
(4) آية 1 سورة الكافرون

الفراقُ شديدٌ ، وأشدُّه ألا يعقُبَه وصال ، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال : « إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[1]

ويقال مَنْ مُنِيَ بفراق أحبابه فبئست صحبته . وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد ، ولا شكَّ أنهم كانوا قد وطَّنوا نفوسَهم عليه ، فنزل الخبرُ من الغيب بغتةً ، وأتاهم الإعلامُ بالفرقةِ فجأةً ، فقال: «بَرَاءَةٌ من الله ورسوله» ، أى هذه براءة من الله ورسوله ، كما قيل :

فَبِتُّ بخيرٍ — والدُّنَى مطمئنةٌ وأصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلُّبا

وما أشدَّ الفُرقةَ — لا سيَّما إذا كانت بغتةً على غير تَرَقُّبٍ — قال تعالى : « وأَنْذِرْهُم يومَ الحسرة إذ قُضِيَ الأمر وهم فى غفلة »[2] وأنشدوا :

وكان سراجُ الوصلِ أزهر بيننا فهبَّتْ به ريحٌ من البَيْنِ فانطفا

قوله جل ذكره : ﴿ فَسِيحُوا فى الأرضِ أربعةَ أشهر واعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزِى اللهِ وأنَّ اللهَ مُخْزِى الكافرين ﴾

إنْ قَطَعَ عنهم الوصلةَ فقد ضَرَبَ لهم مدةً على وجه المُهْلَةِ ، فأمَّنَهُم فى الحالِ ليتأهبوا لِتَحَمُّلِ مقاساةِ البراءةِ فيما يستقبلونه فى المآلِ .

والإشارةُ فيه : أنهم إنْ أقلعوا فى هذه المهلة عن الغىِّ والضلال وجدوا فى المآل ما فقدوا من الوصال ، وإنْ أَبَوْا إلا التمادى فى تَرْكِ الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة .

ثم قال : واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مُخزى الكافرين » والإشارة فيه : إنْ أصررتم على قبيح آثاركم سعَيْتُم إلى هلاككم بِقَدَمِكُم . وندمتم فى عاجلكم على سعيكم ، وحَصَّلْتُم فى آجِلِكم على خسرانكم ؛ وما خَسِرْتُم إلا فى صفقتكم ، وما ضَرَّ جُرْمُكم سواكم وأنشدوا :

تبدَّلْتَ وتبدَّلْنا واحسرتا مَنْ ابتغى عِوَضًا لليلى فلم يَجِدِ

---

(١) آية ٤٨ سورة النساء (٢) آية ٣٩ سورة مريم

قوله جل ذكره: ﴿وأذانٌ مِّنَ الله ورسوله إلى الناسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ﴾

أى ليكُنْ إعلامٌ من الله ورسوله للناس بنقض عهدهم، وإعلانٌ عنهم بأنهم ما انقطعوا عن مألوفهم من الإهمال[1] ومعهودهم، وقد برح الخفاء من اليوم بأنهم ليس لهم ولاء، ولم يكن منهم بما عقدوا وفاء، فَلْيَعْلَمْ الكافةُ أنهم أعداء، وأنشدوا:

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره: ﴿أنَّ اللهَ برىء من المشركين ورسولُه﴾.

مَنْ رأى من الأغيار — شظيةً من الآثار، ولم يرَ حصولَها بتصريفِ الأقدار فقد أشرك — فى التحقيق — واستوجب هذه البراءة.

ومَنْ لاَحظَ الخلْق تَصَنُّعاً، أو طالَعَ نَفْسَه إعجاباً فقد جعل مالله لغيرِ الله، وظنَّ ما لله لغيرِ الله، فهو على خطرٍ من الشِّرْكِ بالله.

قوله جل ذكره: ﴿فإن تُبْتُم فهو خيرٌ لكم وإن تولَّيْتُمْ فاعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزِى اللهِ وبَشِّرِ الذين كفروا بعذابٍ أليم﴾.

إنْ عادوا إلى البابِ لم يقطعْ رجاءهم، ومدَّ إلى حدِّ وضوحِ العُذْرِ إرجاءهم. وبيَّن أنهم إنْ أصَرُّوا على عُتُوِّهم فإلى مالا يُطيقون من العذاب مُنْقَلَبُهم، وفى النار مثواهم.

قوله جل ذكره: ﴿إلا الذين عاهدتُّم من المشركين ثُمَّ لم ينقُصُوكم شيئاً ولم يُظَاهِروا عليكم أحداً فأَتِمُّوا إليهم عَهْدَهم إلى مُدَّتِهم إنَّ الله يُحِبُّ المتقين﴾:

---

(1) وردت (الإمهال) والصواب أن تكون (الإهمال) لأن الإمهال لا يكون إلا من الحق، ومألوفهم ومعهودهم (الإهمال).

منْ وَفَّى الحقَّ فى عقدِه فَزِدْه على حفظِ عهدِه ، إذ لايستوى مَنْ وفَّاه ومنْ جفاه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ ﴾ .

يريد إذا انسلخ الحُرُمُ فاقتلوا مَنْ لاعهدَ له من المشركين ، فإنَّهم — وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرُماً — جعل لهم الأمانَ فى مدة هذه المُهلة ، (. . . .)[1] فبكرتم أن يأمر بترك قتال مَنْ أَبَى كيف يرضى بقطع وصال مَنْ أَتَى ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وَجَدتُّموهم وخُذوهم واحصروهم واقعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .

أمَرَهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء .

وأعدَى عدوِّك نَفْسُكَ التى بين جَنْبَيْك ، فسبيلُ العبدِ فى مباشرة الجهاد الأكبر مع النَّفْس بالتضييق عليها بالمبالغة فى جميع أنواع الرياضات ، واستفراغ الوسع[2] فى القيام بصدق المعاملات . ومِنْ تلك الجملة ألا ينزلَ بساحات الرُّخَصِ والتأويلات ، ويأخذَ بالأشَقِّ فى جميع الحالات

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فخَلُّوا سبيلَهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

حقيقة التوبة الرجوعُ بالكلية من غير أن تتركَ بقية . فإذا أسلَمَ الكافرُ بعد شِرْكِه ، ولم يُقَصِّرْ فى واجبٍ عليه من قِسْمَىْ فِعْله وتَرْكِه ، حَصَلَ الإذنُ فى تَخْلِيَةِ سبيله وفكِّه :

إن وَجَدْنا لِمَا ادَّعَيْتَ شهوداً لم نجِدْ عندنا لحقٍّ حدوداً

وكذلك النَّفْسُ إذا انخنست ، وآثارُ البشرية إذا اندَرَسَتْ ، فلا حَرَجَ — فى التحقيق — فى المعاملات فى أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات . والجلوسُ مع الله

---

(١) مشتبهة

(٢) وردت (الواسع) والصواب أن تكون الوسع .

أولى من القيام بباب الله تعالى ، قال تعالى فيما ورد به الخبر : « أنا جليس مَنْ ذكرنى »(1) .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ من المشركين استجارك
فَأَجِرْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللهِ ثم أَبْلِغْهُ
مَأْمَنَهُ ذلك بأنهم قومٌ لَّا يعلمون﴾ .

إذا استجار المُشْرِكُ — اليومَ — فلا يُرَدُّ حتى يسمعَ كلامَ الله ، فإذا استجار المؤمن طول عمره من الفراق — متى يُمْنَعُ من سماع كلام الله ؟ ومتى يكون فى زمرة مَنْ يقال لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون(2) » .

وإذ قال — اليومَ — عن أعدائه : « فَأَجِرْهُ حتى يسمع كلامَ الله » فإنْ لم يؤمن بعد سماع كلامه نُهِىَ عن تعرضه حيث قال : « ثم أبلغه مأمنه » — أترى أنه لا يُؤَمِّنُ أولياءه — غداً — مِنْ فراقه ، وقد عاشوا اليومَ على إيمانه ووفائه ؟ ! كلا .. إنه يمتحنهم بذلك ، قال تعالى : « لا يحزنهم الفزعُ الأكبر »(3) .

ثم قال : « ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون » فإذا كان هذا بِرّه بِمَنْ لا يَعْلَمَ فكيف بِرّه بِمَنْ يعلم ؟

ومتى نُضَيِّعُ مَنْ يُنيخُ ببابِنا والمُعْرِضونَ لهم نعيمٌ وافِرُ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿كيف يكون للمشركين عَهْدٌ
عند اللهِ وعند رسولِهِ إلا الذين
عاهدتُمْ عند المسجدِ الحرامِ فما
استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنَّ
اللهَ يحبُّ المتقين﴾ .

(1) جاء فى الرسالة ص 111 قال محمد الفراء سمعت الشبلى يقول : (أليس الله تعالى يقول : أنا جليس من ذكرنى ؟ ما الذى استفدتم من مجالسة الحق ؟) .
(2) آية 108 سورة المؤمنون .
(3) آية 103 سورة الأنبياء .

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص فى إيمانه ؟

وكيف يكون المحجوبُ عن شهوده كالمستهلَكِ فى وجوده ؟

كيف يكون مَنْ يقول « أنا » كمن يقول « أنت » ؟ وأنشدوا :

وأحبابُنا شتَّان : وافٍ وناقِصٌ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، إنْ تمسَّكُوا بحبل[1] وفائنا أحللناهم ولاءنا ، وإنْ زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدِّنا ، ثم لم يَرْبَحُوا فى بُعْدِنا .

« إنَّ اللهَ يحب المتقين » : المُتَّقِى الذى يستحق محبةَ مَنْ يُتَّقَى ، وذلك حين يتقى محبَّةَ نَفْسه ، وذلك بِتَرْكِ حظه والقيامِ بحقِّ ربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف وإن يَظْهَرُوا عليكم لا يرقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بأفواهِهِم وتأبى قلوبُهم وأكثرهم فاسِقون ﴾ .

وَصَفَهم بلؤم الطبع فقال : كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمروه لكم من سوء الرضاء ؟ فلو ظَفِرُوا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمةً ، ولم يحفظوا لكم قرابةً أو ذِمَّةً .

وفى هذا إشارة إلى أنَّ الكريمَ إذا ظَفِرَ غَفَرَ ، وإذا قدر ما غَدَرَ ، فيما أسرَّ وجَهَرَ .

قوله « يرضونكم بأفواههم وتأبىُ قلوبُهم » أى لا عَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ ؛ فإنهم فى حقِّنا كذلك يفعلون : يُظْهِرُون لباسَ الإيمان ويُضْمِرُون الكفر . وإنهم لذلك يعيشون معكم فى زِىِّ الوفاق ، ويستبطنون عين الشِّقاق وسوء النِّفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ اشْتَرَوْا بآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قليلًا فَصَدُّوا

---

(١) وردت (لجبل) وهى خطأ فى النسخ .

عن سبيله إنهم ساء ما كانوا
يعملون ﴾ .

مَنْ رَضِىَ مِنَ الله بغير الله أُرخص فى صفقته ثم إنه خسر فى تجارته ؛ فَلاَلَهُ — وهو عن الله — أثر استمتاع ، ولا له — فى دونه سبحانه — اقتناع ؛ بَقِىَ عن الله ، ولم يستمتع عن الله . وهذا هو الخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إِلًّا ولا ذِمَّةً
وأولئك هم المُعْتَدُونَ ﴾ .

كيف يراعى حقَّ المؤمنين مَنْ لا يراعى حقَّ الله فى الله ؟ أخلاقُهم تشابهت فى تَرْكِ الحُرْمَة .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا
الزكاةَ فإخوانُكم فى الدِّين ونُفَصِّلُ
الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾ .

معناه : وإن قبلناهم وصَلُحُوا لولائنا فَلُحْمَةُ النَّسَبِ فى الدِّين بينكم وبينهم وشيجة[1] ، وإلا فليكن الأجانبُ مِنا على جانبٍ منكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن نَكَثُوا أَيْمانَهم مِن بَعْدِ
عَهْدِهِم وطَعَنُوا فى دينِكم فقاتِلوا أئمةَ
الكفرِ إنَّهم لا أَيْمانَ لهم لعَلَّهم
يَنْتَهُون ﴾ .

إذا جنحوا إلى الغَدْرِ ، ونكثوا ما قدَّموه من ضمان الوفاء بالعهد ، وبسطوا ألسنَتَهم فيكم باللومِ فاقصدوا مَنْ رحى الفتنةِ عليه تدور ، وغُصْنُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِه يَتَشَعَّبُ ، وهم سادةُ الكفار وقادتُهم .

وحقُّ القتالِ إعدادُ القوةِ جهراً ، والتبرِّى عن الحول والقوة سِرًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ ألاَ تقاتِلون قوماً نَكَثُوا أَيْمانَهم

---

(١) أى مشتبكة متصلة .

وَهَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ وَهُم بَدَأُوكُم
أَوَّلَ مَرَّةٍ أتخشَوْنَهم فاللهُ أَحَقُّ
أن تَخْشَوْه إن كنتم مؤمنين ﴾

حَرَّضَهم على القتال — على ملاحظة أمرِ الله بذلك — لا على مقتضى الانطواء على الحقد لأحد، فإنَّ مَنْ غَضِبَ لنَفْسِه فمذمومُ الوصف، ومَنْ غَضِبَ لله فإنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ.

وقال « أتخشونهم فاللهُ أحقُّ أن تخشَوْه » : فالخشية من الله بشير الوُصْلة، والخشية من غير الله نذير الفُرقة. وحقيقة الخشية نَفْضُ السِّرِّ عن ارتكاب الزَّجر ومخالفة الأمر.

قوله جل ذكره : ﴿ قاتِلوهم يُعذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكم
ويُخْزِهِم ويَنصُرْكُم عليهم ويَشْفِ
صدورَ قومٍ مؤمنين * ويُذْهِبْ
غَيْظَ قلوبِهم، ويتوبُ اللهُ على مَن
يشاء واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

هوَّن عليهم كلفةَ المخاطرة بالمهجة بما وَعَدَهُم مِن الظفَرِ والنصرة، فإنَّ شهودَ خِزْيِ العدوِّ مما يُهوِّنُ عليهم مقاساةَ السوء. والظَّفَرُ بالأَرَبِ يُذْهِبُ تَعَبَ الطَّلَب.

وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم فى المقام والدرجات ؛ فمنهم مَنْ شفاء صدره فى قَهْرِ عدوِّه، ومنهم مَنْ شفاء صدره فى نَيْلِ مَرْجُوِّه. ومنهم مَنْ شفاء صدره فى الظَّفَر بمطلوبه، ومنهم مَنْ شفاء صدرِه فى لقاء محبوبه. ومنهم من شفاء صدره فى درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره فى البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهابُ غيظِ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتنوَّعُ أبوابُه، وفيما ذَكَرْناَ تلويحٌ لِماَ تركنا[1].

« ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاء » حتى يكون استقلاله بمحوِّل الأحوال.

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أَنْ تُترَكُوا ولمَّا يَعْلَمِ

---

(١) توضح هذه العبارة ميل القشيرى للإقلال خشية الملال — كما ذكر فى مقدمة كتابه.

إسحاقَ يعقوبَ * قالَتْ يا ويلتا
أ ألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلِى شيخاً
إنَّ هـذا لَشىءٌ عجيبٌ * قالوا :
أتعجبين من أمرِ اللهِ ؟ رحمةُ اللهِ
وبركاتُه عليكم أهلَ البيت إنَّه
حميدٌ مَجيدٌ ﴾

كانت امرأته قائمةً بخدمة الأضياف ، فضحكت تَعَجُّباً مِنْ أنْ يكونَ لمثلها فى هذه السِّنِّ ولدٌ .

وقيل كان سرورُها بالسلامة . ويحتمل أنها ضحكت تعَجُّباً من امتناع الضِّيفان عن الأكل . أو تَعَجبَتْ من كوْن الملائكة فى صورة البشر لَمَّا عَلِمَتْ أنهم ملائكة . ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالوَلَد وقد بُشِّرتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب ، ثم أفْصَحَتْ عما ينطوى عليه قلبُها من التعجب فقالت : « أألد وأنا عجوز وهذا بَعْلى شيخاً ؟ إنَّ هذا لشىءٌ عجيبٌ » !

فأحال الملائكة خَلْقَ الوَلَدِ على التقدير : « قالوا أتعجبن من أمر الله ؟ » فزال موضِعُ التعجب ، وقالوا : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » فبقى الدعاء فى شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعى : كما صَلَّيْتَ وباركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

والبركة الزيادة ، فقد اتصل النَّسْلُ من الخليل ، وبنو اسرائيل منهم — وهم خَلْقٌ كثير ، والعرب من أولاد اسماعيل — وهم الجَمُّ الغفير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذَهَبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ
وجاءته البُشرى يُجادِلُنا فى قومِ لوط ﴾

لما كانت مراجعته مع الله فى أمرِ قومِ لوطٍ بحقِّ الله لا لحظِّ نَفْسِهِ سَلِمَ له الجدال ، وهذا يدلُّ على علوِّ شأنه حيث تجاوز عنه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ابراهيمَ لحليمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ ﴾

بالـكُفْرِ أولئك حَبِطَتْ أعمالُهُم ،
وفى النَّارِ هُمْ خالِدون ﴾[1]

عمارةُ المساجد بإقامة العبادة فيها ، والعبادةُ لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص ، والمشرِكُ فاقدُ الإخلاص ، وشهادتُهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحدثان بتأثير الأسباب ، فمن أثبت فى عقده جوازَ ذرَّةٍ فى العالم من غيرِ تقديره — سبحانه — شاركَ أربابَ الشِّرْكِ فى المعنى الذى لزِمَتْهم به هذه السِّمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يَعْمُرُ مساجدَ الله مَنْ آمنَ بالله
واليومِ الآخِرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى
الزكاةَ ولم يخشَ إلا الله فعسى أولئك
أن يكونوا مِنَ المهتدين ﴾

لا تكون عمارةُ المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية ، فالعابد يَعْمُرُها بتخريب أوطان شهوته ، والزاهدُ يعمرها بتخريب أوطان مُنْيته ، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته ، والموحِّدُ يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُسَاكنتِه . وكلٌّ واحدٍ منهم واقفٌ فى صفته ؛ فلصاحب كلِّ موقفٍ منهم وصفٌ مخصوص .

وكذلك رُتَبُهُم فى الإيمان مختلفة ؛ فإيمانٌ من حيث البرهان ، وإيمان من حيث البيان ، وإيمان من حيث العيان ، وشتان ما هم ! قال قائلهم :

لا تعرِضَنَّ بذِكْرِنا فى ذِكْرِهم ليس الصحيحُ — إذا مشى — كالمُقْعَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ أجَعَلْتُم سِقَايةَ الحاجِّ وعمارةَ
المسجدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ بالله واليومِ
الآخِرِ وجاهَدَ فى سبيل الله لا يستوُون
عند اللهِ واللهُ لا يهدى القومَ
الظالمين ﴾

(1) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (م فيها خالدون)

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام فى مواصلة سرائره ، ولا مَنْ اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه ، ولا من نُصِبَ بالباب من حيث الخدمة كمن مُكِّنَ من البِساط من حيث القربة[1]، وليس نعت مَنْ تَسكَّفَ نِفاقاً كوصفِ مَنْ تحقّقَ وِفاقاً ، بينهما بَوْن بعيدٌ !

قوله جل ذكره : ﴿الذين آمنوا وهاجَرُوا وجَاهَدُوا فى سبيل اللهِ بأموالِهم وأنفُسِهم أعظمُ دَرَجةً عِند الله وأولئك هم الفائِزون﴾

« آمنوا » أى شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ فى سماء يقينهم سحابُ رَيْبٍ ، ولا فى هواء[2] معارفهم ضبابُ شك .

« وهاجروا » : فلم يعرِّجُوا فى أوطان التفرقة ؛ فتَمَحَّضَت[3] حركاتُهم وسكناتهم بالله لله .

« وجاهدوا » : لا على ملاحظة غَرَضٍ أو مطالعة عِوَضٍ ؛ فلم يَدَّخِرُوا لأنفسِهم — مِنْ ميسورهم — شيئاً إلا آثروا الحقَّ عليه ؛ فظَفِروا بالنعمة ؛ فى قيامهم بالحقّ بعد فنائهم عن الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورِضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ * خالدين فيها أبداً إنَّ اللهَ عِندهُ أجرٌ عظيم﴾

---

(١) يتدرج الدخول عليه — حسبما نعرف من أسلوب القشيرى — من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم السدة .

(٢) وردت (هؤلاء) وقد صوبناها (هواء) لتلاثم (سماء) و (سحاب) و(ضباب) فضلا عن أنها أقرب فى الكتابة إليها .

(٣) تمحضت أى صارت خالصة لله

البشارة من الله تعالى على قسمين : بشارة بواسطة المَلَكِ ، عند التوفى :

« تَتَنَزَّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »(1) .

وبشارة بلا واسطة بقول المَلِك ، إذ يُبَشِّرهم ربهم برحمةٍ منه ، وذلك عند الحساب . يبشرهم بلا واسطة بِحُسْنِ التولّى ، فعاجِلُ بشارتهم بنعمة الله ، وآجِل بشارتهم برحمة الله ، وشتان ما هما !

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان ، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان ، فأصحاب الإحسانِ صَلُحَ أمرهم للشهرة فأظهَرَ أمرَهُم للمَلَكِ حتى بَشَّرهم جَهْراً ، وأهلُ العصيان صلح حالهم لِلسَتْرِ فتولَّى بشارتهم — مِنْ غيرِ واسطة — سِرّاً .

ويقال إنْ كانت للمطيع بِشارةٌ بالاختصاص فإنَّ للعاصى بشارة بالخلاص . وإن كان للمطيع بشارة بالدرجات فإن للعاصى بشارة بالنجاة .

ويقال إنَّ القلوبَ مجبولةٌ على محبة من يُبَشِّر بالخير ، فأراد الحقُّ — سبحانه — أن تكون محبةُ العبد له — سبحانه — على الخصوص ، فتولَّى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة ، فقال : يبشرهم ربهم برحمة منه » وفى معناه أنشدوا :

لولا تمتُّعُ مُقْلتى بلقائه لوَهَبْتُها بُشْرَى بقرب إيابه

ويقال بَشَّرَ العاصىَ بالرحمة ، والمطيعَ بالرضوان ، ثم الكافةَ بالجنة ، فقَدَّمَ العاصىَ فى الذكر ، وقدَّم المطيع بالبرِّ ، فالذِّكر قوْلُه وهو قديم والبِرُّ طَوْلُه وهو عميم . وقولُه الذى لم يَزَلْ أعزُّ مِنْ طوْلِه الذى حصَلَ . قَدَّم العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيفِ أَوْلى بالرِّفق من القوى .

ويقال (قدَّم أمر العاصى بالرحمة حتى إذا كان يومُ العَرْضِ وحضورِ الجمعِ لا يفتضح العاصى)(2) .

ويقال « يبشرهم ربُّهم برحمته » يُعَرِّفُهم أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تلك الدرجات

---

(1) آية ٣٠ سورة فصلت

(2) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامات المميزة ، ولنتأمل مقدار انفساح صدور الصوفية بالنسبة للعصاة ، وذلك نتيجة امتلاء قلوبهم بالأمل في المحبوب .

بسعيهم وطاعتهم ، ولكن برحمته — سبحانه — وصلوا إلى نعمته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامنكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمله . قالوا : ولا أنتَ يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

قوله : « لهم فيها نعيم مقيم » : قومٌ نعيمُهم عطاء ربِّهم على وصف التمام ، وقومٌ نعيمُهم لقاء ربهم على نعت الدوام ؛ فالعابدون لهم تمام عطائه ، والعارفون لهم دوام لقائه .

ثم قال : « خالدين فيها أبداً » والكناية فى قوله « فيها » كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة ، سيما وقد ذكر الأجر بعدها ؛ فكما لا يَقْطَعُ عطاءه عنهم فى الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا فى الجنة ، قال تعالى : « لا مقطوعة ولا ممنوعة »[2] أى لا مقطوعةٌ عنهم نعمتُه ، ولا ممنوعةٌ منهم رؤيتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إنِ استحبوا الكُفْرَ على الإيمان ومَن يَتَوَلَّهُم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾

مَنْ لم يَصْلُحْ بطاعته لربه لا تَسْتَخْلِصْهُ لصحبة نَفْسِك .

ويقال من آثر على الله شيئاً يُبَارِكْ له فيه ، فيَبْقى بذلك عن الله ، ثم لا يُبْقِي ذلك معه ، فإن استبقاه بجهده — كيف يستبقى حياته إذا أذِنَ الله فى ذهاب أَجَلِه ؟ وفى معناه أنشدوا :

مَنْ لم تَزُلْ نعمتُه قَبْلَهُ   زَالَ مع النعمة بالموتِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها ومساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ

---

(١) الشيخان عن عائشة مرفوعاً : سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا ...الخ

(٢) آية ٣٣ سورة الواقعة

إليكم مِنَ اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيله
فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه
واللهُ لا يهدِي القومَ الفاسقين ﴾

ليس هذا تخييراً لهم ، ولا إذناً في إيثارِ الحظوظِ على الحقوقِ ، ولكنه غاية التحذير والزَّجر عن إيثار شيء من الحظوظ على الدِّين ، ومرورُ الأيامِ حَكَمٌ عَدْلٌ يَكْشِفُ في العاقبة عن أسرار التقدير ، قال قائلهم :

سوف ترى إذا انجلى الغُبَارُ   أفَرَسٌ تحتك أم حمار ؟

ويقال علامةُ الصدقِ في التوحيد قطعُ العلاقات ، ومفارقةُ العادات ، وهجران المعهودات والاكتفاء بالله في دوام الحالات .

ويقال مَنْ كسَدَت سوقُ دِينِه كَسَدَتْ أسواقُ حظوظه ، ومالم تَخْلُ منك مَنَازِلُ الحظوظ لا تعمُرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ نصَرَكم اللهُ في مواطِنَ كثيرة ﴾

النصرة من الله تعالى في شهود القدرة ، والمنصورُ مَنْ عَصَمه اللهُ عزَّ وجلَّ عن التوهُّم والحسبان ، ولم يَكِلْه إلى تدبيره في الأمور ، وأثبته الحقُّ — سبحانه — في مقام الافتقار متبرياً عن الحَوْل والمُنَّة ، مُتَحَقِّقاً بشهود تصاريف القدرة ، يَأخُذُ الحقُّ — سبحانه — بيدِه فيخرجه عن مهواة تدبيره ، ويوقفه على وصف التصبُّر لقضاء تقديره .

قوله جل ذكره ﴿ ويومَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكم
فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقَتْ عليكم
الأرضُ بما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم
مُدْبِرِين ﴾ .

يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْنٍ حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب ، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهْر فاضطربت القلوبُ ، وخانت القوى أصحابَها ، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرَتُكم ، فاستخلص اللهُ أسرارَكم — عند صدق الرجوع إليه — بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ على

الأعداء ، وخَفقَتْ راياتُ النصرة ، ووقعت الدائرة على الكفار ، وارتدّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين .

قوله جل ذكره ﴿ ثمّ أنزل اللهُ سكينتَه على رسولِه وعلى
المؤمنين وأنزل جنوداً لم تَرَوْها
وعذّبَ الذين كفروا وذلك جزاء
الكافرين ﴾

--السكينةُ ثَلَجُ القلب عند جريان حُكْمِ الربِّ بنعت الطمأنينة ، وخمودُ آثار البشرية بالكلية ، والرضاء بالبادى من الغيب من غير معارضةِ اختيارٍ .

ويقال السكينة القرار على بساط الشهود بشواهد الصحو ، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة ، وبلا تحرُّكِ عِرْقٍ لمعارضةِ حُكْمٍ . والسكينة[1] المنزلةُ على « المؤمنين » خمودُهم تحت جريان ما وَرَدَ من الغَيْبِ من غير كراهةٍ بنوازع البشرية ، واختطافُ الحقِّ إياهم عنهم حتى لم تستفزهم رهبةٌ من مخلوق ؛ فَسَكَنَتْ عنهم كلُّ إرادةٍ واختيارٍ .

« وأنزل جنوداً لم تَرَوْها » من وفور اليقين وزوائد الاستبصار .

« وعذّبَ الذين كفروا » بالتطوح[2] فى متاهات التفرقة ، والسقوط فى وهدة[3] ضيق التدبير ، ومِحنَةِ الغَفْلةِ ، والغَيْبَةِ عن شهود التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يتوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذلكَ على مَن
يَشاءُ واللهُ غَفورٌ رحيم ﴾

ردهم من الجهل إلى حقائق العلم ، ثم نَقَلَهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين ، ثم رقّاهم عن تلك الجملة بما لقّاهم به من عين الجمع .

---

(١) وردت (والسكين) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (والتطوع) بالعين وهى خطأ فى النسخ .

(٣) جاءت الواو فوق فاء (فى) واكتملت بعدها خطأ : (هده) ، والصواب ان تأخذ الواو مكانها بعد (فى) وتصبح الكلمة (وهدة)

قوله جل ذكره ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ
فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد
عامِهِم هذا ﴾

فقدوا طهارة الأسرار بماء التوحيد ، فبقوا فى قذورات الظنون والأوهام ، فَمُنِعُوا قُرْبانَ المساجدِ التى هى مشاهدُ القرب . وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار ، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما يُبَيِّنُهُ مِنَ الأمرِ ويُمضِيه من الْحُكْمِ .

قوله جل ذكره ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فسوف يُغْنِيكم اللهُ مِن
فَضْلِهِ إن شاء إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾

تَوَقُّعُ الأرزاقِ من الأسبابِ من قضايا انغلاق باب التوحيد ، فَمَنْ لم يفْرِدْ معبودَه بالقسمة بَقِيَ فى فقرٍ سَرْمَدِيٍ .

ويقال مَنْ أناخَ بعُقْوةِ كَرَمِ مولاه ، واستمطر سحابَ جودِه أغناه عن كل سبب ، وكفاه كلَّ تَعَبٍ ، وقضى له كلَّ سُؤْلٍ وأَرَب ، وأعطاه من غير طلب .

قوله جل ذكره : ﴿ قاتِلوا الذين لا يؤمنون باللهِ ولا باليوم
الآخِرِ ولا يُحَرِّمون ما حرَّم اللهُ
ورسولُه ولا يَدِينُون دينَ الحقِّ مِنَ
الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعْطُوا
الجِزيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرون ﴾

مَن استوجب الهوانَ لا ينْجِيكَ مِنْ شَرِّه غير ما يستحقه من الإذلال على صغره ، ومَنْ دَاهَن عدوَّه فبالحرِيِّ أنْ يلقى سوءه .

ومِنْ أشدِّ الناس لكَ عداوة ، وأبعدِهم عن الإيمان ـ نَفْسُكَ المجبولةُ على الشرِّ فلا تقْلَعُ إلاَّ بذبحها بِمُدْيَةِ المجاهدات . وهى لا تؤمن بالتقدير ، ولا يزول شكها قط ، وكذلك تخلدُ إلى التدبير (١) ،

---

(١) أى تدبير الإنسان الناقص لتقدير الحق

ولا تسكن إلا بوجود المعلوم[1] ، ولا تقبل منك إلا كاذبَ المواعيد ، ولذلك قالوا

وأكذبِ النَّفسَ إذا حدَّثْتَها فإنَّ صِدْقَ القول يزرى بالأمل

قوله جل ذكره : ﴿ وقالَتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ،
وقالتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ،
ذلك قولُهم بأفواهِهِم ﴾

لو كان هذا فى تخاطب المخلوقين لكان عينَ الشكوى ؛ والشكوى إلى الأحباب تشير إلى تحقق الوصلة .

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم ، وكم بين مَنْ تشكو منه وبين مَنْ تشكو إليه ! !

قوله جل ذكره : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كفروا من
قبلُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكون ﴾

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية ، وهؤلاء أقروا بالله ، ثم لما أثبتوا له الوَلَدَ نقضوا ما أقروا به من التوحيد ، فصاروا كالكفار قَبْلَهم .

ويحتمل أن تكون مضاهاةُ قولهم فى وصف المعبود بأنَّ عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقولِ الكفار قَبْلَهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله .

ويقال لمَّا وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفَعْهُم صِدْقُهم فى الإقرار بربوبيته مما أضافوا إليه من سوء القالة . وكلُّ مَنْ أطلق فى وصفه ما يتقدَّسُ — سبحانه — عنه فهو للأعداء مُشَاكِلٌ فى استحقاق الندم والتوبيخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورُهْبانَهم أرباباً من
دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم وما أُمِرُوا
إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو
سبحانه عمَّا يُشْرِكون ﴾

---

(١) ربما كان المقصود بالمعلوم هنا ما يقع فى نطاق الحس ، وتقدير الحق غيبي لا يقع تحت حس الإنسان وعلم الإنسان .

كما لا تجوز مجاوزة الحد فى وَضع القدْرِ لا تجوز مجاوزة الحد فى رَفْع القَدْر ، وفى الخبر : « أُمِرْنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازِلَهم »

فَمَنْ رأى من المخلوقين شظيةً من الإبداع أنْزَلهم منزلةَ الأرباب ، وذلك — فى التحقيق — شِرْكٌ ، وما أخلص فى التوحيد مَنْ لم يرَ جميعَ الحادثات بصفاتها (. . . .)[1] من الله .

« وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » : فَمَنْ رفع فى عقده مخلوقاً فوق قَدْرِه فقد أشرك بربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُرِيدون أن يطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِم ويأبى اللهُ إلاَّ أن يُتِمَّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون ﴾

مَنْ رام أن يَسْتُرَ شُعَاعَ الشمسِ بِدُخَانٍ يوجهه من نيرانه ، أو عالج أنْ يمنع حكم السماء بحيلته وتدبيره ، أو يُسْقِطَ نجومَ الفَلَكِ بسهام قوسِه — أظهرُ رُعونتَه ثم لم يَحْظَ بمراده . كذلك مَنْ توهَّم أن سُنَّةَ التوحيد يعلوها وَهجُ الشُّبَه فقد خاب فى ظنِّه ، وافتضح فى وهمه .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أرسَل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَه على الدِّين كُلِّه ولو كَرِه المشركون ﴾

أزاحَ العِلَل بما ألاح من الحُجَج ، وأزال الشُّبَهَ بما أفصح من النهج ؛ فشموسُ الحقِّ طالِعةٌ ، وأدلة الشرع لامعة ، كما قالوا :

هى الشمسُ إلا أنَّ للشمسِ غيبةً وهذا الذى نعنيه ليس يَغيب

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرُّهبانِ لَيأْكُلُونَ أموالَ الناسِ بالباطِلِ ويَصُدُّونَ عن سبيل اللهِ ﴾

---

(١) مشتبهة .

العالِمُ إذا ارتفق بأموال الناس عِوَضاً عما يُعلِّمُهم زالَتْ بركاتُ عِلْمِه ، ولم يَطِبْ فى طريق الزهد مَطْعَمُه .

والعارِفُ إذا انتفع بخدمة المريد ، أو ارتفق بشىء من أحواله وأعماله زالت آثارُ هِمَّتِه ، ولم تُجْدِ فى حكْمِ التوحيد حالتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَكْنِزُون الذهبَ والفِضَّة
ولا يُنْفِقُونها فى سبيل اللهِ فَبَشِّرْهم
بعذابٍ أليم ﴾ .

لم فى الآجِل عقوبةٌ . والذين لا يؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم فى العاجل حجبة . وقليلٌ مِنْ عبادِه مَنْ سَلِمَ من الحجاب فى مُحْتَضَرِه والعقاب فى مُنْتَظَرِه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يُحْمَىٰ عليها فى نارِ جهنَّمَ
فَتُكْوَىٰ بها جِباهُهم وجُنُوبُهم
وظُهورُهم هذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم
فذوقوا ما كنتم تكنِزُون ﴾

لمَّا طلبوا الجاهَ عند الخَلْقِ بمالِهم ، وبَخِلُوا بإخراج حقِّ الله عنه شانَ وجوهَهم . ولمَّا أسندوا ظهورَهم إلى أموالهم . قال تعالى : « فتكوى بها جِباهُهم وجُنُوبُهم وظُهُورهم » .

ويقال : لمَّا (عبسوا) فى وجوه العفاة[2] وعقدوا حواجِبَهم وُضِعَتْ الكَيَّةُ على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء ، ولمَّا طَوَوْا كَشْحَهم دون الفقراء — إذا جالسوهم — وَضَعَ المِكواةَ على جُنُوبِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عند اللهِ اثنا

(١) محتضره أى حاضره وعاجله ، ومنتظره أى مستقبله وآجله .
(٢) العفاة م طالبو العطاء ومستحقوه

عَشَرَ شهراً فى كتابِ اللهِ يومَ
خَلَقَ السموَاتِ والأرضَ منها أربعةٌ
حُرُمٌ ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾

لمَّا عِلِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمَةِ القُرْبِ أفْرَدَ بعضَ الشهور بالتفضيل ، ليُخصُّوها باستكثار الطاعة فيها . فأمَّا الخواصُ مِنْ عبادِه فجميعُ الشهورِ لهم شعبانُ ورمضانُ ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة ، وجميع البقاع[1] لهم مسجد . . . . . وفى معناه أنشد بعضهم .

يا ربُّ إنَّ جهادى غيرُ مُنْقَطِعٍ   وكلُّ أرضٍ لى ثَغْرُ طرسوس

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تظلِموا فيهنَّ أنفُسَكم وقاتِلوا
المشركين كافةً كما يقاتلونَكم كافةً
واعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين ﴾

قال للعوام : لا تَظْلِموا فى بعض الشهور أنفُسَكُم ، يعنى بارتكاب الزَّلة . وأمَّا الخواص فمأمورون ألا يَظْلِمُوا فى جميع الشهور قلوبَهم باحتقاب الغفلة[2] .

ويقال : الظلم على النَّفْس أن يجعلَ العبدُ زمامَهَ بيد شهواته ، فتُورِدُه مَواطِنَ الهلاك .

ويقال : الظلم على النَّفْس بخدمة المخلوقين بَدَل طاعة الحقِّ .

ويقال : مَنْ ظَلَمَ على قلبه بالمضاجعات امتُحِنَ بِعَدمِ الصفوة فى مرور الأوقات .

« وقاتلوا المشركين كافة » : ولا سِلاحَ أمضى على العدوِّ من تَبَرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك .

---

(١) وردت (البقاء) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (العقد) والصواب أن تكون (الغفلة) ، فالغفلة للقلب والزلة للنفس

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما النّسىء[1] زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً ليواطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لهم سوء أعمالِهم واللهُ لا يهدى القومَ الكافرين ﴾ .

الدِّينُ ملاحظةُ الأمر ومجانَبةُ الوِزر وتركُ التقدم[2] بين يدى الله سبحانه — في جميع أحكام الشرع ، فالآجالُ فى الطاعاتِ مضروبة ، والتوفيقُ فى عرفانه متَّبع ، والصلاح فى الأمور بالإقامة على نعت العبودية ؛ فالشهرُ ما سمَّاه الله شهراً ، والعامُ والحوْلُ ما أعلَمَ الخلْقَ أنه قَدْرُ ما بَيَّنه شرعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا مالَكم إذا قيل لكم انفِرُوا فى سبيلِ اللهِ اثّاقَلْتم إلى الأرضِ أرَضيتُم بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخرة فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا فى الآخرةِ إلا قليلٌ ﴾ .

عاتَبهم على تَركِ البدار عند توجيه الأمر ، وانتهاز فُرْصَةِ الرُّخصَة .

وأمَرَهم بالجد فى العزم ، والقَصْدِ فى الفعل ؛ فالجنوحُ إلى التكاسل ، والاسترواحُ إلى التثاقل أماراتُ ضعفِ الإيمان إذ الايمان غريمٌ مُلازِمٌ لايرضى من العبد بغير ممارسة الأشقِّ ، وملابسة الأحَقِّ .

قولهُ « أرضيتم بالحياة الدنيا » : وهل يَجْمُل بالعابدِ أنْ يختارَ دنياه على عقْباه ؟ وهل يحسُن بالعارف أنْ يؤْثِرَ هواه على رضا مولاه ؟ وأنشدوا

(١) النسىء = تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، فقد كانوا إذا هل شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر

(٢) أى عدم استعجال شىء موقوت بامر الله وشرعه .. هذا ما نفهمه من السياق

أيجملُ بالأحبابِ ما قد فعلوا　　مضَوْا وانصرفوا ياليتهم قفلوا

إنَّ غيبةَ يومٍ للزاهد عن الباب تعْدِل شهوراً، وغيبةُ لحظةٍ للعارف عن البساط تعدل دهوراً، وأنشدوا:

الإلفُ لا يَصْبِرُ عن إلفِهِ　　أكْثَرَ من طرْفَةِ عَيْنِ

وقد صبَرْنا عَنكُمُ ساعةً　　ما هكذا فِعْلُ مُحِبيْنِ

قوله جل ذكره ﴿ إلاَّ تَنفِروا يُعَذِّبكم عذاباً أليماً ويستبدِلْ قوماً غيرَكُم ولا تضرُّوه شيئاً واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾.

العذابُ الأليمُ إذا أعرض العَبْدُ عن الطاعةِ ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما يردُّه إلى الباب.

العذابُ الأليمُ أنْ يَسْلُبَه حلاوةَ النَّجوى إذا آب.

العذابُ الأليمُ الصدودُ يومَ الورود، وقيل:

واعدونى بالوصالِ — والوصالُ عَذْبُ —　　ورَمَونى بالصُّدودِ والصدُّ صعبُ

العذابُ الأليمُ الوعيدُ بالفِراق، فأمَّا نَفْسُ الفِراق فهو تمامُ التَّلَفِ، وأنشدوا:

وزَعَمْتَ أنَّ البَيْنَ مِنْكَ غداً　　هَدَّدْ بذلك مَنْ يعيش غدا

قوله: «ويستبدل قوما غيركم» يصرف ما كان مِنْ إقباله عليه إلى غيره من أشكاله، وليس كلُّ مَنْ حفَرَ بئراً يشربُ مِنْ مَعينها، وأنشدوا:

تَسْقِي رَيَاحِينَ الحِفَاظِ مدامعى　　وسِوَاىَ فى رَوْضِ التواصلِ يرْتَع

قوله جل ذكره: ﴿ إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أَخْرَجَهُ الذين كفروا ثانِيَ اثنينِ إذْ هُماَ فى الغارِ إذ يقولُ لصاحبه لاتَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا ﴾.

مِنْ عزيزِ تلك النصرة أنه لم يستأنِسْ بثانيه الذى كان معه بل رد الصدِّيقَ إلى الله ، ونهاه عن مساكنته إياه ، فقالَ : ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟

قال تعالى : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

ويقال من تلك النصرة إبقاؤه إياه فى كشوفاته فى تلك الحالة ، ولولا نصرتُه لتلاشى تحت سطواتِ كَشْفِه.

ويقال كان — عليه السلام — أَمانَ أهل الأرض على الحقيقة ، قال تعالى :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »[1] ، وجعله — فى الظاهر — فى أمان العنكبوت حين نَسَجَ خَيْطَه على باب الغار فَخَلَّصَه من كيدهم .

ويقال لو دخل هذا الغار لا نشقَّ نسيج العنكبوت . . فياعجباً كيف سَتَرَ قصةَ حبيبه — صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ؟!

ويقال صحيحٌ ماقالوا : للبقاع دول ، فما خَطَرَ ببالِ أحدٍ أنَّ تلك الغار تصير مأوى ذلك السيِّد — صلى الله عليه وسلم ! ولكنه يختص بقسمته ما يشاء كما يختص برحمته من يشاء .

ويقال ليست الغيران[2] كلها مأوى الحيَّاتِ ، فمنها ما هو مأوى الأحباب . ويقال علقت قلوب قومٍ بالعرش فطلبوا الحق منه ، وهو تعالى يقول :

« إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » فهو سبحانه — وإن تقدَّس عن كل مكان — ولكن فى هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد ، وأنشدوا :

ياطالبَ الله فى العرشِ الرفيعِ به لا تطلب العرشَ إن المجد فى الغار

وفى الآية دليل على تحقيق صحبة الصدِّيق — رضى الله عنه — حيث سمَّاه الله سبحانه صاحبَه ، وعدَّه ثانيه ، فى الايمان ثانيه ، وفى الغار ثانيه ثم فى القبر ضجيعه ، وفى الجنة يكون رفيقه .

(١) آية ٣٣ سورة الأنفال
(٢) الغار يجمع على أغوار وغيران

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عليه ﴾

الكناية فى الهاء من « عليه » تعود إلى الرسول عليه السلام ، ويحتمل أن تكون عائدةً إلى الصديق رضى الله عنه ، فإن حُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الانفراد ، فقد قال عز وجلّ لجميع المؤمنين : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين »[1] .

وقال للصدِّيق — على التخصيص — فأنزل الله سكينته عليه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلّى للناس عامة ويتجلَّى لأبى بكر خاصة »[2].

وإنما كان حزنُ الصديقِ ذلك اليوم لأجل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إشفاقاً عليه . . لا لأجلِ نَفْسِهِ . ثم إنه — عليه السلام — نفى حزنه وسلاّه بأن قال: «لا تحزن إن الله معنا» ، وحُزْنٌ لايذهب إلا لِتَحِيَّةِ الحقِّ لايكون إلاّ « لحقِّ الحق »[3].

قوله جل ذكره : ﴿ وأيَّده بجنودٍ لم تَرَوْها وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى وكلمةُ اللهِ هى العليا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾

يريد به النبى صلى الله عليه وسلم . وتلك الجنودُ وفودُ زوائد اليقين على أسراره بتجلِّى المكشوفات .

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » بإظهار حُجج دينه ، وتمهيد سُبُل حقِّه ويقينه ؛ فراياتُ الحقِّ إلى الأبدِ عالية ، وتمويهات الباطل واهية ، وحِزْبُ الحقِّ منصورون ، ووفد الباطل مقهورون .

---

(١) آية ٤ سورة الفتح

(٢) يتأيد كلام القشيرى عن خصوصية أبى بكر بنزول السكينة على قلبه بما يروى عن يوم بدر ، فحينما قال النبى عليه السلام « اللهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض من بعد ذلك » قال له أبو بكر : دع عنك مناشدتك ربك فإنه والله منجز لك ما وعدك وهو قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب [مسلم والترمذى عن ابن عباس عن عمر]

(٣) لأنه ليس حزناً مرتبطاً بحظ من حظوظ النفس ولكنه لحق الحق

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام فى الغار ، وأشرقت على سِرِّه أنوار صحبة الرسول عليه السلام ، ووقع عليه شعاعُ أنواره ، واشتاق إلى الله تعالى لفقْدِ قراره — أزال عنه لواعِجَه بما أخبره مِنْ قُرْبه — سبحانه — فاستبدل بالقلق سكوناً ، وبالشوق أُنساً ، وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة .

ويقال كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثانى اثنين فى الظاهر بشبهه[1] ولكن كان مُسْتَهلَكَ الشاهد فى الواحِدِ بِسِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ انفِروا خِفَافاً وثِقالاً وجاهِدوا
بأموالِكم وأنفُسِكم فى سبيل اللهِ
ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾

أمرهم بالقيام بحقه ، والبدار إلى أداء أمره فى جميع أحوالهم .

« خفافا » يعنى فى حال حضور قلوبكم ، فلا يمسكم نَصَبُ المجاهدات .

« وثقالا » إذا رُدِدْتُم إليكم فى مقاساة تعب المكابدات . فإنَّ البيعةَ أُخِذَتْ عليكم فى (. . .)[2] و (. . .)[3] .

ويقال « خفافا » إذا تحررتم من رِقِّ المطالبات والاختيار ، « وثقالا » إذا كان على قلوبكم ثقل الحاجات ، وأنتم تؤمِّلون قضاء الحقِّ مآرِبَكم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً
لاتَّبعوك ولكن بَعُدَتْ عليهم
الشُّقَّةُ وسيحلِفون باللهِ لو استطعنا
لخَرَجْنا معكم يُهْلِكون أنفُسَهم
والله يَعْلَمُ إنَّهم لكاذِبون ﴾

---

(١) (بشبهه)هنا معناها بإنسان مثله ، أى كان أُنسه — فى الظاهر بصاحبه ، وعلى الحقيقة كان أُنسُه بالله .

(٢) ، (٣) لفظتان مشتبهتان ، وربما كانتا بمعنى (حضوركم وغيبتكم) أو (قربكم وبعدكم) أو نحو ذلك .. فهكذا نفهم من السياق .

يريد به المتخلفين عنه فى غزوة « تبوك » ، بيَّنَ سبحانه أنه لو كانت المسافةُ قريبةً ، والأمرُ هيِّناً لَمَا تخلَّفُوا عنك ؛ لأنَّ مَنْ كان غيرَ متحقِّقٍ فى قَصْدِه كان غيرَ بالغٍ فى جهده ، يعيش على حَرْفٍ ، ويتصرَّف بحرف ، فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه . وقال تعالى : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لـكان خيراً لهم »[1] .

فإذا رأيتَ المريدَ يتَّبِعُ الرُّخَصَ ويَجْنَحُ إلى الكسل ، ويتعلَّلُ بالتأويلاتِ . . فاعلَمْ أنه مُنْصَرِفٌ عن الطريق ، متخلِّفٌ عن السلوك ، وأنشدوا :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصالَ وقال : كان وكانا

ومَنْ جَدَّ فى الطلب لم يُعَرِّج فى أوطان الفشل ، ويواصل السير والسُّرى ، ولا يحتشم من مقاساة الـكدِّ والعناء ، وأنشدوا :

ثم قطعتُ الليلَ فى مهمةٍ لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبنى شوق فأطوى السُّرى ولم يَزَلْ ذو الشوقِ مغلوبا

قوله : « وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلـكون أنفسهم » : يمينُ المتعلِّلِ والمُتأوِّلِ يمينٌ فاجرةٌ تشهد بكذبها عيون الفراسة ، وتنفر منها القلوب ، فلا تجد من القلوب محلاًّ .

قوله جل ذكره : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لهم حتى يَتَبَيَّنَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الـكاذبين ﴾

لم يكن منه صلى الله عليه وسلم خرقُ حَدٍّ أو تعاطى محظورٍ ، وإنما (نذر)[2] منه ترك ما هو الأَوْلى . قدَّم الله ذِكْرَ العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب بقوله : « لِمَ أذنت لهم » .

أو مِنْ جواز الزَّلة على الأنبياء — عليهم السلام — إذ لم يكن ذلك فى تبليغ أمر

---

(١) آية ٢١ سورة محمد

(٢) هكذا فى (ص) وربما كانت (بدر) فى الأصل أى صدر عنه أما (نذر) فتفيد (قل) منه ترك ما هو الأولى ، وكلاهما لا يرفضه السياق .

أو تمهيد شرع (بقول قائله أنشدوا بالعفو قبل أن وقف للعـذر)[1] وكذا سُنّةُ الأحباب مع الأحباب ، قال قائلهم :

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندى ولا ضَرَّك مُغتابُ
كأنهم أثنَوْا — ولم يعلموا — عليكَ عنـدى بالذى عابوا

ويقال حسناتُ الأعداء — وإن كانت حسنات — فـكالمردودة ، وسيئات الأحباب — وإن كانت سيئات — فـكالمغفورة :

مَنْ ذا يؤاخذُ مَنْ يحبُّ بِذَنْبِهِ وله شفيعٌ فى الفؤاد مُشَفَّع

قوله جل ذكره : ﴿ لا يستأذِنُكَ الذين يؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يجاهدوا بأموالِهِم وأنفسِهِم واللهُ عليمٌ بالمتقين ﴾

المخلصُ فى عقده غيرُ مؤْثِرٍ شيئاً على أمره ، ولا يدَّخر مستطاعاً فى استفراغ وُسْعِه ، وبَذْلِ جُهْدِه ، ومقاساة كَـدِّه ، واستعمال جِدِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يستأذنك الذين لا يؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ وارتابَتْ قلوبُهم فَهُمْ فى رَيْبِهِم يترددون ﴾

مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلُّف فرصةً لِعَدَمِ إيمانه وتصديقه ، ولاستمكان الريبة من قلبه وسِرِّه . أولئك الذين يتقلبون فى ريبهم ، ويترددون فى شكِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أرادوا الخروجَ لأعَدُّوا له عُدَّةً ﴾

أى لو صدقوا فى الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولـكن سَقِمَتْ إرادتُهم ، فحصلت دون الخروج بَلادَتُهم ، وكذلك قيل :

لو صحَّ منكَ الهوى أُرْشِدْتَ للحِيَـلِ

(١) ما بين القوسين مثبت كما فى (ص) وفيه اضطراب ناشىء عن النسخ ، وربما كان شاهداً شعرياً معناه : (جاد بالعفو قبل الوقوف على العذر) .

قوله جل ذكره: ﴿ولكِن كَرِهَ اللهُ انبعاثَهم فَثَبَّطَهم
وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾

ألزَمَهم الخروجَ من حيث التكليف، ولكن ثبَّتهم فى بيوتهم بالخذلان؛ فبالإلزام دعاهم، وبأمر التكوين أقصاهم.

قوله جل ذكره: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً
ولأَوْضعوا خِلالَكم يَبْغُونكم
الفتنةَ، وفيكم سَمَّاعون لَهُمْ، واللهُ
عليمٌ بالظالمين﴾

أخبر عن سابق علمه بهم، وذكر ما علم أنه لا يكون أنْ لو كان كيف يكون؛ فقال: ولو ساعدوكم فى الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم فى الفتنة بينكم، والنميمة فيكم، والسعى فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلُّفِهم من نقصان عددكم. ومَنْ ضررُه أكثرُ من نفعِه فعَدَمُهُ خيرٌ مِنْ وجودِه، ومَنْ لا يحصل منه شىء غيرُ شرورِه فتخَلُّفُه أنفَعُ مِنْ حضوره.

قوله جل ذكره: ﴿لقد ابتغَوا الفتنةَ مِن قَبلُ وقَلَّبوا
لكَ الأمورَ حتى جاء الحقُّ وظهر
أمرُ اللهِ وهم كارِهون﴾

إنهم وإنْ أظهروا وِفاقَكم فقد استبطنوا نِفاقكم؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيْدِهِم تشويشَ أمورِكم، حتى كَشَفَ اللهُ عوراتِهم، وفَضَحَهم، حتى تَحَذَّرْتُم منهم بما تحققتم من أسرارهم.

قوله جل ذكره: ﴿ومنهم مَّن يقول ائذَنْ لِّى ولا تَفْتِنِّى
ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنَّم
لَمُحِيطة بالكافرين﴾

أبرزوا قبيحَ فِعالِهم فى مَعْرِض التخرج ، وراموا أنْ يُلَبِّسُوا على الرسول — صلى الله وسلم وعلى آله — وعلى المسلمين خُبث[1] سيرتِهم وسريرتِهم ، فَبَيَّنَ الله أنَّ الذين (...)[2] بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم ، وكذلك المتجلِّدُ بما يهواه متطوحٌ فى وادى بلواه ، وسَيَلْقَى فى الآخرة من الهوان ما يُغْنِي عن الحاجة إلى البرهان .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهم وإن تُصِبْك مصيبةٌ يقولوا قد أخَذْنا أمْرَنا مِن قَبْلُ ويتولَّوْا وهم فَرِحون ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى ، ولا يَسُرُّ قلبَه غيرُ حلولِ البلوى ، ولادواء لجروح الحسود ، فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا :

كلُّ العداوةِ قد تُرْجَى إماتَتُها   إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حَسَدِ

وإن اللهَ تعالى عَجَّلَ عقوبةَ الحاسد ، وذلك : حزنُ قلبِه بسلامة محسوده ؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد[3] .

قولهُ جل ذكره : ﴿ قُل لن يُصِيبَنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا هو مولانا وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾

المؤمِن لا تلحقهُ شماتةُ عدوِّه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليِّه ، فهو يتحقق أنَّ ما يناله مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبِه ما يهواه ، ويستقبله بروْح رضاه فيَعْذُبُ عنده ما كان يَصْعُبُ مِنْ بلواه ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ كان سَرَّكُم ما قال حاسدُنا   فما لجُرْحٍ — إذا أرْضاكُم — ألَمُ

---

(١) وردت (حيث) وهى خطأ فى النسخ

(٢) مشتبهة .

(٣) أى جزاء معجل فى هذه الدنيا ، فعند القشيرى اصطلاحان : نقد (هنا فى الدنيا) ، ووعد (في الآخرة) والسياق يؤدى إلى أن الجزاء بن نقد .

ويقال شهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تعبَ كلِّ عسير .

قوله : « هو مولانا » : تعريفٌ للعبد أن له — سبحانه — أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ فى مُلْكِه ، فهو يُبْدِى ويُجْرِى ما يريد بحقِّ حُكْمِه .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم نسيانُ أمورِك بما يَغْلِبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكل سكونُ السرِّ عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها يتساوى الحلوُ والمرُّ ، والنعمةُ والمحنةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

بيَّنَ اللهُ فى هذه الآية الفرقَ بين المؤمنين وبين الكفار ، فقال قُلْ للذين ينتظرون : أيها الكفار (إن كان[1]) من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم فى القتال ، أو أنَّ القَتْلَ ينالهُم فأيُّ واحدٍ من الأمْرَيْن ينالهم فهو لهم من الله نعمة ، لأنَّا إنْ ظَفِرْنا بكم فَنَصْرٌ وغنيمة ، وعِزٌّ للدِّين ورفعة ، وإنْ قُتِلْنا فشهادةٌ ورحمة ، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى . وإنْ كان الذى يصيبنا فى الدنيا هزيمةٌ ونكبةٌ ، فذلك مُوجِبٌ للأجْرِ والمثوبة ، فإذاً لن يستقبِلَنا إلا ماهو حُسْنَى ونعمة .

وأمَّا أنتم ، فإنْ ظَفِرْناَ بكم فتعجيلُ لذُلِّكم ومحنة ، وإن قُتِلْتُم فعقوبةٌ من اللهِ وسخطة ، وإن كانت اليد لكم فى الحال فخذلانٌ من اللهِ ، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نقمة .

ويقال « هل تربصون بنا إلا إحدى الحُسْنَيين » إمَّا قيامٌ بحقِّ الله فى الحال فنكون بوصف الرضاء وهو — فى التحقيق — الجنةُ الكبرى ، وإمَّا وصولٌ إلى الله تعالى فى المآل بوصف الشهادة ، ووجدان الزلفى فى العقبى وهى الكرامة العظمى .

---

(١) سقطت (إن كان) والمعنى يتطلبها

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أنفِقُوا طوْعاً أو كَرْهاً
لَّن يُتَقَبَّلَ منكم إنَّكم كنتم قوماً
فاسقين ﴾

المردودُ لا يُقبلُ منه توسُّل[1] ، ولا يُغيِّرُ حكمُ شقاوته بتكثير التكلُّف والتعمل .

ويقال تقرُّبُ العدوِّ يوجِبُ زيادةَ المقت له ، وتحبُّبُ الحبيب يقتضى زيادةَ العطف عليه ، قال تعالى : « فأولئك يُبَدِّل اللهُ سيئاتهم حسناتٍ . »[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وما منَعَهم أن تُقْبَلَ منهم نَفَقَاتُهم
إلا أنهم كفروا بالله وبرسولِه
ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسَالَى
ولا يُنفِقُونَ إلا وهم كارهون ﴾ .

فقدوا الإخلاصَ فى أموالهم فعدموا الاختصاص فى أحوالهم ، وحُرِموا الخلاصَ فى عاجلهم وفى مآلهم .

قوله : « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » : مَنْ أطَاعَ من حيث العادة — مِنْ غيْرِ أن تحملَه عليها لوعةُ الإرادة — لم يجِدْ لطاعته راحةً وزيادة .

ويقال مَنْ لاحظَ الخَلْقَ فى الجهر من أعماله ، ورَكَنَ إلى الكسلِ فى السِّرِّ من أحواله فقد وُسِمَ بالخذلان ، وخُتِمَ بالحرمان ، وهذه هى أمارة الفرقة والقطيعة ، قال تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .[3]

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ ولا أولادُهم
إنَّما يريد اللهُ ليُعَذِّبَهم بها فى
الحياة الدنيا وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم
كافرون ﴾ .

---

(1) لا نستبعد أنها تكون (توسل) بدليل ما بعدها ، والمراد يحتمل كليهما .
(2) آية ٧٠ سورة الفرقان .
(3) آية ٥٤ سورة آل عمران

بَيَّنَ أن ما حسبوه نعمة واعتقدوه من الله مِنَّةٌ فهو — فى التحقيق — مِحْنَةٌ ، وسببُ شقاء وفُرْقة ، وإنما دَسَّ التقديرُ لهم سُمومَ الصَّابِ ، فيما استلذوه من الشرابِ ؛ « أيحسبون أن ما نُمِدُّهُمْ به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَحْلِفُون باللهِ إنَّهُمْ لَمِنـكُمْ وما هم مِنـكُمْ ولـكنَّهم قومٌ يَفْرَقُون ﴾ .

التَّقَرُّبُ بالأيمانِ الفاجرةِ لا يوجِبُ للقلوب إلا بُعْداً عن القَبول .

ويقال إنَّ إظهارَ التلبيس لا (. . .)[2] الأسرارَ بَرْدُ السكون ، ولا يَشْفِي البصائر بَرْدُ الثقة واليقين . . فما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ أبداً ، وما هو كائنٌ سيكون .

قوله جل ذكره : ﴿ لو يَجِدُون مَلْجَأً أو مَغَارَات أو مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إليه وهم يجمحون ﴾.

إن المَاذِقَ[3] فى الخُلَّة ينسلُّ عن سِلْكِها بأضعف خَلَّة ، وإنْ وَجَدَ مهرباً آوَى إليه ، ويأمل أن ينال فرصةً ما يتعلَّلُ بها عند ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يَلْمِزُكَ فى الصدقاتِ فإن أُعْطُوا منها رَضُوا وإن لَّم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون ﴾ .

أولئك أصحابُ الأطماع ، يتملقون فى الظاهر ما دامت الأرفاقُ واصلةً إليهم ، فإن انقطَعَتْ انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة .

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب ، وسُخْطُه فى عدم ما يوصِّله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء ، إنما هو قائمٌ بحظِّه ، غيرُ صالحٍ للصحبة ، وأمَّا المتحقِّقُ فكما قيل :

فَسِرْتُ إليكَ فى طلبِ المعالى ... وسَارَ سِوَايَ فى طلب المعاشِ

قوله جل ذكره : ﴿ولو أنَّهم رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسولُه

(١) آية ٥٦ سورة المؤمنون (٢) مشتبهة .

(٣) مذق فلان فى الود أى لم يخلص ، والمذاق الكذوب الملول . والمقصود أن من لم يخلص فى مودته ينفصل بأضعف صفة ولأقل شىء .

وقالوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينا اللهُ من
فضلِه ورسولُه إنَّا إلى اللهِ راغبون﴾ .

لو وقفوا مع الله بِسِرِّ الرضا لأَتَتْهُم فنونُ العطاء وتحقيقات المنى ، ولحفظوا مع الله — عند الوجدان[1] — مالهم من الأدب ، من غير معاناة تَعبٍ ، ولا مُقاساة نَصَبٍ .. ولكنَّهم عَرَّجوا فى أوطانِ الطمعِ فوقعوا فى الذُّلِّ والحَرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ
والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهم وفى
الرقابِ ﴾ [2]

تكلَّم الفقهاء فى صفةِ الفقيرِ ، والفرقِ بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه فى قسمة الزكاة المفروضة . . فأبو حنيفة رحمة الله عليه — يقول : المسكينُ الذى لاشىء له . والفقيرُ الذى له بُلْغَةٌ من العيش .

ويقول الشافعى رحمة الله عليه : الفقير الذى لا شىء له ، والمسكين الذى له بُلْغَةٌ من العيش — أى بالعكس .

وأهل المعرفة اختلفوا فيه ؛ فمنهم من قال بالأول ، ومنهم من قال بالقول الثانى ، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء ؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه . فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أَوْلى ، قالوا إن الله تعالى جعل ذلك مِلْكا للفقير ، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه .

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام ، ورأوا الإيثار على الإخوان أَوْلى من أن يزاحموا أرباب السهمان — مع احتياجهم أخذ الزكاة — وقالوا : نحن آثرنا الفقْرَ اختياراً . فَلِمَ نأخذ الزكاة المفروضة ؟

---

(1) أى عند وجود النعمة

(2) نلفت النظر إلى أهمية موقف القشيرى عند استخراج إشارات من هذه الآية الكريمة ، فقد كانت فرصة جيدة لكى يقارن بين نظرة الفقهاء ونظرة الصوفية

ثم على مقتضى أصولهم فى الجملة — لا في أخذ الزكاة — للفقر مراتب :

أوّلها الحاجةُ ثم الفقرُ ثم المسكنةُ ؛ فذو الحاجة مَنْ يرضى بدنياه وتسدُّ الدنيا فقرَه ، والفقير مَنْ يكتفى بعقباه وتَجبُرُ الجنةُ فقرُه ، والمسكين مَنْ لا يرضى بغير مولاه ؛ لا إلى الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بغير مولاه يكتفى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين »[1] وقال صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر » لأن عليه بقية[2] ؛ فهو ببقيته محجوبٌ عن ربّه .

ويحسن أن يقال إن الفقر الذى استعاذ منه ألا يكون له منه شيء ، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلْغَةٌ ليتفرَّغ بوجود تلك البلغة إلى العبادة ؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شَغَلَه فَقْرُه عن أداء حقّه ، ولذلك استعاذ منه .

وقوم سَمَتْ هِمَمُهم عن هذا الاعتبار — وهذا أَوْلى بأصولهم — فالفقير الصادق عندهم مَنْ لا سماء تُظِله ولا أرضَ تُقِلُّه ولا معلومَ يشغله ، فهو عبدٌ بالله لله ، يردُّه إلى التمييز فى أوان العبودية ، وفى غير هذا الوقت فهو مُصطلَمٌ عن شواهده ، واقفٌ بربّه ، مُنْشَقٌّ عن جملته .

ويقال الفَقِيرُ من كُسِرَتْ فقاره — هذا فى العربية .

والفقير — عندهم[3] — مَنْ سَقَطَ اختياره ، وتعطلت عنه دياره ، واندرست — لاستيلاء مَنْ اصطَلَمَه — آثارُه ، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخبارُه ، وأنشدوا :

أمّا الرسومُ فَخَبَّرتْ أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذى أسكنه حالُه بباب مقصوده ، لا يبرح عن سُدَّته ، فهو مُعْتَكِفٌ بقلبه ، لا يغفل لحظةً عن ربِّه .

---

(١) الترمذى ، وابن ماجة عن أبي سعيد الخدرى والحاكم وقال صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانى بسند رجاله ثقات عن عبادة بن الصامت .

(٢) التفت السهروردى إلى ذلك حين ميز بين الفقير والصوفى فقال إن الفقير يتطلع إلى الأعواض ، أما الصوفى فيترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته ، والفقير له إرادة فى اختيار فقره ، أما الصوفى فلا إرادة بنفسه ولكن فيما يوقفه الحق (عوارف المعارف ص ٤٢) .

(٣) أى عند أرباب الأحوال .

وأمّا « العاملون عليها » فعلى لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة .

وعلى لسان الإشارة : أَوْلَى الناس بالتصاون عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ فى أعماله لله ، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عِوَضاً ، ولا يتطلبون فى مقابلة أحوالهم عَرَضاً ، وأنشدوا :

وما أنا بالباغى على الحب رِشْوَةً قبيحٌ هوىً يُرجَى عليه ثواب[1]

وأمّا المؤلَّفةُ قلوبهم — على لسان العلم — فمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه ، ليتوفّر فى الدين نشاطُه ، فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم ، وبيان ذلك مشهورٌ فى مسائل الفقه .

وحاشا أن يكون فى القوم[2] مَنْ يكون حضورُه بسبب طَمَعٍ أو لنَيْلِ ثوابٍ أو لرؤية مقام أو لاطلاع حال . . فذلك فى صفة العوام ، فأما الخواص فكما قالوا .

من لم يكن بك فانياً عن حظه وعن الهوى والإنْسِ والأحباب
أو تيمته صبابة جمعت له ما كان مفترقاً من الأسباب
فلأنَّه بين المراتب واقفٌ لِمَنَالِ حظٍّ أو لحُسْنِ مآبِ[3]

قوله جل ذكره : ﴿ وفى الرِّقاب ﴾

وهم على لسان العلم : المكاتَبُون ، وشرحه فى مسائل الفقه معلوم .

وهؤلاء[4] لا يتحررون ولهم تعريج على سبب ، أو لهم فى الدنيا والعقبى أرب ، فهم لا يستفزُّهم طلب ، فمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقى عليه درهم » ، وأنشد بعضهم :

أتمنى على الزمان مُحَالاً أنْ ترى مقلتاى طَلْعَةَ حُرِّ

قوله جل ذكره : ﴿ والغارمين ﴾

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دَيْنٌ فى غير معصية .

---

(١) البيت للمتنبى من بائيته التى أولها : منى كن لى أن البياض خضاب
(٢) القوم هنا مقصود بها أرباب الأحوال .
(٣) الأبيات لأبى على الروزبارى (اللمع ص ٤٣٥)
(٤) وهؤلاء هنا مقصود بها أيضا ارباب الأحوال .

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق[1] ، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقْضَى دَيْنُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وفى سبيل الله ﴾

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيلَ الله وَجبَ له فى الزكاة سهمٌ على ما جاء بيانُه فى مسائل الفقه .

وفى هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيلَ الله تتوجَّبُ عليه المطالبات ؛ فيبذل أولاً مالَه ثم جاهَهَ ثم نَفْسه ثم روحَه . . وهذه أول قَدَمٍ فى الطريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وابن السبيل ﴾

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع فى الغُربة ، وفارَقَ وطنَه على أوصاف مخصوصة .

وعند القوم: إذا تَغَرَّبَ العبدُ عن مألوفاتِ أوطانه فهو فى قِرَى[2] الحقِّ ؛ فالجوعُ طعامُه ، والخلوةُ مجلسُه ، والمحبةُ شرابُه ، والأُنْسُ شهودُه ، والحقُّ — تعالى — مشهودُه . قال تعالى : « وسقاهم ربُّهم شرابا طهوراً »[3] : لقومٍ وَعْدٌ فى الجنة ، ولآخرين نَقْدٌ فى الوقت ؛ اليومَ شرابُ المحابِّ وغداً شراب الثواب ، وفى معناه أنشدوا :

وَمُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا ... وأعمى سقيناه ثلاثاً فأَبْصَرَا
وأخرسَ لم ينطِقْ ثلاثين حِجَّةً ... أَدَرْنا عليه الكأسَ يوماً فأخبرا

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنْهم الذين يُؤْذُون النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ ﴾

عين العداوة بالمساوىء موكَّلة ، وعين الرضا عن المعايب كليلة .

بسطوا اللائمة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعابوه بما هو أمارة كرمه ، ودلالة فضله ،

---

(١) أى أن دينهم ليس يقضى أبداً إذ أمرهم بيد مالكهم .
(٢) القرى = الضيافة والإكرام .
(٣) آية ٢١ سورة الإنسان

فقالوا : إنه يحسن خُلُقه يسمع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمن غِرٌّ كريم والمنافق خَبٌّ لئيم »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم يؤمنُ باللهِ
ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا
منكم والذين يُؤْذُونَ رسولَ اللهِ
لهم عذابٌ أليم ﴾

وقيل : مَنْ العاقلُ ؟ قالوا : الفَطِنُ المُتَغافِل . وفى معناه أنشدوا :

وإذا الكريمُ أتيْتَه بخديعةٍ ولقيتَه فيما ترومُ يُسارِعُ
فاعلمْ بأنَّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً إنَّ الكريمَ ـ بفضله ـ يتخادع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْلِفُونَ باللهِ لكم لِيُرْضُوكم واللهُ
ورسولُه أحقُّ أن يُرْضُوه إن كانوا
مؤمنين ﴾

أخبر أنَّ من تزيَّن للخَلْق ، وتقرَّب إليهم وأدامَ رضاهم ، واتَّبعَ فى ذلك هواهم ، فإن اللهَ سبحانه يُسْقِط به عن الخَلْق جاهَهُم ، ويُشينُهم فيما توهَّموا أنه يزينهم ، والذى لا يَضيعُ ما كان لله ، فأمَّا ما كان لغير الله فوَبَالٌ لِمَنْ أصابه ، ومُحالٌ ما طَلَبه .

ويقال إنَّ الخَلْق لا يصدقونك وإنْ حَلَفْت لهم ، والحقُّ يَقْبَلُكَ وإنْ تخلَّفْتَ عنه ؛ فالاشتغالُ بالخَلْقِ محنةٌ أنت غيرُ مأجورٍ عليها ، والإقبالُ على الحقِّ نعمةٌ أنت مشكورٌ عليها . والمغبونُ مَنْ تَرَكَ ما يُشْكَرُ عليه ويُؤْثِر ما لا يؤجَرُ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّه مَن يُحَادِدِ اللهَ
ورسولَه فأنَّ له نارَ جَهَنَّمَ خالداً فيها
ذلك الخِزْيُ العظيم ﴾

---

(1) فى رواية الترمذى والحاكم عن أبى هريرة « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » (والخَبُّ = المَخادِع) وفى الحديث : « لا يدخل الجنة خب ولا خائن »

مَنْ كَفَرَ بالله وأشرك فى توحيده بإثباتِ موهومٍ استحق ما هو حقٌّ لله : تعجَّلُ عقوبته فى الحال بالفُرقة ، وفى المآلِ بالخلود فى الحرقة .

فليس كلُّ مَنْ مُني[1] بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة ، وأنشدوا :

غداً يتفرَّقُ أهلُ الهوى ويكثُر باكٍ ومُسْتَرْجِع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْذَرُ المنافِقون أن تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهم بما فى قلوبهم ، قُلِ اسْتَهْزِئوا إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون ﴾

ظنُّوا أنَّ الحقَّ — سبحانه — لا يفضحهم ، فدلَّسُوا عليكم ، وأنكروا ما انطوت عليه سرائرهم ، فأرخى[2] اللهُ — سبحانه — عنانَ إمهالهم ، ثم هتك الستر عن نفاقهم ؛ ففضحهم عند أهل التحقيق ، فتقنعوا بخِمار الخجل ، وكشف لأهل التحقيق مكامنَ الاعتبار . ونعوذ بالله من عقوبة أهل الاغترار : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئِن سألتَهم ليقولُنَّ إنما كُنَّا نخوضُ ونلعبُ قُلْ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ .

مَنْ استهانَ بالدِّين ، ولم يحتشِمْ مِنْ تركِ حُرْمةِ الإسلام جعله الله فى الحال نكالاً ، وسامَه فى الآخرة صِغَراً وإذلالا ، والحقُّ — سبحانه — لا يرضى دون أن يذيق العُتَاةَ بأسَه ، ويَسْقِيَ كُلّاً — على ما يستوجبه — كأسَه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تعتذِروا قد كفَرْتُم بعد إيمانِكم

---

(1) وردت (مبنى) وهى خطأ فى النسخ وربما كانت (مسته)
(2) وردت (فأرضى) وهى خطأ فى النسخ .
(3) آية ٥٤ سورة آل عمران .

إن نَعْفُ عن طائفةٍ منكم نُعذِّب
طائفةً بأنهم كانوا مجرمين ﴾[1] .

جرَّدَ العفوَ والعذابَ من عِلَّة الجُرْمِ ، وسببَ الفِعْل مِنْ حُجَّة العبد ؛ حيث أحالَ الأمر على المشيئة . . إذ لو كان للموجِبُ لعفوه أو تعذيبه صفةَ العبد لَسَوَّى بينهم عند تساويهم في الوصف ، فلمَّا اشتركوا في الكفر بعد الإيمان ، وعفا عن بعضهم وعذَّب بعضهم دَلَّ على أنه يفعل ما يشاء ، ويختصُّ من يشاء بما يشاء[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم مِّن
بعضٍ يأمرون بالمُنكَرِ وينْهَوْنَ
عنِ المعروفِ ﴾ .

المؤمنُ بالمؤمنِ يتقوَّى ، والمنافقُ بالمنافق يتعاضد ، وطيور السماء على ألَّافها تقعُ . فالمنافقُ لصاحبه أُسٌّ[3] به قوامه ، وأصلٌ به قيامه ؛ يُعِينُه على فساده ، ويُعمِّي عليه طريقَ رشادِه .

والمؤمنُ ينصر المؤمنَ ويُبَصِّرُه عيوبَه ، ويُبَغِّضُ لديه ويُقَبِّحُ — في عينه — ذنوبَه ، وهو على السدادِ يُنْجِدُه ، وعن الفسادِ يُبْعِده .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقبضون أيديَهم ﴾ .

عن طلب الحوائج من الله تعالى

قوله جل ذكره : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم ﴾ .

جازاهم على نسيانهم ، فسمَّى جزاء النسيانِ نسياناً . . تركوا طاعتَه ، وآثروا مخالفتَه ، فتركَهم وما اختاروه لأنفسهم ، قال تعالى : « وتَرَكَهم في ظُلماتٍ لا يبصرون » .

(1) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (بأنهم كانوا مجرمون) .
(2) هذه لفتة هامة تشير إلى المذهب الكلامي عند القشيري فيما يتصل بوجوب الإثابة أو العقوبة على الله وعدم وجوبهما .
(3) الأس بفتح الألف وضمها وكسرها : أصل البناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ
والكفارَ نارَ جهنمَ خالدين فيها
هى حَسْبُهُم ، ولَعَنَهُم اللهُ ولهم
عذابٌ مُقيم ﴾ .

وَعدَهم النارَ فى الآخرة ، ولهم العذابُ المقيمُ فى الحاضرة ، فمؤجَّلُ عذابِهم الحُرقةُ ، ومُعجَّلُه الفُرقةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ كالذين مِن قبلِكم كانوا أشَدَّ
منكم قوةً وأكثرَ أموالاً وأولاداً
فاستمتعوا بِخَلاقِهم ، فاستمتعْتُم
بخلاقِكم كما استمتع الذين مِن
قبلِكم بخلاقهم ، وخُضتُم كالذى
خاضوا ، أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم
فى الدنيا والآخرةِ وأولئك هم
الخاسرون ﴾ .

يقال : سلكتم طريقَ مَنْ قبلَكم من الكفار وأهل النفاق وقد كافأناهم . ويقال الذين تقدموكم زادوا عليكم فكافأناهم كما نكافىء أهل الشقاق والنفاق ؛ فى كثرة المدَّةِ وقوةِ العُدَّةِ ، والاستمتاع فى الدنيا ، والاغترار بالانخراط فى سِلْك الهوى . . ولكن لم تدُمْ فى الراحة مُدَّتُهم ، ولم تُغْنِ عنهم يومَ الشِدَّةِ عُدَّتُهم ، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُم ما لَحِقَ بالذين هم قبلكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يأتِهم نبأُ الذين مِن قَبْلِهم قومِ
نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ ابرهيم
وأصحابِ مدين والمؤتفكات أتَتْهم
رُسُلُهم بالبيناتِ فما كان اللهُ

لِيَظْلِمَهم ولـكن كانوا أنفُسَهم
يَظْلِمُون ﴾ ..

ألم يَنْتَهِ إليهم خبرُ القرون الماضية ، ونبأُ الأمم الخاليـة كيف دَمَّرْنا عليهم جَمْعَهُم ، وكيف بَدَّدْنا شملَهم ؟ قضَيْناً فيهم بالعَدْل ، وحَكَمْناً باستئصالِ الـكُلِّ ، فلم يَبْقَ منهم نافخُ نار ، ولم يحصلوا إلاَّ على عارٍ وشنار .

قوله جل ذكره : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياء
بعض يأمرون بالمعروفِ وينهَوْن
عنِ المُنكرِ ويقيمون الصلاةَ
ويُؤْتُون الزكاةَ ويطيعون اللهَ
ورسولَه أولئك سيرحمهم اللهُ إنَّ
اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾

يُعين[1] بعضُهم بعضاً على الطاعات ، ويتواصَوْن بينهم بترك المحظورات ؛ فتحابُّهم في الله ، وقيامُهم بحقِّ الله ، وصحبتُهم لله ، وعداوتُهم لأجلِ الله ؛ تركوا حظوظَهم لحقِّ الله ؛ وآثروا على هواهم رِضاء الله . أولئك الذين عَصَمَهم اللهُ في الحالِ ، وسيرحمهم في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ
جناتٍ تجرى من تحتِها الأنهارُ
خالدين فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ
عَدْن ورضوانٌ منَ الله أكبر ذلك
هوالفوزُ العظيمُ ﴾

وَعَدَهُم جميعاً الجنةَ ، ومساكنَ طيبة ، ولا يطيب المَسْكَنُ إلا برؤيةِ المحبوب ، وكلُّ مُحِبٍ يطيب مَسْكَنُهُ برؤية محبوبه ، ولـكنهم مختلفون في الهمم ؛ فَمِنْ مربوطٍ بحظٍّ مردودٍ إلى الخلْقِ ، ومِنْ مجذوب بحقٍّ موصول بالحق ، وفي الجملة الأمر كما يقال :

---

(1) وردت (يعنى) وهى خطأ فى النسخ .

أجيرانَنا ما أوحشَ الدارَ بعدَكُم ... إذا غِبْتُمُ عنها ونحن حضورُ !

ويقال قومٌ يطيب مسكنُهم بوجودِ عطائِهِ ، وقومٌ يطيب مسكنُهم بشهود لقائه ، وأنشدوا :

وإنّى لأهْوَى الدارَ لا يستقرُّ لى ... بها الودُّ إلا أنَّها من دِيارِكا

ثم قال : « ورضوانٌ من الله أكبر » : وأمارةُ أهلِ الرضوانِ وجدانُ طَعْمِهِ ؛ فهم فى روْحِ الأُنْسِ ، وروْحُ الأُنْسِ لا يتقاصر عن راحة دار القُدْسِ بل هو أتمُّ وأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبىُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾

دعا نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — كافةَ الخلقِ إلى حُسْنِ الخُلُق .

قال لموسى عليه السلام : « فقولا له قولاً لَيِّناً »[1] .

وقال لنبينا — صلى الله عليه وسلم — : « واغلُظْ عليهم »[2] ويقال إنما قال هذا بعد إظهار الحجج ، وبعد ما أزاح عُذْرَهُم بأيام المهلة ؛ ففى الأول أمرَه بالرِّفق حيث قال : « إنما أعظكم بواحدة »[3] ، فلما أصروا واستكبروا أمَرَه بالغلظة عليهم . والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان ، وإيضاح الحجج والبيان ، ثم إنْ حَصَلَ من العدوِّ جُحْدٌ بعد إزاحة العذر ، فبالوعيد والزجر ، ثم إنْ لم ينجعْ الكلامُ ولم ينفع الملامُ فالقتالُ والحربُ وبَذْلُ الوسعِ فى الجهاد .

قوله جل ذكره : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمةَ الكُفر ، وكفروا بعد إسلامهم ﴾

---

(1) آية ٤٤ سورة طه .
(2) آية ٩ سورة التحريم .
(3) آية ٤٦ سورة سبأ .

تستّروا بأيمانهم فهتك اللهُ أستارهم وكشف أسرارهم .

قوله : « ولقد قالوا كلمة الكفر » : وهى طعنهم فى نبوة رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم . وكلُّ مَنْ وصفَ المعبودَ بصفات الخلق أو أضاف إلى الخلق ما هو من خصائص نعت الحقّ فقد قال كلمة الكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَمُّوا بما لم ينالوا وما نقموا
إلاّ أن أغناهم اللهُ ورسولُه
من فضلِه ﴾

أى أظهروا من شعار الكفر ما دَلَّ على جُحْدِهم بقلوبهم بعد ما كانوا يُظْهِرون الموافقة والاستسلامَ ، وهمُّوا بما لم ينالوا من قتلٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سوّلت أنفسهم أنه يُخْرِج الأعزُّ منها الأذلَّ ، وغير ذلك .

يقال تمنوا زوالَ دولةِ الإسلام فأبى اللهُ إلا إعلاء أمْرِها .

ثم قال : « وما نقموا إلا أنْ أغناهم الله ورسوله » : أى ما عابوه إلا بما هو أجلّ خصاله ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكافة بما لا عذر لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن يتوبوا يَكُ خيراً لهم وإن
يتولَّوا يُعذّبْهم اللهُ عذاباً أليماً
فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرضِ
مِن وليٍّ ولا نصير ﴾

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقدة الإصرار عن القلب ، ثم القيام بجميع حقّ الأمر على وجه الاستقصاء .

قوله جل ذكره ﴿ ومنهم مَّنْ عاهَدَ اللهَ لئن آتانا من
فضلِه لنَصَّدَّقَنَّ ولنكونَنَّ مِنَ
الصالحين * فلمّا آتاهم مِّن فضلِه
بَخِلُوا به وتولَّوا وهم مُّعْرِضون ﴾

منهم مَنْ أكّدَ العَقْدَ مع الله ، ثم نَقضَه ، فَلَحِقَه شُؤمُ ذلك ، فبقى خالداً فى نِفاقِه .

ويقال تطلَّبَ إحسانَ ربِّه ، وتقرَّبَ إليه بإبرام عهده فلمَّا حقَّقَ اللهُ مسئولَه واستجاب مأمولَه ، فَسَخَ ما أبرمه ، وانسلخ عما التزمه ، واستولى عليه البُخْلُ ، فضَنَّ بإخراج حقه ، فَلَحِقَه شؤمُ نِفاقِه ، بأن بَقِيَ إلى الأبد فى أسْرِه .

وحدُّ البخل — على لسان العلم — مَنْعُ الواجب . وبُخْلُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، وكلُّ مَنْ آثر شيئاً من دون رضاه ربِّه فقد اتصف ببخله ، فَمَنْ يَبْخَلْ بماله تَزُلْ عنه البركةُ حتى يئول إلى وارثٍ أو يزول بحارث . ومَنْ يبخلْ بنَفْسِه ويتقاعس عن طاعته تفارقه الصحةُ حتى لا يستمتع بحياته . والذى يبخل بروحه عنه يُعاقَبُ بالخذلان حتى تكون حياتُه سبباً لشقائه .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ فأعْقَبَهُم نِفَاقاً فى قلوبهم إلى يومِ يلقَوْنَه بما أخلفوا اللهَ ما وَعَدُوه وبما كانوا يَكْذِبون ﴾

أعقبهم ببخلهم نفاقاً فى قلوبهم ، ويصحُّ أعقبهم الله نفاقاً فى قلوبهم ، وفى الجملة : مَنْ نَقَضَ عهده فى نفسه رفض الودَّ من أصله ، وكلُّ من أظهر فى الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق بقسطه . والمنافق فى الصف الأخير فى دنياه ، وفى الدَّرْكِ الأسفل من النار فى عقباه .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَمْ يعلموا أنَّ اللهَ يعلمُ سِرَّهم ونجواهم وأنَّ اللهَ عَلَّامُ الغيوب ﴾

خوَّفهم بعلمه كما خوَّفهم بفعله فى أكثر من موضعٍ من كتابه .

و « سِرُّهم » مالا يطلع عليه غيرُ الله .

و « نجواهم » ما يتسارُّون بعضهم مع بعض . ويحتمل أن يكونَ ما لنفوسهم عليه إشرافٌ من خواطرهم[1]

(1) يقول القشيرى فى رسالته فى معنى « السر » هو محل المشاهدة كما ان الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف . وقالوا السر مالك عليه إشراف ، وسر السر مالا اطلاع عليه لغير الحق .
(الرسالة ص ٤٨)

قوله جل ذكره : ﴿الذين يَلمِزُون المُطَّوِّعينَ مِنَ المؤمنين
فى الصدقاتِ والذين لا يجدون
إلا جُهْدَهم فَيَسْخَرون منهم سَخِرَ
اللهُ منهم ولهم عذابٌ أليم﴾

عابوا الذين قَصُرَتْ أيديهم عن الإكثار فى الصدَقة وجادوا بما وصَلَتْ إليه أيديهم ، فَشَكَرَ اللهُ سَعْىَ مَنْ أخلصَ فى صدقته بعدما عَلِمَ صدْقَه فيها . وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ مِنْ كثيرِ أهلِ النفاقِ .

ولمَّا أوجدوا[1] المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللهُ — سبحانه وتعالى — نفسَه بما يستحيل فى وصفه — على التحقيق — وهو السخرية بأحدٍ . تطبيباً لقلوبِ أوليائه ، فقد تقدَّس عن ذلك لعِزَّة ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ استَغْفِرْ لهم أوْ لا تَسْتَغفرْ لهم إن
تَسْتَغْفِرْ لهم سبعين مرةً فَلَن يغفِرَ
اللهُ لهم ذلك بأنَّهم كَفَروا باللهِ
ورسولِه واللهُ لا يهدى القومَ
الفاسقين﴾

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشِركِ والنفاق ، فلا تنفعهم الوسائل ، ولا ينتعش منهم الساقط .

ويقال مَنْ غَلَبَتْه شِقْوتُنا لم ينفعه (تضرعه)[2] ودعوته .

ويقال صريعُ القدرة لا يُنْعِشُه الجهد والحيلة .

---

(١) (أوجدوا) أى سببوا لهم حفيظة وألماً .

(٢) وردت (تضر) بعدها عين مغلقة وهاء ساقطة وقد أكملناها (تضرعه) لملاءمتها للسياق ، ولانسجامها مع (دعوته) بمعنى دعائه واستغفاره لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُون بِمَقْعَدِهِم خِلافَ
رسولِ اللهِ وكَرِهوا أن يجاهدوا
بأموالهم وأنفسِهم فى سبيل الله وقالوا
لا تنفرُوا فى الحرِّ قُلْ نارُ جهنَّمَ
أشدُّ حَرًّا لو كانوا يفقهون ﴾

استحوذ عليهم سرورُهم بتخلفهم ، ولم يعلموا أن ثبورَهم فى تأخرهم وما آثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج فى صحبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فنزع الله الراحةَ بما عاقبَهم ، وسَيَصْلَوْنَ سعيراً فى الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم ، وسوف يتحسرُون ولاتَ حينَ تحسُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قليلاً وَلْيَبْكُوا
كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبُون ﴾

بَدَّل الله مَسَرَّتَهم بحَسْرةٍ ، وفَرْحَتَهم بتَرْحَةٍ ، وراحتهم بِعَبْرَةٍ ، حتى يكثر بكاؤهم فى العُقبى كما كثر ضحكُهم فى الدنيا ، وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن رَّجَعَكَ اللهُ إلى طائفةٍ منهم
فاستأذنوك للخروج فَقُل لَّن تَخْرُجوا
معى أبداً ولَن تُقَاتِلوا معى عَدُوًّا
إنَّكم رَضِيتُم بالقعودِ أوَّلَ مرةٍ
فاقعدوا مع الخالفين ﴾

يقول : بعدما ظهرت خيانَتُهم ، وتقرر كذبهم ونفاقهم ، لا تَنْخَدِعْ بتملقهم ، ولا تَثِقْ بقولهم ، ولا تُمَكِّنْهم منْ صُحبتك فيما يُظْهِرونه منْ وفاقك[1] . فإذا وَهَنَ سِلْكُ العهدِ فلا يحْتَمِلُ بَعْدَه الشدَّ ، وإذا اتسع الخرْقُ لا ينفع بَعْدَه الرَّقْعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مَاتَ أبداً

(١) سقطت الواو من (وفاقك) .

ولا تَقُمْ على قَبرِه إنَّهم كفروا باللهِ
ورسولِه ، وماتوا وهم فاسِقون ﴾[1]

ليس بعد التَّبرِّى التولى ، ولا بعدَ الفراق الوفاق ، ولا بعد الحجبة قربة . مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساغ ، أو لظنِّهم تحقيق ، ولـكن سَبَقَ لهم القضاء بالشقاوة ، و نعوذ بالله مِنْ سوء الخاتمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم
إنَّما يُرِيدُ اللهُ أن يُعَذِّبَهم بها فى الدنيا
وتَزْهَقَ أنفُسُهُم وهم كافِرون ﴾

يقول لا تحسبنَّ تمكينَ أهل النِّفاق مِنْ تنفيذ مرادهم ، وتـكثيرَ أموالهم إسداء معروفٍ منَّا إليهم ، أو إسباغَ إنعامٍ مِنْ لَدُنَّا عليهم ، إنما ذلك مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، وإمهالٌ لا إهمال . وسيلقون غِبَّه[2] عن قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أنْ آمِنوا
بالله وجاهِدوا مع رسولِه استأذَنَكَ
أُولُوا الطَّوْلِ منهم وقالوا ذَرْنَا نَـكن
مَّع القاعدين ﴾

إذا تَوَجَّه عليهم الأمرُ بالجهاد ، واشتدَّ عليهم حكمُ الإلزام ، تعلَّلوا إلى السَّعةِ[3] ، وركنوا إلى اختيار الدَّعةَ واحتالوا فى موجِباتِ التَّخَلُّفِ ، أولئك الذين خَصَّهم[4] بخذلانه ، وصرَّفَ قلوبهم عن ابتغاء رضوانه .

---

(١) وقع الناسخ فى خطأ حين نقل الآية إذ كتب بعد (ورسوله) : (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .
وقد صوبنا حسب الآية (٨٤) .
(٢) وردت (غيبه) بالياء وهى خطأ فى النسخ ، والصواب (غبه) أى عاقبته .
(٣) أى إلى نفس وسعهم ومكنتهم .
(٤) اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ فظن الـكلمة (خصتهم) بالتاء وهى غير ملائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالِفِ
وطُبِعَ على قلوبهم فهم لايفقهون ﴾

بَعُدُوا عن بِساط العِبادة فاستطابوا الدّعة ، ورضوا بالتعريج فى منازل الفرقة ، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بِصِدقِ النَّدم لقَابَلَهُم بالفضل والكرم ، ولكنْ القضاءغالِبٌ ، والتكلفَ ساقطٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لكنِ الرسولُ والذين آمنوا معه
جاَهَدوا بأموالهم وأنفُسِهم وأولئك
لهم الخيراتُ وأولئك همُ المُفْلِحُون ﴾

ليس مَنْ أقْبَلَ كمَنْ أعرض وصُدّ[1] ، ولا مَنْ قُبِلَ أمْرُه كمَنْ رُدَّ ، ولا من وحَّدَ كمن جَحَدَ ، ولا من عَبَدَ كمن عَنَدَ ، ولا مَنْ أتَى كمن أبَى . . . فلا جَرَمَ رَبِحَتْ تِجارَتُهم ، وجَلَتْ رُتْبَتُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أعَدَّ الله لهم جناتٍ تجرى مِن تحتها
الأنهارُ خالدين فيها ذلك الفوزُ
العظيم ﴾

تشير الآية إلى أن راحاتِهم موعودة ، وإنْ كانت الأتعاب[2] فى الحال موجودةً مشهودة .

ويقال صادِقُ يقينهم بالثوابِ يُهوِّن عليهم مقاساةَ مايلقونه — فى الوقت — من الأتعاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَاء المُعَذِّرون مِنَ الأعْرابِ
لِيُؤْذَنَ لهم وَقعَدَ الذين كَذَبُوا الله

(١) وردت (سد) بالسين والصواب (صد) لتلائم أعرض .
(٢) اشتبهت على الناسخ فظنها (الألقاب) والصواب الأتعاب لتقابل (راحاتهم) ، ثم إنها تكررت فيها بعد قليل .

ورسولَه سيُصيبُ الذين كفروا منهم
عذابٌ أليم ﴾

وهم أصحاب الأعذار — فى قول أهل التفسير — طلبوا الإذنَ فى التأخر عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تبوك فسقط عنهم اللَّوْمُ .

أما الذين تأخروا بغير عُذْرٍ فقد توجَّه عليهم اللوم ، وهو لهم فى المستقبل الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الضُّعفاءِ ولا على المرضىٰ
ولا على الذين لا يَجِدُونَ ما يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إذا نصحوا للهِ ورسولِه ماعلى
المُحْسِنين من سـبيلٍ واللهُ غفورٌ
رحيم ﴾

قيمةُ الفقرِ تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن فى القلة خيرٌ إلا هذا لـكفى لها بهذا فضيلة ؛ بقوا فى أوطانهم ولم يتوجَّه عليهم بالجهادِ أمرٌ ، ولا بمفارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب ، واعتقادِ أنْ لو قدروا لخرجوا .

وأصحابُ الأموال امتُحِنوا — اليومَ — بِجَمْعِها ثم بحِفظِها ، ثم مَلَّكتْهُم محنتُها حتى شقَّتْ عليهم الغيبةُ عنها ، ثم توجَّه اللومُ عليهم فى تَرْكِ إنفاقها ، ثم ما يعقبه — غداً — من الحسابِ والعذاب يربو على الجميع .

وإنَّما رفع الحرَجَ عن أولئك[1] بشرطٍ وهو قوله : « إذا نصحوا لله ورسوله » فإذا لم يوجد هذا الشرطُ فالحرجُ غيرُ مرتفعٍ عنهم .

قوله : « ماعلى المحسنين من سـبيل » : المُحْسِنُ الذى لا تـكون للشرع منه مطالبة لا فى حقِّ الله ولا فى حقِّ الخلق[2] .

(١) فى النسخة (هؤلاء) وقد آثرنا أن نضع (أولئك) ليصرف الكلام إلى الطائفة الأولى أى الضعفاء والمرضى وأصحاب العذر .

(٢) لأنه قد استوفى جميع المطالبات ولم يتبق عليه شىء .

ويقال هو الذى يعلم أنَّ الحادثاتِ كلَّها من الله تعالى .

ويقال هو الذى يقوم بحقوقِ ما نيط به أمْرُه ؛ فلو كان طيرٌ فى حكه وقصَّرَ فى علَفِه لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لتَحْمِلَهم
قُلْتَ لا أجِدُ ما أحْمِلُكم عليه تَوَلَّوا
وَّأعينُهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ حَزَناً
ألا يَجِدُوا ما يُنفِقُون﴾

مَنَعَهم الفقرُ عن الحَرَاك فالتمسوا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يحملهم معه ويهيئْ أسبابَهم ، ولم يكن فى الحال للرسول عليه السلام سَعَةٌ ليوافقَ سؤْلَهم ، وفى حالة ضيق صدره — صلى الله عليه وسلم — حَلَفَ إنه لا يَحْمِلُهم ، ثم رآهم صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا فى ذلك ، فقال عليه السلام : إنما يحملكم الله .

فلمَّا ردَّهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الإجابة فى أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » كما قال قائلهم :

قال لى مَنْ أُحِبُّ والبَيْن قد حَلَّ ودمعى مرافِقٌ لشهيق
ماترى فى الطريقِ تصنع بعدى ؟ قلتُ : أبكى عليك طول الطريق

قوله : « حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — بسببهم شُغْلٌ فتَمَنَّوْا أن لو أُزِيحَ هذا الشغلُ ، لا ميلاً إلى الدنيا ولكن لئلا تعودَ إلى قلبه — عليه السلام — مِنْ قِبَلِهم كراهةٌ ، ولهذا قيل :

مَنْ عفَّ خَفَّ على الصديق لِقاؤه وأخو الحوائج مُمْجِجُ مَمْلولُ

ثم إنَّ الحقَّ — سبحانه — لمَّا عَلِمَ ذلك منهم ، وتمحضت قلوبُهم للتعلُّق بالله ، وخَلَتْ عقائدُهم عن مُساكنةِ مخلوقٍ تَدَارَكَ اللهُ أحوالَهم ؛ فأمر اللهُ رسولَه عليه السلام أنْ يَحْمِلَهم . . بذلك جَرَتْ سُنَّتُه ، فقال : « وهو الذى يُنَزِّلُ الغيثَ مِنْ بعدما قنطوا » (١)

(١) آية ٢٨ سورة الشورى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما السبيلُ على الذين يَسْتَأْذِنُونك وهم أغنياءُ ﴾

يريد السبيل بالعقوبة والملامة على الذين يتأخرون عنك فى الخروج إلى الجهادِ ولهم الأُهبة والمُكْنَة ، وتساعدهم على الخروج الاستطاعةُ والقدرةُ ، فإذا استأذنوك للخروج وأظهروا[1] لم يَصْدُقوا ، فهم مُسْتَوجِبُون للنكير عليهم ، لأنَّ مَنْ صَدَقَ فى الولاء لا يحتشم من مقاساةِ العناء ، والذى هو فى الولاءِ مماذِقٌ وللصِّدقِ مفَارِقٌ يتعلَّلُ بما لا أصل له ، لأنه حُرِمَ الخلوصَ فيما هو أهْلٌ له ، وكذا قيل :

إنَّ الملولَ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوِصَالَ وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بأَنْ يكونوا مع الخوالِفِ ﴾

قيل فى التفسير : مع النساء فى البيوت .

والإسلام يثنى على الشجاعة ، وفى الخبر : إن الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل حية ، وفى معناه أنشدوا .

كُتِبَ القتلُ والقتالُ[2] علينـا وعلى المُحْصَنَاتِ جرُّ الذّيولِ

ومَنْ استوطن مركبَ الكسلِ ، واكتسى لِباسَ الفَشَلِ ، ورَكَنَ إلى مخاريق الحِيَل حُرِمَ استحقاقَ القُربة . ومَنْ أراد اللهُ — تعالى — هَوَانَه ، وأذاقه خِذْلانَه ، فليس له عن حكم الله مناصٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إليكم إذا رَجَعْتُمْ إليهم قُل لّا تعتذروا لَن نُّؤْمِنَ لكم قد نَبَّأنا اللهُ مِنْ أخبارِكم وسيرى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه ثُمَّ تُرَدُّون إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾

(١) ربما سقطت هنا « العذر » فهى مطلوبة للسياق .
(٢) وردت (القتل والقتل) والصواب (القتل والقتال) .

أراد إذا تقوّلوا بما هم فيه كاذبون، وضلوا عما كانوا فى تخلفهم به يتصيفون — فأخبروهم أنا عرّفنا اللهُ كذبكم فيما تقولون، واتضحت لنا أفضاحكم، وتميّز — بما أظهره الله لنا — سيئكم وصالحكم، فإنّ الله تعالى لا يخفى عليه شىء من أحوالكم، وستلقون غِبّ أعمالكم فى آجلكم[1].

قوله جل ذكره: ﴿سَيَحْلِفون باللهِ لكم إذا انقلبتم إليهم لِتُعْرِضُوا عنهم فأعْرِضوا عنهم إنَّهم رِجْسٌ ومأواهم جهنمُ جزاءً بما كانوا يَكْسِبُون﴾

يريد أنهم فى حَلِفِهم باللهِ لكم أن يدفع السوء مِنْ قِبَلِكم، وليس قصدهم بذلك خلوصاً فى اعتذارهم، ولا ندامةً على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لِتُعْرِضُوا عنهم ... فأعْرِضوا عنهم؛ فإنّ ذلك ليس بمُنْجيهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فإنّ اللهَ يُمْهِلُ العاصىَ حتى يتوهَّمَ أنه قد تجاوَزَ عنه، وما ذلك إلا مَكْرٌ عُومِل به، فإذا أذاقه ما يستوجِبُه عَلِمَ أن الأمرَ بخلاف ما ظنه، وما ينفع ظاهرٌ مغبوطٌ، والحال — فى الحقيقة — يأسٌ من الرحمة وقنوطٌ، وفى معناه قالوا:

وقد حسدونى فى قُرْبِ دارى مِنْهُمُ وكم مِن قريبِ الدارِ وهو بعيدُ!

قوله جل ذكره: ﴿يحلفون لكم لترضَوْا عنهم فإن تَرْضَوْا عنهم فإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القومِ الفاسقين﴾

من كان مسخوطَ الحقِّ لا ينفعه أن يكون مرضىَّ الخَلْقِ، وليست العِبْرَةُ بقولِ غيرِ اللهِ إنَّما المدارُ على ما سَبَقَ من السعادة فى حُكْمِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿الأعرابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأجدَرُ ألا يَعْلَموا حُدُودَ ما أنزل اللهُ على رسولِه واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾

---

(1) وردت (غب أعمالكم فى أعمالكم) والصواب (فى آجلكم) لأن الآية تشير لذلك.

جُبِلَتْ قلوبُهم على القسوةِ فلم تَقْرَعْها هواجِمُ الصفوة ، وكانوا عن أشكالهم فى الخِلْقةِ مستأخرين بما (...)[1] من سوء الخُلُق ؛ فَهُمْ مِنَ استبانةِ الحقائق أبعد ، ومن استيجاب الهوان أقرب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِن الأعرابِ مَن يتّخِذُ ما يُنفِقُ
مَغْرَماً ويتربَّصُ بِكمُ الدوائرَ ،
عليهم دائرةُ السَّوْءِ واللهُ سميعٌ
عليمٌ ﴾

خَبُثَت عقائدُهم فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول المِحن بهم ، فأبى اللهُ إلا أن يَحيقَ بهم مكرُهم ، ولهذا قيل فى المثل : إذا حَفَرْتَ لأخيك فَوَسِّعْ فربما يكون ذلك مقيلَك !

ويقال مَنْ نَظَرَ إلى ورائه يُوَفَّقْ فى كثيرٍ من تدبيره ورأيه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الأعرابِ مَن يؤمنُ باللهِ
واليوم الآخرِ ويتّخِذُ ما يُنفِقُ
قُرُباتٍ عند اللهِ وصلواتِ الرسولِ
ألاَ إنّها قُرْبَةٌ لهم سيُدْخِلُهم اللهُ
فى رحمتِه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

تَنَوَّعوا ؛ فمنهم مَنْ غَشَّ ولم يربح ، ومنهم مَنْ نَصَحَ فلم يَخْسِرْ ، فأمّا الذين مذقوا فهم فى مهواةِ هوانِهم ، وأما الذين صَدَقُوا ففى رَوْحِ إحسانِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والسّابقون الأوّلون من المهاجرين
والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ
رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه وأَعَدَّ

---

(١) مشتبهة .

لهم جناتٍ تجرى تحتَها الأنهارُ
خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ
العظيم ﴾

السابقون مختلفون ؛ فمنْ سابقٍ بصدقِ قدَمِه ، ومنْ سابقٍ بصدقِ همَمِه .

ويقال السابقُ مَنْ ساعدَتْه القسمةُ بالتوفيق ، وأسعدَتْه القضية بالتحقيق ، فسبقت له من الله رحمتُه .

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .

ويقال جَمَعَ الرِّضاُ صَفَّيْهم : السابقَ منهم واللاحقَ بهم ؛ قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . رَضِى الله عنهم ورضوا عنه » .

ويقال ليس اللاحقُ كالسابق ، فالسابقُ فى رَوْحِ الطلبِ ، واللاحِقُ فى مقاساةِ التعبِ ، ومُعاناةِ النَّصَبِ ، وأنشدوا :

السِّباقَ السِّباقَ قولاً وفعلاً حذِّروا النَّفسَ حسْرَةَ المسبوقِ

ويقال رِضاهُم عن اللهِ قضيةُ رضاء الله عنهم ؛ فلولا أنه رَضِىَ عنهم فى آزالِه . . . متى وصلوا إلى رضاهم عنه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وممَّنْ حَوْلَكم مِنَ الأعرابِ
منافِقُون ومنْ أهل المدينة مَرَدُوا
على النفاقِ ، لا تعلمهم ، نحن
نعلمهم ، سَنُعَذِّبُهم مرتين ، ثُمَّ
يُرَدُّون إلى عذابٍ عظيم ﴾

تشاكل المخلِصُ والمنافِقُ فى الصورة فلم يَتَمَيَّزا بالمبانى ، وإن تنافيا فى الحقائق والمعانى . تقاصر عِلْمُهم عن العرفان فهتَكَ الله لنبيِّه أستارَهم . فعرَّفَهم ، وهم بإشرافه عليهم جاهلون ، وعلى الإقامة فى أوطان نفاقهم مصروفون ، فلم ينفعهم طولُ إمهاله لهم .

« سنعذبهم مرتين » : الأولى فى الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض ، ولا يحصل لهم عليها فى الآخرة عِوَضٌ ولا أجْرٌ ولا مَسَرَّةٌ ، والثانية عذابُ القبر .

وقيل المرة الأولى بِقَبْضِ أرواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمْتحنون بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى ظنُّهم أنهم على شىء ، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآخَرُون اعترفوا بذنوبهم خَلَطُوا
عَمَلاً صالحاً وآخَرَ سَيِّئاً عسى اللهُ
أن يتوبَ عليهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

إن اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم . والإقرارُ توكيدُ الحقوق فيما بين الخَلْق فى مشاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله — سبحانه — يوجِبُ إسقاط الجُرْم فى مقتضى سُنَّة كَرَم الحقِّ — سبحانه ، وفى معناه أنشدوا :

قيل لى : قد أساء فيكَ فلانٌ وسكوتُ الفتى على الضيم عارُ
قلتُ : قد جاءنى فأحْسَنَ عُذرا دِيَةُ الذَّنبِ عندنا الاعتذار

« خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » : فنى قوله « وآخر سيئاً » بعد قوله « صالحاً » دليلٌ على أن الزَّلَّةَ لا تحبِطُ ثوابَ الطاعةِ ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً .

وكذلك قوله : « عسى الله أنْ يتوب عليهم » : وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شىء فقد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . . فإذا أخبر أنَّه يجيبُ فإنه يفعل ، فيجب منه لا يجب عليه[1].

ويقال قوله : « خلطوا عَمَلاً صالحاً » : يحتمل معناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة عملٌ صالح . وقوله : « وآخر سيئاً » : يحتمل أنه نَقْضُهم التوبة ، فتكون الإشارة فى قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » أنهم إن نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زَلَّتهم فواجبٌ مِنَّا أن

---

(١) واضح حرص القشيرى على مقاومة المعتزلة فيما يتصل بنفى اى وجوب على الله فقد جلت الصمدية عن ذلك ، وإن كان يرى أنه يجب منه — سبحانه — الفضل .

تتوبَ عليهم ، ولئن بطلت — بنقْضِهم — توبتُهم . لَمَّا اختَلَّتْ — بفضلنا — توبتُنا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهم وتُزَكيهم بها وصَلِّ عليهم إنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهم واللهُ سميعٌ عليم ﴾ :

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الأعواض عليها ، وتزكيهم عن ملاحظتهم إياها .

تطهرهم بها عن شُحِّ نفوسهم ، وتزكيهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم ؛ فَيَرَوْا عظيم مِنَّةِ الله عليهم بوجدان التجرُّد منها .

« وصلِّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » : إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أَمِنُوا من استقلالهم بأموالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يعلموا أنَّ اللهَ هو يقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ ويأخذُ الصدقاتِ وأنَّ اللهَ هو التوابُ الرحيم ﴾

تمدَّحَ — سبحانه — بقبول توبة العاصين إذ بها يظهِرُ كَرَمَه ، كما تمدَّح بجلال عِزِّه ونَبَّهَهم على أنْ يَعرِفوا به جَلاله وقِدَمَه .

وكما تَوحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُرْمِهِ وزَلَّتِهِ . فكما لا شبيهَ له فى جماله وجلاله لا شريكَ له فى أفضاله وإقباله ؛ يأخذ الصدقاتِ — قَلَّتْ أو كَثُرتْ ، فَقَدْرُ الصَّدَقةِ وخَطَرُها بأَخْذِهِ لها لا بكثرتها وقِلَّتها ؛ قَلَّتْ فى الصورة صَدَقَتَهُم ولكنْ لَمَّا أخَذَها وقبِلها جَلَّتْ بقبوله لها ، كما قيل :

يكون أُجاجاً — دونكم، فإذا انتهى إليكم تَلَقَّى طيبَكم فيطيبُ

قوله تعالى : ﴿ وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه والمؤمنون وسَترَدُّونَ إلى

عالِم الغيْب والشهادة فَيُنَبِّئُكم
بما كنتم تعملون ﴾ .

خوّفهم برؤيته — سبحانه — لأعمالهم ، فلمَّا عَلِمَ أنَّ فيهم مَنْ تتقاصر حالتُه عن الاحتشام لاطِّلاعِ الحقِّ قال : « ورسوله » ، ثم قال لِمَنْ نَزَلَتْ رتبتُه : « والمؤمنون » .
وقد خَسِرَ مَنْ لا يمنعه الحياء ، ولا يردعه الاحتشامُ ، وسَقَطَ من عينِ اللهِ مَنْ هَتَكَ جلبابَ الحياءِ ، كما قيل :

إذا قَلَّ ماء الوَجْهِ قَلَّ حيـاؤه ولا خيرَ فى وجهٍ إذا قَلَّ ماؤه

ومَنْ لم يَمْنَعْهُ الحياء عن تعاطى المكروهاتِ فى العاجل سيلقى غِبَّ ذلك ، وخسرانُه عن قريبٍ فى الآجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ
إمَّا يُعَذِّبُهُم وإمَّا يتوبُ عليهم
واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

لم يُصَرِّحْ بقبول توبتهم ، ولم يَيْئسْهُم باليأسِ من غفرانه ، فوقفوا على قَدَمِ الخجلِ ، متميلين بين الرهبة والرغبة ، متردِّدِين بين الخوف والرجاء . أخبر اللهُ — سبحانه — أنَّه إنْ عَذَّبهم فلا اعتراضَ يتوجّه عليه ، وإنْ رَحِمَهم فلا سبيلَ لأحدٍ إليه ، قال بعضهم :

ويشبعنى من الآمال وعدٌ ومن على بتقصيرى وعيد

قوله جل ذكره : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً
وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً
لِمَنْ حَارَبَ اللهَ ورسولَه مِن قبلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أرَدْنَا إلا الحُسْنَي
واللهُ يَشْهَدُ إنَّهم لكاذِبون ﴾ .

مَنْ لم يكن مخلصاً فى ولائه لم يأمنْ القلبُ بكدِّه وعنائه ، فَتَوَدُّدُه فى الظاهر ينادى عليه بالتوائه ، وبقوله بالتكلُّفِ شهادةُ صِدْقٍ على عَدَمِ صفائه :

مَنْ لم يكنْ للوصال أهلاً فكلُّ إحسانه ذنوبُ

قوله جل ذكره: ﴿لا تَقُمْ فيه أبداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ
على التقوى مِنْ أولِ يومٍ أحقُّ
أن تقومَ فيهِ فيه رجالٌ يُحِبُّون
أن يتطهروا والله يُحِبُّ المُطَّهِّرين﴾

للقيام فى أماكن العصيان ، والتعريج فى أوطان أهل الجحود والطغيان — من علامات الموالاة مع أربابها ، ومُساكنيها وقُطّانها .

والتباعدُ عن مَسَاكِنِهم ، وهجرانُ مَنْ جَنَحَ إلى مسالكهم عَلَمٌ لِمَنْ أشرب قلبه مخالفتهم ، وباشرت سِرَّه عداوتُهم .

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا » : يتطهرون عن المعاصى وهذه سِمَة العابدين ، ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين ، ويتطهرون عن محبة المخلوقين ، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين .

قوله « والله يحب المطهرين » : أسرارَهم[1] عن المساكنة إلى كل مخلوق ، أو ملاحظة كل مُحْدَثٍ مسبوق .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تقوى
من اللهِ ورضوانٍ خيرٌ أم مَنْ
أَسَّسَ بُنْيانَه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ
فانهار به فى نارِ جهنمَ والله لا يهدى
القومَ الظالمين﴾ .

المريدُ يجب أن يؤسِّسَ بنيانَه على يقينٍ صادقٍ فيما يعتقده ، ثم على خلوص فى العزيمة ألا ينصرفَ قبل الوصولِ عن الطريق الذى يسلكه ، ثم على انسلاخه عن جميع مُناه وشهواته ، ومآربه ومطالبه ، ثم يبنى أمْرَه على دوام ذِكْرِه بحيث لا يعترضه نسيان ، ثم على ملازمة حق للمسلمين وتقديم مصالحهم . . . بالإيثار على نفسه . والذى ضَيَّع الأصولَ

(1) أسرارهم مفعول به لاسم الفاعل « المطهرين » .

فى ابتدائه حُرِمَ الوصول فى انتهائه ، والذى لم يُحْكِمْ الأساسَ فى بنائِه سَقطَ السُّقفُ على جدرانه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يزالُ بُنْيانُهم الذى بَنَوْا رِيبَةً فى قلوبهم إلا أن تَقَطَّعَ قُلوبُهم واللهُ عليم حكيم ﴾

عروقُ النِّفاقِ لا تُقْتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمِنْجَلِ التَّحقُّقِ بصحيح البرهان ؛ فَمَنْ أُيِّدَ لإدامة المسير ، وَوفِّقَ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى ثَلَجِ الصدر ورَوْحِ العرفان .

ومَنْ أقام على مُعْتَادِ التقليد لم يسترِحْ قلبُه من كَدِّ الترددِ ، وظلمةِ التجويز ، وَجَولاَنِ الخواطر المشكلة فى القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ اشترىٰ من المؤمنين أنْفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنةَ ، يقاتِلون فى سبيل اللهِ فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وَعدًا عليه حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، ومَنْ أوفىٰ بِعَهْدِه مِنَ اللهِ ؟ فاستَبْشِرُوا بِبَيْعِكم الذى بايَعْتُم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم ﴾

لمّا كان من المؤمنين تسليمُ أنفسهم وأموالهم لحُكْمِ الله ، وكان من الله الجزاء والثوابُ ؛ أى هناك عِوَضٌ ومُعَوَّض ، فلما بَين ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظَ الاشتراء ، وقد قال تعالى : « هل أدلكم على تجارة . . . »[1] ، وقال : « فما ربحت تجارتهم »[2] .

وفى الحقيقة لا يصحُّ فى وصف الحق — سبحانه — الاشتراء لأنه مَالِكُ سِواه ، وهو مالِكُ الأعيانِ كلِّها . كما أنَّ مَنْ لم يستحدِثْ مِلْكاً لا يُقَال إنه — فى الحقيقة — باع .

---

(١) آية ١٠ سورة الصف .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة .

وللمقال فى هذه الآية مجال . . . فيقال : البائعُ لا يستحقُ الثمنَ إذا امتنع عن تسليم المبيع ، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاء الموعودَ إلا بعد تسليمِ النَّفسِ والمالِ على موجب أوامر الشرع ، فَمَنْ قَعَدَ أو فَرَّطَ فغيرُ مستحقٍ للجزاء .

ويقال لا يجوز فى الشرع أن يبيع الشخصُ ويشترى شيئاً واحداً فيكونَ بائعاً ومشترياً إلا إذا كان أباً وَجَدّاً ، ولكن ذلك هنا بلفظ الشفقة ، فالحقُّ بإذنه كانت رَحْمَتُه بالعبد أتمَّ ، ونظرُه له أبلغَ ، وكان للمؤمنِ فيه من الغبطة ما لا يخفى ، فصحَّ ذلك وإن كان حُكمه لا يقاس على حكم غيره .

ويقال إنما قال : « اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأنَّ النَّفْسَ محلُّ الآفات فجعل الجنة فى مقابلتها ، وجعل ثَمَنَ القلبِ أجلَّ من الجنة ، وهو ما يخصُّ به أولياءه فى الجنة مِنْ عزيزِ رؤيته[1] .

ويقال النَّفْسُ محلُّ العيب ، والكريم يرغب فى شراء ما يزهد فيه غيره .

ويقال مَن اشترى شيئاً ليتنفع به اشترى خيرَ ما يجده ، ومن اشترى شيئاً لِيَنْتَفِعَ به غيرُه يشترى ما رُدَّ على صاحبه لِيَنْفَعَه بثمنه .

وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء — عليهم السلام — : يابنى آدم ، ما خلقتُكم لأربحَ عليكم ولكن خَلَقْتُكم لتربحوا علىَّ .

ويقال اشترى منهم نفوسَهم فوهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسَهم ، وأمَّا القلبُ فاستأثره قهراً ، والقهر فى سُنَّةِ الأحبابِ أعزُّ من الفضل ، وفى معناه أنشدوا :

يُبْنَى الحبُّ على القَهْرِ فلو عَدَلَ المحبوبُ يوماً لَسَمُج
ليس يُسْتَحْسَنُ فى حكم الهوى عاشِقٌ يَطْلُبُ تأليفَ الحُجَج

وكان الشيخ أبو على الدقاق[2] رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبَهم لأن القلوبَ وَقْفٌ على محبته ، والوقفُ لا يُشترى » .

---

(١) أنظر كيف تحتل الجنة المرتبة الثانية بعد رؤية المحبوب — عند هذا الصوفى .

(٢) الدقاق هو شيخ القشيرى ورائده وأستاذه وصهره . وقد أشرنا إلى شىء من سيرته فى مدخل هذا الكتاب .

ويقال الطيرُ فى الهواء ، والسَّمكُ فى الماء لا يصح شراؤهما لأنه غير ممكن تسليمهما ، كذلك القلبُ .. صاحبُه لا يمكنه تسليمه ، قال تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »(١)

وفى التوراة : « الجنَّةُ جنتى والمالُ مالى فاشتروا جنتى بمالى فإنْ ربحتم فلكم وإنْ خسرتُم فعلىَّ »

ويقال عَلِمَ سوء خُلُقِك فاشتراك قبل أنْ أوجدك ، وغَالَى بثمنك لئلا يكونَ لكَ حقُّ الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصَّبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له ، والذى اشتراها أوْلى بها من صاحبها الذى هو أجنبىٌّ عنها .

ويقال أخبر أنه اشتراها لئلا يَدَّعِىَ العبدُ فيها ؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعْجَبُ بها(٢) .

قوله : « فيَقْتُلُون ويُقْتَلون » سيَّان(٣) عندهم أن يَقْتُلُوا أو يُقْتَلُوا ، قال قائلهم :

وإنَّ دَماً أجريتَه لك شاكرُ وإنَّ فؤاداً رُعْتَه لكَ حامدُ

ويقال قال : « فاستبشروا ببيعكم » ولم يقل بثمن مبيعكم لأنه لم يكن مِنَّا بَيْعٌ ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله « إن الله اشترى من المؤمنين » فجعل بَيْعَهُ بَيْعَنا ، وهذا مثلما قال فى صفة نبيه -- صلى الله عليه وسلم — : « وما رَمَيْتَ إذ رمَيْتَ ولكن الله رمى » وهذا عين الجمع الذى أشار إليه القوم .

قوله جل ذكره : ﴿ التائبون العابدون ﴾

مَدَحَهم بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله « التائبون العابدون . . . » ومَنْ رَضِىَ بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشِّراء ، فأمَّا إذا كان عالماً به

---

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) لاحظ مدى التقاء القشيرى — فيما يتصل بالنفس — بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

(٣) وردت (شتان) وهى — حسب ما هو واضح — خطأ فى النسخ .

فليس له حقُّ الردِّ ، قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين »[1] .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فوجَدَ به عيباً ردَّه على مَنْ منه اشتراه ولكنه — سبحانه — اشترى نفوسَنا منه ، فإذا أراد الردَّ فلا يردُّ إلا على نَفْسِه ، قال تعالى : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكما أنَّ الردَّ إليه فلو ردَّنا كان الردُّ عليه .

قوله تعالى : « التائبون » أى الراجعون إلى الله ، فَمِنْ راجعٍ يرجع عن زَلَّتِهِ إلى طاعته ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جِنْسِهِ إلى الاستغراق فى حقائق حقِّه .

ويقال تآئِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله ، فيجد غداً فنونَ أفضاله ، وصنوفَ لطفه ونواله ، وتائبٌ يرجع عن كل غير وضدٍ إلى ربِّه بربِّه لربِّه بِمَحْوِ كلِّ أرَبٍ ، وعَدَمِ الإحساس بكلِّ طلب .

وتائب يرجع لحظِّ نَفْسِهِ من جزيل ثوابه أو حَذَراً — على نفسه — من أليم عذابه ، وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه ، وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أوضاره ، ويخلص من شؤم أوزاره ، وتائب يرجع لَمَّا سمع أنه قال : إنَّ اللهَ أفرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ من الأعرابى الذى وَجَدَ ضالَّتَهُ — كما فى الخبر ، وشتَّان ما هما ! وأنشدوا :

أيا قادماً من سَفْرَةِ الهَجْرِ مَرْحَبًا أُنَادِيكَ لا أنساكَ ما هبَّتْ الصَّبَا

وأمَّا قوله « العابدون » : فهم الخاضعون بكلِّ وجه ، الذين لا تَسْتَرِقُّهم كرائمُ الدنيا ، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقْبَى . ولا يكون العبدُ عبداً لله — على الحقيقة — إلا بعد تجرُّدِهِ عن كل شىءٍ حادثٍ . وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخِلْقة ، قال تعالى : « إنْ كل من فى السموات والأرض إلَّا آتى الرحمن عبداً »[2] . ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ ، وهو عزيز .

---

(١) آية ٣٢ سورة الدخان .

(٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله جل ذكره : ﴿ الحامِدون ﴾

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُثْنُون عليه عند شهود جلاله وجماله .

ويقال الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل بقدرته ، وبلا انقباضٍ عما يجب من طاعته .

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه .

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا فُتُوَّةَ[1] له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءةَ له .

ويقال الشاكرون له إنْ أدناهم ، الحامدون له إنْ أقصاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ السائحون ﴾

الصائمون ولكن عن شهود غير الله ، الممتنعون عن خدمة غير الله ، المكتفون من الله بالله .

ويقال السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكُّر فى جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِئِها ، والتحقق بحكمةِ خالقِها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها ، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوتِ فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الانْسِ بالتحقق بشهود الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ الراكعون ﴾

الخاضعون لله فى جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلِّى ، وفى الخبر . « إن الله ما تجلَّى لشىء إلا خَشَعَ له » .

وكما يكون — فى الظاهر — راكعاً يكون فى الباطن خاشعاً ، ففى الظاهر بإحسان الحقِّ إليه يُحسْنِ تولِّيه ، وفى الباطن كالعيان للعيان للحقِّ بأنوار تجلِّيه .

قوله جل ذكره ﴿ الساجدون ﴾

فى الظاهر بنفوسهم على بِساط العبودية ، وفى الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

---

(١) سأل شقيق البلخى جعفرَ بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق . وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطينا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا (الرسالة ص ١١٥) .

والسجود على أقسام : سجود عند صحة القصود فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال . وسجودٌ عند الشهود إذا تجلَّى الحقُّ لقلبه سَجَدَ بقلبه ، فلم ينظر بعده إلى غيره ، وسجودٌ فى حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته .

قوله جل ذكره : ﴿ الآمِرون بالمعروفِ والنَّاهون عنِ
المنكرِ والحافِظونَ لحدودِ اللهِ
وبَشِّرِ المؤمنين ﴾

هم الذين يَدْعُون الخَلْقَ إلى الله ، ويُحَذِّرونهم عن غير الله . يتواصَوْن بالإقبال على الله وتَرْكِ الاشتغال بغير الله . يأمرون أنفسَهم بالتزام الطاعات بِحَمْلِهم إياها على سَنَنِ الاستقامة ، وينْهَوْن أنفسَهم عن اتِّباع المنى والشهوات بِتَرْكِ التعريج فى أوطان الغفلة ، وما تعودوه من المساكنة والاستنامة .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم[1] الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حرَّكهم ولا يَسْكنُون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أَنْفَاسَهُم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للنبىِّ والذين آمنوا أن
يَسْتَغْفِروا للمشركين ولو كانوا أُولى
قُرْبَى من بعد ما تَبَيَّنَ لهم أنَّهم
أصحابُ الجحيم ﴾

أصلُ الدين التَّبَرِّى من الأعداء ، والتولِّى للأولياء ، والولىُّ لا قريبَ له ولا حميم ، ولا نسيبَ له ولا صديق ؛ إنْ وَالَى فبأمر ، وإنْ عادى فَلِزَجْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه

(١) يكون الفعل (وقف) متعدياً مثل : وقف فلانا على الأمر أى أطلعه عليه (الوسيط)
(٢) مراعاة الأنفاس من الأمور التى شغل بها الصوفية دائماً ، يقول الجنيد :
وما تنفست إلا كنت مع نفسى تجرى بك الروح منى فى مجاريها

إلاَّ عَن مَوْعِدَةٍ وعدها إيَّاهُ فلما
تبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه إنَّ
إبراهيم لأوَّاهٌ حليم ﴾

لما أمَرَ المسلمين بالتبرِّي عن المشركين والإعراض عنهم والانقباض عن الاستغفار لهم بَيَّنَ أنَّ هذا سبيلُ الأولياء ، وطريقُ الأنبياء عليهم السلام ، وأنَّ ابراهيمَ — عليه السلام — وإن استغفرَ لأبيه فإنما كان مِنْ قَبْلِ تحقّقِهِ بأنه لا يُؤْمِنُ ، فلمَّا عَلِمَ أنه عدوٌّ لله أظْهرَ البراءةَ منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كانَ اللهُ ليُضِلَّ قوماً بعد
إذ هداهم حتى يُبَيِّنَ لهم مَّا يتقون
إنَّ الله بكل شيء عليم ﴾

إنَّ اللهَ لا يحكم بضلالكم وذهابكم عن طريق الحقِّ باستغفاركم للمشركين إلا بعد ماتبيَّن لكم أنكم مَنْهيُّون عنه ، فإذا علمتم أنكم نُهيتُمْ عن استغفاركم لهم فإنْ أقْدَمْتُمْ على ذلك فحينئذ ضللتم عن الحقِّ بفعلكم بعد ما نُهيتم عنه . . . هذا بيان التفسير للآية ، والإشارة فيها أنه لا سَلْبَ لعطائه إلا بتَرْكِ أدب منكم .

ويقال مَنْ أحلَّه بِسَاطَ الوصلة مامُنِيَ بعده بعذاب الفرقة ، إلا لِمَنْ سَلَفَ منه تَرْكُ حُرْمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ له مُلْكُ السموات والأرضِ
يُحيي ويُميت وما لكم من دونِ اللهِ
مِن وليٍّ ولا نصير ﴾

الحقُّ لا يَتَجمَّلُ بوجود مملوكاته ، ولا يلحقه نَقْصٌ بِعَدَمِ[1] مخلوقاته ، فَقَبْلَ أنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً — والمَلِكُ أكثر مبالغةً من المالك — ومُلْكُه قدرتُه

(١) سقطت الميم من (بعدم) فأثبتناها إذ بدونها يضطرب السياق فالمراد (وجود المملوكات وعدمها).

على الإبداع ؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه ، فإذا أَوْجَدَه فهو فى حال حدوثه مقدوره ومملوكه ، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له .

« يحيى ويميت » يحيى مَنْ يشاء بعرفانه وتوحيده ، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده .

ويقال يُحيي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات ، ويُميتُ نفوسَ العابدين بآثار المنازلات .

ويقال يُحيي مَنْ أقبل عليه بِتَفَضُّله ، ويميت من أعرض عنه بِتَكَبُّره .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرَةِ منْ بعدما كاد يَزِيغ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تَابَ عليهم إنَّه بهم رءوفٌ رحيم ﴾

قَبِلَ توبتهم ، وتاب على نبيِّه — صلى الله عليه وسلم — فى إذنه للمنافقين فى التخلف عنه فى غزوة تبوك ، وأمَّا على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هَمُّوا بالانصراف[1] لِمَا أَصَابَهم من العُسْرة من الجوع والعطش والإعياء[2] فى غزوة تبوك ، كما قال : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » : وتوبته عليهم أنه تداركَ قلوبَهم حتى لم تزغ ، وكذا سُنَّةَ الحقِّ — سبحانه — مع أوليائه إذا أشرفوا على العَطَبِ ، وقاربوا من التَّلفِ ، واستمكن اليأسُ فى قلوبهم من النصر ، ووَطَّنُوا أنفسهم على أنْ يذوقوا البأسَ — يُمْطِرُ عليهم سحائبَ الجود ، فيعود عودُ الحياةِ بعد يَبْسِه طريّاً ، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنْس عقب ذبوله غضاً جَنِياً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه وقُرِّب النَّعْشُ من اللَّحدِ
فجال ماء الرُّوحِ فى وَحْشَةٍ وردَّه الوصل إلى الوِرْدِ

---

(١) وردت (الإنصاف) وليس لها معنى فصوبناها (الانصراف) فهو المقصود .
(٢) وردت (الأعياد) وهى خطأ فى النسخ إذ التبست الهمزة على الناسخ .

تبـارك الله سبحـانه ما (. . .)[1] هو بالسرمد

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقَتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهم أنفسُهم وظنوا أن لا ملجأ منَ اللهِ إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إنَّ اللهَ هو التواب الرحيم ﴾

لمَّا صَدَقَ منهم اللجاء تداركهم بالشِّفاء وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحقُّ يُكوِّرُ نهار اليُسْرِ على ليالى العُسْر ، ويُطلِعُ شموسَ المحنة على نحوس الفتنة ، ويُدِير فلكَ السعادة[2] فيمحق تأثير طوارق النكاية ؛ سُنَّةً منه — تعالى — لا يُبَدِّلُها ، وعادةً منه فى الكَرَمِ يُجْرِيها ولا يحوِّلها .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا مع الصادقين ﴾

يأيها الذين آمنوا برُسُلِ الله ، يأيها الذين آمنوا من أهل الكتاب . . كونوا مع الصادقين المسلمين ، يأيها الذين آمَنُوا فى الحال كونوا فى آخر أحوالكم مع الصادقين ؛ أى استديموا الإيمان . استديموا فى الدنيا الصدقَ تكونوا غداً مع الصادقين فى الجنة .

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وغيرهم .

ويقال الصدق نهاية الأحوال ، وهو استواء السِّرِّ والعلانية ، وذلك عزيز . وفى الزَّبور : « كذب مَنْ ادَّعى محبتى وإذا جَنَّه الليلُ نام عنِّي » .

---

(١) مشتبهة ، والشطر الثانى من البيت الأخير مضطرب الوزن

(٢) ربما كانت (العناية) لتنسجم مع (النكاية) لأننا نلحظ اهتمام القشيرى بالموسيقى الداخلية فى تركيب فقرات هذه الإشارة ، وإن كانت « السعادة » مقبولة فى السياق .

والصدقُ — كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتمُّ أقسامِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿ما كان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَهم مِّنَ الأعرابِ أن يتخلَّفوا عن رَّسولِ اللهِ ولا يرغبوا بأنفسِهم عَن نَّفْسِهِ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ وَلَا يطئون موطِئًا يغيظ الكُفَّارَ ولا ينالون مِنْ عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عَمَلٌ صالح إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين * ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليجزيَهم اللهُ أحسَنَ ما كانوا يعملون﴾.

لا يجوز لهم أن يؤثِروا على النبيِّ — صلى الله عليه وسلم — شيئاً من نَفْسٍ وروحٍ، ومالٍ وولَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأنَّى ذلك..؟ وإنهم لا يرفعون لأجْلِهِ خطوةً إلاَّ قابَلَهم بألفِ خطوة، ولا ينقلون إليه قَدَماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرما، ولا يُقاسُون فيه عَطَشاً إلا سقاهم من شراب محابِّه كاسا، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا لقَّاهم لطفاً وإيناسا، ولا ينالون من الأعداء أذىً إلا شَكَرَ اللهُ سَعْيَهَم بما يوجب لهم سعادة الدارين!

قوله جل ذكره: ﴿وما كانَ المؤمنون لِيَنْفِروا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدِّين ولِينذِروا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم لعلَّهم يحْذَرون﴾.

لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفَقُّه فى الدِّين لَتَعَطَّلَ عليهم المعاش ، ولبقى الكافة عن درك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضا على الكفاية .

ويقال جعل المسلمين على مراتب : فعوامُّهم كالرعية للمَلِك[1] ، وكَتَبَةُ الحديثِ كخُزَّان المَلِك ، وأهلُ القرآن كحُفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للمَلِك إذ الفقيه (. . .)[2] عن الله ، وعلماء الأصول كالقُوَّادِ وأمراءِ الجيوش ، والأولياءُ كأركان الباب ، وأربابُ القلوبِ وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع ، وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالردِّ على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقوم مُفْرَدُون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شُغْلٌ ، يراعون مع الله أنفاسَهم وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزُّهم طَلَبٌ ولا يهزُّهم أَرَبٌ ، فَهُمْ بالله لله ، وهم محو عما سوى الله[3] .

وأمَّا الذين يتفقهون فى الدِّين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يُفْهِمُ الخَلْقَ عن الله مَنْ كان يَفْهَمُ عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا قاتِلوا الذين يَلُونَكم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً واعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين ﴾ .

اقربُ الأعداء إلى المسلم من الكفار ، الذى يجب عليه منازعته هو أعدى عدوِّه

---

(١) فى الهامش (فالناس كلهم خدم للملك) . ولا نوجد علامة توضح أنها من المتن ، فربما كانت منه وسقطت العلامة ، وربما كانت توضيحاً من أحد القراء .

(٢) مشتبهة أقرب ما تكون إلى (يوقع) أو (يوقع) ونرجح الثانية فقد وردت كذلك فى سياق مماثل .

(٣) من هذا التصور ندرك شيئاً هاماً عند القشيرى وعند الصوفية الخلص بعامة ، فهم لا يتصورون التصوف مذهباً يسود المجتمع بعامة فيكون الناس جميعاً متصوفة ، بل إن دوره العضوى الهام فى كيان المجتمع محصور فى طائفة مخصوصة يمتد اثرها إلى خارج نطاقها ، والمقصود (بالشغل) و (الفراغ) أن يكونوا خالصين لله . وليس المقصود البطالة من العمل وعدم السعى للرزق .

أى نَفْسُه . فيجب أن يبدأ بمقاتلة[1] نَفْسِه ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[2] .

قوله : « وليجدوا فيكم غِلْظة » مَنْ حابَى عدوَّه قَهَرَه ، وكذلك المريد الذى يَنْزِل عن مطالباتِ الحقيقة إلى مايتطلبه من التأويلات فيفسخ عَهْدَه ، وينقض عَقْدَه ، وذلك كالرِّدَّةِ[3] لأهل الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ فمنهم مَّن
يقول أيُّكم زَادَتْه هذه إيماناً ،
فأمَّا الذين آمنوا فزادَتْهُم إيماناً
وهم يَسْتَبْشِرون ﴾[4]

جَعَلَ الله — سبحانه — إنزالَ القرآن لقومٍ شِفَاء . ولقومٍ شَقَاء ؛ فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ جديدةٌ زاد شكُّهم وتحيُّرهم ، فاستعلم بعضُهم حالَ بعضٍ ، ثم لم يزدادوا إلا تحسُّراً ؛ قال تعالى : « وهو عليهم عَمًى »[5] وأمَّا المؤمنون فزادتْهم السورةُ إيماناً فارتقوا مِنْ حدِّ تأمل البرهان إلى روْح البيان ، ثم مِنْ روْح البيان إلى العيان ، فالتجويز والتردد و (. . . .)[6] والتحيُّر مُنْتَفَى بأجمعه عن قلوبهم ، وشموسُ العرفانِ طالِعةٌ على أسرارهم ، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم ، فلا لَهُم تعبُ الطلب ، ولا لهم حاجة إلى التدبير ،

---

(١) وردت (مقابلة) والملائم بالنسبة للسياق (مقاتلة) هذا العدو .

(٢) رواه الخطيب فى التاريخ عن جابر (ص ٣٢٥ حـ٢ منتخب كنز العمال بهامش مسند الإمام احمد) هكذا : (قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة العبد هواه) .

(٣) وردت (الرد) والصواب ان تكون (الردة) ، وقد أوضح القشيرى ذلك فى موضع آخر من الكتاب إذ يقول (وكما ان المرتد اشد على المسلمين عداوة فكذلك من رجع عن الإرادة الى الدنيا والعادة ، فهو أشد الناس انكاراً لهذه الطريقة وابعد عن اهلها) المجلد الأول : ص ٧٥ .

(٤) ينبغى أن نلحق بهذه الآية الآية التى بعدها « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » لم ترد فى المتن مع أن المصنف يشير إليها فى شرحه .

(٥) آية ٤٤ سورة فصلت .

(٦) مشتبهة ، ومصححة فى الهامش بطريقة مبهمة وهى فى الكتابة هكذا : (التبحث) ، ولا نعرف ضمن آفات العقل كلة للقشيرى قريبة فى الخط منها ، وربما كانت (التعب) .

ولا عليهم سلطان الفكر . وأشعةُ شموس العرفان مستغرقة لأنوار نجوم العلم ، يقول قائلهم :

ولما استبانَ الصبحُ أدرك ضوءه بإسفارهِ أنوارَ ضوء الكواكب

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ لا يَرَوْن أنّهم يُفْتَنُون فى كل عامٍ مرةً أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولا هُمْ يَذَّكَّرون ﴾

لم يُخْلِ الحقُّ — سبحانه — أربابَ التكليف من دلائل التعريفِ ، التعريفُ لهم فى كل وقت بنوع من البيان ، والتكليفُ فى كل أوان بضرب من الامتحان ، فما لم يزد لهم فى إيضاح البرهان لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان .

وأمّا أصحاب الحقائق فما للأغيار فى كل عامٍ مرة أو مرتين فلهم فى كل نَفَسٍ مرة ، لا يخليهم الحقُّ — سبحانه — من زواجرَ توجِبُ بصائر ، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وَأوَامِرَ(٢) قال قائلهم :

كأنَّ رقيباً منك حلَّ بمهجتى إذا رُمْتُ تسهيلاً علىَّ تَصَعّبا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ نَّظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ هل يراكُمْ مِّن أَحَدٍ ثم انصرفوا ، صَرَفَ اللهُ قلوبَهم بأنَّهم قومٌ لا يفقهون ﴾

تَقَنَّعوا بِخمارِ التلبيس ظانِّين أنهم يبقون فى سِرٍّ بتكلفهم ، والحقُّ أبَى إلا أن فَضَحَهم ، وكما وَسَمَهم برقم النَّكَرَة(١) أطْلَعَ أسرارَ الموحِّدين على أحوالهم فعرفوهم على ما هم عليه من أوصافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم

---

(١) النكرة اسم من الإنكار ، يقال : كان لى أشد نكرة (الوسيط) .

(٢) ذلك لأنهم بقيامهم بالحق فلما تبدو منهم أشياء تستدعى الزجر أوالأمر لأنهم دائماً يختارون الأشق .

عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم
بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ﴾

جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم فى البشرية ، فلمّا أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ الرحمة عليكم ، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم ، قد وَكَلَ هِمَمَه بشأنكم ، وأكبرُ هَمِّهِ إيمانُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تولَّوْا فقُلْ حَسْبِيَ اللهُ
لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو
ربُّ العرشِ العظيم ﴾

أمَرَه أنْ يدْعُوَ الخَلْقَ إلى التوحيد ، ثم قال : فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا بنعت التجريد .

ويقال قال له : يأيها النبى حسبُك الله ، ثم أمره بأن يقول حسبى الله .... وهذا عين الجمع ، وقوله « فقُلْ حسبى الله » فَرْق ... بل هو جمع الجمع أى : قُلْ ، ولكنك بنا تقول ، ونحن المتولى عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ فى عين التوحيد ؛ فأنت بنا ، ومَحْوٌ عن غيرنا .

سورة يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ سماعُها يوجب شِفاءَ كلِّ عابد ، وضياءَ كلِّ قاصد ، وعزاءَ كلِّ فاقد ، وبلاءَ كلِّ واجد ، وهُدُوَّ كلِّ خائف ، وسُلُوَّ كل عارف . وأمانَ كل تائب ، وبيانَ كلِّ طالب .
قلوبُ العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله ، وكروبُ الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الر تلك آياتُ الكتاب الحكيم ﴾ .

الألف مفتاح اسم « الله » ، واللام مفتاح اسم « اللطيف » والراء مفتاح اسم « الرحيم » .

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتابَ هو للموعودُ لكم يوم الميثاق . والإشارة فيه أنا حققنا لكم الميعاد ، وأطلنا لكم عِنان الوداد . . . وانقضى زمانُ الميعاد ، فالعَصَاةُ مُلقاة ، والأيامُ بالسرور مُتَلَقَّاة ، فبادِروا إلى شُرْبِ كاساتِ المحابِّ ، واستقيموا على نَهْجِ الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ أكانَ للناسِ عجباً أنْ أوحَيْنا إلى رَجُلٍ منهم أنْ أنذِرِ الناسَ ﴾ .

تعجبوا من ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد الموت ، ومن إرسال الرسل إلى الخَلْق ، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مِنْ بين الخَلْق . ولو عرفوا كمال مُلْكِه لم يُنْكِروا جوازَ البعث ، ولو علموا كمالَ ملكه لم يجحدوا إرسالَ الرُّسل إلى الخلق ، ولو عرفوا أنَّ له أنْ يفعلَ ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة مِنْ بين الخَلْق ، ولكنْ سُدَّتْ بصائرُهم فتاهوا فى أودية الحيرة ، وعَثَرُوا — من الضلالةِ — فى كل وَهْدَةٍ . وكان الأستاذ أبو على الدَّقاق — رحمه الله — يقول : جَوَّزُوا أن يكون المنحوتُ من الخشبِ والمعمولُ من الصخر[1] إلهاً معبوداً ، وتعجبوا أن يكون مثلُ محمد — صلى الله عليه وسلم — فى جلالةِ قَدْرِه رسولاً . . ! ! هذا هو الضلال البعيد .

قوله جَلَّ ذكره : ﴿ وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم ﴾ .

وهو ما قدَّموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها ، وفنونِ عباداتٍ صَدَقُوا فى القيام بقضائها .

ويقال هو ما قدَّم الحقُّ لهم يومَ القيامة من مقتضى العناية بشأنهم ، وما حَكَمَ لهم من فنونِ إحسانه بهم ، وصنوف ما أفردهم به من امتنانهم .

ويقال : « قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم » : هو ما رفعوه من أقدامهم فى بدايتهم فى زمان

---

(١) وردت (الصقر) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

إرادتهم ، فإنّ لأقدامِ المريدين المرفوعةِ لِأجْلِ اللهِ حُرْمةً عند الله ، ولأيامهم الخالية في حالِ تردُّدِهم ، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقةِ تحيُّرهم .. مقاديرَ عند الله . وقيل :

مَنْ يَنْسَ داراً قد تخونها ريْبُ الزمان فإني لست أنساكا

وقيل :

تلك العهودُ تشدُّها لِتَحُلَّها عندي كما هي عقدها لم يُحْلَلِ

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ ربَّكم اللهُ الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيامٍ ثم استوىٰ على العرشِ يُدَبِّرُ الأمرَ ما من شفيعٍ إلا مِنْ بعد إذنه ذلكم الله ربُّكم فاعبدوه أفلا تذَكَّرون ﴾ .

لا يحتاج فِعْله إلى مُدَّةٍ ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة ؟ فَخَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ الله سبحانه وتعالى .

« ثم استوى على العرش » أي توَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَمِ والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم . فأخبر الحقُّ — سبحانه — بما يَقْرُب من فَهْم الخلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى على العرش ، ومعناه اتصافه بعز[1] الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية ، تقدّس الجبَّارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود .

« يُدَبِّرُ الأمر » : أي الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره ، وحاصلةٌ بتدبيره ، فلا شريكَ يعضده ، وما قضى فلا أحد يردُّه . « ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه » : هو الذي يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه ، وهو الذي يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبُه .

« ذلكم الله ربُّكم » : تعريف وقوله : « فاعبدوه » : تكليف ؛ فحصولُ التعريف بتحقيقه ، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه .

---

(١) وردت (بغير) الصمدية وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ إليه مَرْجِعُكم جميعاً وعْدَ اللهِ حقّا
إنَّه يبدأُ الخلْقَ ثم يُعيدُه ليجزىَ
الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ بالقِسْطِ
والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم
وعذابٌ أليم بما كانوا يَكْفُرُون ﴾

الرجوع يقتضى ابتداء الأرواح قبل حصولها فى الأشباح ، فإن لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبِّيه وذويه ، كما قيل :

أيا قادماً من سَفْرةِ الهجر مرحباً أناديك لا أنساك ماهبّت الصَّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى ، والثواب والحسنى . والعاصى إذا رجع إلى ربّه فَبِنَعْتِ الإفلاس وخسران الطريق ، فيتلقى بِلباس الغفران ، وحُلَّةَ الصفح والأمان ، فرحمةُ مولاه خيرٌ له من نُسكِه وتقواه .

قوله : « وَعْدَ اللهِ حقّاً » : موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى ، وموعودُ العاصى الرحمة والرِّضى . والجنَّةُ لُطْفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحق ؛ فاللُّطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل ، والنَّعتُ لم يزل[1] .

قوله . « إنَّه يبدأُ الخلْقَ ثم يعيده » : مَنْ كان له فى جميع عمره نَفَسٌ على وصفِ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففى الإشارة : تكون لذلك إعادة ، وأنشدوا :

كلُّ نَهْرٍ فيه ماء قد جَرَى فإليه الماء يوماً سيعودُ

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى جعل الشمسَ ضياء والقَمَرَ
نوراً وقدَّره منازِلَ لتعلموا عَدَدَ
السِّنينَ والحسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلك
إلا بالحقِّ يُفَصِّل الآياتِ لقومٍ
يعلمون ﴾

---

(١) يفرق القشيرى فى كتابه (التحبير فى التذكير) الذى قمنا بتحقيقه بين صفات الفعل وصفات الذات .

أنوار العقول نجومٌ وهى للشياطين رجوم ، وللعلوم[1] أقمار وهى أنوار واستبصار ، وللمعارف شموس ولها على أسرار العارفين طلوع ، كما قيل :

إنَّ شمسَ النهار تَغْرُبُ بالليل   وشمسُ القلوب ليست تَغِيبُ

وكما أنّ فى السماء كوكبين شمساً وقمراً ؛ الشمسُ أبداً بضيائها ، والقمرُ فى الزيادة والنقصان ؛ يُسْتَرُ بمحاقه ثم يكمل حتى يصير بدراً بنعت إشراقه،ثم يأخذ فى النقص إلى أنْ لا يبقى شىء منه لتمام امتحاقه ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، لم يَجِدْ أكثر من ليلةٍ لكمالِه مقاماً ، ثم يأخذ فى النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُه ويتمَّ نَقْصُه .

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هو مُتَرَدِّدٌ بين قَبْضِه وبَسْطِه ، وصَحْوِه ومَحْوِه ، وذهابه وإيابه ؛ لا فَنَاء فيستريح ، ولا بقاء له دوامٌ صحيحٌ ، وقيل :

كلّما قُلْتُ قد دنا حلُّ قيدى   كبَّلُونى فأوثقوا المِسْمَارا

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما خَلَقَ اللهُ فى السموَاتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَتَّقُون ﴾

اخْتُصَّ النهارُ بضيائه ، وانفرد الليلُ بظلمائه ، من غير استيجابٍ لذلك ، ومن غير استحقاق عقاب لهذا ، وفى هذا دليلٌ على أنّ الردَّ والقبولَ ، والمَنْعَ والوصولَ ، ليست معلولةً بسببٍ ، ولا حاصلةً بأمرٍ مُكْتَسَبٍ ؛ كلاَّ . إنها إرادةٌ ومَشِيئَةٌ ، وحُكْمٌ وقضية .

النهارُ وقتُ حضور أهلِ الغفلة فى أوطان كَسْبِهم ، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم ، قال قائلهم :

هو الشمس ، إلا أنَّ للشمسِ غَيبةً   وهذا الذى نعنيه ليس يغيبُ

والليلُ لأحدِ شخصين : أمَّا للمُحِبِّ فَوَقْتُ النَّجوى ، وأمّا للعاصى فبَثُّ الشكوى .

---

(١) وردت (الهموم) وهى خطأ فى النسخ إذ المقصود نوع من المقابلة بين (العلوم) والمعارف .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين لا يرجون لقاءنا ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النارُ بما كانوا يَكْسِبُون ﴾

أنكروا جوازَ الرؤية فَلَمْ يرجوها ، والمؤمنون آمنوا[1] بجَوَازِ الرؤية فأمَّلُوها .

ويقال : لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه ، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحِبُّوه لأنهم لم يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألاَّ يطلبوه ، قال تعالى : « وَأَنَّ إلى ربك المنتهى »[2] .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولوطلبوا لعرفوا ، ولو عرفوا لأحبُّوا ، ولو أحبُّوا لاشتاقوا ، ولو اشتاقوا لرجوا ، ولو رجوا لأمَّلوا لقاءه ، قال تعالى : « ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هداها »[3]

قوله تعالى : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » : أصحابُ الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فَحُرِمُوا الجنةَ ، والزُّهَّادُ والعُبَّادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة ، وقد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم ، ولِكلٍّ أحدٍ مقامٌ .

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فمأواهم العذابُ والفرقة ، فدليلُ الخطاب أن الذى يرجو لقاءه رآه ، ومآله ومنتهاه الوصلةُ واللقاء والزُّلْفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم تجرى مِن تحتهم الأنهارُ فى جنَّاتِ النَّعيم ﴾

كما هداهم اليومَ إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة .

---

(١) من هذا نفهم أن القشيرى يؤمن بجواز رؤية الله فى الآخرة ، أما رؤيته فى الدنيا فإنه يقول فى الرسالة ص١٧٥ : (الأقوى أنه لا تجوز رؤية الله بالأبصار فى الدنيا — وقد حصل الإجماع فى ذلك) .

(٢) آية ٤٢ سورة النجم .

(٣) آية ١٣ سورة السجدة .

ويقال: أمّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكةُ تتلقّاهم والحقُّ، قال تعالى: «يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً»[1] نحشرهم، والعاصون يَبقَوْن منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحون فى مطاحات[2] القيامة.

والحقُّ — سبحانه — يقول لهم: عِبَادى، إنَّ أصحابَ الجنة — اليومَ — فى شُغْلٍ عنكم، إنهم فى الثواب لا يتفرّغون إليـكم، وأصحابُ النار من شدة العذابِ لا يرقبون لـكم معاشِرَ المساكين.

كيف أنتم إنْ كان أشكالـكم وأصحابُـكم سبقوكم؟ وواحدٌ منْهم لا يهديكم فأنا أهديكم. لأنى إنْ عاملتُـكم بما تستوجِبُون... فأين الـكرمُ بحقنا إذا كنا فى الجفاء مِثْلَهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللَّهُمَّ وتحيتُهم فيها سلامٌ وآخِرُ دعواهم أن الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين ﴾

قالتُهم الثناء على الله، وذلك فى حال لقـائهم. وتحيتهم فى تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» «وآخر دعواهم أن الحمد لله»: والحمد هاهنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمدٍ أبدىٍّ سرمدىٍّ، والحقُّ — سبحانه — يُحَيِّيهم بسلامٍ أزلىٍّ وكلام أبدى، وهو عزيزٌ صمدىٌّ ومجيدٌ أحدىٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿ ولو يُعَجِّلُ الله للنـاس الشَّرَّ استعجالَهم بالخير لَقُضِىَ إلَيْهِمْ أَجَلُهم فنَـذَرُ الذين لا يرجون لقـاءنا فى طغيانهم يَعْمَهُون ﴾

أى لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضَجَرِهم لعجّلنا إهلاكهم، ولـكن

---

(١) آية ٨٥ سورة مريم.

(٢) المطاح والمطاحة: اسما مكان من طاح، وهو المسلك الوعر المهلك.

تَحَمَّلْنَا ألا نُجيبَهم ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبدُ بأن الربَّ لا يجيب دُعاءه ، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابَتَهُ لُطْفاً منه وأنَّ فى ذلك بلاء لو أجابه ، كما قيل :

أُناسٌ أعرضوا عنَّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظنَّهم فينـا فهلاَّ أحسنوا الظنَّـا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لِجَنْبِه أو قاعِداً أو قائمـاً فلمَّـا كَشَفْنَا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لَّمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّه كذلك زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾

إذا امتُحِنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أنْ يرومَ التخلُّصَ مما ناله ، فيعلمَ أنَّ غيْر الله لا يُنْجيه ، فتحمله الضرورةُ على صِدْق الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كَشَفَ اللهُ عنه ما يدعو لِأَجْلِه شَغَلَتْه راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة ، وزَايَلَه ذلك الالتياع ، وصار كأنه لم يكن فى بلاءٍ قط :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا كتسى ولم يكُ صُعلوكاً إذا ما تَموَّلاَ

ويقال بلاء يُلْجِئكَ إلى الانتصابِ بين يَدَىْ معبودِك أجدى لك من عطاءٍ ينْسِيكَ ويكفيك عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أهْلَكنـا القُرونَ مِن قبلِكم لمَّا ظَلَمُوا وجاءتْهُم رُسُلُهم بالبيناتِ وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القومَ المجرمين ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاك الظالمين ، كما فى الخبر : « لو كان الظلم بيتاً فى الجنَّة لسلَّط اللهُ عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشيء فى غير موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَه ــ عند حوائجه ــ فى المخلوقين ، وتعلَّق قلبُه بهم فى الاستعانة ، وطَلَبِ المأمول فقد وَضَعَ الشيء فى غير موضعه ،

وهو ظلم ؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفاه ، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجتُه من غيرِه ، وكان من فقره وحاجته فى مضَرَّةٍ . فإنْ صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنةٌ عظيمةٌ .

وعلى هذا القياس إذا أحبَّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته فى غير موضعها ، وهذا ظلم ؛ وعقوبَتُه خرابُ روحه لِعَدَمِ صفاء ودِّه ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من الأُنس بالله ، إذا بقى عن الله يُذيقه الحقُّ طعمَ المخلوقين ، فلا له مع الخَلْقِ سَلْوة ، ولا من الحقِّ إلا الجفوة ، وعدم الصفوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناكم خلائفَ فى الأرض مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كيف تعملون ﴾

عرَّفنا كم بِسِيرِ مَنْ قَبْلَكُم ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتبرتم بهم نَجَوْتُم ، ومن لم يعتبرْ بما سمعه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم ، ومَنْ لم يعتبرْ بِمَنْ سَبَقَه اعتبر به مَنْ لَحِقَه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لِقَاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّله قُلْ مايكونُ لى أنْ أُبَدِّلَه مِن تِلقاءِ نَفْسى إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَىٰ إلىَّ إنِّى أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربى عذابَ يومٍ عظيم ﴾

إذا اقترحوا عليك بأنْ تأتيهم بما لم نأمركَ به ، أو تُرِيَهُم ما لم نُظْهِرْ عليك من الآياتِ .. فأخبِرْهم أنَّكَ غير مُسْتَقِلٍ بك ، ولا موكولٍ إليك ؛ فنحن القائمُ عليكَ ، المصرِّفُ لكَ ، وأنتَ المتَّبِعُ لما نُجريه عليك غيرَ مُبْتَدِعٍ لِما يَحْصل منك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ
وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قد عِشْتُ فيكم زمانا ، وعرفتم أحوالى فيما تطلبون منى عليه برهانا[1] ، فما ألفيتمونى (. . .)[2] بل وجدتمونى فى السداد مستقيماً ، وللرشاد مستديماً ، فلولا أنّ الله تعالى أرسلنى ، ولِماَ حمّلَنِي مِنْ تكليفه أهّلَني لمَا كنتُ بهذا الشرع آتياً ولا لهذا الكتاب تالِياً .

« أفلا تعقلون » مالكم تعترضون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

الكَذِبُ فى الشرع قبيحٌ ، وإذا كان على الله فهو أقبح .

ومِنَ المُفْتَرِين على الله : الذين يُظْهِرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين ، وجزاؤُهم أنْ يُحْرَمُوا ذلك أبداً ، فلا يَصِلون إلى شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ذَمَّهُم على عبادة ما ليس منه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ .

فدليلُ الخطاب يقتضى أنْ يكونَ المعبودُ منه الضَّرُّ والنفع ، ومِنْ فَرْطِ غباوتهم أنهم

(١) أى لماذا تطلبون الآن منى برهاناً على شىء أنتم عرفتموه عنى من قبل وهو صدق ؟

(٢) مشتبهة .

انتظروا فى المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجَدُ منه الضَرُّ والنَّفْعُ فى الحال . ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذى قالوا معلوماً ، ولو كان كما قالوا لعلِموا أنه سبحانه لا يَعْزُبُ عن علمه[1] معلومٌ .

ومعنى قوله : « لا يعلم » : خلافه . ومَنْ تَعَلَّقَ قلبُهُ بالمخلوقين فى استدفاع المضَارِّ واستجلاب المسَارِّ فـكالسالكِ سبيلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام ؛ إذ المنْشِىء والموجِدُ للشىء مِنَ العَدم هو الله — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان النَّاسُ إلا أُمَّةً واحدةً فاختلفوا ، ولولا كلمة سَبَقَتْ من ربِّكَ لقُضِىَ بينهم فيما فيه يختلِفون ﴾ .

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا ، والحق — سبحانه — سَبَقَ قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة ، ولذلك لا يُجيبهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة .

وإنما اختلفوا لأنَّ الله خَصَّ قوماً بعنايته وقبوله ، وآخرين بإهانته وإبعاده ، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ مِّنْ رَبِّهِ فَقُلْ إنما الغَيْبُ لله فانتظروا إنى معكم من المنْتَظِرِين ﴾ .

أخبر أنه — عليه السلام — فى سَتْرِ الغَيْبَةِ وخفاء الأمر عليه فى الجملة لتقاصُرِ علمه عما سيحدث ، فهو فى ذلك بمنزلتهم ، إلا فى مواطن التخصيص بأنوار التعريف ، فكما أنهم فى الانتظار لما يحدث فى الميستأنف فهو أيضا فى انتظار ما يوجِدُ — سبحانه — من المقادير . والفَرْقُ بينه — عليه السلام — وبينهم أنه يشهد مايحصل به — سبحانه — ومنه ، وهم متَطَوِّحون فى أودية الجهالة ؛ يُحيلُون الأمرَ مرةً على الدَّهر ، ومرةً على النجم[2] ، ومرةً على الطبع . . وكلُّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمىً .

---

(١) وردت (عمله) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) المقصود بالنجم هنا الطالع والحظ من نحس وسعود .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أذَقْنَا النَّاسَ رحمةً مِّن بَعْدِ
ضَرَّاء مَسَّتْهُم إذا لَهُم مَكْرٌ
فى آياتِنا قُلِ اللهُ أسْرَعُ مَكْرًا إنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُبُون ما تَمْكُرُونَ ﴾

يعنى إذا أصابهم ضُرٌّ ومحنة فرحمناهم وكشفْنا عنهم ، أحالوا الأمر على غيرنا ، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم : مُطِرْناَ بنوء كذا ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نَجْمٍ أو مساعدةُ دولة أو تأثيرُ فَلَكٍ أو خيراتُ دهر .

فهذا كان مكرُهم أما مكر الله — سبحانه — بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة فى هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجبة أو فترة .. فإذا جاء الحقُّ بكشفٍ أو تجلٍّ أو إقبال فَمِنْ حقِّهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها[1] ، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحقِّ مَكَرَ الله بهم بأنْ شتَّتهم فى تلك الأحوال من غير تَرَقٍّ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مَكْرُه بخَوَاصِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُسَيِّرُكم فى البرِّ والبحرِ
حتى إذا كنتم فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ
بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءتْها
ريحٌ عاصِفٌ وجاءهم الموجُ مِن كلِّ
مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحِيط بهم دَعَوُا
اللهَ مُخْلِصِين له الدِّين لئنْ أنجيْتَنَا
مِنْ هذه لنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾

يريد أنهم يُصْبِحون فى النِّعم يجرُّون أذيالَهُم ، ثم يُمْسُون يبكون لَيَالِيَهُم . وقد يَبِيتُون والبهجةُ مَلَكَتْهُم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتْهُم ، وأنشدوا :

---

(1) نفهم من هذا أنّ (الملاحظة) أخف من (المساكنة) وكلتاهما من آفات الطريق ، يلح القشيرى دائماً على التحذير منهما ، وقد بالغ أهل الملامة فى توضيح أضرارهما — كما تشهد بذلك النصوص التى رواها عنهم فى (رسالته) .

أقمتَ زماناً والعيونُ قريرةٌ وأصبحتَ يوماً والجفونُ سوافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكَشْفِ البلاء .

فلمَّا أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره[1] يرجعون، وعلى مناهجهم — فى تمردهم يسلكون.

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ يأيها الناسُ إنَّما بَغْيُكُمْ على أنفُسِكم متاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجعُكم فنُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون ﴾

« يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » معناه : تُمَتَّعُكم أياماً قلائلَ ، ثم تَلْقَوْنَ[2] غِبَّ ذلك وتبدأون تقاسون عذاباً طويلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه مِنَ السماءِ فاختلط به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتَّى إذا أخذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لَّمْ تَغْنَ بالأمسِ كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون ﴾

شَبَّهَ الحياةَ الدنيا بالماء المُنَزَّلِ من السماء يَنْبُتُ به النباتُ وتَخْضَرُّ الأرضُ وتَظْهَرُ الثمار ، ويوطِّن أربابُها عليها نفوسَهم ، فتصيبهم جائحةٌ سماوية بغتةً ، وتصير كأن لم تكن .

كذلك الإنسانُ بعد كمال سِنِّهِ وتمام قُوَّتِهِ واستجماع الخصال المحمودة فيه تَخْتَرِمُهُ المَنِيَّةُ ، وكذلك أموره المنتظمةُ تَبْطُلُ وتختلُّ بوفاته ، كما قيل :

(١) وردت (غيرم) والأكثر ملاءمة للسياق أن تكون (غيره) .

(٢) وردت (يلقون) وهى خطأ فى النسخ لعدم اتفاقها مع أسلوب الخطاب .

فَقَدْنَاه لمَّا تمَّ واختمّ بالعُلَى كذاك كسوفُ البدرِ عند تمامه

ومن وجوه تشبيه الأحوال الدنيوية بالماء المُنَزَّلِ من السماء أن المطرَ لا ينزل بالحيلة ، كذلك الدنيا لا تساعدها إلا القسمة .

ثم إن المطر إن كان لا يجيء إلا بالتقدير فقد يُسْتَسْقَى . . كذلك الرزق — وإنْ كان بالقسمة — فقد يُلْتَمَسُ من الله ويُسْتَعْطَى .

ومنها أن الماء فى موضعه سببُ حياة الناس ، وفى غير موضعه سببُ خرابِ للوضع ، كذلك المال لمستحقه سببُ سلامته ، وانتفاعِ المتصلين به ، وعند مَنْ لا يستحقه سببُ طغيانِه ، وسببُ بلاءِ مَنْ هو متصل به ، كما قيل : نِعَمُ الله لا تُعاب ولكنه ربما استعجم على إنسان ، وكما قيل :

يا دولةً ليس فيها من المعالى شظيَّةْ زولى فما أنتِ إلا على الكرام بَلِيَّةْ

ومنها أن الماء إذا كان بمقدارٍ كان سببَ الصلاح ، وإذا جاوز الحدَّ كان سببَ الخراب . . كذلك المال إذا كان بقَدْرِ الكفاية والكفاف فصاحبه مُنَعَّمٌ ، وإذا زاد وجاوز الحدَّ أوجب الكُفران والطغيان .

ومنها أن الماء ما دام جارياً كان طيباً ، فإذا طال مكثه تغيَّر . . كذلك المال إذا أنفقه صاحبُه كان محموداً ، فإذا ادَّخَره وأمسكه كان معلولا مذموماً .

ومنها أن الماء إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى ، وإذا كان غيرَ طاهرٍ فبالعكس . . كذلك المال إذا كان حلالاً ، وبعكسه لو كان حراماً .

ويقال كما أن الربيعَ تتورد أشجارُه ، وتظهر أنوارُه ، وتخضرُّ رِباعُه ، وتتزين بالنبات وِهَادُه وتِلاعه ، لا يُؤْمَن أنْ تصيبهَ آفة من غير ارتقاب ، وينقلب الحال بما لم يكن فى الحساب . كذلك منَ الناس مَنْ تكون له أحوالٌ صافية ، وأعمالٌ بشرط الخلوص زاكية ؛ غصونُ أُنْسِهِ مُتَدَلِّية ، ورياضُ قربِهِ مونِقةٌ . . ثم تصيبه عَيْنٌ فيذبل عودُ وِصاله ، وتنسدُّ أبوابُ عوائدِ إقباله ، كما قيل :

عينٌ أصابَتْكَ إنَّ العينَ صائبةٌ والعينُ تُسْرِعُ أحياناً إلى الحسَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ يدعو إلى دارِ السلامِ ويهدى مَن يشاء إلى صِراطٍ مستقيم ﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفى الحقيقة دعاهم إلى ما يوجِب لهم الوصول إلى دار السلام ؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره . والدعاء من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف .

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف ؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص .

ويقال التكليف بحقِّ سلطانه ، والتعريف بِحُكْمِ إحسانه .

ويقال الدعاء قَوْلُه والهداية طَوْلُه ؛ دَخَلَ الكلُّ تحت قوله ، وانفرد الأولياء بتخصيص طَوْلِه . دار السلام دار الله لأن السلام اسم مِنْ أسمائه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهى دار السلامة أى أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الحُرقة وسالمون من الفُرقة ؛ سَلِموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه ، وسَلِموا من الفُرْقة فوصلوا إلى عزيز لقائه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُه عن السجود للصَنَم ، وسَلِمَ قلبُه عن الشِّرْكِ والظُلم .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والذى سَلِمَ قلبُه عن محبة الأغيار درجتُه أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُه من الذنوب والأوضار .

ويقال قوم سلمت صدورُهم من الغِلِّ والحسد والحقد ، وسَلِمَ الخَلْقُ منهم ؛ فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، وليس لهم على أحد شىء ؛ فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمحسن من سَلِمَ الخَلْقُ بأجمعهم من قلبه .

« الصراط المستقيم » : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب

البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف[1] كالعيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » .

قوله جل ذكره : ﴿ للذين أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وزيادة ﴾ .

« أحسنوا » : أى عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالُهم على مقتضى الإذن .

ويقال « أحسنوا » : لم يُقَصِّروا فى الواجبات ، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات .

ويقال « أحسنوا » : أى لم يَبْقَ عليهم حقٌّ إلا قاموا به ؛ إن كان حقَّ الحقِّ فَمِنْ غير تقصير ، وإن كان من حقِّ الخَلْق فأداه من غير تأخير .

ويقال « أحسنوا »: فى المآل كما أحسنوا فى الحال،فاستداموا بما فيه واستقاموا ، والحسنى التى لهم هى الجنة وما فيها من صنوف النِّعم .

ويقال الحسنى فى الدنيا توفيق بدوام[2] ، وتحقيق بتمام ، وفى الآخرة غفران مُعَجَّل ، وعيان على التأبيد[3] مُحَصَّل .

قوله : « وزيادة » : فعلى موجِب الخبر وإجماعِ السلف النظرُ إلى الله . ويحتمل أن تكون « الحسنى » : الرُّؤية ، « والزيادة » . دوامُها . ويحتمل أن تكون «الحسنى» : اللقاء ، « والزيادةُ » : البقاء فى حال اللقاء .

ويقال الحسنى عنهم لامقطوعة ولا ممنوعة ، والزيادة لهم لاعنهم محجوبة ولا مسلوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ ولا ذِلَّةٌ
أولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها
خالدون ﴾ .

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب ، وبعكسه حديث الكفار حيث قال : « ووجوه يومئذ عليها غَبَرة » .

(١) (المعرفة بالوصف) احتراز هام جداً ، حتى لا يظن أن (العيان) يستشرف من (الذات) الصمدية ، وإنما يقتصر الأمر على (عرفان الأوصاف) الإلهية كالجلال والجمال والكرم .. إلى آخره .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « خير العمل أدومه وإن قل »

(٣) (التأبيد) معناه إلى الأبد فهم فى الجنة خالدون أبداً ، وستأتى لفظة (التأبيد) فى العقوبة أيضا بعد قليل .

« والذّلة » التى لا تصيبهم أى لا يُرَدُّوا مِنْ غير شهودٍ إلى رؤية غيره ، فهم فيها خالدون فى فنون أفضالهم ، وفى جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كَسَبُوا السيئاتِ جزاء سيئةٍ
بمثلها وتَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ مالهم مِنَ الله
مِنْ عاصمٍ كأنّما أُغْشِيَتْ وُجوهُهُم
قِطَعًا من الليلِ مُظْلِماً أُولئكَ
أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ ﴾ .

والذين كسبوا السيئاتِ وعملوا الزّلاتِ لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء فى « بمثلها » : صلة أى للواحد واحد .

« وترهقهم ذلة » : هو تأبيد العقوبة .

« ما لهم من الله من عاصم » أى ما لهم من عذابه من عاصم ، يسِمُوا ذُلَّ الحجاب ، ومُنُوا بتأبيد العذاب ، وأصابهم هوان البعاد . وآثارُ الحجاب على وجوههم لائحة فإنَّ الأسِرَّةَ تدلُّ على السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَحْشُرُهم جميعاً ثم نقولُ
للذينَ أشركوا مَكانَكم أنتم
وشركاؤكم ، فَزَيَّلْنَا بينهم وقال
شُرَكاؤُهم ما كنتم إيانا تَعْبُدُون *
فكفى باللهِ شهيداً بيننا وبينكم إن
كُنَّا عن عبادتكم لغافلين ﴾

يجمع بين الكفار والأصنام التى عبدوها من دون الله ، فتقول الأصنام : ما أمرناكم بعبادتنا . فيدعون على الشياطين التى أطاعوها ، وعلى الأصنام التى أمرتهم أن يعبدوها ، وتقول الأصنام : كفى بالله شهيداً ، على أنّا لم نأمركم بذلك ؛ إذ كُنَّا جماداً . وذلك لأنَّ اللهَ يُحْيِيها يوم القيامة ويُنْطِقُها .

وفى الجملة . . . يتبرأُ بعضُهم مِنْ بعض ، ويذوقُ كلٌّ وبالَ فِعْلِه .

وفائدةُ هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم ؛ فاشتغالُهم — اليومَ — بذلك مُحَالٌ[1] ، ولهم فى المآلِ — مِنْ ذلك — وبالٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُنالك تَبْلُو كلُّ نَفْسٍ مّا أسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقِّ ، وضلَّ عنهم مّا كانوا يَفْتَرون ﴾

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طَعْمَ هوانِهم ؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعدَ عن الله ، والطرْدَ من قِبَلِ الله ، وذلك جزاء مَنْ آثَرَ على اللهِ غيرَ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن يرزُقُكم من السماءِ والأرضِ أمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصارَ ، ومَن يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميِّتِ ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحى ، ومَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فسيقولون اللهُ فقُلْ أفلا تتقون ﴾

كما توَحَّدَ الحقُّ — سبحانه — بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً ، وكما لا خالِقَ سواه فلا رازقَ سواه .

ثم الرزق على أقسام : فللأشباح رزق : وهو لقومٍ توفيق الطاعات ، ولآخرين خذلان الزَّلات . وللأرواح رزق : وهو لقومٍ حقائق الوصلة ، ولآخرين — فى الدنيا — الغفلة وفى الآخرة العذاب والمهلة .

« أمَّنْ يملك السمعَ والأبصار » : فيكحل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يعميها عن التحقيق .

---

(1) المحال هنا معناها ما عُدِلَ به عن وجهه (أنظر هذا المعنى فى الوسيط) .

« ومن يخرج الحىَّ من الميت ويخرج الميت من الحى » : يخرج المؤمنَ من الكافر ، والكافرَ من المؤمن .

« فسيقولون الله » : ولكنْ ظنًّا ... لا عن بصيرة ، ونُطْقاً ... لا عن تصديق سريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فذلكُمُ اللهُ ربُّكم الحقُّ ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ فأنَّى تُصْرَفون ﴾

ما يكون من موضوعاتِ الحق ، ومتعلقاتِ الإرادة ، ومتناولاتِ المشيئة ، ومُجَنَّساتِ التقدير ، ومُصَرَّفاتِ القدرة — فهى أشباحٌ خاوية ، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ ربِّكَ على الذين فَسَقُوا أنَّهم لا يؤمنون ﴾

سَبَق لهم الحُكْمُ ، وصَدَقَ فيهم القولُ ؛ فلا لِحُكْمِهِ تحويل ولا لقوله تبديل ، فإنَّ العِلَلَ[1] لا تُغَيِّر الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل مِن شركائكم مَّن يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُه ؟ قلِ اللهُ يبدأُ الخلْقَ ثم يُعِيدُهُ فأنَّى تؤفكون ﴾

كَشَفَ قبيحَ ما انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخَلْقُ والإعادة ، وأثبت أن المعبودَ مَنْ مِنْه الخَلْقُ والإعادة .

قومٌ جعلوا له فى الإيجاد شركاء بدعوى القَدَرِ ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة . وكل هذا جنوحٌ إلى الكُفْرِ وذهابٌ عن الدِّين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُركائكم مَّن يهدى إلَى الحقِّ قُلِ اللهُ يهدى للحق أفمَن يهدى إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن

---

(١) أى — حسب مذهب القشيرى — أحكام الله السابقة لا تخضع لعلة ، غير أننا لا نستبعد أنها (الحيل) جمع حيلة ، فليس تدبير الإنسان يغير الحكم السابق فى الأزل .

لا يَهِدِّى إلّا أن يُهْدَىٰ فما لكم
كَيْفَ تَحْكُمون ﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجود ، وأنه ذو الحق ، وأنه مُحِقُّ الحقِّ .

والحقُّ من أوصاف الخَلْق ماحَسُنَ فعله وصحّ اعتقاده وجاز النطق به .

« والله يهدى للحق » : أى إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنيً ؛ فَمَنْ هداه الحقُّ للحقِّ وَقَفَه على الحقِّ ، وعزيزٌ منْ هداه الحقُّ إلى الحقِّ للحقِّ ، فماله نصيبٌ وما له حَظٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَتَّبِـعُ أَكْثَرُهُم إلا ظَنّاً إنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الحقِّ شيئاً إنَّ اللهَ
عليمٌ بما يفعلون ﴾

الظَّنُّ يُنَافى اليَقين ، فإنه ترجيح أحد طَرَفَى الحكم على الآخر من غير قَطْعٍ .

وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع ؛ فالظنُّ فى أوصاف الحقِّ معلولٌ ، والقطع — فى أوصاف النَّفس — لكل أحدٍ معلول . والعَبْدُ يجب أن يكون فى الحال خالياً عن الظن إذ لا يَعْرِفُ أحدٌ غيْبَ نَفْسِهِ فى مآله .

وفى صفة الحقِّ يجب أن يكونَ العبدُ على قطعٍ وبصيرة ؛ فالظنُّ فى الله معلول ، والظن فيما مِنَ الله غير محمود . ولا يجوز بوجهٍ من الوجوه أن يكون أهلُ المعرفةِ به سبحانه — فيما يعود إلى صفته — على الظن ، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيَّه — عليه السلام — أنْ يقول : « أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى »[1] ؟ وكما قلنا[2] :

طَلَعَ الصباحُ فلات حين سراج ... وأتى اليقين فلات حين حجاج
حصل الذى كُنَّا نؤمِّل نَيْلَهَ ... من عَقْدِ ألويةٍ وحلِّ رتاج

(١) آية ١٠٨ سورة يوسف .
(٢) الشعر هنا للقشيرى نفسه كما يستفاد من عبارته .

والبعد قَوَّضَ بالدُّنو خيامه والوصلُ وَكَّدَ سَجْلَه بمناج[1]
قَدْ حانَ عَهْدٌ للسرور لحبهلا لمواجم الأحزان بالإزعاج

قوله جل ذكره . ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفْتَرَىٰ
مِن دونِ اللهِ ولكن تصديقَ الذى
بين يديْه وتفصيل الكتاب لا ريْبَ
فيه مِن ربِّ العالَمين ﴾

انسدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمىً على عمىً ، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدىً على هدى ، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقومٍ سببَ تحيُّرِهم ، ولآخرين موجِبَ تبصُّرِهم

قوله جل ذكره : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ
مِثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دونِ
اللهِ إن كُنْتم صادقين ﴾

كلَّتْ القرائح ، وخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة ، واعترف كلُّ خطيب مِصْقعٍ بالعجز عن معارضة هذا الكتاب ، فلم يتعرَّضْ لمعارَضته إلا مَنْ افتضح فى مقالته .

قوله جل ذكره : ﴿ بل كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه
ولمَّا يأتِهِم تأويلُهُ كذلك كذَّبَ
الذين من قبلهم فانظر كيف كان
عاقبةُ الظالمين ﴾

قابلوا الحقَّ بالتكذيب لِتقَاصُرِ علومهم عن التحقيق ، فالتحقيقُ من شرط التصديق ، وإنما يؤمن بالغيب مَنْ لوَّح — سبحانه — لقلبه حقائق البرهان ، وصَرَفَ عنه دواعى الرِّيَب .

---

(١) السجل = الدلو العظيمة ، والمناج = حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يؤمِنُ به ومنهم مَّن لَّا يؤمن به، وربُّك أعْلَمُ بالمفسدين ﴾

فأمَّا الذين آمنوا فهم الذين كَحَلَ الحقُّ أبصارَ قلوبهم بنور اليقين ، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وَسَمَ قلوبَهم بالعمى فزلُّوا — بالضلالة — عن الهُدَى . . تلك سُنَّةُ الله فى الطائفتين، ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كذَّبوكَ فَقُل لِّى عملى ولكم عملُكم أنتم بريئُون مِمَّا أعمل وأنا برىءٌ مما تعملون ﴾

بَرِحَ الخفاء ، واستبانت الحقائق ، وامتاز[1] الطريقان ، فلا المحسنُ بجُرْمِ المسىء مُعَاقَبٌ ، ولا المسىء بجُرْمِ المحسن مُعاتَب ، كُلٌّ على حِدَةٍ بما يعمله وعلى ما يفعله مُحَاسَب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يَسْتَمِعُون إليكَ أفأنت تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يَعقِلُون ؟! ﴾ .

من استمع بتكلفه ازداد فى تَخَلُّفِهِ بزيادة تصرفه ، ومَنْ اسمع الحقُّ بِتَفَضُّلِهِ — سبحانه — استغنى فى إدراكه عن تَعَمُّلِهِ . والحقُّ — سبحانه — يُسْمِعُ أولياءه ما يناجيهم به فى أسرارهم ، فإذا سمعوا دعاء الواسطة[2] قابلوه بالقبول لِمَا سَبَقَ لهم من اسماعِ الحقِّ . ومَنْ عَدِمَ أسْماعَ الحقِّ إياه من حيث التفهيم لم يَزِدْه سماعُ الخَلْقِ إلا جحداً على جحد ، ولم يحظَ به إلا بُعداً على بُعد .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن ينظر إليكَ أفأنتَ تَهْدى العُمْىَ ولو كانوا لا يُبْصِرون ؟! ﴾ .

مَنْ سُدَّتْ بصيرتُه بالغفلة والغيبة لم يَزِدْه إدراكُ البَصَرِ إلا حجبةً على حجبة ، ومَنْ

(١) (امتاز) هنا معناها اتضح الفرق بينهما .
(٢) المقصود بالواسطة النبي عليه الصلاة والسلام .

لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسمع من الله بالله ، فقصاراه العمى والصمم ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[1] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : « فبى يسمع وبى يبصر »[2] .

وأنشد قائلهم :

تأملْ بعين الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يظلِمُ الناسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنْفُسَهم يَظْلِمون ﴾ .

نَفَى عن نَفْسِه ما يستحيل تقديره فى نعته ، وكيف يوصَفُ بالظلم وكلُّ ما يُتَوَهَّمُ أنْ لو فَعَلَه كان له ذلك ؟ إذ الحقُّ حقُّه والمُلْكُ مُلْكُه . ومَنْ لا يَصِحُّ تقديرُ قبيحٍ منه — أنَّى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَحْشُرهم كأنْ لَمْ يلبثوا إلا ساعةً من النهارِ يتعارفون بينهم قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدِين ﴾ .

الأيامُ والشهور ، والأعوام والدهور بعد مُضيها فى حُكْمِ اللحظة لمن تفكَّرَ فيها ، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتى من الوقت قريب ، وكأنَّ قَدْرَ الماضى من الدهر لم يُعْهَدْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا نُرِيَنَّك بعضَ الذى نَعِدُهم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلينا مَرْجِعُهم ثُمَّ اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون ﴾ .

---

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

(٢) « حتى أحبه فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها » — حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأحمد عن عائشة .

معناه أن خبره صدق ، ووعده ووعيده حق ، وبعد النَّشرِ حَشْرٌ ، وفى ذلك الوقت مُطَالَبَةٌ وحسابٌ ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون المعلومُ مُشَاهَداً موجوداً !

قوله جل ذكره : ﴿ ولِكُلِّ أُمَّةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولُهم قُضِىَ بينهم بالقِسطِ وهم لا يُظْلَمون ﴾ .

لم يُخْلِ زماناً مِنْ شَرْعٍ ، ولم يُخْلِ شرعاً مِنْ حُكْمٍ ، ولم يُخْلِ حُكْماً مما يَعْقُبُه من ثوابٍ وعقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ﴾ .

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب ، فأمَّا أهل التحقيق فليس لهم لواردٍ يَرِدُ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده ، أو استعجالٌ على حين كَوْنِه ، ولا إذا وَرَدَ استقبالٌ لما تضمنه حُكْمُهُ ؛ فهم مطروحون فى أسرِ الحُكْمِ ، لا يتحرك منهم — باختيارهم — عِرْقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لاَّ أمْلِكُ لنفسى ضَرًّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجلٌ ، إذا جاء أَجَلُهم فلا يستأخِرون ساعةً ولا يستقدِمون ﴾ .

المملوكُ متى يكون له مِلْك ؟!

وإذا كان سيدُ البرايا — عليه الصلاة والسلام — لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً . . فمَنْ نَزَلَتْ رُتْبَتُه ، وتقاصَرَتْ حالُته متى يملك ذرةً أو تكون باختياره وإيثاره شمةٌ ؟

طاح الذى لم يكن[1] — فى التحقيق ، وتفرَّدَ الجبارُ بنعت الملكوت .

---

(١) (الذى لم يكن) يقصد بها الحادث من إنسان وحيوان وعين وأثر .. الخ .

قوله جل ذكره: ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾

مَنْ عرَفَ كمالَ القُدرة لم يأمَنْ فجاءَةَ الأخذِ بالشدة، ومن خاف البيات لم يستلذ السُّبات.

ويقال مَنْ توسَّدَ الغفلةَ أيقظته فجاءةُ العقوبة، ومَنْ استوطن مركب الزَّلَّه عَثَرَ فى وَهْدَةِ المحنة.

قوله جل ذكره: ﴿ أثُمَّ إذا ما وقع آمنتُم به آلآنَ وقد كنتم به تستعجلون ﴾

بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير.

ويقال لا حُجَّةَ بعد إزاحة العلة، ولا عذرَ بعد وضوح الحجة.

قوله جل ذكره: ﴿ ثم قيل للذين ظَلَمُوا ذوقوا عذابَ الخُلْدِ هل تُجْزَوْن إلا بما كنتم تَكْسِبُون ﴾

لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا تجرع مامنه سقت، ولا يحصد زارعٌ غَلَّةً إلا مامنه زرع، وفى معناه قالوا:

سَنَنْتَ فينا سَنَناً قَذَفَ البلايا عقبه

يصبر على أهوالها مَنْ برَّ يوما رَبَّه[1]

قوله جل ذكره: ﴿ ويَسْتَنْبِئُونَكَ أحقٌّ هُوَ قُلْ: إى وربى إنَّه لحقٌّ وما أنتم بِمُعْجِزين ﴾

صرَّحْ بالإخبار عند استخبارهم، وأَعْلِمْ بما يزيل الشُّبْهَةَ عمَّا التبس على جُهَّالِهم، وأكِّدْ إخبارَكَ بما تذكره مِنَ القَسَمِ واليمين، مضافاً ذلك إلى ماتُسْلِفُهُ من التَّبيين. على أنه لاينفعهم

(١) الشطر الثانى من هذا البيت مطموس غير واضح، ولكننا أكملناه حسبما ورد النص فى موضع سبق.

نُصْحُك ، ولا يؤثِّر فيهم وعظُكَ .. كيف لا ؟ وقد جُرِّعوا شرابَ الُحجبة ، وَوُسِمُوا بِكَيِّ الفُرقة ، فلا بصيرة لهم ولا (. . .)[1] ولا فهمَ ولا حصافة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مافي الأرضِ لافتَدَتْ به وأَسَرُّوا الندامةَ لمَّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بينَهم بالقِسْطِ وهم لا يُظْلَمون ﴾

لا يُقْبَلُ منهم عَدْلٌ ولا سَرَفٌ[2] ، ولا يحصل فيما سَبَقَ لهم من الوعيد خُلْفٌ . ولاندامة تنفعهم وإنْ صَدَقوها ، ولا كرامةَ تنالهم وإنْ طلبوهَا ، ولا ظُلْمَ يجرى عليهم ولا حيف ، كلا . . . بل هو اللهُ العَدْلُ في قضائه ، الفَرْدُ في علائه بنعت كبريائه .

قوله جل ذكره : ﴿ ألاَ إنَّ للهِ مافي السمٰواتِ والأرضِ ألاَ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ولكن أكثرَهم لا يعلمون ﴾

الحادثات بأسْرِها لله مِلْكاً ، وبه ظهوراً ، ومنه ابتداء ، وإليه انتهاء ؛ فقولُه حقٌّ ، ووعدهُ صِدْقٌ ، وأمره حَتْمٌ ، وقضاؤه باتٌّ . وهو العَلِيُّ ، وعلى ما يشاء قويٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو يُحْيِي ويُمِيتُ وإليه تُرْجَعُون ﴾

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة ، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة ، فنفوسُ العابدين تَلَفُها فنون المجاهدات ، وقلوب العارفين شَرَفُها عيون المشاهدات .

ويقال يحيي مَنْ أقبل عليه ، ويميت مَنْ أعرض عنه .

ويقال يحيي قلوبَ قوم بجميل الرجاء ، ويميت قلوبَ قومٍ بِوَسْمِ القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ قد جاءتكم مَوْعِظة مِّن

(١) مشتبهة .

(٢) السرف هنا معناها مجاوزة الحد .

ربِّكم وشِفاءٌ لِمَا فى الصدور وهدىً
ورحمةٌ للمؤمنين﴾

الموعظة الكافة . . ولكنها لا تنجع في أقوامٍ ، وتنفع فى آخرين ؛ فَمَنْ أصغى إليها بَسْمع سِرِّه اتضح نورُ التحقيق فى قلبه ، ومَنْ استمع إليها بنعت غَيْبَتِه ما اتصف إلا بدوام حجبته .

ويقال الموعظة لأربابِ الغيبة لِيَئُوبُوا ، والشفاء لأصحاب الحضور ليطيبوا .

ويقال « الموعظة » : للعوام ، « والشفاء » : للخواص ، « والهُدى » لخاص الخاص ، « والرحمة » لجميعهم ، وبرحمته وَصَلوا إلى ذلك .

ويقال شفاءُ كلِّ أحدٍ على حَسَبِ دائه ، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة ، وشفاء المطيعين بوجود النعمة[1] ، وشفاء العارفين بوجود القربة ، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة ، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات ، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبرحمته
فبذلك فليفرحوا هُوَ خيرٌ مما
يجمعون﴾ .

« الفضل » : الإحسانُ الذى ليس بواجبٍ على فاعله ، « والرحمة » إرادة النعمة وقيل هى النعمة .

والإحسان على أقسام وكذلك النعمة ، ونِعَمُ اللهِ أكثر من أنْ تحصَى .

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات ، والرحمة ما أزاحَ عنهم من الآفات .

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجراء الطاعات ، ورحمته ماعَصَمَهم به من ارتكاب الزَّلات . ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق .

(١) نعلم من مذهب القشيرى أن (الرحمة) من أوصاف الذات ، و (النعمة) من أوصاف الفعل . . فتأمل كيف يرتبط مصير (المذنبين) بوصف من أوصاف ذاته ، ولاحظ كيف يفتح الصوفية بذلك أبواب الأمل أمام التائبين .

ويقال فضل الله ما يخُصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته ما يخص به أهلَ الزلاّتِ من وجوه غفرانه .

ويقال فضل الله الرؤية ، ورحمته إبقاؤهم فى حالة الرؤية .

ويقال فضل الله المعرفة فى البداية ، ورحمته المغفرةُ فى النهاية .

ويقال فضل الله أنْ أقامَكَ بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقَّه بحكم البيان إلى أنْ تراه غداً بكشف العيان .

قوله : « فبذلك فليفرحوا » أى بما أهَّلَهم له ، لا بما يتكلفون من حركاتهم وسكناتهم ، أو يَصِلُونَ إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعملهم . « هو خيرٌ مما يجمعون » : أى ما تُتْحَفُونَ به من الأحوال الزاكية خيرٌ مِمّا تجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذى لَكَ منه — فى سابق القسمة — خيرٌ مما تتكلَّفُه من صنوف الطاعة والخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتم ما أنزلَ اللهُ لكُم
من رِزْقٍ فَجَعَلْتُم منه حراماً وحلالاً
قُلْ آللهُ أذِنَ لكم أمْ على اللهِ
تَفْتَرون ؟ ﴾ .

يعَنِّفُهم ويُقَرِّعهم (١) على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم ، ويُظْهِر كذبهم فيما تقوَّلوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ظَنُّ الذين يَفْتَرون على اللهِ
الكَذِبَ يومَ القيامةِ إنَّ اللهَ لَذُو
فَضْلٍ على النَّاسِ ولكنَّ أكثَرَهم
لا يَشْكُرُون ﴾ .

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب .

---

(١) قرع فلانا أى أوجعه باللوم والعتاب (المحيط)

ثم قال: «إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس» في إمهالِ مَنْ أجرَم، والعصمةِ لِمَنْ لم يُجرِم.

قوله جل ذكره: ﴿وما تكونُ في شأنٍ وما تتلو منه مِن قرآنٍ ولا تعملون مِنْ عملٍ إلا كُنّا عليكم شهوداً إذ تُفيضُون فيه، وما يَعزُبُ عن ربِّكَ مِن مِثقال ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلاَّ في كتابٍ مُبين﴾

خَوَّفَهم بما عرَّفهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤية ماسيفعلونه من فنون أعمالهم. والعلمُ بأنه يراهم يوجِبُ استحياءهم منه، وهذه حال المراقبة، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحيي منه، وتَركَ متابعة هواه، ولا يُحوِّم حَولَ ما نهاه، وفي معناه أنشدوا:

كأنَّ رقيباً منك حالٌّ بمهجتي إذا رُمْتُ تسهيلا عليَّ تَصعَّبَا

وأنشدوا:

أُعاتِبُ عَنْكَ النفْسَ في كلِّ خَصلَةٍ تعاتبني فيها وأنت مقيم

«وما يعزُبُ عن ربك من مثقال ذرة»: وكيف يخفى ذلك عليه، أو يتقاصر علمه عنه، وهو منشئُه وموجِدُه؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة، وإنما قال: «إلا في كتاب مبين»: ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم — لعدم اكتفائهم في الامتناع عمَّا نُهُوا عنه — برؤيته وعلمه.

قوله جل ذكره: ﴿ألاَ إنَّ أولياء اللهِ لاخوفٌ عليهم﴾.

الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل، وهو مَنْ تَوَالَت طاعاته، من غير أن يتخللها عصيان.

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول؛ فيكون الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن.

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي فيعصمه الحقُّ — سبحانه — على دوام أوقاته من الزَّلاَّت .

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالولىُّ لا يكون إلا محفوظاً .

والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يُلِمُّ بذَنْبٍ ألْبَتَّةَ ، والمحفوظ قد تحصل منه هَنَات ، وقد يكون له — فى الندرة — زَلاَّتٌ ، ولكن لا يكون له إصرار : « أولئك الذين يتوبون من قريبٍ » [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ لا خَوْفٌ عليهم ولاهم يحزنون ﴾ .

حسنٌ ما قيل إنه « لا خوف عليهم » : فى الدنيا ، « ولا هم يحزنون » : فى العاقبة . ولكن الأَوْلى أنْ يقال إنّ الخواص منهم لا خوفٌ عليهم فى الحال — لأنَّ حقيقةَ الخوفِ توقُّع محذورٍ فى المستقبل ، أو ترقُّب محبوبٍ يزول فى المستأنف . . وهم بِحُكْمِ الوقت ؛ ليس لهم تطلُّعٌ إلى المستقبل . والحزن هو أن تنالهم حُزُونة فى الحال ، وهم فى رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجرى فلا تكون لهم حزونة الوقت . فالولىُّ لا خوفٌ عليه فى الوقت ، ولا له حزن بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون وليّاً إلا إذا كان موفَّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات . وكلُّ خَصْلَةٍ حميدةٍ يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هى صفة الأولياء . ويقال الولىُّ مَنْ فيه هذه الخصلة .

ويقال الولىُّ من لا يُقَصِّر فى حقِّ الحق ، ولا يؤخِّر القيام بحق الخلق ؛ يطيع لا لخوف عقاب ، ولا على ملاحظةِ حسن مآب ، أو تطلعٍ لعاجلِ اقتراب ، ويقضى لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً ، ولا يقتضى من أحدٍ حقًّا له ، ولا ينتقم ، ولا ينتصف [2] ولا يشمت ولا يحقد ، ولا يقلد أحداً مِنَّةً ، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قَدْراً ولا قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا فى الحال ، واتقوا الشِّرْكَ فى المآل . ويقال « آمنوا » أى قاموا

---

(١) آية ١٧ سورة النساء .
(٢) أى إذا أساء إليه أحد لم يطلب من مخلوق إنصافاً ، وإنما عفا وتساهل ، تاركا الأمر لله .

بقلوبهم من حيث المعارف . « وكانوا يتقون » : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف .

ويقال « آمنوا » بتلقي التعريف . « واتقوا » : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لَهُم الْبُشْرَىٰ في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ، لا تبديلَ لكلمات الله ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ .

القيام بالأمر يدل على الصحة ، فإذا قاموا بما أُمِروا به ، واستقاموا بِتَرْكِ ما زُجِروا عنه بَشَّرَتْهُم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام ، وبَشَّرتهم الحقيقة باستيجاب الإكرام ، بما كوشِفوا به من الإعلام .. وهذه هي البشرى في عاجلهم . وأما البُشرى في آجِلِهم : فالحقُّ — سبحانه — يتولَّى ذلك التعريف ، قال تعالى : « يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوان »[1]

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهم بنفوسهم بسقوط مآربهم ، وأيُّ مُلْكٍ أتمُّ من سقوط المآرب ، والرضا بالكائن[2] ؟ هذه هي النعمة العظمى ، ووجدانُ هذه الحالة هو البشرى الكبرى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلْق أنَّ التي للخلْق عِدَةٌ[3] بالجميل ، والذي لهم نَقْدٌ ومحصول .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم إنَّ العِزَّةَ لله جميعاً هو السَّميعُ العليم ﴾ .

العبدُ مادام متفرقاً يضيقُ صدرُه ويستوحش قلبُه بما يسمع ويشهد من الأغيارِ والكفارِ ما تَتَقَدَّسُ عنه صفةُ الحقّ ، فإنْ صار عارفاً زالَتْ عنه تلك الصفة لتحققه بأنَّ الحقَّ سبحانه وراءَ كلِّ طاعةٍ وزَلَّةٍ ، فلا له — سبحانه — من هذا استيحاش ، ولا بذلك استئناس .

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

(٢) الكائن هنا معناها الواقع ، فلا يتطلعون إلى زيادة أو تغيير .

(٣) عدة = وعد ، وتذكر ما قلناه في هامش سابق عن الوعد والنقد .

ثم يتحقق العارفُ بأنَّ المُجرِيَ لطاعةِ أربابِ الوِفاق — اللهُ ، والمُنْشِئ لأحوال أهل الشِّقاقِ — اللهُ . لا يبالى الحقُّ بما يجرى ولا يبالى العبدُ بشهود ما يجرى ، كما قيل :

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرْفا فَنَعْتُ الخَلْقِ فيهم مستعار

قوله جل ذكره ﴿ ألا إنَّ للهِ مَن فى السمٰوات ومَن فى الأرضِ وما يتَّبِعُ الذين يَدْعُون من دونِ اللهِ شُركاء إن يتَّبعون إلا الظنَّ وإنْ هم إلا يَخْرُصُون ﴾

لله مَنْ فى السمٰوات ومَنْ فى الأرض مِلْكاً ، ويبدى عليهم ما يريد حكما جَزْماً ؛ فلا لقبوله عِلَّة ، ولا موجِبَ لردِّه زَلَّة ، كلا ... إنها أحكامٌ سابقة ، لم تُوجِبْها أجرامٌ لاحقة ، ولا طاعاتٌ وعباداتٌ صادقة .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى جَعَلَ لكم الليلَ لتسكُنُوا فيه والنهارَ مُبْصِراً إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون ﴾

الليلُ لأهل الغفلة بُعْدٌ وغيبة ، ولأهل الندم[1] توبة وأوبة ، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة ؛ فالليل بصورته غير مُؤْنِسٍ ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلامِ الليلِ عندى من يَدٍ[2] تُخَبِّرُ أن المانوية تكذب

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا اتَّخذ اللهُ وَلَداً سبحانه هو الغنى له ما فى السمٰوات وما فى الأرضِ إنْ عندَكم مِّن سلطان بهذا ، أتقولون على اللهِ ما لا تعلمون ﴾

(١) وردت (القوم) وهى خطأ فى النسخ إذ لا معنى لها هنا والمناسب (الندم) .
(٢) وردت (مزيد) وهى خطأ في النسخ .

الوَلدُ بعض الوالد ، والصمدية تَجِلُّ عن البعضية ، فنَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن ذلك بقوله « سبحانه » .

ثم إنه لم يعجِّلْ لهم العقوبة — مع قبيح قالتهم ومع قدرته على ذلك — تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده .

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّدِه ، فلا قسيمَ له ، ولا يجوز في نعته التبنِّي أيضاً لِتفَرُّدِه وأنه لا شبيهَ له .

قوله : « هو الغنيُّ » : الغِنَي نَفْيُ الحاجة ، وشهوةُ المباشرةِ حاجة ، ويتعالى عنها سبحانه .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّ الذين يفْتَرون على اللهِ الكذبَ لا يُفْلِحون ﴾

ليس لهم بما هم فيه استمتاع ، إنما هي أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة ، فلا قَدَمٌ لهم بعد ذلك تُرْفَع ، ولا نَدَمٌ ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نَبأَ نوحٍ إذ قال لقومِهِ يا قومِ إن كان كَبُر عليكم مَقامي وتذكيري بآياتِ اللهِ فعلى اللهِ توكلتُ فأَجْمِعوا أمرَكم وشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عليكم غُمَّةً ثم اقضُوا إلىَّ ولا تُنْظِرون ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم — لِمَا كان يمسُّه من مقاساة الشِّدَّة من قومه ، فإنَّ أيامَ نوحٍ — وإنْ طالَت — فما لَبِثَتْ كثيراً إلا وقد زالت ، كما قيل :

وأحْسَنُ شيء في النوائب أنها   إذا هي نابت لم تكن خلدا

ثم بيَّنَ أنه كان يتوكل على ربِّه مهما فعلوا . ولم يحتشم عبدٌ — ما وَثِقَ بربِّه — منْ كلِّ ما نَزَلَ به . ثم إن نوحاً — عليه السلام — قال : إني توكلت على الله ، وهذا عين التفرقة ،

وقال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : « يأيها النبيُّ حَسْبُكَ الله »[1] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تَوَلَّيْتُم فما سألتكم من أجرٍ
إنْ أجرِيَ إلا على اللهِ وأُمِرْتُ أنْ
أكونَ من المسلمين ﴾

إذا كان عملُه لله لم يَطْلُب الأجْرَ عليه من غير الله ، وهكذا سنّتُه فى جميع أولياء الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فكذَّبوه فنَجَّيْناه ومَن معه
فى الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا
الذين كذَّبوا بآياتنا فانظر كيف كان
عاقبةُ المُنْذَرين ﴾

أغرق قومَه بأمواج القَطْرة ، وفى الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة ، وحفظ نوحاً — عليه السلام — وقومه فى السفينة ، وفى الحقيقة نجّاهم فى سفينة السلامة . كان نوحٌ فى سابق حكمه من المحروسين ، وكان قومُه فى قديم قضائه من جملة المُغْرَقين ، فَجرَتْ الأحوال على ما جرَتْ به القسمةُ فى الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قومهم
فجاءوهم بالبيناتِ فما كانوا ليؤمنوا
بما كذَّبوا به مِن قَبْلُ كذلك
نَطْبَعُ على قلوبِ المُعْتَدين * ثم بعثنا
مِنْ بعْدِهم موسى وهارون إلى فرعون
ومَلَئِه بآياتِنا فاستكبروا وكانوا
قوماً مُجْرِمين ﴾

---

(١) آية ٦٤ سورة الأنفال

قصَّ عليه — صلوات الله عليه وسلامه — أنباء الأولين ، وشرح له جميع أحوال الغابرين ، ثم فَضَّلَه على كافتهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أنهاراً وهو البحر ، ثم به انتظم عِقْدُهم ، وبنورِه أَشْرَقَ نهارُهم ، وبظهوره خُتِم عددُهم[1] ، كما قيل :

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أجْلِه حيًّا غدٌ والتفت الأمسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاءهم الحقُّ مِنْ عندِنا قالوا إنَّ هذا لسِحْرٌ مبين ﴾

ما زادَهم الحقُّ سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغيانا ، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَه في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هدىً إلا ويزيد في قلوبهم عَمىً ، ثم خفي عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

« يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » : نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا ، وكذا صفةُ مَنْ أقصته السوابقُ ، وردَّته المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عمَّا وَجَدْنا عليه آباءنا وتكونَ لكما الكبرياء في الأرضِ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا ، واستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم شؤمُ العقيدةِ وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دَعَوْهم إلى الله لتكونَ لهم الكبرياء على عباد الله ، ولم يعلموا أنهم إنما دَعَوْهم إلى الله بأمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال فرعونُ ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبَرَّأَ منهم وتَوَعَّدَهم

---

(١) قارن ذلك بما يقوله الحلاج في طواسينه وبما يقوله أصحاب « نظرية الانسان الكامل » عن الحقيقة المحمدية لتلحظ مدى اعتدال هذا الامام السني المتحفظ في نظرته لشخصية الرسول عليه صلاة الله وسلامه .

بقوله : لأفعلنَّ ولأصنعنَّ ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تئول إلى العدواة والبغضة ، قال تعالى : « الأخِلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدو »(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جاء السحرةُ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلْقُون * فلمَّا ألقوا قال موسى ما جِئْتُم به السِّحْرُ إنَّ اللهَ سيُبْطله إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾

أمَرَهُم أمراً يُظْهِرُ به بُطْلانَهم ليُدخِلَ الحقَّ على ما أتوا به من التمويه ، فلذلك قال موسى عليه السلام : « إن الله سيبطله » ؛ فلمَّا التقمت عصا موسى — جميع ما جاءوا به من حِبَالِهم وعِصِيِّهم — حين قَلَبَها اللهُ حيَّةً .. عَلِمُوا أنَّ اللهَ أبطل تلك الأعيان وأفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُحِقُّ اللهُ الحقَّ بكلماته ولو كَرِه المجرمون ﴾ .

من جملة ما أحقَّه أن السَّحَرَةَ كان عندهم أنهم يَنْصُرون فرعون ويجيبونه فكانوا يُقْسِمون بعِزَّته حيث قالوا « بعِزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون » وقال الحقُّ سبحانه : بعزتي إنكم لمغلوبون ، فكان على ما قال تعالى دون ما قالوه ، وفي معناه قالوا :

كم رَمَتْني بأسْهُم صائباتٍ وتعمَّدْتُها بسَهْمٍ فطاشا

قوله جل ذكره : ﴿ فما آمَنَ لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ مِن قومِه على خوف من فرعونَ ومَلَئِهِم أن يَفْتِنَهم وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسْرِفين ﴾ .

أهلُ الحقيقة في كل وقتٍ قليلٌ عَدَدُهم ، كبيرٌ عند الله خَطَرُهم .

---

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كُنتم آمَنتم
بالله فعلَيْهِ توكَّلوا إن كنتُم مسلمين ﴾

بيّن أن الإيمان ليس من حيث الأقوال . . بل لابد فيه من صدق الأحوال قصداً .
وحقيقةُ التوكل تَوَسُّلٌ تقديمُه متَّصِلٌ ، ثم يعلم أنه بفضله — سبحانه — تَحْصُلُ نجاتُه ،
لا بما يأتى به من التكلُّف — هذه هى حقيقة التوكل(1).

قوله جل ذكره : ﴿ فقالوا على الله توكلنا ربَّنا لا تجْعلْنا
فتنةً للقوم الظالمين ﴾ .

تبرأنا مما مِنَّا مِنَ الحوْل والمُنَّة ، وتحققنا بما منك من الطوْل والمِنّة .

فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك فى عقوبتك بانتقامك ، وارحمنا بلطفك وإكرامك ،
ونجِّنا مِمَّنْ غضِبْتَ عليهم فأذللتَهم ، وبِسكِّ فراقك وتَّمْتَهم

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحيْنا إلى موسى وأخيه أن
تَبوَّءا لقومِكما بمِصْرَ بيوتاً واجعلوا
بيوتكم قِبْلةً وأقيموا الصلاة
وبَشِّرِ المؤمنين ﴾ .

مَهَّدْ إليهم لعبادتنا مَحالَّ وهى نفوسهم ، ولمعارفنا منازِلَ وهى قلوبهم ، ولمحبتنا مواضعَ
وهى أرواحهم ، ولمشاهدتنا معاهِدَ وهى أسرارهم ؛ فنفوس العابدين بيوت الخدمة ، وقلوب
العارفين أوطان الحشمة ، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة ، وأسرار الموحدين منازل الهيبة(2)

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى رَبَّنا إنَّك آتيتَ فِرْعَوْنَ
وملأه زينةً وأموالاً فى الحياة الدنيا
رَبَّنا ليُضلُّوا عن سبيلك ربنا اطمس

(1) أى يفنى عن التوكل برؤية الوكيل . . كما يقول إبرهيم الخواص (ت ٢٩١)
(2) هذه الفقرة هامة فى توضيح المسكات الباطنية وترتيبها ووظائفها فى المعراج الروحى — فى مذهب هذا الصوفى .

على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم
فلا يؤمنُوا حتى يَرَوُا العذاب
الأليم ﴾ .

لما يَئِس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السُّخْطة وإذاقة الفرقة . ومن المعلوم أنّ الأنبياء — عليهم السلام — مِنْ حقهم العصمة ، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى فى الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد أُجِيبَت دَّعوَتُـكما فاستقيما
ولا تَتَّبِعانِّ سبيلَ الذين لايعلمون ﴾ .

الاستقامةُ فى الدعاء تَرْكُ الاستعجالِ فى حصول المقصود ، ولا يَسْقُطُ الاستعجالُ من القلب إلا بوجدان السكينة فيه ، ولا تـكون تلك السكينة إلا بِحُسْن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب

ويقال ينبغى للعبد أن يستقلَّ بالله[1] ما أمكنه ، فعند هذا يقلُّ دعاؤه . ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب — فى جوازه — فالواجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكِنَ الجأشِ .

ويقال من شرط الدعاء صِدْقُ الافتقار فى الابتداء ، ثم حُسْنُ الانتظار فى الانتهاء ، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة فى الدعاء سقوط التقاضى[2] على الغيب ، والخمود عن الاستعجال بِحُسْنِ الثقة ، وجميل الظَّن .

ويقال فى الآية تنبيهٌ على أنَّ للأمورِ آجالاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم فى الوقت المعلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَاوَزْنَا ببنى إسرائيلَ البَحْرَ

(١) الاستقلال بالله الاكتفاء به وعدم النظر إلى النفس أو الأغيار .
(٢) التقاضى على الغيب معناه النظر إلى ما يأتى من الغيب بعين التقليل أو التكثير ، البطء أوالسرعة .. فى ذلك إقحام لحظوظ النفس فى حقوق الحق .

فأتْبَعَهُمْ فرعونُ وجنودُه بَغْياً
وعَدْواً حتى إذا أدْرَكه الغَرَقُ ،
قال : آمنتُ أنَّه لا إلَهَ إلا الذى
آمَنَتْ به بنوا إسرائيلَ وأنا من
المسلمين ﴾

حَمَلَتْ العِزَّةُ فرعونَ على تَقَحُّمِ البحر على إثرهم ، فلمَّا تحقَّقَ الهلاكُ حَمَلَتْه ضرورةُ الحيلةِ على الاستعاذة ، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار .

ويقال لما شهد صَوْلَةَ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة[1] ، لكن : « بعد شهود البَأْسْ لا ينفع التخاشعُ والابتئاسْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ آلآنَ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ
مِنَ الْمُفسِدِين ﴾

. . . أبَعْدَ طولِ الإمهال ، والإصرار على ذميمِ الأفعال ، والرَّكْضِ فى ميدان الاغترار ، وانقضاء وقت الاعتذار ؟ ! هيهات ! لقد استوجَبْتَ أن تُرَدَّ فى وجهك ، فلا لِعُذْرِكَ قَبُولٌ ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصولٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فاليومَ نُنَجِّيكَ ببدنِكَ لتكونَ
لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً ، وإنَّ كثيراً من
النَّاسِ عن آياتِنا لَغَافِلون ﴾

لَنُشْهِرَنَّ تعذيبَكَ ، ونُظْهِرَنَّ — لِمَنْ استبصر — تأديبَك ، لِتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ عِبْرة ، وتزدادَ حين أفَقْتَ أسَفاً وحسرةً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَقَدْ بَوَّأْنا بنى إسرائيلَ مُبَوَّأَ
صِدْقٍ ورزقناهم منَ الطيباتِ ، فما
اختلفوا حتى جاءهُم العِلْمُ إنَّ ربَّك

---

(١) تصح أن تكون كذلك ، وتصح أن تكون (الغلظة) بالظاء ، وهى قسوة القلب من الكفر والعناد ، ولا نستبعد أيضاً أن تكون : أفاق من سكر (الغفلة) .

يقضى بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا
فيه يختلفون ﴾

أذللنا لهم الأيامَ ، وأكثرنا لديهم الإنعامَ ، وأكرمنا لهم المقامَ ، وأتحنا لهم فنونَ الحسناتِ ، وأدمْنا لهم جميع الخيراتِ . . . فلمَّا قابلوا النعمة بالكفران ، وأصرُّوا على البَغْيِ والعدوان أذقناهم سوء العذاب ، وسَدَدْنا عليهم أبوابَ ما فتحنا لهم من التكريم والإيجاب ، وذلك جزاء مَنْ حادَ عن طريق الوِفاق ، وجَنَحَ إلى جانب الشِّقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كُنْتَ فى شكٍ مما أنزلنا
إليكَ فاسْألِ الذينَ يقرءونَ
الكتابَ من قَبْلِك لقد جاءكَ
الحقُّ من ربِّكَ ، فلا تكونَنَّ مِنَ
المُمْترين ﴾

ما شكَّ — صلى الله عليه وسلم — فيما عليه أُنْزِل ، ولا عن أحدٍ منهم ساءلَ ، وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل ، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل .

ويقال صفةُ أهل الخصوص ملاحظةُ أنفسِهم وأحوالِهم بعين الاستصغار .

ويقال فإنْ تنزَّلْتَ منزلةَ أهلِ الأدب فى تركِ الملاحظات فَسَلْ عمَّن أرسلنا قَبْلَكَ فهل بَلَّغْنَا أحداً منزلتك ؟ وهل خَصصنْا أحداً بمثل تخصيصكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبوا
بآياتِ اللهِ فتكونَ منَ الخاسرين ﴾

ما كان منهياً عنه ، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً ، فلا بد من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يَجُزْ فى صفته — صلى الله عليه وسلم — التكذيبُ بآياتِ الله ؛ لأنه نُهِىَ عنه لا لكونه قبيحاً بالعقل[1] حتى يقال كيف نُهِىَ عنه وكان ذلك بعيداً منه ؟

(١) يغمز القشيرى هنا بقول المعتزلة : إن القبيح ما رآه العقل قبيحاً والحسن ما رآه العقل حسناً . ويرى القشيرى التعويل على الشرع فى هذا الخصوص — كما هو واضح من إشارته .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عليهم كلمةُ رَبِّك لا يُؤْمِنون ﴾

فالأعداء حَقَّتْ عليهم كلمةُ بالعقاب ، والأولياء حقت عليهم كلمةٌ بالثواب ؛ فالكلمة أزليَّة ، والأحكام سابقة ، والأفعال فى المستأنف على مر الأوقات على موجب القضية لاحقة ، فالذين نصيبهم من القسمة الشِقْوةُ لا يؤمنون وإن شاهدوا كل دلالة ، وعاينوا كل معجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا كانت قرية آمَنَتْ فنفعَها إيمانُها إلا قومَ يُونسَ لمَّا آمنوا كشَفْنا عنهم عذابَ الخِزىِ فى الحياةِ الدنيا ومَتَّعْناهم إلى حين ﴾ .

قومُ يونس تداركتْهم الرحمةُ الأزليةُ فيما أجرى عليهم من توفيقِ التضرع ، فكَشَفَ عنهم العذابَ ، وصَرَفَ عنهم ما أظلَّ عليهم من العقوبة بعدما عاينوا من تلك الأبواب ؛ فبرحمته وصلوا إلى تضرعهم ، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَن فى الأرض كُلُّهم جميعاً أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

كيف يتعصى عليه سبحانه مرادٌ — والذى يبقى شىء عن مراده ساهٍ أو مغلوبٌ ؟ والذى يستحق جلالَ العِزَّةِ لا يفوته مطلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أن تُؤمِنَ إلا بإذنِ اللهِ ويجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يَعْقِلون ﴾ .

---

(١) أى أن عمل الإنسان لا يكفى وحده للوصول إلا إذا ارتبط بتوفيق الله وفضله .

لا يمكن حمْلُ[1] الإذن فى هذه الآية إلا على معنى المشيئة ؛ لأنه المكافة بالإيمان ، والذى هو مأمورٌ بالشيء لا يقال إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حملُ هذه الآية على معنى أنه لا يؤْمِنُ أحدٌ إلا إذا ألجأه الحقُّ إلى الإيمان واضطره — لأنَّ موجِبَ ذلك ألا يكون أحدٌ فى العَالَمِ مؤمناً بالاختيار ، وذلك خطأ ، فدلَّ على أنه أراد به إلا أنْ يشاء اللهُ أنْ يؤْمِنَ هو طوعاً . ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمِن طوعاً ثم لا يؤمِن ؛ لأنه يُبْطِلُ فائدةَ الآية ، فَصحَّ قولُ أهل السُّنَّة بأنَّ ما شاء اللهُ كان ومالم يشأ لم يكن[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ انظروا ماذا فى السمٰواتِ
والأرضِ وما تُغْنِى الآياتُ والنُّذُرُ
عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ .

الأدلة — وإنْ كانت ظاهرة — فما تُغْنِى إذا كانت البصائرُ مسدودةً ، كما أن الشموسَ — وإن كانت طالعة — فما تُغْنِى إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة ، كما قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيـا بمقلته إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فهل ينتظرون إلا مِثْلَ أيامِ الذين
خَلَوْا مِن قَبْلِهِم قُلْ فانتظِروا
إنّى معكم منَ المنتظِرين ﴾ .

تَمَنِّي ألطافِ أنوارِ الحقيقةِ تَعَنٍّ فى تسويل ، واستنادٌ إلى غير تحصيل ، وتمادٍ فى تضليل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنا والذين آمنوا
كذلكَ حقًّا علينا نُنجِ المُؤْمنِين ﴾ .

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى : « علينا » هاهنا معناها « منّا » ،

(١) وردت (حول) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) هذا نموذج طيب لموقف القشيرى متكلماً سنياً — بالنسبة لقضية اختيار الإنسان .

فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً ، فيجب الشيء من الله — لصدقه — ولا يجب عليه — لِعِزّته[1] .

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء — عليهم السلام — في النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنَجّي الرسلَ والمؤمنين جميعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ
مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ
الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن كنتم في غطاء الرَّيْبِ فأنا في ضياء مِنَ الغيبِ ، إنْ كنتم في ظلمة الجهل فأنا في شموس الوَصْلِ ، إن كنتم في سدفة الضَّلالة فأنا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة .

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق : فأنتم وقعتم في وهدة العوجِ ، وأنا ثابتٌ على سَوَاء[2] النَّهجِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

أي أخلِصْ قلبَك للدّين ، وجرِّدْ قلبَكَ عن إثباتِ كلٍّ ما لَحِقَه قهرُ التكوين ، وكُنْ مائلاً عن الزيغ والبدع ، داخِلاً في جُمْلَةِ مَنْ أخلص في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ
وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا
مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(١) تأمل هذا التخريج حتى ينسجم مذهبه الكلامي مع ظاهر النص القرآني.
(٢) وردت (سوء) وهي خطأ في النسخ .

لا تعبدْ ما لاتنفعكَ عِبادَتُه ولا تَضُرُّك عبادتُه ، وتلك صفة كل ما يعبد من دون الله . واستعانة الخلْق بالخَلْق تمحيقٌ للوقتِ بلا طائلٍ ؛ فَمَنْ لاَ يَمْلكُ لنَفْسِه ضَرّاً ولا نَفْعاً كيف يستعين به مَنْ هو فى مثل حاله ؟ وإذا انضاف الضعيفُ إلى الضعيف ازدادَ الضعفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشفَ
له إلاَّ هُوَ وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ
لِفَضلِه يُصيب به مَن يشاء مِنْ عباده
وهو الغفور الرحيم ﴾

كما تفرَّد بإبداع الضُرِّ واختراعه فلا شريكَ يَعضُدُه . . كذلك توحَّدَ بكشف الضُرِّ وصَرْفِه فلا نصيرَ يُنْجِدُه .

ويقال هوَّنَ على المؤمن الضُرَّ بقوله : « وإن يمسسك الله بضُرٍ » حيث أضافه إلى نفسه، والحنظلُ يُسْتَلَذُّ مِنْ كفِّ مَنْ تحبه .

وفَرَّقَ بين الضُرِّ والخير بإضافة الضرِّ إليه فقال : وإن يمسسك الله بضرٍّ ، ولم يقل : وإنْ يُرِدْكَ بضرٍ — وإنْ كان ذلك الضرُّ صادراً عن إرادته — وفى ذلك من حيث اللفظ دِقَّة .

ويقال : عَذُبَ الضرّ حيث كان نفعه ؛ فلمَّا أوجب مقاساة الضُّرِّ من الحرَبَ أبدل مكانَه السرورَ والطَّرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ قل يأيها الناسُ قد جاءكم الحقُّ
من ربِّكم فمنِ اهتدَى فإنما يهتَدِى
لنفسِه ومن ضل فإنما يَضِلُّ عليها
وما أنا عليكم بوكيل ﴾

مَنْ استبصر رَبِحَ رُشْدَ نفسِه ، ومَنْ ضلَّ فقد زاغ عن قَصْدِه ؛ فهذا بلاء اكتسب ، وذلك ضياء وشفاء اجتلب .

قوله جل ذكره: ﴿ واتَّبِعْ ما يوحَىٰ إليكَ واصبِرْ حتى يَحْكُمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكمين ﴾

قِفْ عند جريان أحكامنا، وانسلخْ عن مرادِك بالكلية، ليُجْرِيَ عليك ما يريد، والله أعلم بالصواب.

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقولِ قومٍ فَبَصَّرتْها، وعلى قلوب آخرين فَجَرَّدَتْها، فالتي بَصَّرَتْها فبنور برهانه، والتي جرَّدتها فبقهر سلطانه.. فعالِمٌ سَلَكَ سبيلَ بحثه واستدلاله فَسَكَنَ لمَّا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصاله فطاح لمَّا لاحت لَمعَةٌ ممن تقدَّس بالإعلام باستحقاق جلاله.

قوله جل ذكره: ﴿ الٓر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية.

واللام إشارة إلى لُطْفِه بأهل التوحيد.

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البَرِيَّةِ.

وهى فى معنى القَسَم: أى أقسم بانفرادى بالربوبية ولطفى بمن عرَفَنى بالأحدية، ورحمتى على كافة البرية — إنَّ هذا الكتابَ أُحْكِمَتْ آياتُه.

ومعنى « أحكمت آياته »: أى حُفِظَتْ عن التبديلِ والتغيير، ثم فُصِّلَتْ ببيان نعوتِ الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية، وتعبَّد به الخلْقُ من أحكام العبودية، ثم مالاح لقلوب الموحِّدين والمحبين من لطائف القربة، في عاجِلِهم البُشْرى بما وَعَدَهم به من عزيز لقائه فى آجِلهم، وخصائصهم التى امتازوا بها عمَّنْ سواهم.

قوله جل ذكره : ﴿ألاّ تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير﴾ .

أى فصلَتْ آياته بألا تعبدوا إلا الله .

ويقال معناه فى هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إنى لكم منه « نذير » مبينٌ بالفرقة ، « وبشيرٌ » بدوام الوصلة ، (فالفرقة بل فى عاجله واحداً)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿وأنِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه﴾

استغفروا ربّكم أولاً ثم توبوا إليه بعده .

والاستغفار طلب المغفرة ، يعنى قبل أن تتوبوا اطلبوا منه للمغفرة بحسن النَّظرة ، وحَمْل الرجاء والثقة بأنه لا يُخلِّد العاصيَ فى النار ، فلا محالةَ يُخْرِجُه منها . . فابتَدِئوا باستغفاركم ، ثم توبوا بِتَرْكِ أوزاركم ، والتنَقِّى عن إصراركم .

ويقال استغفروا فى الحال مما سلف ، ثم إنْ ألْمَمْتُم بزلَّةٍ أخرى فتوبوا .

ويقال استغفروا فى الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة — إلى مآلكم — مما أسلفتم من قبيح أعمالكم .

ويقال « استغفروا » : الاستغفار هو التوبة ، والتنق من جميع الذنوب ، ثم « توبوا » منْ تَوَهُّمِ أنكم تُجَابُون بتوبتكم ، بل اعلموا أنه يُجيبكم بِكَرَمِه لا بأعمالكم .

ويقال « الاستغفار » : طَلَبُ حظوظكم مِنْ عفونا . . فإذا فعلْتُم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب ، وارجعوا إلينا ، واكتفوا بنا ، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به .

قوله جل ذكره : ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إلى أجلٍ مُسَمّىً﴾

أى نُعَيِّشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً .

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص .

ويقال هو القناعة بالموجود .

---

(١) هذه عبارة إما أنها زائدة نتيجة خطأ فى النسخ ، أو أن بها اضطرابا فى الكتابة أفقدها المعنى .

ويقال هو ألا يخرجه إلى مخلوق ، ولا يجعل لأحد عليه منةً (لا سيما اللئيم[1]) .

ويقال هو أن يوفقه (لاصطناع المعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن تُقْضَى على يديه)[2] حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ فى حال شبابه بِزَلَّةٍ ، وألا يتصفَ بأنه عن الله فى غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجرى عليه من نوْعَيْ العسر واليسر .

قوله جل ذكره : ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَه ، وإن تَوَلَّوْا فإنِّى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير﴾

منْ زادتْ حسناتُه على سيئاتِه أعطاه جزاء ما فَضَلَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هذا بيان التفسير .

ويقال مَنْ فَضَّلَه بحسن توفيقه أوصله إلى مايستوجبه من لطفه ومزيده . .

ويقال هو أن يستر عليه فضلَه حتى لا يلاحظ حالَه ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه وما له . . بِعَيْنِ الاستحقار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقيه عن التعريج فى أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية ، ويُنَقِّيه عن (. . . .)[3] البشرية ، والتكسر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجرى فى الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه هِمَّتُه ، ويُبَلِّغَه فوق ما يستوجبه محلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿إلى الله مرجِعُكم وهو على كلِّ شيء قدير﴾

---

(١) ما بين القوسين فى أعلى الصفحة ومكتوب بخط ردىء جداً .

(٢) ما بين القوسين فى هامش الصفحة بخط حسن ومن هذا وذاك يتضح أن النسخة قيض لها أن تراجع بواسطة قارئين مختلفين .

(٣) مشتبهة .

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله ، وتنتفى الظنونُ ، ويحصل اليأسُ منْ غير الله بكل وجه ؛ ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار ، والحقُّ يُجْرِى عليه ماسَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلا إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدورَهم ليستخفوا منه أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابهم يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنون إِنَّه عليمٌ بذات الصدور ﴾

أى يسترون ما تنطوى عليه عقائدهم ، ويُضْمِرون للرسول — عليه السلام — وللمؤمنين خِلافَ ما يُظْهِرون ، والحقُّ — سبحانه — مُطَّلِعٌ على قلوبهم ، ويعلم خفايا صدورِهم ، فتلبيسُهم لا يُغْني عنهم من الله شيئاً ، وكان الله — سبحانه — يُطْلِعُ رسولَه — عليه السلام — على ما أخفَوْه إمَّا بتعريفِ الوحى ، أو بإشهادِ لِقُوَّةِ نورٍ ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراسة ، فكل مؤمنٍ له بِقَدْرِ حاله من الله هداية ، قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسةَ المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » (1) ولقد قال قائلهم .

أَبِعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بفؤادى ؟ كلُّ مافى الفؤادِ للعين بادِ

قوله جل ذكره : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ إلا على اللهِ رِزْقُها ﴾ .

أراح القلوبَ من حيرة التقسيم ، والأفكارَ من نَصَبِ التفكير فى باب الرزق حيث قال : « إلا على الله رزقها » فَسَكَنَتْ القلوبُ لمَّا تحقَّقَتْ أنَّ الرزقَ على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ فى غَلَطٍ من حسبانه . ثم إن اللهَ سبحانه

(1) رواه الترمذى والطبرانى .

ورواه القشيرى فى رسالته (ص 115) هكذا : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال أخبرنا أحمد ابن على الرازى قال أخبرنا محمد بن أحمد بن السكن قال حدثنا موسى بن داود قال حدثنا محمد بن كثير الكوفى قال حدثنا عمرو بن قيس عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله (ص) : « واتقوا ... » .

بيّن أنَّ الرزقَ الذى « عليه » ماحالُه فقال : «وفى السماء رزقكم » ، وما كان فى السماء لا يوجد فى السوق ، ولا فى التطواف فى الغرب والشرق[1] .

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته .

ويقال للنفوسِ رزقٌ هو غذاء طريقُه الخلْقُ ، وللقلوب رزق وهو ضياء مُوجِدُهُ الحق .

ويقال لم يقل ما يشتهيه أو مقدار ما يكفيه بل هو موكولٌ إلى مشيئته ؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه ومِنْ مُقَتَّرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها ومُسْتَوْدَعَها كلٌّ فى كتابٍ مبين ﴾

قيل أراد به أصلابَ الآباء وأرحامَ الأمهات ، أو الدنيا والآخرة . ويقال مُسْتَقَرٌّ المريد بباب شيخِه كمستقرٌّ الصبيٍّ بباب والديه . ويقال مستقر العابدين المساجد ، ومستقر العارفين المَشَاهد ، فالمساجدُ مستقرٌّ نفوسِ العابدين ، والمشاهِدُ مُسْتَقَرٌّ قلوب العارفين .

ويقال مستقرٌّ المحب رأسُ سِكَّةِ محبوبِه لعلَّه يشهده عند عبوره .

ويقال المساجِدُ للعابدين مستقرٌّ القَدَم ، والمشاهِدُ للعارفين مستقرٌّ الهِمَم ، والفقراء مستقرهم سُدَّةُ الكَرَم .

ويقال الكلٌّ له مثوىً ومستقر، أما الموحِّد فإنه لامأوى له ولا مستقر ولامثوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودَعُ التوفيق من الله ، والقلوبُ مستودعُ التحقيق من قِبَلِ الله .

ويقال القلوبُ مستودعُ المعرفة ؛ فالمعرفة وديعةٌ فيها . والأرواح مستودع المحبة فالمحابُّ ودائع فيها . والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ السموات والأرضَ فى ستة أيامٍ وكان عرشُه على الماء ليبلوَكُم أيكم أحسنُ عملاً ﴾

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى أن كلام القشيرى لا يلتئم مع قوله تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ولكن الواقع أنه يقصد بذلك رزق السرائر لا رزق الظواهر .

وأَحْسَنُ الأعمالِ موافقةُ الأمرِ ، ولم يَقُلْ أكثر عملا .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً .

ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه فى شهود المعبود .

قوله : « ليبلوكم » الابتلاء مِنْ قِبَلِه تعريفُ الملائكة حالَ من يبتليه فى الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئِن قُلْتَ إنكم مَّبعوثون مِنْ بَعْدِ الموتِ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾

استبعدوا النَّشْرَ لِتَقاصُر علومهم عن التحقُّق بكمال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا أن البعثَ ليس بعتاصٍ فى الإيجاد ولا بمستحيلٍ فى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أخَّرْنا عنهم العذابَ إلى أُمَّةٍ معدودةٍ ليقولُنَّ ما يَحبِسُه ؟ ألاَ يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزِئون ﴾

يقول : إنْ أمهَلْناَ ، وأخّرْنا عليهم العذابَ لا يَرْعَوُون ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن عَجَّلْنا لهم العقوبةَ لا يتوبون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجهلُ فى الحالَيْن ، وعَمِيَتْ بصائرُهم عن شهودِ التقدير والإيمان بالغيب فى النوعين . ويوم يأتيهم العذابُ فلا مناصَ ولا منجاةَ ولا مراحَ لهم منه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَئِنْ أذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثم نزعناها منه إنَّه ليئوسٌ كفورٌ ﴾ .

تَكَدُّرُ ما صفا من النِّعم ، وتغيُّرُ ما أُتيح من الإحسان والمِنَن حالٌ معهودةٌ وخُطّة عامة ، فلا أحدَ إلا وله منها خِطّة[1] فمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه ، ولم يتضاعفْ فى كل نَفَسٍ تَلَهُّفُهُ وكَرْبُهُ ففى ديوان النسيان ، وأثبت اسمه فى جملة أهل الهجران . ومن استمسك بعروة التضرع ، واعتكف بعقوة التذلل ، احتسى كاساتِ الحسرة عُلَلاً بعد نَهل طاعته للحق بنعت الرحمة ، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوالْ القربة ، وأَطْلَعَ عليه شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة ، كما قيل

تَقَشَّعَ غيمُ الهجرِ عن قمرِ الحبِّ . وأشرق نورُ الصبح فى ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ فى التحقيق ، ولا يُعدُّ زوالُها وتكدُّرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل ، لكنَّ المحنة الكبرى والرزيةَ العظمى ذبولُ غصنِ الوصال ، وتكدرُ مشرب القرب ، وأفولُ شوارق الأُنْس ، وبرمّدُ بصائر أرباب الشهود . . . فعند ذلك تقوم قيامتُهم ، وهناك تُسْكَبُ العَبَراتُ . ويقال إذا نَعَقَ فى ساحاتِ هؤلاء غرابُ البَيْن ارتفع إلى السماء نُوَاحُ أسرارهم بالويل ، ومن جملة ما يبثون من نحيبهم ما قلتُ .

قولا لمنْ سلَبَ الفؤادَ فراقُه ولقد عَهِدْنا أن يُبَاحَ عِناقُه
بَعْدَ الفراقِ . . . فبالذى هو بيننا هلاَّ رحمتم مَنْ دنا إزهاقُه ؟
عهدى بِمن جحد الهوى أزمانَ كُنَّا بالصبابةِ — لايَضيق نِطاقُه .
والآن مُذْ بَخِلَ الزمانُ بوصلنا ضاق البسيطة حين دامِ فراقُه .
هل تُرْتَجى من وصل عِزِّك رجعةٌ تحنو على قمرٍ يدوم محاقُه ؟
إن كان ذاك كما تروم فأَخبِروا أَنَّى له أن يعودَ شروقُه[2] ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أذقناه نعْماءَ بعد

(١) (الخطة) بضم الخاء = الأمر والحالة ، و (والخطة) بكسر الخاء ما يختطه الإنسان لنفسه من قدر معلوم من الأرض ونحوها .

(٢) الأبيات فى هذا النص وصلتنا مضطربة الوزن سيئة الخط ، مطموسة الكلمات فى كثير من المواضع وقد تدخلنا فيها بقدر يسمح بإظهار المعنى وتناسق السياق .

ضَرَّاء مَسَّتْهُ ليقولَنَّ ذَهبَ
السيئاتُ عَنِّي إنه لَفَرِحٌ فخور ﴾.

إذا كشفنا الضُرَّ عنهم رحمةً مِنَّا عادوا إلى تهتكهم بدلا من أن يتقربوا إلينا ، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا ، وكلما أَتحنَّا لهم من إمهالنا أَمِنوا لمكرنا ، ولم يخافوا أنْ نأخذهم فجأة بقهرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاّ الذين صبَرُوا وعمِلوا
الصالحاتِ أولئك لهم مغفرة وأجْرٌ
كبير ﴾ .

الإنسان فى الآية السابقة اسم جنس .

وإلا للاستثناء منه ، وقيل بمعنى « لكن » ، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا ، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك ، أى لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك ، فإنهم لصبرهم على على مابه أُمِروا ، وعما عنه زُجِروا ، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزّلات .. فلهم مغفرة وأجر ، مغفرة لعصيانهم ، وأجرٌ على إحسانهم . والفريقان لا يستويان ، قال قائلهم .

أَحْبابُنا شَتَّان وافٍ وناقِصٌ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغض

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعلَّكَ تَارِكٌ بعضَ ما يوحَىٰ
إليك ﴾ .

اقترحوا عليه أن يأتى بكتابٍ ليس فيه سَبُّ آلهتهم ، وبيَّن الله — سبحانه — له ألا يتركَ تبليغ ما أُنزِل عليه لأَجْلِ كراهتهم ، ولا يُبَدِّلُ ما يُوحَى إليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وضائقٌ به صَدْرُك أن يقولوا لولا
أُنزِلَ عليه كَنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ
إنَّما أنتَ نذيرٌ واللهُ على كل شىء
وكيل ﴾ .

وهذا على وجه الاستبعاد ؛ أى لا يكون منك تركُ ما أُوحِيَ إليك ، ولا يضيق صَدرُك

بما يبدو من الغيب .. ومَنْ شرح الله بالتوحيد صدرَه ، ونوَّر بشهود التقدير سِرَّه — متى يلحقه ضيقُ صدْرٍ أو استكراهُ أمْرٍ ؟ ثم قال : « إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » : أى أنت بالإرسالِ منصوبٌ ، وأحكامُ التقدير عليكَ مُجْرَاةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَيَاتٍ وادعُوا مَنِ استطعتم مِن دون اللهِ إن كنتم صادقين ﴾ .

فى الآيةِ بيانُ أنَّ المكلَّفَ مُزَاحُ العِلَّةِ لِما أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهِّلَ له من التحقيق . وأنَّ الإيمانَ بالواسطة — صلى الله عليه وسلم وآله — واجبٌ لِما خُصَّ به من المعجزات التى أوضحها الكتابُ المُنَزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذى عجز الكفار عن معارضته .

قوله جل ذكره : ﴿ فإلَّم يستجيبوا لكم فاعلموا أنَّما أُنزِلَ بعلمِ اللهِ وأن لا إلهَ إلا هو فهل أنتم مُسْلِمون ﴾ .

يعنى فإن لم يستجيبوا لكم يعنى إلى الإتيان بمثله — وهم أهل بلاغة — فتحققوا أنه من قِبَلِ الله ، وليس على سنة التحقيق (. . . .)[1] إنما العمى فى بصائر من ضلُّوا عن الحقِّ ، وتاهوا فى سدفة الحيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يُرِيدُ الحياةَ الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالَهُم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُونَ ﴾ .

مَنْ قَنَع منهم بدنيا الدناءةُ صِفَتُها وَسَّعْنَا عليه فى الاستمتاع بأيامٍ فيها ، ولكن عَقِبَ اكتمالِها سيرى زوالَها ، ويذوق بعد عسلِها حَنْظَلَها .

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة
إلا النارُ وحَبِط ما صَنَعُوا فيها ،
وباطِلٌ ما كانوا يعملون﴾ .

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهُم ، وظهرت لهم — بخلاف ما احتسبوا — آلامُهم ، حَبِطَتْ أعمالُهم ، وحاق بهم سوء حالهم .

قوله جل ذكره ﴿أَفَمَن كان على بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّه ويتلوه
شاهِدٌ منه ومِن قَبْلِهِ كتابُ موسى
إماماً ورحمةً أولئك يؤمنون به ومَن
يكفر به مِنَ الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُه
فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ منه إنَّه الحقُّ مِن
ربِّك ولكنَّ أكثرَ الناسِ
لا يؤمنون﴾ .

فيه إضمار[1] ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . لا يستويان .

والبَيِّنةُ لأقوامٍ برهانُ العِلْمِ ، ولآخرين بيانُ الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدهم الحقُّ مالا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلى من وجهك شمس الضحا . . . .
فالناس فى الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك فى الضوء والشاهد

فالذى يتولاه فهو مشاهِدٌ ، وفى الخبر «أولياء الله الذين إذا أرادوا ذكر الله ....[2]» .

قال تعالى : « ولو نشاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ومن أظلم مِمنِ افترىٰ على اللهِ
كذباً . . .﴾ الآية .

---

(١) إضمار هنا مستعملة لما يسمى فى علم البلاغة بإيجاز الحذف .
(٢) سقطت بقية الخبر من الناسخ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب المقت ، وعقوبته أَلَّا يُرْزَق بركةً فى أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبَه ، فيفضحه بين الخلْق ، والشهداء قلوبُ الأولياء ، ومَنْ شهدت القلوبُ عليه بالردِّ فهو غيرُ مقبولٍ عند الحقِّ

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَصُدُّون عن سبيل الله ... ﴾ الآية .

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب ، ومِنْ صدِّهم عن السبيل أن يُظهِروا من أنفسهم أحوالاً تُخِلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يَرَوْن ذلك كبيرةً فى الطريقة ، ويُوهِمون المُسْتَضْعفين من أهل الاعتراض عليهم أنَّ لهم فى ذلك رخصة ، فَيضِلُّون ويُضِلُّون . ومن جملة صدِّهم عن السبيل تغريرهم بالناس ، وإيقاعهم فى الغَلَطِ ، ويرتفقون بشىء مما فى أيديهم من حطام الدنيا ، ولا يَسْتَحيُون منْ أَخْذِ شىء لا يستوجبونه بأى وجه حقٍّ ، ويُدَاهِنُون فى دين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرضِ ... الآية ﴾ .

مَنْ هذه صفتهم لا يربحون فى تجارتهم ، ولا يلحقون غايةً طلبوها ، فيبقون عن الحق ، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخلْق . . خَسِرتْ صفْقتُهُمْ ، وبَارَتْ بضاعتُهم ، لَقُوا الهوان ، وذاقوا اليأس والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جَرَمَ أنَّهم فى الآخرة هُمُ الأَخْسَرون ﴾ .

لا محالةَ أنهم فى الآخرة أشدُّ خسراناً ، وأوفر — من الخيرات — نقصاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وأَخْبَتُوا ﴾ .

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم . . .
والبصير والسميع ... ﴾ الآية

مثلُ الكافر فى كفره كالأعمى والأصم ، ومَثَلُ المؤمن فى إيمانه كالسميع والبصير — هذا بيان التفسير .

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّه ، والأصمُّ الذى طَرِش بسَمْع قلبه ؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سر تقديره فى أفعاله ، ولا بنور فراسةٍ توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه ، ولا بسَمْع القبولِ استجابَ لدواعى الشريعة ، ولا بِحُكْمِ الإنصاف انْقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسرِّه من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذى يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ، ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، والمستورات له كشف . فالذى يسمع فَصِفَتُهُ ألا يسمعَ هواجسَ النَّفْس ولا وساوس الشيطان ؛ فيسمع من دواعى العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قدراً ، ثم يكاشف بخطاب من الحق سِرًّا[1]

فهؤلاء لا يستويان ، ولا فى طريق يلتقيان :

راحَتْ مُشَرِّقةً ورُحْتُ مُغرِّباً   فمتى التقاء مُشَرِّقٍ ومُغرِّبٍ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه إنِّى
لكم نذيرٌ مبين * أنْلَّا تعبدوا
إلا اللهَ إنى أخافُ عليكم عذابَ
يوم أليم ﴾ .

كان نوحُ عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمْراً وأشدَّهم بلاء ، وسمى نوحاً لكثرة نَوْحه على نَفْسِهِ . . وسببُ ذلك أنه مرَّ بكلبٍ فقال : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه أنْ اخلقْ أنت أحْسَنَ من هذا . فأخذ يبكى وينوح على نفسه كلَّ ذلك النَّوْح . فكيف بحالِ مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره فى مدة تكليفه — ولم يحصل منه لله كثير من ولاية ! ؟

(١) تفيد هذه الإشارة فى بيان أحكام « السماع » عند الصوفية .

قوله جل ذكره: ﴿فقال الملأُ الذين كَفَروا مِن قَوْمِهِ
ما نَراك إلا بَشَراً مِثْلَنا وما نَرَاكَ
اتَّبَعكَ إلا الذين هم أَرَاذِلُنا بادِىَ
الرَّأْيِ وما نَرَى لكم علينا مِن
فَضْلٍ بل نَظُنُّكم كاذبين﴾.

أنكروا صحة كَوْنِهِ نبيًّا لمشاكلته إياهم فى الصورة، ولم يعلموا أن المباينة بالسريرة لا بالصورة.

ثم قال: «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىَ الرأى»: نظروا إلى أتباعه نَظْرَةَ استصغارٍ، ونَسَبُوهم إلى قِلَّةِ التحصيل.. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَّطَ اللهُ عليه، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِه، فبالمعانى يحصل الامتيازُ لا بالمبانى:

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد هصور

فإن أكُ فى شِرَارِكم قليلا فإنى فى خِيارِكم كثير

قوله جل ذكره: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على
بَيِّنَةٍ مِّن ربى وآتانى رحمةً مِّن
عِندِه فعُمِّيَتْ عليكم أَنُلْزِمُكُمُوها
وأنتم لَهَا كارِهون﴾.

الصُّبحُ لا خَلَلَ فى ضيائه لِكَوْنِ الناظرين عميانا؛ والسيفُ لا خَلَلَ فى مَضائِه لِكَوْنِ الضاربين صبياناً... وكيف لِبَشَرٍ من قدرةٍ على هداية مَنْ أَضَلَّه اللهُ — ولو كان نبيًّا؟[1].

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُصْحٌ، ولا ينجح فى المُصِرِّ وعظٌ!

---

(١) الأفضل أن تكون (ولو كان نبياً) جملة اعتراضية تلى (لبشر) حتى يستقيم التركيب، ولكننا أثبتنا ما جاء فى (ص).

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجْرِىَ إلا على الله وما أنا بطاردِ الذين آمنوا إنهم مُلاقُوا ربِّهم ولكنِّى أراكم قوماً تجهلون ﴾ .

سُنَّة الأنبياء — عليهم السلام — ألا يطلبوا على رسالتهم أجراً ، وألّا يُؤمِّلُوا لأنفسهم عند الخلْق قَدْراً ، عَمَلُهُم لله لا يطلبون شيئاً من غيرِ الله . فَمَنْ سَلَكَ من العلماء سبيلَهم حُشِرَ فى زمرتهم ، ومَنْ أخَذَ على صلاحِهِ مِنْ أحدٍ عِوَضاً ، أو اكتسب بسداده جاهًا لم يَرَ من الله إلا هوانا وصَغَاراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ مَن يَنصُرُنى مِنَ الله إن طَرَدْتُهم أفلا تَذَكَّرُون ﴾

مجالسةُ الفقراءِ اليومَ — وهم جُلَساء الحقِّ غداً — أجدى من مجالسة قومٍ من الأغنياء هم من أهل الردِّ .

ومَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ الله وأدناه استوجب الخِزْىَ فى دنياه ، والصَّغَارَ فى عقباه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا أقولُ لكم عندى خزائنُ اللهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ إنِّى مَلَكٌ ﴾

لا أتخطَّى خَطِّى عما أبلغت مما حملتُ من رسالتى ، ولا أتعدَّى ما كُلِّفْتُ به ، ولا أزيد عما أُمِرْتُ ، ولن أخرجَ عن الذى أنبأونى ، بل أنتصب بشاهدى فيما أقامونى .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا أقولُ للذين تزدرِى أعْيُنُكم لن يُؤْتِيَهم اللهُ خيراً ، اللهُ أعلمُ بما فى أنفسهم إنِّى إذاً لَمِنَ الظالمين ﴾

إن أولياء الله سبحانه فى أثوابهم ولا يراهم إلا من قارَبَهُم فى معناهم . اللهُ أعلمُ بأحوالهم ، وفى الجملة : طيرُ السماء على أُلَّافها تقع .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا نوحُ قد جادَلْتَنا فأكثَرْتَ
جِدالنا فأْتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ
مِنَ الصادقين ﴾

أوضح لهم من البراهين مالوا أمعنوا النظر فيه لتمَّ لهم اليقين ، ولكنهم أصروا على الجحود ، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ قالَ إنما يأتيكم به اللهُ إن شاء
وما أنتم بِمُعْجِزِين ﴾

أقرَّ بالعبودية ، وتبرَّأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمرَ على المشيئة . ولقد أنصف مَنْ لم يُجاوِز حَدَّه فى الدعوى . والأنبياء عليهم السلام — وإن كانوا أصحاب التحدى للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا ينفعكم نُصْحِى إنْ أردتُ أنْ
أنْصَحَ لكم ، إن كان اللهُ يريد أن
يُغْوِيَكم هو ربُّكم وإليه
تُرْجَعون ﴾

مَنْ لم يُساعده تعريفُ الحقِّ — بما له بحكم العناية — لم ينفعه نصْحُ الخَلْقِ فى النهاية .

ويقال مَنْ لم يُوَصِّلْه الحقُّ للوصال فى آزاله[1] لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ فى حاله

ويقال مَنْ سَبَقَ الحكمُ له بالضلالة أنَّى ينفعه النصحُ وبَسْطُ الدلالة ؟

ويقال من لم تساعدْه قسمةُ السوابق لم ينفعه نُصْحُ الخلائق .

قوله : « إن كان الله يريد أن يُغْوِيَكم » : من المحال اجتماع الهداية والغواية ؛ فإذا أراد اللهُ بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .

ثم بيَّن المعنى فى ذلك بأن قال « هو ربُّكم » ليَعْلَمَ العالِمون أنَّ الربَّ تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية .

---

(١) أى بما سبقت به القسمة — حسب تعبير القشيرى فى مواضع أخرى .

قوله جل ذكره: ﴿ أم يقولون افتراه قُلْ إنِ افتريتُه
فَعَلَىَّ إجرامى وأنا برىءٌ مما تُجْرِمُون ﴾

ومهما وصفتمونى فإنى أُجيبُ اللهَ .. وكلٌّ مُطالَبٌ بفعله دون فِعْلِ صاحبِه.

قوله جل ذكره: ﴿ وأُوحِيَ إلى نوحٍ أنه لن يؤمِنَ من
قومِكَ إلا مَن قد آمَنَ فلا تَبْتَئِسْ
بما كانوا يفعلون ﴾

عرَّفه الحقُّ أنه غنيٌّ عن إيمانهم، فكَشَفَ له أحكامَهم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قدسبق الحكمُ بشقائهم، فعند ذلك دعا عليهم نوحٌ — عليه السلام — بالإهلاك.

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للطمع فى إيمانهم مساغٌ، فلما حَصَل العكسُ نطق بالتماس هلاكهم.

قوله جل ذكره: ﴿ واصنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنَا ووَحْيِناَ
ولا تخاطبْنى فى الذين ظلموا إنَّهم
مُغْرَقون ﴾

أى قُمْ — بشرط العبودية — بصنع السفينة بأمرنا، وتحقق بشهودنا، وأنك برأى منا. ومَنْ عَلِمَ اطلاعَه عليه لم يلاحِظْ نَفْسَه ولا غيرَه، لا سيما وقد تحقق بأنَّ المُجْرِى هو سبحانه.

وقال له: راعِ حَدَّ الأَدَبِ، فما لم يكن لك إذْنٌ منا فى الشفاعة لأحدٍ فلا تخاطبْنا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بالغَرَقِ — وأمواج بحر التقدير تتلاطم — فكلٌّ فى بحار القدرة مُغْرَقُون إلا من أَهَّلَه الحقُّ بِحُكْمِهِ فَحَمَلَه فى سفينة العناية.

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغَرْقَى فى بحار القَطْرة، ومِنْ قبلُ كانوا غرقى فى بحار القدرة.

قوله جل ذكره: ﴿ ويصنع الفُلْكَ وكلما مَرَّ عليه مَلأٌ من
قومِهِ سَخِروا منه قال إن تسخروا
مِنَّا فإنا نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرون ﴾

لما تحقَّقَ بما أمر اللهُ به لم يأبَه عند إمضاء ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل ، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشاهِد له قبلَ الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم ﴾

لا طاعةَ لمخلوقٍ فى مقاساة تقديره — سبحانه — إلا من تَحمل عنه بفضله ما يحمله بحُكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أمرُنا وفار التَّنُّورُ قلنا احملْ فيها مِن كل زوجين اثنين وأَهْلَكَ ﴾

طال انتظارُهم لِمَا كان يَتَوَعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يَزِدْهُمْ تطاولُ الأيامِ إلا كفراً ، وصَمَّمُوا على عقد تكذيبهم .

ثم لمَّا أتاهم الموعودُ إياهم بغتةً ، وظهر من الوضع الذى لم يَحْسِبُوه فَارَ الماء من التنور المسجور ، وجادت السماء بالمطر المعبور[1] .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » : استبقاء للتناسل .

ويقال : قد يُؤْتَى الحذِرُ من مَأْمَنِهِ ، فإن ابليسَ جاء إلى نوحٍ — عليه السلام — .

وقال : احْمِلنى فى السفينة فأَبَى نوحٌ عليه السلام ، فقال له إبليس : أَمَا علِمْتَ أنى من المُنْظَرِين إلى يومٍ معلومٍ ، ولا مكانَ لى اليومَ إلا فى سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يَحْمِلَه معه .

ويقال لم يكن لابن نوحٍ معه مكان ، وأُمِرَ بحَمْل إبليس وهو أصعب الأعداء ! وفى هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجرى على قياسِ الخَلْق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . ابنك لا تحمله ، وعدوك فأَدْخِلْه ، فالله سبحانه فعَّالٌ لما يريد[2] .

---

(١) أى الجارى .

(٢) فى هذه الإشارة تلميح إلى قاعدة فى مذهب القشيرى أن أفعال الله لا تخضع لما ألف الناس من مقاييس نسبية .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ مَن سَبَقَ عليه القولُ ومَنْ آمَنَ
وما آمَنَ معه إلا قليلٌ ﴾

« إلا من سبق عليه القول » بالشقاوة . وفيه تعريف بأن حُكْمَ الأزَل لا يُرَدُّ ، والحقُّ — سبحانه — لا يُنَازَعُ ، والجبَّارُ لا يُخَاصَمُ ، وأن مَنْ أقصاه ربُّه لم يُدْنِهِ تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وَعظ .

« وما آمن معه إلا قليل » ولـكن بَارَكَ الحقُّ — سبحانه — في الذين نجّاهم من نَسْلِهِ ، ولم يدخل خَلَلٌ فى الـكونِ بعد هلاكِ مَنْ أهلكَ مِنْ قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال اركبُوا فيها بسم الله مَجْرِيها
ومُرْساها إنَّ ربى لغفورٌ رحيم ﴾

عَرَفَ أنَّ نجاتَه من القَطْرةِ لمَّا تقاطَرَتْ ليست بالحِيَلِ — وإنْ تنوَّعَتْ وكَـثُرَتْ ، فباسم اللهِ سلامتُه ، وبتوكـلِه على الله نجاتُه وراحتُه ، وبتفضلِه — سبحانه — صلاحُه وعافيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وهى تجرى بهم فى موجٍ كالجبالِ
ونادى نوحٌ ابنَه وكان فى معزِلٍ
يا بُنَيَّ اركب معنا ولا تـكن مع
الـكافرين ﴾

وكان فى معزل بظاهره ، وكان فى سرِّ تقديره أيضاً بمعزلٍ عما سبق لنوحٍ وقومه من سابق فضله . فحينما نطق بلسانِ الشفقةِ وقال : « يا بنى اركب معنا ولا تـكن مع الـكافرين » — لم يقل له : ولا تـكن من الـكافرين ؛ لأن حالته كانت مُلْتبِسةً على نوح إذ كان ابنُه ينافقه — فقيل له : يا نوح إنه مع الـكافرين لأنه فى سابق حُكْمِنا من الـكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ قال سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ
الماءِ قال لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أمْرِ اللهِ
إلاَّ مَن رَحِمَ وحَالَ بينهما الموجُ
فـكانَ مِنَ المُغْرَقِين ﴾

أخطأ مِنْ وجهين : رأى الهلاكَ من الماءِ وكان مِنَ اللهِ ، ورأى النجاةَ والعِصمة من الجبلِ وهما من الله ، فقال له نوح : لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله . قيل أراد لا معصومَ اليوم من الله . وقيل لا أحدَ يَعْصِمُ أحداً من أمر الله ، لـكنْ مَنْ رَحِمَهُ ربُّهُ فهو معصومٌ من ذلك ، وله عاصمٌ وهو الله .

ولقد كان نوح — عليه السلام — مع ابنه فى هذه المخاطبات فجاءت أمواجُ الماءِ وحالَتْ بينهما وصار من المُغْرَقين ، فلا وعظُه ونُصْحُهُ نفعاه ، ولا قولُه وتذكيره نجَّياه وخلَّصاه .

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح غرَّقْناَ العَالَم بدعائك ولا عليكَ إنْ غرقَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقيل يا أرضُ ابْلَعى ماءَكِ ويا سماء أَقْلِعِى وغيض المـاء وقُضِىَ الأمرُ واستَوَتْ على الْجودِىِّ وقيل بُعْداً للقومِ الظالمين ﴾

فلما غَرِقَ ابنُ نوحٍ سَكَنَ الموجُ ونضَبَ[1] الماء وأقلعت السماء ، وكأنه كان المقصودُ من الطوفانِ أَنْ يغرقَ ابنُ نوحٍ — عليه السلام — وقيل :

عَجِبْتُ لِسَعْىِ الدهرُ بينى وبينها فلـما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إنَّ ابنى مِنْ أهلى وإنَّ وَعْدَكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين * قال يا نوحُ إنَّه ليس مِنْ أهْلِكَ إنه عَمَلٌ غيرُ صالحٍ فلا تَسْـأَلْنِ ما ليس لك به عِلْمٌ إنِّى أعِظُك أن تـكونَ من الجاهلين ﴾

(١) وردت (نصب) بالصاد ، وهى خطأ فى النسخ ، والمراد (نضب) المـاء أى غار وانحسر ، فهى ملائمة لإقلاع السماء أى إمساكها عن المطر .

خاطبَ الحقَّ — سبحانه — فى باب ابْنِه ، واستعطفَ فى السؤال فقال :

« إن ابنى من أهلى » : فقال له : إنَّه ليست منْ أهل الوصلة قِسْمَتُه — وإنْ كان من أهلِكَ نَسَباً ولُحْمَةً ، وإنَّ خطابَك فى بابه عملٌ غيرُ صالح ، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ صالح[1] .

« فلا تسألنِ ما ليس لك به علم » : أى سَتَرْتُ غيبى فى حال أوليائى وأعدائى ، فلا يُعْلَمُ سِرُّ تقديرى .

قوله : « إنى أعظك » : وذلك لحُرْمةِ شيخوخته وكِبَرِه ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له فى وَلَدِه ، فتَدارَكَ بحُسْنِ الخطابِ قَلْبَه .

وقيل إن ابنَ نوح بَنَى من الزجاجِ بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة ، فلما ركب نوحٌ السفينةَ دَخَلَ ابنُهُ فى البيتِ الذى اتخذه من الزجاج ، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البوْلَ حتى امتلأ بيْتُ الزجاج من بَوْلِه ؛ فَغَرِق الكلُّ فى ماء البحر ، وغرق ابنُ نوحٍ فى بَوْلِه ! ليُعْلَمَ أنه لا مفرَّ مِنَ القَدَر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ إنِّى أعوذُ بك أنْ أسألَك
ما ليسَ لى به عِلْمٌ وإلَّا تَغْفِرْ لى
وترحمْنى أكُن مِنَ الخاسرين ﴾

نَسِيَ نوحٌ — عليه السلام — حديثَ ابنه فى حديث نفسه ، فاستعاذ بفضله واستجار بلطفه ، فوجد السلامةَ من ربِّه فى قوله جل ذكره :

﴿ قيل يا نوحُ اهْبِطْ بسلامٍ مِنَّا
وبركاتٍ عليكَ وعلى أممٍ مِمَّن معَكَ
وأممٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ مِنَّا
عذابٌ أليم ﴾

طَهَّرَ وجهَ الأرضِ من أعدائه ، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلائه ، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه .

---

(١) وعلى هذا الرأى تكون نجاة قوم نوح بسبب عملهم الصالح لا بسبب قرابتهم له .

والأممُ التى أخبر أنه سَيُمَتِّعُهم ثم يَمَسُّهم العذابُ هم الذين ليسوا من أهل السعادة .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك مِنْ أنباءِ الغَيْبِ نُوحِيها إليكَ
ما كُنتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قومُكَ
من قبلِ هذا ، فاصبرْ إنَّ العاقبةَ
للمتقين ﴾

أعلمناكَ بهذه الجملة ، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلَّمه من شخص ، أو من قراءةِ كتاب ؛ فإنْ قابَلَكَ قومك بالتكذيب فاصبِرْ ، فعَنْ قريبٍ تنقلب هذه الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قومِ
اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه
إنْ أنتم إلا مُفْتَرُون ﴾

كَلَّفَ الأنبياء — عليهم السلام — بالذهاب إلى الخَلْق لا سيما وقد عاينوا — بالحق — مَنْ تَقَدَّمَهُم من فترة الملأ ، ولكنهم تحمَّلُوا ذلك حين أمَرَهُم الحقُّ بالتوجُّهِ إليهم فرَضُوا ، وأظهروا الدلالةَ ، وأدَّوْا الرسالةَ ، ولكن ما زاد الناسُ إلا نفرةً على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قومِ لا أسألكُمْ عليه أجراً إنْ
أجرِيَ إلا على الذى فطَرَنى
أفلا تَعْقِلُون ﴾ .

لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء — عليهم السلام — إلاَّ وأخْبَرَ أنه ليس له أنْ يطلبَ فى الجملة أجْراً إلَّا من اللهِ لا من غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ استغفروا ربَّكم ثم تُوبوا
إليه يُرْسِلِ السماء عليكم مِدْرَاراً
ويَزِدْكُم قوةً إلى قوَّتِكم ولا تَتولَّوْا
مُجْرِمين ﴾ .

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، مِنْ توهمكم أن نجاتَكم باستغفارِكم . بل تحقّقوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضلِ ربِّكم ؛ فبفضلِهِ وبتوفيقه توصَّلْتُم إلى استغفاركم لا باستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، وبرحمته أهَّلَكُمْ إلى استغفاركم ، وإلّا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قَرْع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبوابَ رحمته ، ويَسَّرَ له أسبابَ نعمته .

ويقال يُنَزِّل على ظواهركم أمطارَ النِّعمة ، وعلى ضمائرِكم وسرائرِكم يُنَزِّل أنواعَ المِنَّة ، ويزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرِزْقِ ، وقوةً تحصلون بها تحسين أصناف الخُلُقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياهودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وما نحن بتاركى آلِهَتِنا عن قولِكَ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

ما زادهم هودُ عليه السلام بَسْطا فى الآية وإيضاحاً فى المعجزة إلا زادهم اللهُ تعالى عَمًى على عَمًى ، ولم يرزقْهم بصيرةً ولا هدىً ، ولم يزيدوا فى خطابِهم إلا بما دَلُّوا على فَرْطِ جهالتهم ، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهابهم[1] ، وقالوا :

﴿ إن نقولُ إلا اعتراك بعضُ آلِهتنا بسوءٍ قال إنى أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أنِّى برىء مما تُشرِكون ﴾ .

وكيف ظَنُّوا أنَّ آلهتَهم تَمَسُّ أعداءهم بسوءٍ وهى لا تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءها ؟ فهؤلاء الغوايةُ عليهم مُسْتَوْلِية . ثم إن هوداً عليه السلام أفْصَحَ عن فضل ربِّه عليه ؛ وصَرَّحَ بإخلاصه وحُسْنِ يقينه فقال : إنى برىء مما تشركون ، ثم قال :

﴿ مِن دونه ، فكيدُونى جميعاً ثم لا تُنظِرونِ ﴾ .

---

(١) يقال نهب فلاناً أى تناوله بلسانه وأغلظ له القول .

فلم يَجْنح معهم إلى تضرعٍ واستخذاء ، ولا راوَدهم فى سلْمٍ واستمهال ، ولم يَتَصِفْ فى ذلك بركونٍ إلى حَوْله و قُوَّته ، ولم يستند إلى جِدِّه وقوّته بل قال :

﴿ إِنِّى توكلتُ على اللهِ ربِّى وربِّكم
مّا من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصِيَتِها
إنَّ ربى على صراط مستقيم ﴾ .

أخبر أنه بموعودِ الله له بنُصرتِهِ واثق ، وأنه فى خلوص طاعته لربِّه وفى صفاء معرفته (غيرُ مُفارِقٍ)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تولَّوْا فقد أبلغتُكم ما أُرْسِلْتُ
به إليكم ويستخلِفُ ربِّى قوماً غيركم
ولا تضرونه شيئاً إنَّ ربى على كلِّ
شىءٍ حفيظ ﴾ .

أوحينا إليه أنْ قُلْ لهم : إنْ تَوَلَّوْا ولم تُؤمنوا بى فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتى ، وإنى واثقٌ بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوامٍ آخرين سواكم أطوعَ له منكم ، وإنْ أفناكم ما اختلَّ مُلْكُه ؛ إذْ الحقُّ — سبحانه — بوجود الأغيار لا يلحقه زيْنٌ — وإنْ وَحَّدُوا ، وبفقدهم لا يَمسُّه شَيْنٌ — وإنْ جحدوا وألحدوا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جَاء أمرُنا نجَّيْنَا هوداً والذين
آمنوا معه برحمةٍ منَّا ونجَّيْناهُم مِنْ
عذابٍ غليظ ﴾ .

ولما جاء أمرُنا بإهلاكهم نَجَّيْنَا هوداً والذين آمنوا برحمتنا ، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاةَ بوسيلةِ نُبُوَّته ، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال : « برحمةٍ منا » ؛ ليَعْلَمَ الكافةُ أنَّ

---

(١) بعد (معرفته) يوجد بياض مما يدل على سقوط خبر أن وقد أكملنا النقص بكلمة ملائمة من عندنا تتفق مع السياق والنسق حسبما نعلم من طريقة القشيرى .

الأنبياء — عليهم السلام — ومَنْ دونَهم عتيقُ رحمته ، وغريقُ مِنَّتِه ، لا لاستحقاقِ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله فى شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك عادٌ جَحَدوا بآياتِ ربِّهم
وعَصَوْا رُسُلَه واتبَعُوا أمْرَ كلِّ
جبارٍ عنيدٍ ﴾

فى إنزالِ قصصهم تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم وآله — فيما كان يقاسى من العناء ، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء ، والعِدَةُ بتبديل — ما كانوا يلقَوْنه من الشِدَّة — بالرجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُتبِعوا فى هذه الدنيا لعنةً ويومَ
القيامةِ ، ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم
ألا بُعْداً لعادٍ قومِ هودٍ ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أمَّا فى هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تَبِعَه من اللَّعنة ، ثم ما يلقونه فى الآخرة من تأبيد العقوبة . وبقاؤهم عن رحمة الله أصعبُ من صنوف كل تلك المحنة[1] ، وكما قيل :

تبَدَّلَتْ وتبدلنا واحسرتا لِمَنْ ابتغى عوضاً لِسَلْمى فَلَمْ يَجد

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى ثمُودَ أخاهم صالحاً قال ياقومِ
اعبدوا اللهَ ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُهُ
هو أنشأكم من الأرضِ واستعمركم
فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنَّ ربى
قريبٌ مجيبٌ * قالوا يا صالحُ قد كنتَ
فينا مَرْجُوًّا قبل هذا أتنهانا أن

(١) وردت (المحبة) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

نَّعبُدَ ما يعبدُ آباؤُنا وإنَّنا لفى شكٍّ
مما تدعونا إليه مريب * قال يا قومِ
أرَأَيْتُم إن كُنتُ على بَيِّنَةٍ من ربى
وآتانى منهُ رحمةً فَمن يَنصُرُنى مِنَ
اللهِ إنْ عَصَيْتُه فما تزيدوننى غير
تَخْسير * وياقوم هذه ناقةُ اللهِ لكم
آيةً فَذَرُوها تأكلْ فى أرضِ الله
ولا تَمَسُّوها بِسوُء فيأخذَكُم عذابٌ
قريبٌ * فعقروها فقال تَمَتَّعُوا
فى دارِكُم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعدٌ غيرُ
مكذوب * فلما جاَء أمرُنا نَجَّيْنا
صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منَّا
ومِنْ خِزى يومئذٍ إنَّ ربَّك هو القوىُّ
العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ
فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن
لَّم يغنَوْا فيها ألا إنَّ ثموداً كفروا
ربَّهم ألا بُعْداً لثمود *

عُقَيْبَ ما مضى من قصة عادٍ ذَكَرَ قصة ثمود ، وثمود هم قوم صالح ، وقد انخرطوا فى الغىِّ فى سِلْكِ مَنْ سَبَقَهم ، فَلَحِقَتْ العقوبةُ بجميعهم . ثم أخبر أنهم قابلوا نَبِيَّهم — عليه السلام — بالتكذيب ، ولم يقفوا على ما نبَّههُم عليه من التوبة والتصديق ، وأصرُّوا على الإقرار أنهم فى شأنه لفى شكٍّ مريب .

ثم بيَّن أنَّ صالحًا لم يُعرِّجْ — فى التبليغ — على تقصير .

وبَعْدَ تَمَرُّدِهم وامتناعهم عن الإنابةِ ، وإصرارهم على تَرْكِ الإجابة حقَّ عليهم

ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب ، ونجّى نبيَّهم — عليه السلام — ، ونجّى مَن اتَّبَعَه من كل عقوبة .. سُنَّةٌ منه — سبحانه — فى إنجاء أوليائه أمضاها ، وعادةٌ فى تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لَبِثَ أن جاء بعجل حَنِيذٍ * فلما رأى أيديَهم لا تَصِلُ إليه نَكِرَهُمْ وأوْجَسَ منهم خيفةً قالوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلنا إلى قوم لوط ﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيمَ — عليه السلام — بالبشارة ، وأخبر أن إبراهيمَ — عليه السلام — أنْكَرَهُم ، ولم يَعْرِفْ أنهم ملائكةٌ . فيُحتمل أنَّه — سبحانه — أراد أن تكونَ تلك البشارة فجأةً من غير تنبيهٍ لتكونَ أتَمَّ وأبلغَ فى إيجاد السرور ، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال : فأوجس منهم خيفةً .

ويقال إن إبراهيم — عليه السلام — كان صاحبَ النبوة والخُلَّة والرسالة فلا بُدَّ أن تكون فراستُه أعلى من فراسة كلِّ أحدٍ ، ولكنه فى هذه الحالة لم يَعْرِف الملائكةَ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ — سبحانه وتعالى — إذا أراد إمضاء حُكْمٍ يَسُدُّ على مَنْ أرادَ عيونَ الفراسة ، وإنْ كان صاحبُ الفراسة هو (خليل)[1] الله ، كما سَدَّ الفراسة على نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — فى قصة الإفْكِ إلى الوقت الذى نزل فيه الوحيُ ، وكذلك التبس على لوطٍ — عليه السلام — إلى أن تبيَّن له الأمر .

وتكلموا فى هذه « البشرى » ما كانت ؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق ، وبأنَّه سيولد له ولد من نَسْله وسُلالته ؛ قال تعالى : « ومن وراء إسحاق يعقوب » .

ويقال : بلامة قومه — حيث كانوا مُرْسَلين بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

---

(١) سقطت كلة (خليل) فأثبتناها لحاجة السياق إليها .

ويقال بشارة بالخُلّةِ وتمام الوصلة .

ويقال إن الخُلّة والمحبة بناؤهما كتمان السرِّ ؛ فَيَعْلَمَ أنهم أُرْسِلُوا ببشارةٍ ما ولم يكن للغير اطلاع ، قال قائلهم :

* بين المحبين قولٌ لست أفهمه *

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم : « سلاماً » وأن ذلك كان من الله ، وأيُّ بشارة أتمُّ من سلام الحبيب ؟ وأيُّ صباحٍ يكون مُفْتَتَحًا بسلام الحبيب فصَبَاحٌ مباركٌ ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ .

قوله : « فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ » : لمَّا توهمهم أضيافاً قام بحقِّ الضيافة ، فقدَّم خَيْرَ ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال في موضعٍ آخر : جاء بعجل سمين[1] . والمحبةُ توجبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما منْكَ للحبيب ، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم السُّفْرة[2] مِمَّا حضر في الوقت .

قوله : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يَدُه ما يُقَدَّم إليه من الطعام ، والامتناعُ عن أكل ما يُقَدَّم إليه معدودٌ في جملة الجفاء في مذهب أهل الظَّرْف[3] . والأكلُ في الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين .

« وأوجس منهم خيفةً » : أي خاف أنه وقع له خَلَلٌ في حاله حيث امتنع الضِّيفانُ عن أكل طعامه ؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم .

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة ؛ فلمَّا امتنعوا عن الأكل ، وعَلِمَ أنهم ملائكةٌ خَافَ أنْ يكونوا قد أُرْسِلُوا لعقوبة قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وامرأتُه قائمةٌ ، فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْنَاهَا بإسحاقَ ومِن وراء

---

(١) آية ٢٦ سوره الذاريات .

(٢) السفرة = طعام يصنع للمسافر ، أو المائدة وما عليها من طعام (الوسيط) .

(٣) الظرف : (يقال ظرف فلان ظرفاً كان كيسا حاذقاً ، والظرف في اللسان البلاغة . وفي الوجه الحسن ، وفي القلب الذكاء) الوسيط .

اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتّخذُوا
مِن دونِ اللهِ ولارَسُولِهِ ولا المؤمنينَ
وَليجةً ، واللهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾

مَنْ ظَنَّ أنه يُقنَعُ منه بالدعوى — دون التحقق بالمعنى — فهو على غَلَطٍ فى حسبانه . والذى طالبهم به من حيث الأمر صِدْقُ المجاهدةِ فى الله ، وتَرْكُ الركونِ إلى غيرِ الله ، والتباعدُ عن مُساكَنَةِ أعداءِ الله . . ثِقةً بالله ، واكتفاء بالله ، وتبرِّياً من غيرِ الله .

وهذا الذى أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجةً فالمعنى فيه : ألا يُفشُوا فى الكفارِ أسرارَ المؤمنين .

وأولُ مَنْ يهجره المسلمُ — لئلا تَطَّلِعَ على الأسرار — نَفْسُه التى هى أعدى عدوِّه ، وفى هذا المعنى قال قائلهم :

كتابى إليكم بعد موتى بليلةٍ ولم أدرِ أنّى بعد مَوْتِىَ أكتبُ

ويقال : إن أبا يزيد[1] — فيما أُخبِرَ عنه — أنه قال للحقِّ فى بعض أوقات مكاشفاته : كيف أطلبك ؟ فقال له : فَارِقْ نَفْسَكَ .

ويقالُ إن ذلك لا يتمُّ ، بل لا تحصل منه شظيّة إلا بكَيِّ عُرُوقِ الأطماعِ والمطالباتِ لِماً فى الدنيا ولِماً فى العُقبى ولِماً فى رؤية الحال والمقام — ولو بِذَرَّةٍ . والحريةُ عزيزةٌ[2] ... قال قائلهم :

أتمنى على الزمانِ مُحَالاً أنْ ترى مُقْلَتَایَ طَلْعَةَ حُرٍّ

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للمُشركين أن يَعْمُرُوا
مساجِدَ اللهِ شاهدين على أنفُسِهم

---

(١) هو أبو يزيد البسطامى كان جده (سروشان) مجوسيا وأسلم ، وهو أحد إخوة ثلاثة كانوا جميعاً زهاداً وأصحاب أحوال ، مات سنة ٢٦١ ، وقيل سنة ٢٣٤ (طبقات السلمى) و (رسالة القشيرى) .
(٢) (والحرية عزيزة) هنا معناها نادرة الوجود .

والإشارة فيه أنه كان يقابِل ما وَرَدَ على ماله و نفْسِه وولده بالاحتمال ، ولما كان حق الحقّ في حديثِ قومِ لوط أخَذَ في الجدالِ إلى أن أبَانَ له سلامةَ لوط — عليه السلام — وقال الله سبحانه : —

﴿ يا ابراهيمُ أعْرِضْ عن هذا إنه قد
جاء أمرُ ربِّكَ وإنَّهم آتِيهِم عذابٌ
غيرُ مردود ﴾

يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا فإنَّ الحُكْمَ بعذابِهم قد نَزَل ، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جاءتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِم
وضَاقَ بهم ذَرْعاً وقال هذا يومٌ
عصيبٌ ﴾

أى أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْرِىَ عليهم من قومه ما لا يجوز فى دِينِ الله ؛ فذلك الحزنُ كان لحقِّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه ، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساةَ الحزنِ لحقِّ الله محمودةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءه قومُهُ يُهْرَعُونَ إليه ومِن قبلُ
كانوا يَعْمَلُون السيئاتِ قال يا قومِ
هؤلاء بناتى هُنَّ أطْهَرُ لكم فاتَّقُوا
اللهَ ولا تُخْزُونِ فى ضيفى أليس
منكم رجلٌ رشيد ﴾

قوله « هؤلاء بناتى هُنَّ أطهرُ لكم » : قيل إنه أراد به نساء أمته ، فنبىُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده فى الشفقة والنصيحة .

ويقال إنه أراد بناتِه من صُلْبِه .

« أليس منكم جل رشيد » يرتدى جلبابَ الحشمة ، ويؤثِر حقَّ الله على ماهو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لقد عَلِمْتَ ما لنا فى بناتكَ من حقٍ وإنَّك لتَعْلَمُ ما نُريد ﴾

أصرُّوا على عصيانهم ، وزهدوا فى المأذون لهم شرعاً ، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم ؛ لا يَرْدَعُها عقلٌ ، قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ »

قوله جل ذكره : ﴿ قال لو أنَّ لى بكم قوة أو آوِى إلى رُكْنٍ شديد ﴾

لو أن لى قوةً فأمنعكم عن ارتكابِ المعصية ؛ فإنَّ أهمَّ[1] الأشياء على الأولياء ألا يَجْرِىَ من العصاةِ ما ليس لله فيه رضاه .

ويقال : لو كان لى قدرةٌ لإيصال الرحمةِ إليكم — مع ارتكابكم المعاصى — لَرَحِمْتُكم وتجاوزتُ عنكم .

ويقال لو أنَّ لى قوةً لهدَيْتُكم إلى الدين ، ولَعَصَمْتُكم عن ارتكاب المخالفات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا لوطُ إنّا رُسُلُ ربك لَن يَصِلوا إليك فأَسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتفِتْ منكم أحَدٌ إلاامرأتَك[2] إنَّهمصيبُهاما أصابهم ﴾

لما ضَاقَ به الأمرُ كَشَفَ اللهُ عنه الضرَّ فعرَّفَ إليه الملائكةُ وقالوا : لا عليكَ فإنهم لا يصلون إليكَ بسوءٍ ، وإنَّا رُسُلُ ربك جئنا لإهلاكهم ، فاخرُجْ أنت وقومُك من بينهم ، واعلمْ أنَّ مَنْ شارَكَهم فى عملهم بنوعٍ فَلَهُ مِنْ العذابِ حِصةٌ . ومن جملتهم امرأتك التى كانت تدل القوم على المَلَك لفعلة الفاحشة ، وإن العقوبة لاحقةٌ بها ، مُدْرِكَة لها .

والإشارة منه أن الجسارة على الزَّلّةِ وخيمةُ العاقبةِ — ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء اتصالُه بالأنبياء والأولياء إذا كان فى الحكم والقضاء من جملة الأشقياء .

---

(١) أفعل التفضيل هنا مأخوذ من الهم ، أى (فإن أكثر ما يسبب الهم للأولياء) .
(٢) مستثنى من (فأسر بأهلك) منصوب .

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبحُ أليس الصبحُ بقريبٍ ﴾.

ما هو كائنٌ فقريبٌ، والبعيدُ ما لا يكون. وإنَّ مَنْ أقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ عليه — ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية — تصور له الحالَ كأنه وقتُ مُباشَرَتِهِ لتلك الزَّلة.

قوله جل ذكره: ﴿ فلما جاء أمرُنا جعلنا عالِيَها سافِلَها وأمطرنا عليها حجارةً مِّن سِجيلٍ مَّنضُودٍ ﴾.

سُنَّةُ الله فى عباده قلبُ الأحوال عليهم، والانقلابُ مِنْ سِمَات الحدوث، أمَّا الذى لا يزول ولا يحول فهو الذى لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية.

وإنَّ مَنْ عاش فى السرور دهراً ثم تبدل يُسْرُه عُسْراً فكَمَنْ لم يَرَ قطُّ خيراً، والذى قاسَى طولَ عمره ثم أُعطِى يُسْرًا فكمن لم يَرَ عُسْراً.

قال تعالى: « ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أول مرة »(1).

قوله جل ذكره ﴿ مُّسَوَّمَةً عند ربكَ وما هى مِنَ الظالمين ببعيد ﴾.

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبةَ لاحقةٌ بمن سَلَكَ سبيلَهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقَهم، كما قيل:

ومَنْ يَرَى ولم يعتبر بغَيْرِهِ فإنَّ لكلِّ معصيةٍ عقابا

قوله جل ذكره: ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْباً قال يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُه

(1) آية ١١٠ سورة الأنعام.

ولا تنقصوا المكيالَ والميزانَ
إنى أراكم بخيرٍ وإنى أخافُ عليكم
عذابَ يومٍ محيط * ويا قوم أوْفوا
المكيالَ والميزانَ بالقسط ولا تبخسوا
الناس أشياءهم ولا تعثَوْا فى الأرض
مفْسدين ﴾ .

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .

وفى الظاهر لهم كانت أجرامُهم كاليسيرة ، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون إنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف فى المكيال .

وليس قَدْرُ الأجرامِ[1] لأعيانها ، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظُمَ شأنُها ، قال تعالى : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم »[2] .

ولما أن قال لهم شعيب :

« بقيةُ اللهِ خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » .

يعنى القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المعْقِبِ للوَبالِ لم يقابلوا نصيحتَه لهم إلا بالعِناد والتمادى فيما هو دائمٌ من الجحد والكنود .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا شُعيبُ أصلاتُكَ تأمركَ
أن نترُكَ ما يعبد آباؤنا أو أن
نَفْعلَ فى أموالِنا ما نشاء إنَّك لأنت
الحليمُ الرشيد ﴾ .

استوطئوا مركب الجهل ، واستحلبوا مشْربَ التقليد ، وأعفَوْا قلوبَهم من استعمال الفكرِ ، واستبصارِ طريقِ الرُّشدِ .

---

(١) جمع (جرم) وهو الذنب .
(٢) آية ١٥ سورة النور .

قوله جل ذكره: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بَيِّنةٍ مِّن ربى ورَزَقنى منه رِزْقاً حسناً﴾.

البَيِّنَةُ نورٌ تَسْتَبْصِرُ به ما خَفِيَ عليكَ تحت غطاء الغفلة.

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية، وحُسْنُ توليه لشأنك — فى جميع ما فيه صلاحك — من إتمام النعمة ودوام العصمة.

وقيل الرزق الحسنُ ما تعنَّى صاحبُه لِطَلَبِه، ولم يصبْه نَصَبٌ بسببه.

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرَّزَّاق.

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنْسِى الرزَّاق، ويحمل صاحبَه على التوسعة والإنفاق.

قوله جل ذكره: ﴿وما أُريدُ أنْ أُخَالِفَكم إلى ما أنهاكم عَنْهُ﴾.

يمكن للواعظ أو الناصح أنْ يساهِل المأمورَ فى كل ما يأمره به، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه؛ فإنَّ الإتيانَ بجميع الطاعات غيرُ مُمْكن، ولكنَّ التجرُّد عن جميع المحرَّماتُ واجبٌ.

ويقال مَنْ لم يكنْ له حُكْمٌ على نفسه فى المنع عن الهوى لم يكن له حُكْمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى.

قوله جل ذكره: ﴿إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ ماستطعتُ﴾.

مَدَارُ الأمرِ على الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح؛ فيَقْرِنُ اللهُ به حسن التيسير، ومَنْ انطوى على قصدِ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق.

قوله جل ذكره: ﴿وما توفيقى إلاَّ باللهِ﴾.

حقيقةُ التوفيق ما ينفق به الشىء، وفى الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة، وهو قدرة الطاعة، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعى وفنون المَنْهيات يُعدُّ من جملة التوفيق — على التوسُّع.

والتوفيقُ باللهِ ومن الله ، وهو — سبحانه — بإعطائه متفضلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعود عند عدم الموجود . ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرّبّ

قوله جل ذكره : ﴿ وياقومِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِى أن يُصيبَكم مِّثْلُ ماأصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد ﴾ .

تورثكم مُخالَفَتُكم إياى فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللهِ أنْ يلحقكم من أليم العقوبة ماأصاب مَنْ تقدَّمكم من الذين سِرْتُم على مناهجهم ، وما عهدُكم ببعيد بمن تحققتم كيف حَلَّتْ بهم العقوبة ، وكيف أنهم مازادتْهم كثرةُ النصيحةِ إلاَّ غُلُوًّا فى ضلالتهم ، وعُتُوًّا في جهالتهم ، وكما قيل .

وكمْ سُقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المُتَنَصِّحُ

قوله جل ذكره : ﴿ واستَغْفِرُوا ربَّكم ثم توبوا إليه إنَّ رَبِّى رحيمٌ وَدُود ﴾ .

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله « ثم توبوا إليه » أى توبوا ثم لا تُنْقِضُوا توبتَكم ؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاء المآلِ بصفاءِ الحال لم يحصل قَبُولٌ ، وكأن لم يكن لِماَ سَلَفَ حصولٌ .

« إنَّ ربى رحيمٌ ودودٌ » : يرحم العصاةَ ويودُّهم .

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كحلوب بمعنى محلوب. والرحمةُ

تـكون للعاصى لأنَّ المطيعَ بوصف استحقاقه الثواب على طاعاته ، ثم ليس كلُّ من يُحِبُّ السلطانَ فى محلّ الأكابر ، فالأصاغرُ من الجُنْدِ قد يحبون المَلِكَ ، وأنشدوا :

ألا رُبَّ مَنْ يدنو ويزعم أنه يودُّك ، والنائى أودُّ وأقربُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياشُعَيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مماتقول وإنَّا لنراكَ فيناضعيفاً ، ولولا رهطُك لرَجَمْنَاكَ وما أنتَ علينا بعزيز ﴾ .

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فَحُرِمُوا فَهْمَ معانى الخطاب ، وأقرُّوا على أنفسهم بالجهل ، وأحالوا إعفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته ، فعاتَبَهُم عليه :—

﴿ قالَ ياقومِ أرَهْطِى أعزُّ عليكم منَ اللهِ واتخذتموه وراءكم ظِهْرِياً إنَّ ربى بما تعملون محيط ﴾ .

أترون مِنْ حقّ رهطى مالا تَرَوْنَ من حقّ ربى ؛ وإنَّ ربى يُـكافئكم على أعمالـكم بما تستوجبون فى جميع أحوالـكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وياقومِ اعْمَلُوا على مكانَتِـكم إنى عاملٌ سوف تعلمون من يأتيه عـذابٌ يُخْزِيه ومَنْ هو كاذبٌ وارتقبوا إنى معكم رقيب * ولمـا جاء أمرُنا نَجَّيْنا شُعَيْبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ مِنَّا وأخذتِ الذين ظلموا الصيحةُ فأصْبَحُوا فِى دِيارِهِم جاثمينَ * كأن لَّمْ يَغْنَوْا فيها ألاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

أرخى لهم ستر الإمهال فلمَّا أصرُّوا على تماديهم فى الغواية حلَّت بهم العقوبة ، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نارٍ ، ولا فى ديارِ الظالمين ديَّار ، قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار »

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتِنا وسلطانٍ مبين * إلى فرعون ومَلَئِهِ ﴾

كَرَّر قصة موسى عليه السلام تفخيما لشأنه ، وتعظيما لأمره ، وتنبيهاً على علوِّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التى أرسله بها ، ومعجزاته الباهرة ، وبراهينه القاهرة . .

ويقال أصعبُ عدوٍّ قَهَرَهُ أولا نَفْسُهُ ، وقد دَلَّه — سبحانه — على ذلك لمَّا قال : إلهى ! كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلى .

فَنَبَّهَهُ إلى استصغارِه لنفسه ، وانكساره لله بقلبه ، فزادت صولتُه لما صار معصوماً عن شهود فضلٍ لنفسه ، والسلطانُ الذى خصَّه به استولى على قلوبِ مَنْ رآه ، كما قال : « وألقيتُ عليك محبةً منى »(1) فما رآه أحدٌ إلا أحَبَّه ، ثم إنه لم يأخذه فى الله ضعفٌ ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون — وهو رضيع — كما فى القصة ، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموت لمَّا طالبه بقبض روحه . . كما فى الخبر ، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه لمَّا رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة ، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطىَّ لما استعان به مَنْ وافقه فى العقيدة ، وقال لله « إن هى إلا فتنتك »(2) لمَّا أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة . . . ففى جميع هذا تَجَاوَزَ اللهُ عنه لمَا أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ فاتَّبَعُوا أمرَ فرعونَ وما أمرُ فِرعونَ برشيد * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يوم القيامة فأوردَهم النَّارَ وبئْسَ الوِرْدُ المورودُ ﴾

---

(1) آية ٣٩ سورة طه .

(2) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

رضوا بمتابعة فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشعروا بخطئهم ، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعاً . وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم ، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤهم ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم ، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم — وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بمعبوده ، وأسرف في مجاوزة حدوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُتْبِعوا فى هذه لعنةً ويومَ القيامةِ
بِئْسَ الرِّفْدُ المرفودُ ﴾

بَعُدُوا فى عاجلهم من الإيمان ، وفى آجلهم من الغفران والجنان . والذى لهم فى الحال من الفُرْقة أعظمُ — فى التحقيق — من الذى لهم فى المآلِ من الُحرقة ، وهذه صفةُ مَنْ امتحنه اللهُ باللعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك من أنباء القرَى نقصُّه عليكَ
منها قائمٌ وحصيد ﴾

لم يكن فى جملة مَنْ قصَّ عليه مِنَ الأنبياء — عليهم السلام — مَنْ أكثر منه تبجيلا ، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً ، فكما تَقَدَّمَ على الأنبياء — عليهم السلام تقدَّمَتْ أمتُه على الأمم ، قال تعالى : « كنتم خير أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس »(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسَهم
فما أغنَتْ عنهم آلهتُهم التى يَدْعُون
مِن دونِ اللهِ مِن شىءٍ لمَّا جاء أمرُ
ربِّك وَمَازَادُوهُم غيرَ تتبيب ﴾

لا يجوز الظلمُ فى وصفه ، فتَصَرُّفُه فى مُلْكه بحقِّ إلهيته — مطلقٌ ، يحكم بحسب إرادته ومشيئته ، ولا يتوجه حقٌّ عليه ، فكيف يجوز الظلمُ فى وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر ، ولكن فى صفته لا يجوز العذر إذ الخلقُ خلقهُ ، والمُلْكُ مُلْكُه ، والحكمُ حُكْمُه .

---

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : ﴿وكذلك أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى
وهى ظالمةٌ إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديد﴾

إنَّ الحقَّ — سبحانه — يمهل ولكن لا يهمل ، ويحكم ولكن لا يعجّل ، وهو لا يُسأل عمَّا يفعل .

وقيل إذا أخذ النفوسَ بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها ، وإذا أخذ القلوبَ بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها . قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً لِمَنْ خَافَ عذابَ
الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ
وذلك يومٌ مشهود﴾

مشهودٌ يشهده مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق فى ذلك اليوم .

ويقال الأيام ثلاثة : يومٌ مفقودٌ وهو أمسٍ ليس بيدك منه شىء ، ويومٌ مقصود وهو غدٌ لا تدرى أتدركه أم لا ، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذى أنت فيه ؛ فالمفقودُ لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغ ، والمشهود وقتك وهو مُعَرَّضٌ للزوال .. فاستغله فيما ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نُؤَخِّرُه إلا لِأَجَلٍ مَّعدود ﴾

الأَجلُ لا يتقدَّم ولا يتأخر لكل (...)[2] ، والآجالُ على ما عَلِمها الحقُّ — سبحانه — وأرادها جاريةٌ ؛ فلا طلبٌ يُقَدِّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجلُه ، وكذلك للوصول وقت ، فلا طلب مع رجاء الوصول ، ولا طلب مع خوف الزوال ، ولقد قيل :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها متوقِّعٌ لقواصمِ الظَّهرِ
وفضيلةُ البلوى ترقبُ أهلِها عَقِبَ البلاء — مَسَرَّةَ الدهر

قوله جل ذكره : ﴿يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذنه
فمنهم شَقِىٌّ وسعيد﴾

---

(١) آية ١٢ سورة البروج .
(٢) مشتبهة .

الشقىُّ من قُسِم له الحرمانُ فى حاله ، والسعيد مَنْ رُزِق الإيمان فى مآله .

ويقال الشقاء على قسمين : قومٌ شقاؤهم غير مؤبد ، وقومٌ شقاؤهم على التأبيد ، وكذلك القول فى السعادة . الشقىُّ مَنْ هو فى أَسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير ، والسعيد مَنْ رَجَعَ من ظلماتِ التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشقىُّ من كان فى رق العبودية ظانًّا أنَّ منه طاعاته ، والسعيد مَنْ تحرر عن رقِّ البشرية وعَلِمَ أن الحادثاتِ كلها لله سبحانه .

وأمَّا الأشقياء — على التأبيد — فهم أهل الخلود فى مقتضى الوعيد ، والسعداء — على التأبيد — من قال الله تعالى فى صفتهم : « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين شَقُوا ففى النارِ لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها مادامتِ السمٰواتُ والأرضُ إلا ماشاء ربُّكَ ﴾

« إلا ما شاء ربُّك » أن يزيد على مُدَّةِ السمٰوات والأرضِ .

« إلا ما شاء ربُّك » أن ينقلهم إلى نوعٍ آخر من العذاب غير الزفير والشهيق .

« إلا ما شاء ربُّك » ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أنْ يُدْخِلهم النار ؛ فلا استثناء لبعض أوقاتهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده .

« إلا ما شاء ربُّكَ » من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبَّد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّك فعَّالٌ لِماَ يريد ﴾

فيه إشارة إلى أن الذى يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الذين سُعِدوا ففى الجنةِ خالدين فيها ما دامت السمٰواتُ والأرضُ إلا ماشاء ربُّكَ عطاء غير مجذوذ ﴾

لهم اليومَ جنَّاتُ القُربة ، ولهم غداً جنَّاتُ المثوبة .

والكفارُ اليوم فى عقوبة الفُرقة ، وغداً فى عقوبة الحُرْقة .

« فعّالٌ لما يريد » فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنّة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض .

وفى قوله « عطاء غير مجذوذ » — أى عطاء غير مقطوع — دليلٌ على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ مما يَعْبُدُ هؤلاء
ما يعبدون إلا كما يَعْبُدُ آباؤُهم مِن
قبلُ وإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نصيبَهم غيرَ
منقُوصٍ ﴾

لا يريد أنَّه عليه السلام فى شكٍّ ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضاهين لآبائهم ، كما تقول : لا شكَّ أنَّ هذا نهارٌ .

ويقال الخطابُ له والمرادُ به لأُمَّتِه .

« وإنا لموفوهم نصيبهم » : نجازيهم على الخير بخير وعلى الشر بضُر [1]

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاخْتُلِفَ
فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهم وإنَّهُم لَفِى شَكٍّ
منه مُرِيبٍ ﴾

اختلفوا فى الكتاب الذى أوتى ، وهو التوراة .

واختلفوا فى كونه رسولاً ، فمِنْ مُصَدِّقٍ ومِنْ مُكَذِّب .

ثم أخبر أنه — سبحانه — حَكَمَ بتأخير العقوبة ، ولولا حكمته لعجَّل لهم العقوبة .

وفائدةُ الآية من هذا التعريفِ التخفيفُ على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فيما كان

---

(١) لم يقل القشيرى : وعلى الشر بشر ، وإنما استعمل (الضر) تأدباً من ناحية ، ولأنه — حسب مذهبه الكلامى — لا ينسب (الشر) لله ، من ناحية أخرى ، وكما سنرى بعد قليل فى تفسيره للحسنة والسيئة

يلقاه من قومه من التكذيب ، فنى سماع قصة الأشكال — وبعضُهم من بعض — سلوة ، ولقد قيل :

آجارتَنا إنّا غريبان ها هنا وكلٌّ غريبٍ للغريب نسيب

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ كُلاًّ لمَّا ليُوَفِّيَنَّهُم رَبُّكَ أعمالَهُم إنَّه بما يعملون خبير ﴾

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب ، وكرَّر ذلك فى القرآن فى كثيرٍ من المواضع إبلاغاً فى التحذير ، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجَّلٌ ومؤجَّل ، وكلُّ مَنْ أعرض عن الغفلة وجَنَحَ إلى وصف التيقظ وَجَدَ فى معاملاته — عاجلاً — الربحَ لا الخُسران ، وآجلاً الزيادةَ لا النقصان ، وما يجده المرء فى نفسه أتمُّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه .

قوله جل ذكره . ﴿ فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ معك وَلاَ تَطْغَوْا إنَّه بما تعملون بصير ﴾

يحتمل أن تكون السين فى الاستقامة سين الطلب ؛ أى سَلْ من الله الإقامة لكَ على الحقِّ .

ويحتمل أن تكون الإقامة فى الأمر بمعنى أقام عليه .

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقِّها من غير إخلالٍ بها ، فلا يكون فى سلوكِ نهج الوفاقِ انحرافٌ عنه .

ويقال المستقيمُ مَنْ لا ينصرف عن طريقه ، يواصل سيره بسراه ، وورعه بتقواه ، ويتابع فى تركِ هواه .

ويقال استقامة النفوس فى نفى الزَّلَّة ، واستقامة القلوب فى نفى الغفلة ، واستقامة الأرواح بنفى العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفى الملاحظة(١) .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسَهم عن العبادة وألا يُخِلُّوا بأدائها ، ويقضون عسيرَها ويسيرَها . واستقامةُ الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة التائبين

---

(١) تهمنا هذه العبارة عند تحديد الآفات التى تصيب الملكات الباطنة حسب مذهب القشيرى .

ألا يُلِمُّوا بعقوبة زلة فيَدَعُونَ صغيرَها وكبيرَها . . . وعلى هذا النحو استقامة كلُّ أحدٍ .

قوله « ومن تاب معك » : أى فَلْيَستَقِمْ أيضاً مَنْ معك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَرْكنوا إلى الذين ظلموا
فَتَمَسَّكم النارُ ومالَكُم من دونِ اللهِ
مِنْ أولياء ثم لاتُنصَرون ﴾

لا تعملوا أعمالَهم ، ولا ترضوا بأعمالِهم ، ولا تمدحوهم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف لهم ، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم ، ولا تساكنوهم بقلوبكم ، ولا تخالطوهم ، ولا تعاشروهم . . . كل هذا يحتمله الأمرُ ، ويدخل تحت الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقِمِ الصلاةَ طَرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً
مِّنَ الليلِ إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ
السيئاتِ ذلك ذِكرىٰ للذاكرين ﴾

أى استَغْرِقْ جميعَ الأوقاتِ بالعبادات ، فإنَّ إخلالَكَ لحظةً من الزمان بفَرْضٍ تؤديه ، أو نَفْلٍ تأتيه حَسْرَةٌ عظيمةٌ وخُسرانٌ مبينٌ .

قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » الحسنات ما يجود بها الحق ، والسيئات ما يذنبها العبد ، فإذا دخلت حسناتُه على قبائح العبد مَحَتْها وأبْطَلَتْها .

ويقال حسناتُ القُربة تَذْهَبُ بسيئات الزَّلَّة .

ويقال حسناتُ الندم تَذْهَبُ بسيئات الجُرْم .

ويقال (انسكاب)(1) العَبْرَة تُذْهِبُ العَثْرَة(2) .

ويقال حسناتُ العرفان تُذْهِبُ سيئاتِ العصيان .

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات الإصرار .

ويقال حسناتُ العناية تذهب سيئات الجناية .

ويقال حسنات العفو عن الإخوان تذهِبُ الحقدَ عليهم .

ويقال حسنات الكَرَمِ تُذْهِبُ سيئاتِ الخدَم .

---

(1) هكذا مصوبة في الهامش وهي أصوب مما جاء في المتن (ارتكاب) .

(2) وردت (العسرة) بالسين والأصوب (العثرة) لأنها تنسجم مع السياق .

ويقال حسنُ الظنِّ بالناس يُذْهِبُ سوأتهم بكم[1] .

ويقال حسنات الفضل من الله تُذْهِبُ سيئاتِ حسبان الطاعة من أنفسكم .

ويقال حسناتُ الصدق تَذْهَبُ بسيئاتِ الإعجاب .

ويقال حسناتُ الإخلاص تَذْهَبُ بسيئاتِ الرياء .

قوله جل ذكره : ﴿ واصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر .

« فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » المحسنُ : العاملُ الذى يعلم أنَّ الأجرَ على الصبر والطاعة بفضله — سبحانه — لا باستحقاق عملٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا كان من القرونِ مِن قَبْلِكُم
أُولوا بقيةٍ يَنْهَوْن عن الفسادِ
فى الأرضِ إلا قليلاً ممَّنْ أنجينا منهم
واتَّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفوا فيه
وكانوا مجرمين ﴾

معناه لم يكن فيكم مِنْ هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل . .

وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم مَنْ يَنْهى عن الفساد ، ويحفظ الدِّين، ويطيعون أنبياءهم — إلا قليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان ربُّكَ لِيُهْلِكَ القرىٰ بظلمٍ
وأهلُها مُصْلِحون ﴾

أى لم يُهلِك اللهُ أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك مَنْ كان ظالماً .

---

(١) وربما يقصد القشيرى من هذه العبارة الحث على الصفح عن عثرات الناس .

ويقال معناه : لو أهلك الله أهلَ القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن المُلْكَ مُلْكُهُ ، والخلقَ عبيدُه .

ويقال « المصلح » مَنْ قام بحقِّ ربِّه دون طلب حظِّه .

ويقال : « المصلح » من آثر نجاته على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَه طاعتُه ، ومصلحٌ تصْلِحُ قلبَه معرفةُ سيِّدِه ، ومصلح تُصْلِحُ سِرَّه مشاهدةُ سيِّدِه .

قوله جل ذكره ﴿ ولو شاء ربُّكَ لَجَعَلَ الناسَ أُمةً واحدةً ولا يزالون مُخْتَلِفِينَ ﴾

لو شاء لَجَعَلهم أربابَ الوفاق ثم لا يوجبون لمُلْكِه زَيْناً ، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلافِ ثم لا يوجِبُون لمُلْكِهِ شَيْنًا .

ثم قال : « ولا يزالون مختلفين » لأنه كذلك أراد بهم .

« إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ » فى سابق حكمه فعصمهم عن الخلاف فى حاصل أمورهم ، وأقامهم به ، ونصبهم له ، وأثبتهم فى الوفاق والمحبة والتوحيد .

قوله جل ذكره ﴿ وتَمَّتْ كَلِمَةُ ربِّك لَأَمْلَأَنَّ جهنَّم مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾

أى لا تبديلَ لقوله ، ولا تحويلَ لحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكُلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ ﴾

سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين ، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذى رقّاه إليه ، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه .

ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع ، ولم يذكر قصتَه لأحد تعريفاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه ، وفَرْقٌ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يستقل بِمَنْ منه يسمع ، وأنشدوا :

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَنِي حَنِينًا فَزِدْنِي مِنْ حديثِكَ يا سعدُ

قوله جل ذكره: ﴿وقُل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتِكم إنَّا عاملون * وانتظِروا إنَّا مُنتظِرُون﴾

إن الذين يجحدون التوحيد، ويؤثِرون على الحقِّ غيرَ الحق، ولم يُصَدِّقوا الوعيد، يوشِكُ أَنْ يَنْصَبَّ عليهم الانتقامُ فيغرقون فى بحار العقوبة، ويسقطون فى وهاد الهوان، فلا لويلهم انتهاء، ولا لِذُلِّهم انقضاء.

قوله جل ذكره: ﴿ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّه فاعْبُدْه وتوكَّلْ عليه وما ربكَ بغافلٍ عما تعملُون﴾

عمَّى عن قلوبهم العواقبَ، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيامَ بما كَلَّفهم فى الحال، فقال: «فاعبده» فإنْ تقسَّمَ القلبُ وتَرَجَّمَ الظَّنُّ وخيف سوء العاقبة.. فتوكَّلْ عليه أى اسْتَدْفِعْ البلاء عنك بِحُسْنِ الظَّنِّ، وجميل الأمل، ودوام الرجاء.

«وما ربك بغافل عما تعملون»: أحاط بكل شىء عِلْماً، وأمضى فى كل أمرٍ حُكْماً.

السورة التى يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم[1] مِنْ وَسَمَ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهرَه بالعبودية، وسرائرَه بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُه إلى المراتب العَلِيَّة، وأُزْلِفَتْ رتبتُه من المنازل السنِيَّة.

أو أن الاسم مشتق من السِّمة أو من السموِّ

(١) ربما كان القشيرى فى شرحه لمعنى (الاسم) متأثراً بالجو العام للسورة، وما حدث لكل من يوسف وإخوته من أحداث.

وقدَّم الله — سبحانه — اسمَ اللهِ فى هذا المحل عن اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء — التى هى حرف التضمين والالصاق — إلى أنَّ « به » عَرَفَ مَنْ عَرَفَ ، و « به » وقف مَنْ وقف ؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه ، والواقف دونه مربوط بخذلانه .

قوله جل ذكره : ﴿ الٓر تلك آياتُ الكتاب المبين ﴾

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنَّةُ الأحباب فى سَتْرِ المحابِّ ؛ فالقرآنُ — وإنْ كان المقصودُ منه الإيضاحَ والبيانَ — ففيه تلويح وتصريح ، ومُفَصَّلٌ ومُجْمَلٌ ، قال قائلهم :

أبكى إلى الشرق إنْ كانت منازِلُكم ... مما يلى الغربَ خوفَ القيل والقالِ

ويقال وقفت فهُومُ الخَلْق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه — صلى الله عليه وسلم ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة ولكنه أفرد الحبيبَ بفهمه ، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول قائلهم :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه ... قولٌ ، ولا قلم للخَلْق يحكيه

وفى إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهى أنَّ مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعانى ، ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير ؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وَصْلِه ؛ فأنزل اللهُ هذه الحروف التى لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها بِعَدَم السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطَالَبَةٌ بالفهم ، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرقين فى عين الجَمْع ، ولذا قيل : استراح من العقل له(1) .

وقوله تعالى : « تلك » يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذى وعدناك .

---

(1) هكذا فى (ص) ونرجح أنها (استراح من لا عقل له) والعقل هنا معناه الوعى .

وقيل هذا تعريفنا : إليك بالتخصيص ، وإفرادُنا لك بالتقريب — قد حققْناه لكَ ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود .

والإشارة من « الكتاب المبين » ها هنا إلى حُكْمِه السابق له بأنْ يُرَقِّيَه إلى الرتبة التى لا يبلغها غيرُه ، وقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا . . »[1] أى حين كلَّمنا موسى عليه السلام ، وأخبرناه بعلوِّ قَدْرِك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نُبَلِّغُك هذا المقامَ الذى أنت فيه الآن . وكذلك كلُّ مَنْ أوحينا إليه ذَكَرْنا له قِصتَكَ ، وشَرَحْناَ له خِلقتَك ، فالآنَ وقتُ تحقيق ما أخبرنا به ، وفى معناه أنشدوا :

سقْياً لمعهدِكَ الذى لو لم يكن ... ما كان قلبي للصبابةِ معهدا

قال الله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر » يعنى بعدِ التوراة « أن الأرضَ يرثها عبادى الصالحون »[2] يعنى أمة محمد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقِلون ﴾ .

فى إنزال الكتاب عليه ، وإرسالِ الرسول[3] إليه — تحقيقٌ لأحكام المحبة ، وتأكيدٌ لأسباب الوصلة ؛ فإنَّ مَنْ عَدِمَ حقيقة الوصول استأنس بالرسول ، ومَنْ بَقِيَ عن شهود الأحباب تَسَلَّى بوجود الكتاب ، قال قائلهم :

وكُتْبُكَ حَوْلى لا تفارقُ مضجعى ... ففيها شفاءٌ للذى أنا كاتِمُ .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نقصُّ عليك أَحْسَنَ القَصَص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

« أحسن القصص » : لخلوِّه عن الأمر والنهى الذى سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو يعرِّض لوقوع التقصير .

« أحسن القصص » : ففيه ذكر الأحباب .

---

(١) آية ٤٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

(٣) (الرسول) هنا مقصود به القرآن الكريم أو جبريل — كما هو واضح من السياق .

« أحسن القصص » : لأن فيه عفوَ يوسف عن جنايات إخوته .

« أحسن القصص » : لما فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه .

« أحسن القصص » : بالإضافة إلى ماسألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس .

« أحسن القصص » : لأنه غير مخلوق[1] .

ويقال لمّا أخبره الله — سبحانه — أن هذه القصةَ أحسنُ القصص وجد رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه ؛ فَعَلِمَ أن الله تعالى لم يُرَقِّ أحداً إلى مثل مارقّاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾

أى الذاهبين عن فهم هذه القصة . أى ما كنتَ إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها ، أى إنك لم تَصِلْ إلى معرفتها بكدِّك وجهدك ، ولا بطلبك وجِدِّك . . . بل هذه مواهبُ لا مكاسب ؛ فبعطائنا وَجدتَها لا بعنائك ، وبتفضلنا لا بتعلُّلك ، وبتلطفنا لا بتكلُّفك ، وبنا لا بك .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إنى رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لى ساجدين ﴾

لما ذكر يوسف — عليه السلام — رؤياه لأبيه عَلِمَ يعقوبُ — عليه السلام صِدْقَ تعبيرها ، ولذلك كان دائم التذكُّر ليوسف مدةَ غيبته ، وحين تطاولتْ كان يَذْكُرُه حتى قالوا : « تالله تفتأ تذكر يوسف » فقال : « إنى أعلم من الله مالا تعلمون » فهو كان على ثقةٍ من صِدْقِ رؤياه

فإنْ قيل : فإذا كان الصبيُّ لا حُكْمَ لفعله فكيف يكون حكم لرؤياه ؟ وما الفرق ؟

(١) القرآن غير مخلوق . . هذا أصل من الأصول الكلامية الهامة عند الأشاعرة — ومنهم القشيرى .

فيقال : إن الفعل بتَعَمُّدٍ يحصل فيكون مُعَرَّضاً لتقصير فاعله ، أمَّا الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان .

ويقال إنَّ حقَّ السِّرِّ الكتمانُ وإن كان على مَنْ هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر سِرَّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ على إخْوتِكَ فَيَكِيدوا لكَ كَيْداً إنَّ الشَّيْطانَ للإنسانِ عدوٌّ مُبِينٌ ﴾

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لمَّا سبق التقديرُ في أمر يوسف ـ عليه السلام ـ حصل ما حصل .

ويقال إن يوسفَ خالَفَ وصية أبيه في إظهارِ رؤياه إذ لو لم يُظْهِرْها لما كادوا له ، فلا جَرَمَ بسبب مخالفته لأبيه — وإن كان صبيا صغيرا — لم يَعْرَ مِنَ البلايا .

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويلُه سجودَ الإخوة له رأى ما تعبيره : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ؛ فدخل الإخوة الحَسَدَ(١) أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لِفَرْطِ شفقة الأبوة .

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال : « وخرُّوا له سُجَّداً » ولم يسجد الأبُ ولا خالته حيث قال : « ورفع أبويه على العرش » فإن يوسفَ صانَهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ ربُّكَ ويُعَلِّمُكَ مِن تأويلِ الأحاديث ﴾

أى كما أكرمك بهذه الرؤيا التى أراكها يجتبيك ويُحْسِنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعد النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فما يحصل للعبد من الخيرات — لا بتكلفه ولا بتعمده — فهو قضية الاجتباء .

---

(١) وردت (الحد) والصواب أن تكون الحسد (انظر توضيح ذلك بعد قليل صفحة ١٧٠) ودخول الأب كان بنفسه ولم يكن بقلبه ، وكان سببه شدة الإشفاق على ولده .

ويقال من الاجتباء المذكور أنْ عَصَمَهُ عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه .

ويقال من قضية الاجتباء إسباله الستر على فعل إخوته حيث قال : « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن » ،ولم يذكر خَلاصَهُ من البئر .ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال : « لا تثريب عليكم اليوم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِن تأويل الأحاديث ﴾

أى لتعرفَ قَدْرَ كلِّ أحد ، وتقفَ على مقدار كلِّ قائلٍ بما تسمع من حديثه .. لا مِنْ قوله بل لِحدَّةِ كياستك وفَرْطِ فراستك .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك وعلى آلِ يعقوبَ
كما أتمها على أبويكَ مِن قَبْلُ
إبراهيم وإسحاق إنَّ ربَّك عليمٌ
حكيم ﴾

مِنْ إتمامِ النعمة توفيقُ الشكرِ على النعمة ، ومن إتمام النعمة صَوْنُها عن السَّلبِ والتغيير ، ومن إتمام النعمة التَّحرزُ [1] منها حتى تَسْهُلَ عليكَ السماحةُ بها .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كانَ فى يوسُفَ وإخوتهِ
آياتٌ للسائلين ﴾

يعنى لكلِّ ذى محنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولكلِّ ذى نعمة حتى يعلم كيف يشكر .

ويقال فى قصتهم كيفية العفو عن الزَّلَّة ، وكيفية الخَجْلَةِ لأهل الجفاء عند اللقاء .

ويقال فى قصتهم دلالاتُ لطفِ الله سبحانه بأوليائه بالعصمة ، وآياتٌ على أنَّ المتبة (...) [2] من المحنة .

ويقال فيها آياتٌ على أنَّ من صَدَقَ فى رجائه يُخْتَصُّ — يوماً — ببلائه .

(١) (التحرز) من النعمة التوقى منها ، وإذا افترضنا أنها قد تكون (التحرر) بالراء فمناها ألا يكون العبد أسيراً للنعمة حتى يسهل عليه أن يجود بها ... وكلاهما صحيح مقبول فى السياق .

(٢) مشتبهة

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ قالوا لَيُوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا مِنَّا ونحن عُصْبَةٌ إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين ﴾

عَرَّفُوا على ما سَتَرُوه من الحَسَدِ ، ولم يحتالوا فى إخراج ذلك من قلوبهم بالوقيعة فى أبيهم حتى قالوا : « إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين » .

ويقال لمَّا اعترضوا بقلوبهم على أبيهم فى تقديم يوسف فى المحبة عاقبهم بأن أمهلهم[1] حتى بسطوا فى أبيهم لسانَ الوقيعة فوصفوه بلفظ الضلال ، وإنْ كان المرادُ منه الذهابَ فى حديث يوسف عليه السلام . ولمَّا حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ — سبحانه — حتى أقامَهم بين يدى يوسف عليه السلام ، وخرُّوا له سُجَّداً ليعْلَموا أنَّ الحسودَ لا يسود .

ويقال أطولُ الناسِ حُزْناً مَنْ لاقَى الناسَ عن مرارةٍ ، وأراد تأخيرَ مَنْ قَدَّمه اللهُ أو تقديمَ مَنْ أخَّرَه اللهُ ؛ فإخوةُ يوسف — عليه السلام — أرادوا أن يجعلوه فى أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوقَ السرير !

قوله جل ذكره : ﴿ اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرْضاً يَخْلُ لَكمْ وَجْهُ أبيكم ﴾

أى يَخْلُصْ لكم إقبالُ أبيكم عليكم ، وقديماً قيل : مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فَاتَه الكلُّ ؛ فلمَّا أرادوا أن يكون إقبالُ يعقوب — عليه السلام — بالكليَّةِ — عليهم قال تعالى : « فتولى عنهم » .

ويقال كان قَصْدُهم ألا يكونَ يوسفُ أمامَ عينه فقالوا : إمَّا القتلُ وإمَّا النَّفْىُ ، ولا بأسَ بما يكونُ بعد ألا يكونَ يوسف عليه السلام .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونوا مِنْ بَعْدِه قوماً صالحين ﴾

عَجَّلوا بالحرام ، وعَلَّقُوا التوبةَ بالتسويف والعزم ، فلم يمحُ ما أجَّلُوا من التوبة ما عجَّلوا من الحَوْبَة .

---

(1) وردت (أهملهم) وهى خطأ فى النسخ لأن الله لا يهمل ولكن يمهل ، والسياق يقتضى (الإمهال) .

ويقال لم تَطِبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن بابِ الله بالكلّيّة فدبَّروا لحُسْنِ الرجوع قبل ارتكاب مادعته إليه نُفُوسُهم ، وهذه صفة أهل العرفان بالله[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسفَ وألقُوه فى غيابة الجُبِّ يلتقطْه بعضُ السَّيَّارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إخوةُ يوسف — وإنْ قابلوه بالجفاء — مَنَعَتْهُم شفقةُ النَّسَبِ وحُرْمَةُ القرابةِ من الإقدام على قتله ، فقالوا لاتقتلوه وغَيِّبُوا شَخْصَه .

ويقال إنما حَمَلَهم على إلقائه مرادُهم أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، فلمَّا أرادوا حصولَ مرادهم فى تغييبه لم يبالغوا فى تعذيبه .

ويقال لمَّا كان المعلومُ له — سبحانه — فى أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى اللهُ فى قلبِ قائلهم حتى قال : « لا تقتلوا يوسف » .

ثم إنه — وإن أبلاه فى الحال — سَهَّلَ عليه ذلك فى جَنْبِ ما رقَّاه إليه فى المآل[2] ، قال قائلهم :

كم مرةٍ حَفَّت بكَ المكاره خارَ لكَ اللهُ — وأنت كاره

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا أبانا مَالَكَ لا تَأْمَنَّا على يوسف وإنَّا له لناصحون ﴾ .

كلامُ الحسودِ لا يُسمَع ، ووعدُه لا يُقْبَل — وإنْ كانا فى مَعْرِضِ النُّصحِ ؛ فإنَّهُ يُطْعِمُ الشَّهْدَ ويَسْقِي الصَّابَ .

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب — عليه السلام — ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف : « ويكيدوا لكَ كيداً » ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصير مسدودةً .

---

(١) واضح من هذا ومما جاء فى السياق أن القشيرى — بتسامحه الصوفى الأصيل — ينظر إلى إخوة يوسف نظرة خالية من التحامل عليهم .

(٢) كأنما ينصح القشيرى أصحاب الإرادة : إن لقيتم اليوم فى الله شدةً ، فلكم غداً مثوبة . وكأنما يوضح لأهل الجدل : إن مقاييس الشر والخير الإنسانية خاطئة قاصرة .

ويقال من قَبِلَ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ فى يوسف – عليهما السلامُ – من بلائه .

قوله جل ذكره : ﴿ أرْسِلْه معنا غداً يرْتَعْ ويلعبْ وإنا له لحافظون ﴾ .

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام فى تمكينهم من يوسف بما فيه راحةُ نَفْسٍ فى اللعب ، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه – وإنْ كان يشقُّ عليه فراقُه ، ولكنَّ المحبَّ يؤثِرُ راحةَ محبوبه على محبةِ نَفْسه .

ويقال لما ركَنَ إلى قولهم : « وإنا له لحافظون » – أى مِنْ قِبَلِهم[1] – حتى قالوا : « وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ؛ فَمَنْ أسلم حبيبَه إلى أعدائه غُصَّ بتحسّى بلائه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنى ليَحْزُنُني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكلَه الذئبُ وأنتم عنه غافلون ﴾ .

يَحْزُنُنى أن تذهبوا به لأنى لا أصبر عن رؤيته ، ولا أطيق على فُرقته . . . هذا إذا كان الحالُ سلامته . . فكيف ومع هذا أخافُ أن يأكله الذئب ؟!

ويقال لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب ، فى الخبر ما معناه : إنما يُسَلطُ على ابن آدم ما يخافه . وكان من حقه أن يقول أخافُ اللهَ لا الذئب ، وإنْ كانت مَحالُّ الأنبياء عليهم السلام – محروسةٌ من الاعتراض عليها .

ويقال لمَّا جرى على لسان يعقوب – عليه السلام – من حديث الذئب صار كالتلقين لهم ، ولو لم يسمعوه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب[2] .

---

(١) يرجع القشيرى ما أصاب يعقوب من بلاء إلى ركونه إلى حفظ يوسف من قبل الخلق ، وأنه اطمأن لدعوام مع أن الحفظ لا يكون إلا لله .

(٢) تفيد هذه النقطة فى إثبات كرامة الأولياء ، وما يجرى على ألسنتهم من تنبؤ بما قد يحدث فى المستأنف على وجه الإجمال .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لَئِنْ أكله الذئبُ ونحن عُصْبةٌ إنَّا إذاً لخاسِرون ﴾ .

لحِقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا :

« إنَّا إذاً لخاسرون » : لأنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقٌ بأن يقال قد خسرت صفقتُه .

ويقال لمَّا عدُّوا القوة فى أنفسهم حين قالوا : « ونحن عصبة » خُذِلُوا حتى فعلوا[1] .

ويقال لمَّا ركَنَ يعقوبُ — عليه السلام — إلى قولهم : « ونحن عصبة » لَقِيَ ما لَقِيَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غَيابَةِ الْجُبِّ وأوحينا إليه لتُنَبِّئنَّهم بأمرِهم هذا وهم لا يَشْعرون ﴾ .

الجوابُ فيه مُقَدَّر ، ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه فى البئر فعلوا ما عزموا عليه . أو فلمَّا ذهبوا به وألقوه فى غيابة الْجُبِّ أوحينا إليه ؛ فتكون الواو صلة .

والإشارة فيه أنه لمَّا حلَّتْ به البلوى عجَّلنا له التعريفَ بما ذكرنا من البُشْرَى ؛ ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمِّلٌ له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحىُ من قِبَل مولاه ، وكذا سُنَّتُه تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاءِ إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ الصفاء ، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ .

تمكنُ الكذَّابِ من البكاءِ سِمَةُ خذلان الله تعالى إياه ، وفى الخبر : إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكى ما شاء .

ويقال : لا يَبْعُدُ أنْ يقال إنهم وإنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا ، فَعَلاهُمْ البكاء لندمهم — وإن لم يُظْهروا لأبيهم — وتَقَوَّلُوا على الذِّئبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءوا على قميصه بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

---

(1) فقد كانت من دعاوى النفس .

لم يُؤثِّرْ تزويرُ قالَبِهم فى إيجاب تصديق يعقوب — عليه السلام لكذبهم بل أخبره قلبُه أنَّ الأمرَ بخلاف ما يقولونه فقال :

﴿ بل سَوَّلتْ لكم أنفُسُكم أمراً
فصبرٌ جميلٌ واللهُ المُسْتَعانُ على
ما تَصِفُون ﴾ .

فَعَلِم على الجملة وإنْ لم يعلمْ على التفصيل . . وهكذا تقرع قلوبَ الصديقين عواقبُ الأمور على وجه الإجمال ، إلى أنْ تَتَّضحَ لهم تفاصيلُها فى المستأنف .

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أُغفلوا عن تمزيق قميصه حتى عَلم يعقوب تَقَوُّلَهم فيما وصفوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءَتْ سَيَّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى
دلْوَه قال يا بُشرىٰ هذا غلامٌ وأسَرُّوه
بضاعةً والله عليم بما يعملون ﴾ .

ليس كلُّ من طلب شيئاً يُعطى مرادَه فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله ؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسفَ عليه السلام .

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة ؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف — فى الحقيقة — حُرّاً(١) .

ويقال لمَّا أراد اللهُ تعالى خلاصَ يوسف — عليه السلام — من الُجبِّ أزعج خواطر السَّيارة فى قصد السفر ، وأعدمهم الماء حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص ، ولهذا قيل : ألا رُبَّ تشويشٍ يقع فى العَالَم والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ . كما قيل : رُبَّ ساعٍ له قاعد .

قوله جل ذكره ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهِمَ معدودةٍ
وكانوا فيه مِنَ الزَّاهدين ﴾

لم يعرفوا خسرانهم فى الحال ولكنهم وقفوا عليه فى المآل .

---

(١) أى ربما تكون حقيقة التهمة أعظم من ظاهرها .

ويقال قد يُبَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس ، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغَبْن .

ويقال لم يحتشموا من يوسف — عليه السلام — يوم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ ، ولكن لمَّا قال لهم : أنا يوسف — وقع عليهم الخجل ، ولهذا قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .

ويقال لمَّا خَرُّوا له سُجَّدًا علموا أنَّ ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمنٍ بخس .

ويقال لمَّا وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا فى نعمته ، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه فى مقام الذُّلِّ قائلين « مَسَّنا وأَهْلَنا الضُّرُّ » ، وفى معناه أنشدوا :

ستسمع بى وتذكرنى وتطلبنى فلا تجدِ

ويقال ليس العَجَبُ ممن يبيع مثلَ يوسف — عليه السلام — بثمنٍ بَخْسٍ إنما العَجَبُ ممن (. . . .)[1] مثل يوسف — عليه السلام — بثمن بخس ، لا سيَّما « وكانوا فيه من الزاهدين » (الطرق لا غاية له ، وكذا العجب لا نباته له)[2] .

ويقال يس العجب ممن يبيع يوسف — عليه السلام — بثمنٍ بخسٍ ، إنما العجب ممن يبيع وقته الذى أعزُّ من الكبريت الأحمر بعَرَضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا .

ويقال إنَّ السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا فى شرائه بدراهم ، والذين وقفوا على جماله وشىء من أحواله غالوا — بمصر — فى ثمنه حتى اشتروه بزنته دراهم ودنانير مراتٍ — كما فى القصة[3] ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاى مُطَّرَحاً فعند غيرِك محمولٌ على الحَدَقِ[4]

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذى اشتراه من مِصْرَ

---

(١) هنا كلمة فى الكتابة هكذا (بحل) ولا ندرى كيف نصرفها إلى إتجاه يخدم المعنى .

(٢) ما بين القوسين ورد هكذا فى (ص) وفيه التباس ناشىء عن سوء النسخ .

(٣) يقال إن العزيز إشتراه بزنته ورقاً وحريراً ومسكاً .
(تفسير النسفى ج ٢ ص ٢١٦ ط عيسى الحلبى)

(٤) الحدق جمع حدقة وهى السواد المستدير وسط للعين .

لامرأته أكرمي مثواه عسىٰ أن
يَنفَعَنا أو نتخذَه وَلَدًا ﴾

لمَّا نودى على يوسف فى مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ — سبحانه — حتى أصابتهم الضرورةُ ومَسَّتْهُمُ الفاقةُ حتى باعوا من يوسف — عليه السلام — جميعَ أملاكهم ، ثم باعوا كلُّهم منه أنفُسَهم — كما فى القصة — وفى آخر أمرهم طلبوا الطعام ، فصاروا بأجمعهم عبيدَه ، ثم إنه عليه السلام لمـا مَلَكَهم مَنَّ عليهم فأعتقهم[1] ؛ فَلَئِنْ مَرَّ عليه بمصرَ يومٌ نودى فيه عليه بالبيع ؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد مَلَكَ جميعَ أملاكهم ، ومَلَكَ رقابَ جميعهم ؛ فيومٌ بيومٍ ، قال تعالى : « فإنّ مع العسر يسراً » يومانِ شَتَّان بينهما !

ثم إنه أعتقهم جميعاً ... وكذا الكريمُ إذا قدر غفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسفَ فى
الأرض ، ولِنُعَلِّمَه من تأويل
الأحاديث ﴾

أراد مَنْ حَسَدَه ألّا تكونَ له فضيلةٌ على إخوته وذويه ، وأراد اللهُ أن يكونَ له مُلْكُ الأرضِ ، وكان ما أراد اللهُ لا ما أراد أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ غالِبٌ على أمرِه ﴾

أرادوا أن يكونَ يوسفُ عليه السلام فى الجُبِّ ، وأراد اللهُ — سبحانه — أن يكون يوسف على سرير المُلْكِ ؛ فكان ما أراد الله ، والله غالبٌ على أمره .

---

(١) فى القصة « وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدرام والدنانير فى السنة الأولى حتى لم يبق معهم شىء منها ثم بالحلى والجواهر فى الثانية ثم بالدواب فى الثالثة ثم بالعبيد والإماء فى الرابعة ثم بالدور والعقار فى الخامسة ثم بأولادهم فى السادسة ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعاً ثم أعتق أهل مصر ورد عليهم أملاكهم » النسفى ج ٢ ص ٢٢٨ .

وأرادوا أن يكون يوسفُ عبداً لمن ابتاعوه من السيارة ، وأراد اللهُ أن يكونَ عزيزَ مصر — وكان ما أراد اللهُ .

ويقال العِبْرَةُ لا ترى من الحقِّ فى الحال ، وإنما الاعتبارُ بما يظهر فى سِرِّ تقديره فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا بَلَغَ أشُدَّه آتيناه حُكْمًا
وعِلْمًا ، وكذلك نَجْزِى المحسنين ﴾

من جملة الحُكْمِ الذى آتاه اللهُ نفوذُ حُكْمِه على نَفْسِه حتى غَلَبَ شهوته ، وامتنع عما رَاوَدَتْه تلك المرأةُ عن نَفْسِه ؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكمَ له على غيره .

ويقال إنما قال : « ولمَّا بلغ أشدَّه » أى حين استوى شبابُه واكتملت قُوَّته ، وكان وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعى مطالبات البشرية — آتاه اللهُ الحُكْمَ الذى حبسه على الحقِّ وصَرَفَه عن الباطل ، وعَلِمَ أنَّ ما يعقب اتباع اللذاتِ من هواجم النَّدمِ أشدُّ مقاساةً من كلفة الصبر فى حال الامتناع عن دواعى الشهوة . . فآثَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع .
وذلك الذى أشار نبيه الحقُّ — سبحانه — من جميل الجزاء الذى أعطاه هو إمدادُه بالتوفيق حتى استقام فى التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق ، قالَ تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا »[1] : أى الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سُبُلَ الصبرِ على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائقُ المواصلة .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَرَاوَدَتْه التى هو فى بيتها عن نَّفْسِه
وغلَّقَتِ الأبوابَ وقالت هَيْتَ لَكَ
قال معاذَ اللهِ إنه ربى أَحْسَنَ مثواى
إنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾

لما غَلَّقَت عليه أبوابَ المسكنِ فَتَحَ اللهُ عليه باب العصمة[2] ، فلم يَضُرْه ما أُغْلِقَ بعد إكرامه بما فُتِحَ .

---

(١) آية ٦٩ سورة العنكبوت .
(٢) نلفت النظر إلى جمال عبارة القشيرى الناتج عن المقابلة بين (الإغلاق) و (الفتح) .

وفى التفسير أنه حفظ حُرْمَةَ الرجل الذى اشتراه ، وهو العزيز .

وفى الحقيقة أشار بقوله : « إنه ربّى » إلى ربه الحقّ تعالى : هو مولاى الحق تعالى ، وهو الذى خلّصنى من الُجبّ ، وهو الذى جعل فى قلب العزيز لى محلًّا كبيراً فأكرم مثواى فلا ينبغى أنْ أُقدِمَ على عصيانه — سبحانه — وقد غمرنى بجميل إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها : إن العزيز أمرنى أنْ أنفعَه . « عسى أن ينفعنا » فلا أخُونُه فى حُرْمَتِه بظهر الغيب .

ويقال لمّا حفظ حُرْمة المخلوقِ بظهر الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة فى الحال ومَكّنَه من مواصلتها فى المآل على وجه الحلال .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد همَّتْ به وهَمَّ بها لولا أن رأى بُرْهانَ ربِّه كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفحشاء إنَّه مِنْ عبادِنا المخلَصين﴾

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه — بغير اختياره ولا بِكَسْبِه — كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن « الهمُّ »[1] منه ولا منها زَلَّةً ، وإنما الزَّلَّةُ من المرأة كانت من حيث عزَمَتْ على ما همَّتْ ، فأمّا نفسُ الهمّ فليس مما يَكْسِبُه العبد .

ويقال اشتركا فى الهمِّ وأُفْرِد — يوسف عليه السلام — بإشهاده البرهان .

وفى تعيين ذلك البرهان — ما الذى كان ؟ — تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالخبرِ المقطوع به .

وفى الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقِّ إياه بآية من آيات صُنْعِه ، قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسِهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق »[2] .

---

(١) واضح أن القشيرى يهدف إلى نفى كل تهمة عن يوسف ولهذا يلجأ إلى تأويل لفظة « الهم » الذى اشترك فيه وامرأة العزيز كما يعبر ظاهر اللفظ

(٢) آية ٥٣ سورة فصلت .

وقوله : « كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء » صَرَفَ عنه السُّوء حتى لم يوجد منه العزمُ على ذلك الفعل — وإنْ كان منه همٌّ — إلا أن ذلك لم يكن جُرْماً كما ذكرنا .

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهمِّ — كشفٌ ، والسوء المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفْسُ الزنا ، وقد صرفهما الله تعالى عنه .

قوله « إنه من عبادنا المُخْلَصين » : لم تكن نجاتُه فى خلاصه ، ولكن فى صرفِ السوء عنه واستخلاصه .

قوله جل ذكره : ﴿ واستَبَقَا البابَ وقَدَّتْ قميصَه مِن دُبُرٍ وألْفَيَا سَيِّدَها لدى البابِ ﴾

استبقا ، هذا ليهرُبَ ، وهذه للفعلة التى كانت تطلب .

ولم يضر يوسفَ — عليه السلام — أنْ قَدَّتْ قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحَّ عليه قميصُ تقواه .

ويقال[1] لم تَقْصِدْ قَدَّ القميصِ وإنما تَعَلَّقَتْ به لتَحْبِسَه على نفسها ، وكان قصدُها بقاء يوسف — عليه السلام — معها ، ولكن صار فعلُها وَبالاً على نَفْسِها ، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتَها وشفاءها .

ويقال تولَّد انخراقُ القميصِ من قبضها عليه وكان فى ذلك افتضاح أمرها ؛ لأن قَبْضَها على قميصه كان مزجوراً عنه . . لِيُعْلَمَ أنَّ الفاسِدَ شَبْهُه فاسدٌ .

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم فى الحالِ أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدَّامِه . . كذلك صاحبُ البلاءِ فى الهوى مسلوبُ التمييز .

ويقال لمّا لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصَه ليكونَ لها فى إلقائها الذَّنْبَ على يوسف — عليه السلام — حُجَّةٌ ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ حتى صار ذلك عليها حجة ، وليوسف دلالة صدق ، قال تعالى : « ولا يحيق المكرُ السيءُ إلا بأهله »[2]

---

(١) فيما يلى من إشارات نلاحظ أن القشيرى قد جعل من امرأة العزيز رمزاً لطالب الدنيا وأسير الهوى ومن يوسف رمزاً مقابلا لذلك .

(٢) آية ٤٣ سورة فاطر .

قوله تعالى : « وألفيا سيدها لدى الباب » : لمّا فتحا البابَ وجدا سيدها لدى الباب ، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ؛ إذا خرجَ العبدُ عن الذى هو عليه من التكليف فى الحال وقع فى ضيق السؤال .

ويقال قال : « ألفيا سيدها » ولم يقل سيدهما لأن يوسف فى الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيزُ له سيداً .

قوله جل ذكره : ﴿قالت ما جزاء مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوءًا
إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم﴾

شَغَلَتْهُ بإغرائها إياه بيوسف عن نَفْسِها بأن سَبَقَتْ إلى هذا الكلام .

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتلَه ؛ ففى عين ما سَعَتْ به تظرت له وأبقتْ عليه .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترضَ بذلك ، وستزيد ؛ فالعذاب الأليم يعنى الضّرب المُبَرِّح . . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج .

ويقال أوقعت السجن الذى يبقى مؤجّلا فى مقابلة الضرب الأليم المعجل ليُعْلَم أنّ السجنَ الطويل — وإنْ لم يكن فيه فى الظاهر ألم — فهو فى مقابلة الضرب الشديد الموجع ؛ لأنه — وإنْ اشتدّ فلا يقابله .

ويقال قالت : « ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ » فذِكْرُ الأهل هاهنا غايةُ تهييج الحميّة وتذكيرٌ بالأنفَة .

قوله جل ذكره : ﴿قال هى رَاوَدتْني عن نَفْسِى وشَهِدَ
شاهِدٌ من أهلِها إن كان قميصُه قُدَّ
مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو مِنَ
الكاذبين * وإن كان قميصُه قُدَّ
من دُبُرٍ فكَذَبَتْ وهو مِنَ
الصادقين * فلمَّا رأى قميصه قُدَّ من

دُبُرٍ قال إنَّه من كيدكن إنَّ كَيْدَكُنَّ
عظيم ﴾ .

أفصح يوسف عليه السلام بجُرْمِها إذ ليس للفاسق حُرْمَةٌ يجب حِفْظُها ، فلم يُبَالِ أَنْ هَتَكَ سترها فقال . « هى راودتنى عن نفسى » فلمَّا كان يوسفُ صادقاً فى قوله ، ولم يكن له شاهدٌ أنطق اللهُ الصبيَّ الصغير الذى لم يبلغ أوانَ النطق(١) . ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً فى نفسه لم يبالِ اللهُ أن يُنْطِقَ الحجرَ لأجله .

قوله : « فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر . . . » لما اتضح الأمرُ واستبان الحالُ وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز : « إنه من كيدكن » : دلَّت الآيةُ على أنَّ الزنا كان مُحرَّماً فى شرعهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يوسفُ أَعْرِضْ عن هذا واستغفرى
لذنبكِ إنَّكِ كنتِ مِنَ الخاطئين ﴾

لم يُرِدْ أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف : أَعرِضْ عن هذا الحديث ، ثم قال لها : « واستغفرى لذنبك » : دلَّ على أنه لم يكن فى شرعهم على الزنا حدٌّ — وإن كان مُحرَّماً حيث عدَّه ذنباً .

ويقال ليس كلٌّ أحد أهلاً للبلاء ؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء ، فأمَّا الأجانب فَيُتَجاوَزُ عنهم ويُخَلَّى سبيلُهم — لا لكرامةِ مَحَلِّهم — ولكن لحقارة قدرهم ، فهذا يوسف عليه السلام كان برىء السَّاحةِ ، وظهرت للكلِّ سلامةُ جانبه وابتُلِيَ بالسجن . وامرأة العزيز فى سوء فِعْلِها حيث قال : « إنه من كيدكن » ، وقال لها : « واستغفرى لذنبك » . . ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال نِسوةٌ فى المدينةِ امرأةُ العزيزِ

---

(١) قيل هو صبى فى المهد وهو ابن خال لها . وسمى قوله شهادة لأنه أدى مؤدى الشهادة فى أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها (النسفى ج ٢ ص ٢١٨) .

تُراوِدُ فتاها عن نَفْسِهِ قد شَغَفَها حُبًّا
إنَّا لنراها في ضلالٍ مبين ﴾

إنَّ الهوى لا ينكتم ، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول ، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النّسوةُ فيها لسانَ الملامة .

ولما كانت أحسن منهن قيمةً — فقد كُنَّ من جملة خَدَمِها — كانت أسرعَ إلى الملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إليهنَّ وأعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهن سِكِّيناً وقالتِ اخْرُجْ عليهنَّ فلمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيديَهنَّ وقُلْنَ حَاشَ لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ * قالت فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فيه ولقد رَاوَدْتُه عن نَفْسِهِ فاستعْصَمَ ولئن لم يَفْعَلْ ما آمُرُه لَيُسجنَنَّ وليكوناً من الصَّاغِرين ﴾

أرادتْ أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة ، وتَنْفِيَ عن نفسها أن تكون لها[1] أهلاً ، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ ، فلمَّا رأينه تَغَيَّرْنَ وتحيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز ، فقلن : « ما هذا بشراً » : وقد كان بشراً ، وقلن « إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم » : ولم يكن مَلَكاً .

قوله : « فذلكن الذي لمتنني فيه » : أثَّرَتْ رؤيتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أيديَهن بدل الثمار ، ولم يشعرن ، وضعفن بذلك عندها فقالت : ألم أقل لكن ؟ أنتن لم تمالكن حتى قَطَّعْتُنَّ أيديَكُنَّ ! فكيف أصبر وهو في منزلي ؟! وفي معناه أنشدوا :

(١) أي أهلا للملامة .

(أنت عنـــد الخصام عدوى . . . .)[1]

ويقال[2] إن امرأة العزيز كانت أتمّ فى حديث يوسف — عليه السلام — من النسوة فأثّرت رؤيته فيهن ولم تؤثّر فيها ، والتغيُّرُ صفة أهل الابتداء فى الأمر ، فإذا دام المعنى زال التغيُّر ، قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لمن رآه يبكى وهو قريب العهد فى الإسلام : هكذا كُنّا حتى قَسَت القلوبُ . أى وَقَرَتْ[3] وصَلُبَتْ . وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تعوّدَ شُرْبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمَعُ له صوت .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ السِّجنُ أحَبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلاَّ تَصْرِفْ عنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وأكُن من الجاهلين ﴾

الاختبار مقرونٌ بالاختيار ، ولو تمنّى العافية بدل ما كان يُدْعى إليه لعلّه كان يُعَافَى ، ولكنه لما قال : « السجن أحبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه » طُولِبَ بِصِدْقِ ما قال .

ويقال إن يوسف عليه السلام نَطَقَ من عين التوحيد حيث قال : « وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن » فقد عَلِمَ أنْ نجاته فى أن يَصْرِفَ — سبحانه — البلاء عنه لا بتكلّفِهِ ولا بتجنبه .

ويقال لمَّا آثر يوسفُ — عليه السلام — لحوقَ المشقة فى اللهِ على لذّة نفسه آثره عَصْرُه حتى قيل له : « تاللهِ لقد آثرك اللهُ علينا »[4]

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجابَ له ربُّه فصَرَفَ عنه كَيْدَهُنَّ إنه هو السميع العليم ﴾

---

(١) بقية البيت مضطربة فى الكتابة ، ومطموسة فى بعض المواضع .
(٢) القشيرى هنا مستفيد من رأى استاذه أبى على الدقاق .
(انظر رأى الدقاق فى رسالة القشيرى فى معنى التلوين والتمكين ص ٤٤)
(٣) وقرت = أصابها الثقل .
(٤) آية ٩١ من سورة يوسف .

لمَّا رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيكِ الإغاثة . . . كذلك ما اغبرَّ لأحدٍ — فى الله تعالى — قَدَمٌ إلاَّ روَّحه بكَرَمِهِ وتولاَّه بنِعَمِهِ — إنه هو « السميع » لأقوال السائلين ، « العليم » بأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بدا لهم من بعدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حين ﴾

لمَّا سَجَنَ يوسفَ — عليه السلام — مع ظهور براءة ساحته اتقاءً على امرأته أن يُهتَكَ سترُها حوَّل اللهُ مُلْكَهُ إليه ، ثم فى آخر الأمر حَكَمَ اللهُ بأن صارت امرأته بعد مقاساتها الضُّر . . . وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ .

ويقال لمَّا ظُلِمَ يوسفُ عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت فى آخر أمرها بما كان فيه هتك سترها ، فقالت : « الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه » .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَخَلَ معه السجنَ فَتَيَانِ
قال أحدُهما إنِّى أرانى أَعْصِرُ خَمْراً
وقال الآخَرُ إنِّى أرانى أَحْمِلُ فوقَ
رأسى خُبزاً تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنا
بتأويله إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِين ﴾

لصحبة السجن أثرٌ يظهر ولو بعد حين ؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال لصاحبه اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطانُ ذكر ربِّه فبقى يوسف فى السجن زماناً ، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال : فأرْسِلوا إلى يوسف وقيل له : « يوسف أيها الصديق أفْتِنا . . . الآية » فالصحبة تُعْطى برَكَاتِها وإن كانت تُبْطِئ .

قوله : « إنا نراك من المحسنين » : الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعةٌ ، بها يَتَوَسَّلُ إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرْزَقانِه
إلاَّ نبَّأتُكما بتأويله قبل أن يأتيكما
ذلكما مما علّمني ربى إنّى تركتُ مِلَّة
قومٍ لَّا يؤمنون باللهِ وهم بالآخِرة
هم كافرون ﴾

التَّثَبُّتُ فى الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم ، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجيبهما ولم يُسْرِعِ الإجابةَ فى الوقت .

ويقال لمَّا أخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبَهما بالوعد ، وإذا لم يكن نَقْدٌ فليكن وَعْدٌ .

ويقال لمَّا فاتحوه بسؤالهم قدَّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال : « ذلك مما علَّمنى ربى إنِّى تركتُ مِلَّةَ قوم . . . » ثم قال :

﴿ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائى إبراهيمَ
وإسحٰقَ ويعقوبَ ما كان لنا أن
نُشْرِكَ باللهِ من شىءٍ ذلك مِن
فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ولكنَّ
أكثرَ الناسِ لا يَشْكُرون ﴾

ولما فَرَغَ من تفسير التوحيد ، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال :

﴿ ياصَاحِبَيِ السِّجنِ أأَرْبَابٌ متفرقون
خيرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القهَّارُ ＊
ما تعبدون من دُونِهِ إلا أسماءً
سَمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله
بها من سلطانٍ إنِ الحُكم إلا للهِ أمَرَ
ألا تَعْبدوا إلا إياه ، ذلك الدِّينُ القيِّمُ
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكت حين أخذ فى شرح التوحيد وذكر المعبود ، وفى الخبر : مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَرَ مِنْ ذِكْرِه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا صاحِبَيِ السِّجنِ أمَّا أحدُكما فيَسْقِي ربَّه خَمْراً وأمَّا الآخَرُ فيُصْلَبُ فتأ كُلُ الطيرُ مِن رَّأْسِه قُضِيَ الأمرُ الذى فيه تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

اشتركا فى السؤال واشتركا فى الحكم وفى دخول السجن ، ولكن تباينا في المآلِ ؛ واحدٌ صُلِبَ ، وواحدٌ قُرِّبَ ووُهِبَ .. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق ؛ فَمِنْ مرفوعٍ فوق السِّماكِ مَطْلَعُه ، ومن مدفونٍ : تحت التراب مضجعُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال للذى ظَنَّ أنه ناجٍ منهما اذكُرْنى عند ربِّكَ فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربِّه فَلَبِثَ فى السِّجْنِ بِضْعَ سنين ﴾ .

يتبيَّن أنَّ تعبير الرؤيا — وإنْ كان حقاً — فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع .

ثم إنه عاتب يوسفَ عليه السلام لأنه نَسِيَ فى حديثه مَنْ يستعين به حين قال : « اذكرنى عند ربك » .

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عِوَضاً على ما عَلَّمَه ، وفى بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم ، عَلِّمْ مجاناً كما عُلِّمْتَ مجاناً .

ولما استعان بالمخلوقِ طال مُكْثُه فى السجن ، كذلك يجازى الحقُّ — سبحانه — مَنْ يُعَلِّقُ قلبَه بمخلوق .

قوله ذكره : ﴿ وقال المَلِكُ إنِّي أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابِسَاتٍ

يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن
كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ .

كان ابتداء بلاء يوسف — عليه السلام — بسبب رؤيا رآها فنشرها وأظهرها ، وكان سبب نجاته أيضا رؤيا رآها الملك فأظهرها ، ليُعلَم أنَّ الله يفعل ما يريد ؛ فكما جعل بلاءه فى إظهار رؤيا جعل نجاته فى إظهار رؤيا[1] ؛ ليَعلَم الكافة أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحن بتأويل
الأحلام بعالمين ﴾ .

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ فى التعبير ، فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاثُ أحلام فلم يضرّه ذلك ، ولم يؤثّر فى صحة تأويلها .

قوله : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » : مَنْ طلبَ الشىء من غيرِ موضعه لم ينَلْ مطلوبه ، ولم يَسْعَد بمقصوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادَّكَرَ بعْدَ
أُمَّةٍ أنا أُنبِّئُكم بتأويلِه فأرسِلُونِ ﴾

لمَّا كان المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون فى ذلك الوقت هو مَنْ يُعبِّر الرؤيا — قبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا ، ولم يحصل للمَلِكِ ثَلَجُ الصدْرِ إلا بتعبير يوسف[2] ، ليُعلَمَ أنَّ اللهَ — سبحانه — إذا أراد أمراً سَهَّل أسبابَه .

ويقال : إن الله تعالى أفْرَد يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين : بحُسْن الخِلْقة وبزيادة العلم ؛ فكان جمالُه سببَ بلائه ، وصار علمُه سببَ نجاته ، لتُعْلَمَ مزيَّةُ العلمِ على غيره ، لهذا قيل : العلم يُعطِى وإن كان يُبْطِى .

---

(١) يهدف القشيرى إلى شىء بعيد هو أن المقاييس الإنسانية نسبية ولا تؤدى حتما إلى الصواب ، وبالتالى لا ينبغى تطبيقها على ما يجرى فى الكون من تصاريف إلهية .

(٢) يصلح هذا التصور — على نحو ما — لتفسير كرامات الأولياء .

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلمُ بالمولى أَوْلى أن يوجِبَ العقبى ، قال تعالى: « وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً ومُلْكاً كبيراً »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قال تزرعون سَبْعَ سنين دَأَباً فما
حَصَدتُم فَذَرُوه فى سُنْبُله إلا قليلاً
مِمَّا تأكلون ﴾ .

لم يقدِّم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل فى المرة الأولى ، لأن هذا السائل هو الذى دعاه فى المرة الأولى . فإمَّا أنه قد قَبِلَ فى المرة الثانية ، وإمَّا أنه لم يقبل فَيَئِسَ منه فأهمله .

وصاحبُ الرؤيا الثانية كان المَلِكَ وكان غائباً ، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا فى المشاهدة دون المغايبة .

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرَّس فى الفَتَيان قبولَ التوحيد فإنَّ الشباب أَلينُ قلباً ، أمَّا فى هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصلبَ قلباً وأفظَّ جانباً ؛ فلذلك لم يَدْعُه إلى التوحيد لِمَا تفرَّسَ فيه من الغِلظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال المَلِكُ ائتونى به فلمَّا جاءه
الرسولُ قال ارجعْ إلى ربِّك فاسألْهُ
ما بالُ النِّسوةِ اللاتى قطَّعْنَ أيديَهُنَّ
إنَّ ربى بكيدهِنَّ عليم ﴾ .

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المِلكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَه عيبُه من قلبه ، فلا يؤثِّر فيه قوله ، فلذلك توقَّفَ حتى يَظْهَرَ أمرُه للمَلِكِ وتنكشفَ براءةُ ساحته .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما خَطْبُكُنَّ إذ رَاوَدتُّنَّ يوسفَ

(1) آية ٢٠ سورة الإنسان .

عن نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عليه
من سوءٍ ﴾

الحقائق لا تنكتم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ . . ولو بعد حين .

نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بَرِيئاً ، وأُنِّبَ على ذلك مدةً ، وكان أمرُه فى ذلك خَفِيًّا. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنَّة ، وأنطق عُذّالَه ، وأظهر حالَه ، عما فرق به سربالَه[1] ؛ فَقُلْنَ : « حاش لله ما علمنا عليه من سوء » .

قوله جل ذكره : ﴿ قالتِ امرأةُ العزيزِ الآن حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودتُه عن نَفْسِه وإنه لَمِنَ الصادقين ﴾

لمّا كانت امرأةُ العزيزِ غيرَ تامّةٍ فى محبة يوسف تَرَكَتْ ذنبَها عليه وقالت لزوجها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب . ثمَّ لمّا تناهتْ فى محبته أقَرّت بالذنب على نفسها فقالت : « الآن حصحص الحقُّ ... » فالتناهى فى الحبِّ يوجب هتكَ الستر ، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسرِّ[2] ، وقيل :

لِيقُلْ مَنْ شاء ما شاء فإنى لا أبالى

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أنِّى لم أَخُنْهُ بالغيبِ وأنَّ اللهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾

إنما أراد اللهُ أن يُظْهِرَ براءةَ ساحةِ يوسف ، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح ، ولم يُرِدْ يوسف أن يصيبهم بسببه — من قِبَلِ اللهِ — عذابٌ

---

(١) السربال = القميص .

(٢) من هذه الإشارة نستطيع بطريق غير مباشر أن نعرف موقف القشيرى من قضية هامة وهى : هل يفصح المحب الواله عن حبه المكنون أم يكتم ؟ وهل تغتفر له شطحاته فى هذا الموقف أم لا ؟

شَفَقَةٌ منه عليهم ، وهذه صفةُ الأولياء : أن يكونوا خصْمَ أنفسِهم ، ولهذا قيل : الصوفي دمه هَدَرٌ ومِلْكُه مُباحٌ[1] — ولذلك قال :

﴿وما أُبرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأمَّارةٌ
بالسوءِ إلا ما رَحِمَ ربي إنَّ ربي غفورٌ
رحيم﴾

لَمَّا تمدَّح بقوله : « ذلك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيب » كأنه نودي في سرِّه : ولاحين هَمَمْتَ؟ فقال : « وما أُبرئُ نفسي ! »[2]

ويقال : قوله « ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيب » بيانُ الشكر على ما عصمه الله ، وقوله : « وما أُبرئُ نفسي » بيانُ العُذْر لما قصَّر في أمر الله ، فاستوجب شكرُه زيادةَ الإحسان ، واستحقَّ بعذره العفوَ .

والعفو بادٍ من قوله :

﴿وَقالَ المَلِكُ ائتوني به أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِي فلمَّا كَلَّمَهُ قال إنَّك اليومَ
لدينا مكينٌ أمينٌ﴾ .

لما اتضحت للملك طهارةُ فِعْلِه ونزاهةُ حالِه استحضره لاستصفائه لنفسه ، فلمّا كَلّمَه وسَمِعَ بيانَه رَفَعَ محلَّه ومكانَه ، وضمنه بِرَّه وإحسانَه ، فقال : « إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمين » .

قوله جل ذكره : ﴿قال اجعلني على خزائنِ الأرضِ إنِّي
حفيظٌ عليمٌ﴾

إنما سأل ذلك ليضعَ الحقَّ مَوْضِعَه ، وليصلَ نصيبُ الفقراء إليهم ، فَطَلَبَ حقَّ الله تعالى في ذلك ، ولم يطلب نصيباً لنفسه .

ويقال لم يقل إني حَسَنٌ جميلٌ بل قال : إني حفيظ عليم أي كاتبٌ حاسبٌ ؛ لِيُعْلَمَ أنَّ الفضلَ في المعاني لا في الصورة .

---

(١) هذا تعريف الصوفي عند سهل بن عبد الله التُّسْتَرى (الرسالة ص١٣٩) .

(٢) هذا نموذج لمقاومة دعوى النفس ومحاربة اغترارها على الدوام ، وعدم الاطمئنان إلى مصالحتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك مكّنّا ليوسفَ في الأرض يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يَشَاءُ نُصيبُ برحمتِنا مَن نَشَاءُ ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾ .

لمَّا لم تكن له دواعى الشهوات من نَفْسِهِ مَكّنَهَ اللهُ من مُلْكه — قال تعالى : « ومَنْ يقترفْ حسنةً نزد له فيها »[1] — فقال : « ولا نُضيع أجر المحسنين » .

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد ، وبيَّن أنه إنما يوفِّق عبادَه من ألطافه بفضله لا بفعلهم ، وبرحمته لا بخدْمتِهم ، فقال: « نُصيب برحمتنا من نشاء » ثم يرقى هممهم عما أولاهم من النِّعَم فقال:

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

لِيُعْلَمَ أنَّهُ لابُدَّ من التقوى ومخالفة الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فَعَرَفَهُم وهم له منكِرون ﴾ .

عَرَفَ يوسفُ — عليه السلام — إخوتَه وأنكروه ، لأنهم اعتقدوا أنَّه في رِقِّ العبودية لمّا باعوه ، بينما يوسف — في ذلك الوقت — كان قاعداً بمكانِ المَلِكِ . فَمَنْ طلب الملِكَ في صفة العبيد متى يعرفه ؟

وكذلك مَنْ يعتقد في صفات المعبودِ ما هو مِنْ صفات الخَلْق . . . متى يكون عارفاً ؟ هيهات هيهات لمـا يحسبون !

ويقال لمَّا أخفَوه صار خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه ، كذلك العاصى .. بخطاياه وزلاتِهِ تقع غَبَرَةٌ على وجه معرفته .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جَهَّزَهم بجَهَازِهم قال ائتونى

---

(١) آية ٢٣ سورة الشورى .

بأخٍ لكم من أبيكم ألاَ تَرَوْنَ أنِّى
أُوفِى الكيلَ وأنا خير المُنْزِلين ﴾

المحبُّ غيورٌ ؛ فلمَّا كان يعقوبُ عليه السلام قد تَسَلَّى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب[1].

ويقال تَلَطَّفَ يوسف فى استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب ، وأما الترغيب ففى ماله الذى أوصله إليهم وهو يقول : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » وفى إقباله عليهم وفى إكرامه لهم وهو يقول : « وأنا خير المنزلين » .

وأمَّا الترهيب فبمنع المال وهو يقول :

﴿ فإن لَّم تأتونى به فلا كَيْلَ لكم
عندى ولا تَقْرَبون ﴾

أى فإن لم توامِنونى عليه فلا كيل لكم عندى ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا سَنُرَاوِدُ عنه أباه وإنَّا لفاعِلون ﴾

لما عَلِمَ يوسفُ من حالهم أنهم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ عَلِمَ أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً فى إيفاء الكيل ، فلن يَصْعُبَ عليهم الإتيان به .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لِفِتيانِه اجعلوا بضاعتَهم
فى رِحالِهم لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا
إلى أهلهم لعلَّهم يرجعون ﴾

جَعْلُ بضاعتهم فى رحالهم — فى باب الكَرَم — أتمُّ مِنْ أنْ لَوْ وَهَبَها لهم جهراً ؛ لأنه يكون حينئذٍ فيه تقليد منه بالمواجهة ، وفى تمليكها لهم بإشارةٍ مجرَّدٌ مِنْ تكلُّفِ تقليد منه بالمحاضرة[2].

ويقال عَلِمَ أنهم لا يَسْتَحِلُّون مالَ الغَيْرِ فَدَسَّ بضاعتهم فى رحالهم ، لكن إذا رأوْها قالوا : هذا وقع فى رحالنا منهم بغَلَطٍ ، فالواجبُ علينا ردُّها عليهم . وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أبَوْا .

(1) وكذلك فإن للحق غيرة على عبده المؤمن أن يساكن سواه .
(2) وكذلك نعمة الحق تأتى فى خفاء ... وقلَّ من يفطن إليها .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا
مُنِعَ مِنَّا الكيلُ فأرْسِلْ معنا أخانا
نَكْتَلْ وإنَّا له لحافظون ﴾

لم يمنع يوسفُ منهم الكيلَ ، وكيف مَنَعَ وقد قال : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » ؟ ولكنهم تجوزوا فى ذلك تفخياً للأمر حتى تسمح نَفْسُ يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : « مُنِعَ منا الكيلُ » فى المستقبل إذا لم تحمِلْه إليه .

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا فى القول ليعقوبَ — عليه السلام — حيث قالوا : « أخانا » إظهاراً لشفقتهم عليه ، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم : « وإنَّا له لحافظون » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هل آمَنُكُمْ عليه إلا كما آمِنْتُكُم
على أخيه مِن قَبْلُ ؟ ﴾

مَنْ عَرَفَ الخيانة لا يلاحظ الأمانة ، ولذا لم تَسْكُنْ نَفْسُ يعقوبَ بضمانهم لِمَا سَبَقَ إليه من شأنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فالله خيرٌ حافِظاً وهو أرحم
الراحمين ﴾

« الله خير حافظاً » : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شىء مِنْ قِبَلِهم .

ولم يقل يعقوب فالله خيرُ مَنْ يَرُدُّه إلىَّ ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه سريعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا فَتَحوا متاعَهم وجدُوا بضاعَتَهم
رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه
بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ونمير أهْلَنَا
ونَحفظُ أخانا ونزدادُ كَيْلَ بعيرٍ ذلك
كَيْلٌ يسير ﴾

بيّن يوسفُ — عليه السلام — أنه حين عاملهم لم يَحْتَجْ إلى عِوَضٍ يأخذه منهم ،

فلمَّا باعهم وجَمَعَ لهم الكيلَ ما أخذ منهم ثمناً ، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى : « إِنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » .

وكلُّ مَنْ خطا للدِّين خطوةً كافأه اللهُ تعالى وجازاه ، فجَمَعَ له بين رَوْحِ الطاعةِ ولذَّةِ العيش من حيث الخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لَنْ أُرْسِلَه مَعَكُم حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ لتأتُنَّني به إلا أن يُحاطَ بِكُم فلمَّا آتوه موثِقَهُم قال : اللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾

إنَّ الحذَرَ لا يُغْنِى من القَدَر . وقد عَمِل يعقوب — عليه السلام — معهم فى باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولكن لم يغْنِ عنه اجتهادُه ، وحَصَلَ ما حكم به الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بَنِىَّ لا تَدْخُلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وما أُغْنِي عنكم مِّنَ اللهِ مِن شيءٍ إِنِ الحُكْمُ إلا للهِ عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم فى الدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بَصَرُه على يوسف ، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر[1] .

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم فى أمر يوسف كانوا فى شدة العناية بشأنه ، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا دَخَلوا مِنْ حيثُ أَمَرَهُم أبوهم

---

(١) نحسب أنه ربما كان الأمر بتفريقهم مرده إلى أنه فى الجماعة تختفى المسئولية الفردية إذ تذوب فى الكيان الجماعى ، بينما يكبر الشعور بالمسئولية إذا كانوا آحاداً ، وقد قالوا ليعقوب من قبل (لئن أكله الذئب ونحن عصبة .) .

﴿ ما كان يُغنى عنهم مّنَ اللهِ مِن شىء
إلا حاجةً فى نَفْسِ يعقوبَ قَضاها وإنّه
لَذُو علمٍ لِمَا عَلّمْناه ولكنَّ أكثرَ
الناسِ لا يعلمون ﴾

إن لم يحصل مقصودُ يعقوب عليه السلام فى المآل حصل مراده فى الحال ، وفى ذلك القَدْرِ لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصاغر حفظُ إشاراتِ الأكابر ، والقولُ فيما يأمرون به هل فيه فائدةٌ أم لا — تَرْكٌ للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ، ويتمنَّى به حصولَ مرادِه .. ثم لا يحصل مرادُه عُلِمَ أنه لا ينبغى أن يُعْتَقَدَ فى الشيوخ أنَّ جميع مايريدون يتَّفِقُ كونُه على ما أرادوا ؛ لأنَّ الذى لا يكونُ إلا ما يريده واجباً وما أراده فهو كائن . . هو اللهُ الواحدُ القهارُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا دخلوا على يوسفَ آوى إليه
أخاه قال إنّى أنا أخوك فلا تَبْتَئِسْ
بما كانوا يعملون ﴾

حديثُ المحبةِ وأحكامها أقسام : اشتاقَ يعقوبُ إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبقِيَ سنين كثيرة ، واشتاقَ يوسف إلى بنيامين فَرُزِقَ رؤيته فى أوْجزِ مدةٍ .

وهكذا الأمر ؛ فمنهم موقوفٌ به ، ومنهم صاحب بلاء .

ويقال لئِن سَخِنَتْ[1] عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عَيْنُ يوسفَ بلقائه . كذا الأمر : لاتغرُبُ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جَهَّزَهم بجَهَازِهم جعل السِّقَايَةَ
فى رَحْلِ أخيه ثم أذَّنَ مؤذِّنٌ أيَّتُهَا
العيرُ إنكم لسارِقون ﴾

(١) سخنت العين أى لم تقَرّ

احتمل بنيامينُ ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .

ويقال : ما نُسِبَ إليه من سوء الفعال هان عليه فى جَنْبِ ما وجد من الوصال .

ويقال لئن نَسَبَ يوسفُ أخاه للسرقة فقد تعرَّف إليه بقوله : إنى أنا أخوك — سراً ، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة فى ظاهره ، محمولاً بوجدان الكرامة فى سِرِّهِ ، وفى معناه أنشدوا :

أجِدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلُمْنى اللُّوَّمُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تاللهِ لقد عَلِمْتُم ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ فى الأرضِ وما كُنَّا سارقين ﴾

يعنى حُسْنُ سيرتنا فى سير المعاملة يدلكم على حسن سريرتنا فى الحالة .

ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولمّا وجدتموه فى رحالنا بعد أن غِبْنَا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كُنْتُم كاذبين ؟ ﴾

تجاسَرَ إخوةُ يوسف بجريانِ جزاء السَّرقةِ عليهم ثقةً بأنفسهم أنهم لم يُباشِروا الزَّلَّةَ ، وكان بنيامينُ شريكَهم فى براءة السَّاحةِ ، فلما استُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسانَ الملامةِ ، وبقى بنيامين(١) فلم يكن له جوابٌ كأنَّه أقرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ ، ولو قال : لم أفعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذى احتال ...هم ذلك لأجْلِه حتى يُبْقِيه معه ، فَسَكَتَ لسان بنيامين ، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُهُ .

ويقال لم يستصعب الملامه — وإنْ كان بريئاً — مما قُرِنَ به ، ولا يَضُرُّ سوء المقالةِ بالكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال سِيء بما أُظْهِرَتْ عليه المقالة ، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاء الحالة .

قوله جل ذكره ﴿ قالوا إن يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له

---

(١) يصلح بنيامين — كما يصوره القشيرى — نموذجاً لواحد من أهل الملامة ، لو دققنا النظر فى إشارات القشيرى بصدده .

مِن قَبلُ فَأسَرَّها يوسفُ فى نَفْسه
ولم يُبْدِها لهم قال أنتم شَرٌّ مَكاناً ،
واللهُ أعلمُ بما تصفون ﴾ .

كان بنيامينُ بريئا مما رُمِىَ به من السرقة ، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة ، واحدٌ بواحدٍ ليَعْلَمَ العالمون أنَّ الجزاء واجبٌ .

ويقال كان القُرْحُ بالقَدْحِ أوجعَ ما سَمِعَه يوسف منهم[1] ؛ حيث قالوا :
« إنْ يَسْرِق فقد سَرَقَ أخٌ له من قبل » فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً فى قلبه من الجفاء الأول .

ويقال إذا حَنِقَ عليكَ الملِكُ فلا تأمَنْ غِبَّه — وإنْ طالت المدة — فإن يوسف عليه السلام حَنِق عليهم فلقوا فى المستأنف منه ما ساءهم مِنْ حَبْسِ أخيه ، وما صاحبَهم من الخجل من أبيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يأيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً
كبيراً فَخُذْ أحَدَنا مكانَه — إنّا
نراكَ من المحسنين ﴾ .

لم تنفعهم كثرةُ التنَصُّلِ ، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاء التوسُّل ، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدَهم فى البَدَل . . كذلك فكلٌّ مُطَالَبٌ بفعل نفسه : لا تزِرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى ؛ فلا الأبُ يُؤْخَذُ بَدَلَ الولد ، ولا القريبُ يُرْضَى به عوضاً عن أحد ؛ لذلك قال يوسف عليه السلام :

﴿ قال مَعَاذَ الله أن نأخذَ إلاَّ مَن
وَجَدْنا متاعنَا عنـدَه إنَّا إذاً
لَظالِمون ﴾ .

توهموا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال ، فعرَضُوا أنفسهم كى يؤخَذَ واحدٌ منهم بَدَلَ أخيهم ، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادَهم فى ذلك ، وأنَّ مقصودَه من

---

(١) القُرْح = الجرح ، والقَدْح = العيب فى عِرض غيرك .

ذلك ما استكنَّ فى قلبه مِنْ حُبٍّ لأخيه ، وكلاًّ . . أَنْ يكونَ عن المحبوبِ بَدَلٌ أو لقوم مقامُ أحدٍ . . وفى معناه أنشدوا :

إذا أَوْصَلْتَنَا الخُلْدَ كيا تُذِيقنا أَبَيْنا وقُلْنا : أنتَ أَوْلَى إلى القلب

وقيل :

أُحِبُّ لَيْلَى وبغُضَتْ إلىَّ نساءٌ ما لَهُنَّ ذُنُوبُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا استيأسوا منه خَلَصُوا نَجِيًّا قال كبيرُهم أَلَمْ تعلموا أَنَّ أباكم قد أخذَ عليكم مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ ومن قبلُ ما فرَّطتُم فى يوسفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ حتَّى يأذَنَ لى أبى أو يحْكُمَ الله لى وهو خير الحاكمين ﴾ .

لما عَلِموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضُهم ببعضٍ فعملت فيهم الخجْلة ، وعلموا أن يعقوب فى هذه الكرَّةِ يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفَعْلة ، فلم يرجع ، أكبرهم إلى أبيهم ، وتناهى إلى يعقوبَ خَبَرُهم ، فاتهمهم وماصدَّقهم ، واستخونهم ومااستوثقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنَكَ سَرَقَ وما شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا وما كُنَّا للغيبِ حافظين ﴾

كان لهم فى هذه الكرَّةِ حجة على ما قالوه ، ولكن لم يسكن قلبُ يعقوب عليه السلام إليها ، فإنَّ تعيُّنَ الجُرْمِ فى المرة الأولى أَوْجَبَ التُّهمةَ فى الكرَّةِ الأخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ واسألِ القريةَ التى كُنَّا فيها والعيرَ التى أقبلنا فيها وإنَّا لصادقون ﴾

ما ازدادوا إقامةَ حُجَّةٍ إلا ازداد يعقوبُ — عليه السلام — فى قولهم شُبْهَةً .

ويقال : فى مُساءلة الأطلال أَخذٌ لقلوب الأحباب ، وسَلْوَةٌ لأسرارهم .. وهذا البابُ مما للشرح فيه مجال .

قوله جل ذكره ﴿ قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً ﴾

لجأ إلى قُرْبِ خلاصه من الضُرِّ بالصبر .

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمْسِ حتى قال : « يا أسفا على يوسف » ليُعْلَمَ أنَّ عزْمَ الأحبابِ على الصبر منقوضٌ غيرُ محفوظ[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وتولَّى عنهم وقال يا أسَفاَ على يوسف وابيَضَّتْ عيناه من الحُزْنِ فهو كظيم ﴾

تولّى عن الجميع — وإن كانوا أولادَه — ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ لا تُبْقِى ولا تَذَر .

ويقال أراد إخوةُ يوسفَ أن يكونَ إقبالُ يعقوب عليهم بالكليّةَ فأعْرَضَ ، وتولّى عنهم ، وفاتَهم ما كان لهم ، ولهذا قيل : مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فاته الكلُّ .

ويقال لم يجدْ يعقوبُ مُساعِداً لنفسِهِ على تأسفه على يوسف فتولّى عن الجميع ، وانفرد بإظهار أسفه ، وفى معناه أنشدوا :

فريدٌ عن الخِلاَّنِ فى كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام ، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرُ يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأجلِ يوسف ولم يكن فى قدْرةِ

(١) يوضح القشيرى هذا المعنى فى رسالته حيث يقول : [واعلم أن الصبر على ضربين : صبر العابدين وصبر المحبين ، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفى هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : أصبح يعقوب وقد وعد من نفسه — فصبر جميل — ثم لم يمس حتى قال . يا آسفاً على يوسف] الرسالة ص ٩٠ .

يوسف أن يحفظ بصره من البكاء لأجله ، وأمّا داود فقد كان يبكى لله ، وفى قدرة الله — سبحانه — ما يحفظ بَصَرَ الباكى لأجله .

سمعتُ الاستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله — يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوبَ بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرُه ، وداود بكى لأجْل الله فبقى بَصَرُه .

وسمعته — رحمه الله — يقول : لم يقل الله : « عَمِيَ يعقوب » ولكن قال : « وابيضَّتْ عيناه » ، لأنه لم يكن فى الحقيقة عَمَىً ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف[1] .

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف ، لأنه لا شىء أشدُّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب فى حال فراقه ، وفى معناه أنشدوا :

لما تيَقَّنْتُ أنى لَسْتُ أُبْصِرِكم أغمضتُ عينى فلم أنظر إلى أحد

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين فى حال غيبة يوسف ، فلما بقى عن رؤيته قال : « يا أسفا على يوسف» أى أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالأثر ، فلمَّا بقى عن النظر قال : يا أسفا على يوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ مِنَ الهالكين ﴾

هددوه بأن يصير حرضاً — أى مريضاً مشرفاً على الهلاك — وقد كان ، وخوفُّوه مما لم يبالِ أن يصيبه حيث قالوا « أو تكون من الهالكين » .

ويقال أطيب الأشياء فى الهلاكِ ما كان فى حكم الهوى — فكيف يُخَوَّفُ بالهلاكِ من كان أحبُّ الأشياءِ إليه الهلاكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنَّما أشكو بَثِّى وحُزْنى إلى اللهِ وأعلم مِنَ الله مالا تعلمون ﴾

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللهِ ، ومَنْ شكا إلى الله وَصَلَ ، ومَنْ شكا من الله انفصل .

---

(١) هذا نموذج من التذوق للنص القرآنى لا يفطن إليه إلا أرباب الذوق الصوفى .

ويقال لمّا شكا إلى الله وَجدَ الخلَفَ من الله .

ويقال كان يعقوبُ — عليه السلام — مُتَحمِّلاً بنفسه وقلبه ، ومستريحاً محمولاً بِسِره وروحه ؛ لأنه عَلِمَ من الله — سبحانه — صِدْقَ حاله فقال : « وأعلم من الله مالا تعلمون » ، وفى معناه أنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً تمنَّيْتُ أن أشكو إليكَ فتَسْمَعَا

قوله جل ذكره : ﴿ يا بَنِيَّ اذهبوا فتَحَسَّسُوا مِن يوسفَ
وأخيه ولا تيأسوا من رَّوْحِ اللهِ إنَّه
لا ييأسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إلا القومُ
الكافرون ﴾

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه فى طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب للسيرة وفى اعتقادهم هلاكُ يوسف . . وكلٌّ إنسانٍ وهمُّه .

ويقال قوله « فتحسسوا من يوسف وأخيه » أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم ؛ بالبَصَرِ لعلَّهم تقع عليه أعينهم ، وبالسَّمْعِ لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه ، وبالشمِّ لعلَّهم يجدون ريحَه ؛ وقد توهَّم يعقوبُ أنهم مثله فى إرادةِ الوقوفِ على شأنه . ثم أحالهم على فضل الله حيث قال : « لا ييأس من روْح الله إلا القوم الكافرون » .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف ، فظهر من قِلَّةِ الصبرِ عليه ما ظهر ، وآثَرَ غَيْبَةَ الباقين من الأولاد فى طلب يوسف على حضورهم عنده . . فشتَّان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف ! واحدٌ لم يَرَهْ فابيَضَّتْ عيناه من الحزن بفرقته ، وآخرون أمَرَهم — باختياره — بِغَيْبَتِهم عنه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز
مَسَّنَا وأهْلَنَا الضُّرُّ وجِئنا ببضاعةٍ

(١) هنا لفتة ذكية إلى أننا قد نحب ونهلك فى حب من لا تراه أعيننا .. فإذا صح هذا بالنسبة لخلوق مثلنا فكيف بالنسبة لبارئنا وخالقنا ! ! ؟

ثم إن التقريب والإبعاد يرتبطان بالاجتباء الإلهى وحده .

مُزْجاةٍ فأوفِ لنا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ
علينا إنَّ الله يجزى المتصدقين ﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وَجَّهَهُم أبوهم.

ويقال استلطفوه بقولهم: «مَسَّنا وأهلنا الضُّرُّ» ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم.

ويقال لمَّا طالعوا فقرهم نطقوا بِقَدْرِهم فقالوا: وجئنا ببضاعة مزجاةٍ — أى رديئة — ولما شاهدوا قَدْرَ يوسفَ سألوا على قَدْرِه فقالوا: أوفِ لنا الكَيْلَ.

ويقال قالوا كِلْنا كَيْلاً يليق بفضلِكَ لا بفقرنا، وبكرمِك لا بِعَدَمِنا، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا: «وتصدَّق علينا»: نَزَلوا أوْضَعَ مَنْزِلٍ؛ كأنهم قالوا: إنْ لم نستوجِبْ معاملةَ البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاء، على وجه المكافأة والجزاء.

فإنْ قيل كيف قالوا وتصدَّقْ علينا وكانوا أنبياء — والأنبياء لا تحل لهم الصدقة؟ فيقال لم يكونوا بعد أنبياء، أو لعلَّه فى شرعهم كانت الصدقةُ غيرَ مُحَرَّمةٍ على الأنبياء.

ويقال إنما أرادوا أنَّ مِنْ ورائنا مَنْ تَحِلُّ له الصدقة.

قوله جل ذكره: ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف
وأخيه إذْ أنتم جاهِلون ﴾

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: «فأوْفِ لنا الكَيْلَ» فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعنى إنَّ مَنْ عَامَلَ يوسفَ وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغى له أن يتجاسَرَ فى الخطاب كتجاسركم.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم: أبهمتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان فى حديثكم إلا ذكر ضرورتكم. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك فى باب العتابِ أعظم من كلِّ عقوبة

ولمّا أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عنـدهم فقال : « إذ أنتم جاهلون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أإنك لأنت يوسفُ قال : أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ اللهُ علينا إنَّه مَن يتَّقِ ويَصْبِرْ فإن اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين ﴾

فى الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له فى الخطاب : « يأيها العزيز » فلمّا عرفوه قالوا : « إنَّكَ لأنت يوسف » ؛ لأنه لَمّا ارتفعت الأجنبيةُ سقط التكلُّفُ فى المخاطبـة ، وفى معناه أنشدوا :

إذا صَفَتْ المودَّةُ بين قومٍ ودام ودادُهم قَبُحَ الثناء

ويقال إنَّ التفاضُلَ والتفارُقَ بين يوسف وإخوته سَبَقا التواصلَ بينه وبين يعقوب عليهما السلام ؛ فالإخوةُ خَبَرَه عرفوه قبلَ أنْ عَرَفَه أبوه ليعلَمَ أن الحديث بلا شكٍ .

ويقال لم يتقدموا على أبيهم فى استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته ، بل إنهم ـ وإن عرفوه ـ فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة ، إنما كان غرضُهم حديثَ الميرة والطعام فقط ، فقال : « أنا يوسف وهذا أخى » : يعنى إنى لَأَخٌ لِمِثْلِ هذا لا لمثلـكم ؛ ولذا قال : « أنا يوسف وهذا أخى » ، ولم يقل وأنتم إخوتى ، كأنَّه أشار إلى طرفٍ من العتاب ، يعنى ليس ما عاملتمونى به فِعْلَ الإخوة .

ويقال هوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَة[2] الخجلة حيث قال « أنا يوسف» بقوله : «وهذا أخى»، وكأنه شَغَلَهم بقوله : « وهذا أخى » كما قيل فى قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى » إنه سبحانه شَغَلَ موسى عليه السلام باستماع : « وما تلك بيمينك يا موسى » بمطالعة العصا فى عين ما كوشف به من قوله : « إنى أنا الله » .

(١) واضح أن القشيرى يطبق فكرة القبض والبسط فى هذه الإشارة .
(٢) بداهة الخجلة = مفاجأتها

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر فى مقاساة الجهد والعناء فقال : « إنه مَنْ يتَّقِ ويصبر فإنَّ اللهَ لا يضيع أجر المحسنين » .

وسمعتُ الأستاذ أبا على الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول لما قال يوسف : « إنَّه من يتقِ ويصبر» أحالَ فى استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : « تاللهِ لقد آثرك اللهُ علينا » يعنى ليس بِصَبْرِكَ يا يوسفُ ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثار اللهِ إياك علينا ، فبه تقدمت علينا بجمدك وتقواك . فقال يوسف ـ على جهة الانقياد للحقِّ : «لا تثريبَ عليكم اليومَ» ، فأسقط عنهم اللوم ، لأنه لمَّا لم يرَ تقواه من نفسه حيث نبَّهوه عليه نَطَقَ عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تاللهِ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا وإن كُنَّا لخاطئين ﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف — عليه السلام — حيث قالوا : لقد آثرك الله علينا ، وأكَّدوا إقرارَهم بالقَسَمِ بقولهم « تالله » وذلك بعد ما جحدوا فَضْلَه بقولهم : « ليوسف وَأَخُوهُ أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عصبة إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين » ، وهكذا مَنْ جَحَدَ فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لمَّا اعترفوا بفضله وأقرُّوا بما اتصفوا به من جُرْمِهم بقولهم : « وَإن كنا لخاطئين» وجدوا التجاوزَ عنهم حين قال يوسف :

﴿ قال لا تثريبَ عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾

أسرع يوسفُ فى التجاوز عنهم ، وَوَعَدَ يعقوبُ لهم بالاستغفار بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » لأنه كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم ، وأما يوسف فلم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفى معناه أنشدوا :

تركُ العتابِ إذا استحق أخ ... منك العتابَ ذريعةُ الهجْرِ

---

(١) خلاصة رأى الدقاق أنه ليس بعمل الإنسان يصل ولكن بفضل الله واختياره ، وحتى عمل الإنسان فهو أيضاً يتم بفضل الله واختياره . . وذلك أصل من أصول المذهب القشيرى كما وضح فى مواضع متفرقة.

ويقال أصابهم — فى الحال — من الخجلة ما قام مقام كلّ عقوبة ، ولهذا قيل :

كفى للمقصِّر الحياء يوم اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقُوه على وجهِ أبى يأتِ بصيراً وأْتُونى بأهلِكم أجمعين ﴾

البلاء إذا هَجَمَ هَجَمَ مرَّةً ، وإذا زال زال بالتدريج ؛ حلَّ البلاء بيعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا : « فأكله الذئب » ولما زال البلاء .. فأولاً وَجَدَ ريحَ يوسفَ عليه السلام ، ثم قميص يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدى يوسف ، ثم رؤية يوسف .

ويقال لمَّا كان سببُ البلاء والعمى قميصَ يوسف أراد اللهُ أن يكونَ به سَبَبُ الخلاص من البلاء[1] .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام — لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور — لا يطيقه عند أخذ القميص فقال : « فألقوه على وجه أبى » .

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب .

ويقال كان العمى فى العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجد الشفاء من العمى .

ويقال لمّا كان البكاء بالعين التى فى الوجه كان الشفاء فى الإلقاء على العين التى فى الوجه ، وفى معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيب النّوى إلا فتىً ظلَّ مغرماً

وقوله « وأتونى بأهلكم أجمعين » : لما عَلِمَ حزنَ جميعِ الأهلِ عليه أراد أن يشترك فى الفرح جميعُ من أصابهم الحزن .

---

(١) ويضاف إلى ذلك أن عدم تمزق قميص يوسف كان دلالة على براءة الذئب ، وأن تمزقه من دبر كان دلالة على براءة يوسف من تهمة زليخا . وبهذا وذاك يمكن أن يكون قميص يوسف رمزاً لموحيات كثيرة فى القصة .

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضَرَه ، إبقاء على حالِه لا إخلالاً لقدْره وما وَجبَ عليه من إجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمّا فَصَلَتِ العيرُ قال أبوهم إنّى لأجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ .

ما دام البلاء مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثُه — على يعقوب — مُشْكلاً ، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجهٍ حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه فى الجُبِّ ولكن اشتبه عليه خَبَرُه وحالُه ، فلما زال البلاء وَجدَ ريحَه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً — من مصر إلى كنعان .

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفرادِه بالأسف عند فقدان يوسف . وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجدَ على فراق يوسف[1] ؛ فلا يعرف ريحَ الأحباب إلا الأحبابُ ، وأمّا على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِل . . إذ أنّى يكون للإنسان ريح ؟! .

ويقال لفظ الريح هاهنا توسع[2] ، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ ، ويقال إنى لأجِدُ ريحَ الفتنة.. وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا أن تُفَنِّدُون ﴾

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قولُه ، فزادوا في الملامة فقالوا : —

﴿ قالوا تاللهِ إنّكَ لَفِى ضلالكَ القديم ﴾

قرنوا كلامهم بالشتم ، ولم يحتشموا أباهم ، ولم يُراعوا حقَّه فى المخاطبة ، فوصفوه بالضلال فى المحبة .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيمَ يوسف عليه السلام ، وخبر يوسف كثر حتى جاء الإذن للرياح ، وهذه سُنَّةُ الأحباب : مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال ، وفى معناه أنشدوا :

---

(١) لاحظ الجمال فى أسلوب القشيرى فى (يجد) ريح يوسف و (وجد) على فراقه .

(٢) كلمة (توسع) يستخدمها القشيرى بمعنى (مجاز) — ذلك الاصطلاح البلاغى المعروف .

وإنّى لأستهدى الرياح نسيمكم إذا هى أقبلتْ نحوكم بهبُوب

واسألها حَمْلَ السلامِ إليكمُ فإنْ هى يوماً بلغَتْ فأَجِيبُوا

قوله جل ذكره : ﴿ فلمّا أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً قال ألَمْ أقُل لكم إنى أعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمون ﴾

لو أُلقِيَ قميصُ يوسف على وجه مَنْ فى الأرض مِنَ العميان لم يرتد بصرهم ، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص ؛ فإنَّ بَصَرَ يعقوبَ ذهب لفراق يوسف ، ولمَّا جاءوا بقميصه أنطَقَ لسانَه ، وأوْضَحَ برهانَه ، فقال لهم : « ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » عن حياة يوسف ، وفى معناه أنشدوا :

وَجْهُكَ المأمولُ حُجَّتُنا يومَ يأتى النَّاسُ بالحجج

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يا أبانا استغفِرْ لنا ذنوبَنا إنَّا كنا خاطئين ﴾

كلٌّ إنسانٍ وهمُّهُ ؛ وَقَعَ يعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام فى السرور والاستبشار ، وأخَذَ إخوةُ يوسف فى الاعتذارِ وطَلَبِ الاستغفار .

ويقال إخوة يوسف — وإنْ سلَفَتْ منهم الجفوة كلَّموا أباهم بلسان الانبساط لتقديم شفقةِ الأبوةِ على ماسَبَقَ منهم من الخطيئة .

ويقال يومٌ بيومٍ ؛ اليوم الذى كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلاَ جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بقميص يوسف ، وكان الإخوة فى الخجلة مما عملوا بيوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قال سوف أستغفِرُ لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾

وَعدَهُم الاستغفارَ لأنه لم يَفْرَغْ من استبشاره إلى الاستغفار .

ويقال لم يُجِبْهُم على الوهلة ليدلَّهم على ما قَدَّمُوا من سوء الفَعْلةِ ؛ لأن يوسفَ كان غائباً

وقتئذٍ ، في عدم الاستغفار في المستأنف — إذا رضي عنهم يوسف حيث كان الحقُّ أكثرُه له ، ولو كان كله ليعقوب لوهبهم على الفور .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا دَخَلوا على يوسفَ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنين ﴾

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء ، فانفرد الأَبَوَان به لِبُعْدِهما عن الجفاء ، كذلك غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان ، ولكنهم يتباينون في بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَفَعَ أبويه على العرشِ وخرُّوا له سُجَّدًا وقال يا أبَتِ هذا تأويلُ رُؤيای من قَبْلُ قد جعلها ربی حَقًّا ﴾

أوقف كُلاًّ بمحلِّه ، فَرَفَعَ أبويه على السرير ، وتَرَكَ الإخوةَ نازلين بأماكنهم .

قوله : « وخرُّوا له سُجَّداً » : كان ذلك سجودَ تحيةٍ ، فكذلك كانت عادتهم . ودَخَلَ الأَبَوان في السجود — في حقِّ الظاهر — لأنَّ قوله « خرُّوا » إخبارٌ عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤياه قد قال : إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لی ساجدين » وقال هاهنا : « هذا تأويل رؤیای من قبل قد جعلها ربی حقاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وقد أحْسَنَ بی إذْ أخرجنی من السجن وجاء بكم مِّنَ البدوِ مِنْ بعد أن نَّزَغَ الشيطانُ بينی وبين إخوتی إنَّ ربی لطيفٌ لما يشاء إنَّه هو العليم الحكيم ﴾

شهد إحسانه فشكره . . كذلك مَنْ شهد النعمة شكرَ ، ومَنْ شهد المُنعِمَ حمده[1]

وذَكَرَ حديثَ السجن — دون البئر — لطول مدة السجن وقلة مدة البئر .

وقيل لأن فيه تذكيرا بجُرْمِ الإخوة وكانوا يخجلون . وقيل لأن « السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه » . وقيل لأنه كان فى البئر مرفوقاً به والمبتدئ يُرْفَقُ به وفى السجن فَقَدَ ذلك الرِّفق لقوة حاله ؛ فالضعيف مرفوقٌ به والقوىُّ مُشَدَّدٌ عليه فى الحال ، وفى معناه أنشدوا :

وأسررتنى حتى إذا ما سَبَبْتَني ... بقولٍ يحل العُصْمَ سهلَ الأباطح

تجافيتَ عنِّي حين لا لِي حيلة ... وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفى قوله : « وجاء بكم من البدو » إشارة إلى أنه كما سُرَّ برؤية أبويه سُرَّ بإخوته — وإنْ كانوا أهل الجفاء ، لِأنَّ الأُخُوَّةَ سَبقتْ الجفوة[2] .

قوله : « من بعد أن نزغ الشيطانُ بينى وبين إخوتي » أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر ، فقال كان الذى جرى منهم من نزغات الشيطان ، ثم لم يرض بهذا حتى قال : « بينى وبين إخوتى» يعنى إن وَجَدَ الشيطان سبيلا إليهم ، فقد وجد أيضاً إلىَّ حيث قال : « بينى وبين إخوتى » .

ثم نطق عن عين التوحيد فقال : « إنَّ ربى لطيف لما يشاء » فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلونى .

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ قد آتيتنى مِنَ المُلْكِ وعلَّمتنى من تأويلِ الأحاديث ﴾

من حرف تبعيض ؛ لأن المُلك — بالكمال — لله وحده .

ويقال المُلْكُ الذى أشار إليه قسمان : مُلْكُهُ فى الظاهر من حيث الولاية ، ومُلْكُ على نفسه حتى لم يعمل ما همَّ به من الزَّلَّة .

---

(١) أى إن (الحمد) أعلى درجة من (الشكر) . . وهكذا تثرى البحوث الصوفية اللغة .

(٢) وربما يومئ القشيرى من بعيد إلى أن يشير إلى أن الحق — سبحانه — يتفضل بكرمه على عباده — حتى ولو كانت منهم جفوة — لأنهم عباده أولا . . وإلى هذا يشير فى موضع آخر من كتابه : « عبدى . . إن لم تكن لى . فأنا لك »

ويقال ليس كلُّ مُلْكٍ المخلوقين الاستيلاء على الخلق ، إنما المُلْكُ — على الحقيقة — صفاء الخُلُق .

قوله : « وعلمتني من تأويل الأحاديث» : التأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام[1].

قوله جل ذكره : ﴿ فاطِرَ السمٰوات والأرض أنتَ
وَليي في الدنيا والآخرة تَوَفَّني مُسْلِماً
وألْحِقْني بالصَّالحين ﴾

« فاطر السمٰوات والأرض » — هذا ثناء ، وقوله : « توفَّني » — هذا دعاء .

فَقَدَّمَ الثناء على الدعاء ، كذلك صفة أهل الولاء .

ثم قال : « أنت وليي في الدنيا والآخرة ، هذا إقرارٌ يقْطَع الأسرار عن الأغيار .

ويقال معناه : الذى يتولَّى فى الدنيا والآخرة بعرفانه أنتَ ؛ فليس لى غيرك فى الدارين .

قوله : « توفني مسلماً » : قيل علِمَ أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فسألَ الوفاة .

وقيل من أمارات الاشتياق تمنِّي الموت على بساط العوافى[2] مثل يوسف عليه السلام أُلقِيَ فى الجُبِّ فلم يقل توفنى مسلماً ، وأقيم فيمن يزيد[3] فلم يقل توفنى مسلماً ، وحُبِسَ فى السجن سنين فلم يقل توفنى مسلما ، ثم لما تمَّ له المُلْكُ ، واستقام الأمر ، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّداً ، وألْفَى أبويه معه على العرش قال :

« توفَّني مسلماً » ، فعُلِمَ أنه كان يشتاق للقائه (سبحانه) .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتَ أنَّا نلتقى فيما بعد الموت . . فلِمَ بكيْتَ كلَّ هذا البكاء ؟

---

(١) تصلح هذه العبارة لتوضيح الفرق — فى نظر القشيرى — بين كلمتى التأويل والتفسير .

(٢) هذه العبارة والاستشهاد عليها من قصة يوسف أوردها القشيرى منسوبين لشيخه الدقاق فى الرسالة ص ١٦٣ .

(٣) (أقيم فيمن يزيد) لم ترد فى النص السابق بالرسالة . ومعناها : نودى عليه ليباع كالعبيد بعد إخراجه من البئر .

فقال يعقوب ، يا بُنَىّ إنَّ هناك طرُقا ، خِفْتُ أن اسلكَ طريقاً وأنت تسلك طريقاً ، فقال يوسف عند ذلك : « توفَّني مسلماً » .

ويقال إن يوسف — عليه السلام — لما قال : توفنى مسلماً ، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال : يا بنى دَعْني أشتفِ بلقائك من الذى مُنيتُ به فى طول فراقك ، فلا تُسْمِعْنى — بهذه السرعة — قولَكَ : توفَّني مسلماً .

قوله جلَّ ذكره . ﴿ ذلك مِنْ أنبَاءِ الغَيْبِ نُوحيه إليكَ وما كُنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يَمْـكُرُون ﴾ .

تبيَّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أمىٍّ لا يكون إلا بتعريف سماوىّ

ويقال كونُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أميًّا فى أول أحواله علامةُ شَرَفِهِ وعلوِّ قدرِهِ فى آخر أحواله ، لأنَّ صِدْقَهُ فى أن هذا من قِبَل اللهِ إنما عُرِفَ بكونه أميا ، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أكثرُ الناسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وصادق حُكْمِهِ حكمته فيهم .

ويقال معناه : أَقَمْتُكَ شاهداً لإرادة إيمانهم ، وشِدَّةِ الحِرْصِ على تحققهم بالدِّين ، وإيقانهم . ثم إنِّى أعلم أنهم لا يؤمن أكثرُهم ، وأخبرتك بذلك ، وفُرِضَ عليكَ تصديق بذلك ، وفرضتُ عليك إرادتى كونَ ما عَلِمْتُ أنه لا يكون من إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تسألُهم عليه مِنْ أجرٍ إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالَمين ﴾

هذه سُنَّةُ الله — سبحانه — مع أنبيائه حيث أَمَرَهُم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة

عوَضًا ولا أجراً ، وكذلك أمره للعلماء — الذين هم وَرثَةُ الأنبياء عليهم السلام — بألاّ يأخذوا مِنَ الخلْقِ عِوَضًا على دعائهم إلى الله ، فَمَنْ أخذ منهم حظامن الناس لم يُبَارَكْ للمستمع فيما يسمع منه ، فلا له أيضا بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به .

قوله جل ذكره : ﴿وكأيِّن مِّنْ آيةٍ فى السموات والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها مُعْرِضُون﴾ .

الآياتُ ظاهرة ، والبراهين باهرة ، وكلُّ جُزْء من المخلوقات شاهِدٌ على أنَّه واحد ، ولكن كما أنَّ مَنْ أغمَضَ عينه لم يستمتع بضوء نهاره فكذلك مَنْ قَصَّرَ فى نَظَرِه واعتباره لم يحظَ بعرفانه واستبصاره .

قوله جل ذكره : ﴿وما يؤمِنُ أكثرُهم باللهِ إلا وهم مُشرِكون﴾ .

الشِّرْكُ الجَلِىُّ أن يتَّخِذَ من دونه — سبحانه — معبوداً ، والشِّرْكُ الخفِىُّ أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه — سبحانه — مقصوداً .

ويقال شِرْكُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً ، أو يطالعوا سواه موجوداً(١) .

ويقال مِنَ الشِّركِ الخفِىِّ الإحالةُ على الأشكال فى تجنيس الأحوال ، والإخلاد إلى الاختيار والاحتيال(٢) عند تزاحم الأشغال .

قوله جل ذكره : ﴿أَفأمِنُوا أن تأتيَهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيَهم الساعةُ بغتةً وهم لا يشعرون﴾

أَفأمِنَ الذى اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبْتلى بالاستئصال ، أَفأمنَ مَنْ اغترَّ بطول السلامة ألا يقوم البلاء عليه يومَ القيامة .

---

(١) أى (موجوداً) على الحقيقة .

(٢) (الاحتيال) معناها اللجوء إلى الحيلة أى التدبير الإنسانى بل ينبغى إسقاط التدبير واللجوء إلى التدبير الإلهى .

ويقال الغاشيةُ حجابٌ من القسوة يحصل فى القلب، لايزول بالتضرع ولا ينقشع بالتخشع

ويقال الغاشيةُ من العذاب أن تزولَ من القلب سرعةُ الانقلاب إلى الله تعالى ، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله فى الطريق ما يوجب قنوطه من زواله ، وفى معناه أنشدوا :

قلتُ للنَّفسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنِ اتَّبَعَنِي وسبحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المشركين ﴾

« البصيرة » : اليقين الذى لا مِرْيَةَ فيه ، والبيان الذى لاشكَّ فيه . البصيرة يكون صاحبُها مُلاَطَفاً بالتوفيق جَهْرًا ، ومكاشَفاً بالتحقيق سِرًّا .

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ العرفانِ ؛ فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل .

قوله « أنا ومن اتبعنى » أى ذلك سبيلى،وسبيلُ مَنْ اقتدى بهدِيى فهو أيضاً على بصيرة

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِن قبلِكَ إلا رجالاً نُّوحِى إليهم مِّنْ أهلِ القُرىٰ أَفَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبلهم ؟ ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتقوا أفلا تَعْقِلون ﴾ .

تعجبوا أن يبعثَ اللهُ إلى الخلْق بشرًا رسولاً ، فبيَّن أنه أجرى سُنَّتَه — فيمن تقدَّمَ من الأمم — ألا يكونَ الرسولُ إليهم إلا بَشَرًا ، فإما أن جحدوا جوازَ بعثةِ الرسولِ أصلاً ، أو أنهم استنكروا أن يبعث بشرًا رسولاً .

ثم أَمَرَهُم بالاستدلال والتفكر والاعتبار والنَّظَر فقال : « أفلم يسيروا فى الأرض . . ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ حتَّى إذا استيأسَ الرُّسُلُ وظنُّوا أنهم

قد كُذِبُوا جَاءَهُم نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَن
نَشاء ولا يُرَدُّ بأْسُنَا عنِ القومِ
المجرمين ﴾ .

حتى إذا استيأس الرسلُ منْ إيمانِ قومهم ، وتَيقَّنُوا أنهم كذبوهم — والظن ها هنا بمعنى اليقين — فعند ذلك جاءهم نصرُنا ؛ للرسل بالنجاةِ ولأقوامهم بالهلاك ، ولا مَرَدَّ[1] لبأسنا

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين[2] شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها ، قال تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته »[3] ؛ فكما أنه يُنَزِّلُ المطرَ بعد اليأسِ فكذلك يفتح الأحوالَ بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كان فى قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِى
الألبابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرى
ولكن تَصْدِيقَ الذى بين يديه
وتفصِيلَ كلِّ شىءٍ وهُدَىً ورحْمَةً
لقومٍ يؤمنون ﴾ .

عِبْرَةٌ منها للملوكِ فى بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام ، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم ، وأعتقهم حين مَلَكَهم .

وعبرةٌ فى قصصهم لأرباب التقوى ؛ فإن يوسفَ لمَّا ترك هواه رقّاه الله إلى ما رقّاه .

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما فى اتباع الهوى من شدة البلاء ، كامرأة العزيز لمَّا تبعت هواها لقيتِ الضرَّ والفقر .

وعبرةٌ للمماليك فى حضرة السادة ، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز ، وصارت زليخا امرأته حلالاً .

---

(١) سقطت الدال من (لا مرد) فأثبتناها .

(٢) وردت (المرتدين) وهى خطأ فى النسخ فالكلام عن أحوال (المريدين) ، كذلك فإن الله لا يفتح على (المرتدين) شيئاً فهم مغضوب عليهم .

(٣) آية ٢٨ سورة الشورى .

وعبرةٌ فى العفو عند المقدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته .

وعبرةٌ فى ثمرة الصبر ، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام[1] .

السورة التى يذكر فيها « الرعد »

بسم الله الرحمن الرحيم

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يُورِثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً ، ولقومٍ حزناً ثم هَرَباً ، فَمَنْ سمِع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمته فأَذْنُه لها طَرَب ، ومَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جل ذكره : ﴿ آلمر تلك آياتُ الكتابِ والذى أُنزِلَ إليكَ مِن رَّبكَ الحقُّ ﴾

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إنَّ هذه آيات الكتاب الذى أخبرتُ أنِّى أُنَزِّلُ عليك

فالألف تشير إلى اسم « الله » ، واللام تشير إلى اسم « اللطيف » ، والميم تشير إلى اسم « المجيد » ، والراء تشير إلى اسم « الرحيم » . فقال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتابِ الذى أخبرتُ أنى أنزله على محمد — صلى الله عليه وسلم . ثم عَطَفَ عليه بالواو قولَه تعالى : « والذى أنزل إليك من ربك الحق » هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نبيِّه — صلى الله عليه وسلم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لايؤمنون ﴾

أى ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فَهُمْ الأكثرون عدداً ، والأقلون قَدْراً وخَطَراً

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ الذى رَفَعَ السمٰواتِ بغير عَمَدٍ ترونها ثم استوىٰ على العرشِ ﴾

---

(1) أحسن القشيرى إذ جعل خاتمة السورة بمثابة خلاصة دقيقة لها ، وأوضح العبرة المستفادة من دور كل شخصية فيها .

دَلَّ على صفاته وذاته بما أخبر به من آياته ، ومن جملتها رفعُ السمٰوات وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّها ، ولا أوتادٌ تُمسِكُها . وأخبر فى غير هذه المواضع أنه زَيَّنَ السماء بكواكبها ، وخصَّ الأرض بجوانبها ومناكبها .

« ثم استوى على العرش » : أى احتوى على مُلْكِه احتواء قُدْرَةٍ وتدبير . والعرشُ هو المُلْكُ حيث يقال : اندكَّ عرشُ فلان إذا زال مُلْكُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجرى لأَجَلٍ مُسَمًّى . . . ﴾

كلٌّ يجرى فى فَلَكٍ . ويدلُّ كل جزء من ذلك على أنه فِعلُ مَلِكٍ فى مُلْكِهِ غير مشترك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مَدَّ الأرضَ وجَعَلَ فيها
رواسِيَ وأنهاراً ومِن كلٌّ الثمراتِ
جَعَلَ فيها زوجين اثنين يُغْشِى الليلَ
النهارَ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ
يَتَفَكَّرون ﴾

بَسَطَ الأرضَ ودحاها ، والجبالَ أرساها ، وفَجَّرَ عيونها ، وأجرى أنهارها ، وجَنَّسَ بحارها ، ونَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها ، وأنبت أشجارَها ، وصَنَّفَ أزهارَها وثمارَها ، وكَوَّر عليها ليلَها ونهارَها . . ذلك تقديرُ العزيز العليم .

قوله جل ذكره : ﴿ وفى الأرضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ
وجَنَّاتٌ من أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ
صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بماءٍ
واحدٍ ، ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ
فى الأُكُلِ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ
يَعقِلون ﴾

فَمِنْ سبخٍ[1] ومن حَجَرٍ ومن رملٍ . . أنواع مختلفة ، وأزواج متفقة . وزروع ونبات وأشجار أشتات ، وأصل الكل واحد ، فأجزاؤها متماثلة ، وأبعاضها متشاكلة ، ولكن جعل بعضها غدقا[2] ، وبعضها قشراً ، وبعضها غُصناً ، وبعضها جذعا ، وبعضها أزهاراً ، وبعضها أوراقاً . . ثم الكلُّ واحد ، وإن كان لكلٍّ واحدٍ طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص ، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحدٍ ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارُ ما يحتاج إليه ، « ونُفَضِّلُ بعضها على بعض فى الأُكل » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولُهم أئذا كُنَّا تراباً أئنا لَفِى خَلْقٍ جديدٍ ، أولئك الذين كَفَرُوا بربِّهم وأولئك الأغلالُ فى أعناقِهم وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ﴾

وإن تعجبْ — يا محمد — لقولهم فهذا موضعٌ يَتَعَجَّبُ منه الخَلْق ، فالعَجَبُ لا يجوز فى صفة الحقِّ[3] ، إذ أن التعجبَ الاستبعادُ والحقُّ لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً ، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخَلْق ، وحَسَنٌ ما قالوا : « إنما تعجَّبَ مَنْ حُجِبَ » لأنَّ مَنْ يَنَلْ عيونَ البصيرةِ لا يتعجَّبُ مِنْ شىء .

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أى إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له .

وإطلاق هذا — وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة — لا يجوز ، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا . والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا : أعجبُ العجبِ قول مالا يجوز فى وصفه العجب . . وإنْ تعجَّب .

وقوله تعالى : « أئذا كنا تراباً أئنا لَفِى خَلْقٍ جديد » : استبعادُهم النشأةَ الثانيةَ — مع إقرارهم بالخَلْقِ الأولِ وهما فى معنًى واحد — موضعُ التعجب ، إذ هو صريح

(1) السبخ المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام (الوسيط) .
(2) الغدق من العشب بلله وريه (الوسيط)
(3) إشارة إلى ما فى الآية (فعجب قولهم . .) .

فى المناقضة ، وكان القومُ أصحابَ تمييز وتحصيل ، فقياسٌ مثل هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله — سبحانه — لَبَّسَ عليهم كما قال : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون »[1] — وإلا ما كان ينبغى أنْ يخفى عليهم جواز هذا مع وضوحه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ له مُعَقِّبَاتٌ مِن بينِ يديه ومِن خَلْفِه يَحفظونه من أمْرِ اللهِ ﴾

الكناية فى : « له معقبات » راجعةٌ إلى العبد ، أى أن الله وَكَّلَ بكلٌ واحدٍ منهم معقباتٍ وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلَّف وذاكَ[3] من أمر الله ، أى من البلاء الذى بقدرة الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ، وذلك أن الله — سبحانه — وَكَّلَ لكلٍّ واحدٍ من الخَلْق ملائكةً يدفعون عنهم البلاء إذا ناموا وغفلوا ، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا . . . وفى جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يُغَيِّر مابقومٍ حتّى يُغَيِّروا ما بأنفسِهم وإذا أراد اللهُ بقومٍ سوءاً فلا مَرَدَّ له ، ومَا لَهُم من دُونه مِن وَالٍ ﴾

إذا غيَّروا ما بهم إلى الطاعات غيَّر الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا فى نعمة فغيَّروا ما بهم من الشكر لله تغيَّر عليهم ما مَنَّ به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك ، وإذا كانوا فى شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا فى التضرع ، وأظهروا العجز غيَّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .

ويقال إذا غيَّروا ما بألسنتهم من الذِّكْرِ غيَّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيان

---

(١) آية ٩ سورة يس .

(٢) هنا وضع الناسخ علامة على سقوط مساحة من النص ، ومن المؤسف أنه لا يوجد إستدراك لذلك فى الهامش ويقع فى هذه المساحة تفسير للآيات من (٥ إلى ١٠) من السورة .

(٣) فى النسخة (وهذا) ولكننا آثرنا أن نجعلها (وذاك) حتى تزيد السياق إيضاحاً ونمنع اللبس إذ ربما يظن أن (وهذا) الثانية مبتدأ .

والغفلة ، فإذا كان العبد فى بسطةٍ وتقريبٍ ، وكشفٍ بالقلب وترقب . . فالله لا يُغيِّر ما بأنفسهم بترك أدبٍ ، أو إخلال بحقٍ ، أو إلمام بذنبٍ .

ويقال لا يَكُفُّ ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويُغيِّر ماهو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حضور[1] القلب بالنسيان ومايُطيح به من العصيان . أبدل اللهُ تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان ، وسلبَهُ ما كان يعطيه من الإحسان .

ويقال إذا توالت المحنُ وأراد العبدُ زوالَها فلا يصل إليه النَّفْضُ[2] منها إلاَّ بأنْ يغير ما هو به ؛ فيأخذ فى السؤال بعد السكوت ، وفى إظهار الجزَع بعد السكون ، فإذا أخذ فى التضرع غيَّر ما به من الصبر[3].

قوله : « وإذا أراد الله بقومٍ سوءا فلا مردَّ له » ؛ يقال إذا أراد اللهُ بقومٍ بلاء وفتنة فما تعلَّقتْ به المشيئة لا محالة يجرى .

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءا (. . .)[4] أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، ويسعون — فى الحقيقة — فى دَمِهِم كما قال قائلهم :

إلى حَتْفِى مَشَى قدمى   إذا قَدَمِى أراق دمى

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُرِيكم البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنشِئُ السحابَ الثِّقال ﴾

كما يريهم البرقَ — فى الظاهر — فيكونون بين خوفٍ وطمعٍ ؛ خوفٍ من إحباس المطر وطمعٍ فى مجيئه . أو خوفٍ للمسافر من ضرر مجىء المطر ، وطمعٍ للمقيم فى نفعه . . كذلك يُرِيهم البرقَ فى أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق فى الصفاء ، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة .

---

(١) وردت (حصول) وقد آثرنا أن تكون (حضور) القلب حتى تقابل (النسيان) .

(٢) يقال نفض فلان من مرضه أى برىء منه (الوسيط)

(٣) سيعود القشيرى إلى الإجابة عن سؤالين : متى يجوز للعبد أن يشكو ويتضرع ؟ وهل هذا آية نفاد صبره أم علامة ضعفه إزاء القوة الإلهية ؟ . . عند حديثه عن أيوب فى سورة الأنبياء .

(٤) مشتبهة وربما كانت لفظة بمعنى (أعمى)

« خوفاً » : من أن ينقطع ولا يبقى ، « وطمعاً » : فى أن يدومَ فيه نقلُ صاحبِه من المحاضرة إلى المكاشفة ، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود .

ويقال « يريكم البرق » : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان ، ثم يصير إلى نهار العرفان . فإذا طلعت شموسُ التوحيدِ فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس ، كما قيل :

هى الشمسُ إلا أنّ للشمس غيبةً وهذا الذى نَعْنيه ليس يغيب

ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجنّ[1] عليهم ليالى الفرقة ، فَقَلَّمَا تخلو فرحةُ الوصال من أن تعقبها موجة الفراق[2] ، كما قيل :

أى يومٍ سررتنى بوصالٍ لم[3] تَدَعْني ثلاثةً بصدود ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ[4] الثِّقَالَ ﴾

إذا انتاب السحابةَ فى السماء ظلامٌ فى وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض ، فما لم تَبْكِ السماء لا يضحكُ الروضُ ، كما قيل :

ومأتمٌ فيه السماء تبكى والأرضُ من تحتها عَرُوسُ

كذلك تنشأ فى القلب سحابة الطلب ، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر ، ثم يلوح وجهُ الحقيقة ، فتضحكُ الروح لفنونِ راحاتِ الأُنْس ، وصنوفِ أزهارِ القُرْب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ من خِيفَتِهِ ﴾

أى الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بها مَن

(١) مصوبة هكذا فى الهامش ، والمعنى يتقبلها ويرفض (تمن) التى فى المتن .
(٢) وردت (القرآن) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (كم) (٤) وردت (الصحاب) بالصاد وهى خطأ .

يشاء ، وهم يُجَادِلُونَ فى اللهِ وهو
شديدُ المِحَالِ ﴾

قد يكون فى القلب حنين وأنين ، وزفير وشهيق . والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين — خصوصاً — اطلاعٌ يبكون دَمَاً لأجْلهم ، لا سيّما إذا وقعت لواحدٍ منهم فترةٌ ، والفترةُ فى هذه الطريقة الصواعقُ التى يصيب بها من يشاء ، وكما قيل :

ما كان ما أوْلَيْتَ مِن وَصْلنا   إلا سراجاً لاح[1] ثم انطفا

قوله جل ذكره : ﴿ له دعوةُ الحق والذين يَدْعُونَ مِن
دونِه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إلاَّ
كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ
وما هو بِبَالِغِه ﴾

دواعى الحق تصير لائحةً فى القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم ، استجاب لبيان العلم . وفى مقابلتها دواعى الشيطان[2] التى تهتف بالعبد بتزيين المعاصى ، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت[3] الغىّ ، ومنها دواعى النّفس وهى قائدةٌ للعبد بزمام الحظوظ ، فمن ركَنَ إليها ولاحظَها وقع فى هوانِ الحجاب .

ودواعى الحقّ تكون بلا واسطة مَلَكٍ ، ولا بدلالة عقلٍ ، ولا بإشارة علم ، فمن أسمعه الحقُّ ذلك استجاب لا محالةَ لله بالله .

قوله جل ذكره : ﴿وما دعاء الكافرين إلّا فى ضلال﴾

هواجس النّفس ودواعيها تدعو — فى الطريقة — إلى الشِّرْكِ ، وذلك بشهود شىء منكَ ، وحسبان أمرٍ لَكَ ، وتعريجٍ فى أوطان الفرْق ، والعَمَى عن حقائق الجمْعِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله يَسْجُدُ مَن فى السمٰواتِ

(١) وردت (راح) بالراء والمعنى لا يتقبلها فاخترنا (لاح) لأنها أقرب فى المعنى والخط .
(٢) وردت (السلطان) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (لصورت) والراء زائدة كما هو واضح .

والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالهم بالغُدُوِّ والآصال ﴾

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضر ألجأه إلى أنْ يتواضع ويسجد ، وذلك معنى سجوده كرهاً — وهذا قول أهل التفسير . والكافر يسجد طائعاً مختاراً ، ولكن لمّا كان سجودُه لطلبِ كَشْفِ الضُّرِّ قال تعالى : إنه يسجد كرهاً وعلى مقتضى هذا كلُّ مَنْ يَسْجُدُ لابتغاء عِوَضٍ أولكشفِ محنة .

ويقال السجودُ على قسمين : ساجدٌ بنَفْسِه وساجدٌ بقلبه ؛ فسجودُ النَّفْسِ معهود[1] ، وسجودُ القلب من حيث الوجود . . وفَرْقٌ بين من يكون بنفسه ، وواجد بقلبه .

ويقال الكلُّ يسجدون لله ؛ إمَّا من حيث الأفعال بالاختيار ، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبشار : سجودٌ من حيث الدلالة على الوحدانية ؛ فكلُّ جزء من عين أو أثر فَعَلَى الوحدانيةِ شاهدٌ ، وعلى هذا المعنى للهِ ساجدٌ . وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن ربُّ السمواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ قُلْ أفاتَّخذتُم مِّن دونِه أولياءَ لا يَمْلِكون لأنفسِهِمْ نَفْعاً ولا ضَرًّا ﴾

سَلْهُمْ — يامحمد — مَنْ موجِدُ السمواتِ والأرض ومقدِّرُها ، ومُختَرِعُ ما يحدث فيها ومدبِّرها ؟ فإنْ أسْكَتَهُمْ عن الجواب ما استكَنَّ في قلوبهم مِنَ الجهلِ فقُلْ الله منشيها ومجريها .

ثم قال : « أفاتخذتم من دونه أولياء » : يعنى الأصنام ، وهى جمادات لا تملك لنفسها نَفْعاً ولا ضرًّا ، ويلتحق فى المعنى بها كلُّ مَنْ هو موسومٌ برقم الحدوثِ ، فَمَنْ علَّقَ قلبَه بالحدثان ساوَى — مِنْ وجهٍ — مَنْ عَبَدَ الأصنام ، قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »[2] .

---

(1) أى السجود فى الصلوات العادية بالنسبة للكافة ، وأما سجود القلب فللخاصة .

(2) آية ١٠٦ سورة يوسف .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هل يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ والبصيرُ أَمْ هل تستوى الظلماتُ والنُّورُ﴾

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة، والبصيرُ مَنْ كَحَلَ الحقُّ بصيرة سِرِّه بنور التوحيد.. لا يستويان!

ثم هل تستوى ظلماتُ الشِّرك وأنوارُ التوحيد؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياء شهود التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ جعلوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عليهم قُلِ اللهُ خالِقُ كلِّ شىءٍ وهو الواحِدُ القَهَّارُ﴾

أى لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدٌّ مُضَاهٍ، وفى جميع الأحكام له موازٍ، ولم يُجِدْ حينئذٍ التمييزُ بين فِعْلَيْهما.

وكذلك لو كان له نِدٌّ.. فإنَّ إثباتَهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما فى استحقاق كل وصف، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له، وهذا يؤدى إلى ألا يُعْرَفَ المَحَلُّ.. وذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللهُ خالقُ كُلِّ شىءٍ وهو الواحدُ القَهَّارُ﴾

«كل شىء» تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها، والمخاطِبُ لا يدخل فى الخطاب.

«وهو الواحد»: الذى لا خَلَفَ عنه ولا بَدَلَ[1]، الواحد الذى فى فضله منزه عن فضل كل أحد، فهو الكافى لكلِّ أحد، ويستعين به كل أحد.

«والقهار»: الذى لا يجرى بخلاف حُكْمِه — فى مُلْكِه — نَفَسٌ.

قوله جل ذكرهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

---

(١) وردت (يدل) بالياء وهى خطأ فى النسخ.

بِقَدَرِها فاحتملَ السَّيلُ زَبَدًا رَّابياً
ومِمَّا يُوقِدُون عليه فى النارِ ابتغاء
حِلْيةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كذلك
يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطلَ ،
فأمَّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاءً وأمَّا ما يَنْفَعُ
الناسَ فَيَمْكُثُ فى الأرضِ كذلك
يَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ ﴾

هذه الآية تشتمل على أمثالٍ ضربها اللهُ لتشبيه القرآنِ المُنَزَّلِ بالماء المُنَزَّلِ من السماء ، وشبَّه القلوب بالأودية ، وشبَّه وساوسَ الشيطان وهواجسَ النَّفْس بالزَّبَدِ الذى يعلو الماء ، وشبَّه الخُلُق[1] بالجواهر الصافية من الخبَثِ كالذهب والفضة والنحاس وغيرها ، وشبَّه الباطلَ بخَبَثِ هذه الجواهر . وكما أن الأودية مختلفة فى صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتمل الماء فى القلة والكثرة — كذلك القلوبُ تختلف فى الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكما أن السيلَ إذا حَصَلَ فى الوادى يُطَهِّرُ الوادى فكذلك القرآن إذا حصل حفْظُه فى القلوب نَفَى الوساوسَ والهوى عنها ، وكما أنَّ الماء قد يصحبه ما يكدره ، ويخلص بعضه مما يشوبه — فكذلك الإيمان وفَهْمُ القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نَزَغَاتِ الشيطان ومن الخواطر الرَّدِيَّة ، فالقلوب بين صافٍ وكَدِرٍ .

وكما أنَّ الجواهر التى تتخذ منها الأوانى إذا أذيبت خَلَصَتْ من الخَبَثِ كذلك الحق يتميز من الباطل ، ويبقى الحقُّ ويضمحل الباطل .

ويقال إن الأنوار إذا تلألأت فى القلوب نَفَت آثار الكلفة ، ونور[2] اليقين ينفى ظلمة الشك ، والعلم ينفى تهمة الجهل ، ونور المعرفة ينفى أثر النكرة ، ونور المشاهدة ينفى آثار البشرية ،

(١) هكذا فى المصورة ونرجح أنها (الحق) ليقابل (الباطل) كما تقابل الجواهر الصوفية الخبث — ويزيد من قوة هذا الترجيح ما سيأتى بعد قليل عند (التمييز بين الحق والباطل) .
(٢) وردت (ونود) وهى خطأ فى النسخ .

وأنوار الجمع تنفى آثار التفرقة . وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ ، وأنوارُ طلوعِ الشمس من حيث العرفان تنفى سَدَفَةَ الليل من حيث حسبان أثر الأغيار .

ثم الجواهر التى تتخذ منها الأوانى مختلفة فَمِنْ إناء يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص ، إلى غيره ـ كذلك القلوب تختلف ، وفى الخبر : إن لله تعالى أوانىَ وهى القلوب » ؛ فزاهد قاصدٌ ومحب واجدٌ ، وعابدٌ خائفٌ وموحِّدٌ عارفٌ ، ومتعبِّدٌ متعفِّفٌ ومتهجِّدٌ متصوف ، وأنشدوا :

ألوانُها شتَّى الفنونِ وإنما تُسْقَى بماء واحدٍ من مَنْهَلِ

قوله جل ذكره : ﴿ للذين استجابوا لربِّهم الْحُسْنَى والذين لم يستجيبوا له لو أنَّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثْلَه معه لافتدَوْا به أولئك لهم سُوء الحسابِ ومأواهم جهنَّمُ وبِئْسَ المِهَادُ ﴾

« الحسنى » [1] : الوعد بقبول استجابتهم ، وذلك مِنْ أجَلِّ الأشياء عندهم ؛ فلا شىء أعزُّ على المحبِّ مِنْ قبولِ محبوبه منه شيئاً .

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنّ لهم جميع مافى الأرض وأنفقوه تمداً لا يُقْبَلُ منهم ، ولهم سوء الحساب ، وهو المناقشة فى الحساب ، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَمَن [2] يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ من رَّبِّكَ الحقُّ كَمَنْ هو أعمى إنَّما يَتَذَكَّرُ أولوا الألباب ﴾

استفهام فى معنى النفى ، أى لا يستوى البصير والضرير ، ولا المقبول بالمردود بالحجبة ، ولا المؤَمَّن بالنشر . بالمُعَرَّض للتعذيب ، ولا الذى أقصيناه عن شهودنا بالذى هديناه

---

(١) يرى القشيرى أن (الحسنى) هنا صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (أفلم) .

بوجودنا . إنما يتَّعِظُ مَنْ عقله له تشريف ، دونَ مَنْ عقله له سببُ إقصاءٍ وتعنيف .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين[1] يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ
ولا يَنقُضُون الميثاق ﴾

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان ، والوفاء بشرط الإحسان ، والتوقِّ من ارتكاب العصيان بذلك أُبْرِمَ العقدُ يوم الميثاق والضمان .

وميثاقُ قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه ، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَصِلونَ ما أمَرَ اللهُ به أن
يُوصَلَ ويَخْشَوْن ربَّهم ويخافون سُوءَ
الحساب ﴾[2]

الذين يصِلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أنفاسَهم بعضاً ببعض ، فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغير الله ، ولا بغير الله ، ولا فى شهود غير الله .

ويقال يَصِلُون سَيْرَهم بِسُرَاهم فى إقامة العبودية ، والتبرِّى من الحول والقوة .

وقوله : « ويخشون ربَّهم » : الخشية لجامٌ يُوقفُ المؤمنَ عن الرَّكْضِ فى ميادين الهوى ، وزِمامٌ يَجُرُّه إلى استدامة حكم التُّقَى .

وقوله : « ويخافون سوء الحساب » هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون

قوله جل ذكره : ﴿ والذين صَبَرُوا ابتغاء وجهِ ربِّهم
وأقاموا الصلاةَ ﴾

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التى لأجلها يصبر الصابر ، فالعُبَّاد يصبرون لخوف العقوبة ، والزهاد يصبرون طمعاً فى المثوبة ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم ، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول ، واستدامةُ التوقى منه ،

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (والذين) .

(٢) هذه الآية مستدركة فى هامش الورقة بعد أن سقطت من المتن .

فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العلةِ والزلةِ . وعن كل شيء يشغل عن الله .

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تعزُّزِ الحق ، فإنَّه - سبحانه - يتفضَّلُ على الكافة من المجتهدين ، ويتعزز — خصوصاً — على المريدين ، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم ، فإذا صدَقُوا في صبرهم جادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنفقوا مِمَّا رَزَقْنَاهم سِرًّا وعَلانِيةً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالَهم . والعُبَّاد ينفقون نفوسَهم ويتحملون صنوف الاجتهاد ، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد . والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يلوحَ علم من الإقبال عليهم . وأمَّا المحبون فينفقون أرواحَهم . . وهي كما قيل :

ألستَ لي خَلَفاً ؟ كفى شَرَفاً فما وراءكَ لي قَصْدٌ ومطلوبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَدْرَءون بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ أُولئكَ لَهمْ عُقْبَى الدار ﴾

يعاشرون الناس بِحُسْنِ الخُلُق ، فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف ، وإنْ عَامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء ، وإنْ أذنب إليهم قومٌ اعتذروا لهم ، وإن مرضوا عادوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّـاتُ عَدْنٍ يَدْخُلونها ومَن صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم ، والملائكةُ يَدْخُلون عليهم مِّن كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صبرْتم ، فنِعْمَ عُقْبى الدار ﴾

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَنْ يحبون محبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم ، وقد ورد فى الخبر : « المرءُ مع مَنْ أَحَبَّ » فَمَنْ كان محبوبهُ أمثالَه وأقاربَه حُشِرَ معهم ، ومَنْ كان اليومَ بقلبه مع الله ، فهو غداً مع الله ، وفى الخبر : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » ، وهذا فى العاجل ، وأمَّا فى الآجل ، ففى الخبر : « الفقراء الصابرون جُلَسَاءُ الله يومَ القيامة » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ ، ويقطعون ما أَمَرَ اللهُ به أَن يُوصَلَ ، ويُفْسِدون فى الأرضِ أولئك لهم اللَّعْنَةُ ولهم سوءُ الدارِ ﴾

مَنْ كفر بعد إيمانه نَقَضَ عهدَ الإسلام فى الظاهر ، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه طريق الإرادة ، فقد نقض عَهْدَه فى السَّرَّاء ... فهذا مُرْتَدٌ جهراً ، وهذا مرتَدٌ سِرًّا ، والمرتد جهراً عقوبته قطعُ رأسِه ، والمرتد سِرًّا عقوبته قَطْعُ سِرِّه .

وقوله : «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » ، هو نقض قوله : « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » .

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار ، وتَرْكُ الاكتفاء بالله الجبّار .

ويقال نَقْضُ العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهود الأقدار ، وملاحظة التقدير .

ويقال نقض العهد بِتَرْكِ نَفْسِه ، ثم يعود إلى ما قال بتركه .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يشاءُ ويقدِرُ ﴾

يبسط الرزق للأغنياء ويُطَالِبُهم بالشكر ، ويُضَيِّقُ على الفقراء ويطالبهم بالصبر

وَعدَ الزيادةَ للشاكرين ، ووعد المَعِيَّةَ للصابرين . للأغنياء الأموال بمزيدها ، وللفقراء التجرد في الدارين عن طريقها وتليدها .

قوله جل ذكره : ﴿ وفَرِحُوا بالحياة الدنيا وما الحياةُ الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾

فَرِحَ الأغنياء بزكاء أموالهم ، وفَرِحَ الفقراء بصفاء أحوالهم .

« وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاعٌ » قليلٌ بالإضافة إلى ما وعدهم الله ؛ فأموالُ الأغنياء — وإنْ كَثُرَت — قليلةٌ بالإضافة إلى ما وَعدَهم من وجود أفضاله ، وأحوال الفقراء — وإنْ صَفَتْ — قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أُنزِل عليه آيةٌ مِّن رَّبِّه قُلْ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِى إليه مَنْ أنابَ ﴾

« يضل من يشاء » : وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا — صلى الله عليه وسلم — من الشواهد والبرهان حتى (. . .)[1] الزيادة .

« ويهدى من يشاء » : وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وتطمئِنُّ قلوبُهم بِذِكْرِ اللهِ ، ألا بِذِكْرِ اللهِ تطمئِنُّ القلوبُ ﴾

قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله ، وفي الذِّكر وَجدُوا سَلْوَتَهم ، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم . وقومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكر الله فَذَكَرَهُمْ الله — سبحانه — بلطفه ، وأَثْبَتَ الطمأنينةَ في قلوبهم على وجه التخصيص لهم .

---

(١) مشتبهة .

ويقال إذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم ، واستبشرت أرواحهم ، واستأنست أسرارهم ، قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لِمَا نالت بِذِكْرِهِ من الحياة ، وإذا كان العبدُ لا يطمئن قلبُه بذكر الله ، فذلك لِخَلَلٍ فى قلبه ، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ طُوبى لهم وحُسْنُ مآبٍ ﴾

طابت أوقاتُهم وطابت نفوسُهم .

ويقال طوبى لمن قال له الحقُّ : طوبى .

طوبى لهم فى الحال ، وحُسْنُ المآب فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك أرسلناكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِها أُمَمٌ لتتلوَ عليهم الذى أوحينا إليك ﴾

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل . ولئن أصابك منهم بلاء فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء ، فاصبِرْ كما صَبَرُوا تُؤْجَرْ كما أُجِرُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم يَكْفُرُون بالرحمنِ قُلْ هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه متَابِ ﴾

لئن كفروا بنا فآمِنْ أنت ، وإذا آمنتَ فلا تبالِ بِمَنْ جَحَدَ ، فإنَّك أنت المقصودُ من البَرِيَّة ، والمخصوصُ بالرسالة والمحبة .

لو كان يجوز فى وصفنا أن يكون لنا غرضٌ فى أفعالنا .

ولو كان الغرض فى الخِلْقَة فأنت سيد البَشَر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال[1] ، فهذا مخلوق يقول فى مخلوق :

---

(1) هذه أقصى درجة فى التصور لشخصية الرسول صلوات الله عليه — فى نظر هذا الصوفى .. قارن ذلك بأقوال باحث آخر كابن عربى أو الجيلى عن « الإنسان الكامل » ، لتلحظ الفرق الماثل بين الاتجاهين .

وكنتُ أخرّتُ أوطاري لوقت   فكان الوقت وقتك والسلام
وكنت أطالبُ الدنيا بِحُبٍّ   فكنتَ الحبَّ..وانقطع الكلام

قوله جل ذكره : ﴿ولو أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ
أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به
الموتى بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن ، ولكن المنشئ الله ، والخير والشر جملةً من الله ، والأمر كله لله . فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن — والقرآن كلام الله العزيز — فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق . . فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿أفلم ييأسِ الذين آمنوا أن لو يشاء
اللهُ لهدى الناسَ جميعاً﴾

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا ، ويقال أفلم ييأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدي ؟

قوله جل ذكره : ﴿ولا يزالُ الذين كفروا تُصيبهم بما
صَنَعُوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من
دارِهِم حتى يأتِيَ وعدُ اللهِ إنَّ اللهَ
لا يُخْلِفُ الميعاد﴾

يعني شؤمُ كُفْرِهم لا يزال واصلاً إليهم ، ومقتص[1] فعلهم لاحِقٌ بهم أبداً .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد اسْتُهزِئَ برُسُلٍ مِن قَبْلِكَ
فأمْلَيْتُ للذين كَفَرُوا ، ثم أخذتُهم
فكيف كان عِقَابِ﴾

---

(١) من (اقتص) والقصاص أن يوقع على الجاني مثل ما جنى .

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما كان يلاقيه منهم .
وكما أن هؤلاء فى التكذيب جَرَوْا على نهجهم فنحن أدَمْنَا سُنّتَنَا فى التعذيب معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنْ هو قائِمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ﴾

الجواب فيه مضمر ؛ أى أفمن هو مُجْرِى ومنشئ الخَلْقِ والمُطَّلِع عليهم ، لا يَخْفَى عليه منهم شىء كَمَنْ ليس كذلك ؟ لا يستويان غداً أبداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله شُركاء قُلْ سَمُّوهُم
أم تُنَبِّئُونه بما لا يَعْلَمُ فى الأرضِ
أم بظاهرٍ مِّنَ القَوْلِ ﴾

قُلْ لهم أرونى أى تأثير منهم ، وأى نفع لكم فيهم ، وأى ضرر لكم منهم ؟ أتقولون ما يعلم الله بخلافه ؟ وهذا معنى قوله : « مالا يعلم » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ زُيِّنَ للذين كفروا مَكْرُهُم
وصُدُّوا عَنِ السبيلِ ، ومن يُضْلِلِ
اللهُ فما له مِنْ هادٍ ﴾ .

أى قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان ، وزين للذين كفروا مكرهم ، وصاروا مصدودين عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُقُ ، فإنَّ مَنْ أضَلَّه حُكْمُهُ — سبحانه — لا يهديه أحدٌ قطعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المُتَّقُون تجرى
مِن تحتها الأنهارُ أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها
تلك عُقْبى الذين اتقوا ، وعُقبى
الكافرين النارُ ﴾ .

المَثَلُ أى الصفة ، فصفة الجنة التى وعد المتقون هى أنها جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وأُكُلُها دائم وظلها دائم ، أى أن اللذاتِ فيها متصلةٌ . وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة ، فالمؤجّلةُ

ما ذكره الله — سبحانه — فى نص القرآن ، والمعجلة جنة الوقت[1] . والدرجات — من حيث البسط — فيها متصلة ، ونفحاتُ الأُنسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آتيناهم الكتابَ يفرحون بما أُنزلَ إليك ﴾ .

يريد بهم مؤمنى أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم .

﴿ ومِنَ الأحزابِ مَن يُنكِرُ بعْضَه ﴾

أى الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمّا نزل : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »[2] .

﴿ قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أنْ أعْبُد اللهَ ولا أُشْرِكَ به ، إليه أدعو وإليه مآبِ ﴾ .

قل يا محمد : « إنما أمرت أن أعبد الله » . والعبوديةُ المبادرةُ إلى ما أُمِرْتُ به ، والمحاذرة[3] مما زجِرْتُ عنه ، ثم التبرِّى عن الحوْل والمُنّة ، والاعتراف بالطوْل والمِنَّة .

وأصل العبودية القيام بالوظائف ، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه حُكْماً عربياً ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءهم بعدما جاءكَ مِنَ العِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ من وَلِىٍّ ولا واقٍ ﴾ .

أى حُكْماً ببيان العرب ، لأنَّ اللهَ تعالى أرسل الرسلَ فى كلِّ وقتٍ كُلاًّ بلسان قومه ليهتدوا إليه .

ويقال مِنْ صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذِّمام ، وهذه الأشياء مندوبٌ إليها فى الشريعة .

---

(١) أى جنة أرباب الأحوال . . . هنا فى هذه الدنيا

(٢) آية ١١٠ سورة الإسراء ومنهم كعب بن الأشرف والسيد والعاقب وأشياعهم .

(٣) وردت (المحاضرة) بالضاد وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

« ولئن اتبعت أهواءهم » : أى ولئن وافقتهم ، ولم تعتصم بالله ، ووقعتْ على قلبك حشمةٌ من غير الله — فَمَالَكَ من واقٍ من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
وجعلنا لهم أزواجًا وذريةً وما كان
لرسولٍ أن يأتِىَ بآيةٍ إلاَّ بإذنِ الله﴾

أى أرسلنا رسلًا من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونوا إلا من جنسك ، وكما لكم أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك قادحًا فى صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم .

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر فى حاله ؛ ولا يضره ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كتابٌ ﴾ .

أى لكل شىء أجل مثبت فى كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قُسِمَ له ، وأنه لا اطلاعَ لأحدٍ على علمه ، ولا اعتراضَ لأحدٍ على حُكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاء ويُثْبِتُ وعِندَه أُمُّ الكتابِ ﴾ .

المشيئة لا تتعلق بالحدوث ، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث .

فصفات ذات الحق — سبحانه — من كلامه وعلمه ، وقوْلِه وحُكْمِهِ لا تدخل تحت المحو والإثبات ، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله ؛ المحوُ يرجع إلى العَدَم ، والإثباتُ إلى الإحداثِ ، فهو يمحو من قلوب الزُّهاد حُبُّ الدنيا ويُثْبِتُ بَدَلَه الزهدَ فيها ، كما فى خبر حارثَةَ : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حَجَرُها وذَهَبُها »(١) .

---

(١) سأل النبى (ص) حارثة . لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ...... ، خرجنا هذا الحديث فى هامش سابق .

ويمحو عن قلوب العارفين الحظوظَ ، ويُثْبِتُ بدلها حقوقَه تعالى ، ويمحو عن قلوب الموحِّدين شهودَ غير الحق ويثبت بَدَلَه شهود الحق ، ويمحو آثار البشرية ويثْبت أنوار شهود الأحدية .

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم ، ويثبتهم بشاهد الحق .

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحقِّ فيكون محواً عن الخلْق مثبتا بالحق للحق .

ويقال يمحو العبد فلا يجرى عليه حكم التدبير، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطانَ التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء .

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق ، ويثبت بَدَلَه غلباتِ الغفلةِ وهواجِمَ النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة ، ويثبت بدلها الرجوعَ إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة .

ويقال يمحو أوضارَ الزّلّة عن نفوس العاصين ، وآثار العصيان عن ديوان المذنبين (ويثبت)[1] بدل ذلك لَوْعَةَ النَّدم ، وانكسار الحسْرَةِ ، والخمودَ عن متابعة الشهوة .

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئةَ ، ويثبت بدلها الحسنة ، قال تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

ويقال يمحو الله نضارةَ الشباب ويثبت ضعفَ المشيب .

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين فى مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار صحبتهم ، ويثبت بدلاً منه الزهد فى صحبتهم والاشتغال بعِشْرتهم .

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صفَتْ من الغيب[2] ، وليالٍ كانت مُضاءةً بالزلفة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياما هى أشدُّ ظلاما من الليالى الحنادس[3] ، وزمانا يجعل سَعَةَ الدنيا عليهم محابِس .

---

(٢) سقطت هذه اللفظة من الناسخ .

(٢) من (الغيب) يكون المعنى أن الأيام التى كانت تمنح لهم من الغيب صافية ، ولكننا لا نستبعد أنها قد تكون (الغيم) على معنى خلو تلك الأيام من كل كدورة بدليل المقابلة التى وردت فيها بعد .

(٣) جمع حندس أى شديد السواد .

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله ، ويثبتهم فى وقت آخر بلطف جماله .

ويقال يمحوهم إذا تجلّى لهم ، ويثبتهم إذا تعزّز عليهم .

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار ، ويثبتهم إذا تجلّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار ، ويشهدون بحكم الافتخار .

قوله جل ذكره : ﴿ وعنده أُم الكتاب ﴾

قيل اللوح المحفوظ الذى أثبت فيه ما سبق به عِلْمُه وحُكْمُه مما لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه .

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مَّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نَعِدُهُم
أو نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّما عليكَ البلاغُ
وعلينا الحسابُ ﴾

نفى عنه الاستعجال أمرا ، و (. . . .)[1] فى قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعود جهرا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأرضَ
نَنقُصُها مِنْ أطرافِها والله يَحْكُمُ
لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه وهو سريعُ
الحساب ﴾

فى التفاسير : بموت العلماء ، وفى كلام أهل المعرفة بموت الأولياء ، الذين إذا أصاب الناسَ بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم .

ويقال هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشِدٌ فى طريق الله لم يجد مَنْ يهديه إلى الله .

ويقال : فى كل زمان لسانٌ ينطق عن الحقِّ سبحانه[2] ، فإذا وَقَعَتْ فترةٌ سكَنَ ذلك اللسانُ — وهذا هو النقصان فى الأطراف الذى تشير إليه الآية ، وأنشد بعضهم :

طوى العصران ما نشراه منى ‏ ‏ ‏ وأبلى جدتى نشرٌ وطىٌّ

(١) مشتبهة .

(٢) يتصل ذلك بفكرة القطب والأوتاد والأبدال

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شىءُ

ويقال ينقصها مِنْ أطرافها أى بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار ، وانتشار الإسلام ، قال تعالى : « ليظهره على الدين كله »(١) .

ويقال ينقصها من أطرافها بخرابِ البلدان ، قال تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه »(٢) وقال : « كُلُّ مَنْ عليها فان »(٣) فموعودُ الحقِّ خرابُ العَالَمِ وفناء أهله ، ووعدُه حقٌّ لأن كلامَه صِدْقٌ ، والله يحكم لا مُعَقِّبَ لحُكْمِه ، ولا ناقِضَ لما أبرمه ، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه ، ولا قابل لِمَنْ رَدَّه ، ولا رادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه ، ولا مُذِلَّ لمن أعَزَّه .

« وهو سريع الحساب » : لأن ما هو آتٍ فقريب .

ويقال « سريع الحساب » فى الدنيا ؛ لأنَّ الأولياء إذا ألموا بشىء ، أو هَمُّوا المزجورِ عُوتِبُوا فى الوقت ، وطولِبوا بِحُسْنِ الرُّجعى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهم فَلِلَّهِ المَكْرُ جميعاً يعلم ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وسيعلم الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾

مكرُهم إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفْرَ ، ومكرُ الله بهم تَوَهُّمُهُم أنهم مُحْسِنون فى أعمالهم ، وحسبانهم(٤) أنهم سَتأْمَنُ أحوالُهم ، وظَنُّهم أنه لا يحيق بهم مكرُهم ، وتخليتُه إياهم — مع مَكْرِهم — مِنْ أعظمِ مَكْرِه بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الذين كفروا : لَسْتَ مُرْسَلاً قلْ كَفَىٰ بالله شهيداً بَيْنِى وبَيْنَكُمْ ومَنْ عِندَه عِلْمُ الكتاب ﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) آية ٨٨ سورة القصص .

(٣) آية ٢٦ سورة الرحمن .

(٤) وردت (وحسناتهم) وهى خطأ فى النسخ .

وَبالُ تكذيبهم عائدٌ إليهم ، فإنَّ اللهَ شهيدٌ لكَ بصدْقِك . « ومن عنده علم الكتاب » هو الله سبحانه وتعالى عنده عِلْمُ جميع المؤمنين . فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً ، إذ المؤمنون يعلمون ذلك .

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله معناه بالله ، فقلوب العارفين بالله إشراقُها ، وقلوب الوالهين بالله احتراقُها ، لهؤلاء فا (. . .)[1] محبته ، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . فوَصلَ من الطالبين مَنْ وصل

قوله جل ذكره : ﴿ الر كتابٌ أنزلناه إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النورِ بإذْنِ ربِّهم إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾

أقسم بهذه الحروف : إنَّه لَكِتَابٌ أُنْزِل إليكَ لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومِنْ ظُلُماتِ الشكِّ إلى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ، ومن ظلمات الابتداع[2] إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفسِ إلى نورِ معارفِ القلب ، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ — بإذن ربهم ، وبإرادته ومشيئته ، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهِ الذى له ما فى السموات وما فى الأرضِ وَوَيْلٌ للكافرين مِنْ عذابٍ شديدٍ ﴾

عرَّف الخَلْقَ أنَّ اللهَ هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (الابتداء) بالهمزة وهى خطأ من الناسخ .

فَمَنْ عَرَف فله المآب الحميد ، ومَنْ جَحَدَ فله العذاب الشديد ؛ وذلك العذاب هو جَهْلُه بأنه — سبحانه — مَنْ هو .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ويَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ويَبْغُونَها عِوَجاً أولئك فى ضلالٍ بعيد ﴾

ثم ذكر ذميم أخلاقِهم ، فقال : هُمُ الذين يُؤْثِرُونَ اليسيرَ مِنْ حُطَامِ الدنيا على الخطير من نِعَمِ الآخرة ، وذلك من شدة جُحْدِهِم ، ويبغون للدِّين عِوَجاً بكثرة جَهْلِهِم ، أولئك لهم فى الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة ، وفى الآخرة الاحتراق وهو أجلُّ محنة ومصيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رَّسولٍ إلَّا بِلِسَانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم فَيُضِلُّ اللهُ مَن يشاء ويَهْدِى مَن يشاء وهو العزيزُ الحكيم ﴾

إنما كان كذلك ليكون آكَدَ فى إلزام الحجة ، وأنَّى ينفع ذلك إذا لم يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ المحجَّةِ ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السابقة ، وأصحابُ الغواية وقعوا فى ذُلِّ العداوة ، فلا اعتراضَ عليه فيما يصنع ، ولا يُسألُ عما يفعل أو لم يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ وذَكِّرْهُم بأيَّامِ اللهِ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور ﴾

أَخْرِجْ قومَك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين ، ومنْ إشكالِ الجهل إلى رَوْحِ العِلْم . وذَكِّرْهُم بأيام الله ؛ ماسلف لهم من وقت الميثاق ، وما رفع عنهم من البلاء فى سابق أحوالهم .

ويقال ذكِّرْهُم بأيام الله وهى ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها فى الأشباح :

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها
أيام لم (. . . . .)[1]

ويقال ذكِّرْهم بأيام الله وهى التى كان العبدُ فيها فى كَتم العدم ، والحق يتولَّى عباده قبل أن يكون للعِبَاد فِعْلٌ ؛ فلا جُهْدَ للسابقين ، ولا عناء ولا تَرْكَ للمقتصدين ، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم[2].

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة ، والحكم على الإرادة . . ولم يكن للعبد اختيار فى تلك الأيام .

قوله : « .... إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

« صبَّار » : راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيذ العيش يَسُرُّه .

« شكورٌ » : محجوبٌ[3] بشهود النِّعم عن استغراقه فى ظهور حقه .. هذا واقفٌ مع صبره وهذا واقف مع شكره ، وكلٌّ مُلْزَمٌ بحدِّه وقَدْرِه . . . والله غالب على أمره ، مقدَّسٌ فى نَفْسِه متعززٌ بجلال قُدْسِه .

قوله جل ذكره ﴿وإذْ قال موسىٰ لقومه اذكروا نِعْمَةَ الله عليكم إذْ أنجاكم من آلِ فرعونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ العذابِ ويُذَبِّحُون أبناءكم ويَسْتَحْيُونَ نساءكم وفى ذَٰلِكُم بلاءٌ مِّن ربِّكم عظيمٌ﴾

---

(١) بقية الكلام غامضة فى الكتابة والمعنى ، وتعجز المطبعة أن تنقل حروفها .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى الآية ٣٢ من سورة فاطر : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(٣) فلا يزول الحجاب إلا إذا تجرد العبد عن شهود النعمة ، وشاهد المنعم ، ومن شاهد المنعم استقبل السراء والضراء بلا تمييز .

تذكُّر ما سَلَفَ من النِّعَم يوجِبُ تجديد ما سَبَقَ من المحبة ، وفى الخبر : « جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها » ، فالحقُّ أمَرَ موسى عليه السلام . بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه ، ولطائف إكرامه . . وفى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء — عليهم السلام : « عبدى ، أنا لَكَ مُحِبٌّ فبحقى عليكَ كُنْ لى محباً »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ تأذَّنَ ربُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ولَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عذابِى لشديدٌ ﴾

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامى وإكرامى ، وإن كفرتم بإحسانى لأعذبنكم اليومَ بامتحانى ، وغدا بفراق وهجرانى .

لئن عرفتم وصالى لأزيدنكم من وجود نوالى إلى شهود جمالى وجلالى[1] .

ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة .

ويقال لئن شكرتم شهود الـكَأنِى لأزيدنكم بشهود أوصافى .

ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامى لأزيدنكم بشهود إكرامى ثم إلى شهود إقْدَامى .

ويقال لئن شكرتم مخلص نعمائى لأزيدنكم مُنْتَظَرَ آلائى .

ويقال لئن شكرتم مخصوصَ نعمى لأزيدنكم مأمول كَرَمِى .

ويقال لئن شكرتم ما خوَّلناكم من عطائى لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائى .

ويقال لئن شكرتم ما لَوَّحتُ فى سرائركم زدناكم ما ألبسنا من العصمة لظواهركم .

ويقال لئن كفرتم نِعَمِى بأنْ توهمتم استحقاقها[2] لَجَرَّعْناكم ما تستمرون مذاقها .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسىٰ إن تكفروا أنتم ومَن فى الأرض جميعاً فإنَّ اللهَ لغنىٌّ حميد ﴾

(١) أى إن الوجود والشهود ... هذا الصوفى — يرتبطان بالأوصاف لا بالذات ، فقد جلت الصمدية من أن يستشرف العبد من الذات .

(٢) أى ينبغى أن تنظروا لأعمالكم بعين الاستصغار وأن ما تنالون من نعمة فضل من الله وليس نظير أعمالكم .

إن اجتمعتم أنتم ومن عاضَدَكم ، وكل من غاب عنكم وحضركم ، والذين يقتفون أثركم — على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركاه قطيعاً — ما أوجبتم لِعِزِّنا شَيْئاً ، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنا زَيْناً . والحقُّ بنعوته ووصف جبروته عَلِيٌّ ، وعن العالَمِ بأسْرِه غنيٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نبؤُاْ الذين مِنْ قبلِكُمْ
قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِنْ
بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلَّا اللهُ جاءتهم
رُسُلُهُم بالبينات فَرَدُّوا أيديهم
فى أفواهِهِم وقالوا إنا كَفَرْنا
بما أُرْسِلْتُم به وإنَّا لفى شَكٍّ مِمَّا
تدعوننا إليه مُرِيبٍ ﴾ .

استفهام فى معنى التقرير . أخبره أنه لما جاءتهم الرسلُ قابلوهم بالكنود ، وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم فى أفواههم ، وحَذَوْا سبيلَ أمثالهم فى الكفر ، وبنوا على الشك والريبة قواعدَهم ، وأسسوا على الشِّرْكِ والغَيِّ مذاهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت رُسُلُهم أفى اللهِ شكٌّ فَاطِرِ
السموات والأرضِ يدعوكم ليغفرَ
لكم مِّن ذنوبكم وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى
أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

استفهام والمراد منه توبيخ ونفى . سبحانه لا يتحرك نَفَسٌ إلا بتصريفه .

وكيف يبصر جلالَ قَدْرِهِ إلا من كَحَّلَه بنور بِرِّه ؟

ثم قال : « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » : ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق ، وألَّا يهربَ من خدمةٍ أو يجنحَ إلى راحة .. إنما العَجَبُ من سيدٍ عزيزٍ كريمٍ يدعو عَبْدَه ليغفرَ له وقد أخطأ ، ويعاملَه بالإحسان وقد جفا .

والذى لا يَكُفُّ عن العناد، ولا يؤثر رضاء سيده على راحة نفسه فلا يُحْمَلُ هذا إلا على قِسمةٍ بالشقاء سابقة . . وإن أحكام الله بردِّه صادقة . ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهم :

﴿ قالوا إنْ أنتم إلا بَشَرٌ مِثْلُنا
تُرِيدون أن تَصُدُّونا عمَّا كان يعبد
آباؤُنا فَأْتُونا بسلطانٍ مبين ﴾

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم ، ولم يعرفوا سرائرهم ، ومالوا إلى تقليد أسلافهم ، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت لهم رُسُلُهم إن نحن إلا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ ولكنَّ الله يَمُنُّ على مَن
يشاء مِن عبادِه ، وما كان لنا أن
نأتيَكم بسلطانٍ إلا بإذنِ اللهِ
وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون ﴾

قالت لهم الرسلُ مانحن إلا أمثالكم ، والفرق بيننا أنه — سبحانه — مَنَّ علينا بتعريفه ، واستَخلَصنا بما أفرَدَنا به من تشريفه . والذى اقترحتم علينا من ظهور الآيات فليس لنا إلى الإتيانِ به سبيلٌ إلاَّ أن يُظْهِرَه الله علينا إذا شاء بما شاء — وهو عليه قدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَنَا ألا نتوكلَ على اللهِ وقد
هدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ على
ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل
المتوكِّلون ﴾

« ما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد رقَّانا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان ، فكفانا من مهان الشان . « وما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد حقَّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان ، وكفاية ما أظلَّنا من الامتنان . « ما لنا ألا نتوكل على الله » ولم نخرج إلى التقاضى على الله فيما وعدنا الله .

قوله : « ولنصبرن على ما آذيتمونا » : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية المُبْلِي، وفى معناه أنشدوا :

يستعذبون بلاياهم كأنهمُ لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجنَّكم مِن أرضنا أو لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنا فأوحىٰ إليهم ربُّهم لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام فى الإتيان بمثل آياتهم أخذوا فى الجفاء معهم بأنواع الإنذار، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان، والتشريد فى البلدان. وبسط الله على قلوبهم بوعد نصره ولقائه ما أظلَّهم من الأمر، ومَكَّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوَّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال:

« لنهلكن الظالمين »، وقال:

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ مِنْ بَعْدِهِم ذلك لِمَن خافَ مقامى وخافَ وعيدِ ﴾

« وخاف وعيدِ » : أى خاف مقامه فى محل الحساب غداً فأناب إلى نفسه على وجه التخصيص.

ويقال خاف مقامى أى هاب اطلاعى عليه، فالأول تذكير المحاسبة فى الآجل، والثانى تحقيق المراقبة فى العاجل.

قوله جل ذكره : ﴿ واستفتحوا وخاب كُلُّ جبَّارٍ عنيد ﴾

الاستفتاح طلب الفتح، والفتح القضاء، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء »(١) وغيره فلما نزل بهم البلاء، وتحقق لهم

(١) آية ٣٢ سورة الأنفال.

الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم، ولم تُقْبَلْ منهم صدقتهم وفداؤهم، وناموا حين لا ندامة، وجزعوا بعدما عَدِموا السلامة.

ويقال: «واستفتحوا»: بغير الرسل، ولما وجد الرسل إصرارَ قومهم سألوا النصرة عليهم من الله كقول نوح — عليه السلام: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»، وقول موسى عليه السلام: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم»[1] فأجابهم الله بإهلاكهم.

ويقال إذا اشتد البلاءُ وصَدَقَ الدعاءُ قَرُبَ النَّجاء.

قوله جل ذكره: ﴿مِّن ورائه جَهَنَّمُ ويُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صديدٍ * يتجرَّعُه ولا يكادُ يُسيغه﴾

لفظ «وراء» يقع على ما بين يديه وعلى ما خَلْفَ، والوراء ما توارى عليك أي استتر؛ يريد هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان، وعلى ما خَلْفَه؛ أي لأجل ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرةً واحدةً.

قوله جل ذكره: ﴿ويأتيه الموتُ مِن كلِّ مكانٍ وما هو بِمَيِّتٍ ومِن وَرَائِهِ عذابٌ غليظٌ﴾

يرى العذابَ — من شدته — في كل عضو، وفي كل وقت، وفي كل مكان. وليس ذلك الموت؛ لأنَّ أهلَ النار لا يموتون، ولكنه في الشدة كالموت. ثم «من ورائه عذاب غليظ»: وهو الخلود في النار، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيامٍ قلائل ساعدته المشيئةُ فيها، وانخدع فلم يشعر بما يليها.

---

(1) الآية ٨٨ سورة يونس.

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كَرَمَادٍ اشتدَّتْ به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ لا يَقْدِرُون مِمَّا كَسَبُوا على شىء ذلك هو الضـلالُ البعيدُ ﴾

أى وفيما يُتْلَى عليكَ — يا محمد — مَثَلٌ لأعمال الكفار فى تلاشيها ، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شىء منها كَرَمَادٍ فى يومٍ عاصف ، فإنه لا يَبْقَى منه شىء — كذلك أعمالُهم . ومَنْ كان كذلك فقد خاب فى الدارين ، وحلَّ عليه الويل .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحقِّ ، إن يَشأْ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ ﴾

خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحُكْمِ الحق ، أى له ذلك بحقِّ ملكه ، وخلقهما بقوله الحقِ ؛ فجعل كلَّ جزء منهما على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد الوصول إلى ربِّه سبيلاً .

ثم قال : إنْ يَشَأْ يذهبكم بالإفناء ، ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ فى الإنشاء ، وليس ذلك عليه بعزيز ... وأنَّى ذلك وهو على كل شىء قدير ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وبَرَزُوا للهِ جميعاً ، فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنَّا كنَّا لكم تَبَعاً فهل أنتم مُغْنُون عَنَّا مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ شىء ..... ﴾

لم يكونوا عن الحقِّ — سبحانه — مستترين حتى يظهروا له ، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا فى مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم ، فصاروا كأنهم ظهروا لله . فقال الضعفاء للذين استكبروا : « إنا كنا لكم تبعاً » توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء ، فأجابهم المتكبرون : إنَّا جميعاً فى العذاب مشتركون ، ولو أمكننا أنْ نرفعَ عنكم من

العذاب ، وقدرنا على أن نهديكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتم ، وأجبناكم إلى ما سألتم ، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين ، ولا نحن لكم بمغيثين ، ولا لما تدعونا إليه بمستجيبين . . .

فلا تلومونا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ! إنما ينفع لومُ النَّفْس فيا تتعاطاه من الإساءة فى زمان المُهْلَةِ وأوقات التكليف ؛ فإنَّ أبوابَ التوبةِ مفتوحة ، ولكن لمن لم ينزع روحه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُدْخِلَ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فيها بإذْنِ ربهم تحيَّتُهُم فيها سَلاَمٌ ﴾

ذلك الذى مضى ذِكْرُه صفةُ الكفار والأعداء . وأمَّا المؤمنون والأولياء ، فقال : « وأُدْخِلَ الذين آمنوا .... » والإيمان هو التصديق ، «وعملوا الصالحات» تحقيق التصديق . ويدخل فى جملة الأعمال الصالحة ما قلَّ أو كَثُرَ من وجوه الخيرات حتى القَذَر تميطه[1] عن الطريق .

و « تحيتهم فيها سلام» — وكذلك قال تعالى :«لهم دار السلام » ، فالوصفُ العام والتحيةُ لهم من الله السلامُ .

ويقال إن أحوالهم متفاوتة فى الرتبة ؛ فقومٌ سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَم تَرَ كيف ضرب اللهُ مَثَلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرْعُها فى السماء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كلَّ حين بإذْنِ ربِّها

(١) أماط الأذى أى نحاه وأبعده

﴿ويَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يَتَذَكَّرُون * ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كَشَجَرَةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ مالها من قرار﴾

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة ثابت فى الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتى أكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلها كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين ، وفروعها الأعمال الصالحة التى هى الفرائض ومجانبة المعاصى .

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كَشْفِ القِشْرِ وقَطْعِ العِرْقِ وإملاق الغصن[1] وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية ، وأزهارها الأخلاق الجميلة ، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة .

وكما أن الثمار تختلف فى الطّعم والطبع والرائحة والصورة . . كذلك ثمرات الطاعات ومعانى الأشياء التى يجدها العبدُ فى قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهى صفة العابدين ، والبسطِ الذى يجده العبدُ فى وقته وهو صفة العارفين ، وراحةٍ فى الضمير وهو صفة المريدين ، وأُنْسٍ يناله فى سِرِّه وهو صفة المحبين . وقلقٍ واهتياجٍ يجدهما ولا يعرف سببهما ، ولا يجد سبيلا إلى سكونه وهو صفة المشتاقين . إلى مالا يفى بشرحه نطقٌ ، ولا يستوفيه تـكلُّفُ قَوْلٍ . وذكرٍ من لوائح ولوامع ، وطوارق وشوارق ، كما قيل .

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظْهِرُ كتمانا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمراتِ الأشجار فى السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة فى كل لحظة كذا كذا مرة . وكما قال الله تعالى فى ثواب الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » كذا لطائف هذه الشجرة

(١) أى إذهاب الفاسد منه .

لامقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة ولا محجوبة ، وهى فى كل وقت ونَفَس تبدو لهم غيرَ محجوبة .

وثمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار ، وإشارات أهل القصة وألفاظهم فى مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنَّوْر .

ويقال الكلمة الطيبة هى الشهادة بالإلهية ، وللرسول — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة ، وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص .

والشجرة الطيبة المعرفة ، وأصلها ثابت فى أرضٍ غير سبخةٍ ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق ، فالإيمان لا ينبت فى قلبيهما كما أن الشجرة فى الأرض السبخة لا تنبت . ثم لا بدَّ للشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام العناية ، وإنما تُورِقُ بالكفاية ، وتَتَوَرَّدُ بالهداية .

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندمِ والحياء والتلهفِ والحسرةِ والأمانة والخشوعِ وإسبال[1] الدموع .

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ؛ فمنها التوكل والتفويض والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الوافية ، والأخلاق العالية الزكية .

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى كلمة الكفر ، وخبثُها ما صحبها من مُجانبة الشِّرك ، فَخُبْثُ الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشِّرْكِ ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هى الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا علة مقتضية ، إنما هو شُبَه وأباطيل وضلال ، تقتضى وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار ، لأنها حاصلةٌ من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

قوله جل ذكره : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

(١) أسبلت العين = سال دمعها (الوسيط ج ١ ص ٤١٧) .

الثابتِ فى الحياةِ الدنيا وفى الآخرةِ
ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعل اللهُ
ما يشاء ﴾

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك العِوَج .

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة .

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان .

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذى لا يجوز عليه الفناء والبطول[1] فهو بالثبوت أَوْلَى من قول العبد ، لأن قولَ العبد أثَرٌ ، والآثار لا يجوز عليها الثبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتُ العبد لقول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وإخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان . وقول الله لا يزول ؛ ففى الدنيا يثبتُه حتى لا بِدْعَةَ تعتريه ، وفى الآخرة يثبتُه برسله من الملائكة ، وفى القيامة يثبتُه عند السؤال والمحاسبة وفى الجنة يثبتُه لأنه لا يزول حمد العبد لله ، ومعرفته به . وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه — سبحانه — دعاءه ثَبَّتَه حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم .

ويقال إذا دَعَتْهُ الوساوسُ إلى متابعةِ الشيطان ، وصيَّرتْه الهواجسُ إلى موافقة النَّفْس فالحق يثبته على موافقة رضاه .

ويقال إذا دَعَتْهُ دواعى المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها ، فيترك الجميع ، ولا يتحسَّسُ إلا دواعىَ الحقِّ — سبحانه كما قيل :

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كى تردَّنا أبينا وقلنا : مطلبُ الحقِّ أَوَّلا

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين بَدَّلوا نعمةَ اللهِ
كُفْراً وأحلُّوا قومَهم دارَ البَوارِ ﴾

---

(1) بطل الشىء يطولا وبطلانا = ذهب ضياعاً (الوسيط ج ١ ص ٦١) .

وضعوا الكفران محل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغى لها من الشكر . واستعمال النعمة فى المعصية من هذه الجملة ، فأعضاء العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصى بَدَنَه فى الزَّلة بدلاً من أن يستعملها فى الطاعة فقد بدَّلَ النعمةَ كفراً ، وكذلك إذا أودع الغفلَة قلبَه مكانَ المعرفة ، والعلاقَة فيه مكان الانقطاع إليه ، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَلَ الثقة به ، ولَطَّخَ لسانَه بذكر المخلوقين ومَدْحِهم بَدَلَ ذكرِ الله واشتغل بغير الله دون العناء فى ذكره . . . كلُّ هذا تبديلُ نِعَمِ الله كفراً . وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله ، مكفياً من قِبَلِ الله . . وَجَدَ فى فراغه معالله راحةً عن الخَلْق ، ومن إقباله عليه — سبحانه — كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع فى بحار الاشتغال ومعاملة الخَلْق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار ، على معنى إيقاعه قلبَه ونَفْسَه وجوارحَه فى المذلة من الخَلْق ، والمضرة فى الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أرَ قبلى مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم

قوله جل ذكره : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ القرار ﴾

وهى الجحيم المُعَجَّل . . وعذابُها الفُرْقَةُ لا الحُرْقَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله أنداداً لِيُضِلُّوا عن سبيله قُلْ تَمَتَّعُوا فإنَّ مصيرَكم إلى النار ﴾

رضوا بأن يكون معمولُهم معبودَهم ، ومنحوتُهم مقصودَهم ، فضلُّوا عن نَهْجِ الاستقامة، ونأوا عن مقر الكرامة ، وسيلقون غِبَّ[1] ما صنعوا يوم القيامة كما قيل :

قد تركناكَ والذى تريد فعسى أن تملَّهم فتعودا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيامُ السرور قِصارٌ ، ومُتَعُ الغفلة سريعة الانقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لِّعبادىَ الذين آمنوا يُقيموا

(١) وردت (غير) وقد آثرنا أن تكون (غب) ليقوى المعنى أى عاقبة ما صنعوا .

الصلاة وينفقوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا
وعلانيةً مِّن قَبْلِ أن يأتِيَ يومٌ
لا بَيْعٌ فيه ولا خِلال ﴾

جعل اللهُ راحةَ العبدِ — اليومَ — بكمالها فى الصلاة ؛ فإنها محلُّ المناجاة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أرِحْنا يا بلال بالصلاة »[1] والصلاة استفتاح باب الرزق ، قال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً »[2]

وفى الصلاة يبث[3] العبد أسرارَه مع الحق ؛ فإذا كان لقاء الإخوان — كما قالوا — مَسْلاةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله ، ونشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :

قُلْ لى بألسنة التَنَفُّسِ كيف أنت وكيف حالك ؟

« وينفقوا مما رزقناهم » : أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره ، وإنفاق البَدَنِ على طاعته ، والوقتَ[4] على شكره ، والقلبَ على عرفانه ، والروح على حبه ، والسِّرَّ على مشاهدته . . ولا يكلِّف الله نَفْساً إلا ما آتاها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط بالشاهد الذى آتاك . . يقول العبد المسكين : لو كان لى نَفْسٌ أطوع من هذه لأَتَيْتُ بها ، ولو كان لى قلبٌ أشدُّ وفاء من هذا لَجُدْتُ به ، وكذلك بروحى وسِرِّى ، وقيل :

يفديك بالروح صَبٌّ لو انَّ له أعز من روحه شيئاً فداك به

« من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » : وفى هذا المعنى أنشدوا :

قلتُ للنَّفْس إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرضَ
وأنزل من السماء ماء فأخرج به من

---

(1) سبق تخريج هذا الحديث الشريف .
(2) آية ١٣٢ سورة طه .
(3) وردت (يثبت) والمعنى يقتضى (يبث) .
(4) وردت (الوقف) وهى — كما هو واضح — خطأ فى النسخ .

الثمراتِ رِزقاً لكم وسخَّر لكم
الفُلْكَ لتجرى فى البحر بأمره
وسخَّر لكم الأنهار * وسخَّر لكم
الشمسَ والقمرَ دائبيْن وسخَّر لكم
الليل والنهار ﴾

فى الظاهر رفع السماء فأعلاها ، والأرض من تحتها دحاها ، وخلقَ فيها بحاراً ، وأجرى أنهارا ، وأنبت أشجاراً ، وأنبت لها أنوارا وأزهارا ، وأمطر من السماء ماء مدراراً . وأخرج من الثمرات أصنافا ، ونوَّع لها أوصافا ، وأفرد لكلٍّ منها طعماً مخصوصاً ، ولإدراكه وقتاً معلوماً .

وأمَّا فى الباطن فسماء القلوب زيَّنها بمصابيح العقول ، وأطلع فيها شمس التوحيد ، وقمر العرفان . ومَرَج فى القلوب بحرى الخوف والرجاء ، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان ؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف ، كما جاء فى الخبر : « لو وزنا لاعتدلا »[1] — هذا لعوام المؤمنين ، فأمَّا للخواص فالقبض والبسط ، ولخاص الخاص فالهيبة والأُنس والبقاء والفناء .

وسخَّر لهم الفُلْكَ فى هذه البحار ليعبروها بالسلامة ، وهى فلك التوفيق والعصمة ، وسفينة الأنوار والحفظ . وكذلك ليالى الطلب للمريدين ، وليالى الطرب لأهل الأُنس من المحبين ، وليالى الحرب[2] للتائبين ، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه ، وإن
تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إنَّ
الإنسان لظلومٌ كفَّار ﴾

ما سَمَتْ إليه هِمَمُكُم ، وتعلَّق به سؤالُكم ، وخَطَرَ تحقيقُ ذلك ببالِكم ، أنلناكم

(١) أورده السراج فى لمعه ص ٩١ (قال صلى الله عليه وسلم : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)
(٢) ربما يقصد القشيرى بالحرب هنا جهاد التائب مع نفسه ، وإظهار الحزن والتأسف .

فوق ما تُؤمّلون[1] ، وأعطيناكم أكثر مما ترْجُون[2] ، قال تعالى : « ادعونى استجب لكم » .

وقرأ بعض القراء[3] : « من كُلٍّ ما سألتموه » فَيُنَوِّنُ قوله : كلٍ ، ويجعل ما سألتموه (ما) للنفى أى كل شىء مما لم تسألوه .

كذلك جاز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى — وهذا لأرباب الطاعات ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى — وهذا لأصحاب الزلات . عَلِم قصور لسان العاصى وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكَّر ما عمله من الزلاَّت ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشمةَ السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرتُ لكم قبل أن تستغفرونى .

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهَّله الحق — سبحانه — من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ . . قَبْلَ أَنْ كان له إمكانٌ ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو عصيان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان العبد شيئاً أو عيناً أو أثراً . . لا بَلْ :

أتانى هواها قبل أنْ أعرِفَ الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

قوله جل ذكره : (وإن تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تُحْصُوها
إنَّ الإنسان لظلومٌ كفَّار)

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِه . . ؟ وشكرُكُم نَزْرٌ يسير ، وإنعامُه وافر غزير .
وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام ؟
إنَّ نِعَمَه عُلُومُكم عن تفصيلها متقاصرةٌ ، وفُهُومُكم عن تحصيلها متأخرةٌ .

---

(١) وردت (تؤمنون) وهى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا تؤملون .
(٢) وردت (ترجعون) وهى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا ترجون .
(٣) لا يهتم القشيرى بالقراءات إلا نادراً ، وحيثما وجد فى ذلك مجالا لإشارة نافعة للصوفية

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن[1] وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له .

فكيف يأتى الحصر والإحصاء على مالا يتناهى ؟

وكما أن النَّفْعَ من نِعَمِهِ فالدفعُ أيضاً من نعمه .

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيقٍ آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ[2] قال ابراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمِناً واجنُبْني وَبَنِيَّ أن نَعْبُدَ الأصنامَ * ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من النـاسِ فمن تَبِعَـني فإنه مِنِّي ﴾

كما سأل أن يجعل مكةَّ بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبَهَ محلاً آمناً ، أى لا يكون فيه شىء إلا بالله . « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعـالى : « أفرأيتَ مَن اتخذ إلهه هواه »[3] فصنمُ كلِّ أحدٍ ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ وولَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لمَّا بنى البيتَ استعان بالله أن يجرِّدَه من ملاحظة نفسه وفعله .

ويقال إنه — صلى الله عليه وسلم — كان متردداً بين شهود فضـل الله وشهود رفق نفسه ، فلما لقى من فضله وجوده قال من كمال بسطه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » . ولما نظر من حيث فقر نفسه قال : « واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام » .

ويقال شاهد غيره فقال : « واجنبنى وبنيَّ أن نعبد الأصنام » ، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .

---

(١) وردت (المحسن) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) سقطت (وإذ) من الناسخ .

(٣) آية ٢٣ سورة الجاثية .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾

« فإنه مني » : أي موافق لي ومن أهل مِلَّتي ، ومن عصاني خالفني وعصاك .

قوله : « فإنك[1] غفور رحيم » : طلبٌ للرحمة بالإشارة ، أي فارحمهم .

وقال : « ومَنْ عصاني » . . ولم يَقُلْ : مَنْ عصاك ، وإنْ كان من عصاه فقد عصى الله ، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه ، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة .

ويقال إن قولَ نبينا صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أتمُّ في معنى العفو حيث قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وابراهيم — عليه السلام — عَرَّضَ وقال : « فإنك غفور رحيم » .

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب[2] فقال : « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنَا إنِّي أسْكَنْتُ من ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من النــاسِ تهوي إليهم وارزُقْهم مِنَ الثَّمراتِ لعلهم يَشْكُرُون ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله : « إني أسكنت . . . » وإنما رأى الرِّفقَ بهم في الجِوارِ لا في المَبَارِّ فقال : « عند بيتك المحرم » ثم قال : « ليقيموا الصلاة » : أي أسكنتُهم لإقامة حقِّكَ لا لِطَلَبِ حظوظهم .

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها « فإن الله غفور رحيم » .

(٢) تفيد هذه الإشارة في النواحي البلاغية حيث استبدل التعبير بالأسلوب الإنشائي بالأسلوب الخبري .

ثم قال : « فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم » أى ليشتغلوا بعبادتك ، وأقم قومى — ما بقوا — بكفايتك ، « وارزقهم من الثمرات » : فإنَّ مَنْ قام بحقِّ الله أقام اللهُ بحقِّه قَوْمَه ، واستجاب اللهُ دعاءه فيهم ، وصارت القلوبُ من كل بَرٍ وبحرٍ كالمجبولة على محبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين به ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : « بوادٍ غير ذى زرعٍ » : أى أسكنتُهم بهذا الوادى حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبُهم ، ولا تشتغل بشئٍ أفكارهم وأسرارُهم ؛ فهم مطروحون ببَابِكَ ، مصونون بحضرتك ، مرتبطون بحُكْمِك ؛ إنْ رَاعيتَهُم كَفَيْتَهُم وكانوا أعزَّ خَلْقِ الله ، وإنْ أقصيتَهم ونفيتَهم كانوا أضعفَ وأذلَّ خَلْقِ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنَا إنك تعلم ما نُخْفِي وما نُعْلِنُ وما يخفى على اللهِ من شئٍ فى الأرضِ ولا فى السماء ﴾ .

استأثرتَ بعلم الغيب فلا يَعْزُبُ عن علمك معلومٌ ، وحالى لا تخفى عليك ، فهى كما عرفتَ ، أنت تعلم سرِّى وعَلَنِي .. ومَنْ عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار ، واستروح قلبُه عن تَزَحُّمِ الأفكار ، والتَّقَسُّمِ في كون الحوادث من الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدُ للهِ الذى وَهَبَ لى على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحٰقَ إنّ ربى لَسميعُ الدعاء ﴾

أسعده بمنحه الولد على الكبر ، ويلتحق ذلك بوجهٍ من المعجزات ؛ لمحمد عليه . ولمَّا كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته — سبحانه — عليه ، وإكرامه بأنواره ، وهذا يكون بمعنى المَلَق[1] ، ويكون استدعاء نعمةٍ بنعمة ، فكأنه قال : كما أكرمتنى بِهِبَةِ الوَلَدِ على الكِبَرِ ؛ فأكْرِمْنى بهذه الأشياء التى سألتُها .

ويقال الإشارة فى هذا أنه قال : كما مَنَنْتَ علىَّ فوهبتنى على الكِبَرِ هذه الأولاد

(١) الملق = الدعاء والتضرع (الوسيط) .

فأجنبْنا أن نعبد الأصنام لتكونَ النعمةُ كاملةً . وفى قوله : « إن ربى لسميع الدعاء » . . إشارة إلى هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصلاةِ ومِن ذُرِّيتى ، ربَّنا وتقبَّلْ دُعاء *
ربَّنا اغْفِرْ لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يومَ يقومُ الحساب ﴾

فى قوله : « ربِّ اجعلنى مقيم الصلاة . . » إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة ، فمعناه اجعل صلاتى ، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى ، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً .

وقوله : « ومن ذريتى » : أى اجعل منهم قوماً يُصلُّون ، لأنه أخبره فى موضع آخر بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » (١)

ثم قال : « ربنا اغفر لى ولوالدىَّ » وهذ قبل أن يعلم أنه لا يُؤْمِن .

ويقال إن إجابة الدعاء ابتداء فضلٍ منه . ولا ينبغى للعبد أن يَتَّكِلَ على دُعاءِ أحد وإن كان عَلِيَّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ؛ فلا دعاء أتمُّ منْ دعاءِ إبراهيم عليه السلام ، ولا عنايةَ أتمُّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .

ويقال لا ينبغى للعبد أن يترك دعاءه أو يقطعَ رجاءه فى ألا يستجيبَ الله دعاءه ، فإن إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حينا لم يُجَبْ فيه . فلا غضاضةَ على العبد ولا تناله مَذَلَّةٌ إنْ لم يُجِبْهُ مولاه فى شىء ؛ فإنَّ الدعاء عبادةٌ لا بدَّ للعبد من فِعْلها ، والإجابةُ من الحقِّ فضلٌ ، وله أن يفعل وله ألا يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾

هذا وعيدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين ؛ فالمظلوم إذا تحقَّق بأنه — سبحانه — عالِمٌ بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه تحمله .

---

(١) آية ١٢٤ سورة البقرة .

والظلم على وجوه ؛ ظلمٌ على النَّفْس بوضع الزَّلَّةِ مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه ، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين .

ويقال من جملة الظالمين الشيطانُ ، فالعبدُ المؤمنُ مظلومٌ من جهته ، والحقُّ — سبحانه — ينتصف له منه غداً ، وذلك إنْ لم يَتْبعْهُ اليومَ ، ودَفَعَه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يُؤَخِّرُهُم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ * مُهْطِعين مُقْنِعِي... الآية ﴾

وهذا للعوام من المؤمنين ، علَّق قلوبهم بالانتقام منهم فى المستأنف ، وأمَّا الخواص فإذ علموا أنه — سبحانه — عالِمٌ بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأمَّا خواص الخواص فإذ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظُلْمِهم حتى يستغفرَ لهم ، كما قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، وفى معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن ذى زلة حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

وأمَّا أصحاب التوحيد فإذ عَلِمُوا أنه المنشىء ، وألا مخترعَ سواه فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، ولا مَعَ أحدٍ مُعَاتَبَة ، ولا منه مطالبة ، لأنهم يَعُدُّون إثباتَ الغيرِ فى الظن والحسبان شِرْكاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنذِرِ الناسَ يومَ يأتيهم العذابُ فيقولُ الذين ظَلَمُوا ربَّنا أخِّرْنا إلى أجلٍ قريبٍ نُجِبْ دعوتَكَ ونَتَّبِعِ الرُّسُلَ أو لم تكونوا أقْسَمْتُم من قَبْلُ ما لكم من زوالٍ ﴾

أفسدوا فى أول أمورهم ، وقصَّروا فى الواجب عليهم ، ولم يكن للخَلَلِ فى أحوالهم جبران ، ولا لعذرهم قبول لتصحَّ الحجة عليهم ، فافتضح المجرم منهم ، وخاب الكافر ، وحُقَّ الحكمُ عليهم .

قوله جل ذكره: ﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسَهم وتبيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾

أحللنا بهم العقوبة ، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم ، وجريتم على منهاجهم ، وفعلتم مثلَ فعلِهم ، وبإمهالنا لكم اغتررتم . . فانتَظِروا منَّا ما عاملناكم به جزاء لكم على ما أسلفتم .

ويقال إن معاشرةَ أهل الهوى والفسق ومجاورتَهم مُشَارَكةٌ لهم فى فِعْلِهم ، فيستقبلُ فاعلُ ذلك استقبالَهم ، ومَنْ سَلَكَهُم ينخرط فى التردِّى نحو وَهْدَةِ هلاكهِ مِثْلَهم .

قوله جل ذكره: ﴿فلا تحسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه إنَّ اللهَ عزيزٌ ذو انتقام﴾ .

أى لا تحسبنَّه يخلف رسله وعده ؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه فى قوله ، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقِّه فى مُلْكِه ، وهو « عزيز » لا يصل إليه أحد ، وإن كان وليّاً . « ذو انتقام » لا يفوته أحد وإن كان (. . . . . . .)[1] .

قوله جل ذكره: ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات وبَرَزُوا للهِ الواحدِ القهار﴾.

لا يختلف عَيْنُها وإنما تختلف صورتها ، وكذلك إذا انكدرت النجوم ، وانشقت السماء يقال ما بدِّل عينها وإنما بدَّل الأزمانَ والمكانَ على الناس باختلاف أحوالهم فى السرور والمحن ؛ كَمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول : تغيَّر الزمانُ والوقتُ . . وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء .

ويقال إن آدم لما قتل أحدُ ابنيه الآخرَ قال :

تغيرت البلادُ ومَنْ عليها فوجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قبيحُ

وفى هذه القصة[2] من كان صاحب بسطٍ فَرُدَّ إلى حال القبض ، ومن كان صاحب أُنسٍ

---

(١) وردت لفظتان هكذا (سهماً قوماً) .

(٢) يشير القشيرى إلى (بالقصة) إلى الحياة الصوفية .

فصار صاحب حجاب — يصحُّ أن يقال بدل له الأرض ، قال بعضهم :

ما الناس بالناس الذى عهدى بهم ولا البلاد بتلك التى كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة ، وكانت الأرض به راجفة ، وكان النهار له ليلا ، وكان الليل له ويلا ، وكما قيل :

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ ولا ماء الحيـاة ببارد

قوله جل ذكره : ﴿ وتَرَى المُجْرِمين يومَئذٍ مُقَرَّنينَ فى الأصفاد * سَرابِيلُهم من قَطِرَانٍ وتَغْشَىٰ وُجُوهَهُم النارُ * لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نفسٍ ما كَسَبَتْ إنَّ اللهَ سريعُ الحساب ﴾ .

الأصفاد الأغلال . الأصفاد تجمعهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سرابيلهم ، والحميم شُرْبُهم ، والنارُ محيطةٌ بهم . . وذلك جزاء مَنْ خالَف إلهه .

قوله جل ذكره : ﴿ هذا بَلاغٌ للناس وَلِيُنْذَرُوا به ولِيَعْلَموا أنَّما هو إلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الألبابِ ﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لائحة ، والدواعى واضحة ، والمهلة متسعة ، والرسول عليه السلام مُبَلِّغ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكنَّ القسمةَ سابقةٌ ، والتوفيقَ عن القيام ممنوعٌ ، والربُّ — سبحانه — فعَّالٌ لما يريد ، فَمَنْ اعتبر نجا ، ومن غفل تردَّى . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليَعْلمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلم يَقْبَلْ من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَنْ رَدّ لاستيجاب علة . فإنْ قيل العِلّةُ فى إسقاط الألف من بسم الله كثرةُ الاستعمال فى كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود ، فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ الٓر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبين ﴾ .

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة فى الخطاب ، فأعرضوا عن كل شىء وسمعوا لها . ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التى يسمعونها آياتُ الكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابُهم ، واستعدت لسماع ما يقول آذانُهم : « تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين » .

ووصف القرآن بأنه مبين ؛ لأنه يُبَيِّنُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم ، وللمريدين ما يقوى رجاءهم ، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم ، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم ، ويبيِّن للمصطفى — صلى الله عليه وسلم — تحقيقَ ما مَنَعَ غَيْرَه بعد سؤاله . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام : « لن ترانى » بعد سؤاله : « رب أرنى أنظر إليك »[1]

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف

قوله جل ذكره: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾.

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا، وأى كأس رشفوا.

ويقال إذا صارت المعارفُ ضروريةً أحرقَتْ نفوسَ أقوامٍ العقوبةُ، وقطّعَتْ قلوبَهم الحسْرَةُ.

ويقال لوعرفوا حالَهم وحالَ المؤمنين لعَلِمُوا أن العقوبةَ بإهلاكهم حاصلةٌ لقوله تعالى بعدئذ:

﴿ ذَرْهُم يأكلوا ويَتَمَتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوف يعلمون ﴾.

قيمةُ كل امرئٍ على حسب هِمَّتِه، فإذا كانت الهمةُ مقصورةً على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يُحَاسَبُ، وعلى العقل لا يُطَالَبُ، فالتَّكليفُ يتبعه التشريف! وغداً سوف يعلمون.

قوله جل ذكره: ﴿ وما أهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلومٌ * ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وما يستأخِرون ﴾.

الآجال معلومة، والأحوال مقسومة، والمشيئة فى الكائنات ماضية، ولا تخفى على الحق خافية

قوله جل ذكره: ﴿ وقالوا يأيها الذى نُزِّل عليه الذِّكْرُ إنَّكَ لمجنُون ﴾.

الجنون معنًى يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه، فلمَّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أَوْلَى بما وصفوه به[1]، فهم كما فى المَثَل: رَمَتْني بِدَائِها وانْسَلَّت.

---

(١) لأنهم ليسوا عقلاء ولا تحصيل لهم.

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْمَا تأتِينا بالملائكةِ إن كنتَ من الصادقين * ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلاَّ بالحقِّ وما كانوا إذاً مُنْظَرِين ﴾

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أيِّد به معجزاتِه ، فيتوجب اللَّوْمُ عليهم لسوءِ أدَبِهم . وأخبر الحقُّ — سبحانه — أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكةَ لأبصارِ بنى آدم فيكون ذلك عند استبصارهم ؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية . وفى المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقتُ أوَانَ هَلاكِهم ؛ لِعِلْمِه أنَّ فى أصلابهم مَنْ يؤْمنُ بالله سبحانه فى المستأنف .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافظون ﴾ .

أنزل التوراة وقد وَكَلَ حفظها إلى بنى إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله ، فحرَّفوا وبدَّلوا ، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظه ، وإنما يحفظه بقرائه ؛ فقلوبُ القُرَّاءِ خزائنُ كتابه ، وهو لا يضيع كتابه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا مِن قَبْلِكَ فى شِيَعِ الأولين * وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون * كذلك نَسْلُكُه فى قلوبِ المجرمين * لا يُؤْمِنون به وقد خَلَتْ سُنَّة الأولين ﴾ .

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب ، وأنه أدام سُنَّتَه معهم فى التعذيب . ثم قال : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » : وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة ، وسَدَّ — بالحرمان — عليهم سلوكَ الطريقة ، وبيَّن أنه لو أراهم الآياتِ عياناً ما ازدادوا

إلا عتواً وطغيانا ، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ولو فَتَحْنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يَعْرُجُون * لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا بل نحن قومٌ مَسْحُورُون﴾

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا ، وبأمر التكوين مقضياً . . فمتى ينفع فيه النصح ؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ ؟ كلا . . إن البصيرةَ له مسدودةٌ ، و (. . . .)[1] الخذلان بِقَدَمِه مشدودة ، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة ، والحقيقة على الخديعة .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزَيَّنَّاها للناظرين﴾

بروجاً أى نجوماً هى لها زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .

﴿وحَفِظْناها من كلِّ شيطان رجيم * إلا مَنِ استَرَقَ السمعَ فأَتْبَعَهُ شِهابٌ مبين﴾ .

إذا رام الشياطينُ أن يسترقوا السمعَ كانت النجومُ لها رجوماً

كذلك للقلوب نجومٌ وهى المعارف وهى فى الوقت ذاته رجوم على الشياطين ؛ فلو دنا إبليسُ وجنودُه من قلب ولىٌّ من الأولياء أحرقَتْهُ بل محقَتْه نجومُ عقلِه وأقمارُ علمِه وشموسُ توحيدِه .

وكما أنَّ نجومَ السماءِ زينةٌ للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهى زينة .

قوله جل ذكره : ﴿والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ﴾

---

(١) مشتبهة وهى فى الخط هكذا (متقلاب) وربما كانت (متقلات) بمعنى أثقال وقيود .

النفوس أرض عبادة العابدين ، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة ، والخوف والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرهبة .

ويقال من الرواسى التى أثبتها فى الأرض الأولياء فَبِهِمْ يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ . ومن الرواسى العلماء الذين بهم قِوَامُ الشريعة ؛ فعلماء الأصول هم قِوامُ أصلِ الدِّين ، والفقهاء بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيحُ والأمنُ والمُزْنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنْبَتْنَا فيها مِن كلِّ شىءٍ موزون ﴾

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار[1] أنبت فى القلوب صنوفاً من الأنوار[2] ، منها نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد . . إلى غير ذلك من الأنوار .

﴿ وجعلنا لكم فيها معايشَ ومَن لستم له برازقين ﴾

سببُ عيشِ كلِّ واحدٍ مختلفٌ ؛ فعيشُ المريدين من إقباله ، وعيش العارفين التجمل بأفضاله[3]

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مِّن شىءٍ إلا عندنا خزائنه وما نُنَزِّلُه إلا بِقَدَرٍ معلوم ﴾

خزائنه فى الحقيقة مقدوراته ، وهو — سبحانه — قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث .

ويقال خزائنه فى الأرض قلوبُ العارفين بالله ، وفى الخزانة جواهر من كل صنف ؛ فحقائق العقل جواهر وضعها فى قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار العارفين

---

(١) أنوار النبات جمع نورة وهى الزهرة البيضاء .

(٢) أنوار القلوب جمع نور .

(٣) وردت (أفعاله) وقد رجحنا (أفضاله) لأنها أدق فى المعنى ، وإن كان كلاهما صحيحا

مواضع سِرِّه ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزانةُ ذِكْرِه .

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خُطَاه عن التردد على منازل الناس فى طلَبِ الإرْفاق منهم ، وسعى فى الآفاق فى طلب الأرزاق منها ، قاطعاً أَمَلَه عن الخَلْق ، مُفْرِداً قلبَه لله متجرِّداً عن التعلُّق بغير الله .

قوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » : عَرَفَ القِسْمَة مَن استراح عن كدِّ الطلب ؛ فإنَّ المعلومَ لا يتغير ، والمقسوم لايزيد ولا ينقص ، وإذا لم يَجِبْ عليه شىء لأحد فبقدرته على إجابة العبد إلى طلبته لايتوجب عليه شىء .

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تحمُّلِ المِنَّةِ من الأغنياء مما يعطونهم ، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً ، فليس الفقير صَرْفُ القلب عن الله سبحانه إلى مخلوق واعتقادُ مِنَّةٍ لأحد ، إذ المُلْكُ كله لله ، والأمر بيد الله ، ولا قادر على الإبداع إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ فأنزلنا من السماء ماء ﴾

كما أن الرياحَ فى الآفاق مُقَدِّمَاتُ المطر كذلك الآمال فى القلوب،وما يقرب العبدمما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر ، ونسيم النجاة فى الطلب يحصل ، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف .

قوله جل ذكره : ﴿ فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

أسقاه إذا جعل له السُّقيا ؛ كذلك يجعل الحق — سبحانه — لأوليائه ألطافاً معلومة فى أوقات محدودة ؛ كما قال فى وصف أهل الجنة : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » .

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلٍّ ورداً معلوماً ، ثم قضايا ذلك تختلف : فمِنْ شراب يُسْكِر ، ومن شراب يُحْضِر ، ومن شراب يزيل الإحساس ، كما قيل :

فصحوك من لفظى هو الصحو كله وسُكْرُكَ من لحظى يبيح لك الشُّرْبا

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ، ولا عن الخلائق لهم خبر .

ويقال إذا هبّت رياح القرب على قلوب العارفين عطّرتْها بنفحات الأنس ، فيسقُوْنَ في نسيمها على الدوام ، وفي معناه أنشدوا :

وهبّتْ شمال آخر الليل قرّةٌ[1] ولا ثوبَ إلا بُرْدَةً وردائيا
وما زال يُرْدِي لينا من ردائها إلى الحوْلِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مناقِبَ ومثالبُه محاسنه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنا لنحن نُحيِي ونُميتُ ونحن الوارثون ﴾ .

نحيي قلوبهم بالمشاهدة ، ونميت نفوسهم بالمجاهدة .

ويقال نحييهم بأن نغنِيَهُم بالمشاهدة ، ونميتُهم بأنْ نأخذهم عن شواهدهم .

ويقال يحيي المريدين بذكره ، ويميت الغافلين بهجره .

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات ، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات .

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله ، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمنا المُسْتَقْدِمين منكم ولقد علمنا المُسْتأخِرين ﴾ .

العارفون مستقدمون بهِمَمِهم ، والعابدون مستقدمون بقَدَمِهم ، والتائبون بندمهم . وأقوام مستأخِرون بقدمهم وهم العُصاة ، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون بخسائس الحالات .

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات ، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات .

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقّ — من غير تعريجٍ إلى تفكر ، والمستأخِرون الذين يرجعون[2] إلى الرُّخَصِ والتأويلات .

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق ، والمستأخرون الذين تثبطهم مشقة الخذلان .

(١) قرة أي باردة .

(٢) وردت (يرجون) وهي خطأ في النسخ — حسبما نعرف من رأي القشيري في مثل هذا الموقف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنّ ربّكَ هو يحشرهم إنّه حكيم عليم ﴾ .

يبعث كلاً على الوصف الذى خرجوا من الدنيا عليه : فمن منفرد القلب بربه ، ومن مُتَطَوِّحٍ فى أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مَسْنون * والجانَّ خلقناه مِن قَبْلُ من نار السَّموم ﴾ .

ذكَّرهم بِخِسَّتِهم لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم .

ويقال القيمة فى القُربةِ لا بالتُّربة ، والنسب تربة ولكن النعتَ قربة .

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم » . وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجىء منها شىء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك العدو[1] لمَّا انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده ، وأمَّا آدم — عليه السلام فلمَّا اغْتَرَّ جَبَرَهُ ماء العناية ، قال تعالى : « ثم اجتباه ربه . . . »[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إنى خالقٌ بَشَراً من صلصالٍ من حمإٍ مَسْنُونٍ * فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيه مِن روحى فقعوا له ساجدين * فَسَجَدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعون * إلاَّ إبليسَ أَبَى أن يكونَ مع الساجدين ﴾ .

أظهرهم بهذا القول ، وفى عين ما أظهرهم سَتَرَهم .

ويقال ليست العِبْرة بقوالبهم ، إنما الاعتبار بالمعانى التى أودعها فيهم .

---

(١) يقصد إبليس . (٢) آية ١٢٢ سورة طه .

ويقال الملائكة لا حظوه بعين الخلقة فاستصغروا قدْرَه وحاله ، ولهذا تَعجبوا من أمرِ الله — سبحانه — لهم بالسجود له ، فكشف لهم شظية مما اختَصَّه به فسجدوا له .

قوله : « إلا إبليس أبى أن يكونَ من الساجدين » : وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عن أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبَقِىَ فى ظُلمة الحَيْرةِ .

ويقال بَخِلَ بسجدةٍ واحدةٍ ، وقال : أَسْتَنْكِفُ أَنْ أسجد لغير الله . ثم من شقاوته لا يبالى بكثرة معاصيه ، فإنه لا يَعْصِى أحدٌ إلاَّ وهوسببٌ وسواسه ، وداعيه إلى الزَّلَّةِ . . وذلك هو عين الشِّقوة وقضية الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا إبليسُ مَالَكَ ألاَّ تكونَ مع الساجدين * قال لم أكُن لأسجد لبشرٍ خَلَقْتَه من صلصالٍ من حمإٍ مسنون * قال فاخرج منْها فإنك رجيم * وإنَّ عليكَ اللَّعْنَةَ إلى يوم الدين ﴾ .

سأله ومعلومٌ له حالُه ، ولو ساعدته المعرفةُ لقال : قُلْ لى مالك ؟ وما مَنَعَكَ ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول · أنت .. حيث أشْقَيْتَني ، وبقهرك أغْوَيْتَني ، ولو رَحِمْتَنِي ، لَهَدَيْتَنِى وفى كنف عصمتك آويتنى ... ولكنَّ الحرمانَ أدركه حتى قال : « لم أكن لأسجد لبشرٍ »

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ فأنظِرْنى إلى يوم يُبْعَثُون * قال فإنك مِنَ المُنظَرِين * إلى يوم الوقتِ المعلومِ ﴾ .

ولمَّا أبعده الحقُّ — سبحانه — عن معرفته ، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة والبعث ، فأجابه . وظَنَّ اللَّعينُ أنه حصل فى الخير مقصوده ، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً ، فكأنه كان فى الحقيقة مكراً — وإن كان فى الحال فى صورة إجابة السؤال بما يُشْبِهُ اللطفَ والبرَّ .

وبعض أهل الرجاء يقول : إن الحق — سبحانه — حينما يهين عدوَّه لا يَرُدُّ دعاءه

فى الإمهال ولا يمنعه من الاستئظار ؛ فالمؤمن — إذ أمْرُهُ الاستغفارُ والسؤالُ بوصفِ الافتقارِ — أوْلَى ألا يقنطَ مِنْ رحمتِه ، لأنَّ إنظارَ اللعينِ زيادةُ شقاءٍ له لا تحقيق عطاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ بما أغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فى الأرضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين ﴾

الباء فى : « بما أغويتنى » باء القَسَم ، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقْسِم به لولا فَرْطُ جَهْلِه . ثم هو فى المعنى صحيح ، لأنَّ الإغواء مما ينفرِدُ الحق بالقدرة عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولـكنَّ اللعينَ لا يعرف الله على الحقيقة ، إذ لو عرَّفَه لم يدعُ إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلالِ غيرِه لاستبقى على الهدايةِ نَفْسَه . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حَدْساً وهو لم يَعْرِف الله — على الحقيقة — قَطُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا عبادَك منهم المُخْلَصِين * قال هذا صِراطٌ عَلَيَّ مستقيم ﴾

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمالِ عن الغَيْن وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال . وقد عَلِمَ اللعينُ أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمَّا تحقَّقَ من عناية الحقِّ بشأنهم .

« قال هذا صراط عليَّ مستقيم » تهديدٌ ، كما تقول : افعل ما شِئْتَ . . وهذا طريقى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عبادى ليس لَكَ عليهم سلطانٌ إلَّا مَنِ اتَّبعَكَ مِنَ الغاوين ﴾

السلطان الحجة ، وهى لله على خَلْقه ، وليس للعدوِّ حجة على مخلوق ، إذ لا تتعدَّى مقدرتُه محلَّه ، فلا تَسلُّطَ — فى الحقيقة[1] — لمخلوقٍ على مخلوق بالتأثير فيه .

« إن عبادى ... » : إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاص ، وهم الذين محاهم عن شواهدهم ، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة

---

(١) نلاحظ أن القشيرى يكثر فى هذا الموضوع من قوله (فى الحقيقة ، وعلى الحقيقة . . ونحو ذلك) والسبب فى ذلك راجع إلى أن ظاهر النصوص أن لابليس إرادة وفعلا ، ولـكن — فى الحقيقة — كل شىء مرده إلى الحق سبحانه .

وجرّدهم عن حوْلهم وقوّتهم ، وكان النائبَ عنهم فى جميع تصرفاتهم وحالاتهم ، وحفظ عليهم آدابَ الشرع ، وألبَسهم صِدارَ الاختيار فى أوان أداء التكليف ، وأخذهم عنهم باستهلاكهم فى شهوده ، واستغراقهم فى وجوده . . . فأىُّ سبيلٍ للشيطان إليهم؟ وأى يدٍ للعدو عليهم؟

ومَنْ أشهده الحقُّ حقائقَ التوحيد ، ورأى العالَمَ مُصَرَّفاً فى قبضة التقدير ، ولم يكن نهباً للأغيار .. فمتى يكون لِلّعين عليه تسلط ، وفى معناه قالوا :

جحودى فيك تقديسُ وعقلى فيك تهويسُ
فمن آدم إلاّ كَ ومَنْ فى البيت إبليسُ[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهم أجمعين * لها سَبْعَةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جُزْءٌ مَقْسُوم ﴾ .

اجتمعوا اليومَ فى أصل الضلالة ، ثم الكفر مِلَلٌ مختلفةٌ ، ثم يجتمعون غداً فى العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون ، لكلِّ دَرَكَةٍ من دركات جهنم قوم مخصوصون .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ المتَّقين فى جنات وعيون ﴾ .

المتقى مَنْ وقّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقى بتكلفه ، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلاَّ بعد أن وقّاه الحقُّ — سبحانه — بفضله . هم اليومَ فى جنات ولها دَرَجات بعضها أرفعُ من بعض ، كما أنهم غداً فى جنّات ولها درجات بعضها فوق بعض .

اليوم لقومٍ درجةُ حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأُنسِ والقربة ، قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم ولزم كلُّ قومٍ مذهبَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادخلوها بسلامٍ آمنين ﴾ .

---

(١) هذان البيتان للحلاج (الطواسين ص ٤٣) والديوان المقطعة رقم ٢٨ ومعناها : أننى لو سجدت لغيرك — حسبما أمرتنى — فأنا جاحد ، ولكن — نظراً لمعرفتى بك — فإن جحودى عين تقديسى ، لأنى أعلم أنه لا يستحق السجود على الحقيقة إلا أنت ، فأنا راض باحتمال لعنتك ثمناً لعدم امتثالى لإرادتك.

معناه : يقال لهم : « أدخلوها » ، وأجملَ ذلك ولم يقل مَن الذى يقول لهم . ويرى قومٌ أن الملَكَ يقول لهم : أدخلوها .

ويقال إذا وافَوا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدةَ ، وقاسوا الأمورَ الشديدةَ فَمِنْ حقِّهم أن يدخلوا الجنة ، خاصةً وقد علموا أنَّ الجنةَ مُباحةٌ لهم ، ولعلهم لايفقهون حتى يقال لهم

ويقال يحتمل أنهم لايدخلونها بقول الملَكِ حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :

ولا ألْبَسُ النُّعمى وغيرُك مُلْبِسٌ ولا أقْبَلُ الدنيا وغيرك واهبُ

قوله : « بسلامٍ آمنين » : بمعنى السلامة ، وهى الأمان ، فيأمنون أنهم لايخرجون منها

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لايخرجون عما هم عليه من الحال ، فالرؤيةُ لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية — مديدةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَزَعْنا مافى صُدُورِهم من غِلٍّ ﴾ .

أمرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال : « وطَهِّربيتى »[1]، وأمرَ جبريلَ عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فطَهَّرَه[2]..وتولَّى هو — سبحانه — بنفسه تطهيرَ قلوب العاصين ، فقال: « ونزعنا مافى صدوهم من غل »[3] وذلك رفقاً بهم ، فقد يصنع الله بالضعيف مايتعجَّبُ منه القوى ، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبُهم ، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم .

ويقال قال : « مافى صدورهم » ولم يقل مافى قلوبهم لأن القلوب فى قبضته يقلبها ، وفى الخبر : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » : يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً . وقيل بين إصبعين أى نعمتين

قوله جل ذكره : ﴿ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلين ﴾

قابل بعضُهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كلٌّ واحدٍ عن صاحبه سِرَّه وقلبَه ، فالنفوس متقابلة

---

(١) آية ٢٦ سورة الحج .

(٢) أنظر كتاب (المعراج) للقشيرى ففيه تفصيل ذلك

(٣) عن على بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم وأن الغل هو الجاهلية الذى كان بين تيم وعدى وبنى هاشم فلما أسلموا تحابوا .

ولكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة ؛ إذ لايشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : « واعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بِمُخْرَجِين ﴾ .

أي لا يلحقهم تعبٌ ؛ لابنفوسهم ولا بقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لايحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكان ، ولا تحار أبصارهم ، ولا يلحقهم دَهَشٌ ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .

« وما هم منها بمخرجين » أى لايلحقهم[2] ذلُّ الإخراج بل هم بدوام الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أنا الغفورُ الرحيم ﴾

لمَّا ذَكَرَ حديثَ المتقين ومالهم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين ، فتداركَ اللهُ قلوبهم ، وقال لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم — أخبر عبادى العاصين أنى غفور رحيم ، وأنى إنْ كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين .

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله : « أنى أنا » بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة ؛ لأنه يكون عندئذ مُخْتَطَفاً عن شاهده ، مُسْتَهلَكاً فى آنيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنَّ عَذَابِي هو العذابُ الأليم ﴾ .

العذابُ الأليم هنا هو الفراق ، ولا عذابَ فوق الفراق فى الصعوبة والألم[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَبِّئْهُم عن ضَيفِ ابراهيم * إذ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاماً ﴾ .

ألا عرِّفهم كيف كانت فتوة الخليل فى الضيافة ، وقيامه بحقِّ الضيفان ، وكان الخليلُ

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) هنا وقع الناسخ فى خطأ التكرار إذ أعاد كتابة عبارات سابقة مما ورد بعد (لا يلحقهم تعب ... إلخ) :

(٣) أى أن عذاب الفراق يفوق فى نظر الصوفية — عذاب الاحتراق .

عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلمَّا سلموا من جانبهم وردَّ عليهم وانْقَضُوا عن تناولِ طعامِه :

﴿ قال إنَّا منكم وَجِلون ﴾ .

وَجِلون أى خائفون ، فإنَّ الإمساكَ عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة . ولمَّا عَلِمَ أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين . ولكن سكن رَوْعُه عندما قالوا له :

﴿ قالوا لا تَوْجَلْ إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عليم ﴾ .

فليس لك موضِعٌ للوَجَلِ لكن موضِعٌ للفَرَجِ ؛ فإنا جئناكَ مُبَشِّرين ، وإنْ كُنَّا لغيرِكَ مُعَذِّبين .

نحن « نبشرك بغلام عليم » : أى يعيش حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشارتُهم بالوَلَدِ وببقاءِ الولد هى العجب فقال :

﴿ قال أبشرتمونى على أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرون * قالوا بَشَّرْنَاكَ بالحقِّ فلا تكن مِّنَ القانطين * قال ومَن يَقنطُ من رحمة ربِّه إلا الضالون ﴾

قال أبشرتمونى وقد مسَّنى الكِبَرُ ؟ وإنَّ الكبير قد فاته الوقت الذى يفرح فيه من الدنيا بشىء . بماذا تبشرونى وقد طَعَنْتُ فى السنِّ ، وعن قريبٍ أرتحل إلى الآخرة ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً .

قال : كيف أخطأ ظنكم فىَّ فتوهمتم أنى أقنط من رحمة ربى ؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث ، وعرف أنه لن يُصيبَه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم :

﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المُرْسَلون * قالوا إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين * إلاَّ آلَ لوطٍ إنّا لَمُنَجُّوهُم أجمعين * إلاَّ امرأتَه قَدَّرْنا إنَّها لَمِنَ الغابرين ﴾ .

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم فى الفساد ، وكانت تدل قومه على أضيافه ، فاستوجبت العقوبة .

فلمَّا وافى المرسلون من آل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر ، وتفرَّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم ، قالوا : بل جئناكَ بما كان قومُك يَشُكُّونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم ، وآتيناك بالحق ، أى بالحكم الحق :

﴿ فَأَسْرِ بأَهلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيلِ واتَّبِعْ أَدْبارَهم ولا يلتفِتْ مِنكُمْ أَحدٌ وامضوا حيثُ تؤْمَرُون ﴾

فأَسْرِ بأهلك بعد ما يمضى شىء من الليل ، وامش خلفهم ، وقدِّمهم عليك ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يرَوْا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلَكَ إلا امرأتك ، فإنا نعذبها لمشاركتها مع قومك فى العصيان . « وامضوا حيث تؤمرون » : فلكم السلامة ولقومكم العقوبة .

« وقضينا إليه ذلك الأمر » أى عَلَّمْناه وعرَّفْناه : « أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوع » ؛ أى أنهم مُهْلَكون ومُسْتَأْصَلُون بالعقوبة .

ثم لما نزل الملائكةُ بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافى ، فلا تتعرضوا لهم فتفضحونى ، واتقوا اللهَ ، وذروا مخالفة أمره ولا تُخْجِلونى . فقال قومه : ألم نَنْهَكَ عن أن تحيِيَ أحداً ، وأمرناك ألا تمنعَ مِنَّا أحداً ؟ فقال : هؤلاء بناتى يعنى نساء أمتى . وقال قومٌ :

أراد بناته من صلبه ، عرّضهن عليهم لئلا يُلِمُّوا بتلك الفعلة الفحشاء ، فلم تنجع فيهم نصيحة ، ولم يُقْلِعوا عن خبيثِ قَصْدِهم .

فأخبره الملائكة ألا يخافَ عليهم ، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم ، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهم لفي سَكْرَتِهم يَعْمَهُون ﴾

أقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه ، وتفضيلاً له على سائر البرية ، فقال وحياتك — يا محمد — إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يترددون ، وإنهم عن شِرْكهم لا يُقْلِعون .

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته — إنهم في خُمَارِ سُكْرِهم ، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً ، ولا يخافون سوءاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فأخذتهمُ الصيحةُ مُشْرِقين * فجعلنا عالِيَها سافِلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ * إن في ذلك لآياتٍ للمتوسِّمين * وإنها لَبِسَبِيلٍ مُقيم * إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ .

باتوا في حبور وسرور ، وأصبحوا في محنة وثبور ، وخرَّت عليهم سقوفُهم ، وجعلنا مُدُنَهم ومنازِلَهم عاليَها سافِلَها ، وأمطرنا عليهم من العقوبة مالم يُبْقِ عيناً ولا أثراً ، إنَّ في ذلك لَعِبْرةً لمن اعتبر ، ودلالةً ظاهرة لمن استبصر ، « وإنها لبسبيل مقيم » لِمَنْ شاء أن يَعْتَبِرْ .

قوله جل ذكره : ﴿ إن في ذلك لآياتٍ للمُتَوَسِّمِين ﴾ (1)

جاء في التفسير « المتفرسين » ، والفراسةُ خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهورِ برهانٍ عليه ، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة . مشتق من فريسة

---

(1) أخر الناسخ تفسير هذه الآية عند النقل فوضعها بعد الآية ٨٦ (إن ربك هو الخلاق العليم) وقد صححنا هذا الوضع .

الأسد إذ لفريسته يقهر . والحق — سبحانه — يُطْلِعُ أولياءه على ما خفي على غيرهم . وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن تُسدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فنبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — كان يقول لعائشة — رضي الله عنها — في زمان الإفك : « إنْ كُنْتِ فعلتِ فتوبي إلى الله » . وكإبراهيم ولوط — عليهما السلام — لم يعرفا الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كان أصحابُ الأيكةِ لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لَبِإمامٍ مبين * ولقد كَذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها مُعْرِضِين * وكانوا يَنْحِتون مِنَ الجبالِ بيوتاً آمنين * فأخَذَتْهُم الصيحةُ مُصْبِحين * فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسِبون ﴾ .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان شعيب — عليه السلام — مبعوثاً لهم فكذَّبوه ، فانتقمنا منهم .

قوله : « وإنهما » يعني مدين والأيكة . . . « لبإمام مبين » : أي بطريق واضح مَنْ قصده (. . .)[1] .

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر[2] — وهم ثمود — كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كناقةِ صالح وغيرها ، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُغْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموت والعذاب .

---

(١) مشتبهة .

(٢) الحجر واد بين المدينة والشام .

ثم أخبر أنهم أخذتهم الصيحةُ على بغتة ، ولم تغنِ عنهم حيلتهم لما حلَّ حَيْنُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ .

دلّت الآيةُ على أنَّ أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله لأنها بين السموات والأرض .

﴿ إلاَّ بالحقِّ وإنَّ الساعةَ لآتيةٌ ﴾

« إلا بالحق » : أى وأنا مُحقٌّ فيه ويقال « بالحقِّ » : بالأمرِ العظيم الكائنِ إنَّ الساعة لآتيةٌ يعنى القيامةَ .

﴿ فاصفَحِ الصفح الجميلَ ﴾

يقال الصفح الجميل الذى تذكُرِ الزَّلَّةُ فيه .

ويقال الصفح الجميل سحبُ ذيل الكَرَمِ على ما كان مِنْ غير عقدِ الزَّلَةِ ، بلا ذِكرٍ لما سَلَفَ من الذنب ، كما قيل :

تعالوا نصطلح ويكون منّا

(. . . . .)(1)

ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عدٍّ الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصى ، قال قائلهم :

(وتُذْنِبُون فننسى ونعتذر)

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّكَ هو الخَلاَّقُ العليم ﴾ .

« هو الخلاَّقُ العليم » إذ لايصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المثانِى والقرآنَ العظيم ﴾ .

أكثرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثانى لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة

---

(1) الشطر الثانى مطموس غير واضح .

ومرة بالمدينة ، ولأنها شيء في كل سورة يتكرر ، من « التثنية » وهي التكرير ، أو لأن بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . ومعنى هذا مذكور في كتب التفاسير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما مَتَّعنَا به أزواجاً منهم ﴾ .

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زَهْرَةِ الدنيا وزينتها .

ويقال غار على عينيه — صلى الله عليه وسلم — أن يستعملها في النظر إلى المخلوقات .

ويقال أدَّبَه اللهُ — سبحانه — بهذا التأديب حتى لا يُعِيرَ طَرْفَه من حيث الاستئناس به .

ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لمَّا لم يكن اليومَ سبيلٌ لأحد إلى رؤيته[2] ، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ما خَوَّلْنَاهم ، كما قال بعضهم :

لمَّا تيَقَّنْتُ أنى لستُ أبصركم　　　أغمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

ويقال شتَّانَ بينه وبين موسى — عليه السلام ! قال له : لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — مَنَعَه من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال : « ولا تَمُدَّنَّ عينيك » .

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله ؟!

ويقال لما أُمِرَ بِغَضِّ بَصَرِه عما يتمتّع به الكفارُ في الدنيا تَأَدَّبَ — عليه السلام — فلم ينظرْ ليلةَ المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة ، فأثنى عليه الحقُّ بقوله : « مازاغ البصر وما طغى » وكان يقول لكل شيء رآه : « التحيات لله » أي المُلْكُ لله .

---

(١) ويرى بعضهم أنها سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة فقيل الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما ، وقيل سورة يونس . أو أسباع القرآن .

(٢) الضمير في (رؤيته) يعود إلى الحق سبحانه ، والمقصود حفظ العين — من قبيل الوفاء — لكي لا تشاهد سواه سبحانه فيما بعد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْزَنْ عليهم ﴾

أدّبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ واخْفِضْ جناحَكَ للمؤمنين ﴾

أى أَلِنْ لهم جانبَكَ . وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة[1] فى الشفاعة إلى مواليها يمضى معها .. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِه — صلوات الله عليه — وكان فى الخبر : إنه كان يخدم بيته وكان فى (مهنة) هله[2] . وتولَّى خدمة الوفد ، وكان يقول: سيدُ القومِ خادمُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ إنِّى أنا النذيرُ المبين ﴾

لمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه — سبحانه وتعالى — سَلِمَ له أن يقول : إنى وأنا . وفى الخبر : أن جابراً دَقَّ عليه الباب ، فقال : مَنْ ؟ قال : أنا . . فقال النبى عليه السلام : « أنا أنا » .. كأنه كرهها[3]

ويقال : قُلْ لأحدٍ لاسْهلا كك فينا ، سلِّمنا أن تقول : إنى أنا ، لما كنتَ بنا ولنا .

قوله جل ذكره ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾

أى قل إنى أنا لكم مُنْذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذى عذَّبْنا به المقتسمين ؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه فى قصه صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ؛ فآمنوا ببعضِهِ وكفروا ببعضِهِ .

ويقال إنى لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة فى الموسم ، وصدوا الناس . وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به : لا تؤْمِنْ بمحمدٍ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم :

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾[4]

---

(١) الوليدة = الجارية ، قال طرفة :

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربها أذيال سحل ممدد

(٢) عن الأسود بن يزيد قال سئلت عائشة رضى الله عنها ما كان النبى (ص) يصنع فى بيته ؟ قالت : كان يكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إليها (رواه البخارى) .

(٣) الحديث جاء مضطرب الكتابة فى النسختين وقد صححناه كما أورد النووى فى رياض الصالحين ط بيروت ص ٣٥١

(٤) عضين ج عضة وأصلها عضوة أى جزء ، وعضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساما .

خفرّقوا القول فيه ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال بعضهم إنه سحر ، وقال بعضهم إنه كهانه . . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عما كانوا يَعْمَلُون ﴾

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .

ويقال يسأل قوماً عن حركات ظوهراهم ، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم . ويسأل الصديقين عن تصحيح المعانى بفعالهم ، ويسأل المدّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم .

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم أُنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلّمهم ويُسْمِعُهُم خطابَه لاشتياقهم إليه ، ولا عَجَبَ فى ذلك فالمخلوق يقول فى مخلوق :

من الخَفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها إذا ما انتهت أُحدُوثَةٌ لَوْ تُعِيدُهَا

فلا أسعدَ مِنْ بَشَرٍ يعرف أنَّ مولاه غداً سيكلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصدع بما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾

كُنْ بنا وقُلْ بنا ، وإذا كنتَ بِنا ولَنا فلا تجعلْ حِساباً لغيرنا ، وصرِّحْ بما خاطبناك به ، وأَفْصِحْ عَمَّا نحن خصصناكَ به ، وأَعْلِنْ محبتنا لك :

فسبّحْ[(١)] باسم مَنْ تَهْوى ودَعْنا من الكُنى فلا خيرَ في اللَّذاتِ مِنْ بعدها سَتْرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الذين يجعلون مع الله إلَهاً آخَرَ فسوف يعلمون ﴾

الذين دَفَعْنَا عنكَ عاديةَ[(٢)] شَرِّهم ، ودَرَأْنا عنكَ سوء مكرهم ، ونصرناك بموجب

---

(١) الأصل فى البيت (فصرح) والتصريح يقابل (الكناية) .

(٢) وردت (غادية) بالغين ، والملائم للسياق (عادية) بالعين . حيث يقال (دفعت عنك عادية فلان أى ظلمه وشره) : الوسيط ص ٥٩٥ .

عنايتنا بشأنك . . فلا عليكَ فيما يقولون أو يفعلون ، فما العقبى إلا لكَ بالنصر والظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد نعلمُ أنَّكَ يضيقُ صدرُك بما يقولون * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وكُن مِّنَ الساجدين﴾ .

وقال : « يضيق صدرك » ولم يقل يضيق قلبك ، لأنه كان فى محل الشهود ، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله ، ولا تـكون مع اللقاء وحشة .

ويقال هَوَّنَ عليه ضيق الصدر بقوله : « ولقد نعلم » ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمِّكَ فارتفع*[1] بلسانك فى رياض تسبيحنا ، والثناء علينا ، فيـكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ، وسلوة لك بما تتذكر من جـلال قدرنا وتقديسنا ، واستحقاق عِزِّنا .

قوله جل ذكره : ﴿واعبد ربَّك حتى يأتِيَكَ اليقينُ﴾

قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة ، إلى أنْ تَجلس على بِساط القربة ، وتطالَبَ بآداب الوصلة .

ويقال الْتزِمْ شرائطَ العبودية إلى أنْ تَرْقَى بل تُـكْفَى بصفات الحرية .

ويقال فى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »[2] : إن أشرف خصالك قيامك بحقِّ العبودية .

---

(1) وردت هـكذا ونرجح أنها فى الأصل (فارتع) فهى أكثر ملاءمة للمعنى . جاء فى رسالة القشيرى ص ١١١ (وفى الخبر المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ، فقيل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : مجالس الذكر .

(2) عن العلاقة بين العبودية واليقين ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله : « العبادة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين » الرسالة ص ٩٩ .

السورة التى يذكر فيها النحل

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ألف الوصل فى « بسم الله » لم يكن لها فى التحقيق أصل ، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالساكن ، وإذ وقع ذلك أنفا عنها أُسقِطَتْ فى الإدراج ، ولكن كان لها بقاء فى الخط وإنْ لم يكن لها ظهور فى اللفظ ، فلمَّا صارت إلى « بسم الله » أسقطت من الخط كذلك .. وكذلك من ازداد صحبةً استأخر[1] رتبةً .

ويقال أى استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت فى الخط ؟ وأى استحقاق إلى الألف فى قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأىُّ موجبٍ لحذف الألف من السموات ؟

طاحت العِلَلُ فى الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة فى أرباب الردِّ والقبول ، قال تعالى « إن ربَّك فعَّال لما يريد »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوه سُبْحانَه وتعالى عمَّا يُشْرِكون ﴾ .

صيغة أتى للماضى ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى « سيأتى » أمر القيامة ، والكائناتُ كلُّها والحادثات بأمْرِها من جملة أمره ؛ أى حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره ، وقضائه وتدبيره ؛ فما يحصل من خير وشرٍّ ، ونفع وضُرٍّ ، وحلو ومُرٍّ .. فذلك من جملة أمره تعالى .

« فلا تستعجلوه » وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خامدون تحت جريان تصريف الأقدار ؛ فليس لهم إيثار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أمَّلوا شيئاً ، أو أُخْبِروا بحصول شىء فلا استعجالَ لهم ، بل شأنهم

(١) إن صح نقل هذه الكلمة عن الأصل فربما يقصد القشيرى منها استخفى عن الظهور ، وازداد ذبولا ، وبعداً عن التظاهر والدعوى .

(٢) آية ١٠٧ سورة هود .

التأنّى والثباتُ والسكونُ . وإذا بَدَا من التقدير حُكمٌ فلا استعجالَ لهم لما يَرِدُ عليهم ، بل يتقبلون مفاجأةَ التقدير بوجهٍ ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردِّ والقبول ، والمنع والفتوح بوصف الرضاء ، ويحمدون الحق — سبحانه وتعالى — على ذلك .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » : تعالى عما يشركون بربهم ، والكفار لم ييسر لهم حتى أنّه لا سكَنَ لقلوبهم من حديثه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ على مَن يشاء مِنْ عبادِهِ أَنْ أَنذِروا أنه لا إلٰه إلاَّ أنا فاتقونِ ﴾ .

ينزل الملائكة على الأنبياء — عليهم السلام — بالوحى والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثُون . وإنزالُ الملائكةِ على قلوبهم غيرُ مردودٍ لكنهم لا يُؤمَرُون أن يتكلموا بذلك ، ولايحْمِلون رسالةً إلى الخَلْق .

ويُراد بالروح الوحى والقرآن ، وفى الجملة الروح ما هو سبب الحياة ؛ إمَّا حياة القلب أو حياة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ تعالى عمَّا يُشْرِكون ﴾

خَلَقَها بالحق ، ويَحكمُ فيها بالحق ، فهو مُحِقٌّ فى خَلْقِها لأنَّ له ذلك ، ويدخل فى ذلك أمرُه بتكليف الخَلْق ، وما يَعْقُبُ ذلك التكليفَ من الحشرِ والنَّشْرِ ، والثواب والعقاب .

« تعالى عما يشركون » : تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه مليك .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ .

تَعرَّفَ إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب ، والتأليف اللطيف ؛ من نطفةٍ متماثلة الأجزاء ، متشاكلة فى وقت الإنشاء ، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والخروج من الخفاء . ثم ما رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل ،

ويُسِّرَ له النطقَ والفعل ، والتدبير فى الأمور ، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير .

قوله جل ذكره : ﴿ والأنعام خَلَقَها لكم فيها دِفْءٌ ومنافِعُ ومنها تأكلون ﴾ .

ذكَّرهم بما تفضَّل عليهم ، وأخبرهم بما للحيوانات من النِّعم ، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع فى جميع الأحوال ، كالحمْلِ وكالسفر عليها وقطع للمسافات ، والتوصُّل على ظهورها إلى مآربهم ، وما لِنَسْلِها ولدرِّها من المنافع .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم فيها جمالٌ حين تُرِيحون وحين تَسْرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنْفُسِ إنَّ رَبَّكم لرءوفٌ رحيم ﴾ .

الغنيُّ له جمال بماله ، والفقير له استقلال بحاله . . وشتَّان ماهما ! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون ، والفقراء يستقلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون . أولئك تَحمل أثقالَهم جِمالُهم ، وهؤلاء يحمل الحقُّ عن قلوبهم أثقالَهم .

« لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » : قومٌ أحوالهم مقاساة الشدائد ؛ يَصِلُون سيرهم بسُراهم ، وقومٌ فى حمل مولاهم ؛ بعيدون عن كَدِّ التدبير ، مستريحون بشهود التقدير ، راضون باختيار الحقِّ فى العسير واليسير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والخيلَ والبِغَالَ والحميرَ لِتَرْكَبُوها وزينةً ويَخْلُقُ مالا تعلمون ﴾ .

فالنفوس فى حَمْلها كالدواب ، والقلوب معتقة عن التعنِّى فى الأسباب . « ويخلق ما لا تعلمون » : كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون فى الآخرة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطرَ على قلب بَشَرٍ فكذلك أرباب الحقائق يجدون — اليومَ — مالم يخطر قطُّ على بال ، ولا قرأوا فى كتاب ، ولا تلقنوه من أستاذ ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه

(١) يطلق القشيرى على الأول اصطلاح (متحمل) وعلى الثانى (محمول) .

لا يعلم تفصيله[1] سواه . . وكيف يعلم من أخبر الحقُّ — سبحانه — أنه لا يعلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ ومنها جائرٌ
ولو شاء لَهَدَاكُمْ أجمعين ﴾ .

قومٌ هداهم السبيل ، وعَرَّفَهم الدليل ، فصرفَ عن قلوبهم خواطر الشكِّ ، وعَصَمَهم عن الجحْدِ والشِّرْك ، وأطْلَعَ فى قلوبهم شمسَ العرفان ، وأفردهم بنور البيان . وآخرون أضلّهم وأغواهم ، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم ، وفى سابق حُكْمِه من غير سببٍ أذَلَّهم وقمعهم[2] ، ولو شاء لعرَّفهم وهداهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً
لكم منه شرابٌ ومنه شَجَرٌ فيه
تُسِيمُون * يُنْبِتُ لكم به الزرعَ
والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ
ومن كُلِّ الثمراتِ إنَّ فى ذلك لآيةً
لقومٍ يتفكَّرون ﴾ .

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات ، وأجرى العادة بأن يديمَ به الحياة ، وينبت به الأشجار ، ويخرج الثمار ، ويجرى الأنهار .

ثم قال : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ثم قال بعده بآيات : « لقوم يعقلون » ، ثم قال بعده : « لقوم يذكرون » . وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة[3] . فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن فى نظره خَلَلٌ وجب له العلم لا محالة ، ولا فرق بين العلم والعقل فى الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

ويقال إنما قال : « آيات لقوم يعقلون » : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير

---

(1) وردت (تفضله) وهى خطأ من الناسخ .

(2) (قمعهم) = قهرهم وذلهم . على أننا لا نستبعد — حسبما نعرف من كلف القشيرى بالحرص على الموسيقى اللفظية — أنها ربما كانت (أقمأهم) أى صغرهم وأذلهم (انظر آية ٤ سورة القصص المجلد الثالث) .

(3) هذه نقطة هامة إذا أردنا أن ندرس مذهب المعرفة عند الصوفية عموماً ، والقشيرى بخاصة

عارفاً ، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل ، فالعالِم حتى يكون عارفاً بربِّه آياتٌ ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ؛ فبدليل واحد يعلم وَجْهَ النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وسَخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ ﴾

الليل والنهار ظرفا الفعل ، والناس فى الأفعال مختلفون : فموفَّقٌ ومخذول ؛ فالموفَّق يجرى وقته فى طاعة ربه ، والمخذول يجرى وقته فى متابعة هواه .

العابد يكون فى فَرْضٍ يقيمه أو نَفْلٍ يديمه ، والعارف فى ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه ، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَطَفُون عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدرى أطال لَيْـلِىَ أم لا ... كيف يدرى بذاك مَنْ يَتَقَلَّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالة لَيْـلِى ... ورعيت النجومَ كنت مُخِلَّا

قوله جل ذكره : ﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمره إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون ﴾ .

هذا فى الظاهر ، وفى الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ذَرَأَ لَكُمْ فى الأرض مُختلِفاً ألوانُه إنَّ فى ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون ﴾

أقوامٌ خَلَقَ لهم فى الأرض الرياضَ والغياض[1]، والدور والقصور ، والمساكن والمواطن ، وفنون النِّعم وصنوف القِسَم . . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا لهم فى الأرض شِبْر ؛ لا ديارَ تملكهم ، ولا علاقة تُمْسِكُهُم — أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق .

---

(١) الغياض جمع غيضة وهى الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى سَخَّرَ البحرَ لتأكلوا منه لحمًا طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا منه حِلْيَةً تلبسونها وترى الفُلْكَ مواخِرَ فيه ولتبتغوا مِن فضلِه ولعلكم تشكرون ﴾

سخر البحر فى الظاهر ، وسهَّل ركوبه فى الفُلْك ، ويَسَّر الانتفاع بما يستخرج منه من الحُلِيِّ كاللؤلؤ والدُّرِّ ، وما يُقْتَاتُ به من السمك وحيوان البحر .

ومن وجوه المعانى خلق صنوفا من البحر ، فقومٌ غَرْقَى فى بحار الشغل وآخرون فى بحار الحزن ، وآخرون فى بحار اللهو . . فالسلامةُ من بحر الشغل فى ركوب سفينة التوكل ، والنجاة من بحر الحزن فى ركوب سفينة الرضا ، والسلامة من بحر اللهو فى ركوب سفينة الذكر ، وأنشد بعضهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وألقى فى الأرض رواسِىَ أن تميدَ بكم وأنهارًا وسُبُلاً لعلكم تهتدون ﴾ .

الرواسى فى الظاهر الجبال ، وفى الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلْق ، بهم يرحمهم ، وبهم يغيثهم . . ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب . وفى الخبر : « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته » وقال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »[2] ، كما قال تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم »[3] ، وأنشد بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن

قوله جل ذكره : ﴿ وعَلامَاتٍ وبالنَّجمِ هم يَهْتَدُون ﴾ .

الكواكبُ نجومَ السماء ومنها رجومٌ للشياطين ، والأولياء نجومٌ فى الأرضِ . وكذلك العلماء وهم أئمة فى التوحيد وهم رجومٌ للكُفَّار والملحدين .

(١) سقط الشاهد الشعرى من الناسخ . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .
(٣) آية ٢٥ سورة الفتح .

ويقال فرقٌ بين نجوم يهتدَى بها فى فجاج الدنيا ، ونجومٍ يُهتدَى بهم إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ أفمن يخلُق كمَن لّا يخلُقُ أفلا تذكّرون ﴾ .

تدل هذه الآية على نفى التشبيه بينه — سبحانه — وبين خَلْقِه . وصفاتُ القِدَم لله مُستَحَقَّة ، وما هو من خصائص الحدثان وسِمَاتِ الخلْق يتقدَّس الحقُّ — سبحانه — عن جميع ذلك . ولا تُشَبَّه ذاتُ القديمِ بذواتِ المخلوقين ، ولا صفاتُه بصفاتِهم ، ولا حُكْمُه بحُكْمِهم ، وأصلُ كلِّ ضلالةِ التشبيهُ ، ومِنْ قُبْحِ ذلك وفسادِه أنَّ كلَّ أحدٍ يتبرأُ منه ويستنكِفُ من انتحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تعدُّوا نعمَةَ اللهِ لا تُحصُوها إنَّ اللهَ لَغفورٌ رحيم ﴾ .

الموجوداتُ لا تحصوها لِتقاصُرِ علومِكم عنها ، وما هو من نِعمَ الدفع(1) فلا نهاية له . وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمعرفتكم (. . . .)(2) لكم من شكره .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ يعلم ماتُسِرُّون وما تُعلِنُون ﴾ .

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . . فلا يخفى عليه حسبان ، وما تعلنون من الوفاق والشقاق ، والإحسان والعصيان . والآيةُ توجِبُ تخويفَ أربابِ الزَّلَّات، وتشريفَ أصحابِ الطاعات .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَدْعُونَ من دونِ اللهِ لا يَخلُقُون شيئاً وهم يُخلَقُون ﴾ .

أخبر أن الأصنامَ لا يَصِحُّ منها الخلْقُ لكونها مخلوقةً ، ودلَّت الآيةُ على أنَّ من وُجِدَتْ له سِمَةُ الخلْق لا يصح منه الخلْق ، والخلْقُ هو الإيجاد ، ففى الآية دليلٌ على خلْقِ الأعمال .

---

(1) من قصور الانسان أنه لا يشعر إلا بنعم المنح ، ولكن نعم الدفع التى لا تتناهى لا يكاد الانسان يشعر بها ألبتة وبالتالى لا يشكر عليها . . وما أكثرها !

(2) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ أمواتٌ غيرُ أحياء وما يَشعُرُون أيّانَ يُبعثون ﴾ .

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التكوين لايصحُّ منه الإيجاد . وفى التحقيق كُلُّ مَنْ عَلقَ قلبَه بشىء ، وتَوَهَّم منه خيراً أو شراً فقد أشرك بالله بظنِّه ، وإنما التوحيدُ تجريدُ القلبِ عن حسبان شظيّةٍ من النفى والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَهُكم إلهٌ واحِدٌ فالذين لايؤمِنون بالآخرةِ قلوبُهم مُنكِرَةٌ وهم مُستَكبِرُون ﴾ .

لا قَسِيمَ لِذَاتِه جوازاً أو وجوباً ، ولا شبيهَ له ولا شريك . . ومَنْ لم يتحقَّقْ بهذه الجملة قطعاً ، وبشهادة البراهين له تفصيلا فهو فى دَرَكاتِ الشِّركِ واقعٌ ،وعن حقائق التوحيد بمعزل ، قال تعالى فى صفة الكفار : « قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » أى فى أَسْرِ الشِّرْكِ وغطاء الكفر ، ثم ليس فيه اتصاف لطلب العرفان ؛ لأنَّ العلةَ — لِمَنْ أراد المعرفة — مُتاحة ، وأدلة الخلْق لائحة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جَرَمَ أنَّ الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون ﴾ .

فيفضحهم ويبيِّنُ نفاقَهم ، ويُعلِنُ للمؤمنين كفرهم وشِقاقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه لايحب المستكبرين ﴾ .

دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين ، ويكفيهم فضلاً بشارة الحق لهم بمحبته لهم .

قوله جَلَّ ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطير الأولين ﴾ .

لِحَقَهم شؤمُ تكذيبهم ، فأصرُّوا على إعراضهم عن النظر ، وقَسَتْ قلوبُهم ولم تجنح

إلى الإقرار بالحق ، فَلَبَّسُوا على من يسائلهم ، وقالوا : هذا الذى جاء به محمد من أكاذيب العجم ، فضلُّوا وأضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيحْمِلوا أوزارَهم كاملةً يومَ القيامة ومِنْ أوزارِ الذين يُضِلُّونهم بغيرِ عِلْمٍ ألا سَاءَ مايَزِرُون ﴾ .

لما سَعَوْا فى الدنيا لغير الله لم تَصْفُ أعمالُهم ، وفى الآخرة حَمَلُوا معهم أوزارهم . أولئك الذين خَسِروا فى الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : ﴿ قد مَكَرَ الذين مِن قبلهم ﴾ .

اتصفوا بالمكر فحاق بهم مَكْرُهم ، ووقعوا فيما حفروه لغيرهم ، واغتروا بطول الإمهال ، فأخذهم العذابُ من مأمنِهم ، واشتغلوا بِلهوِهم فَنَغَّصَ عليهم أطيب عَيْشِهم :

﴿ فأتى اللهُ بُنْيانَهم مِنَ القواعدِ فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ مِن فوقِهم وأتاهم العذابُ مِن حيث لا يشعرون ﴾ .

الذى وصف نفسه به فى كتابه من الإتيان فمعناه العقوبة ، وذلك على عادة العرب فى التوسع فى الخطاب .

وهو سبحانه يكشف الليلَ بَبدْرِه ثم يأخذ الماكر بما يليق بمَكْرِه ، وفى معناه قالوا :

وأمِنْتُه فأتاحَ لى من مأمنى مكرًا ، كذا مَنْ يأمَنُ الأياما

قوله جل ذكره : ﴿ ثم يومَ القيامة يُخْزِيهم ويقولُ أين شركائِىَ الذين كُنْتُم تُشاقون فيهم ، قال الذين أُوتوا العِلْمَ إنَّ الخِزْىَ اليومَ والسوء على الكافرين ﴾ .

فى الدنيا عاجلُ بلائهم ، وبين أيديهم آجِلُه . وحَسْرةُ[1] المُفلِس تتضاعف إذا ماحُوسِبَ ، وشاهَدَ حاصِلَه .

« قال الذين أوتو العلم .. » : يُشْمِتُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبيِّن الكافة صِدْقهم. ويقع الندمُ على جاهلهم[2] . وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمُّل ، وعن قريب ينكشف الغطاء ، وأنشد بعضهم :

خليليَّ لو دارت على رأسِىَ الرَّحى من الذُّلِّ لم أجْزَعْ ولم أتكَلَّمِ
وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا ولـكننى أفصحتُ يومَ التكلُّمِ

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهم فألقَوُا السَّلَمَ ماكنَّا نَعْمَلُ مِن سوءٍ بلى إنَّ الله عليمٌ بما كنتم تعملون * فادخلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدين فيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكبِّرين ﴾ .

« ظالمى أنفسهم » : بارتكاب المعاصى وهم الكفار .

« فألقوا السلم » : انقادوا واستسلموا لحكم الله .

« ما كنا نعمل من سوء » : جحدوا وأنكروا ماعملوا من المخالفات .

« بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » : هكذا قالت لهم الملائكة ، ثم يقولون لهم : « ادخلوا أبواب . . » : وكذلك الذين تقسو نفوسُهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزَلَتْ بهم الوفاةُ يأخذون فى الجزع وفى التضرع ، ثم لاتطيبُ نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس ، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أخَلُّوا من معاملاتهم ، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير ، والنقير والقطمير ، ثم يبقون أبداً فى وبال ما احتقبوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم فى أخراهم .

(١) وردت (مسرة) بالميم (وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٢) وردت (جاهدم) بالدال . وربما كانت فى الأصل (جاحدم) ، فالجهل والجحد من صفات الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربُّكُم قالوا خيراً ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةٌ ولَدارُ الآخرةِ خير ولنِعْم دارُ المتقين ﴾ .

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم ، وسألوهم عن أحوال محمد — صلى الله عليه وسلم ، وعما أنزل اللهُ عليه ، قالوا : دينه حقٌّ ، واللهُ أنزل عليه الحقَّ .. والذين أحسنوا فى الدنيا يجدُون الخير فى الآخرة .

ويقال فى هذه الدنيا حسنة ، وهى ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكونَ تلك الحسنةُ زيادةَ التوفيق لهم فى الأعمال ، وزيادةَ التوفيقِ لهم فى الأحوالِ .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أنْ يُوَفِّقَهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يبلِّغَهم منازلَ الأكابر والسادةِ ،

قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا »[1]

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدَّى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين ، وما يجرى على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : لأن يهتدى بهداك رجل خير لك من حمر النعم »[2] .

ثم قال : « ولدار الآخرة خير » ، لأن ما فيها يبقى ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن فى الدنيا مشاهدة وفى الآخرة معاينة[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ جناتُ عدْنٍ يدْخلُونها تجرِى مِن

(١) آية ٢٤ سورة السجدة .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) نفهم من هذا أن المعاينة أعلى درجة من المشاهدة ، ونفهم كذلك أن المشاهدة — وهى تتم فى هذه الدنيا — هى أقصى درجات المعراج الروحى عند أصحاب وحدة الشهود ، وكل قول بما يزيد عن ذلك خروج عن أصول هذا المذهب ، وقد نعى كثير من الباحثين على الغلاة والأدعياء والمضللين ، فى هذا الخصوص .

﴿ تحتها الأنهارُ لهم فيها ما يشاءون
كذلك يجزى اللهُ المتقين ﴾

كما أن الإرادات والهممَ تختلف فى الدنيا فكذلك فى الآخرة ، وفى الخبر : « مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ الله بها » فمِنْ مريدٍ يكتفى من الجنة بورودها ، ومن مريدٍ لا يكتفى من الجنة دون شهود ربِّ الجنة .

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم ، وما وجدوا فى ذلك من صحبة اللَّعينِ[1] فى سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك ، ومن شاء أن تدومَ رؤيتُه ، ويتأبَّدَ سماعُ خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم يخطر ببال أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفَّاهم الملائكةُ طيِّبين
يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنَّةَ
بما كنتم تعملون ﴾ .

يقبض أرواحهم طيبةً . أو يقال « طيبين » حال .

والأسباب التى تطيب بها قلوبُهم وأرواحُهم مختلفة ، فمنهم مَنْ طاب وقتُه لأنه قد غُفِرتْ ذنوبُه ، وسُتِرتْ عيوبه ، ومنهم مَنْ طاب قلبُه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبُه ، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه .

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه ، ويصل إلى حُسْنِ مآبه .

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أمِنَ من زوال حالِه ، وحظى بسلامة مآله[2] ، ومنهم من يطيب قلبُه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله — قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم .

ويقال « تتوفاهم الملائكة » طيبةً نفوسهم أى طاهرةً من التدنُّس بالمخالفات ، وطاهرةً قلوبُهم عن العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شىء من المخلوقات .

---

(١) اللعين مقصود به إبليس .
(٢) وردت (ماله) والملائم هنا أن تكون (مآله) .

قوله تعالى: «سلام عليكم» إحظَوْا بالجنة، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكَ، ومنهم مَنْ يُكَاشِفه بذلك المَلِكُ.

قوله جل ذكره: ﴿هل ينظرون إلاّ أن تأتيَهم الملائكةُ
أو يأتِيَ أمْرُ ربِّكَ كذلك فعَلَ
الذين مِن قبلهم وما ظَلَمَهمُ اللهُ
ولكِن كانوا أنفسَهم يَظْلِمون *
فأصابهم سَيِّئَاتُ ما عَمِلوا وحاقَ
بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئُون﴾

القوم ينتظرون مجيء المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونَه. ولكن لمّا كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسلَ غيرُ صادقين، ولمّا سلكوا[1] مسلكَ أضرابهم من المتقدمين — عومِلوا بمثل مالَقِيَ أسلافُهم، وما كان ذلك من الله ظلماً، لأنه يتصرف فى مُلْكه من غير حُكْمِ حاكمٍ عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وقال الذين أشركوا لوشاء اللهُ
ما عَبَدْنا مِن دُونه مِن شيءٍ نحن
ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن دونِه مِن
شيءٍ كذلك فعل الذين من قَبْلِهم فهل
على الرُّسُلِ إلاَّ البلاغُ المبينُ﴾

خَبُثَتْ قصودُهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم، وانكشف عدمُ صِدْقِهم فى أحوالهم.

وقولهم: «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء..» يشبه قولهم: «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه»[2]. ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك.

---

(١) وردت (سكنوا) وهى خطأ من الناسخ.

(٢) آية ٤٧ سورة يس.

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمةٍ رسولاً
أن اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت
فنهم مَنْ هدى اللهُ ومنهم من حقّت
عليه الضلالةُ فسيروا فى الأرضِ
فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾

لم يُخْلِ زماناً من الشرع توضيحاً لحجته ، ولكن فرّقهم فى سابقِ حُكْمِه ؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهم (1) وأعماهم (2) .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تحرِصْ على هُدَاهم فإن اللهَ
لا يَهْدِى من يُضِلُّ وما لَهُم من
ناصرين ﴾

ألزمهم الوقوفَ على حدِّ العبودية فى إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال : إنك وإنْ كنتَ بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم ، فإن من قَسَمْتُ له الضلالَ لا يجرى عليه غيرُ ما قَسَمْتُ له .

ويقال من ألبستُه صدارَ الضلال لا تنزعه وسيلةٌ ولا شفاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقسموا باللهِ جهْدَ أيمانِهم لا يبعثُ
اللهُ مَن يموت بلى وعداً عليه حقاً
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾ .

القَسَمُ يؤكّد الخبرَ ، ولكنَّ يمينَ الكاذب توجب ضَعْفَ قوله ؛ لأنه كلما زاد فى جحد الله ازداد القلبُ نفرةً من قوله .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبيِّنَ لهم الذى يختلفون فيه وليعْلَمَ
الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين ﴾ .

---

(1) وردت (حجبتهم) وهى خطأ فى النسخ إذ ربما كانت النقطتان فوق الباء متصلة فى الأصل وتوهم الناسخ أنها نقطتان .

(2) وردت (وأعمالهم) والمعنى والسياق يرفضانها ويتقبلان (وأعماهم) .

إذا بيَّن الله صِدْقَ ما ورد به الشرع فى الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاحُ أهل التكذيب فيكون فى ذلك زيادةٌ لهم فى التعذيب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما قولُنا لِشَىءٍ إذا أردناه أن نقولَ له كُن فيكونُ ﴾ .

فيكون بالسمع عِلْمُ تَعَلُّقِ قَوْلِهِ بما يفعله . وحَمَلَه قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسَّرُ عليه فعلُ شىءٍ أراده ، فالآية على القولين جميعاً .

والذى لا يحتاج فى فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدةٍ يقع الفعل فيها .

وتدل الآيةُ على أنَّ قولَه ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولا له : كن ، وذلك القول يجب أن يكون مقولا له بقولٍ آخر . . . وهذا يؤدى إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى ما لا نهاية له[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هاجروا فى الله مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهم فى الدنيا حَسَنَةً ولَأَجرُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون ﴾ .

مَنْ هَاجَرَ عن أوطان السوء — فى الله — أبدل له اللهُ فى جوار أوليائه ما يكون له فى جوارهم معونةٌ على الزيادة فى صفاء وقته . ومَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة . ومَنْ فَارَقَ مجالسة المخلوقين ، وانقطع بقلبه إليه — سبحانه — باستدامة ذكره — فكما فى الخبر : « أنا جليس من ذكرنى » . وبدايةُ هؤلاء القوم نهايةُ أهل الجنة ؛ ففى الخبر « الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة » . ويقال القلبُ مظلومٌ من جهة النَّفْس لما تدعوه إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث اللهُ القلبَ أوطانَ النَّفْس حتى تنقادَ لما يطالِبُ به القلبُ

(١) كلام الله ليس بمخلوق — هذا أصل هام من أصول المذهب الأشعرى الذى يُعَدّ القشيرى من أعظم أنصاره . وقد ناقش هذه القضية بإسهاب فى كتابه القيم : « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » . وانظر أيضاً كتابنا (الإمام القشيرى : تصوفه وأدبه — فصل : القشيرى متكلماً) :

من الطاعة ، فبعد ما تكون أوطان الزَّلَةِ بدواعى الشهوة تصير أوطانَ الطاعةِ لسهولة أدائها .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين صَبَرُوا وعلى ربهم يَتَوكَّلُون ﴾

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقى بالله بحُسْن الرجاء .

ويقال صبروا فى الحال ، وتوكلوا على الله فى تحقيق الآمال .

ويقال الصبر تحسِّى كاساتِ المقدور ، والتوكل الثقة فى الله فى استدفاع المحذور .

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسقَى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يقوَوْن على الصبر بما حققوا من التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلكَ إلا رِجالاً
نُوحِى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر
إن كُنتُم لا تَعلمُون ﴾ .

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسلاً ، فأخبر أنَّ الرسلَ كلهم كانوا من البشر ، وأنَّ فيمن سبق مَنْ أَقرَّ بذلك . « وأهل الذكر » هم العلماء ، والعلماء مختلفون : فالعلماء بالأحكام إليهم الرجوعُ فى الاستفتاء من قِبَل العوام فَمَنْ أُشكِل عليه شىء من أحكام الأمر والنهى يرجع إلى الفقهاء فى أحكام الله ، ومن اشتبه عليه شىء من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله ، فالفقيه يوقِّع عن الله ، والعارف ينطق — فى آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها — عن الله ، فهو كما قيل : (أليس حقاً نطقت بين الورى فاشتهرت ، كاشفها يعلم ما منَّ عليها فجرت ، فهى عناه به عينيه قد طهرت)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ بالبيناتِ والزُّبُرِ وأنزلنا إليك
الذكرَ لتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّل إليهم
ولَعَلَّهُم يتفكرون ﴾

أى إن البيانَ إليك ، فأنت الواسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحينا .

(١) ما بين القوسين نقلناه كما هو من النص ، وربما كان شاهداً شعريا مضطرب الكتابة .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ الذين مكروا السيئاتِ أن يَخْسِفَ اللهُ بهم الأرضَ أو يأتيَهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون * أو يأخذَهم في تقلّبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذَهم على تَخَوُّفٍ فإنَّ ربَّكم لَرَءُوفٌ رحيمٌ﴾.

العبدُ في جميع أحواله عُرْضَةٌ لِسِهام التقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كلِّ نَفَسٍ من الإصابة بها، وألاَّ يأمنَ مَكْرَ الله في أي وقت، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأةِ نفوسُهم وقلوبُهم على ما عَوَّدَهم الحق من عوائد المِنَّة، ولكن كما قيل:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلِه ... إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحاراً[1]

قوله جل ذكره: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِن شيءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُه عَنِ اليمين والشمائِلِ سُجَّدًا للهِ وهم داخِرون﴾

كل مخلوقٍ من عين أو أثر، مِنْ حَجَرٍ أو مَدَرٍ أو غَبَرٍ فلله — من حيث البرهان — ساجد، ومن حيث البيان على الوحدانية شاهد.

قوله جل ذكره. ﴿ولله يَسْجد ما في السمواتِ وما في الأرضِ من دابَّةٍ والملائكةُ وهم لا يستكبرون﴾.

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتَنَعَتْ عن إقامة الشهادة لقوم قالةٌ، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جل ذكره: ﴿يخافون ربَّهم من فوقهم ويفعلون ما يُؤْمَرُون﴾.

يخافون الله أن يُنزلَ عليهم عذاباً من فوق رءوسهم.

---

(١) كان عبد الحميد المكفوف كثيراً ما يتمثل بهذا البيت في قصصه (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨).

« ويفعلون ما يؤمرون » لا يعصونه ولا يحيدون عن طاعته .

ويقال خيرُ شيء للعبد فى الدنيا والآخرة الخوفُ ؛ إذ يمنعه من الزَّلة ويحمله على الطاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال اللهُ لا تتَّخذوا إلهين اثنين إنَّما هو إلهٌ واحدٌ فإيَّاى فارهبونِ. وله ما فى السمٰوات والأرضِ ﴾

الحاجة إلى إثبات صانعٍ واحد داعية ، وما زاد على الواحد (فالا . . .)[1] فيه متساوية .

ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ وله الدِّينُ واصِباً أفغيرَ اللهِ تتَّقُون ﴾

له الدين خالصاً وله الدين دائماً، وله الدينُ ثابتاً ، فالطاعة له واجبة . فلا تتقوا غيره ، وأطيعوا شَرْعَهَ بخلاف هواكم ، واعبدوه وَحْدَه ، واستجيبوا له فى المَسَرَّةِ والمَضَرَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما بِكُم من نعمةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾

النِّعمة ما يُقَرِّبُ العبدَ من الحق ، فأمَّا ما لا يوجب النسيانَ والطغيان ، والغفلةَ والعصيانَ فأَوْلَى أن يكون محبة .

ويقال ما للعبد فيه نفع ، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً ، ، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان ، « وقليلٌ من عبادى الشكور »[2] على كل حال .

وفائدةُ الآيةِ قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيار فى حالتى اليُسْر والعُسْر ، والثقة بأن الخير والشر والنفع والضر كلاهما من الله تعالى .

قوله جل ذكره ﴿ ثُمَّ إذا مَسَّكم الضُرُّ فإليه تجأرون ﴾

إذ ليس لكم سواه ؛ فإذا أظلَّت العبدَ هواجمُ الاضطرارِ التجأ إلى الله فى استدفاع

(١) بقية الكلمة مشتبهة .
(٢) آية ١٣ سورة سبأ .

ما مَسَّه من البلاء ثم إذا مَنَّ الحقُّ عليه ، وجاد عليه بكشف بلائه صار كَأَنْ لم يمسه سوء أو أصابه همٌّ كما قيل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَموَّلا[1]

وقال :

﴿ ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عنكم
إذا فريقٌ منكم بربِّهم يُشْرِكون ﴾

الخطاب عام ، وقوله « منكم » : لأنَّ القومَ منهم

﴿ لِيَكْفُروا بما آتيناهم فَتَمَتَّعوا
فسوف تعلمون ﴾

في هذا تهديد أي أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامةٌ ، ويعتذرون حين لا يُقْبَلُ لهم عُذْرٌ . . ومَنْ زَرَعَ شراً فلن يَحْصُدَ إلا جزاء عَمَلِه .

قوله جل ذكره ﴿ ويجعلون لِمَا لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم
تالله لَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تَفْتَرون ﴾

أي يجعلون لما لا يعلمون — وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم — نصيباً من أرزاقهم ؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا .

« تالله » أقسم إنهم سيلْقَوْن عقوبةَ فِعْلِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويجعلون لله البناتِ سبحانه ولهم
ما يشتهون ﴾

من فَرْطِ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد ، ثم زاد اللهُ في خذلانهم حتى قالوا : الملائكة بنات الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم . ويلتحق بهؤلاء في استحقاق

---

(1) تمول أي نما المال له .

الذمُّ كلُّ مَنْ آثر حظَّ نَفْسِهِ على حقِّ مولاه، فإذا فعل مَالَهُ فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذموم الوصف، ملوماً على ما اختاره من الفعل.

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهةِ أنْ تُولَدَ لهم الإناثُ فقال:

﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظَلَّ
وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كظيم * يَتَوَارَى
من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمْسِكُهُ
على هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ في الترابِ
ألاَ ساءَ ما يَحْكُمون ﴾

استولت عليهم رؤية الخَلْق[1]، وملكتهم الحيرة، يَخْتَنِقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البَعْلِ فيهن.. وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة، والغيبة عن شهود الحقيقة.

ثم قال: «أيمسكه على هون» أي يحبس المولودَ إذا كان أنثى على مَذَلَّة، «أم يدسه في التراب» ليموت؟ وتلك الجفوةُ في أحوالهم جَعَلَتْ — مِن قساوة قلوبهم في أحوالهم — العقوبةَ أشدَّ مما كانت بتعجيلها لهم. وجَعَلَهُم فرطُ غيظهم، وفَقْدُ رضائهم، وشدة حنقهم على من لا ذنبَ له من أولادهم — من أهل النار في دَرَكَاتِ جهنم، وتكدَّر عليهم الوقتُ، واستولت الوحشةُ.. ونعوذ بالله من المَثَلِ السوء!

قوله جل ذكره: ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوء
ولله المثلُ الأعلى وهو العزيزُ الحكيم *
ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بظُلْمِهم
ما تَرَكَ عليها من دابةٍ ولكن

---

(١) أي تشتت رؤيتهم حين لم ينظروا إلى الخالق واستبدلوا ذلك بأن نظروا للمخلوق... وهذه صفة أهل التفرقة والغيبة — كما سيأتي بعد.

يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمًّى فإذا جاء
أجلُهم لا يستأخرون ساعةً
ولا يَسْتَقْدِمُون ﴾ .

مَثَلُ السوء للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء .

ولله صفات الجلال ونعوت العزِّ ، ومَنْ عَرَفَه بنعت الإلهية تمّتْ سعادتُه فى الدارين ، وتعجلت راحته ، وتنزَّه سِرُّه على الدوام فى رياضِ عرفانه ، وطَرِبَتْ روحُه أبداً فى هيجان وَجْدِه .

أمَّا الذين وُسِمُوا بالشِّرْك فنى عقوبة مُعَجَّلة وهموم مُحَصَّلة . « ولو يؤاخذ الله . . . . »
أى لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لَحَلَّ الاستئصالُ بهم ، ولكنَّ الحُكْمَ سَبَقَ بإمهالهم ، وسيَلْقَوْن غِبَّ أعمالِهم فى مآلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتَصِفُ
ألسنتُهم الكَذِبَ أنَّ لهم الحسنى
لاجَرَمَ أنَّ لهم النار وأنَّهم مُفْرَطون ﴾

انخدعوا لمَّا لانَ لهم العيشُ ، فظنوا أنهم ينجون ، وبما يُؤَمِّلونه يحيطون ، فحَسُنَتْ فى أعينهم قبائحُ صفاتهم ، ويومَ يُكْشَفُ الغطاء عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة ، فلا تُسْمَعُ منهم دعوة ، ولا تتعلق بأحدهم رحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ تاللهِ لقد أرسَلْنا إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ
فزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فهو وَلِيُّهم
اليومَ ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ .

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبى — صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه أخبر أن مَنْ تقدَّمَه من الأمم كانوا فى سلوك الضلالة ، والانخراط فى سِلْكِ الجهالة كما كان من قومه ، ولكن اللهَ — سبحانه — لم يعجز عنهم . وكما سَوَّلَ الشيطانُ لأمّته ، وكان ولياً لهم ، فهو ولىُّ هؤلاء وأمَّا المؤمنون فالله وليُّهم ، والكافرون لا مَوْلَى لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنزلنا عليكَ الكتابَ
إلاّ لِتُبَيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيه
وهُدَىً ورحمةً لِقَومٍ يؤمنون ﴾ .

أنت[1] الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى ؛ تُبَلِّغُ عنّا وتؤدِّى مِنّا ، فأنت رحمةٌ أرسلناك لأوليائنا . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهتدى ، ومَنْ عصاك فنى هلاكه سعى .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ أنزل من السماءِ ماءً فأحيا به
الأرضَ بعد موتها إنَّ فى ذلك لآيةً
لقومٍ يسمعون ﴾ .

أحيا بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق ، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال ، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار ، وانفردت بحقائق الاتصال .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لَكُم فى الأنعامِ لَعِبرةً نُسقيكم
مما فى بُطُونِه من بين فَرْثٍ ودَمٍ
لَبَنًا خالِصًا سائغًا للشاربين ﴾ .

سَخَّرَها لكم ، وهيأها للانتفاع بلحمها وشحمها ، وجِلْدِها وشَعْرِها ودَرِّها ، وأصلها ونَسْلِها . ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن ــ مع صفائه وطعمه ونَفْعِه ــ من بين الروث[2] والدم ، وذلك تقدير العزيز العليم . والذى يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الزَّلَّةِ من وجوهها المختلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِن ثمراتِ النخيل والأعنابِ
تتخذون منه سَكَرًا ورِزْقًا حَسَنًا
إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون ﴾

---

(١) وردت (آية) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) الفرث والروث بقايا الطعام .

مَنَّ على العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس .. وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب ، ويقال هو الذى لا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيه ولا تَبِعَةَ عليه .

ويقال هو ما لا يعصى اللهَ مكتسبُه فى حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا يَنْسَى اللهَ فيه مُكْتَسِبُه .

قوله جل ذكره : ﴿وأوحىٰ ربُّكَ إلى النَّحلِ أنِ اتخذِى
مِنَ الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشَّجَرِ
ومما يَعْرِشُون * ثم كُلِى من كلِّ
الثمراتِ فاسلُكى سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً
يخرج من بطونها شرابٌ مختلِفٌ
ألوانُه فيه شفاء للناسِ إنَّ فى ذلك
لآيةً لقومٍ يَتَفَكَّرون﴾

أوحى إلى النحل : أراد به وحى إلهام .. ولما حَفِظَ الأمرَ وأكل حلالاً ، طَابَ مأكلُه وجعل ما يخرج منه شفاء للناس .

ثم إن الله — سبحانه — عَرَّفَ الخَلْقَ أنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق ؛ إذ أن النحلَ ليس له خصوصية فى القامة أو الصورة أو الزينة ، ومع ذلك جعل منه العَسَلَ الذى هو شفاء للناس .

والإنسان مع كمال صورته ، وتمام عقله وفطنته ، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى .. فأىُّ فضيلةٍ للنحل ؟ وأىُّ ذنبٍ للإنسان ؟ ليس ذلك إلا اختياره — سبحانه .

ويقال إن الله — سبحانه — أجرى سُنَّتَه أنْ يُخْفِيَ كلَّ شيء عزيز فى شيء حقير ؛

فجعل الإِبْرَيْسَم[1] فى الدود وهو أضعف الحيوانات ، وجعل العسل فى النحل وهو أضعف الطيور ، وجعل الدُّرَّ فى الصدف وهو أوحش[2] حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج فى الحجر .... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له فى قلوب المؤمنين وفيهم من يعصى وفيهم من يخطىء[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ ثم يَتَوَفَّاكم ومنكم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لكى لا يعلم بعد عِلْمٍ شيئاً إنَّ اللهَ عليمٌ قدير ﴾

خَلَق الإنسانَ فى أحسن تركيب ، وأملح ترتيب ، فى الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، والنور والضياء ، والفهم والذكاء . ورَزَقَه من العقل والتفكر ، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التى خُصَّ بها من الرأى والتدبير ، ثم فى آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً ، ويرى فى كل يومٍ ألماً جديداً .

ويقال « منكم من يرد إلى أرذل العمر » : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون فى أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير فى آخر عمره عاصياً .

ويقال أرذل العمر أن يرغب فى عنفوان شبابه فى الإرادة ، ويسلك طريق الله مدةً ، ثم تقع له فترةٌ ، فينفسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند القوم هذه رِدَّةٌ فى هذا الطريق .

ويقال أرذلُ العمر رغبةُ الشيخ فى طلبٍ .

ويقال أرذلُ العمر حُبُّ المرء للرياسة .

---

(1) الإبريسم = أحسن الحرير (معرب) (الوسيط ح ١ ص ٢) .

(2) هنا معناها أجوع الحيوان ، من قولهم بات وحشاً أى جائعاً لم يأ كل شيئاً فخلا جوفه (الوسيط ح ٢ ص ٩ ، ١٠) .

(3) ينسجم اتجاه القشيرى فى هذه الإشارة مع السياق القرآنى .. إذ يأتى بعد قليل : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » .. وفضل الله بلا علة .

ويقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خصومَة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ واللهُ فَضَّلَ بعضَكم على بعضٍ
في الرزقِ فما الذين فُضِّلوا بِرَادِّي
رِزْقِهم على ما مَلَكَتْ أيْمانُهم فهم
فيه سَوَاءٌ أفبنعمةِ اللهِ يجحدون ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فَمِنْ مضَيَّقٍ عليه رزقُه ، ومِنْ مُوَسَّعٍ عليه رزقه ؛ ومِنْ أرزاق هي أرزاق النفوس ، وأرزاقٍ للقلوب وأرزاق للأرواح ، وأرزاق للأسرار ؛ فأرزاقُ النفوسِ لقوم بتوفيق الطاعات ، ولآخرين بخذلان المعاصي . وأرزاق القلوب لقومٍ حضورُ القلب باستدامة الفكر ، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة . وأرزاق الأرواح لقوم صفاء المحبة ، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم ، فيكون بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم . وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحقّ ، فأمّا من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ جَعَلَ لكم من أنفسكم
أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم
بنينَ وحَفَدَةً ﴾

شَغَلَ الخَلْقَ بالخلق لأنّ الجنس أَوْلَى بالجنس . ولمّا أراد الحقُّ — سبحانه — بقاء الجنس هَيَّأَ سبب التناسب والتناسل لاستيفاء مثل الأصل . ثم مَنَّ على البعض بخَلْقِ البنين ، وابتلى قوماً بالبنات — كلٌّ بتقديره على ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَزَقَكم من الطيباتِ أفبالباطل
يؤمنون وبنعمةِ اللهِ هم يكفُرُون ﴾

والرزق الطيب لعبدٍ ما تستطيبه نَفْسُه ، ولآخر ما يستطيبه سِرُّه .

فمنهم من يستطيب مأكولاً ومشروباً ، ومنهم من يستطيب خلوةً وصفوة . . . إلى غير ذلك من الأرزاق .

« أفبالباطل يؤمنون » ، وهو حسبان حصول شيء من الأغيار ، وتعلّق القلب بهم استكفاء منهم أو استدفاعاً لمحذور أو استجلاباً لمحبوب.

« وبنعمة الله هم يكفرون » والنعمة التي كفروا بها هي الثقةُ بالله ، وانتظارُ الفَرَجِ منه ، وحسنُ التوكلِ عليه.

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون مِن دونِ اللهِ مالا يملكُ لهم رِزْقاً من السمٰوات والأرضِ شيئاً ولا يستطيعون ﴾

ومَنْ يتَعَلَّقُ بشخصٍ أو بسببٍ مُضَاهٍ[1] لعُبّاد الأصنام من حيث إنه يضيِّعُ وقتَه فيما لا يُعينُهُ ، فالرزقُ ، من الله — في التحقيق — مُقَدَّرٌ.

قوله جل ذكره ﴿ فلا تضربوا للهِ الأمثالَ إنَّ اللهَ يَعلَمُ وأنتم لا تعلمون ﴾.

كيف تُضْرَبُ الأمثالُ لمن (لا)[2] يساويه أحدٌ في الذات والصفات وأحكام الأفعال ؟

ومَنْ نَظَرَ إلى الحقِّ من حيث الخَلْقِ[3] وقع في ظلمات التشبيه ، وبقي عن معرفة المعبود.

قوله جل ذكره : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مملوكاً لا يَقْدِرُ على شيءٍ ومَن رزقناه منّا رِزْقاً حَسَناً فهو يُنفِقُ منه سِرّاً وجَهْراً هل يستَوُون ؟ الحمدُ للهِ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾.

شبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا مِلْكَ له في الشرع ، والمؤمنَ المخلصَ بمَنْ رَزَقَهُ الخيراتِ ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثوابَ وحُسْنَ المآبِ على ما أنفقه.

---

(1) في الهامش هكذا ، بينما هي في النص (مضاه) ، والصواب ما جاء في الهامش أي مماثل.

(2) سقطت (لا) والمعنى يتطلبها.

(3) أي من حيث مضاهاته بالخلق ، ومناظرته بالحدثان.

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفْسِه ، ملاحِظاً لأبناء جِنْسِه ، متمادياً فى حسبان مغاليطه كمَنْ كان مُدْرِكاً بربِّه مصْطَلَماً[1] عن شاهده ، غائبًا عن غيره ، والمُجرِى عليه ربُّه ولا حَوْل له إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رجلين أحدُهما أبكمُ لا يَقْدِرُ على شىء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوَجِّهه لا يأتِ بخيرٍ هل يستوى هو ومَن يأمر بالعدل وهو على صِراطٍ مستقيم ؟ ﴾

هذا المَثَلُ أيضاً للمؤمن والكافر ؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذى لا يجىء منه شىء ، ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حَوْلِه وقُوَّته ، ولا يعترف إلا بطوْلِه — سبحانه — ومِنَّتِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ ، وما أمرُ الساعةِ إلا كلَمْحِ البصرِ أو هو أقربُ إنَّ الله على كل شىء قدير ﴾

استأثر الحقُّ — سبحانه — بعلم الغيبيات ، وسَترهَا على الخلْق ؛ فيخرِجُ قوماً فى الضَّلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية . . فالعواقبُ مستورة ، والخواتيم مبهمة ، والخَلْقُ فى غفلة عما يُرَادُ بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ أخرَجَكُم من بطونِ أمهاتِكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ لعلكم تشكرون ﴾

---

(١) الاصطلام : نعت غلبة ترد على العقول فيستلبها بقوة سلطانه وقهره (اللمع ص ٤٥٠) .

خلقهم مِنْ غير أنْ شاورهم ، وأثبتهم — على الوصف الذى أراده — دون أن خيّرهم ، ولم يعلموا بماذا سبق حُكمُهم . . أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العَدَم أخرجهم من من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاحَ أنفُسِهِمْ عَلِمُوا ، ولا صفةَ ربِّهم عَرفوا ثُمَّ بحُكمِ الإلهام هداهم حتى قَبِلَ الصبيُّ ثدىَ أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف .

« وجعل لكم السمعَ » : لتسمعوا خطابه ، « والأبصارَ » لتُبصِروا أفعالَه ، «والأفئدة» لتَعْرِفوا حقَّه ، ثم لتَشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يَرَوْا إلى الطير مُسَخَّراتٍ فى جَوِّ السماء ما يُمْسِكُهُنَّ إلا اللهُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنُون ﴾ .

الطائرُ إذا حلَّقَ فى الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط ، وقد قامت الدلالة على أن الحقَّ — سبحانه — متفرِّدٌ بالإيجاد ، ولا يَخْرُجُ حادثٌ عن قدرته ، وفى ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ جَعَلَ لكم من بيوتِكم سَكَنًا وجعل لكم من جلودِ الأنعامِ بيوتًا تستخفونها يومَ ظَعْنِكم ويومَ إقامتِكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتَاعًا إلى حين ﴾

للنفوس وطن ، وللقلوب وطن . والناس على قسمين مستوطِنٌ ومسافر : فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم ؛ فالمريد أو الطالب مسافرٌ بقلبه لأنه يَتَنَقَّلُ ، ويرتقى من درجة إلى درجة ، والعارف مقيمٌ ومستوطِنٌ لأنه واصل متمكن والطريق منازلُ ومراحلُ ، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب ، والمريد سالِكٌ والعارف واصِلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ جَعَلَ لكم مما خَلَقَ ظِلالاً

وجعل لكم من الجبال أكناناً
وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ
وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يُتِمُّ
نعمته عليكم لعلكم تُسْلِمون ﴾

فى الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً .. كذلك جعل فى ظل عنايته لأوليائه مثوىً وقراراً .

وكما سَتَرَ ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم ـ كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به فى السراء والضراء ، ولباسَ العصمة يحميكم من مخالفته ، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته ، وكساكم بحُلَلِ الوصل مما يؤهلكم لقربته وصحبته .

قوله : « كذلك يتمُّ نعمته عليكم .. » ، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتُهم مختومة بالخير ، ويكفيهم أمورَ الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويُسَدِّدُهم حتى يؤثروا ما يوجِبُ من الله الرضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تَوَلَّوْا فإنما عليكَ البلاغُ المبين ﴾ .

إذا بَلَّغْتَ الرسالة فما جعلنا إليك[1] حكم الهداية والضلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعرِفُون نعمةَ الله ثم يُنْكِرونها وأكثرُهم الكافرون ﴾ .

يَسْتَوْفِقُونَ إلى الطاعةِ ، فإذا فعلوا أُعْجِبُوا بها[2] .

(١) وردت (إليكم) والخطاب موجه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فالصواب (إليك) .

(٢) فى هذا الصدد ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطى نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ .

فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها .

فقال : هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشيها ومجريها ؟) الرسالة ص ٣٤ .

ويقال يستغيثون، فإذا أجابهم قَصَّروا فى شُكرِه.

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنةٌ استجاروا بربهم، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التى أوجبت لهم تلك الحالة.

ويقال يعرفون فى حال توبتهم قُبْحَ ما كانوا فيه فى حال زلتهم، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿ويومَ نَبْعَثُ من كلِّ أمةٍ شهيداً
ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا ولا هم
يُسْتَعْتَبُون﴾.

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلُ عن أحوال أُمَمِهم، فمن نَطَقَ بحجةٍ أُكْرِمَ، ومَنْ لم يُدْلِ بحجةٍ لا تُراعى له حُرْمةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذابَ
فلا يُخَفَّفُ عنهم ولا هم يُنظَرُون﴾

أى يُشَدَّد عليهم الأمرُ ولا يُسَهَّل.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شُرَكاءَهم
قالوا ربَّنا هؤلاءِ شُرَكاؤُنا الذين
كُنَّا نَدْعُوا مِن دونِك فألقَوْا
إليهم القولَ إنَّكم لَكاذِبون﴾.

تمنوا أن يَنْفِصُوا من إخوانهم الذين عاشروهم، وحملوهم على الزَّلَّة، فيتبرأون من شركائهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وتضيق صدورهم من بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وألقَوْا إلى الله يومئذٍ السَّلَمَ وضلَّ
عنهم ما كانوا يَفْتَرُون﴾.

استسلموا لأمر الله وحُكْمِه، ويومئذ لا تضرُّعَ منهم يُرَى، ولا مِحْنةَ — يصرخون من ويلها — عنهم تُكْشَف

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَبْعَثُ فى كلِّ أمةٍ شهيداً
عليهم من أنفسِهم وجئنا بكَ شهيدا
على هؤلاءِ ونزّلْنا عليكَ الكتابَ
تِبياناً لكلِّ شىءٍ وهُدًى ورحمةً
وبُشْرَىٰ للمسلمين ﴾ .

تأتى — يومَ القيامة — كلُّ أمة مع رسولها ، فلا أُمةَ كهذه الأمةِ فضلاً ، ولا رسولَ كرسولنا صلى الله عليه وسلم رتبةً وقَدْراً .

« ونزلنا عليك الكتاب » أى القرآن تبيانا لكل شىء ، فيه للمؤمنين شفاء ، وهو لهم ضياء ، وعلى الكافرين بلاء ، وهو لهم سبب محنة وشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ يأمر بالعدلِ والإحسان
وإيتاء ذى القُرْبَىٰ ويَنْهَى عَنِ
الفحشاءِ والمنكرِ والبغىِ يَعِظُكُمْ
لعلكم تَذَكَّرون ﴾ .

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو نقيض الجور والظلم .

أمر اللهُ الإنسانَ بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخَلْق ؛ فالعدلُ الذى بينه وبين نفسه مَنْعُها عما فيه هلاكُها ، قال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى »[1] ، وكمالُ عدلِه مع نفسه كىُّ عُروقِ طمعِه .

والعدلُ الذى بينه وبين ربِّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسه ، وتقديمُ رضا مولاه على ما سواه ، والتجرد عن جميع المزاجر ، وملازمة جميع الأوامر .

والعدل الذى بينه وبين الخَلْق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل[2] أو كثر ، والإنصاف بكل وجه وألا تَشِيَ إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا بالهَمِّ أو العزم .

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

(٢) وردت (كل) بالكاف وهى خطأ من الناسخ .

وإذا كان نصيبُ العوام بَذْلَ الإنصافِ وكَفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواصِ تَرْكُ الانتصاف ، وإسداءُ الإنعام ، وتَرْكُ الانتقام ، والصبرُ على تحمُّلِ ما يُصيبُكَ من البلوى .

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم — والعلمُ مأمورٌ به — أى العلم بحدوثِ نفْسه ، وإثباتِ مُحْدِثه بصفات جلاله ، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها . وأما الإحسانُ فى الفعل فالحَسَنُ منه ما أمر الله به ، وأَذِنَ لنا فيه ، وحَكَمَ بمدح فاعله .

ويقال الإحسان أن تقوم بكل حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان الطيرِ فى مِلْكِك ، فلا تقصر فى شأنه .

ويقال أن تَقْضِيَ ما عليك من الحقوق وألا تقتضِيَ لك حقاً من أحد .

ويقال الإحسان أن تتركَ كل ما لَكَ عند أحد ، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً . وجاء فى الخبر : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » وهذه حال المشاهدة التى أشار إليها القوم .

قوله : « وإيتاءِ ذى القربى » إعطاء ذى القرابة ،وهو صلةُ الرَّحِم ، مع مُقاساةِ ما منهم من الجَوْرِ والجفاء والحَسَدِ .

ينهى عن الفحشاء والمنكر » : وذلك كلُّ قبيحٍ مزجورٍ عنه فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوفوا بِعَهْدِ الله إذا عاهدتُّم
ولا تَنقُضُوا الأَيْمانَ بعد توكيدها
وقد جعلتُم اللهَ عليكم كفيلاً إنَّ
اللهَ يعلم ما تفعلون ﴾

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمين الوفاء بعهد الله فى قبول الإسلام والإيمان ، فتجبُ عليهم استدامةُ الإيمان . ثم لكلِّ قومٍ منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه ، فهم مُطَالَبُون بالوفاء به ؛ فالزاهدُ عَهْدُه ألا يرجعَ إلى الدنيا ، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد نَقَضَ عهده ولم يفِ به . والعابد عاهده فى تَرْكِ الهوى . والمريدُ عَاهَدَه فى ترك العادة ، وآثره بكل وجه . والعارف عهده التجرد له ، وإنكار ما سواه . والمحب عهده تركُ نَفْسِه معه بكل وجه[1] .

---

(١) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

والموحِّد عهده الامتحاء[1] عنه ، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد مَنْهِىٌّ عن تقصير عهده ، مأمورٌ بالوفاء به .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانَكم دَخَلاً بينكم أن تكون أُمَّةٌ هِىَ أربىَ من أمة ﴾

مَنْ نَقَضَ عهده أفسد بآخِرِ أمرِه أوَّلَه ، وهَدَمَ بِفِعْلِهِ ما أسَّسَه ، وقَلَعَ بيده ما غَرَسَه ، وكان كمن نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً[2] ، أى من بعد ما أبرمت فَتْلَه .

وإنَّ السالكَ إذا وقعت له فترة ، والمريدَ إذا حصلت له فى الطريق وقفة ، والعارف إذا حصلت له حجبَةٌ[3] ، والمحبُّ إذا استقبلته فرقةٌ — فهذه مِحَنٌ عظيمةٌ ومصائبُ فجيعةٌ ، فكما قيل :

فَلَأَبْكِيَنَّ على الهلالِ تأسُّفاً خوفَ الكسوفِ عليه قبل تمامه

فما هو إلا أنْ تُكْسَفَ شمسُهم ، وينطفِىء — فى الليلة الظلماء — سِراجُهم ، وينشتَّتَ من السماء ضياء نجومهم ، ويصيبَ أزهارَ أُنسِهم وربيعَ وَصْلِهم إعصارٌ فيه بلاء شديدٌ ، وعذابٌ أليم . فإنَّ الحقَّ — سبحانه إذا أراد بقوم بلاء فكما يقول : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة[4] » فإنَّ آثارَ سُخْطِ الملوكِ مُوجِعةٌ ، وقصةَ إعراضِ السلطانِ مُوحِشَةٌ وكما قيل :

والصبر يَحْسُنُ فى المواطن كلها إلا عليكَ — فإنَّه مذمومٌ

---

(١) القشيرى مستفيد من قول بعض الشيوخ : المحبة محو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته .
« الرسالة ص ١٥٨ »

(٢) أنكاثا جمع نكث وهو ما ينكث فتله ، وقيل هى ريطة ، وكانت حمقاء تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن غزلهن .

(٣) وردت (محبة) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا (حجبة) لأنها أقرب إلى السياق ، ومشابهة فى الكتابة لكلمة (محبة) حيث يحتمل أن يحدث الالتباس فى حرف الميم عند النقل .

(٤) آية ١١٠ سورة الأنعام .

هنالك تنسكب العَبَراتُ، وتُشَق الجيوب، وتُلْطَم الخدود، وتُعطَّلُ العِشار، وتخرَبُ المنازلُ، وتسودُّ الأبواب، وينوح النائح:

وأتى الرسول فأخـ ـبر أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فجرى لهم دمعى صبيبا
وتركن ناراً فى الضلوع وزرعن فى رأسى مشيبا

قوله جل ذكره: ﴿إنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ به ولَيُبَيِّنَنَّ لَكُم يومَ القيامة ما كنتم فيه تختلِفون﴾

بلاء كلٌّ واحدٍ على ما يليق بحاله ؛ فمن كان بلاؤه بحديث النَّفْسِ أو ببقائه عن هواه، وبحرمانه لكرائمه فى عُقْباه فاسمُ البلاء فى صفته مَجَازٌ، وإنما هذا بلاء العوام. ولكنَّ بلاء الكِرام غيرُ هذا فهو كما قيل:

مَنْ لم يَبِتْ — والحبُّ مِلْءُ فؤادِه لم يَدْرِ كيف تَفَتُّتُ الأكبادِ

قوله جل ذكره: ﴿ولو شاء اللهُ لَجَعلَكُم أُمَّةً واحدةً، ولكِن يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِى من يشاء ولَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تعملون﴾

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم فى أموالهم، أو من جهة تقصيرهم فى أعمالهم وليَا ضيَّعوه من أحوالهم.. فهذه — لعمرى — وجوهٌ وأسبابٌ، ولكنَّ سِرَّ القصةِ كما قيل:

أنا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ ولكن ما احتيالى بسوء رأى الموالى؟

قوله: «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة»: لو شاء الله سَعَادَتَهم لَرَحِمَهُم، وعن المعاصى عَصَمَهُم، وبدوامِ الذكر — بَدَلَ الغفلة — ألهمهم.. ولكن سَبَقَتْ القسمةُ فى ذلك، وما أحسن ما قالوا:

شكا إليك ما وَجَدْ مَنْ خانه فيك الجَلَدْ
حيرانُ.. لو شِئْتَ اهتدى ظمآنُ... لو شِئْتَ وَرَدْ

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تتَّخِذُوا أيمانَكم دَخَلاً بينَكم
فتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثُبُوتِها وتَذُوقُوا
السوءَ بما صَدَدْتُم عن سبيلِ اللهِ
ولكُم عذابٌ عظيم ﴾

أبْعَدَكُم عَدَمُ صِدْقِكم فى إيمانِكم عن تحقُّقِكم ببرهانكم ، لأنكم وقفتم على حَدِّ التردد دون القطع والتبيين ، فأفضى بكم تردُّدُكم إلى أوطانِ شِرْكِكم ، إذ الشكُّ فى الله والشِّركُ به قرينان فى الحُكْم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَشْتَرُوا بعهد اللهِ ثَمَناً قليلاً
إنَّما عند اللهِ هو خَيْرٌ لكم إن
كنتم تعلمون ﴾

لا تختاروا على القيام بحقِّ اللهِ والوفاءِ بعهده عِوَضاً يسيراً مما تنتفعون به من حُطام دنياكم من حلالكم وحرامكم ، فإنَّ ما أعدَّ اللهُ لكم فى جنانه — بشرط وفائكم لإيمانكم — يوفى ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ما عندكم يَنفَدُ وما عند اللهِ باقٍ
ولنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُوا أجْرَهُمْ
بأحْسَنِ ما كانوا يعملون ﴾

الذى عندكم عَرَضٌ حادث فانٍ ، والذى عند الله من ثوابكم فى مآلِكُم نِعَمٌ مجموعةٌ ، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة .

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو ما لكم أفعالٌ معلولة وأحوالٌ مدخولة[1] ، وما عند الله فثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبةٌ ، وأصناف متناوبة ، أعيانُها غيرُ باقية وإن كانت أحكامُها غيرَ باطلة[2] ، والذى يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبته لكم وثنائه عليكم فصفاتٌ أزلية ونعوتٌ سرمدية .

---

(١) أى [illegible]ة بالدَّخَل

(٢) لأنها منكم فعلا ومن الله مُلكاً .

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعَرَّضٌ للزوال ، وقابلٌ للانقضاء ، وما وَصفْنَا به أنفُسَنا من الإقبال لا يتناهى وأفضال لا تفنى ، كما قيل :

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائى وإنى للقائهم لَأشَدُّ شوقا

قوله : « ولنجزين الذين صبروا . . . » : جزاء الصبر الفوزُ بالطُّلْبَةِ ، والظَّفَرُ بالبُغية . ومآلهم فى الطلبات يختلف : فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقةٍ فى الله . فعِوَضُه وثوابُه عظيمٌ من قِبَل الله ، قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »[1] .

ومَنْ صبر عن اتباع شهوةٍ لأجل الله ، وعن ارتكاب هفْوةٍ مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى : أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً »[2] .

ومَنْ صبر تحت جريان حُكمْ الله ، متحققاً بأنه بمَرْآةٍ من الله فقد قال تعالى : « إن الله مع الصابرين »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحيِيَنَّه حياةً طيبةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أجرَهُم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

الصالح ما يصلح للقبول ، والذى يصلح للقبول ما كان على الوجه الذى أمر الله به . وقوله « من عمل صالحاً » : فى الحال ، «فلنحيينه حياة طيبة» : فى المآل ؛ فصفَاء الحالِ يستوجِبُ وفاء المآلِ ، والعملُ الصالح لا يكون من غير إيمان ، ولذا قال : « وهو مؤمن » .

ويقال « وهو مؤمن » أى مصدِّقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح . ويقال « وهو مؤمن » أى مصدِّقٌ بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه . قوله « فلنحيينه حياة

---

(١) آية ١٠ سورة الزمر .

(٢) آية ٧٥ سورة الفرقان .

(٣) صبر العبد مع الله أشد أنواع الصبر ويكون — كما يقول عمرو بن عثمان : بالثبات مع الله ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة .

وصبر الله مع العبد يصفه الشيخ الدقاق بقوله : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله تعالى معيته . (الرسالة ص ٩٣) .

طيبة » : الفاء للتعقيب ، « ولنجزينهم . . . » الواو للعطف فني الأولى معجّل ، وفي الثانية مؤجّل ، ثم ماتلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعرّف بالنطق ، وإنما يعرف ذلك بالذوق ؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة ، وقوم قالوا إنه القناعة ، وقوم قالوا إنه الرضا ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه نسيم القرب . . . والكل صحيحٌ ولكلٍّ واحدٍ أهل .

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب ، وفي معناه قالوا :

نحن في أكمل السرور ولكنْ ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ
عَيْبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّى أنكم غُيَّبٌ ونحن حُضُورُ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكونَ لهم حاجةٌ ولا سؤالٌ ولا أرَبٌ ولا مُطالَبةٌ ؛ وفرقٌ بين من له إرادة فتُرْفَع وبين من لا إرادةَ له فلا يريد شيئاً(١) ، الأولون قائمون بشرط العبودية ، والآخرون مُعْتَقُون بشرط الحرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستَعِذْ باللهِ من الشيطانِ الرجيم ﴾ .

شيطانُ كُلِّ واحدٍ ما يشغله عن ربه ، فن تَسَلَّطَتْ عليه نَفْسُه حتى شَغَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادة أو ملاحظةِ حال — فذلك شيطانُه . والواجبُ عليه أن يستعيذَ بالله من شرِّ نَفْسِه ، وشرِّ كل ذى شر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّه ليس له سُلْطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ .

أنَّى يكون للشيطانِ سلطانٌ على العبد والحقُّ — سبحانه — متفرِّدٌ بالإبداع ، متوحِّدٌ بالاختراع ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما سلطانه على الذين يتولَّوْنه والذين هم به مُشْرِكون ﴾ .

---

(١) في هذا الصدد يقول القشيرى في رسالته : « والمريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ؛ فمن يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً . (الرسالة ص ١٠١) .

إنما سلطانُه على الذين هم فى غطاء غفلتهم ، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم . فأمَّا أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثاتِ بالله ظهورُها ، ومن اللهِ ابتداؤها ، وإلى الله مآلُها وانتهاؤها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا بدَّلْنَا آيةً مكانَ آيةٍ واللهُ أعلمُ بما يُنَزِّلُ قالوا إنما أنتَ مُفْتَرٍ بل أكثرُهم لا يعلمون * قُلْ نَزَّله رُوحُ القُدُسِ من ربِّكَ بالحقِّ لِيُثَبِّتَ الذين آمنوا وهُدًى وبُشْرَىٰ للمسلمين ﴾ .

ما ازدادوا فى طول مدتهم إلا شكّاً على شكٍ ، وجحداً على جحدٍ ، وجرَوْا على منْهاجهم فى التكذيب ، فلم يُصَدِّقوه صلى الله عليه وسلم ، وما زادوا فى ولايته إلاشكّاً ومرْية :

وكذا المَلُولُ إذا أرَادَ قطيعةً ... مَلَّ الوصالَ وقال كانَ وكانا

قوله : « قل نَزَّله روحُ القُدُس من ربك بالحق » : ردٌّ على فرط جهلهم بربهم ، وبُعْدِ رتبتهم عن التحصيل ، فلمَّا كانوا متفرقين فى شهود المَلِكِ رُدُّوا فى حين التعريف إليهم بذِكْرِ المَلَكِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نعلم أنَّهم يقولون إنما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الذى يُلْحِدون إليه أعجمىٌّ وهذا لِسانٌ عربىٌّ مبينٌ ﴾ .

لم يستوحش الرسولُ — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبهم ، وخفاء حاله وقَدْرِه عليهم .. وأىُّ ضررٍ يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجالَسَتُه إذا خَفِيَتْ على الأَخَسِّ مِنَ الرعيةِ حالتُه ؟

ثم إنه أقام الحجةَ فى الردِّ عليهم حيث قال : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » : فَمِنْ فَرْطِ جهلهم توهموا أنَّ هذا القرآنَ — الذى عجز كافةُ الخَلْق

عنْ معارضته فى فصاحته وبلاغته — مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمى النطق[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين لا يؤمِنُون بآياتِ اللهِ
لا يهديهمُ اللهُ ولهم عذابٌ أليم ﴾ .

إنَّ منْ سَبَقَتْ بالشقاوة قسمتُه لم تتعلق من الحق — سبحانه — به رحمتُه ، ومَنْ لم يَهْدِهِ اللهُ فى عاجله إلى معرفتِه لا يهديه اللهُ فى آجِلِه إلى جنته .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يفْترى الـكذِبَ الذين
لا يؤمنون بآياتِ اللهِ وأولئك
هم الـكاذبون ﴾ .

هذا من لطائف المعاريض ، إذ لمَّا وصفوه — عليه السلام — بالافتراء أثار الحقُّ — سبحانه — فى الجواب ، فقال : لستَ أنت المفترِى إنما المفترى مَنْ كذَّبَ معبودَه وجَهِلَ توحيدَه .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كَفَرَ باللهِ من بعد إيمانه
إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبُه مُطْمَئِنٌّ
بالإيمانِ ولـكِن مَّن شَرَحَ بالـكفر
صَدْراً فعليهم غَضَبٌ مِّنَ اللهِ
ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ عبده بقلبه ، وإخلاصَهَ فى عَقْده ، ولحقته ضرورة فى حاله خَفَّفَ عنه حُكْمَهَ ، ودَفَعَ عنه عناءه فلا يَلْفظُ بكلمة الـكفر إلا مُكْرَهاً — وهو مُوَحِّدٌ ، وهو مستحقٌ العُذْرَ فيما بينه وبين الله تعالى[2] . . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ،

---

(١) أرادوا به غلاماً كان لحويطب اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب ، أو هو جبر غلامٌ رومى لعامر بن الحضرمى وكان يقرأ التوراة والإنجيل ، أو سلمان الفارسى . . وكلهم أعاجم .

(٢) ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر الذى جرت كلمة الـكفر على لسانه مكرهاً وهو معتقد الإيمان ، وأتى رسول الله وهو يبكى ، فجعل الرسول يمسح عينيه ويقول : « إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » . وكان يقول عنه : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه »

وتجردوا لسلوكِ طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسبابٌ ، واتفقت لهم أعذارٌ ، كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ أو إلى شئ من العلوم رجوعٌ .. لم يكن ذلك قادحاً فى صحة إرادتهم ، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم ، ولا ينفى بذلك عنهم صِحّةَ القَصْدِ إلى الله تعالى .

أمّا « مَنْ شَرَحَ بالكفر صدراً » : فرجع باختياره ، ووضع قدَماً — كان قد رَفَعَه فى طريق الله — بِحُكْمِ هواه فقد نَقَضَ عهْدَ إرادته ، وفَسَخَ عقده ، وهو مستوجب (...)[1] إلى (...)[2] تتداركه الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم استَحَبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرة وأَنَّ الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾

السالك إذا آثر (الحظوظ)[3] على الحقوق بَقِىَ عن الله ، ولم يبارِكْ له فيما آثره على حقِّ الله ، ولقد قالوا :

قد تركناكَ والذى تريد فعسى أنْ تملّهم فتعود

قوله جل ذكره ﴿ أولئكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم وسَمْعِهم وأبصارِهم وأولئك هم الغافلون ﴾ .

إذا تمادى فى غفلته، ولم يتدارك حالَه بملازمةِ حَسْرَتِه، ازدادقسوةً على قسوة ، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿ لا جَرَمَ أنّهم فى الآخرةِ هُمُ الخاسِرون ﴾

هم فى الآخرة محجوبون ، وبِذُلِّ البعد موسومون .

---

(١) مشتبهة . (٢) مشتبهة .

(٣) سقطت هذه اللفظة والسياق يتطلبها ، فأثبتناها حسبما نعرف من أساليب القشيرى فى المقابلة بين حظوظ النفس وحقوق الحق .

قوله جل ذكره ﴿ ثم إنَّ ربَّكَ للذين هاجروا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصَبَرُوا إنَّ ربَّكَ من بَعْدِها لَغَفُورٌ رحيمٌ ﴾

ومَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر ، ولم يجنح إلى جانب الرُّخَصِ ، وأخذ فى الأمور بالأشَقِّ أكرم اللهُ حقَّه ، وقرَّب مكانَه ، ولقَّاه فى كل حالةٍ بالزيادة ، وربحت صفقتُه حين خسِرَ أشكالُه ، وتَقَدَّمَ على الجلة وإنْ قَلَّ احتيالُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم تأتى كلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عن نَفْسِها وتُوَفَّى كلُّ نفسٍ ماعَمِلَتْ وهم لا يُظْلَمُون ﴾ .

غداً كلٌّ مشغولٌ بنفسه ، ليس له فراغ إلى غيره . وعزيزٌ عبدٌ لا يشتغل بنفسه ، قال صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالٍ لقى الله بها » . إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغا ، ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمامٌ بنفسه . وللمؤمن لا نَفْسَ له ؛ قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم »[1] اشتراها الحقُّ منهم ، وأودعها عندهم ، فليس لهم فيها حق ، وإنما يراعون فيها أمرَ الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمِنةً مطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغَدًا من كلِّ مكان فكفَرَتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقَها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون ﴾ .

فراغ القلبِ من الأشغال نعمةٌ عظيمة ، فإذا كفر عبدٌ بهذه النعمة بأن فتح على نَفْسِه بابَ الهوى ، وانجرف فى فساد الشهوة ، شوَّشَ الله عليه قلبه ، وسَلَبَه ما كان يَجِدُه من صفاءِ وقته ؛ لأنَّ طوارقَ النفسِ تُوجِبُ عزوبَ شوارق القلب ، وفى الخبر : إذا أقبل الليلُ من

---

(١) آية ١١١ سورة التوبة

هاهنا أدبر النهارُ من هاهنا » . وكذلك القلبُ إذا انقطع عنه معهودُ ما كان الحقُّ أتاحه له أصابه عطشٌ شديد ولهبٌ عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءهُم رسولٌ مِنهم فكذَّبوه فأخذَهُم العذابُ وهم ظالِمون ﴾ .

كما جاءهم الرسولُ جهراً فإنه تتأدّى إليهم منْ قِبَلِ خواطرهم إشاراتٌ تترى[1] ، فمَنْ لم يستجِبْ لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق[2] أخذه العذابُ من حيث لا يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما رزقكمُ اللهُ حلالا طيباً واشكروا نِعمةَ اللهِ إن كنتُم إياه تعبدُون ﴾ .

الحلالُ الطيبُ مايتناوله العبدُ على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة[3] ، وحقيقةُ الشكر على النعمةِ الغيبةُ عن شهودِ النعمة بالاستغراق في شهود المنعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما حَرَّمَ عليكم الميتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به فمَنِ اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

يُبَاحُ تناولُ المحرماتِ عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع ، ولا يُرَخَّصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة ، وبقَدْرِ ما يَسُدُّ الرَّمق ، كذلك عند استهلاكِ العبدِ بغلبات الحقيقة لابد من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدى الفرض الواجب عليه ، ثم لا يُمكَّن من التعريج في أوطان التفرقة والتمييز بعد مضى أوقات الصحو من أجل أداء الشرع[4] ، كما قيل :

(١) تترى أي تتابع ، وربما كانت (سرا) لتقابل جهراً

(٢) أي إعتاق النفس وتحريرها من رق الشهوات

(٣) وردت (الشدة) والصواب — حسب ما يقول القشيرى في مواضع مماثلة — أن تكون (الشبهة)

(٤) هذه هي حالة الفرق الثاني التي تتخلل حالة جمع الجمع ، وفيها يرد العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ويكون رجوعه لله بالله لا للعبد بالعبد

فإنْ تَكُ منه غيبة بعد غيبة فإنْ إليه بالوجود إيابى

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسِنَتُكُم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذِبَ إنّ الذين يَفتَرُون على الله الكذِبَ لا يُفْلِحون * متاعٌ قليلٌ ولهُم عذابٌ أليم ﴾ .

الصدق فى كل شىء أوْلَى[1] من الكذب ، وكثيرٌ من أقوالهم فى الاعتراض عيِّناتٌ[2] من الكذب .

والصِّدِّيق لا يكذب صريحاً ، ولا يتداول أقوال كاذبٍ مبين . وصاحبُ الكذب تظهر عليه المذلَّةُ لما هو فيه من الزَّلَّةِ ، وله فى الآخرة عذاب أليم[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين هَادُوا حرَّمْنا ما قصصْنا عليك من قبلُ وما ظلمْنَاهُمْ ولكن كانوا أنفُسَهم يَظلمون ﴾ .

بيّن أنه أوضح لِمَنْ تقدَّمَ الحلالَ والحرامَ ، فمنهم مَنْ أتى بما أُمِرَ به ومنهم مَنْ خالف .. وكلٌّ عُومِلَ بما استوجبه ؛ فمن أطاع قلبهُ قرَّبَه ، ومَنْ عَصَى رَدَّه وحَجَبَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إنّ ربَّكَ للذين عملوا السوء بجهالةٍ ثم تابوا مِنْ بعدِ ذلك وأصلحوا إنّ ربَّكَ مِنْ بعدِها لغفورٌ رحيم ﴾ .

---

(١) وردت (أولا) وهى خطأ فى النسخ

(٢) عينات جمع عينة وهى نموذج من أصل الشىء ومادته (الوسيط)

(٣) قمنا هنا ببعض إصلاحات طفيفة نظراً لانبهام الخط ورداءته ، ووجود بعض حروف تعجز المطبعة عن نقلها كما هى فى الرسم .

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قدّمُوا ، وأسِفوا على كثيرٍ مما أسلفوا وفيه أسرفوا ، ومحا صِدْقُ عَبْرَتِهم آثارَ عَثْرَتِهم — نظرَ اللهُ إليهم بالرحمة ، فتابَ عليهم إذا أصلحوا ، ونجّاهم إذا تضرّعوا .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ إبراهيمَ كان أمّةً قانِتاً للهِ حنيفاً ولم يَكُ مِنَ المشركين ﴾ .

قيل آمن بالله وحدَه فقام مقام الأمة ، وفى التفسير : كان معلّما — بالخير — لأمة .

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودة ما يكون فى أمةٍ متفرقاً .

ويقال لمّا قال إبراهيمُ لـكلّ ما رآه : « هذا ربى » ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هى بل كان مُسْتَهْلَـكاً فى شهودِ الحقّ ، ورأى الـكونَ كُلّه بالله ، وما ذكر حين ذكر غيرَ الله . . كذلك كان جزاء الحق فقال : أنت الذى تقوم مقام الـكلّ ، فى القيامِ بحق الله منك على الدوام غُنْيةٌ عن الجميع .

و « الحنيف » : المستقيم فى الدِّين ، أو المائل إلى الحق بالـكلية[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ شاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجتباه وهَدَاه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

الشاكرُ فى الحقيقة — مَنْ يرى عَجْزَه عن شكره ، ويرى شُكْرَهُ من الله عزّ وجل ، لِتَحَقُّقِهِ أنه هو الذى خَلَقَهُ ، وهو الذى وَفّقَهُ لشكره ، وهو الذى رزقه الشكرَ ، وهو الذى اجتباه حتى كان بالـكلية له — سبحانه .

« وهداه إلى صراط مستقيم » أى تحقّق بأنه عَبْدُه ، وأنه رقّاه إلى محلّ الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتيناه فى الدُّنيا حَسَنَةً وإنَّه فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحين ﴾ .

الحسنةُ التى آتاه اللهُ هى دوامُ ما آتاه حتى لم تنقطِعْ عنه .

---

(١) الحنيف — فى اللغة — من الأضداد = المائل والمستقيم (ابن الانبارى فى كتاب الاضداد)

ويقال هى الخلة . ويقال هى النبوة والرسالة .

ويقال آتيناه فى الدنيا حسنةً حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لغيرٍ بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أوْحَيْنا إليك أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

« ملة ابراهيم » أى الكون بالحق ، والامتحاء[1] عن شاهد نفسه ؛ فكان نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى اتباعه ابراهيم مؤتَمِراً بأمر الله . وكانت ملةُ إبراهيم — عليه السلام — الخُلُقَ والسخاء والإيثارَ والوفاء ، فاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ، فقد زاد على الكافة شأنه ، وبانت مَزِيَّتُه .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّما جُعِلَ السَّبْتُ على الذين اختلفوا فيه وإنَّ ربَّك لَيَحْكُمُ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾

قومٌ حرَّموا العملَ فيه وقومٌ حللوه معصيةً منهم ، وقيل جعل الجمعة لهم فقالوا : لانريد إلا يومَ السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حادوا[2] عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هواهم . ثم أنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنَةِ وجادِلْهم بالتى هى أحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هو أعلمُ بِمَن ضَلَّ عن سبيلِه وهو أعْلَمُ بالمُهْتَدِين ﴾ .

---

(١) وردت (الامتحان) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (جادوا) وهى خطأ فى النسخ .

الدعاء إلى سبيل الله بحث[1] الناس على طاعة الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله .
والدعاء بالحكمة ألا يخالف بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علم وصواب ، ولا يكون فيها تعنيف .

« وجادلهم بالتى هى أحسن » : بالحجّة الأقوى ، والطريقة الأوضح . قال تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »[2] : فشرطُ الأمر بالمعروف استعمالُ ما تأمر به ، والانتهاء عما تنهى عنه[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبْتُم به وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خيرٌ للصابرين ﴾

إذا جرى عليكم ظُلْمٌ من غيركم وأردتم الانتقامَ . . فلا تتجاوزوا حَدَّ الإذن بما هو فى حكم الشرع .

« ولئن صبرتم » : فتركتم الانتصافَ لِأجْلِ مولاكم فهو خيرٌ لكم إنْ فَعَلْتُمْ ذلك .
والأسبابُ التى قد يترك لأجلها المرء الانتصافَ مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً فى الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً فى أن يتكفَّل اللهُ بخصومه ، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجرى عليه ، ومنهم من يترك ذلك لِكَرَمِ نَفْسِه ، وتحرُّرِه عن الأخطار ولاستحبابه العفوَ عند الظَّفَرِ ، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقّاً ، ولا يعتقد أنّ لأحدٍ هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسِه ؛ فمِلْكُهُ مُبَاحٌ ودَمُهُ هَدَرٌ . ومنهم من ينظر إلى خصمه —أى المتسلط عليه— على أنَّ فعلَه جزاء على ماعمله هو من مخالفة أمر الله ، قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[4] . فاشتغاله باستغفاره عن جُرْمِه يمنعه عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبِرْ وما صَبْرُكَ إلّا بالله ولا تحزَنْ عليهم ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُون ﴾

---

(١) وردت (بحيث) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) آية ٨٨ سورة هود .
(٣) أى تكون أنت قدوة فيما تدعو إليه من أوامر وما تنهى عنه من زواجر .
(٤) آية ٣٠ سورة الشورى .

« واصبر » تكليف ، « وما صبرك إلا بالله » : تعريف . « واصبر » تحقق بالعبودية « وما صبرك إلا بالله » إخبارٌ عن الربوبية .

« ولا تحزن عليهم.. » أي طالِع التقدير ، فما لا نجعلُه خطراً عندنا لاينبغى أن يوجِبَ أثراً فيك ، فمَنْ أسقَطْنا قَدْرَه فاستَصغِرْ أمْرَه . وإذا عرفتَ انفرادَنا بالايجادِ فلا يضيق قلبُك بشدة عداوتهم ، فإنَّا ضَمنَّا كِفايتَك ، وألا نُشْمِتَهم بك ، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم مُحْسِنون ﴾ .

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

« الذين اتقوا » رؤيةَ النصْرةِ مِنْ غيره ، والذين هم أصحابُ التبرى من الحوْلِ والقوة .
والمحسن الذى يعبد الله كأنه يراه ، وهذه حال المشاهدة .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ... أهلُ الجنةِ طابت لهم حدائقُها ، وأهل النار أحاط بهم سرادِقُها ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن أنْ تعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة .. جَلَّتْ الأحدية ، وتقدَّسَتْ الصمدية .

وَمَنْ وقعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تقع عليه قَتَرَةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجدَ حُظْوَةً لدينا ، ومن نَقَلَ قَدَمَهُ نحونا غفرنا له ما قَدَّمه ، ومنْ رفَعَ إلينا يَدًا أجزلنا له رَغَدًا ، ومن التجأ إلى سُدَّةِ كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمِنا ، ومن تمسكا فينا غليلاً ، مَهَّدْنا له فى دار فضلنا مقيلاً »

عبد الكريم القشيرى

عند

سورة الكهف

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل(1)

قوله تعالى وتقدّس: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

كلمةٌ ما سمعها عابدٌ إلا شكر عصمتَه، وما سمعها سالكٌ إلا وَجدَ رحمتَه، وما تحققها عارفٌ إلا تعطّرَ قلبُه بنسيمِ قُربته، وما شهدها موحِّدٌ إلا تقطّرَ دمُه لخوفِ فُرقته.

قوله جل ذكره: ﴿ سبحان الذى أسرى بِعَبْدِهِ ليلاً من
المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى
الذى باركْنا حولَه لنُرِيَهُ من آياتِنا
إنّه هو السميعُ البصيرُ ﴾

افتتح السورةَ بذِكْرِ الثناء على نفْسه فقال: « سبحان الذى . . » : الحقُّ سبَّحَ نَفْسَه بعزيزِ خطابِه، وأخبر عن استحقاقه لجلال قَدْرِه، وعن توحُّدِه بعلوِّ نُعُوتِه.

ولمّا أراد أنْ يَعْرِفَ العبادُ ما خَصَّ به رسولَه — صلى الله عليه وسلم — ليلةَ المعراجِ من عُلوِّ ما رقّاه إليه، وعِظَمِ ما لقّاه به أزالَ الأعْجوبةَ بقوله: « أسرى » ، ونفى عن نبيِّه خَطَرَ الإعجاب بقوله: «بعبده» ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ ألوهيته، واستحقاقه لكمالِ العِزِّ فلا يُتَعجَّبُ منه أن يفعل ما يفعل. ومَنْ عرف عبوديةَ نَفْسِهِ، وأنَّه لا يَمْلِكُ شيئاً من أمره فلا يُعْجَبُ بحاله. فالآية أوضحت شيئين اثنين: نَفْيَ التعجّبِ من إظهارِ فِعْلِ اللهِ عزّوجل، ونفيَ الإعجابِ فى وصف رسول الله عليه السلام.

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام — حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة —

---

(1) يقول السيوطى فى الإتقان: « وتسمى أيضاً سورة الإسراء، وسورة سبحان وسورة بنى إسرائيل » الإتقان ط الحلبى سنة 1951 ح1 ص 54.

أما القاضى البيضاوى (ص 370) فيقول: سورة بنى إسرائيل أو سورة « أسرى »

فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا »[1] ، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى بعبده » وليس مَنْ جاء بنفسه كمَنْ أُسْرِيَ به ربُّه ، فهذا مُتَحَمِّلٌ وهذا محمول ، هذا بنعت الفَرْقِ وهذا بوصف الجمع ، هذا مُرِيدٌ وهذا مُرَادٌ .

ويقال جعل المعراجَ بالليل عند غَفْلَةِ الرُّقَبَاءِ وغَيْبَةِ الأجانب ، ومن غير ميعاد ، ومن غير تقديم أُهْبَةٍ واستعداد ، كما قيل :[2]

ويقال جعل المعراجَ بالليل ليُظْهِرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ ، وتكذيبَ مَنْ تعجَّب وكَذَّبَ أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تعبُّدُه صلى الله عليه وسلم وتهجُّدُه بالليل جَعَلَ الحقُّ سبحانه المعراجَ بالليل

ويقال :

ليلةُ الوَصْلِ أَصْفَى من شهور ودهور سواها

ويقال أرسله الحقُّ — سبحانه — ليتعلَّمَ أهلُ الأرضِ منه العبادة ، ثم رَقَّاه إلى السماء ليتعلَّمَ الملائكةُ منه آدابَ العبادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ البصر وما طغى »[3] ، فما التفَتَ يميناً ولا شمالا ، وما طمع فى مقامٍ ولا فى إكرام ؛ تجرَّد عن كلِّ طلبٍ وأَرَبٍ .

قوله : لنريه من آياتنا » : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشْفٌ بالذات .

ويقال من الآيات التى أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله — سبحانه — شىء فى جلاله وجماله ، وعِزِّه وكبريائه ، ومجده وسنائه

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه — أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثلَه فى نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته .

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) هنا شاهد شعرى مضطرب فى الكتابة ، وأكثر أجزائه سلامة هو : والناس عما نحن فيه بمعزل .

(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتَيْنَا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لِبَنِي إسرائيل أَلَّا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ نَبِيَّنَا — صلوات الله عليه — كان أوفى — سماعاً ، فإنَّ الشمسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقربَ ممن طلعت له من حقائقها .

قوله جل ذكره : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مع نُوحٍ إنَّه كان عَبْداً شكوراً ﴾

أي يا ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح — على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ، وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب في كل (. . .)[1] كما في القصة — سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأُمِرَ حين دعا عليهم فقال : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً[2] » .

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللهِ له لِشُكْرِه ، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِه .

ويقال الشكور الذي يشكر بماله، ينفقه في سبيل الله ولا يدَّخره ، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله ، ولا يُبقِي شيئاً من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربَّه فلا تأتي عليه ساعةٌ إلا وهو يذكره .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَضَيْنَا إلى بني إسرائيلَ في الكتابِ

---

(١) مشتبهة .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع بإهلاكهم نتيجة نفاد صبره أو عدم شكره بل حسبما أمره الله ، ولو وضعنا الفاصلة بعد (وأُمِرَ) يكون المعنى : إلا من قد آمن وأُمِر بالإيمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع المذهب العام للقشيري ، فكل شيء عنده بأمر الله وتوفيقه .

لَتُفْسِدُنَّ فى الأرضِ مرتين ولَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كبيراً ﴾

القضاء هاهنا بمعنى الإعلام ، والإشارة فى تعريفهم بما سيكون فى المُسْتَأنَفِ منهم وما يستقبلهم ، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخْبِروا به ، وليكونَ أبلغَ فى لزوم الحُجَّةِ عليهم ، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم ، وليعلموا أن ما سَبَقَ به القضاء فلا محالةَ يحصل وإنْ ظُنَّ التباعدُ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ أُولاهما بَعَثْنا عليكم
عباداً لنا أُولى بأسٍ شديدٍ فَجاسُوا
خِلالَ الدِّيارِ وكان وعداً مفعولاً ﴾

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم
وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلناكم
أكثرَ نفيراً ﴾

يدلُّ على أنه مُقَدِّرُ أعمالِ العباد ، ومدبِّرُ أفعالِهِم ؛ فإنَّ انتصارَهم على أعدائهم من جملة أكسابهم ، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذى تولَّاه بقوله : « رددنا لكم الكرة عليهم ... »

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أحسنتُم لأنْفُسِكم وإنْ
أَسَأْتُم فَلَهَا فإذا جاء وعدُ الآخرة
لِيَسُوءُوا وجوهَكم ولِيَدْخُلُوا
المسجدَ كما دخلوه أَوَّلَ مَرَّةٍ
ولِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تتبيراً ﴾

إنْ أحسنتُم فثوابَكم كسبتم ، وإنْ أسأتم فعداءكم جلبتم — والحقُّ أعزُّ مِنْ أنْ يعودَ إليه من أفعال عبادِه زَيْنٌ أو يلحقه شَيْنٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عسى ربُّكم أن يرحمكم ﴾

كلمةُ « عسى » فيها ترجية وإطماع ، فهو — سبحانه — وقفهم على حد الرجاء والأمل ، والخوف والوجل .

وقوله « عسى » : ليس فيه تصريح بغفرانهم ورحمتهم ، وإنما فيه للرجاء موجِبٌ قويٌّ ؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عُدْتُم عُدْنا وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً ﴾

أي إنْ عُدْتُم إلى الزَّلةِ عُدْنا إلى العقوبة ، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة .

ويقال إن عُدْتُم إلى نَقْضِ العَهْد عُدنا إلى تشديد العذاب .

ويقال إن عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة .

ويقال إن عُدْتُم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء .

ويقال إن عُدْتُم إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرمنا .

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » ، لأنهم (. . . .)[1] وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين .

و « حصيراً » أي محبساً ومصيراً . فالمؤمنُ — وإنْ كان صاحبَ ذنوب وإنْ كانت كبيرة — فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالةَ يصل يوماً إلى غفرانه .

---

(١) هنا بياض في النسخة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهْدِي للتي هي أقومُ
ويُبَشِّرُ المؤمنين الذين يعملون
الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً ﴾

القرآنُ يدل على الحقِّ والصواب . و « أقوم » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكنَّ الخللَ من جهة المُستَدِلِّ لا الدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكنَّ المستدِلَّ مُعْرِضٌ ، وبآداب النظر مُخِلٌّ ؛ فيكون العيبُ في تقصيره لا في قصور الدليل[1] .

القرآنُ نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُماتِ جَهْلِه ، وخرج من غمار شَكِّه . ومَنْ رَمَدَتْ عيونُ نظرِه التبس رُشْدُه .

ويقال الحَوَلُ ضَرَرُه أشدُّ من العَمَى ؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِر فيَتْبَعُ قائدَه ، ولكن الأحول يتوهَّمُ الشيء شيئين ، فهو بتخيُّلِه وحسبانه يماري مَنْ كان سليماً . . كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجدَل ، ولم يضع النظر موضعه بَقِيَ في ظُلُماتِ جَهْلِه ، وصال بباطل دعْواه على خَصْمِه ، كما قيل :

بأطرافِ المسائلِ كيف يأتي — ولا أدْرِي لَعَمْرُكَ — مُبطِلُوها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ويَدْعُ الإنسانُ بالشرِّ دعاءه بالخيرِ
وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾

من الأدب في الدعاء ألّا يسألَ العبدُ إلّا عند الحاجة[2] ، ثم ينظر فإنْ كان شيء لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له ؛ فإنَّ في الخبر[3] : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » . ثم من آداب الداعي إذا سأل من اللهِ حاجتَه ورأى تأخيراً في الإجابة ألا يَتَّهِمَ الحقَّ — سبحانه — ويجب أن يعلم

---

(١) هذا نموذج مصغر لأسلوب القشيري الجدلي .
(٢) وردت (بحاجه) وهي خطأ في النسخ .
(٣) وردت (الخير) بالياء

أن الخير فى ألا يجيبَه ، والاستعجالُ — فيا يختاره العبد — غيرُ محمود ، وأوْلى الأشياء السكونُ والرضا بحُكْمِهِ سبحانه ، إن لم يساعدْه الصبرُ وسَأَلَ فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال ، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته ، وأنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتين فَمَحَوْنا
آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرةً
لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن ربكم ولِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السنينَ والحِسابَ وكُلَّ شيءٍ
فصَّلْناه تفصيلاً ﴾

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته ، ودلالةً على وجوب وحدانيته ؛ فى تعاقبهما وتناوبهما ، وفى زيادتهما ونقصانهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادةُ شرطُها الدوامُ والاتصال ، والوظائف حقُّها التوفيق والاختصاص

ولو وقع فى بعض العبادات تقصيرٌ أو حَصَلَ فى أداءِ بعضِها تأخيرٌ تَدَارَكَه بالقضاءِ حتى يَتَلَافَى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات فى الليلِ والنهارِ إفرادُ النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيصُ الليل بالظلام بغيرأمرٍ مكتسب(١) ، ومن ذلك قوله تعالى: «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» : وهو اختلاف أحوال القمر فى إشراقه ومحاقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ، بل هو فى كل ليلة فى منزل آخر ، إما بزيادة أو بنقصان .

وأمَّا الشمس فحالها الدوام .. والناس كذلك أوصافهم ؛ فأربابُ التمكينِ الدوامُ شرطُهم ، وأصحابُ التلوينِ التنقُّلُ(٢) حقُّهم ، قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً ... تتحير الألبابُ دون نزوله

---

(١) أى أن أفعال الله بمخلوقاته لا تخضع لعلة أو سبب ، أو حيلة أو كسب .

(٢) يقصد بالتنقل هنا التقلب فى الأحوال .. وليس التنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمْناه طائِرَهُ فى عُنُقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلْقاه منشوراً ﴾

ألزم كلَّ أحدٍ ما لَبِسَ بِجِيدِه . فالذين هم أهلُ السعادة أسرج لهم مركبَ التوفيق ، فيسير بهم إلى ساحات النجاة ، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مَطِيَّةَ الخذلان فأقعدَتْهم عن النهوض نحو منهج الخلاص ، فوقعوا فى وَهْدَةِ الهلاك .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْرَأْ كتابَكَ كفىٰ بِنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً ﴾

مَنْ ساعدَتْه العنايةُ الأزليةُ حُفِظَ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه ، ومَنْ أبلاه بِحُكْمِه رَدَّه وأَمْهلَه ، ثم تركه وعَمَلَه ، فإذا استوفى أَجَلَه عرف ماضَيَّعَه وأهمله ، ويومئذ يُحَكِّمُه فى حالِ نفسه، وهو لا محالةَ يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله .. فكم من حسرةٍ يتجرَّعُها ، وكم من خيبةٍ يتلقَّاها !

ويقال مَنْ حاسَبَه بكتابه فكتابُه مُلازِمُه فى حسابه فيقول : رَبِّ : لا تحاسبنى بكتابى .. ولكن حاسِبْنِى بما قلتَ : إنَّكَ غافرُ الذَّنْبِ وقابلُ التوبِ .. لا تعاملنى بمقتضى كتابى ؛ ففيه بوارى وهلاكى

قوله جل ذكره : ﴿ مَّنِ اهتدىٰ فإنَّما يهتدى لِنَفْسِه ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها ﴾

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه ؛ إنْ كانت طاعةً فضياؤها لأصحابها ، وإنْ كانت زَلَّةً فبلاؤها لأربابها . والحقُّ غنىٌّ مُقَدَّسٌ ، أَحدِىٌّ مُنَزَّهٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ وما كُنَّا مُعَذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولا ﴾

كُلٌّ مُطَالَبٌ بجريرته . وكلُّ نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزْرَ نَفْسٍ أخرى .. « وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ : دلّ ذلك على أن الواجبات إنما تتوجه من حيث السمع[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً أمرْنا
مُترَفيها فَفَسَقوا فيها فحقَّ عليها
القولُ فدمَّرْناها تدميراً ﴾

إذا كَثُرَ أهلُ الفسادِ غلبُوا ، وقلَّ أهل الصلاح وفقدوا ؛ فعند ذلك (يغمر)[2] اللهُ الخَلْقَ ببلائه ، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا فى بابهم ، ولا فيهم من يبتهل إلى الله فَيُسْمَعُ دعاؤه ، فَيَخْتَرِمُ[3] أولياءه ، ويُبْقِى أربابَ الفساد ، وعند ذلك يشتدُّ البلاء وتَعْظُمُ المِحَنُ إلى أن ينظرَ اللهُ تعالى إلى الخَلْق نَظَرَ الرحمةِ والمِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ أهلكْنا من القرونِ من بعدِ
نوحٍ وكفى بربِّكَ بذنوبِ عبادِه
خبيراً بصيراً ﴾

فى الآية تسليةٌ للمظلومين إذا استبطأوا هلاكَ الظالمين ، و (. . .)[4] قِصَرِ أيديهم عنهم . فإذا فكَّروا فيما مضى من الأمم أمثالِهم وكيف بَنَوْا مَشِيداً ، وأمَّلوا بعيداً . . فبادوا جميعاً ، يعلمون أنَّ الآخرين — عن قريب — سينخرطون فى سلكهم ، ويُمْتَحَنُون بمثل شأنهم . وإذا أظلَّتْهم سُحُبُ الوحشةِ فاءوا إلى ظلِّ شهود التقدير ، فتزول عنهم الوحشة ، وتطيب لهم الحياةُ ، وتحصل الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يريدُ العاجلةَ عَجَّلْنا له فيها
ما نشاء لِمَن نُريدُ ثم جَعَلْنا له جهنَّمَ
يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً ﴾

---

(١) نظن أن القشيرى يريد بذلك أن يرد على بعض أهل الكلام الذين يقولون إن الله يعذب الناس على ذنوبهم حتى ولو لم يبعث لهم رسولا لأن عقل الانسان مطالب بالتكليف قبل سماع الرسل .

(٢) وردت (يعمر) بالعين والصواب أن تكون بالغين لأن السياق يتطلب ذلك .

(٣) وردت (فيحترم) بالحاء والسياق يتطلب أن الله (يخترم) أولياءه أى يأخذهم إليه .

(٤) مشتبهة ، ونرجح أنها كلمة تؤدى إلى معنى (وأحسوا) قصر أيديهم عن الظالمين .

مَنْ رَضِيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِيَ عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بِقَدْرِ ما اشْتَمَّهُ ، ثم يكون آنَسَ ما به قلباً وأشدَّ ما يكون به سكونا . . ثم يُخْتَطَفُ عن نعمته ، ولا يخصه بشيء مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه فى الآخرة . . ولقد قيل :

يا غافلاً عن سماع الصوتْ إن لم تبادِر فهو الفوتْ
مَنْ لم تَزُلْ نعمته عاجلاً أزاله عن نعمته الموتْ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾

علامة مَنْ أراد الآخرةَ — على الحقيقة — أن يسعى لها سَعْيَها ؛ فإرادةُ الآخرة إذا تجرَّدَتْ عن العمل لها كانت مجردَ إرادة ، ولا يكون السعىُ مشكوراً . قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المآلِ كما أنه مؤمنٌ فى الحال . ويقال وهو مؤمن أنَّ نجاته بفضله لا بسببه .

« فأولئك كان سعيهم مشكوراً » أى مقبولاً ، ومع القبول يكون التضعيف والتكثير ؛ فكما أن الصدقة يُرْبِيها كذلك طاعةُ العبدِ يُكَثِّرُها ويُنَمِّيها .

قوله جل ذكره ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ من عطاءِ رَبِّكَ وما كان عطاءُ رَبِّكَ محظوراً ﴾

يجازى كلاًّ بِقَدْرِه ؛ فَلِقَوْم نجاة ولقومٍ درجات ، ولقوم سلامة ولقومٍ كرامة ، ولقومٍ مثوبتُه ، ولقومٍ قربتُه .

قوله جل ذكره ﴿ انظُرْ كيف فَضَّلْنا بعضَهم على بعضٍ وللآخِرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبر تفضيلا ﴾

التفضيلُ على أقسام ، فالعُبَّاد فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن فى زكاء أعمالهم ، والعارفون فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن فى صفاء أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالإخلاص ، وصفاء الأحوال

بالاستخلاص ؛ فقومٌ تفاضلوا بصدق القَدَم ، وقوم تفاضلوا بعلوِّ الهِمَم والتفضيل فى الآخرة أكبر : فالعُبَّادُ تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لَتَرَوْنَ أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدريَّ فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم »

وأهلُ الحضرةِ تفاضلُهم بلطائفهم من الأُنْس بنسيم القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده ويراه مرةً فى الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون فى الرؤية ويتفاوتون فى نصيبِ كلٍّ أحد ، وليس كلُّ مَنْ يراه يراه بالعين التى بها يراه صاحبه ، وأنشد بعضهم[1] :

لو يسمعون — كما سمعتُ حديثها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَجْعَلْ مع اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مذموماً مخذولا ﴾

الذى أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله ، ومخذولاً من قِبَل (مَنْ)[2] عَبَدَه من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقضىٰ ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهُما فلا تَقُلْ لهما أفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُل لهما قَوْلاً كريماً ﴾

أمَرَ بإفراده — سبحانه — بالعبادة ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها ، وأن يكون مغلوباً باستيلاءِ سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يَحْفَظُه عن شهودِ عبادته[3]

وأمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما ، والوقوفِ عند إشارتهما ، والقيام بخدمتهما ،

---

(١) البيت لكثير صاحب عزة .

(٢) سقطت (مَنْ) والسياق يتطلبها ، والخذلان ناجم عن أنَّ أى معبود غير الله لا يملك لمن يعبده نفعاً ولا يدفع عنه ضراً .

(٣) فاخلاص العبد فى التحقق يحفظه عن التقصير فى أمور الشريعة .

وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحُسْنِ عشرتهما ورعاية حُرْمَتِهما ، وألا يبدىَ شواهدَ الـكسلِ عند أوامرهما ، وأن يَبذُل الـمُكْـنَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما . . . هذا فى حال حياتهما ، فأمَّا بعد وفاتهما فبِصِدْقِ الدعاء لهما ، .وأداءِ الصَّدَقَةِ عنهما ، وحِفْظِ وصيتهما على الوجهِ الذى فَعَلاه ، والإحسانِ إلى مَنْ كان مِنْ أهلِ ودِّهما ومعارفهما .

ويقال إنَّ الحقَّ أَمَرَ العبادَ بمراعاة حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد . . فَمَنْ عجز عن القيام بحقِّ جنسه أنَّى له أن يقومَ بحقِّ ربه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمة وقُل ربِّ ارحَمْهُما كَمَا ربَّيَانى صغيراً ﴾

اخفض لهما جناحَ الذُّلِّ بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك البَرَمِ بمطالبهما ، والصبر على أمرهما ، وألا تَدَّخِرَ عنهما ميسوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّكُم أَعْلَمُ بما فى نفوسِكم إن تكونوا صالحين فإنَّه كان للأوابين غفوراً ﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ قلبِ عبدٍ أمَدَّه بحسنِ الأنجاد، وأكرمه بجميل الامتداد[1] ، ويَسَّر عليه العسيرَ من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتِ ذا القُرْبَىٰ حقَّه والمِسْكينَ وابنَ السبيل ولا تبذِّر تبذيراً ﴾

إيتاء الحقِّ يكون من المال ومن النَّفْس ومن القول ومن الفعل ، ومَنْ نَزَلَ على اقتضاء حقِّه ، وبذل الـكُلَّ لأجل ما طالبه به من حقوق . فهو القائم بما ألزمه الحقُّ سبحانه بأمره .

---

(1) أى الاستدامة والاستمرار دون وقفة أو فترة — وتلك من أعظم المنن فى نظر القشيرى ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومة وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدَّره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظِّ النَّفْسِ — وإن كان سمسمة — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوفاء بالنَّفْس — فهو تقصيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم ، وجَرَوْا فى طريقهم على دواعى الشياطين ووساوسهم ، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصى فقد دعاهم إخوانَ الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربِّك ترجوها فقُل لهم قولاً ميسوراً ﴾

إن لم يُسَاعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصْرِفْهم عنكَ بوعدٍ جميلٍ إن لم تُسْعِفهم بنقدٍ جزيل . وإنَّ وَعْدَ الكرامِ أَهْنأُ من نقد اللئام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تجعلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البَسْطِ فتَقْعُدَ ملوماً محسوراً ﴾

لا تُمْسِكْ عن الإعطاء فتُكْدِى[2] ، ولا تُسْرِفْ فى البذلِ بكثرة ما تُسْدِى ، واسْلُكْ بين الأمرين طريقاً وَسَطاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَبْسُط الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾

إذا بَسَطَ لا تَبْقَى فاقة ، وإذا قبض استنفد كلَّ طاقة[3] .

---

(١) وردت (الأيام) وقد أثبتنا (اللئام) فبها يقوى المعنى وتستقيم المقابلة .

(٢) تكدى أى تبخل ، قال تعالى : « وأعطى قليلا وأكدى » .

(٣) واضح أن القشيرى يوجه الإشارة إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقتلوا أولادَكم خَشْيَةَ إملاقٍ نحن نرزُقهم وإياكم إنَّ قتْلَهم كان خِطْئاً كبيراً ﴾

مَنْ عَرَفَ أنَّ الرازقَ هو الله خفَّ عن قلبه همُّ العيال[1] — وإنْ كثُروا ، ومن خفي عليه أنه قَسَّمَ — قبل الخَلْقِ — أرزاقَهم تطوح في متاهات مغاليطه ، فيقع فيها بالقلب والبَدَنِ ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقربوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا ﴾ .

تَرَجحَ[2] الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييعَ حُرْمَةِ الحقِّ ، وهتكَ حُرْمَةِ الخَلْق ، ثم لِمَا فيه من الإخلال بالنَّسَبِ ، وإفسادِ ذات البين[3] من مقتضى الأنَفَةِ والغضب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقتلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ، ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يُسرِف في القتلِ إنه كان منصوراً ﴾

لا يجوز قَتْلُ نَفْسِ الغير بغير الحق ، ولا للمرء أن يقتل نَفْسَه أيضاً بغير الحق . وكما أنَّ قتلَ النَّفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّمٌ فكذلك القَصْدُ إلى هلاكِ المرءِ مُحَرَّمٌ .

ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه . « ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » : أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه ، وعلى معنى الإشارة : إن النصرة مِنْ قِبَلِ الله ، ومنصورُ الحقِّ لا تنكسر سِنَانُه ، ولا تطيشُ سِهَامُه[4] .

---

(١) وردت (القيال) بالقاف وهي خطأ في النسخ .
(٢) ترجح = زاد وثقل .
(٣) وردت (البين) وهي خطأ في النسخ
(٤) وردت (شهامه) بالشين وهي خطا في النسخ

قوله جل ذكره : ﴿ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلَّا بالتي هي أحسن حتى يبلغَ أشُدَّه وأوفوا بالعهدِ إنَّ العَهْدَ كان مسئولًا﴾

لمَّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أمَرَ — سبحانه — الأجنبيَّ الذى ليس بينه وبين اليتيم سَبَبٌ أنْ يتولَّى أمرَه ، ويقومَ بشأنِه ، وأوصاه فى بابه ؛ فالصبيُّ قاعد بصفة الفراغ والهوينى[1] ، والولىُّ ساعٍ بمقاساة العَنا . .

فأمْرُ الحقِّ — سبحانه — للولىِّ أحظَى للصبيِّ مِنْ شفقةِ آلِهِ عليه فى حال حياتهم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿وأوْفُوا الكيلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقسطاسِ المستقيمِ ذلكَ خيرٌ وأحْسَنُ تأويلًا﴾

كما تدِين تدان ، وكما تعامِلُ تُجازَى ، وكما تكيل يُكَالُ لكَ ، وكما تكونون يكون عليكم ، ومَنْ وَفَى وفَوْا له ، ومَنْ خان خانوا معه ، وأنشدوا :

أسأنا فساءوا . . عَدْلٌ بلاحيفٍ ولو عَدَلْنا لَخَلُصْنا من المِحَنِ

قوله جل ذكره ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لكَ به عِلْمٌ إن السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولًا ﴾

إذا غَلَبتْ عليكَ مُجَوِّزَاتُ الظنونِ ، ولم يُطْلِعكَ الحقُّ على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان ، وإذا أُشْكِلَ عليك شىء من أحكام الوقت فارجِعْ إلى الله ؛ فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَدِّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله ، وقِفْ حيثما وقفت .

---

(١) الهوينى = الخفض والدعة

(٢) ما يقوله القشيرى فى حالة اليتيم ينصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالنسبة لشيخه ؛ فالمريد يجد من شيخه مالا يجده عند ذويه ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأشباح .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أنَّ العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم ، وأصحابُ الحقِّ يجْرِى عليهم بحكم التصريف شيء لا علمَ لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَف لهم وجهُه ، وربما يجرى على ألسنتهم شيء لا يدرون وَجْهَه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه ، ودليلُ ما نطقوا به من شواهد العلم[1] .

قوله : « إن السمع والبصر . . . . » هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم فى بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة .

ومَنْ استعمل هذه الجوارح فى الطاعات، وصانها عن استعمالها فى المخالفات فقد سَلَّم الأمانةَ على وصف السلامة ، واستحق المدحَ والكرامة . ومَنْ دَنَّسها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب الملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحاً إنَّك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولا ﴾

الخُيَلاء والتجبُّر ، والمدح والتكبُّرُ — كل ذلك نتائجُ الغيبة عن الذكر ، والحجبة عن شهود الحقِّ ؛ فإنَّ اللهَ إذا تجلَّى لشيء خشع له — بذلك وَرَدَ الخبر . فأمَّا فى حال حضورِ القلبِ واستيلاءِ الذكر وسلطان الشهود . فالقلبُ مُطْرِقٌ ، وحُكْمُ الهيبة غالِبٌ . ونعتُ المدحِ وصفةُ الزَّهْوِ وأسبابُ التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناسُ — فى الخلاص من صفة التكبر — أصنافٌ : فأصحابُ الاعتبار إذْ عرفوا أنهم مخلوقونَ من نطفةٍ أمشاجٍ ، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم .. تعلو هِمَمُهم عن التضييق والتدنيق[2] ، ويَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أخْطارٍ للأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التجبُّر .

---

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يتضح رأى القشيرى فى التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويذهب القشيرى فى « رسالته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أن يُفْتُوا فى مسائل الفقه إفتاءً يُعْتَدُّ به حتى لو كان أحدهم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شيبان الراعى مع الشافعى وابن حنبل) .

(٢) دنَّق البخيل = بالغ فى التضييق فى النفقة

وأمَّا أرباب الحضور فليس فى طلوع الحق إلا انخناس النَّفْس ، وفى معناه قالوا :

إذا ما بدا لى تعاظَمْتُه فأصدر فى حال من لم يرد

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ ذلكَ كان سَيِّئُهُ عند ربِّك مكروهاً * ذلكَ مما أَوْحَىٰ إليكَ ربُّكَ مِنَ الحكمَةِ ولا تجعَلْ مع اللهِ إلهاً آخَرَ فتُلْقَى فى جهنَّم مَلُوماً مدحوراً ﴾

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحاتِ الشهود ، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُرْب تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجبة ، واستولى سلطان الحقيقة ، فيحصل التنقِّى من هذه الأوصاف المذمومة .

وقال تعالى لنبيِّه : « ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة » : بالوحى والإعلام ، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأصفاكم ربُّكم بالبنين واتَّخَذَ مِنَ الملائكةِ إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾

جوَّزوا أن يكونَ لله — سبحانه — ولدٌ ، وفكَّروا فى ذلك ، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم ، فما زادوا فى تَمَرُّدِهم إلا عُتُوًّا ، وفى طغيانهم إلا غُلُوًّا ، وعن قبول الحقِّ إلا نُبُوًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذِى العرشِ سبيلاً * سُبْحانَهُ وتعالَى عمَّا يقولونَ عُلُوًّا كبيراً ﴾

بيَّن أنه لو كان الصانعُ أكثرَ من واحدٍ لجَرَى بينهم تضادٌّ وتمانُعٌ ، وصحَّ عند ذلك فى صفتهم العجزُ ، وذلك من سمات المحدثات .

ثم قال سبحانه — تنزيهاً له عن الشَّريك والظهير ، والمعين والنظير :

﴿ تُسَبِّحُ له السمٰوَاتُ السَّبْعُ والأرضُ
ومَن فيهن وإن من شىء إلا يُسَبِّح
بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحَهم
إنه كان حليماً غفوراً ﴾

الأحياء من أهل السمٰوات والأرض يُسَبِّحون له تسبيحَ قالة[1] ، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة . وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ، ولـكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا — لجهلهم وتَعسُّر إدراكهم — وأنـكروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك
وبين الذين لا يؤمنون بالآخِرةِ
حِجاباً مستوراً ﴾ .

أى أدخلناك فى إيواء حِفْظِنا ، وضربنا عليك سرادقاتِ عصمتنا ، ومنعنا الأيدى الخاطئةَ عنك بلطفنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أن يفقهوه
وفى آذانهم وَقْراً وإذا ذكرتَ ربَّك
فى القرآنِ وَحْدَه وَلَّوْا على أدبارهم
نفوراً[2] ﴾ .

صَرَّح بأنه خالقُ ضلالتهم ، وهو المثبت فى قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم[3] « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده . . » أحبوا أن تذكر آلهتهم ، قد ختم الله على قلوبهم ، فلا حديثَ يُعْجِبُهم إلاَّ مِمَّنْ لهم شَـكْلٌ ومِثْلٌ .

---

(١) وردت (ماله) بالميم والصواب أن تـكون (قالة) بمعنى أن تسبيح الأحياء بالقول والنطق .

(٢) يمكن أن تـكون (نفورا) مصدراً من نَـفَـر ينفر أى ولىّ ، ويمكن أن تـكون جمع نافر كقاعد وقعود .

(٣) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة يلبى على أصل فى مذهب القشيرى — نوهنا به سابقاً — وهو أن الله خالق كل شىء — على الحقيقة — حتى أكساب العباد ، فهى له حكما ولهم فعلا .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن أعْلَمُ بما يستمعون به إذْ يَستَمِعُونَ
إليكَ وإذ هم نَجْوَىٰ إذ يقول الظالمون
إن تَتَّبِعون إلاَّ رجلا مسحوراً ﴾

لَبَّسُوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحوالَهم ، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم ، ففَضَحهم اللهُ تعالى ، وكَشَفَ أسرارَهم ، وبَيَّنَ مقابحَهم ، وهَتَكَ أستارَهم ، فما تنطوى عليه السريرة لابُدَّ أن يَظْهرَ لأهل البصيرة بما يبدو على الأَسِرَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ انظرْ كيف ضربوا لكَ الأمثالَ
فَضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

عابوه بما ليس بنقيصةٍ فى نفسه حيث قالوا : « إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » أى ذا سِحْرٍ . وأىُّ نقيصة كانت له إذا كان — صلى الله عليه وسلم — من جملة البَشَر ؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولٍ نصرته ، ولم يكن تخصيصه ببِنْيَةٍ ، ولا بصورة ، ولا بحِرْفةٍ ، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بانَ شرفُه بجملة ما تعلّق به لُطْفُهُ القديم — سبحانه — ورحمتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا أئذا كُنّا عِظاماً ورُفَاتاً
أئِنا لَمَبعُوثُونَ خَلْقاً جديداً ﴾

أقرُّوا بأنَّ الله خلَقَهم ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عدَمِهم ، ولكن . . كما جاز أن يوجِدَهم أولاً وهم فى كتم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر ، ولكنهم كانوا فى متناول القدرة ومتعلق الإرادة ، فَمِنْ حقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدَهم إلى الوجود مرة أخرى.. وهكذا إذا رَمِدَت عينُ قلبٍ لم يستبصر صاحبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كونوا حِجَارةً أو حديداً *
أو خَلْقاً مما يكبر فى صدوركم
فسيقولون مَن يُعيدُنا قُلِ الذى

فَطَرَكُم أوَّلَ مرةٍ فَسَيُنْغِضُون[1]
إليكَ رُءوسَهُم ويقولون متى هو ؟
قُلْ عسى أن يكونَ قريباً ﴾

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه لا يتعصَّى عليه مقدورٌ لأنه موصوف بقدرة أزلية ، وقُدْرَتُه عامَّةُ التعلق ؛ فلا المشقة تجوز فى صفته ولا الرفاهية . فالخلقُ الأول والإعادة عليه سيَّان ؛ لا مِنْ هذا عائدٌ إليه ولا من ذاك ، لأن قدَمَه يمنع تأثير الحدوث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُون بِحَمْدِهِ
وتَظُنُّونَ إن لَبِثْتُم إلاَّ قليلاً ﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحمد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم — وهم فى قبورهم — فى نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل لعبادى يقولوا التى هى
أحسَنُ ، إنَّ الشيطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُم ،
إنَّ الشيطانَ كان للإنسانِ عدوًّا
مُبيناً ﴾

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحَسَنِ ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركُه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المُحِبِّ بعبودية محبوبه .

ويقال أحسنُ قولٍ من المذنبين الإقرارُ بالجُرْم ، وأحسنُ قولٍ من العارفين الإقرارُ بالعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

---

(١) ينغضون رءوسهم أى يحركونها تعجباً واستهزاء .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكُم أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يرحمْكم
أو إن يشأ يُعَذِّبكم وما أرسلناكَ
عليهم وكيلاً ﴾

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه ليتعلَّق كُلُّ قلبه بربه . وجَعَلَ العواقبَ على أربابها مشتبهةً ، فقال « ربكم أعلم بكم » . ثم قدَّمَ حديثَ الرحمةِ على حديثِ العذاب ، فقال : « إنْ يشأ يرحمكم أو إنْ يَشأْ يعذبكم » وفي ذلك تَرَجٍّ للأمل أنْ يَقْوَى .

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم ، ولكن العبدَ يعلم ظاهرَ حاله ، وعِلْمُ الرب يكون بحاله وبمآله ، ولهذا فالواجبُ على العبد أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، وهذا معنى : « إن يشأ يرحمكم أو إنْ يشأ يعذبكم » بعد قوله : « أعلم بكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيين على
بعض وآتَيْنَا داودَ زَبُوراً ﴾

فَضَّلَ بعضَ الأنبياء على بعضٍ في النبوة والدرجة ، وفي الرسالة واللطائف والخصائص . وجعل نبيَّنا — صلى الله عليه وسلم — أفضلَهم ؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس ، وهم شموسٌ وهو شمسُ الشموس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذين زَعَمْتُم من دونه
فلا يَمْلِكون كَشْفَ الضُّرِّ عنكم
ولا تحويلاً ﴾

استعينوا فيما يستقبلكم[1] بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادةُ شيء من دون الله ، ولا يضركم تَرْكُ ذلك ، ولقد قيل في الخبر : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[2]

(١) أي ما يستقبلكم من البلايا

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد عن الحسين بن علي ، والعسكري عن عليّ ، وأوضحه الشيخان في تخريج الأربعين .

قوله جل ذكره: ﴿ أولئك الذين يَدْعُون يبتغون إلى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويَرْجُون رحمتَه ويخافونَ عذَابَه، إنَّ عذابَ ربِّكَ كان محذوراً ﴾

يعنى الذين يعبدونهم ويدعونهم — كالمسيح وعُزَير والملائكة — لا يملكون نَفْعاً لأنفسهم ولاضَرّاً، وهم يطلبون الوسيلةَ إلى الله أىْ يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسانِ الله، وطمعاً فى رحمته، ويخافون العذاب من الله ... فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه فى أحوال أنفسهم؟

ويقال فى المَثَلِ: تملُّقُ الخلقِ بالخَلْقِ تسلُّقُ مسجونٍ بمسجون.

ويقال: إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازدادا فاقةً.

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً فى البئر، وفى معناه أنشدوا:

إذا التقى فى حَدَبٍ واحدٍ سبعون أعمى بمقادير
وسَيَّروا بعضَهم قائداً فكُلُّهم يسقط فى البير

قوله جل ذكره: ﴿ وإن مِّن قريةٍ إلا نحن مُهْلِكُوها قبلَ يومِ القيامة أو مُعَذِّبُوها عذاباً شديداً، كان ذلك فى الكتابِ مَسْطوراً ﴾

العذاب على أقسام: فالألم الذى يَرِدُ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى مايَرِدُ على القلوب والسرائر؛ فعذابُ القلوبِ لأصحابِ الحقائقِ أحدُّ فى الشدَّةِ مِمَّا يُصيب أصحابَ الفقر والقلة.

ثم إن الحقَّ سبحانه أجرى سُنَّتَه بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها.

ومن سام(١) الناس ظُلماً وخَسْفًا فَبِقَدْرِ ظُلْمِه يعذِّبُه اللهُ — سبحانه وتعالى — في الوقت بتنغيص العَيْشِ ، واستيلاءِ الغضب مِنْ كلِّ أحدٍ عليه ، وتَتَرَجَّمُ ظنونُه وتتقسَّمُ أفكاره في أحواله وأشغاله . ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لَعَلِمَ ما طعم الحياة . . ولكنْ حُرِموا النِّعَمَ ، وما علموا ما مُنُوا به من النِّقَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَنَا أن نُرْسِلَ بالآياتِ إلّا أن كَذَّبَ بها الأولون وآتينَا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً فظلموا بها ﴾(٢)

أجرى الله سُنَّتَه أنه إذا أظهر آيةً اقْتَرَحَتْها أُمَّةٌ من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أنْ يُعَجِّلَ لها العقوبة ، وكان المعلومُ والمحكومُ به ألا يجتاحَ العذابُ القومَ الذين كانوا في وقت الرسول — عليه السلام — لِأَجْلِ مَنْ في أصلابهم مِنَ الذين عَلِمَ أنهم يؤمِنُون ؛ فلذلك أخَّرَ عنهم العذاب الذي تعجَّلوه(٣) .

﴿ وما نُرْسِلُ بالآيات إلا تخويفا ﴾

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله ؛ فإنْ لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب . ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فأخَّرَ العذابَ ، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِه وعِلْمِه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنَا لكَ إنَّ ربَّك أحاط بالناس وماجَعَلْنَا الرؤيا التي أريناكَ إلّا فتنةً للناسِ والشجرةَ الملعونةَ في القرآن

---

(١) وردت (صام) بالصاد وهي خطأ في النسخ .

(٢) اختار من الآيات التي اقترحها الأولون ناقة صالح (عم) لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها سادرهم وواردهم .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها (. . . ناداني مَلَكُ الجبال فسلم عليَّ ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين (جبلين يحيطان بمكة) فقال النبي (ص) : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) .

وَنُخَوِّفُهُم فما يزيدُهم إِلَّا طُغياناً
كبيراً ﴾[1]

الإيمانُ بما خَصَصْنَاكَ به امتحانَ لهم وتـكليفٌ ، ليتميزَ الصادقُ من المنافقِ ، والمؤمنُ من الجاحد ، فالذين تَدَارَكَتْهُم الحمايةُ وقفوا وثبتوا ، وصَدَّقوا بما قيل لهم وحققوا . وأما الذين خَامَرَ الشكُّ قلوبَهم ، ولم تباشِر خلاصةُ التوحيد أسرارَهم ، فما ازدادوا بما امتُحِنُوا به إلا تحيُّراً وضلالاً وتَبَلُّداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنا للملائـكةِ اسجُدُوا لآدمَ
فَسَجَدُوا إلا إبليسَ قال أأسْجُدُ
لِمَنْ خَلَقْتَ طِينا ﴾

امتنع الشقيُّ وقال : لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به ، وكان ذلك جهلاً منه ، ولو كان بالله عارفاً لـكان لأمره مؤثِراً ، ولمحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أرأيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ
علىَّ لَئِنْ أخَّرتنِ إلى يومِ القيامةِ
لأَحْتَنِـكَنَّ ذُرِّيَّته إلا قليلا ﴾

لو علقت به ذرَّةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب[2] على نفسه بالإضلال والإغواء ، لـكنَّه أقامه الحقُّ بذلك المقام ، وأنطقه بما هو لقلوبِ أهلِ التحقيق مُتَّضِـح .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ منهم
فإنَّ جهنَّمَ جزاؤكم جَزَاءً موفوراً ﴾

---

(١) الرؤيا المقصودة هى التى سبقت يوم بدر ، وفيها بُشر بالنصرة وبأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فسخروا منه . وربما كانت رؤيا المعراج عند من قال إن المعراج كان فى المنام .
والشجرة الملعونة هى الزَّقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها تنبت شجرة ! فجعلوها سخرية

(٢) حَطَبَ = جَنَى على نفسه لعدم تفقد أمره وكلامه

واستفزِزْ مَنِ استطعتَ منهم بصوتِكَ
وأجلِبْ عليهم بِخَيْلِكَ ورَجِلِكَ
وشارِكْهُم فى الأموالِ والأولادِ ،
وعِدْهُم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً ﴾

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بألا مراء ولا تفويت ، ولو أخَّر عقوبةَ قومٍ فإن ذلك إمهالٌ لا إهمال ، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ .

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك » : أى إفعل ما أمكنكَ ، فلا تأثيرَ لفعلك فى أحد ، ، فإنَّ المنشىء والمُبْدِعَ هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عبادى ليس لَكَ عليهم سُلْطانٌ
وكفى بربِّك وكيلاً ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم[1] ،ولا حجة للعذر على أحد ، بل الحجة لله وحده .

ويقال السلطان هو التَّسلُّط ، وليس لإبليس على أحدٍ تسلط ؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فالحادثاتُ كلها تحدث بقدرة الله ؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير فى أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادى » الخواصَّ من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلَ الله ؛ فإن وساوسَ الشيطان لا تضرُّهم لالتجائهم إلى الله ، ودوام استجارتهم بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إنَّ فرار[2] الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون فى أَسْرِ غيره ، وأمَّا مَنْ استعبده هواه ،

---

(١) العموم هنا معناها الكافة أى الخواص وغير الخواص .
(٢) وردت (قرار) بالقاف وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

واستمكنت منه الأطماع ، واسترقته[1] كل خسيسة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه . .
وفى الخبر « تَعِسَ عبد الدرهم تعس عبد الدينار »[2]

ويقال فى « عبادى » هم المُتَفَيِّئُون فى ظلال عنايته، المُتَبَرِّءُون عن حَوْلِهِم وقُوَّتِهِم ، المتفرِّدُون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلّق به .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّكم الذى يُزْجِى لكم الفُلْكَ
فى البحر لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إنه
كان بكم رحيماً ﴾

تعرَّف إلى عباده بخَلْقِه وإنعامه ، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غَبَرٍ إلا وهو شاهِدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فى البحر ضَلَّ
مَن تَدْعُون إلا إياه فلما نجَّاكم
إلى البرِّ أعرَضْتُم وكان الإنسانُ
كفوراً ﴾

جُبِلَ الإنسانُ على أنه إذا أصابته نقمةٌ ، أو مَسَّتْهُ محنة فَزِعَ[3] إلى الله لاستدفاعها ، وقد يُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله ، فإذا أزال اللهُ تلك النِّقمة[4] وكَشَفَ تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا ، كأنهم لم يكونوا فى ضُرٍّ مَسَّهم ، وفى معناه أنشدوا :

فكم قد جهلتم ثم عُدْنا بِحِلْمِنا   أحباءنا كم تجهلون ! وَتَحْلُمُ !

---

(١) وردت (ويسره) ولا معنى لها هنا .
(٢) فى رسالة القشيرى ص ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . تعس عبد الخميصة) .
(٣) وردت (فرغ) بالراء والأفضل أن تكون بالزاى
(٤) وردت (النعمة) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿أفأمِنتُم أن يَخْسِفَ بكم جانبَ البرِّ أو يُرْسِلَ عليكم حاصِبًا ثم لا تجدُوا لكم وكيلاً ۝ أم أمِنتُم أن يُعيدَكم فيه تارةً أخرى فيرسلَ عليكم قاصِفًا مِّن الريحِ فيُغْرِقَكم بما كَفَرْتُم ثم لا تجدُوا لكم علينا به تبيعًا﴾

الخوفُ ترقُّبُ العقوبات مع مجارى الأنفاس — كذلك قال الشيوخ[1]. وأعرفُهم بالله أخوفُهم من الله. وصنوفُ العذابِ كثيرة ؛ فكم من مسرورٍ أوَّلَ ليلِه أصبح فى شِدَّة! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النِّعم! وفى معناه قالوا: إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿ولقد كَرَّمْنَا بنى آدمَ وحَمَلْنَاهم فى البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطيباتِ وفَضَّلْنَاهم على كثيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تفضيلاً﴾.

المراد من قوله: « بنى آدم » هنا المؤمنون لأنه قال فى صفة الكفار: « ومَنْ يُهِنِ الله فما له من مُكْرِم »[2]. والتكريم التكثير من الإكرام، فإذا حَرَمَ الكافرَ الإكرامَ.. فمتى يكون له التكريم؟.

ويقال إنما قال: « كَرَّمْنَا بنى آدم » ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد

(١) هذه العبارة للجنيد كما جاء فى رسالة القشيرى ص ٦٥ فى رواية أبى عبد الله الصوفى عن على بن ابراهيم العكبرى.

(٢) آية ١٨ سورة الحج.

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابلَ فعلٍ، أو مُعَلَّلاً بعلةٍ ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يوجبُ ذلك التكريم .

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أى وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خاطبه ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته ، فلو تكرر منه جُرْمُه ثم توبته يضاعف له قبولَه التوبة وعفوَه .

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ فى التوبة أَخَذَ بيده ، وإذا قال : لا أعود — يقبل قولَه وإنْ عَلِمَ أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهرَهم بتوفيق المجاهدة ، وحَسَّنَ باطنَهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا فى الأثر : « أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى » .

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم : « فاذكرونى أذكركم »[1] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكما خَصَّ بنى آدم بالتكريم خصَّ أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم بتكريم مخصوص ، فمن ذلك قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه »[2] و « رضى الله عنهم ورضوا عنه »[3] وقوله « والذين آمنوا أشد حباً لله »[4] .

ومن التكريم قوله : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »[5].

---

(١) آية ١٥٢ سورة البقرة .
(٢) آية ٥٤ سورة المائدة .
(٣) آية ١١٩ سورة المائدة .
(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة .
(٥) آية ١١٠ سورة النساء .

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه .

ومن التكريم لقومٍ توفيقُ صدْقِ القدَم ، ولقومٍ تحقيقُ علوِّ الهِمَم . قوله : « وحملناهم فى البرِّ والبحر » : سخَّر البحر لهم حتى ركبوا فى السفن ، وسخَّر البرَّ لهم حتى قال : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

ويقال محمولُ الكرامِ لا يقع ، فإنْ وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده .

ويقال الإشارة فى حملهم فى البرِّ ما أوصل إليهم جهراً [1] ، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سِرًّا .

ويقال لمّا حَمَلَ بنو آدم الأمانة [2] حملناهم فى البر ، فحَمْلٌ هو جزاء حَمْلٍ ، حَمْلٌ هو فِعْلُ مَنْ لم يكن [3] وحَمْلٌ هو فَضْلُ من لم يزَل .

قوله : « ورزقناهم من الطيبات » : الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق ؛ فمَنْ لم يكن غائباً بقلبه [4] ولا غافلاً عن ربِّه استطاب كُلَّ رزقٍ ، وأنشدوا :

يا عاشقى إنى سَعِدْتُ شرابا   لو كان حتى علقماً أو صابا

قوله : « وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا » : أى الذين فضلناهم على خلقٍ كثير ، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ مَنْ خَلَقْنا ، وذلك التفضيل فى الخِلْقة . ثم فَاضَلَ بين بنى آدم فى شيء آخر هو الخُلُق الحسن ، فجَمَعَهم فى الخِلْقة — التى يفضلون بها سائر المخلوقات — ومَايَزَ بينهم فى الخُلُق .

ويقال : « كرّمنا بنى آدم » : هذا اللفظ للعموم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين ، ففَضَّل أولياءه على كثيرٍ ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية .

---

(١) وردت (خيراً) والصواب أن تكون (جهراً) لتقابل سراً) وبذلك يقوى السياق ويتماسك .

(٢) وردت (الاهانة) بالهاء ومن المؤكد أن الميم التبست على الناسخ والمراد (الأمانة) إشارة إلى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة . . . الآية » .

(٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى .

(٤) غيبة القلب عن علم مايجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠) .

ويقال فضّلهم بألاّ ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ ندعو كُلَّ أناسٍ بإمامِهم فَمَنْ أُوتى كتابَه بيمينه فأولئك يقرءون كتابَهم ولا يُظْلَمون فتيلاً ﴾

إمامُ كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِى به ، ولكن .. مِنْ إمامٍ يهتدى به مُقْتَدِيه ، ومن إمام يتردَّى به مقتديه .

« فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم » : لكمالِ صحوهم وقيادة عقلهم ، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفِهم وتَرَدُّدِهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن كان فى هذه أعمىٰ فهو فى الآخرةِ أعمىٰ وأَضَلُّ سبيلاً ﴾

فى الآخرة أعمى عن معاينته ببصيرته .

فى الآخرة عذابُه الفُرقةُ وتضاف إليها الحُرْقة — لهذا فهو « أضلُّ سبيلاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنا إليكَ لِتَفْتَرِىَ علينا غيرَه وإذاً لا تَّخذوكَ خليلاً ﴾

ضربنا عليكَ سرادقاتِ العصمة ، وآويناكَ فى كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك ، فالزَّلَّةُ منك محال[1] ، والافتراء فى نعتك لا يجوز . . ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَتضاعفتْ عليكَ تشديداتُ البلاء ، لكمالِ قدْرِك وعُلُوِّ شأنك ؛ فإنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فذَنْبُه — لو حصل — أشدُّ تأثيراً .

---

(١) وردت (مجال) بالجيم وهى خطأ فى النسخ ، ومن قول القشيرى يتضح أنه يؤيد عصمة الأنبياء من الزلات .

قوله جل ذكره: ﴿ولولا أن ثبّتناك لقد كِدتَ تَرْكَنُ
إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناكَ
ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ ثم لا تجِدُ
لكَ علينا نصيراً﴾

لو وكلناكَ ونَفْسَكَ، ورفعنا عنك[1] ظِلَّ العصمة لألممْتَ بشيء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكننا أفردناكَ بالحفظ، فلا تتقاصر عنكَ آثارُه، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه.

قوله: «إذاً لأذقناك . . . الآية» هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم، ومِحَنُ الأحِبَّةِ وإنْ قَلَّتْ جلَّتْ، وفى معناه أنشدوا:

أنت عينى وليس من حقِّ عينى   غضُّ أجفانها على الأقذاء

قوله جل ذكره: ﴿وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ
الأرضِ لِيُخْرِجوكَ منها وإذاً
لا يلبثون خِلافَكَ إلّا قليلاً﴾

مَنْ ظنَّ (أنه يستمتع بحياته بعد مضىّ الأعِزَّة)[2] والأكابر غَلِطَ فى حسابه، وإن الحسودَ لا يسود:

وفى تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ ضوءها   (ويجهد أن يأتى لها)[3] بضريب

والأرض كلها مِلْكٌ لنا، ونقلِّب أولياءنا فى ترددهم فى البلاد وتطوافهم فى الأقطار، تردداً على بساطنا، وتقلباً فى ديارنا، فالبقاع لهم سواء، وأنشدوا:

(فَسِرْ أو أقِمْ)[4] وَقْفٌ عليكَ محبتى   مكانُكَ من قلبى عليك مصونُ

---

(١) وردت (عليك) والملائم للسياق أن تكون (عنك).
(٢) ما بين القوسين مستدرك فى الهامش بخط ردىء.
(٣) ما بين القوسين مستدرك فى الهامش بخط ردىء.
(٤) ما بين القوسين مستدرك فى الهامش بخط ردىء.

قوله جل ذكره : ﴿ سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قبلَكَ من رُسُلِنا ولا تجدُ لِسنَّتِنا تحويلًا ﴾

الحقُّ أمضى سُنَّتَه مع الأولياء بالإنعام ، ومع أعدائه بالإدغام[1] ، فلا لهذه أو هذه تحويل .

قوله جل ذكره : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لدلوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقرآنَ الفَجْرِ إنَّ قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً ﴾

الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق . والصلاةُ الوقوفُ فى محل المناجاة .

والصلاةُ اعتكافُ القلبِ فى مشاهد التقدير .

ويقال هى الوقوف على بساط النجوى . وفَرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى البساط فى اليوم والليلة مراتٍ .

« إن قرآن الفجر كان مشهوداً » : تشهده ملائكة الليل والنهار — على لسان العلم . وأمَّا على لسان القوم فإن قرآن الصبح — الذى هو وقت إتيانه — يُبْعِدُ من النومِ وكَسَلِ النفس فله هذه المزية .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الليل فتهجَّدْ به نافلَةً لك عسىٰ أن يبعثَكَ ربُّك مقامًا محموداً ﴾

الليل لأحدِ أقوام : لطالبى النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَح[2] منهم إلى التوبة ، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يجدُّون فى الطاعات ، ويسارعون فى الخيرات ، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة .

ويقال الليل لأحد رجلين : للمطيع والعاصى : هذا فى احتيال أعماله ، وهذا فى اعتذاره عن قبيح أفعاله .

---

(١) أدغمه الله إدغاماً أى سود وجهه وأذله (الوسيط) .

(٢) وردت (نجح) وهى خطأ فى النسخ .

والمقام المحمود هو المخاطبة فى حال الشهود ، ويقال الشهود .

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به — صلى الله عليه وسلم[1] — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لى مِن لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً ﴾

أى أدخلنى إدخالَ صدقٍ وأخرجنى إخراجَ صدقٍ . والصدقُ أن يكون دخولُه فى الأشياء بالله لله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره .

« واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » : فلا ألاحظ دخولى ولا خروجى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً ﴾

أراد بالحقِّ ها هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشِّرْك ، والحقُّ المطلق هو الموجود الحق ، والحق المقيد ما كان حسناً فى الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل نقيض الحق . واللهُ حقٌّ : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق[2] .

ويقال الحقُّ ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطلُ ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شِفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين إلا خَساراً ﴾ .

القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء ، وشفاء من داء الشِّرْكِ للمؤمنين ، وشفاء من داء

---

(١) إضافة من جانبنا حتى يتضح السياق .

(٢) قارن ذلك بنظرية « وحدة الوجود » وما نراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

السكرة للعارفين ، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين ، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين ، وأنشدوا :

وكُتْبُكَ حوْلِى لا تفارق مضجعى   وفيها شفاء للذى أنا كاتِمُ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطابٌ واحد ، والكتابُ كتابٌ واحد ، ولكنه لقومٍ رحمةٌ وشفاء ، ولقوم سخطٌ وشقاء . قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء ، وقوم أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أنْعَمْنا على الإنسانِ أعْرَضَ
وَنأى بجانبِه ، وإذا مَسَّه الشرُّ
كان يَئُوساً ﴾ .

إذا نزعنا عنه موجباتِ الخوفِ ، وأرخينا له حَبْلَ الإمهال ، وهَيَّأْنا له أسبابَ الرفاهية اعترته مغاليطُ النسيانِ ، واستولت عليه دواعى العصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضُه فى هذا الموضوع لسيانُه ، ورؤية الفضل منه لا من الحقِّ ، وتوهمه أنَّ ما به من النِّعم فباستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدةٍ قاساها . . وهذا فى التحقيق شِرْكٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شاَ كِلَتِه فربُّكم
أعْلَمُ بِمَنْ هو أهدى سبيلاً ﴾ .

كُلٌّ يترشح بِمُودَعِ باطنه ، فالأَسِرَّةُ تدل على السريرة ، وما تُكِنُّهُ الضمائرُ يلوح على السرائر ، فَمَنْ صفا مِنَ الكدورة جوهرُه لا يفوح منه إلا نَشْرُ مناقبه ، ومنْ طبِعَتْ على الكدورةِ طينتُه فلا يشمُّ مَنْ يحوم حولَه إلا ريحَ مثالبه .

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخبِرُ عن بواطنِ السرائر .

ويقال حَبُّ (. . .)[1] لا يُنْبِتُ غضَّ العود .

---

(١) مشتبهة .

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشِّقْوةِ طينتُه ، وطُبِعَتْ على النَّكِرَةِ جِبِلَّتُه لا تسمح بالتوحيد قريحتُه ، ولا تنطِقُ بالتوحيد عبارتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونَكَ عَنِ الروحِ قُلِ الروحُ مِنْ أمرِ ربى وما أُوتيتم من العلمِ إلا قليلاً ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُغَلِّطُوه فأمَرَه أن ينطق بلفظٍ يُفْصِحُ عن أقسامِ الروح ؛ لأنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ « الروحِ » يدخل تحت قوله تعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه فى القالب ، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذنُ محلَّ السمعِ .. إلى آخره ، والبصير والسامع إنما هو الجملة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْس ، والحكمُ أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة)[1]

وفى الجملة الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح فى جسده .

والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها ، وهى مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين . وقيل إنه أدركها التكليف ، وإن لها صفاء التسبيح ، وصفاء المواصلات ، والتعريف من الحق .

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » : لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَئِن شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنا إليكَ ثم لا تَجِدُ لكَ به علينا وكيلا ﴾

---

(١) ما بين القوسين مضطرب اضطراباً شديداً فى النسخ ، وقد عدنا إلى رسالة القشيرى فاعتمدنا عليها فى تنظيم السياق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة ص ٤٨) .

سُنَّةُ الحقِّ — سبحانه — مع أحبائه وخواص عباده أن يُدِيمَ لهم افتقارهم إليه ، ليكونوا فى جميع الأحوال مُنْقادين لجريانِ حُكْمِهِ ، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِه ، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَه — صلوات الله عليه — بقوله : « ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » : (فمن كان استقلاله بالله يقدِّم)[1] مرادَ سيده — فى العزل والولاية — على مراد نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا رحمةً مِّن رَّبِّك إنَّ فَضْلَه
كان عليك كبيراً ﴾

والمقصودُ (من هذا إدامة تَفَرُّدِ سِرِّهِ)[2] صلى الله عليه وسلم به — سبحانه — دونَ غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ
على أن يَأتوا بِمِثْلِ هـذا القرآنِ
لا يأتونَ بِمِثْلِه ولو كان بعضُهم
لبعضٍ ظهيراً ﴾

(سائر الأنبياء)[3] معجزاتُهم باقيةٌ حُكْماً ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — معجزته باقيةٌ عيناً ، وهى القرآن (الذى نتلوه ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه)[4] ولا مِنْ خَلْفِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَرَّفْنا للناسِ فى هذا القرآن
من كُلِّ مَثَلٍ فأَبَى أكثرُ الناسِ
إلا كُفُوراً ﴾

لا شىء أَحْظَى عند الأحباب من كتاب الأحباب ، فهو شفاء من داء الضنى ، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البَلاَء ، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفـاء للذى أنا كاتم

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مدونة فى أعلى الورقة بعلامات مميزة لمكانها من النص ، وقد أثبتنا كلا فى موضعه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن نؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لنا
من الأرضِ يَنْبُوعاً * أو تـكونَ
لكَ جَنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ
الأنهارَ خلالها تفجيرا * أو تُسقِطَ
السماء كما زعَمْتَ علينا كِسَفاً
أو تأتِيَ بالله والملائـكةِ قَبيلاً
* أو يكونَ لكَ بَيْتٌ من زُخْرُفٍ
أو ترقىٰ فى السماء ، ولن نُؤْمِنَ
لِرُقِيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً
نَقْرَؤُه قُلْ سبحان ربى هل كُنْتُ
إلاَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾

اقترحوا الأياتِ بعد إزاحةِ العِلَّة وزوالِ الحاجة ، فرَكَضُوا فى مضمارِ سوءِ الأدب ، وحُرِموا الوُصْلة والقُربة . ولو أُجيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْدًا ونكرة ، وقد قيل :

إنَّ الـكريمَ إذا حباكَ بودِّه سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

« قلْ سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا » : قل يا محمد : سبحان ربى ! مِنْ أين لى الإتيان بما سألتم من جهتى ؟ فهل وَصْفِى إلا العبودية ؟ وهل أنا إلا بَشَر ؟ قال تعالى : « لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله »(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَ النـاسَ أن يُؤْمِنُوا إذ
جاءهُم الهُدَى إلاَّ أن قالوا أبَعَثَ
اللهُ بَشَراً رسولا ﴾

---

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تعجّبوا[1] مما ليس بمحلِّ شُبهة ، ولكن حَمَلَهم على ذلك فَرْطُ جَهْلِهم ، ثم أصَرّوا على تكذيبهم وجحدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لو كانَ فى الأرض ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئنين لَنَزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً ﴾

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ ، والشكلُ بالشكلِ آنَسُ ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لجَعَلْنا الرسولَ إليهم ملَكاً ، فلمَّا كانوا بَشَرًا فلا ينبغى أن يُسْتَبعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كَفَى باللهِ شهيداً بينى وبينكم إنَّه كان بعبادِه خبيراً بصيراً ﴾

الحقُّ — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقَاسُ حُكْمُه على حُكْمِ الخلْق ، ولا يجوز فى صفةِ المخلوقِ أنْ يكونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاتُه ذاتَ الخَلْقِ لا تشبه صفتُه صفةَ الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ ومَن يُضْلِلْ فلَن تَجِدَ لهم أولياءَ مِن دونِه ونحشرهم يومَ القيامةِ على وجوهِهم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً مأواهم جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهم سعيراً ﴾

مَنْ أراده بالسعادةِ فى آزاله استخلصه فى آباده بأفضاله ، ومَنْ عَلِمَه فى الأزل بالشقاء وَسَمَه فى أبده بِسِمةِ الأعداء . فلا لِحُكْمِه تحويل ، ولا لِقَوْلِه تبديل .

---

(1) وردت (تعجلوا) والمعنى يقتضى (تعجبوا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا
وقالوا أئذا كُنّا عظاماً ورُفاتا
أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً ﴾

لمّا أصرّوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم ، ولو ساعدهم التوفيقُ لَوُجِدَ منهم التحقيق ، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحُرموا التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَ
السّمٰوات والأرضَ قادرٌ على أن
يَخْلُقَ مِثْلَهم وجَعَلَ لهم أَجلاً لاريبَ
فيه فأَبَى الظالمون إلا كُفُوراً ﴾

مَهّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس[1] ، فلم يغادر فى الكتاب شيئاً من أحكام الدِّين لم يؤيده بالدليل والبيان[2] ، فَعَلِمَ الكُلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قل لو أنتم تَمْلِكُون خزائنَ رحمةِ
ربى إذاً لأَمْسَكْتُم خشيةَ الإنفاقِ
وكان الإنسانُ قَتُوراً ﴾

إذ البُخْلُ غريزةُ الإنسان ، والشحُّ سجيته [(. . . .)[3] المعروف لايعرف الخلقة][4]

---

(١) من هذا نعرف أن القشيرى مؤمن بأهمية القياس العقلى ضمن ما هو معروف من مصادر الشريعة وفى هذا رد على من يتهم الصوفية بالتنكر للعقل ، مع أنهم حريصون كل الحرص على تصحيح الإيمان فى مراحل البداية عن طريق الوسائل العقلية .

(٢) وربما كانت (البرهان) بدل (البيان) ، فالبرهان أقرب إلى (الدليل) وإلى (القياس) كما أن البيان — فى مذهب القشيرى المعرفى — مرحلة قلبية وليست عقلية .
ومع ذلك فقد يكون المقصود أن كتاب الله لم يغادر شيئاً إلا أيده (بالدليل العقلى) و (البيان) القلبى .

(٣) هنا بياض فى الأصل .

(٤) ما بين القوسين الكبيرين ورد هكذا وفيه غموض ناتج عن سقوط ما سبق .

قوله جل ذكره . ﴿ ولقد آتينا موسى تِسْعَ[1] آياتٍ
بَيِّناتٍ ﴾

هى أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فقال له فرعونُ إنى لأظنك ياموسى
مسحوراً * قال لقد علمتَ ما أنزلَ هؤلاء
إلا ربُّ السموات والأرض بصائرَ
وإنى لأظنك يا فرعونُ مثبوراً ﴾

أنت — يا فرعون — سلكتَ طريق الاستدلال فعلمتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا مِنْ قِبَلِ الله ، ولكنكَ ركنتَ إلى الغفلةِ فى ظلمات الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿ فأراد أن يَسْتَفِزَّهم من الأرضِ
فأغرقناه ومَن معه جميعاً ﴾

أراد فرعونُ إهلاكَ بنى إسرائيل واستئصالَهم ، وأراد الحقُّ — سبحانه — نصرتَهم وبقاءهم ، فكانَ ما أراد الحقُّ لا ما كاد اللعين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا مِنْ بَعْدِه لبنى إسرائيلَ
اسكُنوا الأرضَ فإذا جاء وَعْدُ
الآخرةِ جِئْنا بكم لفيفاً ﴾

أورثهم منازلَ أعدائهم ، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته ، وعرَّفهم أنهم إنْ سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تقدَّمهم ذاقوا من العقوبة مثلَ عقوبتهم .

---

(1) عن ابن عباس أنها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى اسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور .

قوله جل ذكره : ﴿ وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نزَل وما أرسلناكَ إلا مُبَشِّرا ونذيراً * وقرآناً فرَقناه لِتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ ونَزَّلْنَاه تنزيلاً ﴾

القرآن حقٌّ ، ونزوله بحق ، ومُنَزِّلُه حق ، والمُنَزَّلُ عليه حق ، فالقرآن بحقٍّ نزل ومِنْ حقٍّ نزل وعلى حقٍّ نزل . وقد فَرَّقَ القرآنَ لِيُهَوِّنَ عليه — صلوات الله عليه — حِفْظَه ، وليكثر تردد الرسول من ربِّه عليه ، وليكون نزوله فى كل وقت وفى كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ آمِنوا به أو لا تُؤْمِنوا إنَّ الذين أوتوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّداً * ويقولون سُبحان رَبِّنا إن كان وعدُ ربِّنا لَمَفْعولاً ﴾ .

إنْ آمنتم حَصَلَ النفعُ لكم ، وإنْ جَحَدْتُم ففى إيمان مَنْ آمن مِنْ أوليائنا عنكم خَلَفٌ ، وإنَّ الضَّرَرَ عائدٌ عليكم .

وإنَّ مَنْ أضأنا عليهم شموسَ إقبالنا لتُشْرِق أنوارُ معارفهم ؛ فإذا تُليت عليهم آياتُنا سَجَدُوا بَدَلَ جُحْدِهم ، واستجابوا بدل تمردهم ، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَخِرُّون للأذقانِ يبكون ويزيدُهم خشوعاً ﴾ .

تأثيره فى قلوب قوم يختلف ؛ فتأثير السماع فى قلوب العلماء بالتبصُّر ، وتأثير السماع

فى أنوار الموحِّدين بالتحير[1]، تبصُّر العلماء بصحة الاستدلال، وتحيُّر الموحدين فى شهود الجمال والجلال.

وبكاء كل واحدٍ على حسب حاله: فالتائب يبكى لخوف عقوبته لما أسْلَفَهُ من زَلَّته وحَوْبته، والمطيعُ يبكى لتقصيره فى طاعته، ولـكيلا يفوته ما يأمله من مِنَّتِه.

وقوم يبكون لاستبهامْ عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين. وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول[2]، وهو فى الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفى معناه أنشدوا:

خُلِقنـا رجالا للتجلدِ والأسَى وتلك الغوانى للبُـكا والمـآتِمِ

قوله جل ذكره: ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أيًّا ما تدعوا فلَهُ الأسماء الحُسنَى ﴾

مِنْ عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تَنَزُّهُهم بأسرارهم فى رِياض ذِكْرِه بتعداد أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة، ومن مَأنَسٍ إلى مأنس.

ويقال الأغنياء ترددهم فى بساتينهم، والأولياء تنزههم فى مشاهد تسبيحهم، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.

قوله جل ذكره: ﴿ ولا تَجْهَرْ بصلاتِكَ ولا تُخافِتْ بها وابتغِ بين ذلك سبيلاً ﴾.

لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكُلِّها، وارفع صوتك فى بعضها دون بعض.

ويقال ولا تجهر بها جهراً يَسْمَعُهُ الأعداء، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

« وابتغ بين ذلك سبيلاً »: يكون للأحباب مسموعاً، وعن الأجانب ممنوعاً.

---

(1) ليس (التحير) هنا ناجماً عن الشك، وإنما ناجم عن شدة الوله وعنف الأخذ.
(2) لأن الأكابر فى حال التمكين لا التلوين.

ويقال « ولا تجهر بصلاتك » : بالنهار ، « ولا تخافت بها » : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلِ الحمدُ لله الذى لم يتخذْ وَلَدًا
ولم يَكُن له شريكٌ فى المُلْكِ
ولم يَكُن له ولىٌّ من الذُّلِّ وكَبِّرْه
تكبيراً ﴾ .

احْمَدْه بذكر تقدسه عن الولد ، وأنه لا شريك له ؛ ولا ولى له من الذل ؛ إما على أنه لم يَذَلَّ فيحتاج إلى ولى ، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته . ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرَّفك بذلك .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعتريهم بِذُلِّهم ، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً .

« وكبِّرْه تكبيراً » بأَنْ تَعلَمَ أنك تصل إليه به لا بتكبيرك .

السورة التى يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماعِ اسم الله ، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله ، وما طَرِبَتْ الأرواح إلا بشهود جلال الله .

سماع « بسم الله » راحةُ القلوبِ وضياؤُها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

« بسم الله » قُوتُ العارفين ؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم ، وبها استقلالهم وبقاؤهم (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدُ للهِ الذى أَنزَلَ على عَبْدِهِ
الكتابَ ولم يَجْعَل له عِوجًا ﴾

---

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسملة فى أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذين فنوا عن أنفسهم لبقائهم بالله .

إذا حُمِلَ « الحمدُ» هنا على معنى الشكر فإنزالُ الكتاب من أَجَلِّ نِعَمِه ، وكتابُ الحبيب لدى الحبيب أجلُّ موقع وأشرفُ محلٍّ ، وهو من كمال إنعامه عليه ، وإنْ سمَّاه — عليه السلام — عَبْدَه فهو من جلائل نِعَمه عليه لأنَّ من سمَّاه عَبْدَه جَعَلَه من جملة خواصِّه .

وإذا حُمِلَ « الحمدُ » فى هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه — سبحانه ، بأنَّه الملِكُ الذى له الأمرُ والنهىُ والحكمُ بما يريد ، وأنه أعدَّ الأحكامَ التى فى هذا الكتاب للعبيد ، وسمَّاه صلى الله عليه وسلم عبدَه لمَّا كان فانياً عن حظوظه ، خالصاً لله بقيامه بحقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شديداً مِن لَدُنه ﴾

« قَيِّماً » : أى صانه عن التعارض والتناقض ، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز .

« والبأس الشديد » : مُعَجَّلُه الفراق ، ومؤجَّلُه الاحتراق .

ويقال هو البقاء عن الله تعالى ، والابتلاء بغضب الله .

ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً ﴾ .

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول ، وهو ما يُؤَدَّى على الوجهِ الذى أُمِرَ به . ويقال العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص ، وصاحبُه صادقٌ فيه .

ويقال هو الذى لا يستعجل عليه صاحبه حَظّاً فى الدنيا مِنْ أَخْذِ عِوَضٍ ، أو قَبُولِ جاهٍ ، أو انعقادِ رياسة . . وما فى هذا المعنى .

وحصلت البشارةُ بأنَّ لهم أجراً حسناً ، والأجرُ الحَسَنُ مالا يجرى مع صاحبه استقصاءٌ فى العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّرُ صاحبَه تقصيرَه ، ويستر عنه عيوبَ عمله .

قوله جل ذكره: ﴿ما كثين فيه أبداً﴾

البشارة منه أنَّ تلك النِّعم على الدوام غير منقطعة، وأعظم من البشارة بها قوله[1]:

﴿وينذرَ الذين قالوا اتَّخذَ اللهُ ولدًا *
مالهم به من عِلْمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ
كلمةً تخرُجُ من أفواهِهم إن يقولونَ
إلا كَذِباً﴾

قالتُهم القبيحةُ نتيجةُ جَهْلِهم بوحدانيةِ الله، ولقد توارثوا ذلك الجهلَ عن أسلافهم؛ والحيَّةُ لا تَلِدُ إلا حَيَّةً!

كَبُرت كلمتُهم في الإثم لمَّا خَسَّت في المعنى. ومَنْ نطق بما لم يحصل له به إذن لَحِقَه هذا الوصف. ومَنْ تكلَّمَ في هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء[2].

قوله جل ذكره: ﴿فلعلَّكَ باخِعٌ نَفْسَك على آثارهم
إن لم يُؤْمِنُوا بهذا الحديثِ أسَفاً﴾

مِنْ فَرْطِ شفقته — صلى الله عليه وسلم — داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان، فهوَّن الله — سبحانه — عليه الحالَ، بما يشبه العتابَ في الظاهر؛ كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس في امتناعهم — في عَدِّنا — أثر، ولا في الدِّين من ذلك ضرر.. فلا عليكَ من ذلك.

ويقال أشهده جريانَ التقدير، وعرَّفَه أنه — وإنْ كان كُفْرُهم منْهيًّا عنه في الشرع — فهو في الحقيقة مُرَادُ الحق.

قوله جل ذكره: ﴿إنَّا جَعَلْنَا ما على الأرضِ زِينَةً لها﴾

(١) البشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(٢) في هذه الإشارة غمزة بمن ينطقون — بدعوى المحو — بما لا يليق.

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار ، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار . وإنَّ قيمةَ الأوطانِ لقُطَّانها ، وزينة المساكن فى سُكَّانها .

ويقال العُبَّاد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياء زينةُ الأرض وهم أمانُ مَنْ فى الأرض .

ويقال إذا تلألأت أنوار التوحيد فى أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لِنَبْلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً ﴾

أحسنهم عملاً أصدقهم نِيَّةً ، وأخلصهم طويةً .

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً ؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبة له ، وأعلى من هذا بل وأولى من هذا فأحسنهم عملاً أشدُّهم استصغاراً لفعله ،.وأكثرهم استحقاراً لطاعته ؛ لشدة رؤيته لتقصيره فيما يعمله ، ولانتقاصه أفعاله فى جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرء نَظَرُه إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار ، لقول الشاعر :

وأكبرُ من فِعْلِه وأعظمُه تصغيرُه فِعْلَه الذى فَعَله

معناه : أكبرُ مِنْ فعلِه — الذى هو عطاؤه وبَذْلُه — تقليلُه واستصغارُه لِمَا يُعْطِيه ويجود به .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزًا ﴾

كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها فى الحال سُلِبَ قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنِيه فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا من آياتنا عَجَباً ﴾

أزال الأعجوبةَ عن أوصافهم بما أضافه إلى ربِّه بقوله : « من آياتنا » ؛ فَقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ .

ويقال مكثوا فى الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال : « أصحاب الكهف » ، وللنفوس مَحَالٌ ، وللقلوب مَقَارٌ ، وللهمم مَجَال ، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه[1] .

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم ؛ فحالُك أعجبُ فى ذهابك إلينا فى شطر من الليل حتى قاب قوسين أو أدنى[2] ، وهم قد بقوا فى الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾

آواهم إلى الكهف بظاهرهم ، وفى الباطن فهو مُقِيلُهم فى ظلٍّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم[3] .

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » : أى أنهم أخذوا فى التبرِّى مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتِهم ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ فاقتهم ، فاستجاب لهم دعوتَهم ، ودفع عنهم ضرورتَهم[4] ، وبوَّأهم فى كنف الإيواء مقيلا حسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائقِ ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

---

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذى يعتكف فيه .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى المنزلة الرفيعة التى وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — ليلة الإسراء والمعراج ، وكيف أنه انتهى فى ليلة واحدة إلى ما لم يصل إليه أصحاب الكهف فى سنين .

(٣) واضح أن القشيرى يعالج قصة أهل الكهف فى ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من النماذج التى يقدمها التصوف لتفسير الظواهر العجيبة التى تقلب فيها العادة ، ويحار فيها العقل .

(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يلزم الإنسان من طعام وشراب وتخلص من بقاياها . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾

أى رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم ، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهُم بالحقّ إنهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم﴾

لمّا كانوا مأخوذين عنهم تولَّى الحق — سبحانه — أنْ قصَّ عنهم ، وفرّقٌ بين من كان عن نفسه وأوصافه قاصًّا ؛ لبقائه فى شاهده وكونه غيرَ منتفٍ بجملته .. وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره ؛ لفنائه عنه وامتحائه منه وقيام غيره عنه .

ويقال لا تُسمَعُ قصةُ الأحباب أعلى وأجلّ مما تُسمَعُ من الأحباب ، قال عزّ من قائل : « نحن نقص عليك » ، وأنشدوا :

وحدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتنِى حنيناً فَزِدْنى من حديثكَ يا سعدُ

قوله : « إنهم فتية آمنوا بربهم » : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا — على الوهلة — بربِّهم ، آمنوا من غير مهلة ، لمّا أتتهم دواعى الوصلة(1) .

ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿وزِدْناهم هدًى * وربَطْنا على قلوبهم﴾

لاطَفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم فى أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقّاهم أولاً التبيين ، ثم رقّاهم عن ذلك باليقين .

---

(1) لاحظ أهمية ذلك فى فهم معنى (الفتوة) عند الصوفية .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى متع نهار[1] معارفهم ، واستضاءت شموسُ تقديرهم ، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ فى خواطرهم ، و (. . .)[2] فى التجريد أسرارهم ، وتَمّتْ سكينةُ قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أفنيناهم عن الأغيار ، وأغنيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنّا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسنح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰواتِ والأرضِ ﴾

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عمّا سوى الله .

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصلَ إلى الله .

ويقال قعدت عنهم الشهوات فَصَحَّ قيامُهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لن نَدْعُوَا مِن دونِهِ إلٰها ، لقد قُلْنَا إذاً شَطَطاً ﴾ .

مَنْ أحال الشيء على الحوادثِ فقد أشرك بالله ، ومَنْ قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلٰهاً مِنْ دون الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿هؤلاءِ قومُنا اتخذوا من دونه آلِهةً لولا يأتون عليهم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افترى على الله كذباً ﴾

(١) متوع النهار اصطلاح يأتى فى مذهب القشيرى بعد اللوائح والطوالع واللوامع ، وهو يلتقى مع المعنى من حيث اللغة (يقال متع النهار أى بلغ غاية ارتفاعه) .

(٢) مشتبهة وهى قريبة فى الرسم من (واتحذوا) ومصوبة فى الهامش (واتحدروا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهى على العموم كلمة تفيد خلوص أسرارهم فى التجريد وإلا لما حدثت سكينة قلوبهم .

لمَّا لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبُهم ، فمن اكتفى بِنَفْى القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول فى نحلته .

« فَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ » فمن ذَكَرَ فى الدِّين قولاً لم يؤيَّد ببرهان عقلى أو نقلى فهو مفترٍ ، ومَنْ أظهر مِنْ نَفْسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ . والذى يصدق فى قوله — فى هذه الطريقة — فهو الذى يسمع من الحق بسرِّه ، ثم ينطق بلفظه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا اللهَ ، فَأْوُوا إلى الكهفِ يَنشُرْ لكم ربُّكم مِّن رحمته ويُهَيِّئ لكم من أمْرِكُم مِرْفقاً ﴾

العزلةُ عن غير الله توجِبُ الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد العزْلَةِ عن غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عُبِدَ من دون الله آواهم الحقُّ إلى كنفَ رعايته ، ومهد لهم مثوىً فى كهفِ عنايته .

ويقال مَنْ تبرأ مِنَ اختياره فى احتياله ، وصَدَقَ رجوعه إلى الله فى أحواله ، ولم يستَعِن — بغير الله — من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله ، وكفاه جميعَ أشغاله ، وهيَّأ له مَحلًّا يتفيؤ فيه فى بَرْدِ ظِلالِهِ ، بكمالِ إقباله .

قوله جل ذكره : ﴿ وترى الشمسَ إذا طلعت تَزاور[2] عن كهفهم ذاتَ اليمينِ وإذا غَرَبَت

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة فى قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها فى بعض الأحيان عواقب جسيمة : وهى هل يفصح الصوفى الواله أم يكتم ؟ ونلاحظ أن القشيرى ربط القضية بعنصر أساسى هو الصدق . . .

(٢) تزاور من الزور وهو الميل ، والزور الميل عن الصدق .

تقرضهم(١) ذاتَ الشمالِ وهم فى فجوةٍ
منه ذلك من آياتِ الله ﴾

كانوا فى مُتَّسَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم(٢) .

إن نورَ الشمسِ ضياء يستضىء به الخَلْقُ ، ونور معارفهم أنوار يُعْرَفُ بها الحق ، فهذا نور يظهر فى الصورة ، وهذا نور يلوح فى السريرة . وبنور الشمس يدرك الخلْق وبنورهم كانوا يعرفون الحق .

وفى قوله — عزَّ اسمه : « ذلك من آيات الله » فيه دلالة على أن فى الأمر شيئاً بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمسِ إذا انتهى إليهم ازورَّ عنهم ، ومضى دونَهم بخلاف(٣) ما يقول أصحاب الهبة ، ليكونَ فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلَكُ فى النور الذى عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ ومَن يُضلِلْ
فَلَن تجدَ له وليًّا مُرْشِداً ﴾

فالله يَهْدِى قوماً بالأدلةِ والبراهين ، وقوماً بكشف اليقين ؛ فمعارفُ الأولين قضية الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان :

« ومَنْ يُضلِلْ الله » : أى مَنْ وَسَمَه بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفانَ ولا علمَ ولا إيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ وتَحْسَبُهُم أيقاظاً وهم رقودٌ ونُقَلِّبُهم
ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ﴾

---

(١) تقرضهم أى تقطعهم أى تتركهم وتعدل عنهم .

(٢) بالإضافة إلى أنوارهم أى إذا قيست بأنوارهم .

(٣) أى هذا على لسان أهل التفسير أما على لسان أهل الإشارة . وهذه أول مرة يطلق القشيرى (أصحاب الهبة) هذا الوصف عليهم فى « لطائفه » ، لهذا نبهنا إليه .

هم مسلوبون عنهم ، مُختَطَفُون منهم ، مُستَهلَكون فيما كوشِفوا به من وجود الحق ؛ فظاهرهم — فى رأى الخلق — أنهم بأنفسهم ، وفى التحقيق : القائمُ عنهم غيرُهم . وهم محوٌ فيما كوشفوا به من الحقائق .

ثم قال : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » : وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم ؛ فلا كشفقةِ الأمهات بل أتم ، ولا كرحمة الآباء بل أعزّ . . . وبالله التوفيق .

ويقال إن أهلَ التوحيد صفتهم ما قال الحقُّ — سبحانه — فى صفة أصحاب الكهف : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » فَهُمْ بشواهد الفَرْقِ فى ظاهرهم ، لكنهم بعين الجمع بما كُوشِفوا به فى سرائرهم ، يُجْرِى عليهم أحوالَهم وهم غير متكلِّفين ، بل هم يثبتون — وهم خمودٌ عما هم به — أن تصرفاتِهم القائمُ بها عنهم سواهم ، وكذلك فى نطقهم(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَلْبُهُم باسِطٌ ذِراعيه بالوصيدِ
لَوِ اطَّلعتَ عليهم لَوَلَّيْتَ منهم فِراراً
ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً ﴾

كما ذَكَرَهُم ذَكَرَ كلبَهم ، ومَنْ صَدَقَ فى محبة أحدٍ أحبَّ مَنْ انتسب إليه وما يُنْسَبُ إليه .

ويقال كلبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان — بل الحق يقول بقوله العزيز — : « وكلبهم باسط . . . . » فهل ترى أنَّ مُسْلِماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يردُّه يوم القيامة خائباً . ؟ إنه لا يفعل ذلك .

ويقال فى التفاسير إنهم قالوا للراعى الذى تبعهم والكلب معه : إصرف هذا الكلب عنّا . . . فقال الراعى : لا يمكننى ، فإنى أنا دينه .

ويقال أنطق الله سبحانه — الكلبَ فقال لهم : لِمَ تضربوننى ؟

فقالوا : لِتَنْصَرِفَ عنّا .

فقال : لا يمكننى أن أنصرف . . لأنه ربَّانى .

ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد الأولياء فإلى القيامة يقال « وكلبهم باسط ذراعيه

---

(١) فنطق العبد الواله وتصرفه يكونان بالله .... تذكر قصة الحلاج .

بالوصيد » . . . فهل إذا رَفَعَهَا مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما صَحِبَهم الـكلبُ لم تضره نجاسةُ صِفتِه ، ولا خساسةُ قيمته .

ويقال قال فى صفة أصحاب الـكهف إن كانوا «سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم » ، أو خمسة سادسهم كلبهم فقد قال فى صفة هذه الأمة : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » . .

وشتَّان ما هما !

ويقال كُلٌّ يُعامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته ؛ فالأولياء قال فى صفتهم : « و نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ، والـكلب قال فى صفته : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ويقال كما كَرَّر ذِكرَهم ، كرر ذِكْرَ كلبِهم .

وجاء فى القصة أن الـكلبَ لما لم ينصرفْ عنهم قالوا : سبيلنا إذا لم ينصرف عنَّا أنْ نَحْمِلَه حتى لا يُسْتَدَلّ علينا بأثر قَدَمِه فحملوه ، فـكانوا فى الابتداء (بل إياه)[1] وصاروا فى الانتهاء مطاياه . . كذا مَنْ اقتفى أثرَ الأحبابِ .

ويقال في القصة إن الله أنطق الـكلب معهم ، وبِنُطْقِه رَبَطَ على قلوبهم بأنْ ازدادوا يقيناً بسماع نطقه ، فقال : لِمَ تضربوننى ؟ فقالوا : لتنصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاء يصيبـكم فى المستقبل وأنتم بلائى فى الحال :

ثم إنَّ بلاءكم الذى تخافون أنْ يصيبـكم من الأعداء ، وبلائى منـكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما لزم الـكلبُ محلَّه ولم يجاوزْ حَدَّه فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء . . . كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوُصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِراراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً ﴾

---

(١) وردت هكذا ونرجح أنها (بلاياه) بدليل ما سيأتى بعد ذلك : (وأنتم بلائى فى الحال) .

الخطاب له — صلى الله عليه وسلم . والمرادُ منه غيره .

ويقال لو اطلعتَ عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتَهم من حيث شهود تولّى الحق لهم لبقيت على حالك .

ويقال لو اطلعتَ عليهم وشاهدتَهم لَوَلَّيْت منهم فراراً مِنْ أَنْ تُرَدَّ عن عالى منزلتك إلى منزلتهم ، والغنىُّ إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فرّ منه ، ولم تَطِبْ به نَفْسُه . « ولملئت منهم رعباً » بأن يُسْلَبَ عظيمُ ما هو حالك ، وتُقامَ فى مثل حالهم النازلة عن حالك .

ويقال : « لوليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائلٌ منهم كَمْ لبِثْتم قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ ﴾

استقلوا مدة لُبْثهم وقد لَبِثُوا (طويلاً) ، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم عِلْمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدرى أطال لَيْلِىَ أم لا ؟ كيف يدرى بذاك من يتقلّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِى ورعيت النجومَ كنتُ مُخِلاًّ

ويقال أيامُ الوصالِ عندهم قليلة — وإنْ كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صَبَاحُكَ سُكْرٌ والمساء خُمار[1] نَعِمْتَ وأيامُ السرورِ قِصارُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربُّكم أعلم بما لَبِثْتُم ﴾

لأنه هو الذى خَصَّكُم بما به أقامكم .

---

(١) الخمار = ماخالط الإنسان من سُكْر الخمر .

قوله جل ذكرهُ : ﴿ فابعثوا أحَدَكُم بوَرِقِكم هذه إلى المدينة فَلْيَنظُرْ أيها أزكى طعاماً فَلْيأتِكُم برِزْقٍ منه ﴾

ماداموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلبٌ لأكلٍ ولا شربٍ ولا شيء من صفة النَّفْس ، فلمَّا رُدُّوا إلى التميز أخذوا فى تدبير الأكل أوَّلَ ما أحسوا بحالهم ، وفى هذا دلالة على شدة[1] ابتداء الخَلْق بالأكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً ﴾

تَوَاصَوْا فيا بينهم بحسن التَّخَلّقِ وجميل الترفُّقِ ، أى ليتلطف مع من يشترى منه شيئاً .

ويقالَ أوصوا مَنْ يشترى لهم الطعامَ أنْ يأتيهم بألطف شىء وأطيبِه ، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس ولا المبتذل فى المطعم من المأكول .

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك[2] .

والذى بلغ المعرفة لا يوافقه إلا أكل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّهم إن يَظْهَروا عليكم يَرْجُمُوكم أو يعيدوكم فى مِلَّتِهم ولن تُفْلِحوا إذاً أبداً ﴾

تواصوا فيا بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب[3] وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا فى مخالفتهم إمَّا بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل ، ولا يرضون

---

(١) شدة هنا معناها ضرورة .

(٢) معنى هذا ان القشيرى يميز بين مطعم وملبس أصحاب الرياضات ومطعم وملبس أهل المعرفة ، وربما كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيا بعد : « تواصوا فيا بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب » .

(٣) من هذا نفهم ضرورة أن يكتم أرباب الأحوال اسرارهم ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يدركون حقائق أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد الضرب والقتل (تذكر قصة الحلاج وغيره) .

إلا بردِّهم إلى ما منه تخلصوا ، فمَنْ احترق كدسُه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نَفْسُهُ .

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .

ويقال مَنْ أظهرَ لأعدائه سِرَّه فقد جَلَبَ باختياره ضُرَّه ، وفَقَدَ ما سَرَّه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أعْثَرْنا عليهم لِيَعْلَمُوا
أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ وأنَّ الساعةَ
لاريبَ فيها إذْ يتنازعون بينهم
أمرَهم فقالوا ابنوا عليهم بُنْياناً
رَبُّهم أعْلَمُ بِهِم قال الذين غَلَبُوا على
أمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجِداً ﴾

جعل أحوالَهم عِبْرَةً لِمَنْ جاء بَعْدَهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم ، فعاينهم الناس ، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة .

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذين عن التمييز ، متقلبين فى القبضة على ما أراده الحق ، مستودعين فيما كوشفوا ، مستهلكين عنهم فى وجود الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم ،
ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبُهم
رَجْمًا بالغيبِ ، ويقولون سبعةٌ
وثامِنُهم كلبُهم ﴾

أخبر أنَّ علومَ الناسِ متقاصرةٌ عن عددهم ؛ فالأحوالُ التى لا يطلع عليها إلا اللهُ فى أسرارهم وقلوبهم .. متى يكون للخَلْق عليها إشرافٌ ؟

أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُسَلَّم بالضرورة ، وهم لا يُدْرَكُون بالمشاهدة .

---

(١) يقول الشبلى واصفاً سبب محنة الحلاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كتمت » .

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقُّ — سبحانه — ذكْرَهم وذكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار ، ولمَّا ذَكَرَهم عدَّ الكلبَ فى جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل ربى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهم ما يَعْلَمُهُم إلا قليلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده ، ومَنْ كان قريباً فى الحالِ منهم ؛ فهم فى كَنَفِ الغَيْرة وإيواء الستر لا يَطَّلِعُ الأجانبُ عليهم ؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ ؛ لأنَّ الحق — سبحانه — يستر أولياءه عن الأجانب ، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة ؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : « الصوفية أهل بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرهم »(1) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَسْتَفْتِ فيهم مِنْهُم أحداً ﴾

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم ، ولا يهتدى إلى أحكامهم من لا يعرفهم . . فلا يصحُّ استفتاءِ مَنْ غاب علمهم عنه فى حالهم . ومَنْ لم يكن قلبهُ محلاً لمحبة الأحباب لا يكون لسانُه مقراً لذكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولنَّ لشىء إنى فاعلٌ ذلك غداً * إلَّا أن يشاء اللهُ ﴾

إذا كانت الحوادثُ صادرةً عن مشيئة الله فمَنْ عَرَفَ اللهَ لم يَعُدّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته ، واندرجت أحكامه فى شهوده لحكم الله .

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة فى مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ

---

(1) هذا القول للجنيد (ص ١٣٩) الرسالة

بِسِرِّه ، والشرعُ يستدعى منه نهوض قلبه فى طاعته ، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُر رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عسَىَ أن يَهْدِيَنِ ربِّى لأقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾

إنْ طرأتْ عليك طوارقُ النسيان — لا بتعمدك — فجرِّدْ بذكرك قَصْدَكَ عن أوطان غفلتك .

ويقال « واذكر ربك إذا نسيت » : فى الحقيقة نَفْسَك تمنعك من استغراقك فى شهود ذكرك .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربِّك : فإن العبدَ إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة فى ذكره[2] .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّك منه .

ويقال واذكر ربَّك إذا نسيت غيرَ ربِّك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَبِثُوا فى كَهْفِهِم ثلاثمائةٍ سنينَ وازدادوا تِسعاً ﴾

كانوا مأخوذين عنهم فى إحساسهم بأنفسهم فلم يقفوا على تطاول مدتهم ، وفى المثل : « أيام السرور قصار » ، والدهور فى السرور شهور ، والشهور فى المحن دهور ، وفى معناه :

أَعُدُّ الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قبلاً لا أعد اللياليا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ اللهُ أعْلَمُ بما لَبِثُوا له غَيْبُ

(١) معنى هذه الفقرة أنه قد يبدو فى الظاهر أن للعبد إرادة فى الامتثال للطاعة وفى إجراء أحكام الشريعة ، ولكن فى الحقيقة أن الحق سبحانه يتولى تبرئته من حوله وإرادته ، وتهيئة سره للتجرد عن كل غير وسوى .

(٢) لأن أعلى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور .

السموٰاتِ والأرضِ أبْصِرْ به وأسمِعْ
ما لهم مِّن دونِهِ من ولىٍّ ولا يُشْرِكُ
فى حُكْمِهِ أحدًا ﴾

مَنْ لم يعد أيامَهُ لاشتغاله بالله أحصى اللهُ أنفاسَهُ التى لله ، قال تعالى : « أحصى كل شىءٍ عددًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ ما أوحِيَ إليكَ من كتابِ
ربِّكَ ﴾

تَسَلَّ — حينما تتنوع عليك الأحوال — بما نُطْلِعُكَ عليه من الأخبار ؛ وإنَّ كُتُبَ الأحبابِ فيها شفاء لأنها خطابُ الأحباب للأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكلماتِهِ ولن تَجِدَ
من دونه مُلْتَحَدًا ﴾

أى لا تغييرَ لِحُكْمِهِ ؛ فَمَنْ أقصاه فلا قبولَ له ، ومَنْ أدناه فلا وصولَ له ، ومَنْ قَبِلَهُ فلا رَدَّ له ، ومَنْ قَرَّبه فلا صَدَّ له .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدعون
ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدون وجْهَهُ ﴾

قال : « واصبر نفسك » ولم يقل : « قلبَك » لأن قلبه كان مع الحقِّ ، فأمره بصحبته جَهْرًا بجهر ، واستخلص قلبه لنفسه سِرًّا بسرٍّ .

ويقال « يريدون وجهه » : معناها مريدين وجهه أى فى معنى الحال ، وذلك يشير إلى دوامِ دُعائهم ربهم بالغداة والعشىِّ وكون الإرادة على الدوام .

ويقال « يريدون وجهه » : فآويناهم فى دنياهم بعطائنا ، وفى عقباهم بكرائمنا .

ويقال « يريدون وجهه » : فكشف قناعَهم ، وأظهر صفتَهم ، وشَهَرَهم بعدما كان قد سَتَرَهم ، وأنشدوا :

وكشفنا لكَ القناعَ وقلنا   نعم وهتَكنا لك المستورا

ويقال لمـا زالت التُّهمُ سَلِمَتْ لهم هذه الإرادة ، وتحرروا عن إرادةِ كلَّ مخلوقٍ وعن محبةِ كل مخلوق .

ويقال لمَّا تقَاصَرَ لسانُهم عن سؤالِ هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحُرْمَةِ باب الحقّ — سبحانه — أمَرَه بقوله : « واصبر نفسك » وبقوله :

﴿ ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ﴾

أى لاترفع بصَرَكَ عنهم ، ولا تُقْلِعْ[1] عنهم نظرك .

ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمَرَ رسولَه — عليه السلام — بألا يرفعَ بصَرَه عنهم ، وهذا جزاء فى العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا ، وخَلَفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا ، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظَرَكَ فإنا لانمنع غداً نظرهم عنَّا[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغفلنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواه وكان أمْرُهُ فُرُطًا ﴾

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يُخْلِيَ لهم مجلسَه من الفقراء ، وأن يطردَهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله . « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لايعنيهم .

ويقال « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المُنْعِم .

ويقال هم الذين طوَّح قلوبَهم فى التفرقة ، فهم فى الخواطر الرَّدِيَّة مُثْبَتُون ، وعن شهود مولاهم محجوبون .

---

(١) لا تقلع عنهم نظرك أى لا تكف وتبعد .

(٢) تهم هذه الإشارة فى تقدير مدى تصور الصوفية لشخصية محمد (ص) .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتُلُوا بنسيان الحقيقة ولا يتأسّفُون[1] على ما مُنُوا به ولا على ما فاتَهم

ويقال الغفلةُ تزجيةُ الوقتِ فى غيرِ قضاءِ فَرْضٍ أو أداءِ نَفْلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الحقُّ من ربِّكم فَمن شاء فَلْيُؤْمِن ومَن شاء فَلْيَكْفُرْ ﴾

قُلْ يا محمد : ما يأتيكم من ربِّكم فهو حقٌّ ، وقوله صِدْقٌ .. فمَنْ شاء فليؤمِنْ ، ومن شاء فليكفر . . هذا غاية التهديد ، أى إنْ آمنتم ففوائدُ إيمانكم عليكم مقصورة ، وإنْ أبَيْتُم فعَذَابُ الجحود موقوفٌ عليكم ، والحقُّ — سبحانه — عزيزٌ لا يعود إليه بإيمان الكافة — إذا وَحَّدُوا — زَيْنٌ ، ولا مِنْ كُفْرِ الجميع — إنْ جحدوا — شَيْنٌ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إنَّا أعْتَدْنا للظالمين نارًا أحاطَ بهم سُرَادِقُها وإن يستغيثوا يُغَاثوا بماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِى الوجوهَ بِئْسَ الشرابُ وساءتْ مُرْتَفَقًا ﴾

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألَم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحقِّ ، ولو علموا ذلك لعلَّه كان يرحمهم . والحقُّ — سبحانه — أكرم من أن يعذِّبَ أحدًا يُتَمِّمُ لأجْلِه .

ويقال لو علموا مَنْ الذى يقول : « وساءت مرتفقًا » لعلَّه كان لهم تَسَلٍّ ساعةً ، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا ، وإلا فهذا شِبْهُ مرثيةٍ لهم ، والعبارة عن هذا تدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلًا * أولئكَ لهم جنَّاتُ عَدْنٍ تجرى مِن

---

(1) وردت (ولا يتنافسون) والمعنى يرفضها مما يرجح خطأ الناسخ فى نقلها .

تحتهم الأنهارُ يُحلَّوْنَ فيها مِنْ أساوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً
من سُنْدُسٍ وإستبرقٍ متَّكِئِينَ
فيها على الأرائكِ نِعْمَ الثوابُ
وحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾

أهلُ الجنة طابتْ لهم حدائقُها، وأهلُ النار أحاط بهم سُرادِقُها.

والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدةٌ . . . جلّتْ الأحديةُ، وتقدّستْ الصمدية!

ومَنْ وَقَعَتْ عليه غَبَرَةٌ في طريقنا لم تَقَعْ عليه قَتَرَةُ فراقنا، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجَدَ حظوةً لدينا، ومَنْ نَقَلَ قَدَمَهَ نحونا غفرنا له ما قدَّمَه، ومَنْ رَفَعَ إلينا يَدًا أجْزَلْنا له رَغَداً، ومَنْ التجأ إلى سُدَّةِ(١) كَرَمِنا آويناه في ظِلِّ نِعَمِنا، ومن شكا فينا غليلا(٢) مَهَّدْنا له — في دار فضلنا — مقيلاً.

« أجر مَنْ أَحْسَنَ عملا »: العملُ أحسنُه ما كان مضبوطًا بشرائط الإخلاص.

ويقال « مَنْ أَحْسَنَ عملا » بأن غاب عن رؤية إحسانه.

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَصْدَه عن كلِّ حظٍّ ونصيب.

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فضله، فإذا أخلصتَ في تَوَسلِكَ إليه بفضله، وتوصُّلِكَ إلى ما مَوَّلَكَ من طَوْلِه بتبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك استوجبت حُسْنَ إقباله، وجزيل نواله.

قوله « أولئك لهم جنات عَدْنٍ تجرى من تحتها الأنهار » أولئك هم أصحابُ الجنان، في رَغَدِ العيش وسعادة الجدِّ(٣) وكمال الرِّفد(٤)، يلبسون حُلَلَ الوُصلة، ويُتَوَّجون بتاج القُرْبة،

---

(١) وردت (سيده)

(٢) وردت (عليلا) بالعين.

(٣) الجد = الحظ.

(٤) الرفد = العطاء والصلة.

ويُحْمَلون على المباسط ، ويتّكِئون على الأرائك ، ويشمون رياحينَ الأُنْس ، ويقيمون في مجال الزُّلفة ، ويُسْقَوْنَ شرابَ المحبة ، ويأخذُون بيَدِ الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة ، ويسقيهم شراباً طهوراً يُطَهِّر قلوبَهم عن محبة كلِّ مخلوقٍ .

« نِعْمَ الثوابُ وحَسنتْ مُرْتَفَقاً » : نِعْمَ الثوابُ ثوابُهم ، ونعم الربُّ ربُّهم ، ونعم الدارُ دارُهم ، ونعم الجارُ جارُهم ، ونعم الحالُ حالُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرِبْ لهم مثلاً رجلين جَعَلْنا لأحدِهما جَنَّتين من أعنابٍ وحَفَفْناهما بنَخْلٍ وجَعَلْنا بينهما زَرْعاً * كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها ولَمْ تَظْلِمْ منه شيئاً وفجَّرْنا خِلالهما نَهَراً * وكان له ثَمَرٌ فقال لصاحبه وهو يحاوِرُه أنا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً وأعَزُّ نَفَراً * ودَخَلَ جَنَّتَه وهو ظالِمٌ لِنَفْسِه قال ما أظُنُّ أن تبيدَ هذه أبداً * وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئِن رُدِدْتُ إلى ربى لأجِدَنَّ خيراً منها مُنقَلَباً * قال له صاحبُه وهو يحاوِرُه أكفرتَ بالذى خَلَقَكَ من تُرابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثم سَوَّاك رَجُلاً * لـكِنَّا هو اللهُ ربى ولا أُشْرِكُ بربِّىَ أحداً * ولَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقَلَّ مِنكَ مالاً وولَداً * فعسى ربى أن يُؤْتِيَنِ خيراً

من جَنَّتِكَ ويُرْسِلَ عليها حُسْبانا
من السماء فتُصْبِحَ صعيداً زَلَقاً *
أو يُصْبِحَ ماؤها غَوْراً فلن تَسْتَطِيعَ
له طَلَباً ﴾

أخبر أنه خلقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذى ذكره ، فَشَكَرَ أحدُهما لخالقه وكَفَرَ الآخرُ برازقه ، فأصبح الكافرُ وجنّتُه أصابتها جائحةٌ ، وندم على ما ضَيَّعه من الشكر ، وتوجّه عليه اللومُ .

وفى الإشارة يخلق عَبْدين يُطَيِّبُ لهما الوقت ، ويُمَهِّدُ لهما بساط اللطف ، ويمكّن لهما من البَسْط . . فيستقيم أحدُهما فى الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحُسْن المنازلة وصدق المعاملة ، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسنِ الاستقامة ، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يُخْتَطَفُ عنها بما يُكاشَفُ به من حقائق التوحيد ، ويصبح مُنْتَفِيًّ عن جملته باستهلاكه فى وجود ما بان له من الحقائق .

والثانى لا يُقَدِّرُ قَدْرَ ما أُهِّلَ له من حُسْن البداية فيرجعُ إلى مألوفاته ، فينتكِسُ أمرُه ، بانحطاطه إلى ذميم عاداته ، فيرتدُّ عن سلوكِ الطريقة ويتردّى[1] فى ظلمةِ الغفلة ، فيصيرُ وقتُه ليلاً مظلما ، وينطوحُ فى أودية التفرقة ، ويُوسَمُ الطردَ ، ويُسْقى شرابَ الإهانة ، وينخرطُ فى سلك الهَجْر . . وذلك جزاء مَنْ لم يَرْعَ الحقَّ لو صلته أهلاً ، ولم يجعل لولائهم فى التحقيق والقبول أصلاً :

تبدَّلتْ وتبدلنا يا حسرةً لِمَنْ ابتغى عوضا لسلمى فلم يَجِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأصبحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيْهِ على ما أَنْفَقَ فيها وهى خاويةٌ
على عُرُوشِها ويقول ياليتنى لم أُشْرِكْ
بِرَبِّى أحَدَاً * ولم تكن له فِئَةٌ

(١) وردت (ويرتدى) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنصُرُونَه مِن دونِ اللهِ وما كان
مُنتَصِراً ﴾

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حظَّه على حقِّ الله ، قَرَعَ بابَ ندامته ، ثم لا ينفعه .

ولو قرع باب كَرَمِه في الدنيا — حين وَقَعَتْ له الفترةُ — لأشكاه[1] عند ضرورته ، أنجاه من ورطته . . ولكنه رُبِط بالخذلان ، ولُبِّسَ عليه الأمرُ بحُكْمِ الاستدراج .

قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : مَنْ اشْتَهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السلطانِ عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية ، كذلك مَنْ وَسَمَه الحقُّ بكَيِّ الهَجْرِ لم يَرْثِ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ ، ولم يَحْمِهِ صديقٌ ولا وليٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هنالك الوَلايةُ للهِ الحقِّ هو خيرٌ
ثواباً وخيرٌ عقْباً ﴾ .

هو الحقُّ المتفرِّدُ بنعتِ ملكوته ، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدثان أحداً ، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيما هنالك لحدثان ولا خطر ، كلاّ . . بل هو الله الخلاّق الواحد القهار .

هنالك الوِلاية لله أى القدرة — والواو هنا بالكسر ،

وهنالك الوَلاية لله أى النصرة — والواو هنا بالفتح[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحياةِ الدنيا
كماءٍ أنزلناه مِنَ السماء فاختلَطَ به
نباتُ الأرضِ فأصبح هَشِيماً تذروه
الرِّياحُ ، وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ
مُقْتَدِراً ﴾ .

---

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأعانه .

(٢) الولاية (بالكسر) بمعنى القدرة أى : السلطان والملك كله لله ، يتولى الله كل مضطر فيكون قوله : « لم أشرك ربي أحدا » كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً من شؤم كفره — ولولا ذلك لم يقلها . أو على الولاية (بالفتح) بمعنى النصرة تقريراً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »

منْ وَطَّنَ النفْسَ على الدنيا ويهجتها غرّته بأمانيها ، وخدعته بالأطماع فيها . ثم إنها تُخْفِى الصَّابَ فى شرابها ، والحنظلَ فى عَسَلِها ، والسرابَ فى مآربها ؛ تَعِدُ ولا تفى بِعِدَاتِها ، وتُوفِى آفاتُها على خيراتها . . نِعَمُها مشوبة بِنِقَمِها ، وبؤسُها مصحوبٌ بأنوسها ، وبلاؤها فى ضمن عطائها . المغرورُ مَنْ اغترّ بها ، والمغبونُ مَنْ انخدع فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا ﴾

مَنْ اعتضد بعتاده ، واغترّ بأولاده ، ونَسِىَ مولاه فى أوان غَفَلَاتِهِ . . خَسِرَ فى حاله ، وندِمَ على ما فاته فى مآله .

ويقال زينةُ أهل الغفلة فى الدنيا بالمال والبنين ، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين . . فهؤلاء رُتبتهم لظواهرهم . . وهؤلاء زينتهم لعبوديته ، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته .

ويقال ما كان للنّفْس فيه حظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا ، ويدخل فى ذلك الجاهُ وقبول المدح ، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها .

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول : إن شئت فى عاجله وإن شئت فى آجله .

قوله جل ذكره : ﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ .

وهى الأعمال التى بشواهد الإخلاص والصدق .

ويقال « الباقيات الصالحات » : ما كان خالصاً لله تعالى غيرَ مَشُوب بطمعٍ ، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ .

ويقال « الباقيات الصالحات » : ما يلوح فى السرائر من تحلية العبد بالنعوت ، ويفوح نَشْرُه فى سماء الملكوت .

ويقال هى التى سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة .

ويقال هى ضياء شموسِ التوحيدِ المستكنُّ (فى السرائر مما لايتعرَّضُ لـكسوف الحجبة)[1]

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نُسَيِّر الجِبالَ وتَرَى الأرضَ بارِزَةً وحَشَرْنَاهُم فَلَمْ نُغَادِرْ منهم أحداً ﴾

كما تُسَيَّرُ جبالُ الأرضِ[2] يوم القيامة فإنها تُقْتَلَع بموت الأبدال الذين يديم بهم الحقُّ — اليومَ — إمساكَ الأرض ، فهؤلاء السادة — فى الحقيقة — أوتادُ العالَم .

قوله : « فلم نغادر منهم أحداً » : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسقَى كأسَ المنية ، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإنَّ شرَّفَهم فى الدرجات فى تَوَفِّيهم عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وعُرِضوا على ربك صَفّاً ﴾

يقيم كُلَّ واحدٍ يومَ العَرْضِ فى شاهد مخصوص ، ويُلْبِسُ كُلاًّ ما يُؤَهِّله له ؛ فَمِنْ لباسِ تقوى ، ومن قميصِ هوى ، ومن صِدَارِ وَجْدٍ ، ومن صُدْرَةِ محبة ، ومن رداءِ شوقٍ ، ومن حُلَّة وُصْلَة .

ويقال يجرِّدهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة . وينادى المنادى على أجسادهم : هذا الذى أَتَى وَوَجَدَ ، وهذا الذى أَبَى وجَحَدَ . وهذا الذى خالَفَ فأصَرَّ ، وهذا الذى أنعمنا عليه فَشَكَرَ ، وهذا الذى أحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذى أسقيناه شرابَنا ، ورزقناه محابَّنا ، وشَوَّقناه إلى لقائنا ، ولَقَّيْنَاه خصائص رِعَائِنا[3] .

وهذا الذى وَسَمْنَاه بحجبتنا ، وحرمناه وُجُوهَ قربتنا . وألبسناه نطاق فراقنا ، ومنعناه توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

(١) تكملة فى أسفل الصفحة موضحة فى المتن بالعلامة × .
(٢) نلاحظ كثيراً أن القشيرى يتحدث عن الأوتاد والأبدال والقطب كما ورد فى القرآن ذكر للجبال ، فكما أن الله يمسك بها الأرض ويثبتها كذلك يقوم هؤلاء بحفظ الخلق ، وبكراماتهم يندفع البلاء عنهم .
(٣) الرعاء : المراعاة والمحافظة .

واخجلتى من وقوفى وَسْط دارِهِمُ ! وقال لى مُغْضَباً : مَنْ أنت يا رجلُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لقد جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بل زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر ، ولا مُعِينٍ ولا مُظاهِرٍ .

قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم . . . كيف أنتم ؟ وكيف وَجدْتُم مقيلَكم ؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم !

وقوم يُقال لهم : ما صنعتُم ، وماضَيَّعْتُمُ ؟ ما قدَّمتُم ، وما أخرتم ؟ ما أعلنتم ، وما أسررتُم ؟

قُلْ لى بألسنةِ التنفُّس[1] كيف أنت وكيف حالك ؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفْصِحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ماهم به من أحوالٍ مع محبوبهم وآخرون تملكهم الحيرة وتُسْكِتهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سكينةُ مَنْ هذا فقلتُ لها ، أنا الذى أنت من أعدائه زعموا

قوله جل ذكره : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مُشفقين مما فيه ﴾

إنما يصيبهم ما كُتِبَ فى الكتاب الأول وهو المحفوظ ، لا ما فى الكتاب الذى هو كتاب أعمالهم لسَخَة ما فى اللوح المحفوظ .

ويقال إنْ عاملَ عبداً بما فى الكتاب الذى أثبته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما فى كتاب المَلِكِ — سبحانه ، وفرقٌ بين من يُعَامَل بما فى كتاب الحقِّ من الرحمة[2] والشفقة وبين مَنْ يحاسبه بما كَتَبَ عليه المَلَكُ من الزَّلة[3]

---

(١) التنفس : الاستراحة من الكد والتعب

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى « كتب على نفسه الرحمة » (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى : « فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (آية ٥٤ سورة الأنعام) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حاسبهم فى القيامة يتصور لهم كأنهم فى الحال ما فارقوا الزّلة ، وإن كانت مباشرةُ الزّلةِ قد مَضَت عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب
لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها
ووجدوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يظلم
ربُّكَ أحداً ﴾

يملك الحزنُ قلبَه لأنه يعلم أنه يرى فى عمله سيئةً فهو فى موضع الخجل لتقصيره . وإنْ رأى حسنةً فهو فى موضع الخجل أيضاً لِقِلّةِ توقيره ، فَخَجْلَةُ أهلِ الصدقِ عند شهود حسناتهم توفى وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زلاتهم .

ويقال أصحابُ الطاعةِ إذا وجدوا ما قدّموا من العبادات فألم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة ، وأمّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدّموا مجاوزةَ الحدِّ ونقضَ العهدِ ، وما فى هذا الباب من الزّلة وسوء القصد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدمَ
فسجدوا إلا إبليسَ كان من الجن
فَفَسَقَ عن أمرِ ربِّه ﴾

أظهَرَ للملائكة شَغِلَيّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسيرٍ من الله — سبحانه ، وسَكَّرَ بَصَرَ اللعينِ فما شهد منه غير الطِّين[1] ففسق عن أمر ربه ، ولا صدق فى قوله : « أنا خير منه » لمّا فَسَقَ عن الأمر ، ولكن أدركته الشقاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفتتخذونه وذُرِّيَّتَه أولياء من

---

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد الماذى لآدم فقال : خلقتنى من نار وخلقته من طين ، ولم ينظر إلى الجوهر ، والسبب فى ذلك فى رأى القشيرى أن الله أغلق عليه .

دونى وهم لكم عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمين
بَدَلاً ﴾

فى الآية إشارة إلى أنَّ مَنْ يُفْرِدُه بالولاية فلا يتقى غَيْرَه ولا يخافُ غيرَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أشْهدتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوات والأرضِ
ولا خَلْقَ أنفسِهم وما كُنتُ مُتَّخِذَ
المُضِلِّين عَضُداً ﴾

أ كذب المنجمين والأطباء الذين يتكلمون فى الهيئات والطبائع بقوله : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » : وبَيَّنَ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصلَ له فى التحقيق .

« وما كنت متخذ المضلين عضداً » : أى لم أجعل للذين يُضِلُّون الناسَ عن دينهم بِشُبَهِهِمْ فى القول بالطبائع حجةً ، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تقاصرت علومُ الخَلْق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومُهم بحقائق الصمدية ، واستحقاقِه لنعوته إلا بمقدار ما يخصُّهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً ؟

ويقال أخبر أنَّ علومَهم تتقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كُلُّ ما فى الكون ، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك ، ولاحاجةَ بهم إلى الوقوف على ما قَصَرَتْ علومُهم عنه ، إذ لا يتعلَّق بذلك شيء من الأمور الدينية . فالإشارة فى هذا أن يَصْرِفُوا عنايتَهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإنه لابُدَّ لهم — بحكم الديانة — من التحقق بها ؛ إذ الواجبُ على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه فى تفاصيل مسائل الصفات والأحكام(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يقولُ نادُوا شُرَكائِىَ الذين

---

(١) فى هذا أبلغ رد على من يتهمون الصوفية بمجافاتهم للعلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

زَعَمْتُم فَدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم
وجعلنا بينهم مَوْبِقاً ﴾

علِمَ الحقُّ — سبحانه — أنَّ الأصنامَ لا تغنى ولا تنفع ولا تضر ، ولـكن يعرِّفهم فى العاقبة بما يُصَيِّر معارفَهم ضرورية[1] حَسْماً لأوهام القوم ؛ حيث توهموا أنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[2] .

فإذا تحققوا بذلك صدقوا فى الندم ، وكان استيلاء الحسرة عليهم ، وذلك من أشد العقوبات لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم
مواقِعوها ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفًا ﴾

إذا صارت الأوهامُ منقطعةً ، والمعارفُ ضروريةً ، والنارُ مُعَايَنَةً استيقنوا أنهم واقعون فى النار ، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ ، ولا تنفع لهم حيلةٌ ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل .. لقد استمكنت الخيبةُ ، وغَلَبَ اليأسُ ، وحَصَلَ القنوط ، وهذا هو العذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَرَّفْنَا فى هذا القرآنِ للناسِ
من كل مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أكثرَ شىء
جَدَلاً ﴾

أوضح للـكافة الحججَ ، ولـكن لَبَّسَ على قوم النهج فوقعوا فى العِوَجِ .

« وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » الجَدَلُ فى الله محمود مع أعدائه ، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرْفٌ إلى مخالفةِ تُوهِمُ أن أحداً يعارض التقدير ، وتجويزُ ذلك انسلاخٌ

---

(١) المعارف إما ضرورية أو كسبية ، والضرورية من الحق ، والـكسبية من الخلق .
(٢) آية ٣ سورة الزمر .

عن الدِّين . ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه ، وإغلاقُ بابِ الجدل دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَ الناسَ أن يؤمِنوا إذْ جاءهُم الهُدَىٰ ويستغفِروا ربَّهم إلَّا أن تأتِيَهم سُنَّةُ الأولين أو يأتِيَهمُ العذابُ قُبُلاً ﴾

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتَرْكِهِ للمبادرة إلى المأمور ، ولا توفيقَ يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل ، فَهُمْ — وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ماليسوا يفعلونه — ليسوا عاجزين عن ذلك ؛ ولكنهم بحيث لو أن العبدَ منهم أراد ما أُمِرَ به لَتَأَتَّى منه ذلك ، وتعذَّر عليه ؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه ، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نُرْسِلُ المُرْسَلين إلا مبشرين ومنذِرين ويجادِلُ الذين كفروا بالباطلِ ليُدْحِضوا به الحقَّ واتَّخَذُوا آياتي وما أُنذِرُوا هُزُواً ﴾

أرسل الرسلَ — عليهم السلام — تترى ، وأيَّدَهم بالحجج والبراهين ، وأمرهم بالإنذار والتخويف ، والتشريف في عين التكليف ، وتضمين ذلك بالتحقيق ، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم ، وشَقِيَ آخرون بخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّهِ فأعْرَضَ عنها ونَسِيَ ما قدَّمتْ يداه إنَّا جعلنا على قُلوبِهِم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوه وفي آذانِهِم وَقْراً وإنْ تَدْعُهُم إلى الهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إذًا أبَدًا ﴾

لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ووُعِظَ بما لوَّح له من الآيات ، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أُصلِحَ أو شُغلٍ كُفِيَ أو دعاء أُجِيب له ، أو سوء أدبٍ حصل منه ، فأُدِّبَ بما يكون تنبيهاً له ، أو حصلت منه طاعة وكوفِىء فى العاجل إمَّا بمعْنًى وَجَدَه فى قلبه من بَسْط أو حلاوةٍ أو أُنْس ، وإمَّابكفاية شُغْلٍ أو إصلاح أمرٍ .. ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِىَ ما عُومل به ، أو أعرض عن تَذَكُّرِه ، ونَسِىَ ما قدَّمتْ يداه من خيره وشرِّه ، فوجد فى الوقت موجبه .. ومَنْ كانت هذه صِفَتُه جعل على قلبه ستراً وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركاتُ ما وُهِبَه .

ويقال مَنْ أظلم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَدَبِه فَيَتَّهِمُ رَبَّه ، ويشكو مما يلاقيه ، ويَنْسَى جُرْمَة الذى بسببه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لفُرْصته ... حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرَا

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وربُّك الغفورُ ذوالرحمةِ لو يُؤَاخِذهم بما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لهم العذابَ ، بل لهم مَوْعِدٌ لن يجدوا من دونه مَوْئِلاً ﴾

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجَبَتْ المغفرةَ لهم .

ويقال «الغفور» : للعاصين من عباده ، و «ذوالرحمة» بجميعهم فَيُصلح أحوالَ كافتهم .

« لو يؤاخذهم بما كسبوا » : لعجَّل لهم العذابَ ؛ أى عَامَلَهم بما استوجبوه من عصيانهم ، فعجَّلَ لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته ، ثم فى العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك القرىٰ أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا وجعلنا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً ﴾

لمَّا لم يشكروا النِّعم ولم يصبروا فى المحن عجَّلنا لهم العقوبة .

ويقال لمَّا غفَلُوا عن شهود التقدير ، وحُرِمُوا رَوْحَ الرضا وَكَلْناهم إلى ظُلُماتِ تدبيرهم ، فطاحوا فى أودية غفلاتهم .

قوله جل ذكره: ﴿وإذْ قال موسىٰ لفتاه لا أبْرَحُ حتّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين أو أمْضِيَ حُقُبًا * فلمَّا بلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيَا حُوتَهما فاتَّخَذَ سبيلَه في البحر سَرَبًا﴾

لما صحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال: « وإذ قال موسى لفتاه » وهو اسم كرامة لا اسم علامة.

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك[1] ، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغَ في الآية ، وأبْعَدَ من اختيار البَشَر .

قوله جل ذكره: ﴿فلمَّا جاوَزَا قال لفتاه آتِنا غداءنا لقد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَبًا﴾

كان موسى في هذا السفرِ مُتَحَمِّلاً ، فقد كان سَفَر تأديبٍ واحتمالِ مشقةٍ ، لأنه ذهب لاستكثار العلم . وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تحمُّلٍ للمشقة ، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ ، فقال : « لقينا من سفرنا هذا نَصَباً » .

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ ، لأن ذهابَه في هذا السفر كان إلى الله ، فكان محمولاً .

قوله جل ذكره: ﴿قال أرأيتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصَّخْرةِ فإني نَسِيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلاَّ الشيطانُ أنْ أذْكُرَه واتخذ سبيلَه في البحر عجباً * قال ذلك

---

(1) كان الحوت سمكة مملوحة ، فنزلا ليلة على شاطىء عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة الماء عاشت ووقعت في الماء (النسفي) .

ما كُنَّا نَبْغِ فارتدَّا على آثارهما
قَصَصاً ﴾[1]

فطال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصراف إلى مكانهما ، ثم قال يوشع : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أَدْخَلَ عليه النسيانَ ليكونَ الصيْدُ من تكلفه ، ثم قال : « ذلك ما كنا نبغ » : يعنى دخول السمك الماء وكان مشوياً ؛ فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهيا إلى الموضع الذى دخل السمك فيه الماء لقيا الخضر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجدَا عَبْدًا مِّنْ عبادِنا آتيناه
رحمةً مِّنْ عندنا ، وعَلَّمْنَاهُ مِن
لَّدُنَّا عِلْماً ﴾

إذا سمَّى الله إنساناً بأنه عَبْدُه جَعَلَه من جملة الخواص ؛ فإذا قال : « عبدى » جعله من خاص الخواص .

« آتيناه رحمةً من عندنا » : أى صار مرحوماً من قِبَلِنا بتلك الرحمة التى خصصناه بها من عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بها راحماً على عبادنا .

« وعلَّمناه من لدنا علماً » : قيل العلم من لدن الله[2] ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتَّطلُّب .

ويقال ما يُعَرِّف به الحقُّ — سبحانه — الخواصَ من عباده .

ويقال ما يعرِّف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده .

---

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ، فقص قصصاً : اتبع الأثر .

(٢) يتخذ الصوفية من قصة الخضر وموسى مصدراً ثرياً لاستمداد كثير من أصولهم فيما يتصل بالعلم اللدنى وعلم الوراثة ، والولاية والنبوة ، والعلاقة بين المريد والشيخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، وللملامة على ظاهر مستشنع باطنه سليم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات القشيرى شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يعود منه نَفْعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعُه لعباده مِمَّا فيه حقٌّ الله — سبحانه .

ويقال هو ما لا يَجِدُ صاحبُه سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قال له موسى هل أَتَّبِعُكَ على أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان ، ثم صَرَّح بمقصوده من الصحبة بقوله : « على أن تعلمني مما علمت رشداً » .

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلّمه من أستاذ ولا من شخص ، فما لم يكن بتعليم أحد إياه .. متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنَّكَ لن تستطيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وكيف تَصْبِرُ على ما لم تُحِط به خُبْرًا * قال ستجدني إن شاء اللهُ صابراً ولا أَعْصِي لكَ أمراً ﴾

سؤالٌ بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف !

ثم تدارك قلبَه بقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ » ، فأجابه موسى : « قال ستجدني ... » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يعصيَه فيما يأمر به ، فأمّا الصبر فقَرَنَه بالاستثناء بمشيئة الله فقال : « ستجدني إن شاء الله صابراً » فصبر حتى وُجِدَ صابراً ، فلم يقبض على يدى الخضر فيما كان منه من الفعل ، والثاني قوله : « لا أعصى

(١) وسر قوة العلم الذي يبعد عن الدليل أنه من الحق ، وبقدر ما تختفي الجوانب الإنسانية في العلم وتبرز المنن الإلهية فيه تكون نصاعة برهانه وقوة بيانه .

لك أمراً » : أطلقه ولم يُقرِنْه بالاستثناء ، فما استثنى لِأجله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخُلْفُ(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنِ اتَّبعْتَنِي فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْراً ﴾

فإنه ليس للمريد أن يقول : « لا » لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العامىّ للعالِم المفتى فيما يفتى ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا رَكِبا فى السفينةِ خرَقَها قال أخرَقْتَها لِتُغرِقَ أهْلَها لقد جِئْتَ شيئاً إمْراً ﴾

لما ركبوا الفُلْكَ خرقها وكان ذلك إبقاء على صاحبها لئلا يرغبَ فى السفينةِ المخروقةِ المَلِكُ الطامعُ فى السفن .

وقوله : « لتغرق أهلها » أى لتؤدىَ عاقبةُ هذا الأمر إلى غَرَقِ أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قَصَدَ إغراقَ أهلِ السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معِيَ صبراً ﴾

أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنّا نُجْرِيه من حيث الحُكْم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لاتؤاخِذْنى بما نسيتُ ولاتُرْهِقْنى من أمرِى عُسْراً ﴾

طالبَه بما هو شرط العلم حيث قال : « لاتؤاخذنى بما نسيت » ، لأن الناسىَ لا يدخل تحت التكليف ، وأيّدَ ذلك بما قَرَنَ به قوله : « ولا ترهقنى من أمرى عسراً » فالمُتَمَكِّنُ من حقه

---

(٢) الخلف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان ينسى ويتساءل عقب كل حادثة فى القصة ، وكان الخضر فى كل مرة يقول : « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً » .

التكليف ، ومَنْ لا يصحُّ منه الفعلُ والتَّرْكُ لا يتوجه ( )[1] والناسى[2] من جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا لَقِيا غلاماً فقتَلَه ،
قال أَقَتَلْتَ نفساً زَكِيَّةً بغيرِ
نَفْسٍ لقد جِئْتَ شيئا نُكْراً ﴾

كان بِخُلُقِ العلم واجباً على موسى — عليه السلام — قَصْرُه حيث يرى فى الظاهر ظُلْماً ، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ ، ففى ذلك الوقت كان قلب العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أَلم أقل لك إنك لن تستطيع
مَعِىَ صبراً ﴾

كرَّر قوله : « إنك لن تستطيع . . . » لأنه واقف بشرط العلم ، وأمَّا فى محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قال إن سألتُكَ عن شىءٍ بعدَها
فلا تُصاحِبْنى قد بَلَغْتَ من لَدُنِّى
عُذْراً ﴾

بلغ عصيانه ثلاثاً ، والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ القِلَّة وأَوَّلُ حَدِّ الكثرة ، فلم يَجِدْ المُسامحةَ بعد ذلك[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا أَتيا أَهلَ قريةٍ
استطعما أهلَها فأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهما
فوجدا فيها جِداراً يريد أن يَنقَضَّ
فأقامَه قال لو شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عليه
أَجْراً ﴾ .

---

(١) بياض فى النسخة ، ونرجح أن المفقود (عليه لوم) او مؤاخذة .
(٢) وردت (والناس) والسياق يتطلب (والناسى) بالياء إذ جاء فى الآية (. . . بما نسيت) .
(٣) قد تكشف هذه العبارة عن تصور القشيرى لأقصى درجات الذنب القابل للتوبة .

كان واجبا في ملتهم على أهل القرية إطعامهما ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم ، ولو كان أغضى على ذلك منهم لكان أحسن .

فلمّا أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمْتَ بمحظور، ولكنه قال له : « لو شئت لتخذت عليه أجراً » أى إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أخذُكَ خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وَجَبَ حقُّهم فَلِمَ أخللتَ بحقنا ؟

ويقال إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب فَرَدَّ إلى تَحَمُّلِ المشقة ، وإلاَّ فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر[1] ، ولكنه كان في ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قال هذا فِراقُ بيني وبينِكَ
سَأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لم تستَطِع
عليه صبْراً ﴾

أى بعد هذا فلا صحبة بيننا .

ويقال قال الخضر إنَّك نبيٌّ . . وإنما أؤاخذك بما قُلْتَ ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط ، وقلتَ : إنْ سألتُك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، وإنما أعاملك بقولك .

ويقال لمّا لم يصبر موسى معه في تَرْكِ السؤال لم يصبر الخضرُ أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير — في أمر السفينة التي كانت للمساكين ، وقَتْلِ النَّفْس بغير حق — لم يفارقه الخضر ، فلمَّا صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌّ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة ، فقال الخضر : « هذا فراق بيني وبينك » .

ويقال كما أن موسى — عليه السلام — كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إيثاراً للخلوة بالله عن المخلوقين .

---

(١) ومع ذلك لم يطلب اجراً ، ولم يفكر في ذلك ألبتة . . لأنه كان بحق الله ، ولكنه في هذا الوقت كان متكلفا ، فهو يفكر بحظ نفسه ، ولذا فكر في الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ أمَّا السفينةُ فكانت لمساكين
يعملون فى البحرِ فأردتُ أنْ أعيبَها
وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة
غَصْبًا ﴾

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُرِدْ أنْ يبقى فى قلبِ موسى شِبْهُ اعتراضٍ ؛ فأزال عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ، وكشف له أنَّ السِّرَّ فى قصده من خَرْقِ السفينة سلامتُها وبقاؤُها لأهلها حيث لن يطمعَ فيها المَلِكُ الغاصبُ ، فبقاء السفينةِ لأهلها — وهى معيبةٌ — كان خيراً لهم من سلامتها وهى منصوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الغلامُ فكان أبواه مؤمِنَيْن
فخشِينا أن يُرهِقَهما طُغْيانًا وكُفْرًا *
فأردنا أن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه
زكاةً وأقْرَبَ رُحْمًا ﴾

بيَّن له أنَّ قتلَ الغلامِ لِمَا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الحُكْمُ أنَّ فى بقائه فتنةً لوالديه ، وفى إبدال الخَلَفِ عنه سعادةً لهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الجدارُ فكان لغلامين يتيمين
فى المدينة وكان تحته كَنْزٌ لهما وكان
أبوهما صالحًا فأراد ربُّكَ أن يَبْلُغَا
أشُدَّهما ويَسْتَخْرِجَا كَنْزَهما رحمةً
من ربِّك وما فَعَلْتُه عن أمرى ،
ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِع عَّليه
صَبْراً ﴾

أما تسوية الجدار فلاستبقاء كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخَلْق .

قوله جل ذكره ﴿حتىٰ إذا بَلَغَ مطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ على قومٍ لم نَجْعَل لهم من دونها سِتْراً * كذلك وقد أحطْنَا بما لديه خُبْراً * ثم أتْبَعَ سبباً﴾

أقوامٌ هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل مغربِ الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم .. كذلك الناس فى طلوع شمس التوحيد : منهم الغالب عليهم طلوع شموسهم ، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقُّهم ، وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل .

قوله جل ذكره : ﴿حتى إذا بَلَغَ بين السَّدَّيْنِ وَجَدَ من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا ياذا القرنين إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدُون فى الأرضِ فهل نجعلُ لكَ خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا * قال ما مَكَّنِّى فيه ربِّى خيرٌ فأعِينُونِى بقوةٍ أجْعَلْ بينكم وبينهم رَدْماً﴾

أى ما كانوا يهتدون إلا إلى لسانِ أنفسِهم ، وما كانوا يفقهون فقهَ غيرِهم فلجئوا إلى عَبرَانهم فى شرح قصتهم ، ورفعوا إليه — فى باب يأجوج ومأجوج — مظلمتَهم ، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤلهم ، وحقَّق لهم بُغْيَتَهم ، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية ، لمّا رأى أنَّ من الواجبِ عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة .

قوله جل ذكره : ﴿آتونى زُبَرَ الحديدِ حتّى إذا ساوَىٰ بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخوا حتى إذا

جعله ناراً قال آتونى أُفْرِغْ عليه
قطراً ﴾

استعان بهم فى الذى احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال: «آتونى زبر الحديد» فلمّا فعلوا ما أمرهم به، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أى جانبى الجبل. ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أنْ يَأْذَنَ اللهُ له فى الخروج، وتندفعَ عن الناس عادية (....)[1] إلى الوقت المضروب لهم فى التقدير.

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله. وبيَّنَ — سبحانه — أنَّ خروجَهم من وراء سدِّهم مِنْ أشراط الساعة.

قوله جل ذكره: ﴿ الذين كانت أعْيُنُهم فى غِطاءٍ
عن ذِكْرِى وكانوا لا يستطيعون
سمعاً ﴾

نظروا بأعين رءوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال، ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف.

قوله: «وكانوا لا يستطيعون سمعاً»: لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ — سبحانه — الإسماع؛ فلم يستطيعوا لهم القبول.

قوله جل ذكره: ﴿ أفَحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا
عبادِى من دونى أولياء إنَّا أعْتَدْنا
جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾

أى توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم، واعتقدوا فى أصنامهم استحقاقَ التعظيم، وكانوا يقولون: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[2]، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

---

(١) مشتبهة.
(٢) آية ٣ سورة الزمر.

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أعمالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدنيا ﴾

ضلَّ سعيُهم لأنهم عَمِلُوا لغيرِ اللهِ . . وما كان لغيرِ الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلَّ سعيُهم هم الذين قَرَنُوا أعمالَهم بالرياء ، ووصفوا أحوالَهم بالإعجاب ، وأبطلوا إحسانَهم بالملاحظات أو بالمَنِّ .

ويقال هم الذين يُلاحِظُون أعمالهم وما مِنْهُم بمينِ الاستكثار(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم يَحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فعَمِلوا من غيرِ عِلْمٍ ، ولم يكونوا على وثيقة(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين كفروا بآياتِ ربِّهم ولقائه فَحَبِطَتْ أعمالُهم فلا نُقيمُ لهم يومَ القِيامَةِ وَزْنًا ﴾

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا فى ظلمة الجحد ، فتفرَّقَتْ بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا على بصيرة ، ولم تستقر قلوبُهم على عقيدة مقطوعٍ بها ؛ فليس لهم فى الآخرة وزنٌ ولا خَطَرٌ ، اليومَ هم كالأَنْعام ، وغداً واقفون ساقطون (. . .)(٣) الأقدام .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك جَزَاؤُهم جَهَنَّمُ بما كفروا واتخذوا آياتى ورُسُلِى هُزُواً ﴾

---

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس ، كثيراً ما حذَّر منهما أهل الملامة فى نيسابور — موطن القشيرى .

(٢) الوثيقة ما يضبط به الأمر ويُحْكَم .

(٣) مشتبهة ، وقد ضبطنا (الأقدام) بفتح الهمزة مراعاة للانسجام مع (الأنعام) على عادة القشيرى فى ضبط الموسيقى الداخلية للجمل والفقرات ، ومع ذلك فإنَّ صحة ضبطها تتوقف على معرفة الكلمة المشتبهة .

هم اليومَ فى عقوبة الجحد ، وغداً فى عقوبه الردّ . اليوم هم فى ذُلِّ الفراق ، وغداً فى أليمِ الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كانت لهم جنّـاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

لهم جنات مُعَجَّلة سراً ، ولهم جنان مؤجلة جهراً .
اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .
اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها لا يَبْغُونَ عنها حِوَلًا ﴾

عرّفنا — سبحانه — أن مايخوّله لهم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ؛ فهم أبداً فى الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لهم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لو كان البحرُ مِدَاداً لـكلماتِ ربى لَنَفِدَ البحرُ قَبْلَ أن تنفَدَ كلماتُ ربى ولو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾

أى لا تُعَدُّ معانى كلمات الله لأنه لانهايةَ لها ؛ فإنَّ متعلقاتِ الصفةِ القديمةِ لانهاية لها ؛ كمعلوماتِ الحقِّ — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذى هو مخلوقٌ(٢) لا يَسْتَوْفِى ما هو غير مُتَنَاهٍ — وإنْ كَثُرَ ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ ﴾

---

(١) القشيرى من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأبصار فى الآخرة ، أما فى الدنيا فيقول : الأقوى فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .

(٢) يقصد (البحر) إذا صار مداداً ؛ فالبحر يتناهى . وكلمات الله لا تتناهى .

أخبِرْ أنكَ لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ ، والفَرْقُ بينكَ وبينهم تخصيصُ الله — سبحانه — إياكَ بالرسالة ، وتَرْكه إيام فى الجهالة .

ويقال : قل اختصاصى بما لى من (الاصطفاء)[1] ، وإن كنا — أنا وأنتم — فى الصورة أكفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَن كان يَرْجُو لِقاء ربِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحَدًا ﴾

حَمْلُ الرجاء فى هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَنٌ ، ولكنَّ تَرْكَ هذا على ظاهره أوْلَى ؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاء الله .

والعارف بالله — سبحانه — يرجو لقاء الله والنظرَ إليه

والعمل الصالح الذى بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُه على لواعجِ اشتياقه ، وأنْ يُخْلِصَ فى عمله .

« ولا يشرك بعبادة ربه » : أى لا يُلاحِظُ عَمَلَه ، ولا يستكثر طاعته ، ويتبرأ من حَوْلِه وقُوّتِه .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته)[2]

---

(١) هنا كلمة مبهمة فى الخط ، فوضعنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا فهى أليق بالمعنى والسياق .

(٢) هكذا فى ص وليس واضحاً عودة الضمير فى (رؤيته) هل هى على الصراط أم على الحق . فنحن نعلم أن القشيرى شافعىّ من حيث مذهبه الفقهى ، ونعلم كذلك أن الشافعى يقول : لو علم ابن إدريس أنه لا يرى ربَّه يوم القيامة ما عَبَدَه .

انتهت سورة الكهف بهذا التذييل فى النسخة ص .

[تمَّ بعون الله تعالى وحسن توفيقه نصف أول از تفسير

محقق إمام أبو قاسم القشيرى رحمة الله عليه بتاريخ ١٢ شهر شوال سنة ١١٣٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة مريم عليها السلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله ، اسم عزيز مَنْ عَبَدَه وَاصَلَ جِهادَه ، ومَنْ طَلَبَه وَدَّعَ وِسادَه ، ومَنْ عرَفَه أنكر أحبابَه . ومَنْ يَسَّر له أوقفه على محبته .

مَنْ ذكره نَسِىَ اسمَه ، ومن شَهِدَه فَقَدَ عقلَه ولُبَّه (١) .

اسم عزيز جُبِلَتْ القلوبُ على محبته ، وكل قلب ليس يوقفه على محبته ، فليس بحيلةٍ يصل .

اسمٌ ما اتصفت أشباحُ الأبرارِ إلا بعبادته ، وما اعتكفت أرواحُ الأحرارِ إلا بمشاهدته .

اسم عزيز مَنْ عَرَفَه اعترف أنه وراء ما وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ كهيعص ﴾

تعريفٌ للأحباب بأسرار معانى الخطاب ، حروف خَصَّ الحقُّ المخاطَبَ بها بفهم معانيها ، وإذا كان للأخيار سماعُها وذِكْرُها ، فللرسولِ — عليه السلام — فَهْمُها وسِرُّها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافى فى الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْمُ .

---

(١) المقصود بفقد العقل واللب هنا غيبة التمييز فى حال الشهود .

ويقال فى الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه ، وتخويفٌ بخفِّى مَكْرِه فى بلائه .

ويقال فى الكاف إشارة إلى كتابته الرحمةَ على نَفْسِهِ قبل كتابة الملائكةِ الزَّلَّةَ على عباده .

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ، وما له من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يُسْرِ نِعَمِهِ بعد عُسْرِ مِحَنِهِ . وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده .

والعين تشير إلى عِلْمِهِ بأحوالِ عَبْدِهِ فى سِرِّه وجَهْرِهِ ، وقُلِّه وكُثْرِه ، وحالِهِ ومآلِهِ ، وقدْرِ طاقته وحق فاقته .

وفى الصاد إلى أنه الصادق فى وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عَبْدَهُ زكريا ﴾

تخصيصه إياه بإجابته فى سؤال وَلَدِه ، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له ولجميع أهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ نادَىٰ ربَّه نداء خَفِيًّا ﴾ .

وإنما ذلك لئلا يَطَّلعَ أحدٌ على سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامى عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسُّوء فى نفسه ، ثم أخفى سِرَّهُ عن الخَلْق لئلا يقعَ لأحدٍ إشرافٌ على حاله ، ولئلا يَشْمَتَ بمقالته أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ إنى وَهَنَ العَظْمُ مِنِّى واشتعل الرأسُ شيباً ﴾ .

أى لَقِيتُ بضعفى عن خدمتك ما لا أُحِبُّه ؛ فطعنتُ فى السنِّ ، ولا قوةَ بعد المشيب ؛ فهَبْ لى ولداً ينوب عنى فى عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولم أكُن بدعائِكَ ربِّ شَقِيًّا ﴾ .

أى إنى أسألك واثقاً بإجابتك ؛ لعلمى بأنى لا أشْقَىٰ بدعائك فإنك تحبُّ أن تُسأل .

ويقال إنك عوّدتني إجابة الدعاء ، ولم تردّني في سالف أيامي إذا دعوتُك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإني خِفْتُ الموالِيَ من ورائى وكانتِ امرأتى عاقِراً فهَبْ لى مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يرثُني ويرِثُ من آلِ يعقوبَ واجعلْه ربِّ رَضِيّاً ﴾ .

إنى خِفْتُ أنْ تذهبَ النبوة من أهل بيتى ، وتنتقل إلى بنى أعمامى فهبْ لى وَلَداً يعبدك ، ويكون من نَسلى ومن أهلى .

وهو لم يرِدْ الولدَ بشهوةِ الدنيا وأخذِ الحظوظِ منها ، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله ، وفى قوله : « يرثنى » دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده ؛ فقال : ولداً يكون وارثاً لى ؛ أى يبقى بَعْدِى ، ويرث من آل يعقوب النبوةَ وتبليغ الرسالة .

واجعله ربِّ رضيا : رَضِىٌّ فعيل بمعنى مفعول أى ترضى عنه فيكون مَرْضِيّاً لك . ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أى راضياً منك ، وراضيا بتقديرك .

قوله جل ذكره : ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجْعَل له من قبلُ سَمِيّاً ﴾ .

أى استجبنا لدعائك ، ونرزقك ولداً ذَكَراً اسمُه يحيى ؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه ، ويحيا به نَسَبُكُ ، ويحيا به ذِكْرُك ، وما سألتَه من أن يكون نائبا عنك ؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة فى بيتك .

« لم نجعل له من قبل سميّا » : انفراده — عليه السلام — بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة ؛ أى لم يكن له سَمِىٌّ قَبْله ؛ فلا أحَدَ كُفْوٌ له فى استجماع أوصافِ فَضْله .

ويقال لم نجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره (1)

---

(1) هذا رأى فى مذهب القشيرى الكلامى يتصل بقضية هامة : هل يكون من النبى ذنب ؟

قوله جل ذكره : ﴿قال رَبِّ أنَّى يكونُ لى غُلامٌ وكانتِ امرأتى عاقِراً وقد بلغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا﴾ .

سأل الوَلَدَ فلمَّا أُجيب قال أنَّى يكون لى غلام ؟ ومعنى ذلك — على ماجاء فى التفسير — أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مـدةً طويلةً ؛ فـكأنه سـأل الولدَ فى ابتداء حال سِنِّه ، واستجيبت دعوتُه بعد ماتناهى فى سِنِّه ، فلذلك قال : « أنَّى يكون لى غلام ؟ » .

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد . . أمِنْ هذه المرأة وهى عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها ؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد . فقال تعالى :

﴿قال كذلك قال ربك هو علىَّ هين﴾

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة فى هذا الوقت الذى فيه حسب مستقرِّ العادة ولادة مثلِ هـذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك ، فتـكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ معجزةٌ ، ومن وجهٍ راحةٌ وكرامةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وقدخَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ولم تَكُ شيئا﴾

دلَّت الآيه على أن المعدومَ ليس بشىء ؛ لأنه نفى أن يكون قبل خَلْقِه له كان شيئا .

قوله جل ذكره : ﴿قال رَبِّ اجعل لى آية قال آيتُكَ ألاّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سَوِيًّا﴾

أراد علامةً على علوق المرأة بالولد ، ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدِلُّ بها على صِدْقِ ما يقال له . فأخبره تعالى : أُنبئُكَ علامةَ وقت إجابتك . . إنَّ لسانَك لا ينطقُ معهم بالمخاطبة — ولو اجتهدتَ كُلَّ الجهد — ثلاثةَ أيام ، وعليكَ أن تخاطبنى ، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التى كانت فى وقتك . فـكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكلِّمَهم ، وإذا أراد أن يقرأ الكتبَ أو يسبِّحَ اللهَ انطلق مع الله لسانُه .

قوله جل ذكره : ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيًّا﴾

أى فلمَّا خرج عليهم عرَّفهم — من طريق الإشارة[1] — أنَّ اللسانَ الذى كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوةٍ وآتيناه الحُكْمَ صبيًّا * وحناناً مِّن لَّدُنَّا وزكاةً وكان تقيًّا ﴾

أى قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة مِنَّا ، خَصَصْناكَ بها . . لا قوةَ يدٍ ولكن قوة قلبٍ ، وذلك خيرٌ خصَّه اللهُ تعالى به وهو النبوة .

ودلَّت الآية على أنه كان من الله له كتاب .

« وآتيناه الحكم صبيا » أى النبوة ، بَعَثَه اللهُ بها إلى قومه ، وأوحى إليه وهو صبىٌّ .

ويقال الحُكْمُ بالصوابِ والحقِّ بين الناس .

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله « وحنانا من لدنا . . . » أى آتيناه رحمةً من عندنا ، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموعٍ ومجلوبٍ يتوصَّلُ إليه العبدُ بتكَلُّفِه وتَعَمُّلِه ، وموضوعٍ من اللهتعالى وموهوبٍ منه يصل إليه العبدُ ببَذْله سبحانه وبفضله.

قوله جل ذكره : ﴿ وبَرًّا بوالديه ولم يَكُن جبَّارًا عَصِيًّا ﴾

«براً بوالديه » كأمر الله — سبحانه — له بذلك لا لمودَّةِ البَشَرِ وموجِبِ عادة الإنسانية .

ولم يكن متمرداً عن الحق ، جاحداً لربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبْعثُ حَيًّا ﴾

أى له مِنَّا أمانٌ يوم القيامة ، ويوم ولادته فى البداية ، ويوم وفاته فى النهاية ، وهو أن يصونَه عن الزَّيغِ والعِوَجِ فى العقيدة بما يُشْهِدُه على الدوام من حقيقة الإلهية .

---

(١) كأنما يقصد القشيرى إلى بيان أن الإشارة تغنى عن العبارة وأنها بأمر إلهى .

وكذلك هو فى القيامة له منه — سبحانه — الأمان ؛ فهو فى الدنيا معصوم عن الزلة ، محفوظٌ عن الآفة . وفى الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿واذكُرْ فى الكتابِ مريمَ إذ انْتَبَذَتْ
مِنْ أهلِها مَكانا شرقيا * فاتخذت
من دونِهم حِجَابًا فأرْسَلْنا إليها
روحَنا فَتَمثَّلَ لها بَشَرًا سَوِيًّا﴾

اعتزلت عنهم لتحصيلِ يطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .

فلمَّا أبصرت جبريلَ فى صورةِ إنسانٍ لم تتوقعه أحَسَّتْ فى نفسها رُعْبًا ، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿قالت إنى أعوذ بالرحمنِ منك إن
كنتَ تقيًّا﴾

قالت مريمُ لجبريل — وهى لم تعرفه — إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ ويُتَقَّى منه ؛ أى إنْ كنتَ تَقْصِد السوء . ومعنى قولها « بالرحمن » ولم تقل : « بالله » — أى بالذى يرحمنى فيحفظنى منك .

ويقال يحتمل أن يكون معناه : إن كنتَ تعرف الله وتكون متقيا مخالفة أمره فإنِّى أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته .

قوله جل ذكره . ﴿قال إنَّما أنا رسولُ ربِّكِ لأَهبَ
لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾

تعرَّف جبريلُ إليها بما سكَّن رَوْعَها ، وقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام .

﴿قالت أنَّى يكونُ لى غلامٌ ولم
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ولم أكُ بَغِيًّا * قال
كذلك قال ربُّكِ هو علىَّ هَيِّنٌ

ولنجعلَه آيةً للناسِ ورحمةً مِنّا وكان
أمرًا مَقْضِيًّا ﴾

قالت أنى يكونُ لى وَلَدٌ ولم أُلِمّ بزَلّةٍ ولا فاحشةٍ ؟ فقال جبريلُ — عليه السلام — : الأمرُ كما قلتُ لَكِ ؛ فلا يتعصّى ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أَقْدَرُ أنْ يجعل هـذا الوَلَدَ دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه — سبحانه — لِمَنْ آمَنَ ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فانْتَبَذَتْ به مكانًا
قَصِيًّا ﴾

لمّا ظهر بها الحَمْلُ ، وعَلِمَتْ أنَّ الناسَ يستبعدون ذلك ، ولم تَثِقْ بأحدٍ تُفْشِى إليه سِرَّها . . مَضَتْ إلى مكانٍ بعيد عن الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَجاءها المَخاضُ إلى جِذْعِ النخلة
قالَتْ يا ليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ
نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾

ألجأَها وَجعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جِذْعِ النخلة . ولمّا أخذها الطَّلْقُ ، ودَاخَلَها الخَجلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسان العَجز ، وقالت : « يا ليتنى مِتُّ قبل هذا » .

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقًا من قومها ، لأنها عَلِمَتْ أنّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بلسانِ الفُجْرِ ، وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصِيبَهم بِسَبَبِها عقوبةٌ .

ويقال قالت : «يا ليتنى مِتُّ قبل هذا » حتى لم أَسْمع مَنْ قال فى الله تعالى بسببى إن عيسى ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجتُه . . . تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً !

ويقال « يا ليتنى مت قبل هذا » : فى الوقت الذى كنتُ مرفوقًا بى ، ولم تستقبلنى هذه الخشونةُ فى الحالةِ التى لَحِقَتْنِي .

ويقال « ياليتنى مِتُّ قبل هذا » : فى الوقت الذى لم يكن قلبى متعلقاً بسبب .

قوله جل ذكرهُ : ﴿ فناداها مِن تحتِها ألاَّ تحزَنى قد جَعَل رَبُّكِ تحتكِ سَرِيًّا ﴾[1]

فى التفسير أن المُنادِىَ بقوله «من تحتها» : جبريلُ عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام . والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أى يرزقك الله ولداً سرياً .

قوله جل ذكره : ﴿ وهُزِّى إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِيًّا ﴾

وكان جِذعاً يابساً أخرج اللهُ تعالى منه فى الوقتِ الثمرةَ ، وهى الرُّطبُ الجَنِىُّ ، وكان فى ذلك آية ودلالة لها ؛ فالذى قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام — من غير أبٍ .

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة ، فقد كان زكريا — عليه السلام — يجِدُ عندها رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف ، فلمَّا جاءتْ علاقةُ الولدِ أُمِرَتْ بهزِّ النخلةِ اليابسةِ — وهى فى أضعف حالها ؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد ، لِيُعْلَمَ أنَّ العلاقةَ توجِبُ العناء والمشقة .

ويقال بل أُمِرَتْ بهزِّ النخلة اليابسة ، وكان تمكنُها من ذلك أوضحَ دلالة على صدقها فى حالها .

ويقال لمَّا لم يكن لها فى هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدها تولَّى الله تعالى كفايتها ؛ ليَعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عِبادِهِ فى وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلِى واشرَبِى وقَرِّى عيناً ،

(١) السرى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صغير أو جدول .

﴿ فإمَّا تَرِيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدًا ،
فقولى إنِّي نَذَرْتُ للرحمنِ صَوْماً
فلن أُكلِّمَ اليومَ إنسيًّا ﴾

كفاها أسبابَ ما احتاجت إليه مِنْ أكْلِها وشُرْبِها ، وسَكَّنَ من خوفها ، وطيَّبَ قلبَها .

« فإما ترين من البشر أحداً » : فلا تخاطبيهم وعرِّفيهم ـ بالإشارة ـ أنَّكِ نَذَرْتِ للرحمن الصمتَ مع الخلْق ، وتَرْكَ المخاطبةِ معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَتْ به قَوْمَها تحمله قالوا :
يا مريمُ لقد جِئْتِ شيئاً فَرِيًّا *
يا أُخْتَ هارونَ ما كان أبوكِ امْرَأَ
سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

بسط قومُها فيها لسانَ الملامةِ لما رَأَوْها قد وَلَدَتْ ـ وظاهرُ الحالِ كان معهم ـ فقالوا لها على سبيل الملامة : يا مَنْ كنا نَعُدُّكِ فى الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالسداد والصلاح . . مِنْ أين لكِ هذه الحالة الشنعاء ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون . ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً فى قومهم ، فقالوا : يا شبيهته فى الفساد . . ما هذا الولد ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أخت هارون ، ويا مَنْ فى حسابنا وظَنِّنا ما كان أبواكِ فيهما سوء ولا فساد . . كيف أتيتِ بهذه الكبيرة العظيمة ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ فأشارَتْ إليه قالوا كيف نُكَلِّمُ
مَن كان فى المَهْدِ صَبِيًّا ؟ ﴾

فى الظاهر أشارت إلى الولد ، وفى الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهم ما قرب وما بعد وقالوا : كيف نكلِّم مَنْ هو أهل بأن يُنَوَّم فى المهد ؟ !

فـ « كان » هاهنا فى اللفظ صلة .. وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنى عبدُ اللهِ آتانِىَ الكتابَ وجعلنى نبيًّا ﴾

لما قالوا ذلك أنطق اللهُ عيسى حتى قال : إنى عبد الله ، فظهرت براءةُ ساحتِها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثلُه . وجرى على لسانه حتى قال : إنى عبد الله ؛ ليُقَال للنصارى إنْ صَدَقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولُكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب فالذى يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عَبْدَ هواه ، ولا فى أسْرِ شىء سواه فمَنْ تحرر مِنْ غيره فهو فى الحقيقة عَبْدُه .

« وآتانى الكتاب » : أى سيؤتينى الكتاب أو آتانى فى سابق حكمه .

« وجعلنى نبياً » بفضله . وفى الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك فى حال ولادته ، ولم تَكُنْ منه بَعْدُ عبادةٌ وأخبر أن الله جعله نبياً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَعَلنى مُبارَكاً أينما كُنْتُ وأوصانى بالصلاةِ والزكاةِ ما دُمْتُ حَيّـاً * وبَرًّا بوالدتى ولم يجْعلنى جَبّاراً شقيّاً ﴾ .

أى نافعا للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَةِ التى فيها هلاكهم ، ومَنْ استضاء بنوره نجا . فهذه بركاتُه التى كانت تصل إلى الخلْق . ومَنْ بركاتِه إغاثةُ الملهوف ، وإعانةُ الضعيف ، ونصرة المظلوم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة للخَلْق ، وكَفُّ الأذى عنهم وحَمْلُ الأذى منهم .

« وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً » أى لم يجعلنى غيرَ قابلٍ للنصيحة .

---

(١) فى موضع آخر حاول القشيرى ان يوضح ضرورة استقلال عمل الإنسان والنظر إليه بعين الاستصغار رغبة منه فى ربط كل شىء بالفضل والاجتباء الإلهيين، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبراً متجبراً . ويقال مختوماً بكفرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ والسلامُ علىَّ يومَ وُلِدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعَثُ حيًّا ﴾

قال عيسى عليه السلام : « والسلام علىَّ » ، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . . فشتان ما هما !

والسلام بمعنى السلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلىَّ من قول النصارى في مجاوزة الحدِّ فى المدح ، ومما وصفنى به اليهود من الذمِّ[1] ، فَلَستُ كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام علىَّ يوم أموت ؛ ففى ذلك اليوم تكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتى .
وسلام علىَّ يوم أُبعَثُ ؛ أى سلامةٌ لى فى الأحوال مِمَّا يُبْتَلَى به غيرُ أهل الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريمَ قَوْلَ الحقِّ الذى فيه يَمْتَرُون ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيكون بقول إله ؟
وقد شكَّ فيه أكثر الخَلْق فَرَدَّه قومٌ وقَبِلَه قومٌ ، والفرق بينهما فى استحقاقه[2] .
وقوله : « قول الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لله أن يتَّخذَ من وَلَدٍ سبحانه إذا قضىٰ أمراً فإنَّما يقول له كن فيكون * وإنَّ اللهَ رَبِّى وربكم فاعبدوه هذا صِراطٌ مستقيمٌ ﴾

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والوَلَدُ بعضُ والده .

---

(١) فقد اتهم اليهود امه بالزنا .
(٢) أى فى نصيبه من الحق الفارق بين الردِّ والقبول .

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة . ولا يجوز عليه التبني لأحد لِعَدَمِ الجنسية بينهما .

وقوله : « وإذا قضى أمراً . . . » إذا أراد إحداثَ شيءٍ خلَقَه بقدرته ، وخاطَبَه بأمر التكوين[1] ، ولا يتعصَّى عليه — فى التحقيق — مقدور .

« وإنَّ الله ربى وربكم » أى أمرنى بأن تعلموا ذلك ، وأمرنى بتبليغ رسالتى ، واتباع ما شَرَعَ اللهُ من العبادات .

قوله جل ذكره : ﴿ فاختلفَ الأحزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ للذين كفروا مِن مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ ﴾

فَمَنْ عُجِنَتْ بماءِ السعادةِ طينتُه أَطَاعَ فى عاجله وما ضاع فى آجله ، ومَنْ أقصَتْه القِسْمةُ السابقة لم تُدْنِه الخِدْمَةُ اللاحقة ، وسَيَلْقَوْنَ غِبَّ هذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ يومَ يأتُونَنَا لكِنِ الظالمونَ اليومَ فى ضلالٍ مبينٍ ﴾

صير معارفهم ضرورية ، وأحوالُهم كلُّها معكوسةً ، والحُجَّةُ تتأكَّد عليهم ، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم ، والرحمةُ لا تتعلَّق بهم ، فلا تُرْحَمَ شكاتُهم ، ولا يُسْمَعُ نِداؤُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنذِرْهم يومَ الحسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهُمْ فى غَفْلَةٍ وهم لا يؤمِنون ﴾

تقوم الساعةَ بغتةً ، وتصادفهم القيامةُ وهم غيرُ مستعدين لها فيتحسَّرون على ما فاتهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سَبَقَتْ لقومٍ الشقاوةُ — وهم فى محو العَدَمِ ، ولآخرين السعادة — وهم بنعت العدم ، ولم يكن من أولئك جُرْمٌ بَعْدُ ، ولا مِنْ هؤلاء وِفَاقٌ بعدُ .

---

(١) أى كن فيكون .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّا نحنُ نرثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعون ﴾

يريد به إذا قَبَضَ أرواحَ بنِى آدم بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ ، وليس يريد به استحداث مُلْكِه ، وهو اليومَ مالِكُ الأرض ومَنْ عليها ، ومالكُ الكونِ وما فيه .

ويقال إن زكريا قال — لمّا سأل الولد : « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقال تعالى فى صفة بنى إسرائيل : « كذلك وأورثناها بنى إسرائيل »[1] وقال : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »[2] ، ولما انتهى إلى هذه الأمة[3] قال : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها » . . فشتان بين مَنْ وارِثُه الوَلَدُ وبين مَنْ وارِثُه الأَحَدُ !

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وارثَه . . وهذا مخلوق يقول فى صفة مخلوق :

فإنْ يكُ عتّابٌ مضى لسبيله فما مات من يبقى له مِثْلُ خالدِ

وقال تعالى : « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء »[4] لماذا ؟ لأنَّ وارثَهم اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذْكُرْ فى الكتابِ إبراهيمَ إنَّه كان صِدِّيقاً نبياً ﴾

الصِدِّيق الكثير الصدق ، الذى لا يمازج صِدْقَه شوبٌ .

ويقال هو الصادق فى أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصِدِّيق لا يناقِضُ سِرُّهُ عَلَنَه .

---

(١) آية ٥٩ سورة الشعراء .
(٢) آية ١٢٨ سورة الأعراف .
(٣) يقصد امة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .
(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذى لا يشهد غيرَ الله مُثْبِتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لِمَا يطَالَب به جملةً وتفصيلاً .

ويقال هو الواقفُ مع اللهِ فى عموم الأوقات على حدِّ الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ لأبيه يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مالا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عنكَ شيئاً ﴾ .

دلَّت الآيةُ على استحقاقِ المعبودِ الوصفَ بالسمع والبصرِ على الكمال دون نُقْصانٍ فيه ، وكذلك القول فى القدرة على الضَّرِّ والنفع .

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عَلِمَ أن كلَّ الخَلْق لا تَصْلُحُ قدرةُ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث ، فمن عَلَّقَ قلبه بمخلوق ، أو تَوَهَّمَ شظية منه من النفى والإثبات فَقَدْ ضَاهَى عَبَدَةَ الأصنام .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأَبَتِ إِنِّى قد جاءنى مِنَ العِلْمِ مالم يَأْتِكَ فاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سويًّا ﴾

أَمَرَه باتباعه لمَّا ترجح عليه جانبُه فى كَوْنِ الحقِّ معه — وإنْ كان أكبرَ منه سِنًّا ، وبيَّن أن الخلاص فى اتباع أهل الحقِّ ، وأنَّ الهلاكَ فى الابتداع والتطوح فى مغاليط الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأَبَتِ لاتَعْبُدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحمنِ عَصِيًّا ﴾ .

بيَّن أنَّ العلةَ فى منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فبَانَ أنه لاينبغى أنْ تكون طاعةٌ لِمَنْ يَعْصِى اللهَ بحالٍ .

ويقال أساسُ الدِّين هِجْرانُ أربابِ العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأبتِ إنِّى أخافُ أن يَمَسَّكَ عذابٌ مِّنَ الرحمن فتكونَ للشيطان وَلِيًّا ﴾

لم يغادرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه ، ولم ينفعه جميل وعظه ، ولم تنجع فيه كثْرَةُ نُصْحه ، فإنَّ مَنْ أقْصَتْه سوابِقُ التقدير لم تُخَلِّصْهُ لواحقُ التدبير .

قوله جل ذكره : ﴿قال أراغِبٌ أنتَ عن آلهتى يا إبراهيم﴾

منَّاه ابراهيمُ بجميل العُقْبَى ، فقابلَه بتوعُّد العقوبة فقال :

﴿لئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجُرْنى مَلِيًّا﴾ .

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال :

﴿قال سلامٌ عليكَ سأستَغْفِرُ لكَ ربى إنَّه كان بى حَفِيًّا﴾ .

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه ، إذ كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء فى شانه ، فلمَّا تحقق أنه مختومٌ له بالشقاوة قال له :

﴿وأعتَزِلُكُم وما تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وأدْعُو ربى عَسَى ألاَّ أكونَ بِدُعاءِ ربى شَقِيًّا﴾ .

« ما تدعون » : أى ما تعبدون ، « وأدعو ربى » : أى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَمَّا اعتزَلَهم وما يَعْبُدُون مِن دونِ اللهِ وَهبْناَ له إسحٰقَ ويعقوبَ وكلاًّ جعَلْنا نبيًّا﴾ .

لما أيِسَ من أصلِهِ آنَسَهُ اللهُ بما أكرمه من نَسْلِهِ ، فأنبتهم نباتاً حسناً ، ورزقهم النبوةَ، ولسانَ الصدق بالذكر لهم على الدوام[1] فقال :

(١) وربما يشير القشيرى بذلك إلى : (الصلاة على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) فى تشهد كل صلاة ،

﴿ ووَهَبْنا لهم مِّن رَّحْمَتِنا وجَعَلْنا
لهم لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ فى الكتابِ موسى إنَّه
كان مُخْلَصًا وكان رسولاً نبيًّا ﴾

مُخْلَصًا خالصا لله ، ولم يكن لغيره بوجهٍ ؛ فلم تأخذه فى الله لومةُ لائم ، ولم يستفزه طمع نحو إيثار حظٍ ، ولم يُغضِ فى اللهِ على شىءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وناديناه من جانبِ الطور الأيمنِ
وقَرَّبْناه نجيًّا ﴾ .

للنجوى مزية على النداء ، فجمع له الوصفَيْن : النداء فى بدايته ، والسماعَ والنجوى فى نهايته ؛ فوقَّفَه الحقُّ وناداه ، وفى جميع الحالين تولاَّه .

« من جانب الطور » : ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ووهبنا له مِن رَّحْمَتِنا أخاهُ هارون نبيًّا ﴾ .

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر فى الكتابِ اسماعيلَ إنَّه
كان صادِقَ الوعدِ وكان رسولاً
نبيًّا * وكان يأمُرُ أهْلَه بالصلاةِ
والزكاةِ وكان عند ربِّه مَرْضِيًّا ﴾ .

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه[2] ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفداء . وصدق الوعد لأنه حفظ العهد . وكان يأمر أهله بالصلاة — بأمر الله إياه — وبالزكاة ، ويشتمل هذا على ما أمره إيام بالعبادة البدنية والمالية حينما وكيفما كان .

---

(١) بهذا يتجنب القشيرى مزلقاً خطراً فلا يكون النداء الإلهىُ من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه) تقريب مكانة لا مكان .

(٢) من هذه الاشارة نعرف أن القشيرى يرى أن اسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة الذبح والفداء .

« وكان عند ربه مرضيا » وكان هذا أشرفَ خصاله وأجلَّ صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنّه كان صدّيقاً نبيًّا * ورفعناه مكاناً عليًّا ﴾ .

الصدّيق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مَذْق[1] ، ويكون قائما بالحقّ للحق ، ولا يكون فيه نَفَسٌ لغير الله .

« ورفعناه مكانا عليا » : درجة عظيمة فى التربية لم يُساوِه فيها أحدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنعمَ اللهُ عليهم مّنَ النّبيّينَ من ذُرّيةِ آدمَ وممّنْ حَمَلْنا مع نوحٍ ومن ذُرّيةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ وممّنْ هَدَيْنا واجتَبَيْنا إذا تُتلَى عليهم آياتُ الرحمٰن خرّوا سُجّدًا وبُكيًّا ﴾

أقامهم بشواهد الجمع ، وأخبر أن مِنّته كامِنَةٌ فى تخصيصهم بأحوالهم ، وتأهيلهم لِماَ رقّاهم إليه من المآل ، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقّةُ قلوبِهم ؛ فهم إذا تُتلَى عليهم الآياتُ سجدوا ، وسجودُ ظواهرِهم يدل على سجودِ سرائرهم بما حقّقَ لهم من شواهد الجمع ، وأمارة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق ؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية ، وبِسِمَت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أضاعوا

---

(١) مَذَقَ اللبن والشراب بالماء مَذْقاً اى مَزَجَهَ وخَلَطَه ، ومدق الود اى شابه ولم يُخلِصه .

(٢) هنا من أشد البراهين نصاعة على تمسك القشيرى بالشريعة ؛ فإن صدق العبد فى التوجه أمارته ان يكون محفوظاً — من قِبَل الحق — كى يؤدى فرائض الشرع .

الصلاةَ واتَّبَعُوا الشهواتِ فسوف
يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾

الذين حادوا عن طريقهم ، وضيّعوا حقَّ الشرع ، وتخطوا واجبَ الأمر ، وزاغوا عن طريق الرشد ، وأخلوا بآداب الشرع ، وانخرطوا فى سِلكِ متابعة الشهوات — سيلقون عن قريبٍ ما يستوجبونه، ويُعامَلون بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ مَن تاب وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً
فأولئك يدخلون الجنةَ ولا يُظلَمون
شيئاً * جنّاتِ عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمنُ
عِبادَه بالغيبِ إنَّه كان وَعدُه مأتِياً
* لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً إلا سَلاَماً ﴾

فأولئك الذين تداركتْهم الرحمةُ الأزليةَ ، وسيبقون فى النعم السرمدية . يستنجز الحقُّ لهم عِداتِهم ، ويُوَصِّلهم إلى درجاتهم ، ويُحقِّق لهم ما وعدهم .

« إنه كان وعده مأتيا » : لأن ما أُتيتَهَ فقد أتاك أو ما أتاكَ فقد أتيته[1] .

« لا يسمعون فيها لغواً » : فإن أسماعَهم مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ ، لا يسمعون إلا من اللهِ وبالله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولهم رِزْقُهم فيها بُكرةً وعَشِيّاً ﴾

كانوا يعدُّون مَنْ عنده طعامُ البكرة والعشية مِنْ جملة المياسيرِ والأغنياء لكونهم فقراء ؛ إنْ وجدوا غداءهم ففى الغالب يَعْدِمُون عشاءهم ، وإنْ وجدوا عشاءهم فَقَلَّما كانوا يجدون غداءهم . ويقال فى « لهم ما يشتهون فيها » : بمقدار الغدو والعشى من الزمان فى الجنة أى كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف فى الجنة ؛ فللأشباحِ رِزْقٌ من مطعومٍ ومشروب ، وللأرواحِ رزقٌ من سماعٍ وشهود ، ولكلٍ — على قَدْرِ استحقاقه — قِسطٌ معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك الجنَّةُ التى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا
مَن كان تَقِيّاً ﴾

---

(١) أى أن (مأتيا) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجريح .

فالجنةُ للأتقياء من هذه الأمة مُعَدَّةٌ لهم ، والرحمةُ لعُصاة المسلمين مُدَّخرةٌ لهم . الجنةُ لُطفٌ من الله تعالى ، والرحمةُ وَصفٌ لله تعالى . وقوله : « من عبادنا » : فَعَبْدُه على الخصوصية مَنْ كان اليومَ فى قيد أمره . وقوله : « من كان تقيا » : قوم يتقون المعاصى والمخالفات ، وقوم يتقون الشهواتِ ، وآخرون يتقون الفضلاتِ ، وآخرون يتقون شهودَ كُلِّ غير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نتنزَّلُ إلا بِأَمْرِ ربِّك له ما بين أيدِينا وما خَلْفَنَا وما بين ذلك وما كان ربُّك نَسِيّاً ﴾

إن الملائكةَ — عليهم السلام — أبداً يَنْزِلون بإذنِ الحقِّ تعالى ، فبعضهم بإنجاد المظلومين ، وبعضهم بإغاثة الملهوفين ، وبعضهم بتدمير الجاحدين ، وبعضهم بنصرة المؤمنين ، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين . واللهُ — سبحانه — لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفْظٍ وإنعامٍ ، أو إمهالٍ ونَكال . . .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّ السموات والأرضِ وما بينهما فاعبُدْه واصْطَبِرْ لعبادتِه هل تَعْلَمُ له سَمِيّاً ﴾

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربَّها ، ويكون مالكها ، ويكون قادراً عليها .

وإذا وجدت فهو فاعلها ، فمعنى كون فعل الشىء لفاعله أنه فى مقدوره وجوده .

ويقال إذا كان ربَّ الأكابرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء ، وقيمةُ العَبْدِ بمالكه وقَدْرِه[1] ، لا بثمنه فى نَفْسِه وَخَطَرِه .

قوله : « فاعبده » أى قِفْ حيثما أمرك ، ودَعْ ما يقع لك ، وخَلِّ رأيك وتدبيرك .

قوله : « واصطبر لعبادته » : الاصطبار غاية الصبر .

قوله : « هل تعلم له سميا » : أى كفوا ونظيراً . ويقال هل تعرف أحداً يسمى « الله » غيرَ اللهِ ؟ ويقال أنَّى بالنظير . . . وهو بالقِدَمِ متوحد ! والتشبيه يقتضى التسوية بين المتشابهين ، ولا مِثْلَ له . . لا موجوداً ولا موهوماً .

(1) أى قدر هذا المالك

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الإنسانُ أئذا ماتُّ لسوف
أُخْرَجُ حيًّا * أو لا يذكر الإنسانُ
أنَّا خلقناه من قبلُ ولم يكُ شيئًا ﴾

أنكروا حديثَ البعثِ غاية الإنكار ، فأقام الحجةَ عليهم بالنشأة الأولى ، فقال : إن الذى قدر على خَلْقِ الخلْقِ فى الابتداء وهم نُطَفٌ ضعفاء ، وقَبْلُ كانوا فى أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمهاتِ ففَطَرَهُم ، وعلى ما شاء صوَّرَهم ، وفى الوقت الذى أراد — عن[1] بطون أمهاتهم أخْرَجَهُم .

قوله : « ولم يك شيئاً » فيه دليل على صحة أهل البصائر أنّ المعدومَ لم يك شيئاً فى حال عَدَمِه[2] .

ويقال أبطل لهم كلَّ دعوى حيث ذَكَّرَهم نَسَبَهم وكَوْنَهم مِنَ العدَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم والشياطينَ
ثم لَنُحْضِرَنَّهم حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

نحشرهم جميعاً فيجتمعون فى العَرْصَة[3] . ثم يختلف مُنْقَلَبُهم ؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكاتٍ بعضها أسفل من بعض — واسمُ جهنم يجمع أماكنهم . ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هى دَرَجاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض — واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم .

ويقال التفاوتُ فى الجنةِ بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم لَنَنزِعَنَّ من كل شِيعَةٍ أيُّهُم أشَدُّ
على الرحمن عِتِيًّا ﴾

---

(١) الأصوب أن تكون (من) كما ورد فى الآية ٧٨ سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » .

(٢) وفيه ردٌّ على القائلين بأن المادة لا تستحدث .

(٣) العرصة = ساحة الدار أو صفيحة من الحديد توضع فى التنور لينضج عليها الخبز وغيره (الوسيط)

مَنْ تقدَّمَ عليهم فى الإضلال، والضلال ضوعف عليه غداً العذاب والأغلال .

﴿ ثم لَنَحْنُ أعْلَمُ بالذين هم أوْلَى بها صِلِيًّا ﴾

ينزل فى كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها ، فمن كان عتوُّه اليومَ أشدَّ غلوا كان فى النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن منكم إلا وَارِدُها كان على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ﴾

كلٌّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضَيْرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (...)[1] والزلل ؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً . وقوم يردونها — كما فى الخبر : « إن النار عند مرورهم عليها إذوابة كإذوابةِ اللَّبَن ، فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أوليس وعدنا جهنم على طريق ؟ فيقال لهم . عبرتم وما شعرتم[2] ! »

قوله جل ذكره : ﴿ ثم نُنَجِّي الذين اتَّقَوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا ﴾

يُنَجِّي مَنْ كان مؤمناً ، بعضهم قَبْلَ بعض ، وبعضهم بَعْدَ بعض ، ولكن لا يبقى من

---

(١) مشتبهة وهى فى الرسم هكذا (الالتبات) وربما كانت فى الأصل (الالتباس) أى الوقوع فى (اللبس) والالتباس مناسبٌ (للزلل) .

(٢) الإذوابة : الزبد حين يوضع فى البرمة ليذاب (مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣٦٢) .

وعن جابر أنه عليه السلام سئل عن ذلك فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة (القاضى البيضاوى ط الحبال بجدة) ص ٤١٠ .

وعن جابر أيضاً ، الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم » [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١١ ص ١٣٦ سلسلة التراث] .

وعن الحسن « ليس الورود الدخول ، إنما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ؛ فالورود أن يمروا على الصراط » وقد استند كثير إلى رأى الحسن واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

المؤمنين مَنْ لا ينجيهم . ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها ، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء ، وتُطْبِقُ عليهم أبوابُ جهنم ، وينقطع منهم الرجاء والأمل .

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم ؛ فزيادة التقوى توجِب لهم التعجيل في النجاة ؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ ، ومن منقطع ، ومن محترق . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَىٰ عليهم آياتُنا بيناتٍ
قال الذين كفَرُوا للذين آمنُوا أيُّ
الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديًّا ﴾

يعني إذا قُرِئَتْ عليهم آياتُ القرآن قابلوها بالردِّ والجحد والعتو والزيغ ، ويدَّعُون أنهم على حقٍ ، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحدْسِ والظنِّ .

قوله جل ذكره ﴿ وكم أهلكنا قبلَهُم من قَرْنٍ هُمْ
أحسَنُ أثاثاً ورِئياً ﴾

أي إن هؤلاء ينخرطون في سِلْكِ مَنْ تقدَّمهم ، كما سلكوا في الريب مناهجهم ، وسَيَلْقَوْن ما يستوجبونه على سوء أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ[1] مَن كان في الضلالةِ فليَمْدُدْ
له الرحمنُ مدًّا حتى إذا رَأَوْا
ما يُوعَدُون إمَّا العذابَ وإمَّا الساعةَ
فسَيَعْلمون مَنْ هو شرٌّ مكاناً
وأضعَفُ جُنداً ﴾

إن الله تعالى يُمْهِلُ الكفارَ ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم ، ويَغْترُّوا بسلامةِ أحوالهم ، فينسونه في غفلة الإمهال والاغترار بسلامة أحوالهم ، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب حسبانهم قوله « حتى إذا رأوا ما يوعدون . . . » أي يحل بهم موعودُ العقوبة عاجلاً أو قيام

---

(١) سقطت (قل) من الناسخ فأثبتناها .

الساعة[1] آجلاً ، فعند ذلك يتضح لهم ما تعاموا عنه من شدة الانتقام ، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويزيدُ اللهُ الذين اهتدَوْا هُدًى ﴾

أى يغْنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس ، فإذا متع نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة .

﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ
عِندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ مَرَدًّا ﴾

« الباقياتُ الصالحات » : الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص .

ويقال « الباقيات الصالحات » : التى تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خير » لأن فى استحقاقِ القبول زيادةً للهدى ؛ فيصير عِلْمُ اليقين عينَ اليقين ، وعينُ يقينهم حق اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ أفرأيتَ الذى كفرَ بآياتنا وقال
لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً ﴾

أخبِرْ بقصة ذلك الكافر[2] الذى قال بيمين — من غير حجة — لأُعطَيَنَّ مالاً وولداً ، ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أطَّلَعَ الغيبَ أمِ اتَّخذَ عِندَ
الرحمٰن عهداً ؟ ﴾

---

(١) وردت (السرعة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكذا الآية .

(٢) عن الحسن : أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة . والمشهور انها فى العاص بن وائل فقد روى ان خباب ابن الأرت صاغ للعاصى حليا فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون انكم تبعثون وان فى الجنة ذهباً وفضة فأنا اقضيك ثم فإنى اوتى مالا وولداً حينئذٍ !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تؤيد ذلك عن مسروق وعن الكلبى وعن مقاتل . (أسباب النزول ط مؤسسة الحلبى) ص ٢٠٤ .

ورواه البخارى عن الحميدى عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يحول ما يقول بتحريف منا ؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً ؟ ليس الأمر كذلك .

ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جيلاً ، أو أمَّلَ منه أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له ، ويَصْدُقُ ظَنُّهُ لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى لا يخلف عهده .

قوله جل ذكره : ﴿ كلا سَنَكْتُبُ ما يقولُ ونَمُدُّ له مِنَ العذابِ مَدًّا * ونَرِثُه ما يقولُ ويأتينا فرداً ﴾

كلا . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس لقولهم تحقيق ، بل سنمد لهم من العذاب مداً أى سنطيل فى العذاب مدتهم .

« ونرثه ما يقول . . . » لن نُمَتِّعَه بأولاده وحَشَمِه وخَدَمِه وقَوْمه ، ويعود إلينا منفرداً عنهم .

قوله جل ذكر : ﴿ واتخذوا مِن دونِ اللهِ آلِهةً ليكونوا لهم عِزًّا * كلا سَيَكْفُرون بعبادَتِهم ويكونون عليهم ضِدًّا ﴾

حكموا بظنهم الفاسدِ أنَّ أصنامَهم تمنعهم ، وأنَّ ما عبدوه من دون الله تعالى توجِبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلةً .. وهيهاتَ ! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق ، بل إذا حُشِرُوا وحُشِرَتْ أصنامُهم تبَرَّأَتْ أصنامُهم منهم ، وما أَمَّلُوا نفعًا منها عاد ضرراً عليهم .

ويقال طلبوا العِزَّ فى أماكن الذل ، فأخفقوا فى الطلب ، ونُفُوا عن المراد .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ أنَّا أرسَلْنا الشياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أزًّا ﴾

تؤزهم أى تزعجهم ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة ، وخاطر الحقِّ يكون برَوْحٍ وسكينة ، وهذه إحدى الدلائل بينهما .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تعجَلْ عليهم إنَّما نَعُدُّ لهم عَدًّا ﴾

الأنفاس فى الحكم معدودة ؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها . وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ نحشُرُ المتقينَ إلى الرحمٰنِ وفداً ﴾

قيل ركبانا على نجائب طاعاتهم ، وهم مختلفون ؛ فمِنْ راكبٍ على صدور طاعاته ، ومن راكبٍ على مراكب هِمَمِه ، ومن راكبٍ على نجائب أنواره . ومِنْ محمولٍ يحمله الحقُّ فى عقباه كما يحمله اليومَ فى دنياه . وليس محمولُ الحقِّ كمحمول الخَلْق !

قوله جل ذكره ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذُّلِّ ، فيجمعهم فى السَّوْقِ ، ولكن يُغَايِر بينهم فى معانيه .. فشتَّان ما هما !!

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَمْلِكُون الشفاعةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عند الرحمٰنِ عَهْداً ﴾

وذلك العهدُ حِفْظُهم فى دنياهم ما أُخِذَ عليهم — يومَ الميثاق — من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمٰنُ وَلَدًا * لقد جِئْتُمْ شيئاً إِدًّا * تَكَادُ السمٰواتُ يتفطَّرْنَ منه وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدًّا * أن دَعَوا للرحمٰنِ وَلَدًا ﴾

ما أعظم بهتانَهم فى مقالتهم ! وما أشدَّ جرأتَهم فى قبيح حالتهم ! لكنَّ الصمديةَ متقدِّسةٌ عن عائدٍ يعود إليها من زَيْنٍ بتوحيدِ مُوَحِّد ، أو شَيْنٍ بإلحاد مُلْحِد ... فما شاهت إلَّا وجوهُهم عما خاضوا فيه من مقالِهم ، وما صاروا إليه من ضلالهم . كما لم يَتَجَمَّلْ بما قاله الآخرون إلا القائل ، وما عاد إلا على القائل مقابلٌ من عاجلٍ أو آجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتَّخِذَ وَلَدًا
إن كُلُّ مَن فى السموات والأرضِ
إلا آتِي الرحمنِ عَبْدًا * لقد
أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا * وكُلهم
آتيه يومَ القيامةِ فَرْدًا ﴾

أنَّى بالولد وهو واحد ؟! وأنَّى بالولادة ولا جنسَ له وجوباً[1] ولا جوازاً ؟!

« لقد أحصاهم . . » : لا يَعْزُب عن عِلْمِهِ معلومٌ ، ولا ينفكُّ عن قدرته — مما يصح أن يقال حدوثه — موهوم .

« وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » : لا خَدَمَ يصحبهم ، ولا حَشَمَ يلحقهم ، كلٌّ بِنَفْسِهِ مشتغِلٌ ، وعن غيره منفرد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ
سيجعلُ لهم الرحمن وُدًّا ﴾

يجعل فى قلوبهم وداً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة ، وفى الخبر : « لا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه »[2] .

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً فى قلوب عباده ، وفى قلوب الملائكة ، فأهل الخير والطاعة محبوبون مِنْ كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل[3] .

---

(1) وردت (وجوداً) والأرجح ان تكون (وجوباً) لتتلاءم مع (جوازا) اى لايجب عليه ولا يجوز فى وصفه — لتقدسه وتنزهه — ان يكون له جنس .

(2) (... فإذا احببته كنت عينه التى يبصر بها ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها) وهو حديث قدسىّ رواه البخارى عن ابى هريرة ، واحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير عن ابى امامة ، وابن السنى عن ميمون ، وقد اخطأ من زعم ان البخارى انفرد بروايته .

(3) اخرج مسلم والترمذى عن ابى هريرة ان النبى (ص) قال إذا احب الله عبداً نادى جبريل : إنى قد احببت فلاناً فأحبه ، فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى الأرض . . وذلك قوله تعالى : « سيجعل لهم الرحمن وداً » .

السيوطى فى إتقانه ص ١٩٩ ج ٢ ط مصطفى الحلبى .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنما[1] يَسَّرْناه بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ به المتقين وتُنْذِرَ به قوماً لُدًّا ﴾

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم تيسير ، ولآخرين تخويف وتحذير . فطوبى لِمَنْ بُشِّر لما وفِّق به ، والويل لمن خُوِّف بل خُذِلَ فيه . والقومُ بين موفقٍ ومخذولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ أهْلَكْنا قَبْلَهم مِّن قَرْنٍ هل تُحِسُّ منهم مِّنْ أحَدٍ أوْ تَسْمَعُ لهم رِكزاً ﴾ .

أثبتهم وأحياهم ، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أماتهم وأفناهم ، فبادوا بأجمعهم ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ، وسيُطَالَبونَ — يومَ النشور — بالنقير والقطمير .

سورة طه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله اسم عزيز مَنْ تحقَّق بجلال عِزَّته تمحض[2] فى خلوصِ عبوديته ، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سماء نعوته .

اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُه ، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طِلْبَتُه .

اسم مَنْ عَرَفَه زال كَرْبُه وطابَ قلبُه ؛ دِينُه ربُّه[3] وجنتُه حُبُّه .

اسم عزيز من وَسَمَه بعبوديته حَرَّرَه من رِقِّ شهواته ، وأعتقه من أَسْرِ مَطَالبه ؛ فلا له لمحبوبٍ طلبٌ ، ولا يستفزُّه لمحذورٍ هربٌ .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (وإنما)

(٢) المحض = اللبن الخالص ، وتمحض = خلص من الشوائب .

(٣) أى عبادته لربه لذاته ؛ لا طلباً لثواب ولا خوفاً من عقاب كما هو الشأن فى العبادة التقليدية .

قوله جل ذكره : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾

الطاء إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طأْ بسرِّك بساطَ القربة فأنتَ لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوينا عن سرِّك ذِكْرَ غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيشُ مَنْ اهتدى بك .

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » : أى ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك ، وإنما هذا استفتاحُ الوُصلة ، والتمهيد لبساط القُرْبَة .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم »[(1)] وقف بِفَرْدِ قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجهٍ فقيل له : طأ الأرض بقدميك .. لِمَ كل هذا التعب الذى تتحمله ؟ فزاد فى تعبده ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه[(2)] وقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا تَذْكِرةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾

فالقرآنُ تَبْصِرةٌ لذوى العقول ، تذكرة لذوى الوصول ، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحةَ النَّفْسِ فى آجِلِهم ، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنْسِ فى عاجِلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تنزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأرضَ والسمٰواتِ العُلَى ﴾

---

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) نرجح انها (تورمت قدماه) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[انه كان يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له : يارسول الله » أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً] الشيخان ، والنسائى . والترمذى عن المغيرة بن شعبة .

(وسيعود القشيرى إلى فكرة « طأ بقدميك الأرض » فى آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيك . . آية ١٣١) .

جَعَلَ الأرض قراراً لِعبادِه . و نفوسُ العابدين أرضٌ و قرارٌ لطاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرارٌ لمعارفهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الرحمنُ على العرشِ استوَى ﴾

استواء عَرْشِه فى السماء معلوم ، وعَرْشه فى الأرض قلوبُ أهل التوحيد .

قال تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية »[1] وعرش القلوب : قال تعالى : « وحملناهم فى البر والبحر »[2] . أمَّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى ، وعرشُ القلوبِ الرحمنُ عليه استولى . عرشُ السماءِ قِبْلَةُ دعاء الخَلْق ، وعرشُ القلبِ مَحَلُّ نظَرِ الحق . فشتَّان بين عرشٍ وعرش !

قوله جل ذكره . ﴿ له ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ وما بينهما وما تحت الثَّرىَ ﴾

له الأشيا على العموم مِلْكاً ، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً . له مابين السمٰوات والأرض مما أظهر من العَدَمِ ، فالكلُّ له إثباتاً وخَلْقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَجْهَرْ بالقول فإنه يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾

النَّفْسُ لا تقف على ما فى القلب ، والقلبُ لا يقف على أسرار الرُّوح ، والروح لا سبيل له إلى حقائق السرِّ والذى هو أخفى من السِّرِّ فهو ما لا يَطَّلِعُ عليه إلا الحق[3] .

ويقال الذى هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه المَلَكَانِ ، ويستأثرُ بعلمه الجبَّارُ ، ولا تقف عليه الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ لا إلهَ إلَّا هُوَ له الأسماء الحُسنَى ﴾

---

(1) آية ١٧ سورة الحاقة .

(2) آية ٧٠ سورة الإسراء .

(3) يسميه القشيرى فى مواضع أخرى من مصنفاته (سر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

نَفَى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شىء منه صالحا للإبداع ، وأثبت كُلَّ ما فى الوجود له باستحقاق القِدَم .

« له الأسمـاء الحسنى » أى صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى (1)

ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ للخَلْق بأنَّ استحقاقَ العلو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرّد به .

قوله جل ذكره ﴿ وهل أتَاكَ حَدِيثُ موسىٰ ﴾

سؤال فى صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير(2) والإثبات . وأجرى — تعالى — سُنَّتَه فى كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام فى أكثر المواقع التى يذكر فيها حديث نبينا صلى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إِذْ رَأَى ناراً فقال لِأَهْلِهِ امكثُوا
إِنِّى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتيكم مِنْها
بِقَبَسٍ أو أَجِدُ على النارِ هُدًى ﴾

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم ، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهلِهِ :

« امكثوا إنى آنست ناراً » فقال أهلُه : كيف تتركنا والوادى مسبع ؟

فقال : لأجلِكُم أفارقكم ، فلعَلِّى آتيكم من هذه النار بقبس .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ ، فلم يتمالك حتى خرج . ففى القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجمع موسى — عليه السلام — حشائشَ ليأخذ من تلك النار ، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُها بأنْ تُعْطِىَ إلى أحد شعلة :

---

(1) الأرجح — حسب الذى ذكره القشيرى فى كتابه التحبير فى التذكير — أنها (وصفه فعل) .

(2) وردت (التقدير) والصواب أن تكون (التقرير) فهذا هو المصطلح البلاغى الذى يطلق على مثل هذا الاستفهام

وقُلْن لنــا نحن الأَهِلَّةُ إنما نضىءِ لِمَنْ يَسْرِى بليلٍ ولا نُقْرِى

ياموسى هذه النارُ تضىء ولـكن لا تعطى لأحدٍ منها شعلة . ياموسى هذه النارُ تحرق القلوبَ لا النفوس .

ويقال كان موسى عليه السلام فى مزاولة قَبَسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً ، فبينما هو فى حالته إذ سمع النداء من الحقّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أتاها نُودِىَ ياموسىٰ * إنِّى أنا ربُّكَ فاخلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بالوادِ المُقَدَّسِ طُوًى ﴾

علم موسى أنه كلام الحق — سبحانه — لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيبَ والتنظيمَ والتركيب ، فعَلِمَ أنه خطاب الحق .

ويقال إنما عرف موسى — عليه السلام — أنه كلامُ الله بتعريفٍ خصَّهُ الحق — سبحانه — به من حيث الإلهام دون نوعٍ من الاستدلال .

« قوله : « فاخلع نعليك . . » فإن بِسَاطَ حضرةِ الملوكِ لا يُوطأُ بِنَعْلٍ .

ويقال ألقِ عصاك يا موسى ، واخلع نعليك ، وأقِمْ عندنا هذه الليلةَ ولا تَبْرَحْ .

ويقال الإشارة فى الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن ، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد .

ويقال «اخلع نعليك» : تَبَرَّأْ عن نَوْعَىْ أفعالك[1] ، وامْحُ عن الشهود جِنْسَىْ أحوالِك من قربٍ وبُعْدٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وارتياح واجتياح ، وفناء وبقاء . . وكُنْ بوصفنا ؛ فإنما أنت بحقنا .

أثْبَتَهَ فى أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته ، المُصْطَلَمِ عن شواهده .

---

(١) ربما حدث سقوط ، فالكلام يحتاج إلى توضيح (نوعى أفعالك) قياساً على ما ذكر فى (جلسى أحوالك) ونرجح أن نوعى الفعل هما الأمر والنهى ، أو المأمور به والمزجور عنه . . أو ما فى هذا المعنى .

قوله : « إنك بالوادى المقدس طوى » : أى إنك بالوادى المقدس عن الأعلال ؛ وساحاتُ الصمدية تجلُّ عن كل شيْن ، وإيمانٍ وزَيْن ؛ عن زَيْنٍ بإحسان وشَيْنٍ بعصيان ؛ لأنّ للربوبية سَطَوَاتِ عزٍّ تقهر كل شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنا اخْتَرْتُكَ فاستمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾

وعلى علمٍ منى بك اصطفيتك ، وجرّدْتُكَ ونقّيْتُكَ عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يُكَدِّرُ صفوَك .

ويقال بعدما اخترتُك فأنت لى وبى ، وأنت محو فى فنائك عنك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّنى أنا اللهُ لا إلهَ إلّا أنا فاعبدْنى ﴾

تقدّستُ عن الأعلال فى أزلى ، وتنزهت (. . . . . . .)[1] والأشكال باستحقاق لجلالى وجمالى .

ويقال « لا إله إلا أنا » : الأغيار فى وجودى فَقْدٌ ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ حَقِّى محوٌ .

قوله : « فاعبدنى » : أى تذَلَّلْ لِحُكمى ، وأنْفِذْ أمرى ، واخضعْ لجبروتِ سلطانى .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِى ﴾

إقامتُها من غير ملاحظة مُجْرِيها ومنْشِيها يُورِث الإعجاب . وإذا أقام العبدُ صلاتَه على نعت الشهود والتحقق بأن مجريها غيره[2] كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة ، والوقوف على محل النجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكادُ أُخفِيها لتُجْزَىٰ كلُّ نفْسٍ بما تَسْعىٰ ﴾

الفائدة فى تعريف العبادِ بِقُرْبِ الساعةِ أن يستفيقوا من غفلات التفرقة ، فإذا حضروا

(١) حدث هنا طمس أفقدنا بقية الجملة ، وربما كانت (عن الأمثال) .

(٢) الضمير فى (غيره) يعود على العبد والمقصود أن يتحقق العبد بأن الرب هو الذى يجرى عليه تعبده .

بقلوبهم ـ ففى حال استدامة الذكر ـ فما هو موعودٌ فى الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ فى العاجل ؛ والحاضرة لهم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا يَصُدَّنَّكَ عنها مَن لَّا يؤمِنُ بها واتَّبَعَ هواه فَتَرْدَىٰ ﴾

إذا أكرمه اللهُ بِحُسْنِ التنبيه ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغى أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة فى تطوحهم فى أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تِلْكَ بيمينِكَ يا موسى ﴾

كرَّرَ عليه السؤالَ فى غير آية عن عصاه لمَّا كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هيبةُ المقـام عند فَجْأَةِ سماعِ الخطاب ؛ فَلِيُسَكِّنَ بعضَ ما به من بَوَادِهِ الإجلال . . رَدَّهُ إلى سماعِ حديث العصا ، وأراه ما فيها من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لعلَّه كان لا يعى ولا يطيق ذلك . . فقال له : وما تلك بيمينك يا موسى ؟

﴿ قال هى عَصَايَ أتوَكَّأُ عليها وأَهُشُّ بهـا على غَنَمِي ولِيَ فيها مآرِبُ أخرىٰ ﴾

قال هى عصاى ، وأخذ يُعدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له :

﴿ قال ألقِها يا موسىٰ ﴾

---

(١) (فالقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) و (جهنم الفراق اشد من جهنم الاحتراق) . . . اللطائف فى مواضع أخرى .

فإنك بنعت التوحيد[1] ، واقفٌ على بساط التفريد ، ومتى يصحّ ذلك ، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لكَ معتمدٌ تتوكأ عليه ، ومستند عليه تستعين ، وبه تنتفع ؟

ثم قال : « ولى فيها مآرب أخرى » : أوّلُ قَدَمٍ فى الطريق تَرْكُ كلِّ سَبَبٍ ، والتَّنَقِّى عن كل طَلَبٍ ؛ فكيف كان يَسْلَمُ له أن يقول : أَفْعَلُ بهـا ، وأمتنع[2] ، ولى فيها مآرب أخرى .

ويقال ما ازداد موسى — عليه السلام — تفصيلاً فى انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأَوْلى بأن يؤمن بإلقائها ، والتنقى عن الانتفاع بها على موجب التفرُّد لله .

ويقال التوحيد التجريد ، وعلامةُ صحته سقوط الإضافات[3] بأسْرِها ؛ فلا جَرَمَ لما ذكر موسى — عليه السلام — ذلك أُمِرَ بإلقائها فجعلها اللهُ حَيَّةً تسعى ، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقِّب . وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة ؛ إذا كوشِفَ صاحبُها بِسِرِّها يهرب منها .

ويقال لمَّا باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب ، فأجاب عما يُسْـأَل وعمَّا لم يُسْـأَل فقال : « ولى فيها مآرب أخرى » ، وذَكَرَ وجوها من الانتفاع ؛ منها أنه قال تؤنسنى[4] فى حال وحدتى ، وتضىء لى الليلَ إذا أظلم ، وتحملنى إذ عَيِيتُ فى الطريق فأركبها ، وأَهُشُّ بها على غنمى ، وتدفع عنى عَدُوِّى . وأعظم مأربٍ لى فيها أَنَّكَ قُلْتَ : « وما تلك بيمينك ؟ » وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أَنْ تقولَ لى : وماتلك ؟ ويقال قال الحقُّ — بعد ما عدَّد موسى وجوهَ الآياتِ وصنوفَ انتفاعِهِ بها — « إِنَّ يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافلٌ عنها وهى انقلابُها حيةً ، وفى ذلك لك معجزةٌ وبرهان صِدْقٍ .

(١) إذا صح نقل هذه العبارة عن الأصل فالقشيرى يقصد بها (فإنك موحد) ، والموحد أعلى درجات العارفين .

(٢) أى تكون لى بها منعة وقوة ، وربما كانت (وأنتفع) وكلاها صحيح فى المعنى .

(٣) سقوط الإضافات أى لا يقول لى ولا بى ولامنى — وهذه آية صحة التوحيد عندهم (أنظر الرسالة ص ١٤٩) .

(٤) وردت (تسعى) ، وقد وجدنا (تؤنسنى) أقرب إلى المعنى وإن كانت بعيدة فى الرسم ، فآثرناها ونبهنا إلى الأصل . أو ربما سقطت (معى) بعد (تسعى) ويكون السياق آنذاك منسجماً .

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع فى العصا كان من قِبَلِ الله . . فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

يا جنَّةَ الخُلْدِ ، والهدايا إذا تُهدَى إليك فما منكِ يُهْدَى

ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز : لقد عَلِمْتُ كلَّ وصفٍ بهذه العصا ، أمَّا هذه الواحدة فلم أعرفها .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألقِها يا موسىٰ * فألقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تسْعَىٰ * قال خُذْها ولا تَخَفْ سَنُعيدُها سِيرَتَها الأُولىٰ ﴾

لا عِبْرةَ بما يوهِمُ ظاهرُ الأشياء ؛ فقد يُوهِمُ الظاهرُ بشىء ثم يبدو خِلافُه فى المستقبل ؛ فعصا موسى صارت حيةً .

ثم قال المقصودُ بذلك أن تكون لك آيةً ومعجزةً لا بلاء وفتنةً [1] .

قوله : « قال خذها ولا تخف . . . » : أشْهَدَه — بانقلاب العصا من حالٍ إلى حال ؛ مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى — أنَّه يُثَبِّتُ عِبادَه فى حال التلوين مرةً ومرةً ؛ فَمِنْ أخذٍ ومِنْ رَدٍّ ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ [2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بيضاء مِنْ غيرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الكُبْرَى ﴾

كما أراه آيةً من خارجٍ أراه آيةً من نَفْسِهِ ، وهى قلبُ يَدِهِ بيضاء ؛ إذْ جَعَلَها فى جيبه من غيرِ البَرَص . قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » [3] .

---

(١) وهذا الكلام يتطبق على الكرامة التى تظهر على يدى الولى ، وهذا فرق بين المعجزة والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التمكين) .

(٣) آية ٥٣ سورة فصلت .

وإنما قال : أَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبك ولم يقل كُمَّك لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللِّباس كُمَّان .

قوله : « لنريك[1] من آياتنا الكبرى » : الآية الكبرى هى ما كان يجده فى نفسه من الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكلُّفِ العبد وتصرُّفه من فنون الأحوال التى يدركها صاحبها ذوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ اذْهَبْ إلى فرعونَ إنَّهُ طَغَىٰ ﴾

بعدما أسمعه كلامه من غير واسطة ، وشَرَّفَ مقامَه ، وأجزَلَ إكرامَه أمَرَه بالذهاب ليدعوَ فرعونَ إلى الله — مع عِلْمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يَعْرِف — فشَقَّ على موسى ذهابُه إلى فرعون ، وسماعُ جَحْدِه منه ، بعد ما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه آثر أمرَ محنته على مرادِ نفسه .

ويقال لمَّا أمَرَه بالذهاب إلى فرعونَ سأل اللهَ أُهْبَةَ النَّقلِ وما به يتمُّ تبليغ ما حمل من الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قال ربِّ اشرح لى صدرى * ويَسِّرْ لى أمرى * واحلُلْ عقدةً مِّن لِّسانِى * يفقهوا قولى ﴾

لِيُعْلَمَ أنَّ مِنْ شرْطِ التكليفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أداء المأمور به .

ويقال إنَّ موسى لما أخذَ فى المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو : « ربِّ اشرح لى صدرى ، ويَسِّرْ لى أمرى . . . » وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .

قوله « قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » : حتى أُطِيقَ أنْ أسمعَ كلامَ غيرِك بعدما سَمِعْتُ منك . « واحلل عقدة من لسانى » : حتى ينطلقَ بمخاطبة غيرك ، وقَوِّنى حتى أرُدَّ ما أرُدُّ . . . بِكَ لا بى

قوله جل ذكره : ﴿ واجعل لى وزيراً مِنْ أهلى * هارون أخى * اشدُدْ به أَزْرِى ﴾

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (لنريه) .

سَألَ أنْ يَصْحَبَ أخاه معه ، ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة »(1) كان بمفرده ، لأن الذهاب إلى الخَلْق يوجِب الوحشةَ ؛ فَطَلَبَ من أخيه الصحبة لِيُخَفِّفَ عليه كلفة المشقة .

ويقال إن المحبة توجِبُ التجرُّدَ والانفراد وألا يكونَ للغيرِ مع المحبِّ مساغ ؛ ففى ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه ، ولما كان الذهابُ إلى الميقاتِ لم يكن للغيرِ سبيلٌ إلى صحبته ، إذ كان المقصود من ذهابه أن يكونَ مخصوصاً بحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كى نُسَبِّحَكَ كثيراً * ونَذْكُرَكَ كثيراً * إنك كُنتَ بنا بصيراً ﴾

بيَّن أنَّ طَلَبَه مُشاركةَ أخيه له بحقِّ ربه لا بحظِّ نَفْسِه حيث قال : « كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد أوتيتَ سُؤْلَكَ يا موسىٰ ﴾

أعطيناكَ ما سألتَ ، وتناسيت ابتداء حالِكَ حين حفظناك فى اليمِّ ونَجَّيْنَا أمَّكَ من ذلك الغمِّ ، ورَبَّيْنَاك فى حِجْرِ العَدُوِّ . . فأين — حينذاك — كان سؤالُكَ واختيارُكَ ودعاؤك(2) ؟

وأثبتنا فى قلب امرأة فرعون شفقتك ، وألقينا عليكَ المحبةَ حتى أحبَّكَ عدوُّك ، وربَّاكَ حتى قَتَلَ بِسَبَبِكَ ما لا يُحْصَى من الولدان ، والذى بَدَأَكَ بهذه المِنَنِ هو الذى آتاك سُؤْلَكَ ، وحقَّقَ لك مأمولَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ أوحينا إلى أمِّك ما يوحىٰ * أنِ اقذفيه فى التابوتِ فاقذفيه فى اليمِّ ، فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بالساحلِ ، يأخذه عَدُوٌّ لى وعَدُوٌّ له ﴾

---

(1) آية 143 سورة الأعراف .

(2) أى أن فضل الله دائم ، وسابق للدعاء ، وغير مرتبط بالاختيار الإنسانى ولا بالعمل الإنسانى ، وهذه نظرة فى الشمول قلما يفطن إليها غير الصوفية . فأين منهم المعتزلة الذين يوجبون على الله ؟! ذلك أحد المرامى البعيدة التى يقصد إليها القشيرى .

كان ذلك وحيَ إلهامٍ ، ألقَى اللهُ فى قلبها أن تجعلَه فى تابوت ، وتلقيه فى اليم يعنى نهر النيل ، فَفَعَلَتْ ، فألقاه النهر على الساحل ، فَحُمِلَ إلى فرعون . فلمَّا وَقَعَ بَصَرُ امرأةِ فرعون عليه باشر حبُّه قلبَها ، وكذلك وقعت محبتُه فى قلبِ فرعون ، ولـكنها كانت أضعفَ قلباً ، فسبقت بقولها « قرة عين لى ولك لا تقتلوه . . »[1] ، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل : « قرة عينٍ لى ولك » .

قوله : « يأخذه عدو لى وعدو له » : وربَّاه فى حِجْرِ العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان . . ولـكنْ منْ مَأمنِه يُؤْتَى الحَذِرُ ؛ وبلاء كلُّ أحدٍ كان بَعْدَه إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تقَدَّمَ عليه بسنين ؛ ففى اليومِ الذى أخذ موسى فى حِجْرِه كان قد أمر بقتل كثير من الولدان ، ثم إنه ربَّاه ليكونَ إهلاكُ مُلْكِهِ على يده . . لِيُعْلَمَ أنَّ أسرارَ الأقدارِ لا يعلمها إلا الجبارُ .

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه — ولم يكن . وكان يقال لأمِّ موسى ظئر[2] موسى — ولم تـكن ؛ فمَنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصة[3] .

ولقد جاء فى القصة أن موسى لمَّا وُضِعَ فى حِجر فرعون لَطَمَ وجهه فقال : إنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أنْ يُقْتَلَ ، فقالت امرأتُه : إنه صبيٌّ لا تمييزَ له ، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدِّق زوجُها قالتَها ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمدَّ يَدَه إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَها إلى النار فأخَذَ جَمْرَةً بيده ، وقرَّ بها من فيه فاحترق لِسانُه — ويقال إنَّ العقدةَ التى كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فعند ذلك قالت امرأةُ فرعون : ها قد تبينَّ أن هذا لا تمييزَ له ؛ فقد أخذ الجمرةَ إلى فيه . وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطْمِ فرعون .

---

(١) اية ٩ سورة القصص . (٢) الظئر . المرضعة لغير ولدها .

(٣) يقصد بالحديث والقصة التصوف وأهله ؛ فلقب العبد مرتبط بقلبه وحقيقة باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أخْذِ الجمرة وهو صبيٌّ رضيع ، ثم احترق لسانه ، فعلم الكلُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس . فإنه سبحانه فعّال لما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وألقيتُ عليكَ محبةً منى ﴾

أى أحببتك . ويقال فى لفظ الناس : فلانٌ ألقى محبته على فلان أى أحَبَّهُ . ويقال «ألقيت عليك محبة منى» : أى طَرَحْتُ فى قلوب الناس محبةً لك ، فالحقُّ إذا أحبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أحبَّه . ويقال الملاحةِ فى عينيه ؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أحَبَّهُ .

ويقال « ألقيت عليك محبةً منى » : أى أثبَتُّ فى قلبك محبتى ؛ فإن محبةَ العبدِ لله لا تكون إلا بإثباتِ الحق — سبحانه — ذلك فى قلبه ، وفى معناه أنشدوا :

إنَّ المحبةَ أمْرُها عَجَبٌ تُلْقَى عليكَ وما لها سَبَبُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولِتُصْنَعَ على عينِى ﴾

أى بمرأىً منى ويقال لا أمكِّن غيرى بأنْ يستَبْعِدَكَ عنى .

ويقال أحفظك من كل غَيْرٍ ، ومن كلِّ حديثٍ سوى حديثنا . ويقال ما وَكَلْنا حِفْظَكَ إلى أحدٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فتقولُ هل أدُلُّكم على مَن يَكْفُلُه فرَجَعْناكَ إلى أمِّكَ كى تَقَرَّ عينُها .. ﴾

البلاء على حَسَبِ قوة صاحبه وضعفه ، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى[1] ، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف . وكانت أمُّ موسى ضعيفةً فَرَدَّ إليها وَلَدَها بعد أيام ، وكان يعقوبُ أقوى فى حاله فلم يُعِدْ إليه يوسفَ إلا بعد سنين طويلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الغَمِّ ﴾

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » رواه الترمذى ، وابن ماجه والحاكم عن سعد بن أبى وقاص .

أجرى اللهُ عليه ما هو في صورةٍ كبيرةٍ من قَتْلِ النَّفْسِ بغير حق ، ثم بيَّن اللهُ أنه لا يضره ذلك ، فليست العِبْرةُ بفعل العبد في قِلَّته وكثرته إنما العِبرةُ بعناية الحقِّ، بشأنِ أحدٍ أو عداوته .

ويقال قد لا يموت كثيرٌ من الخلْقِ يفتنون من العذابِ ، وكم من أناسٍ لا يموتون وقد ضُرِبُوا ألوفاً من السياط ! وصاحبُ موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزةٍ ! إيش[1] الذى أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنةً لموسى ؟ وفى بعض الكتب أنه — سبحانه — أقام موسى كذا وكذا مقاماً ، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر ، وفى كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْساً » .

« فنجيناك من الغم » : أريناكَ عينَ الجمع حتى زال عنك ما داخَلَكَ من الغمِّ بصفة مقتضى التفرقة ، فلمَّا أريناكَ سِرَّ جريانِ التقديرِ نجَّيْناكَ من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ .

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا . ويقال جَنَّسْناً عليك البلاء ونوَّعناه حتى جرَّدْناكَ عن كل اختيارٍ وإرادة ، ثم حينئذٍ رَقَّيْناكَ إلى ما استوجَبْتَه من العِلم الذى أهَّلْناكَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فى أهْلِ مَدْيَنَ ﴾ .

وكنتَ عند الناسِ أنك أجيرٌ لشعيب ، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك ، وكان يكفى — عندهم — أن تكون خَتَناً[2] لشعيب .

﴿ ثم جِئْتَ على قَدَرٍ ياموسى ﴾ .

أى عَدَدْنا أيامَ كونك فى مدين شعيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرَفَكَ ومحبَّتَكَ منتظرين لك ، فجئتَ على قَدَرٍ .

---

(١) أى (أى شيء) وهى لفظة ترد فى مصنفات القشيرى من حين إلى آخر . وجاء فى الوسيط ج ١ ص ٣٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أى زوجاً لابنته ، وفى الحديث « على ختن رسول الله »

ويقال إنَّ الأَجلَ إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم ، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى :

بينا خاطرُ المنى بالتلاقى سابحٌ فى فؤاده وفؤادى
جمع اللهُ بيننا فالتقينا هكذا بغتةً بلا ميعادِ

قوله جل ذكره : ﴿ واصطنعتُكَ لنفسى ﴾ .

استخلصتُكَ لى حتى لا تَصْلُحَ لأحدٍ غيرى ، ولا يَتَأَتَّى شىء منك غير تبليغ رسالتى ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردْتُ سِرَّك لى ، وجعلْتُ إقبالَكَ علىَّ دون غيرى ، وحُلْتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دونى .

ويقال « واصطنعتك لنفسى » : قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحـدٍ ، ثم قال له : « اذهب إلى فرعون » .

قوله جل ذكره : ﴿ ٱذْهَبْ أَنْتَ وأخـوكَ بآياتِى ولا تَنِيا فى ذِكْرِى * ٱذهبا إلى فِرْعونَ إنَّهُ طَغَى ﴾ .

تعلَّلَ موسى عليه السـلام لمَّا أرسـله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِلل مثل قوله : « يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى » (١) ، « إنى قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » (٢) .. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفعه ذلك ، وقال الله : « إننى معكما أسمع وأرى » ، فاستقل (٣) موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أُبالى بعد ما أنت معى .

قوله جل ذكره : ﴿ فقولا له قَوْلاً لَيِّنًا لعلَّهُ يتذكَّر أو يَخْشَىٰ ﴾ .

---

(١) آية ١٣ سورة القصص

(١) آية ٣٣ سورة القصص

(٣) الاستقلال هنا معناه الاكتفاء .

إنما أمرهما بالملاينة معه فى الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين ، وفى حال الدعوة يجب اللين [1] ؛ فإنه وقت المُهلة ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر [2] ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتى هى أحسن [3] » : وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة » [4] .

ثم إذا ظهر من الخَصم التمرُّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابلُ بالغلظة والعنف .

ويقال علَّمهما خطابَ الأكابرِ ذوى الحشمة ؛ ففرعونُ — وإنْ كان كافراً — إلا أنه كان سلطانَ وقتِه ، والمتسلِّطَ على عبادِ الله .

ويقال إذا كان الأمرُ فى مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة . . فكيف مع المؤمن فى السؤال ؟

ويقال فى هذا إشارة إلى سهولة سؤال المَلَكَيْن فى القبر للمؤمن .

ويقال إذا كان رِفقُه بمَنْ جَحَدَه فكيف رِفقُه بمَنْ وَحَّدَه ؟

ويقال إذا كان رِفقُه بالكفَّارِ فكيف رفقُه بالأبرار ؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال : أنا . . فكيف رفقه بمن قال : أنت ؟

ويقال إنه [5] أحْسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام ؛ فأراده أن يرفق به اليومَ فى الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هذا ما قال فى آية أخرى « فَقُلْ هل لك إلى أن تَزَكَّى » [6] .

وقوله : « لعله يتذكر أو يخشى » : أى كُونا على رجاء أن يُؤْمِنَ . ولم يخبرهما أنه لا يؤمن

---

(١) وردت (التمكين) وهى خطأ فى النسخ وقد انتبه أحد القراء إلى هذا الخطأ فوضع علامة استفهام صغيرة .

(٢) النظر هنا معناها التفكر فى الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) أى فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة النازعات .

لئلا تتداخَلَهما فَتْرةٌ فى تبليغ الرسالة عِلْماً منه[1] بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره : ﴿ قالا رَبَّنا إنَّنا نَخَافُ أن يَفْرُطَ
علينا أو أن يَطْغَىٰ ﴾

فى الآية دليلٌ على أنَّ الخوفَ[2] الذى تقتضيه جِبِلَّةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبُه عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : « إنَّنا نخاف » .

ثم إنَّه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما .

ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهما شفقةً عليهما ، ولكن قالا : إننا نخاف أن تحل بنا مكيدةٌ من جهته ، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك ، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقِّ الله لا لِأجْل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأدَّبا فى الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لا تخافا إنَّنى معكما أسْمَعُ
وأرَىٰ ﴾

تَلَطَّفَ فى استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : « إننى معكما » بقولهما : « إننا نخاف » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : « إننى معكما » وإلا فأنَّى بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بالنبوَّةِ ؟ !

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله : « إننى معكما » ، فَقَوِيا على الذهاب إليه ؛ إذ مِنْ شَرْط التكليف التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأْتِياه فقولا إنَّا رَسُولا رَبِّكَ
فَأرْسِلْ معنا بنى إسرائيلَ
ولا تُعَذِّبْهُم ﴾

(١) وردت (منهم) وهى خطأ فى النسخ لأن المقصود : مع انه سبحانه عليم بانه لن يؤمن ولن يقبل .
(٢) فى هذه الإشارة توضيح هام لاصطلاح (الخوف) .

طالَ البلاء ببنى اسرائيل من جهة فرعون ، فتداركهم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين ، بذلك أجرى سُنَّتَهُ أنه يُرخى عِنَانَ الظالم ، ولكن إذا أخذَهُ فإنَّ أخْذَهُ أليمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جِئْناكَ بآيةٍ مِّن ربِّكَ ﴾

من شَرْطِ التكليفِ التمكينُ بالبيِّنة والآيةِ للرسولِ حتى يَتَّضِحَ ما يَدُلُّ على صِدْقِهِ فيما يدعو إليه من النبوة . ثم إن تلك الآية وتلك البيِّنة ما نفعتهم ، وإنما تأكدتْ بهما عليهم الحُجَّةُ ؛ فإذا عَمِيَ بَصَرُ القلبِ فأنَّى تنفع بصيرةُ الحجة ؟ وفى معناه قالوا :

وفى نَظَرِ الصادى إلى الماء حَسْرَةٌ إذا كان ممنوعاً سبيل الموارِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ والسَّلامُ على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾

إنما يَتَّبِعِ الهُدَى مَنْ كَحَّلَ قلبَه بنور العرفان ، فأما من كانت على قلبِهِ غشاوة الجهل . . فمتى يستمع إلى الهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا قد أُوحِيَ إلينَا أنَّ العذابَ على مَن كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾

ما بعث اللهُ نبياً إلاَّ وقد أنْذَرَ قومَهُ بالعذابِ على تَرْكِ الأمر ، وبَشَّرَهُم بالثوابِ على حِفْظِ الأمر . والعذابُ مُعَجَّلٌ ومؤجَّلٌ ؛ فمؤجَّلُه لا يُوقَفُ على تفصيله الأعداء وكذلك مُؤَجَّلُ الثوابُ ، قال تعالى : « فلا تعلم نَفْسٌ ما أُخفى لهم من قرة أعين »[1] .

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواع ، وعلى حسب مقامِ المرء تَتَوَجَّهُ عليه المطالَبَاتُ ، والزيادةُ فى العقوبةِ تَدُلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرُّتْبَةِ ؛ كالحرِّ والعبْدِ فى الحدِّ . وقسوةُ القلبِ نوعُ عقوبة ، وما يتداخل الطاعة نوعُ عقوبة ، وخسرانُ نصيبٍ فى المالِ والأنفُس نوعُ عقوبة . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُما يا موسى * قال رَبُّنا الذى أعْطَى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى ﴾

---

(١) آية ١٧ سورة السجدة .

« فمن ربكما » على التثنية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالخطاب بعدما قال : « فَمَنْ ربكما ؟ » . فيحتمل أن ذلك لمُشاكَلَة رءوس الآى ، ويحتمل أن موسى كان مُقدَّما على هارون فَخَصَّهُ بالنداء .

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فعله — سبحانه فقال : « ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقه » ليُعْلَمَ أنَّ الدليلَ على إثباته — سبحانه — ما دلَّتْ عليه أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فَمَا بَالُ القرونِ الأُولىٰ * قال عِلْمُها عِندَ ربى فى كتابٍ لا يَضِلُّ ربى ولا يَنْسَى ﴾

لا يمكننى أن أُخبِرَكُمْ إلا بما أخبرنِى به ربى ، فَمَا عَرَّفَنِى عَرَفْتُ ، وما ستره علىَّ وَقَفْتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ مَهْداً وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنزَلَ مِنَ السماء ماء فأخرَجْنَا به أزواجاً مِّن نَبَاتٍ شتّىٰ ﴾

جَعَلَ الأرضَ مستقراً لأبدانهم ، وجعل أبدانَهم مستقراً لعبادته ، وقلوبهم مستقراً لمعرفته(١) ، وأرواحهم مستقراً لمحبته ، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أنعامَكم إنَّ فى ذلكْ لآياتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ﴾

هيَّأ لهم أسبابَ المعيشة ، وكما نَظَرَ إليهم وَرَزَقَهُم رَزَقَ دوابَّهم التى ينتفعون بها ،

(١) وردت (وارواحهم مستقراً لعبادته) والصواب ان تكون (وقلوبهم مستقراً لمعرفته) حسبما نعرف من مذهب القشيرى فى ترتيب الملكات الباطنية (انظر بحثنا فى الدكتوراه عن الإمام القشيرى وتصوفه) ط مؤسسة الحلبى .

وأمَرَهُم أنْ يَتَقَوَّوْا بما تَصِلُ إليه أيديهم ، وأنْ ينفِقُوا — ما أمكنهم — بأنعامِهِم لِيَكْمُلَ لديهم إنْعَامُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ منها خَلَقْنَاكُمْ وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكم تارةً أُخْرىٰ ﴾

إذ خَلَقْنا آدمَ من الترابِ ، وإذ أخْرَجْنا كم من صُلْبِه . . فقد خَلَقْنَاكم من التراب أيضاً . والأجسادُ قوالِبُ والأرواحُ ودائعُ ، والقوالب نسبتها التُّربة(١) ، والودائع صفتها القُرْبة(٢) ، فالقوالب يزيِّنها بأفضاله ، والودائع يحييها بكشف جلاله ولطف جماله . وللقوالب اليوم اعتكافٌ على بِساطِ عبادته ، وللودائع اتصافٌ بدوام معرفته .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرَيْنَاه آيَاتِنا كُلَّها فكذَّب وأبَىٰ ﴾

أمره بجهره ، وأعماه عن شهود ذلك بِسِره ، فما نَجَعَ فيه كلامُهُ ، وما انتفعَ بما حذَّره من انتقامه ، وبذَّر له من إنعامه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أجِئْتَنا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أرْضِنا بِسِحْرِكَ يا موسىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فاجْعَلْ بَيْنَنا وبَيْنَكَ موعِداً لا نُخْلِفُهُ نحنُ ولا أنتَ مَكاناً سُوىً ﴾

دعاهم موسى إلى الله ، وخاطَبَهُم فى حديث الآخرة من تبشيرٍ بثواب ، وإنذارٍ بعذاب ، فلم يُجِيبُوا إلاَّ من حيث الدنيا ، وما زادهم تذكيراً إلا ازدادوا غفلة وجهالة .

---

(١) ، (٢) وردتا (البرية) و (القوية) ولم نجد للجملتين معنى على ذلك — فى حدود ما نعرف — بينما لو صارت النسبة إلى (التربة) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف فى بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا (القربة) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن فى هذا لا نصدر إلا عن استخدام القشيرى لهذا الاسلوب فى مواضع مماثلة — والله اعلم .

كذلك صفةُ مَنْ وَسَمه الحقُّ بالإبعاد ، لم يكن له عرفان ، ولا بما يقال إيمان ، ولا يتأسَّفُ على ما يفوته ، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده .

قوله : « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه . . » تأهَّبوا لِمُنَاصبةِ الحقيقة ، وتَشَمَّرُوا للمُخَالفة ، فَقَصَمَتْهُم المشيئةُ ، وكَبَسَتْهُم القدرة ، وكما قيل :

استقبلنى وسيفُه مسلول وقال لى واحدنا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ قال مَوْعِدُكم يَوْمُ الزِّينَةِ وأن يُحْشَرَ الناسُ ضُحًى ﴾

فكان فى ذلك اليوم افتضاحهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّى فِرعونُ فَجَمَعَ كَيْدَه ثم أَتَى ﴾

كادَ فرعونَ فَكِيدَ له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأُذِلَّ وأُذِيقَ البأسَ .

ولم يَدَعْ موسى شيئاً من الوعظ والرِّفْقِ ، ولم يغادِرْ فرعونَ شيئاً من البَلَهِ والحُمْق ، ولكن :

﴿ قال لهم موسى وَيْلَكُم لا تَفْتَرُوا على اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بعذابٍ وقد خَابَ مَنِ افترى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهم بينهم وأَسَرُّوا النجوى ﴾

اعلموا أنه لا طاقةَ لأحدٍ مع الله — سبحانه — إذا عَذَّبَه ، فحملوا مقالتَه على الإفك ، ورَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا :

﴿ قالوا إنْ هذانِ لَسَاحِرانِ يريدانِ أن يُخْرِجَاكُم من أرضكم

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى شاهد شعرى سبق وروده :

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان

ويهدف إلى أن يثبت أن تزين الظاهر لا جدوى منه فى الحقيقة .

بِسِحرِهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلَى * فَأَجمِعُوا كيدَكُم ثم ائتوا صَفاً وقد أفلحَ اليومَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾

هما فى دعواهما كاذبان يقصِدان إلى إخراجكم من بَلَدِكم ، والتشويشِ عليكم فى مُعْتَقَدِكم .

﴿ قالوا ياموسى إمَّاأن تُلقِيَ وإمَّاأن نكونَ أوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾

أظهروا من أنفسهم التجلُّدَ ظنّا بأنَّ النصرةَ لهم ، وإخلاداً إلى ما كان السَّحَرَةُ يُسَوِّلُون لهم ، فَخَيَّروا موسى فى الابتداء بناء على ما توهموا من الإلقاء ، فقال لهم موسى :

﴿ قال بل أَلقُوا ، فإذا حِبالُهم وعِصِيُّهم يُخَيَّلُ إليه مِن سِحْرِهِم أنَّها تَسْعَى * فأَوْجَسَ فى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأَعلَى * وأَلْقِ ما فى يمينِك تَلْقَفْ ماصَنَعُوا إنما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حيثُ أَتَى * فأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هارونَ ومُوسَى * قال ءامَنْتُم لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إنَّهُ لَكبيرُكُم الذى عَلَّمَكُم السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُم وأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عذَاباً وأَبْقَى ﴾

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم ، وليس ذلك إذْناً لهم فى السحر ، ولـكن أراد الحقُّ إظهارَ تمويههم ، فلمَّا خَيَّلوا للناس بإلقاء الحِبال أنها حياتٌ ابتلَعَتْ عصا موسى جُمْلَةَ ما صَنَعُوا ، وتحقَّقَ السَّحَرَةُ أنَّ ذلك أمرٌ سماوىٌّ حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوقار[1] الحِبَال ، وصار الثعبانُ عَصَاً كما كان ، فسجدوا لله مؤمنين ، وانقلب فرعونُ وقومُه خائبين ، وتوَعَّدَهم بالقتل والصَّلْبِ ، وفنونٍ من العذابِ الصعب ، وبعدما كانوا يقْسِمُون بعِزَّةِ فرعونَ صاروا يَحْلِفُونَ بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لن نُؤْثِرَكَ على ما جَاءنا مِنَ البيناتِ والذى فَطَرَنا فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنما تَقْضِى هذه الحياةَ الدنيا ﴾

أى بالله الذى فطرنا إنَّا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من البينات . ولما طلعت فى أسرارهم شموسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء ، وتحملوا اللأْواء[2] ، فـكانوا فى الغَدَاةِ كُفَّاراً سَحَرَةً ، وأمْسَوْا أخياراً بَرَرَةً[3] .

قوله « فاقضِ ما أنت قاضٍ . . . » عَلِمُوا أنَّ البلاء فى الدنيا يَنْقَضِى — وإنْ تمادى ، وينتهى وإن تناهى[4]

قوله جل ذكره : ﴿ إنا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أكْرَهْتَنا عليه مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيْرٌ وأبْقَى ﴾ .

أهمُّ الأشياء — على مَنْ عَرَفَهُ — مغفرتُه لخطاياه ؛ فهذا آدمُ — عليه السلام — لما

(١) الأوقار جمع وقر = الحمل الثقيل .

(٢) اللأواء = ضيق المعيشة وشدة المرض (الوسيط) .

(٣) فى هذه الإشارة فتح لباب الأمل امام العصاة نظراً لقصر المسافة بين الكفر والايمان ، فى كما بين الغداة والمساء .

(٤) أى وإن تناهى فى الشدة .

استكشف[1] من حاله ، وحلَّ به ماحلَّ قال : « ربِّ إنى ظلمتُ نفسى ... »[2] وقال لنبينا — صلى الله عليه وسلم — « واستغفِرْ لذنبك »[3] . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة »[4] . ومَنَّ عليه بقوله : « ليغفرَ لك اللهُ ماتقدَّم من ذنبك وما تأخر »[5]

قوله جل ذكره : ﴿ ولقَدْ أَوْحَيْنا إلى موسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فاضْرِبْ لهم طريقاً فى البحر يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكا ولا تَخْشَىٰ * فأتبعَهُم فرعونُ بجنودِهِ فَغَشِيَهم مِّنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُم * وأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قومَهُ وما هَدَىٰ ﴾ .

لما عبَرَ موسى ببنى إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحرَ منفلقاً والطريقَ فيه يَبَساً غَيَّرَ قَوْمَهُ بتلبيسه فقال : « إنه بحشمتِي انفلق ، فأنا ربُّكم الأعلى ! » وحصل — كما فى القصة — من دخوله بعَسْكَرِه البحرَ حتى دخل آخرهم ، وهمَّ أن يخرج أوَّلُهم ، فأمر اللهُ البحرَ حتى التطمت أمواجه فغرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأسُ[6] ، ولم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه ، وقد أدركتْه الشقاوةُ التى سَبَقَتْ له من التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ يابنى إسرائيلَ قد أنجَيْناَكُمْ من عَدُوِّكُمْ وو ...ناكم جانبَ الطورِ الأيمَنَ ونزَّلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوَىٰ ﴾

---

(١) يقصد القشيرى حين (بدت لهما سوآتهما وانكشفت) وربما كانت فى الأصل (استنكف) اى خجل مما فعل فهى قريبة فى الكتابة وملائمة السياق .

(٢) آية ١٦ سورة القصص

(٣) آية ٥٥ سورة غافر .

(٤) عن الأغر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله : إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم والليل مائة مرة . أخرجه مسلم وأبو داود .

(٥) آية ٢ سورة الفتح .

(٦) وربما كانت (البأس) بالباء فهى ملائمة للسياق .

يُذَكِّرُهم آلاءه ، ويعدُّ عليهم نعماءه ، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لِمَا أسبغ عليهم من فنون النِّعم . ثم يذكرهم مامَنَّ به على أسلافهم من إنزال المنِّ والسلوى ، وضروب المِحَنِ وفنون البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ كلُوا من طيبات ما رَزَقْناكم ولا تطغَوْا فيه ﴾ .

الطيبُ ما كان حلالا . ويقال الطيب من الرزق مالا يَعصِى اللهَ مُكْتَسِبُهُ . ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق . ويقال الطيب من الرزق ماحَصَل منه الشكرُ . ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من اللهِ ؛ فما لأهل الجنةِ مُؤَجَّلٌ فى عقباهم جهراً ، معجّلٌ لأصفيائه فى دنياهم سِرّاً ، قال تعالى : « آخذين ما آتاهم ربهم[1] » .

والأرزاقُ مختلفةٌ ؛ فلأقوام حظوظُ النفوس ولآخرين حقوقُ القلوب ، ولأقوامٍ شهودُ الأسرار ؛ فرزق النفوس التوفيق ، ورزق القلوب التصديق ، ورزق الأرواح التحقيق[2] .

قوله : « ولا تطغوا فيه » : بمجاوزة الحلالِ إلى الحرامِ .

ويقال « لا تطغوا فيه » : بالزيادة على الكفاف[3] ، وما لابُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق.
ويقال « لاتطغوا فيه » : بالأكل على الغفلة والنسيان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَيَحِلَّ عليكم غضَبِي ومَن يَحْلِلْ عليه غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ .

فيحل عليكم غضبى بالخذلانِ لمتابعة الزَّلَّة بعد الزَّلَّة .

ويقال فيحل عليكم غضبى لِفَقْدِكم التأسُّفَ على مافاتكم .

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال .

---

(١) آية ١٦ سورة الذاريات .

(٢) نضع ذلك فى اعتبارنا عند بحث الملكات الباطنية ، ووظائفها وآفاتها ... وأرزاقها .

(٣) الكفاف من الرزق ما كان على مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنّى لَغَفَّارٌ لِمَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً ثم اهْتَدَىٰ ﴾ .

الغفّار كثيرُ المغفرة ؛ فمِنْك التوبةُ عن زَلَّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرة لذنوبٍ كثيرةٍ ، ومنه السُّتْرةُ التى لا اطلاعَ لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع . وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ ، وهو يغفر لِمنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة ، وكما قالوا .

إنى — على جَفَوَاتِها — فبِرَبِّها وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسلُ
وأُحِبُّها وأُحِبُّ منزلَها الذى نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

قوله « وإنى لغفار لمن تاب وآمن » : فلا تَصِحُّ التوبةُ إلا لمن يكون مؤمناً .

وقوله هنا : « وآمن » : أى آمن فى المآلِ كما هو مؤمنٌ فى الحال .

ويقال آمن بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته ، إنما نجاتُه برحمته .

ويقال « وإنى لغفارٌ لمن تاب » : مِنَ الزَّلَّة « وآمن » : فلم يَرَ أعمالَه من نَفْسه ، وآمن بأن جميعَ الحوادثِ من الحقّ — سبحانه — « وعمل صالحاً » : فلم يُخِلَّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنَّة والجماعة[1] .

ويقال « ثُمَّ » : للتراخى ؛ أى آمن فى الحال « ثم » اهتدى فى المآل .

ويقال مَنْ سَمِعَ منه « وإنِّي » لا يقول بعد ذلك : « إنِّى »[2]

ويقال من شَغَلَه سماعُ قوله : « وإنى » اسْتُهْلِكَ فى استيلاءِ ما غَلَبَ عليه من ضياء القربة ، فإذا جاءت « لَغَفّارٌ » صار فيه بعين المحو ، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعتنى بشأنه .

ويقال « إنى لغفار » كثير المغفرة لمن تاب مرةً ، فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التى لم يَتُبْ منها سِرِّها وجَهْرِها ، صغيرِها وكبيرِها ، وما يتذكر منها وما لا يتذكر . ولا ينبغى أنْ يقولَ :

(١) واضح حرص القشيرى السنى على التمسك بسنيته — وهذا أصل ثابت فى مذهبه سواء فى علم الكلام أو فى علم التصوف .

(٢) فالتوحيد الصادق إسقاط الياءات ونفى كل دعوى للنفس .

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظُ عَمَلَه بعينِ الاستصغارِ ، وحالته بغير الاستقرار .

وقوله « ثم اهتدى » : أى اهتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أعجلَكَ عن قَوْمِكَ يا موسىٰ ﴾

أخرَجَهُمْ مع نَفْسِه لمَّا استصحبهم ، ثم تقدَّمَهم(1) بخطوات فتأخروا عنه ، فقيل له فى ذلك مراعاةً لحقِّ صحبتهم .

ويقال قومٌ يُعاتَبون لتأخرهم وآخرون لتقدمهم . . فشتان ماهما !

قوله جل ذكره : ﴿ قال هم أُولاء على أَثَرِى وعَجِلْتُ إليكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾

أى عجِلْتُ إليكَ شوقاً إليك ، فاستخرج منه هذا الخطاب ، ولولا أنه استنطقه لَمَا أخبر به موسى(2) .

قوله « هم أولاء على أثرى . . » أى ما خلَّفْتُهم لتصييعى أيامىَ ، ولكنى عَجِلْتُ إليك لترضى . قال : يا موسى إنَّ رضاأى فى أن تكون معَهم وألَّا تَسْبِقَهم ، فكونُكَ مع الضعفاء الذين استصحبْتَهم — فى معانى حصول رضاأى — أبلغَ مِنْ تَقَدُّمِكَ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنَّا قد فَتَنَّا قومَكَ من بعدِكَ ﴾

فَتَنَّا قومَكَ فضلُّوا وعبدوا العِجْلَ ، فأخبر الحقُّ — سبحانه — أنَّ ذلك منه تقدير ، وفى هذا تكذيبٌ لِمَنْ جَحَدَ القولَ بالقَدَرِ .

ويقال طَلَبَ موسى — عليه السلام — رِضَاء الحق ، وقدَّر الحقُّ — سبحانه — فتنةَ قَوْمِه فقال : « إنا قد فتنا قومك من بعدك » ، ثم الحُكْمُ لله ، ولم يكن بُدٌّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله — فلا اعتراضَ على الله — ومِنَ العلمِ بِحقِّ اللهِ فى أنْ يفعلَ ما يشاء ، وأنشدوا :

أُريد وِصالَه ويريد هجرى ... فأتركُ ما أُريد لما يُريد

---

(1) حين ذهب لميقات ربه .

(2) وإلا كان دعوى من النفس . ويفيدنا هذا الرأى فى قضية الإفصاح والكتمان .

قوله جل ذكره: ﴿وأَضَلَّهُم السَّامِرِيُّ﴾

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وهو نوع من التغرير، وحصل ما حصل، وظهر ما ظهر من (. . .)[1].

قوله جل ذكره: ﴿فَرَجَعَ موسى إلى قومِهِ غَضْبانَ أَسِفًا﴾

ورجع نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — من المعراج بنعت البسط، وجاء بالنجوى[2] لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة، وأكرمهم به من القربة بالزلفة.. فشتان ماهما!

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف، وخاطبهم ببيان العتاب:

﴿قال يا قومِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكم
وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عليكم العَهْدُ؟
أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غَضَبٌ
من ربكم فأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾

ظنوا بنبيِّهم ظنَّ السَّوْء في خلفه الوعد، فَلَحِقَهُمْ شؤمُ ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا في العقد.. وكذلك يكون الأمر إذا لم يَفِ المرء بعقده، فإنه ينخرط في هذا السِّلْكِ.

قوله جل ذكره: ﴿قالوا ما أخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنا
ولكنَّا حُمِّلْنا أَوْزَارًا من زِينَةِ
القومِ فَقَذَفْنَاها فكذلك أَلْقَى
السامِرِيُّ﴾

قالوا لم نكن في ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حَصَلَ مِنَّا، ولا عالمين بما آلَتْ إليه عاقبةُ

---

(1) مشتبهة، وهي قريبة في الخط من (التعدية) وربما كانت صحيحة بمعنى التعدي؛ لأنهم تركوا عبادة الله إلى عبادة العجل فظلموا أنفسهم وتجاوزوا حدودهم.

(2) ربما كانت (بالنجاة) حيث تتضح المقابلة بين أمة عاد إليها نبيها من عند ربه (بالنجاة) وأمة عاد إليها نبيها منذراً بالعقوبة؛ ومع ذلك فقد قبلنا (النجوى) على أساس أنها جوهرُ الصلاة.

حالنا ، وإن الذى حملنا من حُليِّ القبط صاغَ السامرىُّ منه العجلَ . . وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم أثره . فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين حراماً عليهم ، فاستعاروا الحلىَّ من القبط ، وآل إليهم ما كان فى أيديهم من الملك ، فكان سبب عبادتهم العجل . . كذلك مَنْ انهمك فى طلب الدنيا من غير وجهِ حلالٍ يكون على خَطَرٍ من رِقَّةِ دينه ، قال تعالى : « أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فأَخْرَجَ لهم عِجْلاً جَسَداً له خُوَارٌ فَقَالُوا هـذا إلهُكُم وإلهُ موسى فَنَسِيَ * أفَلا يَرَوْنَ ألاَّ يَرْجِعُ إليهم قَوْلاً ولا يَمْلِكُ لهم ضَرًّا ولا نَفْعاً ﴾

يقال إنهم لمَّا مَرُّوا على قومٍ يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَيْلُهم إلى عبادته مُسْتَكِناً فى قلوبهم ، فصاغ السامرىُّ العجلَ على تلك الصورة . وفى هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنَّت فى القلب فما لم يُنْقَش ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخشَى أن يَلْقَى صاحبهُ (. . .)[2] .

ويقال إن موسى — عليه السلام — خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِيَ قومُه بعبادة العجل ، ونبيُّنا — عليه السلام — خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص مِنْ أمته فى التوحيدِ حديثاً فى التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها تخلُّص[3] .

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدَّلوه تبديلاً ، بينما ضَمِنَ الحقُّ — سبحانه — إعزاز هذا الكتاب بقوله : « إنا نحن نَزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون »[4] .

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) مشتبهة وهى فى الرسم تقرب من (نعيبه) والنعيب صوت الغراب .. فهل يقصد القشيرى — ما ذكره منذ قليل — أن صاحبه يلقى شؤم أثر ذلك ؟ أم أن اللفظة فى الأصل غير ذلك؟ ربما كانت (محبه) أو (نعبه) أو (مغبته) .

(٣) لأن المشبهة يدنون بتصوراتهم المادية عن الألوهية من عبدة العجل .

(٤) آية ٩ سورة الحجر .

وقال : « ليظهره على الدّين كُلّه »(١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً . . . » بَيَّن أنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم ، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة ، وفيه رَدٌّ على مَنْ لم يُثْبِتْ له فى الأزَلِ القولَ ، ولم يَصِفْه بالقدرة على الخير والشر :

قوله جل ذكره : ﴿ولقد قال لهم هارونُ من قَبْلُ ياقومِ إنَّما فُتِنتم به وإنَّ ربَّكُم الرحمنُ فاتَّبِعوني وأطِيعوا أمري﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة فى هـذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فَمَنْ تَرَكَ أمْرَ الحقِّ . . كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخَ وأكلَّ الناس ؟ لهذا قيل : لا حُرْمَةَ لفاسق ؛ لأنه إذا تَرَكَ حقَّ الحقِّ فمتى يحفظ حَقَّ الخَلْق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لَن نَّبْرَحَ عليه عاكِفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

كان ذلك تَعَلُّلاً منهم بالباطل ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل ؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ غيرِ اللهِ . . ولـكنْ كلُّ مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُ إلى ما يحتج به من الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿قال ياهارونُ ما مَنَعَكَ إذْ رأيْتَهم ضَلُّوا * ألَّا تَتَّبِعَنِ أفعَصَيْتَ أمْرِي﴾

ضاق قلبُ موسى — عليه السلام — لمَّا شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل ، ولقد كان سمع من الله أنَّ السامريّ أضَلَّهم حين قال : « إنَّا قد فتنا قومك » ، ولـكن قديماً قيل : ليس الخبر كالعيان ، فلمَّا عايَنَ ذلك ضاق قلبهُ ، فـكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر(٢) ،

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بشعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله غضباً ، وغيرة فى الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبُه اتسع لسانُه . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة . . وكذلك الواجب فى الصحبة لئلا يرتقى الأمرُ إلى الوحشة ، فاستلطفه فى الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿قال يا ابن أُمَّ لا تَأْخُذْ بلحيتى
ولا برأسى إنّى خَشِيتُ أن تقولَ
فرّقْتَ بين بنى إسرائيلَ ولم تَرْقُبْ
قَوْلى﴾

أنتَ أمَرْتَنى ألّا أفارِقَهم . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى: فى الوقتِ الذى احتَجْتَ أنْ تَمْضِىَ إلى فرعون قلتَ : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » ، وقلت : « أرْسِلْه معى » ، وقلت حين مضيتَ إلى سماع كلام الحق : « اخلفنى فى قومى » . . . فما اكتفيت بأنْ لم تستصحبنى . . وخَلَّفْتَنى ! وقد عَلِمْتَ أنى برىء الساحةِ مما فعلوا فأخذتَ بلحيتى وبرأسى . . . ألم ترضَ بما أنا فيه حتى تزيدنى حَرْباً على حَرْبى[1] ؟! ... لو قال ذلك لكان مَوْضعَه ، ولكنْ لِحلْمِه ، ولِعِلْمِه — بأنَّ ذلك كُلَّه حُكْمُ ربِّهم — فقد قابَلَ كلَّ شىء بالرضا .

قوله جل ذكره : ﴿قال فما خَطْبُكَ يا سامِرِىُّ ؟﴾

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوعٍ آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وتَغَيُّرَه فى نَفْسِه ، واستيلاء الغضب عليه — لم يغيِّرْ التقدير ، ولم يُؤَخِّرْ المحكوم .

قوله جل ذكره : ﴿قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أَثَرِ الرسولِ
فنَبَذْتُها وكذلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسِى﴾

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ ، فقَبَضْتُ الترابَ من موضعِ حافرِ

(١) الحرى = الغضب (الوسيط جـ ١ ص ١٦٩)

دابته ، وأُلقِي فى رَوْعى أن ذلك سببُ حياةِ العجل فطرحْتُها فى جوفه . . . هكذا زَيَّنَتْ لى نفسى فاتَّبَعْتُ هواها .

ثم كان هلاكُه . . لئلا يأمَنَ أحدٌ حتىَّ مَكْرِ التقدير ، ولا يركنَ إلى ما فى الصورة من رِفْقٍ فَلَعَلَّهُ — فى الحقيقة — يكون مكراً ، ولقد أنشدوا :

فأَمِنْتُهُ فأَتَاحَ لى من مَأْمَنِي مَكْراً ، كذا مَنْ يَأْمَنُ الأحبابا

قوله جل ذكره : ﴿ قال فاذهب فإنَّ لك فى الحياة أن تقولَ لا مِسَاسَ وإنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾

لم يَخْفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال فى خطابه مع الحق : « إن هى إلا فتنتك » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بإحلال العقوبةِ بالسامرى والأمر فى بابه بما يستوجبه ؛ ليُعْلَمَ أن الحُكْمَ فى الإبداع والإيجاد — وإنْ كان لله — فالمعاتبةُ والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ فى مقتضى التكليف ، وإجراء الحقِّ ما يُجْرِيه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْراً له .

قوله جل ذكره : ﴿ وانظُرْ إلى إلٰهك الذى ظَلْتَ عليه عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليمِّ نَسْفًا ﴾

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُهُ الحقُّ — سبحانه بمُحِبِّه[1] ؛ ولهذا يُلْقِى الأصنامَ غداً فى النار مع الكفار ، وليس لها جُرْمٌ ، ولا عليها تكليف ، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر . . وإنما هى جماداتٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما إلٰهكُمُ اللهُ الذى لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شىءٍ عِلْمًا ﴾

إى الحكم الذى تجب عليكم عبادتُه بحقِّ أمره هو اللهُ الذى لا إله إلا هو ، وهو بوصف الجلال ، والذى لا يخفى عليه شىء من المعلومات هو الله ، وليس مِثْلَ الذى هو جماد لا يَعْلَمُ

(١) الباء هنا معناها (مع) .

ولا يَقْدِرُ ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر . ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجمادَ ويحرقه .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك نَقُصُّ عليكَ من أنباء
مَا قد سَبَقَ وقد آتيناكَ من لَدُنَّا
ذِكْراً ﴾

نعرِّفك أحوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليكَ شيء من طُرُقِهم ، فتتأدبَ بآدابهم وتجتمعَ فيك مُتَفَرِّقاتُ مناقِبِهم .. ولكن اعلمْ أنَّا لم نُبلِغْ أحداً مَبْلَغَكَ ، ولم يكن لأحدٍ مِنا ما لَكَ ، آتيناك من عندنا شرَفاً وفخرا لم يشركك فيهما أحدٌ ، وذكَّرْناك ما سلَفَ لَكَ من العهد معنا ، وجَدَّدْنا لك بينهم تخصيصَنا إياك ، وكريمَ إقبالِنا عليك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عنه فإنَّه يَحْمِلُ يومَ
القيامة وِزْراً ﴾

المُعْرِضُون عنه شركا يحملون غداً وِزراً وثقلاً ، أولئك بَعُدُوا عن محلِّ الخصوصية ، ولم يكن لهم خَطَرٌ فى التحقيق ، فعقوبتهم لا تزيد على آلام نفوسهم وإحراقِ أشباحهم ، وأمَّا أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسُوه لحظةً لَدَارَ — فى الحالِ — على رءوسهم البلا بحيث تتلاشى فى جَهنَّم عقوبةُ كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة)(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فى الصُّورِ ونَحْشُرُ
المجرمين يومئذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُون
بينهم إن لَبِثْتُم إلاَّ عشراً * نحن
أَعْلَمُ بِمَا يقولون إذْ يقولُ أَمْثَلُهُم
طريقةً إن لَبِثْتُم إلاَّ يوماً ﴾

قومٌ يومُ القيامة لهم مُؤَجَّل ، وهو بعد النفخ فى الصُّور على ما وَرَدَ فى الكتاب وفى الخبر المأثور .

(١) ما بين القوسين أضفناه من عندنا ليتضح المعنى المطلوب حسبما نعرف من مذهب الصوفية أن عذاب الفراق أشد من عذاب الاحتراق .

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلةٌ[1] ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة ، وهوان حاضر وعذاب حاصل ، فكما تَرِدُ على ظواهرِ قومٍ فى الآخرة عقوباتٌ ، تَرِدُ على سرائرِ آخرين عقوباتٌ فى الحياة الحاضرة ، والمعاملةُ مع كلِّ أحدٍ تخالف المعاملةَ مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم . . . » مَنْ تَفَرَّغَ لِعَدِّ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرُ مستوفٍ فى بلائه ، وأمره سهلٌ . . . ومَنْ كان يُرَادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال ؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسْأَلُ عن الخبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونكَ عنِ الجبالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا ربى نَسْفًا * فيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَىٰ فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ﴾

كما أنَّ فى القيامةِ الموعودةِ تُغَيَّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهى كالعِهْنِ المنفوش فكذلك فى القيامة الموجودة . . . فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسى ثباتاً ؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم ، ويأخذهم عن أقرانهم . . . كذا سُنَّتُه سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ له وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا ﴾

تنقطع الأوهام ، وتقف الأفهام ، وتنخنس العقول ، وتندرس العلومُ ، وتتحير المعارفُ ، ويتلاشى ما هو نَعْتُ الخلْق ، ويستولى سلطانُ الحقيقة . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أثَرٌ ، ولا رسم ولا طلل ولا غَبَرٌ ، فى الحضور خرَسٌ ، وعلى البساط فَنَاء ، والرسوم امتحاء ، وإنما الصحة على الثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ لا تَنْفَعُ الشفاعةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ورَضِىَ له قَوْلاً ﴾

(١) أى القيامة التى تحل بأرباب القلوب فى هذه الحياة الدنيا
(٢) لأنه يكون فانياً عن نفسه ، والقائم عنه ربُّه .

دليلُ الخطاب انَّ مَنْ أَذِنَ له فى الشفاعة تنفعه الشفاعةُ ، وإذا قُبِلَتْ شفاعة أحدٍ بإذن الرحمن فَمِنَ المُحالِ ألاَّ تُقْبَلَ شفاعةُ الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو أفضل الكافة ، وشفاعةُ الأكابر من صفوته مقبولةٌ فى الأصاغر في المُؤَجَّل وفى المُعَجَّل . والحقُّ سبحانه يُشَفِّعُ الشيوخَ فى مريديهم اليوم(١)

ويقال شفاعة الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة ، وللعاصين بغفران الزَّلَّة ، كذلك شفاعة الشيوخ — اليوم — للمريدين على قسمين : للذين هم أصحاب السلوك فبزيادة التحقيق والتوفيق ، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرَّة فبالتجاوز عنهم ، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ قائلهم :

إذا مَرِضْتُم أتيناكُم نعودُكُم وتُذْنِبُون فنأتيكم ونعتذرُ !

وحكاياتُ السَّلفِ من الشيوخ مع مريديهم فى أوقات فترتهم معروفة ، وهى مُشَاكِلةٌ لهذه الجملة ، وإن شفاعتَهم لا تكون إلا بتعريفٍ من قِبَلِ الله فى الباطن ، ويكون ذلك أدباً لهم فى ذلك

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يُحيطون به عِلْماً ﴾

لا يخفى على الحق شىء مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتيها ، ولا يحيطون به عِلْماً . والكناية(٢) فى قوله : « به » يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، ويحتمل أن يعود إلى الحقِّ — سبحانه — ، وهو طريقة السَّلَف ؛ يقولون . يعلم الخلقَ ولا يحيط به العلم ، كما قالوا : إنه يُرَى ولا يُدْرَك .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَنَتِ الوجوهُ للحىِّ القيومِ وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ .

---

(١) بينما ينكر المعتزلة الشفاعة (أنظر الملل والنحل للشهرستانى) يثبت القشيرى الشفاعة لا للرسول فقط بل للأولياء فى الدارين ، وللشيوخ فى هذه الحياة الدنيا .. على نحو ما هو واضح من إشارته.

(٢) الكناية فى تعبير القشيرى معناها (الضمير) ، وهو هنا الهاء فى (به) .

ذلَّتْ له الرقاب واستسلم لحكمه الخلقُ، وخضعت له الجبابرةُ، ومَنْ اقترف الظلمَ بقي في ظُلُماته، وعلى حسب ذلك في الزيادة والنقصان.

قوله جل ذكره: ﴿ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وهو مؤْمِنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضْمًا﴾.

العمل الصالح مايصلح للقبول، فاعِلُه هو المتجرِّدُ عن الآفاتِ الواقفة لحقيقة الأمر.

ويقال العمل الصالح مالم يستعجل عليه صاحبُه أجراً.

قوله: «وهو مؤمن»: أي في المآل كما هو مؤمن في الحال.

ويقال هو مؤمنٌ مصدِّق لربِّه أنه لايعطي المؤمنَ لأَجْلِ إيمانه شيئا، ولكن بفضله، وإيمانُه أمارةٌ لذلك لاموجِبٌ له (1).

قوله جل ذكره: ﴿وكذلك أنزلناه قرآناعربيا وصَرَّفنا فيه من الوعيدِ لعلَّهم يتقون أو يُحدِثُ لهم ذِكْرًا﴾.

أتبعْنا دليلا بعد دليل، وبعثنا رسولا بعد رسول، وحَذَّرْناهم بوجوهٍ من التعريفات، وإظهارِ كثيرٍ من الآيات

قوله جل ذكره: ﴿فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ﴾.

تعالى اللهُ في كبريائه، وكبرياؤه: سناؤه وعُلاه ومَجْدُه ورِفْعَتُه وعظَمَتُه، كل ذلك بمعنًى واحد، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم.

و «الملِكُ»: مبالغةٌ من المالك، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد، والانفراد بذلك.

و «الحقُّ»: في وصفه — سبحانه — بمعنى الموجود، ومنه قوله عليه السلام: «العين حق» (2) أي موجود.

---

(1) على خلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يثيب من أطاع ويعاقب من أذنب.

(2) يقول القشيري في تحبيره ص ٦٨ «الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن، وكذا معناه في اللغة، ومنه قوله عليه السلام: «السحر حق» أي كائن موجود، وكذا يقال الجنة حق، والنار حق.

ويكون الحق بمعنى ذى الحقّ ، ويكون بمعنى مُحِقٌّ الحق . كل ذلك صحيح .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ من قَبْلِ أن يُقْضَىٰ إليكَ وَحْيُهُ وقُل رَبِّ زِدْنى عِلْماً ﴾ .

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافةَ النسيان ، فأمَرَه بالتثبت فى التلقين ، وأمَّنَه من طوارقِ النسيان ، وعرّفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط فى القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إنْ لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحقِّ اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .

فالآية تشير إلى التثبت فى الأمور وضرورة التمكث واللبث قصداً للاحتياط (1) .

قوله : (وقل ربِّ زدنى علماً) : فإذا كان أعلَمُ البَشَرِ ، وسيِّدُ العرب والعجم ، ومَن شهد له الحقُّ بخصائص العلم حين قال « وعلَّمَكَ مالم تكن تعلم »(2) يقال له : « وقل رب زدنى علماً » — عُلِمَ أنَّ ما يخص به الحقُّ أولياءه من لطائف العلوم لاحَصْرَ له .

ويقال أحاله على نفسه(3) فى اسْتزادةِ العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : « هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما علمت رشداً » فشتان بين عبدٍ أُحيل على عبدٍ فى ذلك ثم قيل له : « إنك لن تستطيع معى صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له فى آخر الأمر : « هذا فراق بينى وبينك » . . . وبين عبدٍ أمَرَه عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال : قُلْ يامحمد : « وقل ربِّ زدنى علماً » !

ويقال لما قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له »(4) ، قال له : « وقل رب زدنى علماً » لِيُعْلَمَ أنَّ أشرف خِصالِ العبدِ الوقوفُ فى محلِّ الافتقار ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف فى مَعْرِض الدعوى (5) .

---

(1) هذا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياطه في تناول النص النقلى .

(2) آية ١١٣ سورة النساء .

(3) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيتضح بعد قليل .

(4) البخارى عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له) .

والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(5) أى أن يكون العبد داعياً لا دعيا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قَبْلُ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾

لم نجد له قوةً بالكمال ، وانكماشاً فى مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمَةُ العصيان بقوله : « وعصى آدم ربَّه »[1] .

ويقال « لم نَجِدْ له عزماً » : على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزماً فى القصد على الخلاف[2] ، وإنْ كان.. فذلك بمقتضى النسيان ، قال تعالى « فَنَسِيَ ولم نجد له عزماً » على خلاف الأمر ، وإنْ كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر .

ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله ؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم ، واستقبلته هذه الخطيئة ، وقوله تعالى « فنسى » من النسيان ، ولم يكن فى وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله : « فنسى » ثم أظهر عُذْرَه فقال : « ولم نجد له عزماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قُلْنَا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلاَّ إبليس أَبَى ﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر ، ولم تتقدم[3] [من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فَخَلَقه الحقُّ بيده ، ورَفَعَ شأنَه بعدما علَّمه ، وحُمِلَ إلى الجنة ، وأمَرَ الملائكةَ فى كل سماءٍ أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء ، واختباراً لهم . فسجدوا بأجمعهم . وامتنع ابليسُ من بينهم ، فَلَقِيَ من الهوان ما سبق له فى حكم التقدير . والعَجَبُ ممن يخفى عليه أنَّ مثل هذا يجرى من دون إرادة الحقِّ ومشيئته وهو عالمٌ بأنه كذلك يجرى ، واعتبروا الحكمةَ فى أفعاله وأحكامه ، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته ، وكثرة مخالفات

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها .

(٢) الخلاف = المخالفة .

(٣) ابتداء من هذا الموضع وحتى ينتهى الكلام بين القوسين الكبيرين وضعه الناسخ خطأ فيما بين الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تفسير سورة الفرقان أي فى مكان متأخر كثيراً وقد صححنا وضعه ، ونبهنا إلى ذلك فى مدخل هذا الكتاب (المجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحقَّ سبحانه أراد خلاف ما علِمَ ، وأجرى فى سلطانه ما يكرهه وهو عالِمٌ ، وكان عالما بما سيكون ! ثم خلق إبليس ومكَّنه من هذه المعاصى مع إرادته ألا يكون ذلك ! ويدَّعُون حُسْنَ ذلك فى الفعل اعتباراً انما هو الحكمة . . . فسبحان مَنْ أعْمَى بصائرَهم ، وعمَّى حقيقةَ التوحيد عليهم !

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُلْنَا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌّ لَكَ وَلِزَوجِكَ فلا يخرجنكما من الجنة فتَشْقَىٰ ﴾

وما كان ينفعهم النُّصْحُ وقد أراد بهم ما حذَّرَهم ، وعَلِمَ أنهم سيلقون ما خوَّفهم به .

قوله : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأمَّا إنَّه أضاف الشقاء إلى ادم وحدَه — وكلاهما لحقَه شقاء الدنيا — فذلك لمضارعة رءوس الآى ، أو لأن التعبَ على الرجال دون النساء . ومَنْ أصغى إلى قول عدوِّه فإنه يتجرَّعُ النَّدَمَ ثم لا ينفعه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ لَكَ ألاَّ تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ ✻ وأنَّكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَىٰ ﴾

لا تصديقَ أتمُّ من تصديقِ آدم ، ولا وعظَ أشدُّ رحمةً من الله ، ولا يقينَ أقوى من يقينه . . ولكن ما قاسى آدمُ الشقاء قبل ذلك ، فلمَّا استقبله الأمرُ وذاق ما خُوِّف به من العناءِ والكدِّ نَدِمَ وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » أُوثِرَ بِكَلِّ وبه ؛ فلم يعرف قَدْرَ العافيةِ والسلامةِ ، إلى أن جرى ما هو محكومٌ به من سابقِ القسمة .

ويقال تنعَّمَ آدمُ فى الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى فى الدنيا عليه الجوعُ والعطشُ ، والبلاء من كل (. . .)(١)

---

(١) هنا طمس أخفى لفظة فى نهاية السطر وهى أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتقبلها ، فالقشيرى يستعملها فى مواضع مماثلة (أنظر مثلا استعماله (فنون الخذلان) عند تفسير الآية التى ستأتى بعد قليل : ومن اعرض عن ذكرى ...) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتى فى العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدَّدَ له نوعٌ من البلاء أخذ فى البكاء، وجبريل عليه السلام يأتى ويقول : « ربُّك يقْرئك السلامَ ويقول : لِمَ تبكى ؟ فكان يُذَكِّر جبريلَ عليه السلام وهو يقول : أهذا الذى قُلْتَ : « وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . . ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَسْوَسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أَدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحقُّ يعلم ذلك ولم يذكُرْ آدمُ فى الحال أن هذا من نزغات مَنْ قال له — سبحانه : « إن هذا عدو لك » .

ويقال : لو عُمِّى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها ، ولو لم يكن (. . .)[1] حتى دلَّه على تلك الشجرة (إيش)[2] الذى كان يمنعه منه إلا أنَّ الحُكمَ منه بذلك سَبَقَ ، والإرادةَ به تعلَّقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقىُّ ، فعلتَ وصنعتَ . . !

فقال ابليس لآدم : إنْ كنتُ شيطانَك فَمَنْ كان شيطانى[3] ؟

ويقال سُمِّىَ الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله ، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإنْسِ ، وشياطين الإنْسِ شرٌّ من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم فى البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسته .

والناسُ تكلموا فى الشجرة : ما كانت ؟ والصحيحُ أَنْ يقالَ إنها كانت شجرة المحنة .

ويقال لو لم تُخْلَقْ فى الجنة تلك الشجرةُ لَمَّا كان فى الجنة نقصانٌ فى رتبتها[4]

---

(١) مشتبهة .

(٢) معناها (فأى شىء ؟) وهى هنا استفهامية .

(٣) فى ذلك تنصل من اللعين أساسه المغالطة والتلبيس .

(٤) أى أن الجنة فى عرف هذا المتكلم (مخلوقة) و (حادثة) .

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِل إليها يده، ولكنه — كما في القصة — كانت لا تصل إلى أوراقها يده — بعد ما أكل منها — حينما أراد أنْ يأخذَ منها لِيَسْتُرَ عورتَه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَكَلاَ منها فَبَدَتْ لهما سَوْءاتُهما ﴾

لمَّا ارتكبا المنهيَّ عنه ظهر مايُسْتَحْيَى مِنْ ظهوره، ولكنَّ اللهَ — سبحانه — ألْطَفَ معهما في هذه الحالة بقوله : فَبَدَتْ لهما سوآتهما، ولم يَقُلْ — مُطْلَقاً — فبدت سَوْءتُهما ؛ أي أنه لم يُطْلِعْ على سوءتهما غيرَهما .

ويقال لَمَّا تجرَّدَا عن لِباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وطَفِقَا يخصفان عليهما من وَرَقِ الجَنَّة ﴾

أولُ الحِرَفِ والصناعات — على مقتضى هذا — الخياطةُ ، وخياطةُ الرِّقاع بعضها على بعض للفقراء ميراثٌ من أبينا آدم — عليه السلام[2] .

ويقال كان آدمُ — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلَل الجنة وفنونِ اللِّباس ما اللهُ به أعلمُ ، ثم لم يُمسِ حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان في الابتداء ما هو موروثٌ في أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة »[3] : عند ذلك وقعت عليهما الخَجلةُ لمَّا وَرَدَ عليهما خطاب الحقِّ : « ألم أنهكما عن . . . » ولهذا قيل : كفى للمُقَصِّر الحياء يوم اللقاء

قوله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . . . »[4] : لم يتكلما بلسان الحجة فقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، ولم يقولا : بظلمنا صرنا من الخاسرين، بل قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا

---

(١) وفي هذا تحذير ضمني للأكابر من الوقوع في الزلة ، وكيف أن كرامة الولي تتلاشى بزلته .
(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما نؤرخ للخرقة والمرقعة عند الصوفية .
(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .
(٤) آية ٢٣ سورة الأعراف .

لنكونن من الخاسرين » ليُعْلَم أنَّ المدارَ على حُكْمِ الربِّ لا على جُرْمِ الخلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَصَىٰ آدمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ ﴾

لمَّا وَقَعَتْ عليه سِمَةُ العصيان — وهو أوَّلُ البشر — كان في ذكر هذا تنفيس لأولاده ، أن تجرى عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة في حين الفترة .

ويقال كانت تلك الأكلةُ شيئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويرددها الصبيانُ إلى يوم القيامة .

وعصى آدم ربَّه ليُعْلَمَ أن عِظَمَ الذنوب لمخالفةِ الآمرِ وعظمِ قَدْرِه . . لا لكثرة المخالفة في نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم اجتباه ربُّهُ فتابَ عليه وهَدَىٰ ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ ما فَعَلَه اجتباه ربُّهُ ؛ فالذى اصطفاه أولاً بلا عِلَّة[1] اجتباه ثانياً بعد الزَّلَّة ، فتَابَ عليه ، وغَفَر ذنبَه ، « وهدى » : أى هداه إليه حتى اعتذر واستغفر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اهْبِطَا منها جميعاً بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يأتينكم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالت المحنُ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان ، والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

« فمن اتَّبع هداى . . . » وتَرَكَ هواه ، ولم يعملْ بوسوسة العدوِّ فله كُلُّ خير ، ولا يلحقه ضَيْر .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِى فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ﴾

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا ، وفي القبر ،

---

(١) تفيد هذه العبارة في بيان أهمية الاصطفاء الإلهي ، وأن العمل الإنساني له الدرجة الثانية في الأهمية . ثم تفيد في بيان الفرق في الاصطلاح بين (الاصطفاء) و (الاجتباء) .

وفى النار ، وبالقلب من حيث وحشة الـكفر ، وبالوقتِ من حيث انغلاق الأمور .

ويقال مَنْ أعرض عن الانخراط فى قصايا الوفاق انثالت عليه فنونُ الخذلان ، ومنْ أعرض عن استدامة ذكره — سبحانه — بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ .

ومَنْ أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النَّفْس بما يوجِب له وحشةَ الضمير ، وانسداد أبواب الراحة والبسط .

ويقال مَنْ أعرض عن ذِكْرِ الله فى الخلوةِ قيَّضَ اللهُ له فى الظاهر من القرينِ السوء ما توجِبُ رؤيتُه له قَبْضَ القلوبِ واستيلاء الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَحْشُرُه يومَ القيامةِ أعمى * قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلك اليومَ تُنْسَىٰ ﴾

فى الخبر : « مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ اللهَ بها » فَمَنْ كان فى الدنيا أعمى القلب يُحْشَرُ على حالته ، ومَنْ يَعِشْ على جهلٍ يحشر على جهلٍ ، ولذا يقولون : « مَنْ بعثَنا مِنْ مَرْقدنا ؟ »[1] إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً .

وكما يَتْرُكُون — اليومَ — التدبرَّ فى آياتِه يُتْرَكُون غداً فى العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نجزى مَنْ أسرف ولم يؤمِنْ بآياتِ ربِّه ولَعَذَابُ الآخرةِ أشَدُّ وأبقىٰ ﴾

جرَتْ سُنَّتُه بأنْ يجازِيَ كُلاًّ بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسِه سيلقى غِبَّه ؛ على الخير خيراً ، وعلى الشرِّ شرًّا .

---

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره: ﴿أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنَّ في ذلك

لآياتٍ لأولي النُّهىٰ﴾

أي أفلا ينظرون فيتفكرون[1]؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدجرون؟ أم على وجوههم ... في ميادين غفلاتهم يركضون، وعن سوء معاملاتهم لا يرجعون؟ ألا ساء ما يعملون!

قوله جل ذكره: ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّكَ لكان لِزاماً وأجلٌ مُسَمًّى﴾

لولا أنَّ كلمةَ اللهِ سَبَقَتْ بتأخير العقوبة عن هذه الأمة، وأنه لا يستأصلهم لأنَّ جماعةً من الأولياء في أصلابهم لعَجَّلَ عقوبتَهم، ولكن .. كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدةً معلومة، ولكنه لم يهملهم أصلاً.

وإذا كانت الكلمةُ بالسعادة لقومٍ والشقاوة لقومٍ قد سبقت، والعلمُ بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى — فالسعيُ والجهدُ، والانكماشُ والجدُّ .. متى تنفع؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظاهر.

قوله جل ذكره: ﴿فاصبر على ما يقولون وسَبِّحْ بحمدِ رَبِّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبِها، ومن آناءِ الليلِ فسبِّحْ وأطرافَ النهارِ لعلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

سماعُ الأذى يوجب المشقة، فأزال عنه ما كان لَحِقَه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون، وأَمَرَهُ: إنْ كان سماعُ ما يقولون يُوحِشُكَ فتسبيحُنا — الذي تُثْنِي به علينا — يُرَوِّحُك.

« قبل طلوع الشمس »: أي في صدر النهار؛ ليباركَ لكَ في نهارِك، ويَنْعَمَ صباحُك.

« وقبل غروبها » أي عند نقصان النهار؛ ليطيبَ لَيْلُكَ، وينعمَ رَوَاحُك.

---

(1) (الفاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب، ولو اعتبرناها سببية نقول (فيتفكروا) لوقوعها بعد أسلوب طلبي، ولكننا أثبتنا ما جاء في النص لتكراره ذلك فيما تلاه.

« ومن آناءِ الليل » أى فى ساعات الليلِ ؛ فإن كمالَ الصفوة فى ذكر الله فى حال الخلوة .
« وأطراف النهار » أى استَدِمْ ذِكْرَ اللهِ فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَينيكَ إلى ما متَّعْنا به
أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا
لِنَفْتِنَهُم فيه ﴾

فضل[1] الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام ، والذى له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فللحَقِّ على جميع أحواله غَيْرَةٌ ؛ إذ لا يَرْضَى منه أنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس لله ـ سبحانه ـ فيه رِضاه ، وفى معناه أنشدوا :

فعينى إذا اسْتَحْسَنَتْ غيرَكم أمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لمّا أدَّبَهُ فى ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَ على وجه الأرض بِفَرْدِ قَدَمٍ تصاونًا عنها حتى قيل له : « طه » أى طأْ الأرضَ بِقَدَمِك . . ولِمَ كلُّ هذه المجاهدة وكل هذا التباعد حتى تقف بِفَرْدِ قَدَمٍ ؟ ! طَأْ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يُشْغَل به عن الحقِّ ، ويستولى حُبُّه على القلب ، ويُجَسِّر وجودُه على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البَطَر والأَشَر .

قوله جل ذكره : ﴿ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأَبقى ﴾

القليلُ من الحلالِ — وفيه رضاه الرحمن — خيرٌ من الكثيرِ من الحرام والحطام . ومعه سُخْطُه . ويقال قليلٌ يُشْهِدُكَ ربَّكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يُنْسِيكَ ربَّك .

قوله جل ذكره : ﴿ وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبر عليها ﴾

الصلاةُ استفتاحُ بابِ الرزق ، وعليها أحال فى تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه .
ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قُوتُ النَّفْس قَوِىَ قُوتُ القلب .
وأَمَرَ — الرسولَ — عليه السلام — بأن يأمرَ أهلَه بالصلاةِ ، وأَنْ يَصْطَبِرَ عليها .

---

(1) الفضل هنا معناه الزيادة (وفضل الرؤية) زيادة التطلع إلى أكثر من المباح .

وللاصطبار مزية على الصبر ؛ وهو ألاّ يَجِدَ صاحبُه الألمَ بل يكون محمولًا مُرَوَّحاً .

قوله جل ذكره : ﴿ لا نَسأَلُكَ رِزْقاً ﴾

أي لا نكلفك برزق أحدٍ ؛ فإنَّ الرازقَ اللهُ — سبحانه — دون تأثير الخَلْق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نرزُقُكَ والعاقبةُ للتقوىٰ ﴾

هما شيئان : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة[1] النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة[2] القلوب .

ويقال استقلال[3] العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الرَّزَّاق .

ويقال نَفَى عن وقته الفَرْقَ بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فإنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزق .

ويقال خفَّفَ على الفقراء مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّرِه عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله : « نحن »[4]

قوله : « والعاقبة للتقوى » : أي العاقبة بالحسنى لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي ، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر[5]

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا يَأْتِينا بآيةٍ مِّن ربِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ الأُولىٰ ﴾

عَمِيَتْ بصائرهم وادَّعوا أنه لا برهانَ معه ، ولم يكن القصورُ في الأدلة بل كان الخَلَلُ في بصائرهم ، ولو جمع اللهُ لهم كلَّ آيةٍ اقْتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ اللهُ أَنْ يؤمنوا لَمَا

---

(١) ، (٢) وربما كانا (قوت النفوس ، وقوت القلوب) بالتاء المفتوحة ، فقد سبقا هكذا منذ قليل ، وإن كان السياق لا يمنع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٣) (استقلال) هنا بمعنى اكتفاء .

(٤) لأن من عاش (بنحن) اكتفى بها ولم يستعجل شيئاً .

(٥) كما يقال مثلا (رجل عدل) ونحو ذلك .

ازدادوا إلا طغياناً وكفرا وخسرانا . . . وتلك سُنَّةُ أسلافهم فى تكذيب أنبيائهم ، ولذا قال :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنّا أهلكناهم بعذابٍ مِّن قَبْلِه لقالوا ربنا لولا أرْسَلْتَ إلينا رسولاً فنتَّبِعَ آياتِكَ من قَبْلِ أن نَذِلَّ ونخزَىٰ ﴾ .

إنْ أرسلنا إليهم الرسلَ قابلوهم بفنونٍ من الجحد ، ووجوهٍ من العلل ؛ مرةً يقولون فما بالُ هذا الرسول بَشَر ؟ هلاّ أرسله مَلَكاً ؟ ولو أرسلنا مَلَكاً لقالوا هلاّ أرسل إلينا مثلنا بَشَرًا ؟ ولو أظهر عليهم آيةً لقالوا : هذا سِحْرٌ مُفتَرَى ! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا :

هلاَّ بَعَثَ إلينا رسولاً حتى كنا نؤْمِن ؟ فليست تنقطع أعلالُهم ، ولا تنفك — عما لا يُرْضَى — أحوالُهُم . وكذلك سبيلُ مَنْ لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب فى الوداد ، وفى معناه أنشدوا :

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فتَرَبَّصُوا فستعلمون مَنْ أصحابُ الصِّراط السَّوِىِّ ومَنِ اهتدىٰ ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو فى المستأنف ، إلاَّ أنَّ أربابَ التفرقة ينتظرون ما سيبدو مِمَّا يقتضيه حُكْمُ الأفلاك ، وما الذى توجبه الطبائعُ والنجومُ . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم فى رَوْحِ التوحيد ، والباقون فى ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ .

السورة التى يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

بسم الله اسم عزيز مَنْ توسَّلَ إليه بطاعته تفضَّلَ عليه بجميل نعمته ؛ إنْ أطاع فَضَّلَه ، وإن أضاع أمْهَلَه ، ثم إنْ آبَ وأقرَّ . . ذَكَرَه ، وإن عصى وعاب سَتَرَه ، فإن تَنَصَّلَ رَحِمَه ، وإنْ تَكَبَّرَ قَصَمَه[1] .

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلاَّ بآثار توفيقه ، وما استضاءت السرائرُ إلا بأنوار تحقيقه ، بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم ، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم ، وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجِلَ مثوبتهم ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم وهم فى غَفْلَةٍ مُعْرِضُون ﴾ .

فالمطيعون منهم عَظُمَ لدينا ثوابُهم ، والعاصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابُهم .

« فى غفلة » يقال الغفلة على قسمين : غافلٌ عن حسابه باستغراقه فى دنياه وهواه ، وغافلٌ عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه ؛ فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْل ؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبَدَ الأبدِ لفنائهم فى وجود الحق تعالى[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

---

(١) يمكن القول أن هناك نوعاً من الترابط والانسجام بين إشارات البسملة — على هذا النحو — وبين جزئيات السورة ، حيث انقسم الناس إزاء الأنبياء إلى مصدق ومكذب ، ومؤمن وجاحد . . ونال كل جزاءه .

(٢) تهمنا هذه الإشارة عند دراسة المصطلح الصوفى ؛ فالغفلة نوعان : مذمومة ومحمودة ؛ غفلة ناشئة عن الهجر وغفلة ناشئة عن الوصل .

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازدادوا نفوراً ، ولم يُنزِّلْ عليهم خطاباً إلا ردُّوه جحداً وتكذيباً ، وما زدناهم فصلاً إلا عدُّوه هزْلاً ، وما جددنا لهم نعمةً إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة ، فكان الذى أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . وهذه صفة مَنْ أساء مع الله خُلُقَه ، وخَسِرَ عند الله حقَّه .

قوله جل ذكره : ﴿ لاهيةً قلوبُهم وأسَرُّوا النَّجوى
الذين ظلموا هل هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم
أفتأتون السِّحْرَ وأنتم تُبْصِرُونَ ﴾

عَمِيَتْ بصائرُهم وغامت أفهامهم ، فهم فى غباوة لا يستبصرون ، وفى أكنة عمَّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون .

قوله : « وأسروا النجوى . . . . » لمَّا عجزوا عن معارضته ، وسقطوا عند التحدى ، وظهرت عليهم حُجَّتُه رَجَّمُوا فيه الفِكْرَ ، وقَسَّمُوا فيه الظن ؛ فمرةً نسبوه إلى السحر ، ومرةً وصفوه بقول الشعر ، ومرة رَمَوْه بالجنونِ وفنونٍ من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه : هو محمدٌ الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْباً

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربى يعلم القولَ فى السماء والأرض
وهو السميعُ العليمُ ﴾

الأقاويل التى يسمعها الحقُّ — سبحانه — مختلفة ؛ فمِنْ خطابِ بعضهم مع بعض ، ومن بعضهم مع الحق . والذين يخاطبون الحقَّ : فمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا ، ومِنْ داعٍ يطلب كرائمَ العُقْبي ، ومِنْ مُثْنٍ يثنى على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى .

ويقال يسمع أنينَ المذْنبين سراً عن الخلق حَذَراً أن يفتضحوا ، ويسمع مناجاةَ العابدين بنعت التسبيح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مسَّتْهم البُرَحاء[1] فضجُّوا من شدة الاشتياق .

---

(١) البرحاء : الشدة .

ويقال يسمع خطابَ مَنْ يناجيه سِرًّا بسرٍّ ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثنى عليه بلسان سِرّه .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراه بل هو شاعرٌ فَلْيأْتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأولون ﴾

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه — بعدما نَزَّلنا إليه الأمر — من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا هِمَمَهُ على الوصف الذى كانوا يصفونه به من صدق فى الحال والمقال ، وكما قيل :

رمتنى بدائها وانسلت .

قوله جل ذكره : ﴿ ما آمنَتْ قبلَهم مِّن قريةٍ أهلكناها أفهُم يؤمنون ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَه أَنْ يُعَذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا فى الحال ولا فى المآل . وإنَّ هؤلاء الذين كفروا فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أمثالُهم فى الكفران ، وقد حَكَمَ الحقُّ لهم بالحرمان والخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رِجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

لمَّا قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسِلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بَشَراً ، وذَكَرَ أنَّ الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إياهم .

ثم قال : « فاسألوا أهلَ الذكر إنْ كنتم لا تعلمون » : الخطاب للكلِّ والمراد منه الأمة ، وأهلُ الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم . ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين فى محل الإعلام من الحقِّ — سبحانه — أو من يُحْسِنُ الإفهامَ عن الحق .

ويقال العالم يرجع إلى الله فى المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكلت الواقعةُ فيخبر عن اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مقلداً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النصَّ وأدى اجتهاده إلى شىء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأمَّا الحكيم فإذا تكلم فى المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتِى به فإن لم تتقدم له مَن قِبَله المنازلة ففتواه فى هذا الطريق كفتوى المقلِّد فى مسائل الشرع .

فأمَّا العارف فيجب أن يتكلم فى هذا الطريق عن وَجْدِه — إنْ كان — وإلا فلاتُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَع(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناهم جَسَدًا لا يأكلون الطعامَ وما كانوا خالدين ﴾

لمَّا عيَّروا الرسولَ — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . أخبر أن أكْلَ الطعامِ ليس بقادحٍ فى المعنى الذى يختص به الأكابر ، فلا منافاةَ بين أكل الطعام وما تُسكِنُه القلوبُ والسرائرُ من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها مما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السرُّ .

قوله : « وما كانوا خالدين » : أى إنهم على ممرٍ ومعبْرٍ ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْد .

قوله جل ذكرة : ﴿ ثم صدَقْنَاهم الوعدَ فأنجيناهم ومَن نشاء وأهلَكْنَا المسْرفين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يُحَقِّق وعدَه وإنْ تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون . والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدِّين ، وإرغام مَنْ نَابَذَ الحقَّ مِنَ الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

---

(١) تهم هذه الإشارة فى توصية الشيوخ إذا استفتاهم المريدون ، كما تهم فى توضيح ما يمكن أن نسميه « أصول الفقه عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكُمْ أفلا تعقلون ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : « فيه ذكركم » : أي شرفكم ومحلكم، فَمَنْ استبصرَ بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وأخراه .

قوله جل ذكره . ﴿ وكَمْ قَصَمْنَا مِن قريةٍ كانت ظالمةً وأَنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ .

إنَّ اللهَ يُمْهِل الظالمَ حيناً لكنه يأخذه أَخْذَ قهرٍ وانتقام ، وقد حَكَمَ اللهُ بخرابِ مساكنِ الظالمين ، وقد جاء الخبر : « لوكان الظلم بيتاً في الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب » ؛ فإذا ظلم العبدُ نَفْسَهَ حَرَّمَ اللهُ أَنْ يقطنها التوفيقُ وجعلها موطنَ الخذلان ، فإذا ظَلَمَ قلبَه بالغفلة سَلَّط عليه الخواطرَ الردية التي هي وساوس الشيطان ودواعي الفجور . وعلى هذا القياس في القلة والكثرة ؛ إنَّ الروح إذا خربت زايلتها الحقائقُ والمحابُّ ، واستولت عليها العلائقُ والمساكنات .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بأسَنَا إذا هم منها يَرْكُضُون ﴾

لَمَّا ذاقوا وبالَ أفعالهم اضطربوا في أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهم ، ولم تَعُدْ إلى محالِّها أقدامُهم ، وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبَلُ الأمانة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومساكِنِكُم لَعَلَّكم تُسألون ﴾

وللخيانة سراية[1] ، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية ، وإذا غرقت السفينةُ فليس بيد الملاَّحِ إلا إظهار الأسف ، وهيهات أن يُجْدِي ذلك !

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظالمين ﴾

(١) سرى الجرح او السوء سراية . أي دام الألم منهما حتى حدث الموت . ويقال سرى التحريم وسرى العتق أي تعدى إلى غير المحرم أو المعتق (الوسيط) .

للإقرار زمان ، فإذا فات وقتُه فكما فى المَثَل : يسبق الفريص الحريصُ . ووَضْعُ القوسِ بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿ فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾

إنَّ مِنَ البلاء أَنْ يشكوَ المرء فلا يُسْمَع ، ويبكى فلا يَنفَع ، ويدنو فَيُقْصَى ، ويعرض فلا يُعاد ، ويعتذر فلا يُقْبَل . . وغايةُ البلاءِ التَّلفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما خَلَقْناَ السماء والأرضَ وما بينهما لاعبين ﴾

اللَّعِبُ نعتُ من زَالَ عن حَدِّ الصواب ، واستجلب بفعله الالتذاذ ، وانجرَّ فى حَبْلِ السَّفَهِ . وحَقُّ الحقِّ مُتقَدِّسٌ عن هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ لو أَرَدْناَ أن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتخذناه من لَّدُنَّا إن كُنَّا فاعلين ﴾

يخاطبهم على حسب أفهامهم ، وإلا . . فالذى لا يعتريه سهوٌ لا يستفِزُّه لهوٌ ، والحقُّ لا يعتريه ولا يضاهيه كُفْوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطِلِ فَيَدْمَغُه فإذا هو زاهِقٌ ولكم الويلُ مِمَّا تصِفُون ﴾

نُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالى الأوهام فينقشع سحابُ الغيبة ، وينجلى ضبابُ الأوهام ، وتنير شمسُ اليقين ، وتصحو سماء الحقائق عن كلِّ غُبار التُّهَم .

قوله جل ذكره : ﴿ وله من فى السموات والأرضِ وَمن عِندَه لا يستكبِرون عن عبادَته ولا يَستَحسِرُون ﴾

الحادثات له سبحانه مِلْكاً والكائنات له حُكماً ، وتعالى اللهُ عن أنْ يتجمّلَ بوِفاقٍ أو ينقص بخلاف ، وبالقَدَرِ ظهورُ الجميع ، وعلى حسب الاختيار(1) تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليلَ والنهارَ لا يَفتُرُون ﴾

المطيعُ المختارُ يُسبِّحه بالقول الصدق ، والكلُّ من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخِلْقَة ، وبرهان البَيِّنة(2) .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلِهةً مِّنَ الأرضِ هم يُنشِرُونَ ﴾

تفرَّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد ، وتقدَّسَ عن الأمثال والأنداد ، فالذين يَعْبُدُون مِنْ دونِه أمواتٌ غيرُ أحياءٍ . وهم(3) بالضرورة يعرفون . . أفلا يَعْتَبِرُون وألا يَزْدَجِرُون ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيهما آلِهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا فسبحان اللهِ ربِّ العرشِ عمَّا يَصِفون ﴾

أخبر أنَّ كلَّ أمرٍ يُنَاطُ بجماعةٍ لا يجرى على النظام ؛ إذ ينشأ بينهم النزاعُ والخلافُ . ولمَّا كانت أمورُ العالمَ فى الترتيب مُنَسَّقَةً فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرِ مُدَبِّرٍ حكيم ؛ فالسماء فى علوِّها تدور على النظام أفلاكُها ، وليس لها عُمُدٌ لإمساكها ، والأرضُ مستقرةٌ بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها . والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور فى بروج ، ورقعة السماء تتسع من غير فروج . . ذلك لِتقديرِ العزيزِ العليمِ علامةٌ ، وعلى وحدانيته دلالةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألُون ﴾

لِكَوْنِ الخلْق له ، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دونِه آلِهةً قل هاتُوا بُرهانَكم ، هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ

---

(1) الاختيار ، بما مقصود به الاختيار الإلهى .

(2) عبر القشيرى عن هذا المعنى فى موضع سابق حين ذكر ان كل الكائنات شاهدة على وحدانيته ؛ للناطق منها توحيد القالة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(3) الضمير (م) يعود على من يعبدون من دون الله آلهة .

وذِكْرُ من قبلي بل أكثرهم
لا يعلمون الحقَّ فهم مُعْرِضُون ﴾

دلت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد ، ووجوبِ إقامة الحجة والدليل .

ودلَّت الآية على توحيد المعبود ، ودلَّت الآية على إثبات الكسب للعبيد ؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللومُ والعَتْبُ[1] . وكلُّ مَنْ عَلَّقَ قلبه بمخلوقٍ ، أو تَوَهَّمَ من غير الله حصولَ شيء فقد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإلهَ مَنْ يصحُّ منه الإيجاد .

قوله : « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » : الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحق ، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوحدانية .

ثم قال : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » إنما عَدِموا العِلْمَ لإعراضهم عن النظر ، ولو وضعوا النظرَ موضعَه لَوَجَبَ لهم العلم لا محالة ، والأمرَ يدل على وجوب النظر ، وأنَّ العلومَ الدينية كُلَّها كسبية[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِن قَبْلِكَ مِن رسولٍ
إلا نُوحِي إليه أنه لا إله إلَّا أنا
فاعبدونِ ﴾

التوحيدُ في كل شريعة واحدٌ ، والتعبدُ ـ على من أرسل إليه الرسول ـ واجبٌ ، ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضةٌ ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصول إليه فلا يجوز في ذلك النسخُ والتبديل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمنُ وَلَدًا سبحانه
بل عِبَادٌ مُكْرَمُون ﴾

في الآية رخصةٌ في ذِكْرِ أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الردِّ عليهم ، وكَشْفِ

---

(١) هذا رأى على جانب خطير من الأهمية في علم الكلام ، وصدوره عن باحث صوفي يعرف أن المريد — على الحقيقة — من لا إرادة له يزيد في أهمية الأمر .

(٢) في هذا رد على من يتهمون الصوفية بإنكارهم للعلم .

عوراتهم ، والتنبيهِ على مواضع خطاياهم ، وأنَّه إنْ وَسْوَسَ الشيطانَ إلى أحدٍ بشيءٍ منه كان في ذلك حجةٌ للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسبقونه بالقولِ وهم بأمره يعملون ﴾

أخبر أن الملائكةَ معصومون عن مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يُقَصِّرون في واجبٍ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يَشْفَعُون إلا لِمَن ارتضى وهم مِّن خَشْيَتِه مُشْفِقون ﴾

عِلْمُه القديمُ — سبحانه — لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : « لا يشفعون إلا لمن ارتضى » دلَّ على أنهم يشفعون لقومٍ ، وأنَّ الله يتقبل شفاعتهم(١) .

قوله : « وهم من خشيته مشفقون » : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يَجُزْ أن يُعذِّب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زَلّةً (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَقُلْ منهم إني إلهٌ من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين ﴾

أخبر أنهم مُعْرِضُون عن الزَّلَّةِ بكلِّ وجهٍ . ثم قال : « ومن يقل منهم إني إله من دونه »

---

(١) أي أن القشيري يؤمن بالشفاعة — على عكس بعض فرق المتكلمين الذين يشكرونها .

(٢) هذا رأي آخر له أهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المعتزلة — وقد سموا أنفسهم أهل العدل — أن الله لايعذب البريء .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولـكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فالحق — سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أولم يَرَ الذين كفروا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقًا فَفَتَقْناهما ﴾

دَاخَلَتْهُم الشبهةُ فى إعادة الخلْقِ والقيامةِ والنَّشْرِ ، فأقام اللهُ الحجةَ عليهم بأن قال : أليسوا قد عَلِمُوا أنه خلَق السموات والأرض ؛ سَمَكَ السماء وبَسَطَ الأرضَ . فإذا قدر على ذلك فـكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا من الْمَاء كلَّ شىء حىٍّ أفلا يؤمنون ﴾

كُلُّ شىء مخلوقٍ حىٌّ فَمِنَ الماء خَلْقُه ، فإنَّ أصلَ الحيوان الذى حَصَلَ بالتناسل النطفةُ ، وهى من جملة المـاء .

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء ، وحياة القلوب بماء الرحمة ، وحياة الأسرار بماء التعظيم . وأقوام حياتُهم بماء الحياء . . وعزيزٌ هُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسِيَ أن تميد بهم ﴾

الأولياء هم الرواسى فى الأرض وبهم[1] يُرْزَقون ، وبهم يُدْفَع عنهم البلاء ، وبهم يُوفَّى عليهم العطاءُ . وكما أنه لولا الجبالُ الرواسى لم تـكن للأرض أوتادٌ . . فـكذلك الشيوخ الذين هم أوتادُ الأرضِ (فلولاهم) لَنَزَلَتْ بهم الشدة .

﴿ وجعلنا فيها فِجَاجًا سُبُلاً لعلهم يهتدون ﴾

كما أن فى الأرض سُبُلاً يسلـكونها ليَصِلُوا إلى مقاصِدِهم كذلك جعل السُّبُلَ إليه

(١) الضمير فى (بهم) يعود على الخلق ، ولم يكن القشيرى بحاجة إلى ذكر (الخلق) هنا لـكثرة ما أعاد فى هذا الموضوع من قبل .

مسلوكة بما بيّن على ألسنتهم من هداية المريدين ، وقيادة السالكين ، كما يسّر بهداهم الاقتداء بهم فى سيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا السماءَ سَقْفًا محفوظاً وهم عن آياتِها مُعْرِضُونَ ﴾ .

فى ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . . كذلك للنفوس أراضٍ هى مساكن الطاعاتِ ، وفى سماء القلوب نجومُ العقل وأقمارُ العلم وشموسُ التوحيد والعرفان . وكما جُعِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جَعَلَ من المعارفِ رجوماً للشياطين . وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آياتِ القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لايكاد يعرفها إلا الخواص

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ .

كما أن الحق – سبحانه — فى الظاهر يكوِّر الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ فى نهارِ البسط ليلَ القبض . والبسط فى الزيادة والنقصان . فكما أنَّ الشمسَ أبداً فى برجها لا تزيد ولاتنقص ، والقمرَ مرةً فى المحاق ، ومرةً فى الإشراق . . . فصاحبُ التوحيدِ بنعت التمكين — يرتقى عن حَدِّ تأمُّلِ البرهان إلى رَوْحِ البيان ، ثم هو متحققٌ بما هو كالعيان . وصاحبُ العِلْمِ مرةً يُرَدُّ إلى تجديد نَظَرِه وتَذَكُّرِه ، ومرةً يغشاه غَيْرٌ فى حال غفلته فهو صاحب تلوين(1) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا لِبَشَرٍ مِّن قبلِك الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون ﴾ .

إنك فى هذه الدنيا عابرُ سبيلٍ ، لكننا لم نتركك فرداً فى الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه فى الغار : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ! » .

---

(1) فأهل التمكين كالشمس فى ثباتها ، وأهل التلوين كالقمر في تدرجه وتغير أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قوم ؛ لقومٍ انتهاء مدة الاشتياق ، ولآخرين افتتاح باب الفراق ، لقومٍ وقوع فتنتهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هُزُوًا أهذا الذى يَذْكُرُ آلهتكم وهم بذِكْرِ الرحمنِ هم كافرون ﴾ .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رقّاه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين ، ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريرته ، وعاينوا منه جسمه وصورته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سأريكم آياتى فلا تَسْتَعْجِلون ﴾ .

العَجَلَةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودةٌ ؛ فالمسارعة البِدارُ إلى الشيء فى أول وقته ، والعَجَلَةُ استقباله قبل وقته ، والعجلةُ نتيجةُ وسوسة الشيطان ، والمسارعةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم ، فاستعجلوا حصولَ ما توعدوهم به . ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم ، فالفَزَعُ يَدُلُّ على استعجالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكُفُّون عن وجوههم النارَ . . . ﴾ .

. . . لأمسكوا اليوم عن الانخراط فى عِذاب[1] الظنون ، والاغترار بمواعيد الشيطان .

---

(١) ضبطناها (عذاب) بكسر العين لتكون جمع (عذب) فقد غرهم ما هيأت لهم الظنون فاستعذبوها .

قوله جل ذكره : ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم
فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾

العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنكى وأشد . وسنةُ الله فى الانتقام أن يثير ريحَ البغتة فى حال الانغماس فى النعْمة والمنّة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك
فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به
يستهزئون ﴾ .

تسلية له ، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ، أى عن قريبٍ ستجدون وَبالَ ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن يكلؤكم بالليل والنهار
مِنَ الرحمن . . . ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم ، وقد جرّبوا ذلك فى أحوال محنتهم ، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء ، ومما ليس منه نَفْعٌ ولا ضرٌ ؟ وفى ذلك تنبيهٌ للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعى النفع والدفع من الله عز وجل ، فالواجبُ دوامُ اعتكافهم بقلوبهم بعقوة كَرَمِهِ وجُودِه .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ . .

بسط القول وكرره فى تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات ، وأصنامُهم التى عبدوها من تلك الجملة ، ولم يَزِدْ منهم — على تكرار هذه الألفاظ — إلاَّ عجزٌ وانقطاعُ قولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ بل متّعْنا هؤلاءِ وآباءَهم حتى طال
عليهم العُمُرُ أفلا يَرَوْن أنّا نأتى
الأرضَ ننقُصُها من أطرافِها أفَهُم
الغَالبون ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوعاً بالعصمة كان مكراً واستدراجاً ،

وزيادةً في العقوبة . والحقُّ كما يعاقِبُ بالآلام والأهوال يعاقِب بالإملاء والإمهال .

وقال : أفلا يرون أنا نأتى الأرض . . . » تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ للصفوة ؛ فيتعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان ، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذى فيه ذهاب الايمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل . وفى هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل] : (١)

آخِرُ الأمر ماتَرَى القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل :

طوى العصران(٢) ما نَشَرَاه منى وأبلى جِدتى نَشْرٌ وطىٌّ

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى — مع النقصان — شىٌّ

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أُنذِرُكُم بالوحى ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدعاء إذا ما يُنذَرون ﴾

أى بأمرِ اللهِ أُعلِمكُم بموضع المخافة ، ويُوحَى إلىَّ فى بابكم أنْ أُخَوِّفَكُم بأليم عقابه ، ولكنَّ الذى عَدِمَ سَمْعَ التوفيقِ . . أنى ينفعه تكرارُ الأمرِ بالقبول عليه ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ من عذابِ ربك ليقولُنَّ يا ويلنا إنَّا كنا ظالمين ﴾

أى إنهم لا يصبرون على أقلِّ شىءٍ من العقوبة ؛ وإنَّ الحقَّ إذا شاء أنْ يؤلِمَ أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامةِ

---

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ في نقله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكان آخر من « الفرقان » .

(٢) العصران : الغداة والعشى ، أو الليل والنهار .

فلا تظلم نفس شيئا وإن كان
مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أَتَيْنا بها
وكَفَى بنا حاسِبِين ﴾

توزن الأعمالُ بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقبَل ، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقبَل ، وتوزن الأنفاسُ بميزان (. . .)[1] فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقبَل .

ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم ، وينتقم الضعيفُ من القوى .

ويقال ما كان لغير الله لا يَصْلُح للقبول .

ويقال يكافَأُ كلاًّ بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عبادَه فى دنياه لا يَرْحَمُهُ اللهُ ، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومَنْ ظلم غيره كوفِئ بما يليق بسوء فعله .

قوله : « فلا تظلم نفس شيئا » : أى يُجازِى المظلومين وينتقم من الظالمين ، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة ، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقدار فسيلقى جزاءه ، ويجد عوَضَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارونَ الفُرْقَانَ
وضياء وذِكْراً للمتقين ﴾

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنُّور ، والُحجَّةِ والبرهان يشاركهم المستجيبون من أُمَمِهم فى الاستبصار به . . .

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى الاستبصار بنور اليقين .

و « المُتَّقِي » هو المُجَانِبُ لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقى أسبابَ الحجاب وموجِباتها .

---

(١) نرى انه قد حدث سقوط للفظة فى هذا المكان ، ولابد انها بمعنى الخلوص لله والتجرد من كل العلائق ، وربما كانت أيضاً (الحقوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيبِ وهم مِّنَ السَّاعةِ مُشْفِقُون ﴾

صار لهم فى استحقاق هذه البصائرِ والخشيةِ بالغيب إطراقُ السريرة ، وفى أوان الحضور استشعارُ الوَجَلِ من جريان سوء الأدب ، والحذَرُ من أنْ يبدوَ من الغيبِ من خفايا التقدير ما يوجِبُ حجبة العبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للعامة ، وخوفُ قيام الساعة التى هى قيامة هؤلاء القوم[1] ؛ فإنَّ ما يستأهل الكافة فى الحشر مُعَجَّلٌ لهم فى الوقت من تقريبٍ ومن تبعيد ، ومن مَحْوٍ ومن إثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مبارَكٌ أنزلناه أفأنتم له مُنكِرُون ﴾

وَصَفَ القرآنَ بأنه « مبارك » ، وهو إخبارٌ عن دَوَامِه[2] ، من قولهم : بَرَكَ الطائرُ على الماءِ أى دَامَ .

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه ؛ وما لا ابتداء له — وهو كلامه القديم — فلا انتهاء للكتاب الدالِّ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه مِن قَبْلُ وكُنَّا به عالمين ﴾

أراد به ما تعرَّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأُفول[3] ، لولا أنَّه خَصَّه فى الابتداء بالتعريف . . وإلاَّ متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خَلْقِهِ لولا ما أضاء[4] عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر فى المخلوق ؟

ويقال هو ما كاشَفَ به رُوحَهُ قبل إبداعها من تجلِّى الحقيقة .

---

(1) اى أرباب الأحوال

(2) وردت (بيانه) وآثرنا — طبقاً للسياق — أن نجعلها (دوامه)

(3) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : « إنى لا أحب الآفلين » .

(4) (أضاء) مقبولة فى السياق ولكننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (أفاء) أى (أنعم) .

قوله جل ذكره ﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيلُ
التى أنتم لها عاكفون ﴾

خاطَبَ قومه وأباه[1] ببيان التنبيه طمعاً فى استفاقتهم من سَكْرَةِ الغفلة ، ورجوعهم من ظلمة[2] الغلظة ، وخروجهم من ضيق الشُّبْهَة .

ثم سأل اللهَ إعانَتَهم بطلب الهداية لهم . فلمَّا تَبَيَّن له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم يُصِرُّون تَبَرَّأ منهم أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا وَجَدْنَا آباءنا لها عابدين * قال
لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلالٍ مبين
قالوا أجِئْتَنَا بالحقِّ أمْ أنت مِنَ
اللاعبين ﴾

ما استروحوا فى الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحُكْمُ بالتسوية بينهم وبين آبائهم فى الضلال ، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا : « أجِئْتَنَا بالحقِّ أمْ أنت من اللاعبين ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال :

﴿ قال بل ربُّكم ربُّ السموات والأرضِ
الذى فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم مِنَ
الشاهدين ﴾

فأحالهم على النظر والاستدلال والتعرُّف[3] من حيث أدلة العقول[4] لأنَّ إثباتَ الصانع

(١) وردت (وأتاه) والصواب أن تكون (أباه) كما فى الآية .
(٢) وردت فى (ظلمة) وفى م (ظل) والصواب أن تكون (ظلمة) فالقشيرى يستعمل الظل للعناية وما فى معناها .
(٣) فى ص (والتعريف) وفى م (التعرف) ونحن نرجح هذه .
(٤) فى ص (القبول) ونحن نرجح (العقول) لتلاؤمها مع السياق .

لا يُعْرَفُ بالمعجزاتُ ، وإنما للمعجزاتُ علم بصدق الأنبياء عليهم السلام ، وذلك فرع لمعرفة الصانع .

ثم بيّن لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة ، ثم إنه لم يَحْفِلْ بما يُصيبه من البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّدُ بالإبداع ، فلا أحدَ يملك له[1] ضراً من دون الله ، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا :

﴿قالوا مَن فَعَلَ هذا بآلِهتنا إنه لَمِنَ الظالمين * قالوا سَمِعْنَا فَتيً يَذْكُرُهم يُقَالُ له إبراهيم﴾

أى يذكرهم بالسوء . ويحتمل أن يكون مَنْ فعله . . فاسألوه ، فسألوه[2] فقال : بل فَعَلَه كبيرُهم .

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه ؟ وكيف تحيلنا فى السؤال عليه — وهو جماد ؟

فقال : وكيف تستجيزون عبادة ما هو جمادٌ لا يدفع عن نَفْسِه السوء ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ثم نُكِسُوا على رُءوسهم لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء يَنْطِقُون﴾

فقال : شرٌ وأمرّ[3] . . كيف تستحق أمثالُ هذه . . العبادةَ ؟ !

فلمَّا تَوَجَّهَتْ الحجةُ عليهم ولم يكن لهم جواب دَاخَلَتْهم الأَنفَةُ والحمية فقالوا : سبيلنا أنْ نقتله شرَّ قِتلة ، وأنْ نعامِلَه بما يخوفنا به من النار . فقالوا : « ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم » ، فلما رموه فى النار :

﴿ قلنا يانارُ كونى بَرْدًا وسلاماً على إبراهيم ﴾

---

(١) الضمير فى (فسألوه) يعود على ابراهيم عليه السلام .

(٢) أى أن فى الكلام كما يقول البلاغيون — إيجاز حذف .

(٣) أى هذا عذر أقبح من الذنب .

لو عصَمَهُ من نار(١) نمرود ولم يمكنه مِنْ رَمْيه فى النار من المنجنيق لكان ـ فى الظاهر ـ أقرب من النصرْ، ولكنَّ حفظَه فى النار من غير أنْ يمسّهُ ألَمٌ أتمُّ فى باب النصرة والمعجزة والكرامة .

ويقال إن ابراهيم — عليه السلام — كان كثيراً ما يقول : أواه من النار !

قال تعالى : « إن ابراهيم لأوّاه حليم »(٢)

فلمّا رُمِىَ فى النار، وجعل اللهُ عليه النارَ بَرْداً قيل له : لا تقلْ بعد هذا . أواه من النار! فالاستعاذةُ بالله مِنَ الله . . لا مِنْ غيره .

قوله : « وسلاماً » : أى وسلامةً عليه وله ، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنارُ والبَرْدُ عنده سِيان .

ويقال إن الذى يحرق فى النار مَنْ فى النار يقدر على حِفْظه فى النار .

ولمّا سَلِمَ قلبُهُ من غير الله بكل وجهٍ فى الاستنصار(٣) والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شىء بكلِّ وجهٍ . . . تعرَّض له جبريلُ — عليه السلام — فى الهواء وقد رمى من المنجنيق وقال له :

هل مِنْ حاجة ؟

فقال : أمّا إليكَ . . فلا !

فجعل اللهُ النار عليه برداً وسلاماً ، إذ لمّا كان سليمَ القلبِ من الأغيار وَجد سلامةَ النَّفْسِ من البلايا والأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرادوا به كَيْدًا فجعلناهم الأخسَرين ﴾

مَنْ حَفَرَ لأوليائه وقع فيما حَفَرَ ، ومَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقامَ منه سوى الله .

---

(١) فى م (يد) نمرود وكلاهما مقبول فى السياق .

(٢) آية ١١٤ سورة التوبة .

(٣) هكذا فى م وهى أصح من (الاستبصار) فى ص لانسجام (الاستنصار) مع (الاستعانة) .

قوله جل ذكره : ﴿ ونجَّيْناه ولوطاً إلى الأرضِ التى
باركْنا فيها للعالمين ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ فى أنبيائه ـ عليهم السلام ـ أنه إذا نجَّى منهم واحداً أشرك معه مَنْ كان مُسَاهِماً له فى ضُرِّه ومُقَاساةِ مشقته .

قوله جل ذكره : ﴿ ووَهَبْنا له إسحاقَ ويعقوب نافِلَةً
وكُلاً جعلنا صالحين ﴾

مَنَّ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابِداً لله ، ذاكراً له ، فإنَّ مفاخِرَ الأبناء مناقِبُ للآباء ، كما أنَّ مناقبَ الآباءِ شرفٌ للأبناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلناهم أئِمَّةً يَهْدُون بأمْرِنا
وأوحينا إليهم فعْلَ الخيراتِ وإقامَ
الصلاةِ وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا
عابدين ﴾

الإمامُ مُقَدَّمُ القوم ، واستحقاقُ رتبةِ الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التى فى الأمة فيه ، فَمَنْ لم تتجمعْ فيه مُتَفَرِّقاتُ الخِصالِ المحمودةِ لم يستحقْ منزلةَ الإمامة .

قوله جل ذكره ﴿ ولوطاً آتيناه حُكْماً وعِلْماً ونجَّيْناه من
القريةِ التى كانت تَعْمَلُ الخبائِثَ إنهم
كانوا قَوْمَ سَوءٍ فاسِقِين ﴾

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مِثْلِ ما امْتُحِنَ به قومُه ، ثم بخلاصِه منهم بإخراجه إيَّاه مِنْ بينهم ، فميزه عنهم ظاهرا وباطنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وأدخلناه فى رَحْمَتِنا إنه مِنَ
الصالحين ﴾

بيَّن أنه أدخله فى رحمته ثم قال : « إنه من الصالحين » ؛ فلا محالة مَنْ أدخله فى رحمته كان صالحاً .

وقوله : « وأدخلناه فى رحمتنا » إخبارٌ عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » : إخبار عن عين الفرق(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ونوحاً إذ نادىٰ مِن قَبْلُ فاستجبنا له فَنَجَّيْنَاه وأهلَه مِنَ الكَرْبِ العظيم ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبوا بآياتنا إنَّهم كانوا قومَ سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾

كان نوح ـ عليه السلام ـ أطولَهم عمراً ، وأكثرهم بلاءً . ففى القصة أنه كان يُضْرَبُ سبعين مرةً ، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول . لاتقبل قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته . وكان نوح ـ عليه السلام ـ يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوهم إلى الله ، فلمَّا أيِسَ من إيمانهم ، وأُوحِىَ إليه : « أنه لن يؤْمِنْ من قومك إلا من قد آمن » (٢) دعا عليهم فقال : « ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً »(٣) فقال تعالى : « ونوحاً إذ نادى من قبل . . . . » فأُزْهِقَ الشِّرْكُ وأُغْرِقَ أهلُه .

قوله جل ذكره ﴿وداودَوسليمانَ إذْ يَحْكُمَانِ فى الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القومِ وكُنَّا لِحُكْمِهِم شاهدين * فَفَهَّمْنَاها سُلَيْمانَ وكُلًّا آتينا حُكْماً وعِلْماً﴾

● سورة الكهف . . . .

● سورة مريم . . . .

● سورة طه .

أشركهم فى حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . ففى مسألة واحدة أثبت لسليمان ـ عليه السلام ـ بها خصوصية ؛ إذ مَنَّ عليه بقوله : « ففهمناها سليمان » ولم يَمُنْ عليه بشىء من المُلْكِ الذى أعطاه بمثل ما مَنَّ عليه بذلك ، وفى هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين ـ وإنْ اختلفوا ـ إذا كان اختلافُهم فى فروع الدِّين ؛ حيث قال : « وكلاً آتينا

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته ـ سبحانه ، وصلاح العبد فيه شىء من كسب العبد .

(٢) آية ٣٦ سورة هود .

(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً » ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلّقٌ بقوله : « ففهمناها سليمان »(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنا مع داود الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطيْرَ وكُنّا فاعلين ﴾

أمَرَ الجبالَ وسَخَّرها لتساعدَ داودَ — عليه السلام — فى التسبيح ، ففى الأثر : كان داود — عليه السلام — يمرُّ وصُفَّاحُ(٢) الجبالِ تجاوبه ، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَلَّمْنَاه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكم لِتُحْصِنَكُمْ مِن بَأسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾

سخَّر الله — سبحانه — لداود الحديد وألانه فى يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى : « وألَنَّا له الحديد » ليتحصن من السهام فى الحروب ، قال تعالى : « وقدِّر فى السَّرد » وأحْكِمْ الصنعةَ وأوثِقْ المسامير . . ولكن لما قصدته سِهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقَتَه حين نظر إلى امرأة أوريا — من غير قصدٍ — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نَفْسه بابَ البيت ، وأخذ يصلى ساعةً ، ويقرأ التوراة مرةً ، والزبور أخرى ، حتى يمضى وينتهى ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أُوحِيَ إليه أنَّه يومُ فتنةٍ ، فأمَرَ الحُجّابَ والبواب ألا يؤْذَنَ عليه أحدٌ ، فوَقَعَ مِنْ كَوَّةِ البيتِ طيرٌ لم يَرَ مِثْلَه

---

(١) هذا رأى القشيرى فى (الاجتهاد) ومداه ، وبجدر الاهتمام به إذا شئنا أن نبحث فى « أصول الفقه عند الصوفية » .

(٢) صفاح جمع صفح ، وصفح الشيء عرضه (مقاييس اللغة ج٣ ص ٢٩٣) .

ويقول القرطبى (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحاً ، والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير) ويضيف القرطبى شيئاً هاماً بالنسبة للتفسير الصوفى : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ، ولهذا قال : « وسخرنا » أى جعلناها بحيث تطيعه) .

«الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٣١٩»

وبهذه المناسبة نود أن نستدرك شيئاً لم نشر إليه فى مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبى كثيراً ما يستفيد من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من القشيرى ، وهو فى معظم الأحيان عبد الرحمن القشيرى أحد أبناء المصنف .

فى الحُسن ، فهَمّ أنْ يأخذه ، فتَباعَدَ ولم يَطِرْ كالمُطْمِع له فى أَخْذِه ، فلم يَزَلْ يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوَّةِ البيت ، فتبعه داودُ ينظر إليه من السكوة من ورائه ، فوقع بصرُه على امرأة أوريا ، وكانت قد تجرَّدَتْ من ثيابها تغتسلُ فى بستانٍ خَلْفَ البيتِ الذى به داود ، فحصَلَ فى قلبه ما حصل ، وأصاب سَهْمُ التقدير حدَقَتَه ، ولم تَنْفَعْه صَنْعَةُ اللَّبوسِ التى كان تعلَّمها لِتُحَصِّنَه مِنْ بأسِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولِسُليمان الريحَ عاصِفَةً تجرى بأمره
إلى الأرضِ التى باركنا فيها وكُنَّا
بكل شىء عالِمين ﴾

سخَّر اللهُ له الريحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحُها شَهْرٌ ، ولو أراد أن يزيد فى قَدْرِ مسافتها شِبْراً لما استطاع ، تعريفاً بأنه موقوفٌ على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أُكْرِمَ به من التسخير ، ولقد نَبَّه — سبحانه — من حيث الإشارة أن الذى مَلَكَه سليمان كالريح إذا مرَّ وفات ، أو أنه لا يَبْقَى باليدِ منه شىء(١) .

وفى القصة أنه لاحَظَ ذلك يوماً فمالت الريح بِبِسَاطِه قليلاً ، فقال سليمانُ للريحِ : استو .

فقالت له الريح : استو أنت . أى إنما مَيْلِى بِبِسَاطِكَ لميلك بقلبك بملاحظتك ، فإذا استويتَ أنتَ استويتُ أنا(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الشياطينِ مَن يَغُوصُون له
ويَعْمَلُون عَمَلًا دونَ ذلك وكُنَّا لهم
حافظين ﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل فى الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعودَ إلى مكانه فجاءه مَلَكُ الموتِ فطالَبَه بروحه ، فقال : إلىَّ حين أرجع إلى مكانى .

فقال له : لا وجهَ للتأخير ، وقبَضَه وهو قائم يتكئُ على عصاه وبقى بحالته ، ولم تعلم الجنُّ ،

---

(١) فهو كما قيل : باطل وقبض الريح .
(٢) فى ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بأنه إذا تغيرت أو تعذرت الأمور فالسبب كامن فى نفوسهم .

إلى أنْ أكَلَتْ دابة الأرضِ — كما فى القصة — عصاه ، فلما خرَّ سليمانُ عَلِمَتْ الشياطينُ بموته ، وتحققوا أنَّ الذى بالعصا قيامُهُ نَقَهَرُ الموت يلحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأيوبَ إذْ نادىٰ ربَّه أنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وأنت أرْحَمُ الراحمين ﴾

أى واذكر أيوبَ(١) حين نادى ربَّه . وسُمِّىَ أيوب لكثرة إيابه إلى الله فى جميع أحواله فى السرَّاء والضرَّاء ، والشدَّة والرَّخاء .

ولم يَقُلْ : ارحمنى ، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال : « وأنت أرحم الراحمين » .

ومن علامات الولاية أن يكونَ العبدُ محفوظاً عليه وقتُه فى أوانِ البلاء .

ويقال إخبارُه عنه أنه قال : « مسنى الضر » لم يَسْلُبْهُ اسمَ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : « إنا وجدناه صابراً » لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبر ، فنادِرُ قالتِه لم يَسْلُبْ عنه الغالِبَ من حالته . والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ ، أو الإيمانُ بالله فهو الذى يستغرقُ جميعَ أوقاته ، ولا يخلو منه لحظةً ، ونادِرُ زلاَّتِهِ — مع دائمِ إيمانِه — لا يُزَاحِمُ الوصفَ الغالب .

ويقال ، لمَّا لم يكن قوله : مسنى الضُرُّ على وجه الاعتراض على التقدير — بل كان على وجه إظهار العجز — فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر .

ويقال استخرج منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتَنَفَّسٌ للضعفاء فى هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا فى حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر « أنى مسنى الضرُّ » الذى تَخُصُّ به أولياءك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لمَا خصصتنى بهذا ، ولكن برحمتك أهَّلتنى لهذا .

---

(١) فى تقديرنا أن ما كتبه القشيرى فى هذا الموضع عن أيوب عليه السلام من أجمل ما كتب فى هذا الموضوع سواء من الناحية الأدبية أو من الناحية الإشارية .

ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوب ولـكنه استغاثةُ البلاء منه ، فلم يُطِقْ البلاء صُحْبَتَه فضج منه البلاء لا أيوبُ ضَجَّ من البلاء . . وفى معناه أنشدوا .

صابَرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبراً

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة ، ومعناه : أيمسنى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال « وتلك نعمة تمنها علىَّ »(1) أى أتلك نعمة تمنها علىَّ أن عبدت بنى إسرائيل ؟

ويقال إن جبريلَ — عليه السلام — أتى أيوبَ فقال : لِمَ تسكت ؟ فقال : ماذا أصنع ؟ فقال : إنَّ اللهَ سيان عنده بلاؤك وشفاؤك . . . فاسألْ اللهَ العافيةَ فقال أيوب : إنى مسنى الضُّر ، فقال تعالى : « فكشفنا مابه من ضُرٍّ » والفاء تقتضى التعقيب ، فكأنه قال : فعافيناه فى الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبتَ العافيةَ قبل هذا لاستَجَبْنَا لك .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على موضعها ، فعقرته عقرةً عِيلَ صَبْرُه فقال : مسنى الضر ، فقيل له : يا أيوب : أتصبر معنا ؟ لولا أنى ضربتُ تحتَ كل شَعْرَةٍ من شعراتك كذاخيمة من الصبر . . ما صَبَرْتَ ساعة !

ويقال كانت الدوداتُ التى تأكل منه أكلت ما عَلاَ بَدَنَه ، فلم يَبْقَ منه إلا لسانُه وقلبه ، فصعدت دودة إلى لسانه ، وأخرى إلى قلبه فقال :

« مسنى الضرُّ » . . . فلم يَبْقَ لى إلا لسانٌ به أذكرك ، أو قلبٌ به أعرفك ، وإذ لم يَبْقَ لى ذلك فلا يمكننى أن أعيشَ وأصبر !

ويقال استعجمت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً . . . وكذلك كانت صحبته(2) .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سَلْ العافية فقال :

عِشْتُ فى النِّعَم سبعين سنة فحتى يأتى علىَّ سبعون سنة فى البلاء . . وعندئذٍ أسألُ اللهَ العافيةَ !

---

(1) آية ٢٢ سورة الشعراء .

(2) أى وهكذا كانت صحبة الحق لوليه دائماً .

وقيل لمَّا كَشَفَ اللهُ عنه البلاء قيل له : ما أشدُّ ما لقيتَ فى أيام البلاء ؟ فقال شماتة الأعداء.

وفى القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم ، وحرّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان لكَ عند الله منزلة لَمَا ابتلاكَ بكل هذا البلاء !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجُه ، وكانت من أولاد يوسف النبى عليه السلام ، فهى التى بقيت معه وكانت تخدمه وتتعهده .

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب — عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسنى الضرُّ لمَّا قال لها الشيطان : إنْ أردتِ أنْ يَشْفَى مريضُكِ فاسجدى لى ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها فى صورة إنسان ، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ : « مَسَّنِيَ الضرُّ » .

ويقال لمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومُهُ وقالوا لها : أخْرِجِى هذا المريضَ من قريتنا ، فإننا نخاف العَدْوَى وأنْ يَمَسَّنَا بلاؤه ، وأنْ تُعْدَى إلينا عِلَّتُه ، فأخْرَجَتْهُ إلى باب القرية فقالوا : إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارُنا عليه ، فنتشاءم به ، فأبْعِديه عن أبصارنا ، فحملَتْهُ إلى أرض قَفْرٍ ، وكانت تدخل البلد ، وتُسْتَأْجَرُ للخَبْزِ والعملِ فى الدور ، فتأخذ الأجرةَ وتحملها إليه ، فلما عَلِموا أنَّها امرأتُه استقذروها ولم يستعملوها .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ، فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن شعرها جُزَّ فى ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أنْ يَجْلِدَها إذا صحَّ حَدْسُه ، وكانت المحنةُ على قلب تلك المرأة أشَدَّ مما على بَدَنِ أيوب من كل المحن .

وقيل إن امرأتَه غابَتْ ودخلَتْ البلدَ ، فعافى اللهُ أيوبَ عليه السلام ، وعاد شاباً طرياً كما قال فى قصته قوله : « اركض برِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب »[1] . فلما رجعت

(١) آية ٤٢ سورة ص

امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ ، فأخذت تبكي وتولول ، فقال لها أيوب — وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — مالَكِ يا امرأة ؟

قالت : كان لي ها هنا مريض فَفَقَدْته . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذي تطلبينه !

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال : إنَ اردتَ العافيةَ فاسجُدْ لي سجدةً ، فقال : « مسني الضُّرُّ » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مُكَاشَفاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فكان لا يُحِسُّ بالبلاء ، فَستَرَ عليه مرةً ، وردَّه إليه ، فقال : مَسَّني الضرُّ(1) .

ويقال أُدْخِلَ على أيوب تلك الحالةَ ، واستخرج منه هذه المقالةَ ليظهر عليه إقامة العبودية .

ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أنّ هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قبلَكَ فما اخْتَرْتُه إلا لَكَ ، فلمَّا أراد كَشْفَهَ عنه قال : مَسَّني الضرُّ !

وقيل كوشف بمعنيً من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ البلاء فقال : مَسَّنِيَ الضرُّ لِفَقْدِي أَلَم الضُّرِّ .

وقال جعفر الصادق : حَبَسَ عنه الوحيَ أربعين يوماً فقال : مسني الضرُّ لِمَا لِحقَه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّتَه ليقوم بحقِّ الطاعة .

ويقال طلب الزيادةَ في الرضا فاستُجِيبَ له بكَشْفِ ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضرَّ الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية ، وبلينه كانت ببقيته ، فَلَمَّا أُخِذَ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال « فكشفنا ما به من ضُرٍّ » وكانت نَفْسُه ضُرَّه ، ورَدَّ عليه السلامةَ والعافيةَ والأملَ — في الظاهر — لمَّا صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُنَقَّىً عن كل بقية ، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية ، والوجود والفقد .

---

(1) أي ان العبد الواله لايحس بنفسه وهو في حال الجمع ، ويحس بها وهو في حال الفرق . وقد حكى القشيري في الرسالة أن بعضهم قطعت رجله حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر ، بينما آلمت بعضهم قلة . . وهو في حال الفرق .

قوله جل ذكره : ﴿ وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾

أى واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : « كل من الصابرين » ، ثم قال :

﴿ وأَدْخَلْنَاهم فى رحمتنا إنَّهم مِّنَ الصالحين ﴾

بيَّنَ الْحُكْمَ والمعنى ؛ الحكمُ صبرُهم وصلاحُهم ، والمعنى إدخالُه إياهم فى الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وذا النونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أن لَّن نقدِرَ عليه فنادىٰ فى الظُّلُمَاتِ أن لَّا إلَهَ إلاَّ أنتَ سبحانك إنى كنتُ من الظالمين ﴾

« مغاضبا » : على مَلِكِ وقته حيث اختاره للنبوة ، وسأله : لِمَ اخترتَني ؟ فقال : لقد أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيٍّ : أنْ قُلْ لفلانٍ المَلِكِ حتى يختار واحداً لِيُرْسَلَ إلى نينوى بالرسالة . فَثَقُلَ على ذى النون لما اختارَه المَلِكُ ؛ لأنه علِمَ أن النبوةَ مقرونةٌ بالبلاء ، فكان غضبُه عليه لذلك(١) .

ويقال مغاضباً على قومه لَمَّا امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أى شديدَ المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفيه .

« فظنَّ أنْ لن نقدر عليه » أى أنْ لن نُضَيِّقَ عليه(٢) بطن الحوت ، من قوله : « وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقه »(٣) أى ضَيَّق .

---

(١) عن ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك حزقيا أن يبعثا يونس إلى ملك نينوى الذى كان قد غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ؛ وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة الى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبى ، وقد أوحى لشعيا: ان قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا من بنى اسرائيل إلى أهل نينوى .. فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال : لا ، قال : فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء ، فألحوا عليه .. فخرج مغاضبا للنبى وللملك وقومه ، حتى أتى بحر الروم .. وكان من قصته ما كان ، وابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا .. قال تعالى « فالتقمه الحوت وهو مليم »

(٢) (أن لن نضيق عليه) مفقودة فى ص وموجودة فى م والسياق يقتضى وجودها .

(٣) آية ١٦ سورة الفجر

ويقال فظنَّ أن لن تقدر عليه من حَبْسِهِ فى بَطْنِ الحوت .

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ بأنَّ الله يُعَذِّب قومَهُ ، وخرج بأهله .

ويقال إن السبعَ افترس أهله فى الطريق ، وأخذ النَّمِرُ ابنا صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنَهُ الآخَرَ ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجُه ، وأشرفَتْ السفينةُ على الغرق ، وأخذ الناسُ فى إلقاء الأمتعة فى البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الغَرَقِ ، فقال لهم يونس : لا تُلْقُوا أَمْتِعَتَكُمْ فى البحر بل اطرحونى فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا . فنظروا إليه وقالوا : نرى عليكَ سيماء الصلاح ، وليست تسمح نفوسُنا بإلقائك فى البحر ، فقال تعالى مخبرا عنه : « فساهم فكان من المدحضين »(1) أى فقارعهم ، فاستهموا ، فوقعت القُرْعَةُ عليه .

وفى القصة أنه أتى حَرْفَ السفينة ، وكان الحوتُ فاغراً فاه ، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لَمَّا عَلِمَ أنه مُرَادٌ بالبلاء ألقى نَفْسَه فى الماء فابتلعه الحوت « وهو مليم » : أى أتى بما يُلام عليه ، قال تعالى : « فالتقمه الحوتُ وهو مليم »(2) .

وأوحى الله إلى السمك : لا تخدِشْ منه لَحْماً ولا تكْسِرْ منه عَظْماً ، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك . فَبَقِيَ فى بطنه ـ كما فى القصة ـ أربعين يوماً .

وقيل إن السمك الذى ابتلعه أُمِرَ بأن يطوف فى البحر ، (وخلق الله له إدراك ما فى البحر)(3) ، وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . . فما ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبَدَه ـ سبحانه ـ سبعين سنة ، ولازم قلبه محبته ومعرفته طولَ عمره . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يُظَنُّ بكَرَمِهِ ذلك !

« فنادى فى الظلمات . . . » يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ـ هذا بيان

---

(1) آية ١٤١ سورة الصافات

(2) آية ١٤٢ سورة الصافات

(3) موجودة فى م ومفقودة فى ص

التفسير ، ويحتمل[1] أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستَجَبْنا له ونَجَّيْنَاه من الغمِّ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾

استجبنا له ولم يَجْرِ منه دعاء ؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .

ثم قال : « ونجيناه من الغمِّ . . . » يعنى : كُلُّ مَنْ قال من المؤمنين — إذا أصابه غمٌّ ، أو استقبله مُهِمٌّ — مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون .

قوله جل ذكره : ﴿ وزكريا إذْ نادىٰ ربَّه ربِّ لا تَذَرْنى فَرْدًا وأنت خيرُ الوارثين ﴾

سأل الوَلَدَ ، وإنما سأله ليكون له مُعِينًا على عبادةِ ربِّه وليقوم فى النبوة مقامَه ، ولئلا تنقطعَ بركةُ الرسالة من بيته[2] ، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قَطْعَه بالمنشار ، ولما التجأ إلى شجرة انشقت له وتَوَسَّطَها ، والتأمت الشجرة ، وفطنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفى الظاهر كان حفظًا له منهم ، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته ، ولعلهم — لو قتلوه — لم يُصِبْه من الألم القدْرُ الذى لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته ، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة ، فَقَوِى بذلك يقينُه لما رأى عجيبَ الأمر فيه من نَقْضِ العادة[3] ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ، ولقد قال قائلهم : « إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى » .

---

(1) هذا النوع من الظلمات — وهو المرتبط بالنفس — متوقع صدوره عن مفسر صوفى ملم بأحوال النفس .

(2) أى أنه لم يسأل الولد لحظ نفسه بل لحق ربه ، وهذه بشرى إجابة الدعاء .

(3) أى أن المعجزة ليست فقط من أجل القوم الذين فيهم النبى بل فى حسابها تثبيت قلب النبى وترسيخ يقينه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستَجَبْنَا له ووَهَبْنَا له يحيى وأَصْلَحْنَا له زوجَه إنَّهم كانوا يُسارِعون فى الخيراتِ ويَدْعُونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾

سمى يحيى لأنه حَيِيَ به عقر أمه .

وقوله : « وأصلحنا له زوجه » : لتكون الكرامةُ لهم جميعًا بالولد ، ولئلا يستبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها . . وهذه سُنَّةُ الله فى باب إكرام أوليائه ، وفى معناه أنشدوا :

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا مَنْ كان يألفهم فى المنزل الخشن

ثم قال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا . . . » وفى هذا بشارة لجميع المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر[1] ، ولو لم تكن رهبة لكان أمنًا والأمن كفر[2] .

قوله : « وكانوا لنا خاشعين » الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ ، وكان لهم ذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيها من رُوحنا وجعلْنَاهَا وابنَهَا آيةً للعالَمين ﴾ .

يعنى مريم ، وقد نَفَى عنها سِمَةَ الفحشاء وهجنة الدم .

ويقال فنفخنا فيها من روحنا ، وكان النفخُ من جبريل عليه السلام ، ولكن لمَّا كان بأمره — سبحانه — صَحَّتْ الإضافةُ إليه ، وفى هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإنزال مَلَكٍ فتَصِحُّ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص . كقوله : (ناقة الله ، وبيتى) . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آيةً للعالمين) : ولم يقل آيتين

(١) قال تعالى : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ٥٦ الحجر .
(٢) قال تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ٩٩ الأعراف

لأن أمرهما كان معجزة ودلالة ، ويصح أنْ يراد أنَّ كلَّ واحدٍ منهما آيةٌ — على طريقة العَرب فى أمثال هذا .

وفيه نفى لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم !

قوله (آية للعالمين) : وإنْ لم يهتد بهما جميعُ الناس . . لكنهما كانا آيةً . ومَنْ نَظَرَ فى أمرهما ، ووَضَعَ النظرَ مَوْضِعَه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر فى بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكم أُمةً واحدةً وأنا رَبكُم فاعبدون ﴾ .

أى كلكم خِلْقَتُه ، وكلكم اتفقتم فى الفقر ، وفى الضعف ، وفى الحاجة . « وأنا ربكم » : وخالقكم على وصفِ التفرُّد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أمرَهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرَّقَتْ أحوالُهم ، فاستأصلتهم البلايا .

قوله : (كلٌّ إلينا راجعون) : وكيف لا . . . وهم ما يتقلبون إلاَّ فى قبضة التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كُفرانَ لِسَعْيِه وإنا له كاتبون ﴾ .

مَنْ تَعنَّى لله لم يخسر على الله ، ومَنْ تحمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حقُّه (على)[1] الله :قوله : وهو مؤمن) بعد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمنا لا يكون عمله صالحا فقائدة قوله هاهنا : (وهو مؤمن) فى المآل والعاقبة ، فقد يعمل الأعمالَ الصالحة من لا يُختَمُ له بالسعادة ، فيكون فى الحال مؤمنا وعملُه يكون على الوجه الذى آمن ثم لا ثواب له ، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُه .

(١) نرجح أنها فى الأصل (من) لأن القشيرى فى مواضع شتى عارض أى وجوب (على) الله . . وطالما أوضحنا ذلك فى الهوامش .

قوله جل ذكره : ﴿ وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنَّهم لا يَرْجِعون ﴾ .

أى لا نهلك قوماً وإن تمادوا فى العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة تُختَمُ أمورُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ حتَّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم مِّن كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون ﴾ .

أى يحق القولُ عليهم ، ويتم الأجلُ المضروبُ لهم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى القَدْرِ المعلومِ فى التقدير لا تحصلُ نجاةُ الناسِ من شرِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هى شاخِصةٌ أبصارُ الذين كفروا يا ويْلَنَا قد كُنَّا فى غَفْلَةٍ من هذا بل كُنَّا ظالمين ﴾ .

تأخذهم القيامةُ بغتةً ، وتظهر أشراطُ الساعة فجأةً ، ويُقِرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم، ولكن فى وقتٍ لا تُقْبَلُ فيه مَعْذِرتُهم ، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّكم وما تعبدون مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّمَ أنتم لها واردون ﴾ .

« وما تعبدون من دونِ الله » : أى الأصنام التى عبدوها ، ولم تدخل فى الخطاب الملائكة التى عبدها قومٌ ، ولا عيسى وإنْ عَبَدَه قومٌ لأنه قال :

« إنكم وما تعبدون » ولم يقلْ إنكم ومن تعبدون[1] . فيُحْشَرُ الكافرون فى النار ، وتُحْشَرُ أصنامُهم معهم . والأصنامُ جماداتٌ فلا جُرْمَ لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه على جهة براءة ساحتها ، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ إلا جماداتٌ .

---

(١) لأن (ما) اسم موصول لغير العاقل و (من) اسم موصول للعاقل .

﴿ لو كان هؤلاء آلِهَةً ما وَرَدُوها
وكلٌّ فيها خالدون ﴾ .

القوم قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »(١) فعَلِمُوا أن الأصنامَ جماداتُ ، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وأنَّ مَنْ عبدها يَقْرُبُ بعبادتها من الله ، فَيُبَيِّنُ اللهُ لهم — غداً — بأنَّها لو كانت تستحق العبادة ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَا أُلْقِيَتْ فى النار ، ولَمَا أُحْرِقَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فيها زَفِيرٌ وهم فيها لا يسمعون ﴾

« لهم » : أى لِعَبَدَةِ الأصنام ، « فيها » أى فى النار ، « زفير » لحسرتهم على ما فاتهم ، « وهم فيها لا يسمعون » مِنْ نداءٍ يبشرهم بانقضاء عقوبتهم .

وبعكس أحوالهم عُصَاة المسلمين(٢) فى النـار فَهُمْ ـ وإنْ عُذِّبوا حيناً ـ فإنهم يسمعون قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرهم يوماً بانقضاء عذابهم — وإنْ كان بعد مدة مديدة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين سَبَقَتْ لهم مِنَّا الْحُسْنى
أولئك عنها مُبْعَدُون ﴾

« سبقت لهم منا الحسنى » : أى الكلمة بالحسنى ، والمشيئة والإرادة بالحسنى ، لأن الحسنى فعله ، وقوله : « سبقت » إخبار عن قِدَمِه ، والذى كان لهم فى القدمِ هو الكلمة التى هى صفة تَعَلَّقَتْ بهم فى معنى الإخْبار بالسعادة .

ثم قال : « أولئك عنها مُبْعَدُونَ » أى عن النار ، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ العالِمُون أن المدارَ على التقدير ، وسَابِقِ الحُكْمِ من الله ، لا على تَبَاعُدِ العبد أو بتَقَرُّبه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسمعون حَسِيسَها وهم فيما اشْتَهَتْ
أنفُسُهُم خالدون ﴾

---

(١) آية ٣ سورة (الزمر)

(٢) تسمى هذه فى علم الكلام : المنزلة بين المنزلتين وهى التى بين المؤمن والكافر ، وليست عقوبة هؤلاء — كما هو شأن الكفار — على التأبيد .. كما يرى القشيرى .

يدل ذلك على أنهم لا يُعَذَّبون فيها بكل وجهٍ . والمراد منه العِبادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم .

« وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » : مقيمين لا يبرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ وتتلقَّاهمُ الملائكةُ هذا يومُكُم الذى كنتم تُوعَدُون ﴾

قيل الفزَعُ الأكبرُ قول المَلَكِ : « لا بشرَى يومئذٍ للمجرمين »(١)

ويقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون »(٢)

ويقال إذا قيل : يا أهلَ الجنةِ . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً لا موت فيه !

وقيل إذا : « قال اخسئوا فيها ولا تُكلِّمُونِ »(٣)

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتتلقاهم الملائكة » يقال لهم هذا يومكم الذى كنتم وُعِدْتُم فيه بالثواب ؛ فمنهم مَنْ يتلقَّاه المَلَكُ ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عليه الخطاب والتعريف من المَلِكِ(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ نطوى السماء كَطَىِّ السِّجِلِ لِلكُتُبِ كَمَا بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُه وَعْداً علينا إنَّا كُنَّا فاعلين ﴾

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها ، والأرضُ كانت فِراشاً إذ كانوا عليها ، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم . . على العادة فيما بين الخَلْق من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب .

---

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان
(٢) آية ٥٩ سورة يس
(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .
(٤) أى من الله سبحانه — وهؤلاء هم صفوة الأحبار .

ويقال نطوى السماء التى إليها عَرَجَت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تشهدَ عليهم بالإجرام ، وتُبَدَّلُ الأرضُ التى عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .

أو نطوى السماء لنُقَرِّبَ قَطْعَ المسافاتِ على الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد كَتَبْنا فى الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذكر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصالحون﴾

« الذكر » هنا هو التوراة ، و « كَتَبَ » : أى أخبر وحَكَمَ ، و « الصالحون » أمة محمد – صلى الله عليه وسلم : أنَّ « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾

أمَّا مَنْ أسلم قَبِلَكَ ينجون ، وأمَّا مَنْ كَفَرَ فلا نعذبهم مادُمْتَ فيهم ؛ فأنت رحمة مِنَّا على الخلائق أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إنَّما يوحَىٰ إلىَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحِدٌ فهل أنتم مُسْلِمُون﴾

واحدٌ فى ذاته ، واحدٌ فى صفاته ، واحدٌ فى أفعاله ، واحد بلا قسيم ، واحد بلا شبيه ، واحدٌ بلا شريك .

« فهل أنتم مسلمون ؟ » مخلصون في عقد التوحيد بالتبرِّى عن كلِّ غيرٍ فى حسبان صَلَاحِيَّتِهِ للألوهية ؟

قوله جل ذكره : ﴿فإن تَوَلَّوا فَقُلْ آذَنْتُكم على سَوَاءٍ وإنْ أدْرِيَ أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدُون﴾

إنْ أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ : إنى بالالتزام أعلمتُكم ، ولكن للإكرام ما ألهمتكم ، فتَوَجَّهَتْ عليكم الحجة واستبهمَتْ عليكم المحجة .

قوله : « وإن أدرى أقريب أم بعيد . . » إنَّ علمى متقاصِرٌ عن تفصيل أحوالكم فى مآلِكم ، ووقت ما توعدون به فى القيامة من تحصيل أهوالكم ، ولكنَّ حُكْمَ اللهِ غيرُ مستأخِرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القولِ ويعلم ما تكْتُمون ﴾

لا يخفى عليه سِرُّكم ونجواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم . . فعلى قَدْرِ استحقاقكم يُجازيكم ، وبموجِب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ أدْرِى لَعلَّه فِتْنَةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين ﴾

ليس بحيط عِلْمى (إلا)(1) بما يُعلِمُنى ، وإعْلامُه إياى ليس باختيارى ، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادى وإيثارى .

قوله جل ذكره ﴿ قال رَبِّ احْكُمْ بالحقِّ وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تَصِفُون ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامةً لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التى يذكر فيها « الحج »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

سماعُ « بسم الله » يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماع « الرحمن الرحيم » يوجب الأنس والقربة ، وذلك وقت صحوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو فى سِلْكٍ واحد .

سماعُ « بسم الله » يوجِب انزعاجَ القلوب وعنده يحصل داء جنونهم(2) ، وسماعُ « الرحمن

(1) سقطت (إلا) فى ص وموجودة فى م .

(2) ليس الجنون والفتون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يتبادر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل والوله فى المحبوب ، وهذه هى المرة الأولى التى تصادف فيها هاتين اللفظتين فى مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (مجنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهيم ومتيم) [انظر التحبير فى التذكير ص ٦٢] .

الرحيم » يوجِب ابتهاجَ القلوبِ وبه يحصل شفاءُ فتونهم ، فعودة فتونهم فى لطف جماله كما أن موجب جنونهم فى كشف جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَأَيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شئ عظيم ﴾

« يأيها الناس » نداء علامة ، و « يأيها الذين آمنوا » نداء كرامة ، وبكلٍّ واحدٍ من القسمين يفتتح الحقُّ خطابه فى السُّوَر ؛ وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرةً ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هى التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فَرْضٌ ، وتجنب الفضلات والشواغل ــ وإن كان من جملة المباحات ــ نَفْلٌ ، فثوابُ الأول أكثر ولكنه مؤجل ، وثوابُ النَّفْلِ أقلُّ ولكنه مُعَجَّل(1) .

ويقال خوَّفهم بقوله : « اتقوا » . ثم سكَّن ما بهم من الخوف بقوله : « ربكم » فإنَّ سماعَ الربوبية يوجِبُ الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله : « إن زلزلة السَّاعةِ شيء عظيم » : وتسمية المعدوم « شيئاً » توسُّعٌ ؛ بدليل أنه ليس فى العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظِ يقتضيه ، وكذلك القول فى تسميته « شيئاً » هو توسُّع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكارَىٰ وما هم بِسُكارَىٰ ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ﴾

لكلٍ ذلك اليومَ شُغْلٌ يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناسَ سكارى أى من هَوْلِ ذلك

= ومن المفيد أن نسوق نصاً لإحدى المجانين :

معشر الناس ما جنلت ولكن أنا سكرانة وقلبى صاح
أنا مفتونة بحب حبيب لست أبغى عن بابه من براح

(الروض الفائق ص ٣٦٢) وكتابنا (نشأة التصوف الإسلامى ط المعارف ص ١٧٨ .

(1) هذا أصل يضاف إلى أصول الفقه الصوفى عند القشيرى .

اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال فى القيامة وأهوالها غالبة . وكأنهم سكارى وما هم فى الحقيقة بسكارى ، ولكن عذابَ اللهِ شديد ، ولشِدَّتِهِ يحيرهم ولا يبقيهم على أحوالهم . وهم يتفقون فى تشابههم بأنهم سُكَارَى ، ولكنَّ موجِبَ ذلك يختلف ؛ فمنهم مَنْ سُكْرُه لِمَا يُصيبه من الأهوال ، ومنهم من سُكْرُه لاستهلاكه فى عين الوصال .

كذلك فَسُكْرُهم اليومَ مختلفٌ ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب ، ومنهم من سكره سكر المحاب . . وشتَّان بين سُكْرٍ وسُكْرٍ ! سُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الغفلة ، وسُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الوصلة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يُجادِلُ فى اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ويتَّبِع كلَّ شيطانٍ مَّرِيدٍ ﴾

المجادلةُ لله — مع أعداء الحق وجاحدى الدِّين — من موجِبات القربة ، والمجادلة فى الله ، والمماراة مع أوليائه ، والإصرارُ على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان بوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليه أنَّه مَن تولَّاه فأنَّه يُضِلُّه ويَهْدِيه إلى عذابِ السعيرِ ﴾

مَنْ وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلاَّ إلى الضلال ، ثم إنه فى الآخرة يتبرأ من موافقته، ويلعن جملةَ مُشَيِّعيه . فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم مِّن ترابٍ ثم من نطفة ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ ما نشاء إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثم نُخْرِجُكم طِفلاً . . . ﴾

---

(١) حديث القشيرى فى (السكر) هنا مفيد عند دراسة هذا المصطلح .

التبس عليهم جواز (بعثه الخَلْق)[1] واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتجَّ عليهم فى ذلك بما قطع حجتهم ، فَمَنْ تبِعَ هُدَاه رَشِدَ ، ومَنْ أَصَرَّ على غَيِّه تَرَدَّى فى مهواة هلاكه .

واحتجَّ عليهم فى جواز البعث بما أقروا به فى الابتداء أن الله خَلَقَهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ؛ فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها . . . إلى أنْ نَقَلَهم من حال شبابهم إلى زمان شَيْبهم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتجَّ أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — فى حال الربيع — بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه فى الربيع من الخضرة والحياة . والذى يَقْدِرُ على هذه الأشياء يقدر على خَلْق الحياة فى الرِّمة البالية والعظام النخرة .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجبة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعى للحظوظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة فى زمان المشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة فى منازل العصيان .

ويقال أرذل العمر التعريج فى (أوطان)[2] المذلة .

ويقال أرذل العمر العِشْرةُ مع الأضداد .

ويقال أرذل العمر (عيشُ)[3] المرء بحيث لا يُعْرَفُ قَدْرُه .

ويقال أرذل العمر بأن يُوكَل إلى نَفْسِه .

ويقال أرذل العمر التطوح فى أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس ، والعَمَى عن شهود تقدير الحق .

---

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (بعثهم الحق) ونرجح الأولى إذ الذين استبعدوه أن يبعث الله واحداً من الخلق .

(٢) هكذا فى م وهى غير موجودة فى ص .

(٣) فى م (عيش) المرء وفى ص (حبس) المرء . وقد رجحنا (عيش) على معنى أن الله يمنحه من العمر ما لا يكون خلاله تقدير من الخلق له .

قوله جل ذكره: ﴿ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنه يُحْيِى الموتى وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾

الله هو الحقُّ، والحق المطلق الوجود[1]، وهو الحق أى ذو الحق.

«وأنه يحيى الموتى» أى الأرض التى أصابتها وَحشَةُ الشتاء[2] يحييها وقتَ الربيع.

ويقال يحيي النفوسَ بتوفيق العبادات، ويحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات.

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم.

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر، ثم بجميلِ الرضا وسكونِ الجأش عند جريان التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿ومِنَ الناسِ مَن يجادِل فى اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ منيرٍ﴾

دليل الخطاب يقتضى جواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه، قال سبحانه لنبيِّه: «وجادِلْهم بالتى هى أحسن» ومَنْ لم يُحْسِنْ مذهبَ الخصْمِ وما يتعلق به من الشُبَهِ لم يمكنه الانفصال عن شُبْهَتِهِ، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء[3] منهم، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول[4]، وفى هذا ردٌ على مَنْ جَحَدَ ذلك.

قوله جل ذكره ﴿ثانِيَ عِطفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيلِ اللهِ

---

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أى مصنف للقشيرى، ونحن نعطيها أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود، فهم يعتبرون الوجود المطلق للحق وما عدا موجوده نسبي متكثر متعدد، وهذا لا بأس به، ولكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة. ونظن أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية «فتعالى الله الملك الحق» من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه «التحبير فى التذكير».

(٢) هكذا فى م ولكنها فى ص (الشقاء) بالقاف ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود المقابلة بين الربيع و (الشتاء).

(٣) هكذا فى م ولكنها فى ص (إلا قوماً).

(٤) فى هذا وفيما بعده رد على من يتهمون الصوفية بمجافاتهم للعلم، وعدم احترامهم للعقل، كما أن فيه رداً على قضية أثارها بعض المتكلمين حول وجوب أو عدم وجوب تعلم المسلم أصول التوحيد كى يصح إيمانه، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم.

له فى الدنيا خِزْىٌ ونُذِيقُهُ يوم
القيامة عذابَ الحريق ﴾

يريد أنه متكبِّر عن قبول الحق ، زاهِدٌ فى التحصيل ، غيرُ واضعٍ نظره موضعه ؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلُّص من شُبْهته .

ثم قال : « له فى الدنيا خزى » أى مذلة وهوان ، وفى الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يعبد اللهَ على حَرْفٍ
فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن
أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِرَ
الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران
المبينُ ﴾

يعنى يكون على جانبٍ ، غير مخلص . . . لا له استجابة توجب الوفاق ، ولا جَحْداً يبين الشقاق ؛ فإنْ أصابه أَمْنٌ وخير ولِينٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه ، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة ارتدَّ على عقبيه ناكسا ، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكسا . ومَنْ كانت هذه صفته فقد خسر فى الدارين ، وأخفق فى المنزلتين .

قوله جل ذكره : ﴿ يدعو مِن دونِ اللهِ مالا يَضرُّه
وما لا ينفعه ذلك هو الضلالُ
البعيد * يدعو لَمَن ضَرُّه أقْرَبُ
من نفعِهِ لَبِئْسَ المَوْلَى ولَبِئْسَ
العشيرُ ﴾

أى يعبدُ مَنْ المضَرَّةُ فى عبادتِهِ أكثرُ من النفْعِ منه ، بل ليس فى عبادته النفع بحال ، فالضرُّ المُتَيَقَّنُ فى عِبادتهم الأصنامَ هو بيانُ ركاكةِ عقولِهم ، ورؤيةُ الناسِ خطأَ فِعلِهم . والنفع الذى يتوهمونه فى هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبئس المولى ولبئس العشير » : أى لبئس الناصرُ الصَّنَمُ لهم ، ولبئس القومُ هم للصنم ، ولِمَ لا . ؟ ولأَجْلِهِ وقعوا فى عقوبة الأبد .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا
الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِن تحتها
الأنهارُ إِنَّ اللَّهَ يفعل ما يريدُ ﴾

« الذين آمنوا » : أى صَدَّقُوا ثم حقَّقُوا ؛ فالإيمانُ ظاهِرُه التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (انتسام)(1) الحق فى السِّرِّ .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، ففى الحال يجب الإيمان وفى المآل يوجب الأمان ، فمُعَجَّلُ الإيمان من (. . .)(2) المسلمين ، ومؤجَّلُه الخلاصُ من صحبة الكافرين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذى تعلَّق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة ؛ فالمُؤَجَّلَة ثواب وتوبة ، والمعَجَّلَة أحوالٌ وقربة ، قال تعالى : « ولِمَنْ خاف مقام ربِّه جنتان »(3) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَه اللَّهُ
فى الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ
إلى السماء ثم ليقطَعْ فلينظُرْ هل
يُذْهِبَنَّ كَيْدُه ما يَغيظ ﴾

أى أنَّ الحقَّ — سبحانه — يرغم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لم تَطِبْ

---

(1) فى م (إبتسام) وفى ص (انتسام) ، ونحن نفضل هذه على تلك على أنها صيغة (انفعال) من (تنسم) فلان العلم أو الخبر أى تلطف فى التماسه حتى تبينه وتبعه .

(2) فى م (سيف) وفى ص (سلف) ونحن نؤثر الأولى إذ أن الذى يؤمن يأمن — فى الحال — من بطش المسلمين الذين أمروا بقتال أعدائهم جهاداً فى سبيل إعلاء كلمة الإيمان .

(3) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسُهُ بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتلْ نَفْسَه من الغيظ خَنْقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إنْ كنتَ لا ترضى بما قد ترى فدونَكَ الحبْلَ به فاْخنق

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه آياتٍ بيِّنَاتٍ وأنَّ الله يهدى مَن يريد ﴾

« آيات بينات » : أى دلالات وعلامات نَصَبَهَا الحقُّ سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهو قضية العقل ، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل ، ومنها ما هو تعريفات فى أوقات المعاملات(١) فما يجده العبد فى حالاته من انغلاقٍ ، واشتدادِ قبضٍ ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لا شكَّ ولا مرية إذا أخَلَّ بواجبٍ أو ألَمَّ بمحظور(٢) . أو تكون زيادة بَسْطٍ أو حلاوة طاعة ، أو تيسير عسيرٍ من الأمور ، أو تجدد إنعامٍ عند حصول شىءٍ من طاعاته .

ثم قد يكون آيات فى الأسرار ، هى خطابُ الحقِّ ومحادثةٌ معه ، كما فى الخبر :

« لقد كان فى الأمم مُحَدَّثون فإن يك فى أمتى فعمر »(٣)

ثم يقال الآيات ظاهرةٌ ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فيمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئين والنصارىٰ والمجوسَ والذين أشركوا إنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهم يومَ القيامةِ إنَّ الله على كلِّ شىءٍ شهيدٌ ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولىُّ والعدوُّ ، والموحِّد والجاحد يُجْمَعُون يومَ الحشر ، ثم الحقُّ — سبحانه — يعامِلُ كلاً بما وَعَدَه ، إما بوصالٍ بلا مَدَى ، أو بأحوالٍ

(١) يمكن القول إن هذه هى المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوفى) ومنها يتضح اهتمام القشيرى بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من العرفان نتيجة المجاهدات .

(٢) فإن الاثم ما حاك فى صدرك . . كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) وهى التى يطلق عليها القشيرى (الفراسة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقتُ واحد ؛ وكلٌّ واحدٍ لما أُعِدَّ له وافد ، وعلى ما خُلِقَ له وارد ..

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ له مَن فى السَّمٰوَاتِ وَمَن فى الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجِبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ مِّنَ الناسِ وكثيرٌ حَقَّ عليه العذابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ من مُّكْرِمٍ إنَّ اللهَ يفعل ما يشاء ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة ، وأربابُ الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة .

وفى كل شىءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحِدُ

قوله جل ذكره : ﴿ هذان خَصْمان اختصموا فى ربِّهم فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبُّ من فوقِ رُءوسِهم الحميم ﴾

أما الذين كفروا فلهم اليومَ لباسُ الشِّرْكِ وطِرازُه الحرمان ، ثم صدار الإفك وطرازه الخذلان . وفى الآخرة لباسهم القطران وطرازه الهجران ، قال تعـالى : « اخسئوا فيها ولا تـكلمونِ » .

أمَّا أصحابُ الإيمانِ فلِباسُهم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشِّرْكِ ثم مجانبة المخالفة ، ثم مباينة الغفلة ، ثم مجانبةُ السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله . وفى الآخرةِ لِباسُهم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ، وآخرون هم أصحاب التجريد ؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محلَّ وهم الغُرَبَاء(١) ، وهم الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِقِّ كل ما لَحِقهُ التكوين .

---

(١) يقول ابن الجلاء فى تعريف الصوفى : فقير مجرد عن الأسباب ، كان مع الله بلا مكان ، ولا يمنعه الحق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١٤٠) ويقول الحصرى . « الصوفى لا تقله أرض ولا تظله سماء » الرسالة (الصفحة ذاتها) .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنُوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذَهَبٍ ولؤلؤاً ولِبَاسُهم فيهاحريرٌ ﴾

التحلية تحصينٌ لهم ، وسترٌ لأحوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم بالجنة زينة :

وإذا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وجوهٍ كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنَا

قوله جل ذكره : ﴿ وهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وهُدُوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾

الطيبُ من القول ماصَدَر عن قلبٍ خالصٍ ، وسِرٍّ صافٍ (مما يَرْضَى به علم التوحيد ، فهو الذى لا اعتراض عليه للأصول)(١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين ، ويقال الطيبُ من القول هو إرشاد المريدين إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ ويُرْجَى(٢) .

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً(٣) وهو مُسْتَنْطَقٌ .

---

(١) هكذا فى ص ولا فرق بين العبارة فى س ، م إلا أنها جاءت فى الأخيرة (مما رضى به . . .) والمقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغى ألا تتعارض مع أقوال أرباب أصول التوحيد؛ لأن الحقيقة لا تعارض الشريعة فى شىء . فالضمير (فهو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والسر الصافى .

(٢) أى عند صاحب سلطان ، وقد عرف الصوفية بشجاعتهم الرائعة فى مواجهة أصحاب الأمر والنهى من الحكام وغيرهم .

(٣) هكذا فى ص أما فى م فهى (مفقوداً) وعلى الأول يكون المعنى أن قوله مسموح به — ظاهرياً — حيث لا يستشنع فى الباطن ، وعلى الثانى : أى يكون قائله فى حال الفقد فهو لا ينطق بنفسه بل بالله .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد برىء من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « ربنّا ظلمنا أنفسنا »(1) .

ويقال أنْ تَدْعُوَ للسلمين بما لا يكون لكَ فيه نصيب .

وأمّا « صراط الحميد » : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى المسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ الذين كفروا ويَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ الذى جعلناه للناسِ سَوَاء العاكِفُ فيه والبادِ ومَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ نُذِقْهُ من عذابٍ أليمٍ ﴾ .

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، وبغَصْبِ المال الذى لو بقى فى يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء العاكف فيه والبادى(2) » وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكِرَام يستوى فيه الإقدام ، فَمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيبَ ولا ردٌّ ، وبعد الوصول فلا زَجْرَ ولا صدٌّ ، أمّا فى الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر ؛ قال تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين »(3) ولكن فى الوصول فلا تفاوتَ ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوسُ فالموضع الواحد يجمعهم ، ولكنْ لكلٍّ حالٌ ينفرد بها .

---

(1) آية ٢٣ سورة الأعراف .

(2) البادى = غير المقيم .

(3) آية ٢٤ سورة الحجر .

قوله جل ذكره: ﴿ وإذ بَوَّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ ألاَّ تُشْرِكْ بي شيئًا وطَهِّرْ بَيْتِيَ للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

أصلحنا له مكانَ البيت ومَكَّنَّاه منه، وأرشدناه له، وهديناه إليه، وأعنَّاه عليه، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة فى زمن طوفان نوح عليه السلام، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله « ألا تشرك بى شيئًا » ، أى لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءك له .

« وطهر بيتى . . » يعنى الكعبة ـ وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فَرِّغْ قلبَكَ عن الأشياء كلِّها سوى ذِكْرِه ـ سبحانه .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرِّغ لى بيتًا أسكنه ، فقال ذلك الرسول : إلهىُ . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن » . والمراد منه ذكر الله تعالى ، فالإشارة فيه أن يفَرِّغ قلبه لذكر الله . وتفريغ القلب على أقسام : أوله من الغفلة ثم مِنْ توهُّم شيء من الحدثان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيتى » : أى قلبكَ عن التطلع والاختيار ، بألا يكون لك عند الله حظٌّ فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية .

« ويقال طهِّرْ بيتى » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطلعِ إكرامٍ، أو تطلُّبِ إنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طَهِّرْ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والقائمين » وهى الأشياء المقيمة من مستودعات(١) العرفان فى القلب من الأمور المُنْبِيةِ عن البرهان ،

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (مستوطنات) .

ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعيان كما في الخبر : « كأنك تراه » .(١)

« والركع السجود » : هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة ، والرجاء والمخافة والقبض والبسط ، وفي معناه أنشدوا :

لست من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلبَ بيتَه والمقاما
وطوافي إجالةُ السرِّ فيه ... وهو ركنى إذا أردتُ استلاما

قوله : « لا تُشْرِكْ بِي شيئاً » : لا تلاحظ البيتَ ولا بِنَاءكَ(٢) للبيت .

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربِّ البيت .

قوله جل ذكره : ﴿وأَذِّن في الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجَالاً وعلى كلِّ ضَامرٍ يأتين مِن كل فَجٍّ عميقٍ﴾

أَذَّن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى ، وأسمع اللهُ نداءه جميعَ الذرية في أصلابِ آبائهم ، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج .

وقدَّم الرَّجالةَ على الركبان لأنَّ الحَمْلَ على المركوب أكثر(٣) .

ولتلك الجِمالِ على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب ، وفي قريبٍ من معناه أنشدوا :

وإنَّ جِمالاً قد علاها جَمَالُكُم ... - وإن قُطِّعَتْ أكبادنا - لحبائب

ويقال « يأتين من كل فجٍّ عميقٍ » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .

وكم قَدْرُ مسافةِ الدنيا بجملتها ! ؟ ولكنْ لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيمِ صنيعهم يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه .

---

(١) إشارة إلى الحديث (أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموتى) .
الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسن السيوطي سنده ، ورواه البيهقي عن معاذ . وفي الحلية (أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك . . .) .

(٢) هكذا في م أما في ص فقد وردت (ولا تبال) ونحن نرجح ما جاء في م .

(٣) فتقديم الرجالة فيه تخصيص نظراً لما يبذلونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لهم ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالُهم ، وأرباب الأعمال منافعُهم حلاوةُ طاعتهم ، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاء أنفاسهم ، وأهلُ التوحيد منافعهم رضاهم باختيارِ الحقِّ ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويذكروا اسمَ اللهِ في أيامٍ معلوماتٍ[1] على ما رَزَقَهم من بهيمةِ الأنعام ﴾

لأقوامٍ عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هَدْيهم[2] . وآخرون يذكرون اسمه عند ذَبْحِهم أمانيهم واختيارهم بسكاكينِ اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بِمَحْوِ ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِنْها وأَطْعِمُوا البائِسَ الفقير ﴾ .

شارِكُوا الفقراء في الأكل من ذبيحتكم — الذي ليس بواجب — لتلحقكم بركاتُ الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا[3] ساحةَ الخضوع والتواضعِ ، ومجانبة الزَّهْوِ والتكبُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفوا نُذُورهم ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودَهم ، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم ، فَمَنْ كان عقدُه التوبةَ فوفاؤه ألا يرجعَ إلى العصيان . ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ فَشَرْطُ وفائه تركُ تقصيره . ومن كان عهدُه ألا يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلُّع إكرامٍ فوفاؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق بألا يرجع إلى استعجالِ نصيبٍ واقتضاءِ حظ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولْيَطَّوَّفوا بالبيتِ العتيقِ ﴾

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنَفْسه حولَ البيت ، وبقلبه في ملكوت السماء ، وبِسِرِّه في ساحات الملكوت .

(١) أبو حنيفة : هي عشر ذي الحجة وآخرها يوم النحر . وأكثر المفسرين : هي أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدى إلى الحرم من النعم ، قال تعالى : « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » .

(٣) هكذا في م وفي س (يتركوا) وربما كانت في الأصل ألا يتركوا فهكذا يقتضي السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فهو خيرٌ له عند ربه ﴾

تعظيم الحرمات(1) بتعظيم أمره ، وتعظيمُ أمرِه بِتَرْكِ مخالفته .

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه ، ولا محالةَ سيلقى سريعاً غِبَّهُ(2) .

ويقال تعظيم حرماته بالغيرة على إيمانه (وما فَجَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط(3)) .

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجِبُ الفُرْقة .

ويقال كلُّ شيء من المخالفات فالعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق ، وتَرْكُ الحرمة على خَطَرِ ألا يُغفَر . . وذلك بأن يؤدى ثبوتُه بصاحبه إلى أنْ يختلَّ دِينُه وتوحيدُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُحِلَّتْ لكم الأنعامُ إلاَّ ما يُتْلَىٰ عليكم ﴾ .

فالخنزير من جملة المحرمات ، وكذلك النطيحة والموقوذة ، وما يجىء تفصيله فى نَصِّ الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ .

«مِنْ» ها هنا للجنس لا للتبعيض ، وهوى كلِّ من اتبعه معبودُه ، وصنمُ كلِّ أحدٍ نَفْسُه .

« واجتنبوا قول الزور » : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قولُ القلب ونطقه ، ومَنْ عاهد اللهَ بقلبه ثم لا يفى بذلك فهو من جملة قول الزور .

قوله جل ذكره : ﴿ حُنَفَاءَ لله غيرَ مشركين به ومن

(1) هكذا في م وفى ص (الجهات) ونرجح الأولى حيث وردت فى الآية .
(2) هكذا في م وفى ص (نحبه) ونرجح (غبه) بمعنى عاقبته .
(3) هكذا فى م وفى ص (وما فجر صاحب ظلمة قط) والعبارة الأولى أقرب إلى المعنى .

يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

الحنيف المائلُ إلى الحق عن الباطل فى القلبِ والنَّفْسِ ، فى الجهر وفى السِّرِّ ، فى الأفعال وفى الأحوال وفى الأقوال

« غير مشركين به » : الشِّركُ جَلِيٌّ وخَفِيٌّ [1] .

قوله « ومن يشرك بالله فكأنما ... » كيف لا .. وهو يهوى فى جهنم وتتجاذبه ملائكة العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً فى صفة قوم يقول الله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » [2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً ، وبخواطر الإلهام سِرّاً . وكما لا تجوز مخالفةُ شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنَّ خاطر الحقِّ لا يكذِبُ ، وعزيزٌ مَنْ له عليه وقوف . وكما أنَّ النَّفْسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف القلبُ عَمِيَ فى المستقبل ، وانقطعت عنه تعريفاتُ الحقيقة ، والعبارة [3] والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير . ويقوى القلبُ بتحقيق المنازلة ؛ فإذا خرست النفوسُ ، وزالت هواجسها ، فالقلوبُ تنطق بما تُكاشَفُ به من الأمور .

ومنَ الفَرْقِ بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذى طريقه العلم يعلم صاحبُه أولا ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجرى ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه

---

(١) الشرك الجلى معروف أما الشرك الخفى فهو أن ينازعه منازع فى قلبك من هوى أو حظ أو علاقة تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) فى م و ص (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبارة) بالراء أى أن التعبير عن ذلك بالكلام والشرح قاصر

ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجْرِى عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى مايُجْرَى . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار[١] ، بل يكون مختاراً ولكنَّ سببَه عليه مشكل ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

لكلٍّ من تلك الجملة منفعةٌ بِقَدْرِه وحدِّه[٢] ؛ فلأقوامٍ بركاتٌ فى دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين فى لذاذات بَسطِهم ، ولآخرين فى حلاوة طاعاتهم ، ولآخرين فى أُنس أنفاسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ .

الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : فقومٌ هم أصحاب التضعيف[٣] فيما أوجب عليهم وجعل لهم ، وقومٌ هم أصحاب التخفيف فيما أُلزموا وفيما وُعدَ لهم . قوله « ليذكروا اسم الله على . . » وذكر اسم الله على مارزقهم على أقسام : منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على مارزقهم لمعرفته بأنه هو الذى يتقبل منهم وهو الذى يُثيبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ .

أى استَسلموا لحكمه بلا تعبيسٍ ولا استكراهٍ من داخل القلب .

---

(١) هذه وجهة نظر باحث صوفى فيما يشغل المتكلمين عن الجبر والاختيار .

(٢) أى بحسب ماله من قدر وهمة ، وما هو واقف عنده من حد ورتبة .

(٣) أصحاب التضعيف أى أصحاب التشدد الذين يأبون اتباع الرخص ، لأن الرخص لاتكون إلا لأرباب الحوائج والأشغال وهؤلاء لا حاجة ولا شغل لهم إلا بالحق .

والإسلام(1) يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال، ثم تصفية الأنفاس. «وبشِّرْ المخبتين»: الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة. ومنْ أمارات الإخبات كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع، وذلك بإطراق السريرة.

قوله جل ذكره: ﴿الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم﴾.

الوَجلُ الخوفُ من المخافة، والوَجلُ عند الذكر على أقسام: إما لخوفِ عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم، أو لخروجٍ من الدنيا على غفلةٍ من غير استعدادٍ للموت، أو إصلاحِ أُهْبَةٍ، أو حياءٍ من الله سبحانه فى أمورٍ إذا ذَكَرَ اطلاعه — سبحانه — عليها لمَا بَدَرَت منه تلك الأمور التى هى غير محبوبة.

ويقال الوَجلُ على حسب تجلى الحق للقلب؛ فإن القلوب فى حال المطالعةِ والتجلى تكون بوصف الوجل والهيبة.

ويقال وَجلٌ له سبب ووجل بلا سبب؛ فالأول مخافةٌ من تقصير، والثانى معدودٌ فى جملة الهيبة(2).

ويقال الوَجلُ خوفُ المكْرِ والاستدراج، وَأقربُهم من الله قلباً أكثرُهم من الله — على هذا الوجه — خوفاً.

قوله جل ذكره: ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾.

أى خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراهٍ ولا تمنى خَرْجةٍ، ولا رَوْمِ فُرْجةٍ بل يستَسلِمُ طوعاً:

---

(1) هكذا فى م ولكنها فى ص (السلام) والصواب الأولى فهى الآية (أسلموا).

(2) فالخوف إذن أدنى منزلة من الهيبة، والترتيب هكذا: الخوف والرجاء ثم القبض والبسط ثم الهيبة والأنس (الرسالة ص ٣٥ و ص ٣٦).

ويقال الصابرين على ما أصابهم . أى الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلبون السلوةَ باطلاعِ الخلْق[1] على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف فى محلّ النجوى :

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً   تمنَّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسمَعاً

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رَزَقْناهم يُنْفِقون ﴾

عند المعاملة من أموالهم ، وفى قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير ، فينفقون أبدانَهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبَهم على التسليم والخمود تحت جريان الاحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ والبُدْنَ جعَلْناها لكم من شعائرِ اللهِ لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسمَ اللهِ عليها صَوَافَّ فإذا وجبَتْ جنوبُها فكلُوا منها وأطْعِمُوا القانِعَ وَالمعترَّ كذلك سَخَّرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحَمْل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بِخِلقَتِها كيف سُخِّرتْ للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان فى البروكِ عند الحَمْل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها)[2] وصبرها على العطش فى الأسفار ، وعلى قليل العَلَف ، ثم مافى طَبْعِها من لُطْفِ الطبع ، وحيث تستريح بالحُداء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك .

---

(١) هكذا فى ص ولكنها فى م (باطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يفزعون للخلق طلباً للسلوة فيما يصيبهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من ص .

« فإذا وجبَتْ جنوبُها » : أى سقطت على وجه الأرض فى حال النَّحْرِ فأطعموا القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس ، والمُعْتَرُّ الذى هو فى تَحَمُّله مُتَحَمِّلٌ ، ولمواضِع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا
دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ
كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ
عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لاعِبْرةَ بأعيان الأفعال سواء كانت بدنيةً محضة ، أو ماليةً صِرْفة ، أو بما له تعلُّق بالوجهين ، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص(١) ، فإذا انضافَ إلى أكسابِ الجوارح إخلاصُ القصود ، وتجرَّدَتْ عن ملاحظة أصحابها للأغيارَ صَلُحَتْ للقبول(٢) .

ويقال التقوى شهودُ الحقِّ بنعْتِ التفرُّدِ ، فلا يُشَابُ تقرُّبُكَ بملاحظةِ أحدٍ ، ولا تأخذ عِوَضاً على عملٍ من بَشَرٍ .

« لتكبروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحقِّ العبودية على قضية الشرع .

« وبشر المحسنين » : والإحسان كما فى الخبر : « أن تعبد الله كأنك تراه . . » .

وأمارةُ صحته سقوطُ التعبِ بالقلبِ عن صاحبِهِ ، فلا يستثقلُ شيئاً ، ولا يتبرم بشىء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ ﴾ .

---

(١) يقال إن سبب نزول هذه الآية أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت الآية .

(٢) يرى القشيرى أن هذا جوهر العبادات جميعاً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا عن القشيرى المفسر .

انظر كتابنا (الإمام القشيرى ومذهبه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبى .

يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان ، وعن قلوبهم خطراتِ العصيان ، وعن أرواحهم طوارقَ النسيان .

والخيانةُ على أقسام : خيانةٌ فى الأموال تفصيلها فى المسائل الشرعية ، وخيانة فى الأعمال ، وخيانة فى الأحوال ؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرُّها الإعجابُ ، ثم المساكنةُ وأخفاها الملاحظة[1] .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على)[2] طلب الأعواض ليجدوا فى الآخرة حُسْنَ المآل . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العِوَض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله .

وخيانة العابدين أن يَدَّعُوا شهواتِهم ثم يرجعون إلى الرُّخَص ، فلو صدقوا فى مرامهم لما انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب .

وخيانة المحبين روم فرحة[3] مما يمسهم من برحاء المواجيد ، وابتغاء خرجة مما يَشْتَدُّ عليهم[4] من استيلاء صَدٍّ ، أو غلبات شوقٍ ، أو تمادى أيامِ هَجْرٍ .

وخيانةُ أربابِ التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عِرْقٌ ، ورجوعُهم — بعد امتحائِهم عنهم — إلى شغلية من أحكام الفَرْقِ ، اللهم إلا أن يكونَ ذلك منهم موجوداً ، وهم عنه مفقودون[5] .

---

(١) نلفت النظر إلى أهمية ذلك عند دراسة المصطلح الصوفى ، خاصة وأن القشيرى لم يتكلم عن ذلك فى رسالته .

(٢) (على) طلب الأعواض معناها لأجل طلب الأعواض .

(٣) (روم) فى ص و (روح) فى م ، ونظن أنها (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمل القشيرى (فرجة ، وخرجة) فى سياق مماثل .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص مما (يشق عليهم) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٥) معنى هذا أن القشيرى يسلم بأنه قد يحدث من العبد الواله ما ينبغى أن يعذر فيه ، إن صحّ صدقه فى التوجه ، واشتد وقع المحو عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَ بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ ﴾ .

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسَّهم — ما هو فى الظاهر — ذُلٌّ من الأعادى يجرى عليهم ضَيْمٌ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاءٌ وظلمٌ . . فالحقُّ — سبحانه — ينتقِمُ من أعدائهم لأجْلِهم ، فهم بنعت التسليم والسكون فى أغلب الأحوال ، وتفاصيلُ الأقدارِ جارية باستئصالِ مَنْ يناويهم ، وبإحالة الدائرة على أعاديهم . وفى بعض الأحايين ينصبهم الحقُّ سبحانه بنعت الغَلَبَةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَر ، وتمامِ حصولِ الدائرة على مَنْ نَاصَبَهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواعُ النصرةِ من الله — سبحانه — حاصلة ، واللهُ — فى الجملةِ — غالِبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين أُخْرِجُوا من ديارِهم بغير حقٍ إلاَّ أن يقولوا ربُّنَا اللهُ ﴾

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ حميدُ العقبى ، والظالمُ وشيكُ الانتقام منه بشديد البلوى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا »[1] . وقد يجرى من النَّفْسِ وهواجِسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ وأهلِ القصةِ — ظُلْمٌ ، ويَحْصلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء ، وتستولى غاغَةُ النَّفس ، فتعمل فى القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من[2] طوارق الحقائق وشوارق الأحوال ، كما قال قائلهم :

أنعى إليكَ قلوباً طالما هَطَلَتْ ... سحائبُ الجودِ فيها أبْحُرَ الحِكَمِ

فَيَهْزِمُ الحقُّ — سبحانه — بجنود الإقبالِ أَرَاذِلَ الهواجسِ ، وينصرُ عَسْكَرَ التحقيقِ بأمْدَادِ الكشوفات . ويَتَجَدَّدُ دارسُ العهد ، وتطْلُعُ شموسُ السَّعْدِ فى ليالى الستر ، وتُكْنَسُ القلوبُ وتتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

---

(١) آية ٥٢ سورة النمل .

(٢) (للخراب من طوارق الحقائق) أى بسبب خلوها من طوارق الحقائق

أطلالُ سُعْدَى باللوى تتَجَدَّدُ

فإذا هبَّتْ على تلك القلوب رياحُ العناية ، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صَوْبَ[1] التجلِّى ، وأنبت فيها أزهارَ البَسْط فينضح فيها نهارُ الوَصْلِ ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهم ببعضٍ
لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ
ومَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيهـا اسمُ اللهِ
كثيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن ينصُرُه
إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيزٌ ﴾ .

يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر ، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام .. وتلك سُنَّةٌ أجراها الله لاستنقاء[2] منازل العبادة ، واستصفاء مناهل العرفان . ولا تحويل لِسُنَّتِهِ ، ولا تبديل لكريم عادته .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين إن مكَّنَّاهم فى الأرضِ أقاموا
الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمَرُوا
بالمعروف ونَهَوْا عَنِ المنكرِ ولِلّهِ
عاقبةُ الأمور ﴾ .

إذا طالت بهم المدةُ ، وساعدَهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم فى استجلاب حظوظهم ، ولا فى اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم ، ولكن قاموا بأداء حقوقنا .

وقوله : « أقاموا الصلاة » : فى الظاهر ، واستداموا المواصلات فى الباطن .

---

(١) الصوْب = المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذى (الوسيط) .

(٢) هكذا فى م ولكنها فى س (لاستبقاء) . وقد آثرنا (استنقاء) لملاءمتها (لاستصفاء) التى بعدها ولا نستبعد أنها قد تكون (لاستبقاء) فى الأصل على معنى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لما بقيت منازل العبادة ، لأن الكافرين إذا انتصروا لم يتركوا معابد .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها ؛ فتعلمَ — بين يدى الله — مَنْ أنت ، ومَنْ تناجى ، ومَنْ الرقيب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : « وآتوا الزكاة » : الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم ؛ وفقراؤهم يُؤْتُون زكاةَ أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خمْسة للفقراء والباقى لهم ، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتى نَفَسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نَفَسٍ — من المائتين — لكَ . . وذلك أيضاً عِلّة[1]

قوله « وأَمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر » : يبتدئون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأنفُسِهم ثم بأغيارهم ، فإذا أخذوا فى ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم .

ويقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه إجلالا لِقَدْرِه .

ويقال الأمر بالمعروف على نَفْسك ، ثم إذا فَرَغْتَ من ذلك تاخذ فى نهيها عن المنكر ومنْ وجوهِ المنكرِ الرياء والإعجابُ والمساكنةُ والملاحظةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يُكَذِّبوك فقد كَذَّبَتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ * وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ * وأصحابُ مَدْيَنَ وكُذِّبَ موسىٰ فأمليْتُ للكافرين ثم أخذْتُهم فكيف كان نكير ﴾ .

فى الآيات تسليةٌ للنبى — صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حَتْمٌ عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاءِ وصنوفِ الأسواء[2] .

---

(١) لأنه ينبغى الا تكون لك فى نفسك بقية على الإطلاق ، ويجب أن تكون بكليتك للحق .
(٢) أسواء = جمع سَوء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّن من قريةٍ أهلكناها
وهى ظالمةٌ فهى خاويةٌ على
عُرُوشِها ﴾ .

الظلمُ يوجبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ، فالوحشةُ التى هى غالبةٌ على الظَّلَمَةِ من ضيقِ صدورهم ، وسوء أخلاقهم ، وفرْطِ غيظ مَنْ يَظْلِمُون عليهم . . كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم ، وهو فى الحقيقة من جملة العقوبات التى تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظَّلَمَةِ ربما يتأخر وربما يتعجل . وخرابُ نفوسهم فى تعطلها عن العبادات لِشُؤْم ظُلْمِهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاء الغفلةِ عليهم خصوصاً فى أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم . . نقدٌ[1] غيرمستأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبئرٍ مُعَطَّلةٍ وقصرٍ مَّشِيدٍ ﴾ .

الإشارة فى « بئر معطلة » : إلى العيون المتفجرة التى كانت فى بواطنهم ، وكانوا يستقون منها ، وفى ذلك الاستقاء حياةُ أوقاتِهم من غلبات الإرادة وقوةِ المواجيد ، فإذا اتصفوا بظلمهم غَلَبَ غُثَاؤُها[2] وانقطع ماؤها بانسداد عيونها .

والإشارة فى « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأُنْس ، وخُلُوُّ أرواحهم من أنوار المحابِّ ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أفلَمْ يَسِيروا في الأرضِ فتكونَ
لهم قُلوبٌ يَعْقِلون بها أو آذانٌ
يَسْمَعُون بها فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ
ولكنِ تَعْمَى القلوبُ التى
فى الصدور ﴾

---

(١) (نقد) هنا معناها مُعجَّل ، تقابل (وعد) فى المؤجَّل .

(٢) الغُثَاءُ = الفاسد من الماء ، الممتلىء ببقايا الأشياء من وجه الأرض والرغوة القذرة .

كانت لهم قلوب من حيث الخلقة ، فلمّا زايلتها صفاتُها المحمودةُ صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصمم ، وإذا صحَّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صحَّ وصفه بسائر صفات الحيّ من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدْرِكُ نسيمُ الإقبال بمَشَامِّ السِّرِّ ، وفي الخبر :

« إني لأجد نفَسَ ربكم من قِبَل اليمن » وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : « إني لأجد ريح يوسف »[1] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريحٍ في الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذابِ ولَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَه وإنَّ يوماً عِندَ رَبِّكَ كألفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّون ﴾ .

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهم على استعجال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »[2] ولو آمنوا لصدَّقوا ، ولو صدَّقوا لَسَكَنُوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » : أي إنَّ الأيامَ عنده تتساوى ، إذ لا استعجالَ له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ مَنْ لا يَجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجْرِي الزمانَ فَسَوَاء عليه وجودُ الزمانِ ، وعدم الزمان وقِلة الزمانِ وكَثْرَةُ الزمانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأيِّن من قريةٍ أمْلَيْتُ لها وهي ظالِمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المصيرُ ﴾ :

الإمهال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والإمهال يكون بأنْ يَدَعَ الظالمَ في ظُلْمِه حيناً ، ويوسِّع له الحَبْلَ[3] ، ويطيل به المهل ، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذي

---

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (الحيل) بالياء جمع حيلة ، وربما تأيد هذه بقوله فيها بعد (وكيف يستبق بالحيلة ما حق في التقدير عدمه) .

أراده ، ثم يأخذه من حيث لا يرتقب، فيعلوه نَدَمٌ ، ولات حينه ، وكيف يستبق بالحيلة ما حق فى التقدير عَدَمُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَاأَيها الناسُ إنما أنا لكم نذيرٌ مبين ﴾ :

أشابهكُم فى الصورة ولكنى أُبايِنُكم من حيث السريرة، وأنا لِمُحْسِنيكم بشير ، ولِمُسِيئِكُم نذير ، وقد أُيِّدْتُ بإقامةِ البراهينِ ما جِئتكم به من وجوهِ الأمر بالطاعة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ فالذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم مَغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ .

الناس — فى المغفرة — على أقسام : فمنهم من يستر[1] عليه زَلَّتَهُ ، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر حاله لئلا تُصيبَهُ مِنَ الشهرةِ فتنةٌ [2] ، وفى معناه قالوا :

لا تُنْكِرَنْ جُحْدِى هَوَاكَ فإنما ذاك الجحودُ عليكَ سِتْرٌ مُسْبَلُ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه ، لذلك وَرَدَ فى الكتب : « أوليائى فى قبائى ، لا يشهد أوليائى غيرى » .

« والرزق الكريم » ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِب العبدُ .

ويقال هو الذى يبدو — من غير ارتقابٍ — على رِفْقٍ فى وقت الحاجة إليه .

ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوقَ على صَرْفِهِ فى وَجْهِ القربة . ويقال ما فيه البركة .

ويقال الرزق الكريم الذى يُنال من غير تعب[3] ، ولا يتقلد مِنَّةَ مخلوق .

---

(١) لأن كَفَرَ معناها فى اللغة سَتَرَ .

(٢) وهذه إحدى الأفكار التى تشغل أصحاب الملامة فى العمل بها ، وحثّ أتباعهم عليها .

(٣) (الذى ينال من غير تعب) هنا معناها من غير استعجال ، ومن غير بعدٍ عن التفويض والتوكل ، ومن غير اعتماد على مخلوق . ونحو ذلك مما قد يهدم صرح الاستسلام الكامل للرازق الوهاب سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين سَعَوْا في آياتنا مُعَاجِزِينَ أولئك أصحابُ الجحيم ﴾ .

في الحال في معجّلِه الوحشه والسداد أبوابِ الرشدِ ، وتنغصُ العَيْش ، والابتلاء بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الاجرام ..

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تَمَنّى أَلْقَى الشيطانُ في أُمْنِيَّتِهِ فينسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

الشياطين يتعرّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطانَ ولا تأثيرَ في أحوالهم منهم ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تخييلٌ وتسويل (من التضليل)[1] . وكان لنبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — سَكَتَاتٌ في خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات ، فيتلَفَّظ الشيطانُ ببعض الألفاظ[2] ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلٌ تَوَهَّمَ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ — عليه الصلاة والسلام وصار فتنةً لقومٍ .

---

(1) هكذا في ص ولكن في م وردت هكذا (وليس به شيء من التضليل) ونحسب ان هذا أكثر ملاءمة للسياق حسبما يتضح من الهامش التالي .

(2) قيل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقرأ بين قومه سورة النجم حتى إذا وصل إلى (ومناة الثالثة الأخرى) جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى »فنبهه جبريل لما لم يفطن له ، وحيث إن النبي معصوم من إجراء الشيطان عليه ، ومعصوم من الغفلة . ولأنه لا يُعْقَل أن يجرى على لسانه مدح للأصنام — فقد جاء لتحطيمها — فيرى بعضُ المفسرين انَّ الشيطان تكلم بهذه الكلمات — وقد وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد — وتداخلت الكلمات في قراءة النبي (ص) أثناء سكتة من سكتاته — كما نَبَّهَ القشيري .

أما — الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُم[1] ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشيطانُ فتنةً
للذين في قلوبهم مَرَضٌ والقاسيةِ
قلوبُهم وإن الظالمين لَفِي شقاقٍ
بعيدٍ ﴾ .

إذا أراد اللهُ بِعَبْدِهِ خيراً أمدَّه بنور التحقيق ، وأيَّده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يُظِلُّه غمامُ الرَّيْبِ ، وينجلي عنه غطاء الغَفْلَة ، فلا تأثيرَ لضبابِ الغَداةِ في شُعاعِ الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿ وليَعْلَمَ الذين أوتوا العِلْمَ أنّه
الحقُّ من ربِّكَ فيُؤْمِنوا به فَتُخْبِتَ
له قلوبُهم وإنَّ اللهَ لَهادِ الذين آمنوا
إلى صِراطٍ مستقيم * ولا يَزالُ
الذين كفروا في مِرْيَةٍ مِنْهُ حتى
تأتِيَهُمُ الساعةُ بَغْتةً أو يأتيَهم
عذابُ يَوْمٍ عقيمٍ ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ المُلْكُ يومَئذٍ للهِ يحكم بينهم
فالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
في جنّاتِ النعيم ﴾ :

لم يتخصصْ مُلْـكه — سبحانه — بيومٍ ، ولم تتحدد له وقتيةُ أمْرٍ ، ولا لجلاله قَدْرٌ[2] ، ولـكنَّ الدعاوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجويزات تتلاشى[3] ؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نِعَمٌ ، وللـكفار وأصحاب الشقاق نِقَمَ .

---

(١) ضبطناها هكذا ولا بأس — من حيث المعنى — أن تُضبطُ (ولم يَضُرُّهم ذلك) فما حدث من الفتنة لم يُلحق بهم ضيراً ولا ضرراً ؛ فقد أدركتهم العناية .

(٢) أي أنه يجل عن التحدد بزمانٍ وقدر فهو المطلق الذي لا يتناهى .

(٣) الدعاوى والظنون والتجويزات هي تهم النفس والعقل .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا
فأولئك لهم عذابٌ مهين * والذين
هاجروا فى سبيلِ اللهِ ثم قُتِلُوا
أو ماتوا ليرزقنّهم اللهُ رزقاً حسناً
وإنّ اللهَ لهو خيرُ الرازقين ﴾

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبين .

« والذين هاجروا . . . » : للقلوب حلاوةُ العرفان ، وللأرواح حُلّةُ المحاب ، وللأسرار دوام الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ ليُدخِلنّهم مُدْخَلاً يَرْضَونه وإنّ الله
لعليمٌ حليمٌ ﴾ .

إدخالاً فوق ما يتمنّونه ، وإبقاء على الوصف الذى يَعْهَدُونه . . ذلك فى أوان صحوهم لينالوا لطائفَ الأُنْسِ على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البَسْطِ على أعلى أحوال السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك ومَنْ عاقَبَ بمثْلِ ما عُوقِبَ به
ثم بُغِيَ عليه لينصرَنّه اللهُ إنّ اللهَ
لعفوٌّ غفورٌ ﴾ .

نَصْرُه — سبحانه — للأولياء نَصْرٌ عزيز ، وانتقامه بتمام ، واستئصاله بكمال ، وإزهاقه أعداءه بتمحيق جملتهم ، وألا يحتاجَ المنصورُ إلى الاحتيالِ أو الاعتضادِ بأشكال[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بأنّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فى النهارِ
ويولجُ النهارَ فى الليل وأنّ اللهَ
سميعٌ بصيرٌ ﴾ .

---

(١) أى لا يحتاج المنصور إلى حيلة أو أى تدبير إنسانى من جانبه ، بل يسقط تدبيره ، لأن النصر له من عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى أن يعتضد بأمثاله من المخلوقين فكفى الله له ناصراً ومعيناً .

كما فى أفقِ العالَم لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار ؛ فعند التجلى نهار وعند الستر ليل ، والليلِ السّترُ ونهاره زيادةٌ ونقصان ، فبمقدار القبض ليلٌ وبمقدار البسطِ نهارٌ ، ويزيد أحدُهما على الآخرِ وينقص . . وهذا للعارفين . فأمّا المحقِّقُون فلَهُم الأُنْسُ والهيبةُ مكانَ قبضِ قوم وبَسْطِهم ، وذلك فى حالَىْ صحوهم ومحوهم ، ويزيد أحدهما وينقص ، ومنهم من يدوم نهارُه ولا يدخل عليه ليلٌ . . وذلك لأهل الأُنْس فقط[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

إذا بدا عِلْمٌ من الحقائق حَصَلَت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلى ، ثم يزيد ظهورُ ما يبدو ويغلب ، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليلُ من هاهنا » فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ بما دون اللهِ فلا يشهد أولاً الأشياء إلا للحقّ ، ثم لا يشهدها إلا بالحق ، ثم لا يشهد إلا الحق . . فلا إحساسَ له بغير الحق ، ومِنْ جملة ما ينساه . . نَفْسُهُ والكونُ كله[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

ماء السماء يحيى الأرض بَعد موتها ، وماء الرحمةِ يحيى أحوال أهلِ الزّلةِ بعد تركها ، وماء العناية يحيى أحوال (. . . .)[3] بعد زوال رونقها ، وماء الوصلة يحيى أهل القربة بعد لضوبها .

---

(١) كثير من المصطلحات الصوفية لا يُفهم فهماً دقيقاً إلا بطريق المقارنة المعتمدة على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب . . . إلخ .
وقد استغل القشيرى — فى ظلال القرآن الكريم — هذا الجانب .

(٢) تفيد هذه الفقرة فى توضيح مراتب الشهود .

(٣) فى م (الناس) وفى ص مكتوبة هكذا (المقاليس) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾

المُلْكُ له ، وهو عن الجميع غنى ، فهو لا يستغنى بمُلْكه ، بل مُلْكه بصير موجوداً بخَلْقِهِ إياه ؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك .

ويقال كما أنه[1] غنيٌّ عن الأجانب ممن أثبتهم فى شواهد الأعداء فهو غنى عن الأكابر وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغنىُّ حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِى حتى يُشْكر .

ويقال الغنىُّ الحميد المستحِقُّ للحمد : أعطى أو لم يُعْطِ ؛ فإنْ أعطَى استحقَّ الحمد الذى هو الشكر ، وإنْ لم يُعْطِ استحق الحمد الذى هو المدح[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فى الأَرْضِ وَالفُلْكَ تَجْرِى فى البحرِ بأمْرِه ويُمْسِكُ السماءَ أَن تَقَعَ على الأرضِ إلا بإذنه إنَّ اللهَ بالناسِ لَرءوفٌ رحيم ﴾ .

أراد به تسخيرَ الانتفاع بها ؛ فما للخَلْقِ[3] به انتفاع ومُيَسَّرٌ له فى الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه ، ثم يُرَاعَى فيه الإذنُ ؛ فَمَنْ استمتع بشىء على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ ، ومَنْ كان بالعكس فمكْرٌ واستدراج .

وأمَّا السفينة.. فإلهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها ؛ بالحَمْل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد ، ثم ما يحصل بها من قَطْعِ المسافات البعيدة ، والتوصل بها إلى المضارب

---

(١) هكذا فى م وهى فى س (أنت) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٢) ذ‌‌لعل هذا نقول فى صلاتنا : « الحمد لله رب العالمين » أى نشكرك فى السراء ، ونمدحك فى الضراء فالحمد أعم والشكر أو المدح أخص .

(٣) وردت هكذا فى م وهى فى س (للحق) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

النائية ، والتمكن من وجوه الانتفاع فى ذلك أعظمُ نعمة ، وأكملُ عافية .

وجعل الأرضَ للخَلْقِ قراراً من غير أن تميد ، وجعل السماء بناء من غير وقوع ، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء فى الظلام ، ثم هى زينة السماء — وفى ذلك من الأدلة ما يوجب ثَلَجَ الصدر وبَرْدَ اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

إحياء النفوسِ وإماتتها مراتٌ محصورةٌ ، وإحياء أوقاتِ العُبَّاد وإماتتها لا حَصْرَ له ولا عدَّ ، وفى معناه أنشدوا .

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ

ويقال يُحْيي الآمالَ بإشهادِ تفضله ، ثم يميتها بالاطلاع على تَعَزُّزِه .

ويقال هذه صفة العوام منهم ، فأمَّا الأفاضل فحياتُهم مسرمدةٌ وانتعاشهم مؤبَّد . وأنَّى يحيا غيرُه وفى وجوده — سبحانه — غُنْيَةٌ وخَلَفٌ عن كل فائت[1] ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أُمةٍ جعلنا مَنسَكاً هم ناسِكوه فلا يُنَازِعُنَّك فى الأمْرِ وادعُ إلى ربِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مستقيمٍ ﴾

جَعَلَ لكلِّ فريقٍ شِرْعةً هم واردوها ، ولكلِّ جماعةٍ طريقةً هم سالكوها .

وجعل لكلٍّ مقامٍ سُكَّانَه ، ولكلِّ محلٍّ قُطَّانَه ، فقد ربط كلاًّ بما هو أهلٌ له ، وأوصل كلاًّ إلى ما جعله محلاً له ؛ فبِساط التَّعَبُّدِ موطوء بأقدامِ العابدين ، ومشاهد الاجتهاد معمورةٌ بأصحاب التكلف من المجتهدين ، ومجالسُ أصحابِ المعارفِ مأنوسةٌ بلزوم العارفين ، ومنازلُ المحبين مأهولةٌ بحضور الواجدين .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ونحن لا نستبعد أن تكون فى الأصل (فان) ؛ فسواء كان الفناء بالمعنى المعروف أو بالمعنى الصوفى فإنها منسجمة مع السياق ، ولأن القشيرى يستعمل هذا الأسلوب كثيراً : فكفى به خلفاً لك عند فنائك عنك .

قوله : « فلا ينازعنك فى الأمر الأمر ... » إشْهَدْ تصاريفَ الأقدار ، واعمل بموجب التكليف ، وانتهِ دون ما أُذِنتْ له من المناهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن جادلوك فَقُلِ اللهُ أعْلَمُ بما تعملون ﴾

كِلْهُم إلينا عندما راموا من الجدال ، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال ، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال ، فإنهم قوالبُ خاويةٌ ، وأشباحٌ عن المعانى خالية .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يومَ القيامةِ فيما كُنْتُم فيه تختلفون ﴾

أمّا الأجانب فيقول لهم : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »[1] ، وأمّا الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً ، وأقوام مخصوصون يقول لهم : بينى وبينكم حساب ؛ فلا جبريلَ يحكم بينهم ولا ميكائيل ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ ، ولا مَلَكٌ مُقرّبٌ .

« الله يحكم بينكم » يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميعَ خصمائه ، ويأمر بإرضاء جميع غُرَمائِه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافى السماءِ والأرضِ إنَّ ذلك فى كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يَسيرٌ ﴾

يعلم السِّرَّ والنجوى ، وما تكون حاجةُ العبدِ له أمَسّ وأقوى ، وبكلِّ وجه هو بالعبد أولى ، وله أن يحمل له النُّعمى ، ويزيل عنه البلْوى ، ولا يسمع منه الشكوى ، فله الحُكْمُ تبارك وتعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ويعبدون مِن دونِ اللهِ ما لم يُنَزِّل به سُلطاناً وما ليس لَهُم به عِلْمٌ وما للظالمين من نصير ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

الآية تشير إلى أنَّ مَنْ كان مِنْ جملة خواصة أفرده — سبحانه — ببرهان ، وأيَّده ببيان، وأعزَّه بسلطان . ومنْ لا سلطانَ له يمتد إليه قَهْرُه ، ومن لا برهان له ينبسط عنه — إلى غيره — نورُه ، فهو بِمَعْزِلٍ عن جملته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فى وجوهِ الذين كفَرُوا المُنكَرَ يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُون عليهم آياتِنا ، قُلْ أفأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذلِكُم النارُ وَعَدَهَا اللهُ الذين كفروا وبِئْسَ المصيرُ ﴾

لِسَماعِ الخطابِ أَثَرٌ في القلوبِ من الاستبشارِ والبهجة ، أو الإنكار[1] والوحشةِ . ثم ما تخامره السرائرُ يلوحُ على الأسِرَّةِ فى الظاهر ، فكانت الآياتُ عند نزولها إذا تُلِيَتْ على الكفارِ يلوح على وجوهِهم دُخَانُ ما تنطوى عليه قلوبُهم من ظلماتِ التكذيب ، فما كان يقع عليهم طَرْفٌ إلاَّ نَبَا عن جحودهم ، وعادت إلى القلوب النُّبُوءَةُ عن إقلاعهم .

ثم أخبر أنَّ الذى هم بصَدَدِه فى الآخرةِ من أليم العقوبةِ شرٌّ بكل وجهٍ لهم مِمَّا يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم . وإنَّ المناظرَ الوضيئةَ للرائين مُبْهِجةٌ ، والمناظرَ المُنْكَرةَ للناظرين إليها موحِشة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له إنَّ الذين تَدْعُون مِن دونِ اللهِ لن يَخْلُقُوا ذُباباً ولَوِ اجتمعوا له وإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ﴾ .

(١) هكذا فى م ولكنها فى ص (الانكسار) بالسين وهى خطأ لأن المقصود بيان المقابلة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

تنبه الأفكار المُشَتَّتة ، والخواطرَ المتفرقة على الاستجماع لِسماع ما أراد تضمينه فيها ؛ فاستحضرها فقال : « ضُرِبَ مَثلٌ فاستمعوا له . . »

ثم بيَّنَ المعنى فقال إنَّ الذين تَدْعُون من دون الله ، وتدعونها آلهةً ؛ أى وتسمونها آلهة (وأنها للعبادة مستحقة)[1] لن يخلقوا بأجمعهم ذباباً ، ولا دونَ ذلك . وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس فى وسعهم استنقاذهم ذلك منه ، ومنْ كان بهذه الصفة فَسَاءَ المَثَلُ مَثلُهم ، وضَعُفَ وصفُهم ، وقَلَّ خَطَرُهم .

ويقال إن الذى لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهوِن بِقَدْرِه !

قوله جل ذكره : ﴿ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيزٌ ﴾

ما عرفوه حقَّ معرفته ، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومَنْ لم يكن فى عقيدته نَقْضٌ لِمَا يستحيل فى وصفه — سبحانه — لم تُباشِرْ خلاصةُ التوحيدِ سِرَّه ، وهو فى تَرَجُّم فِكْرٍ ، وتجويز ظنٍ ، وخَطَرِ تعسُّف ، يقعُ فى كل وهدة من الضلال .

ويقال العوامُ اجتهادُهم فى رَفْضِهم الأعمالَ الخبيثةَ خوفاً من الله ، والخواص جهدهم فى نَقْضِ عقيدتِهم للأوصافِ التى تَجِلُّ عنها الصمدية ، وبينهما (. . .)[2] بعيد .

« إن الله لقوى عزيز » قوى أى قادر على أن يخلُقَ مَنْ هو فوقهم فى التحصيل وكمال العقول .

« عزيز » : أى لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه — إلا بما يليق بصفة البشر — بِقَدْرٍ من العرفان .

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصُور ، ولكنْ كلٌّ بِوَجْدِه مربوطٌ ، وبحدِّه فى همته موقوف ، والحق سبحانه عزيز[3] .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص مفقود فى م

(٢) فى ص جاءت (وفاق) وفى م جاءت (فرقان) والأولى مرفوضة ، وفى مثل هذا الموضع يستعمل القشيرى (فرق) أو (بون) بعيد .

(٣) كلام القشيرى هنا فى (قوى) وفى (عزيز) هام لأنه لم يرد فى مبحثه المستقل عن الأسماء والصفات الإلهية الذى ضمنه كتاب (التحبير فى التذكير) الذى حققناه ونشرته دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يصطفى مِنَ الملائكةِ رُسُلًا ومِنَ الناسِ إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ ﴾ .

الاجتباء والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القَدْرِ ، وتخصيص الطَّوْلِ ، وتقديمهم على أشكالهم فى المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ؛ فالفضيلةُ بحقِّ المُرْسِلِ ، لا لخصوصيةٍ فى الخِلْقة فى المُرْسَل .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمورُ ﴾ .

يعلم حالَهم ومآلَهم ، وظاهرَهم و باطنَهم ، ويومَهم وغَدَهم ، ويعلم نَقْضَهم عَهْدَهم ؛ فإليه مُنْقَلَبُهم ، وفى قبضتِه تَقَلُّبُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعبُدُوا رَبَّكم وافعَلُوا الخيرَ لَعَلَّكم تُفْلِحون ﴾ .

الركوعُ والسجودُ والعبادةُ كُلُّها بمعنى الصلاة ؛ لأنَّ الصلاةَ تشتمل على هذه الأفعال جميعها ، ولكنْ فَرَّقَها فى الذكر[1] مراعاةً لقلبِكَ من الخوف عند الأمر بالصلاة ؛ فَقَسَّمها ليكونَ مع كلِّ لفظةٍ ومعنى نوعٌ من التخفيف والترفيه ، ولقلوبِ أهلِ المعرفةِ فى كل لفظةٍ راحة جديدة .

ويقال لَوَّنَ عليهم العبادةَ ، وأمَرَهم بها ، ثم جميعُها عبادةٌ واحدةٌ ، ووَعَدَ عليها من الثوابِ الكثيرِ ما تقْصُرُ عن عِلْمه البصائر .

ويقال عَلِمَ أنَّ الأحبابَ يُحِبُّون سماعَ كلامِهِ فَطَوَّلَ عليهم القولَ إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أُنساً على أُنسٍ ، ورَوْحاً على روْح ، ومُعَادُ خطاب الأحبابِ هو رَوْحُ رُوحِهم ، وكمالُ راحتِهم .

(١) ما يلى من الكلام فى هذه الفقرة مفيد فى المباحث البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « وافعلوا الخير » فادخل فيه جميع انواع القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جهادِهِ ﴾ .

(« حَقَّ جهاده » : حق الجهاد ما وافق الأمر فى القَدْرِ والوقتِ والنوعِ ، فإذا حَصَلَتْ فى شىءٍ منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جهاده)(١) .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدةٌ بالنَّفْسِ ، ومجاهدةٌ بالقلبِ ، ومجاهدةٌ بالمالِ . فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بَذَلَه فى الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والإرفاق(٢) . والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُه عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة ، والعزمُ على المخالفات ، وتَذَكُّرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل — وإنْ كان فى الأخَفِّ أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يَفْتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النَّفْس لحظةً ، قال قائلُهم .

يارَبِّ إنَّ جهادى غيرُ مُنْقَطِعٍ فكلُّ أرضٍ لى ثَغْرُ طرسوس

قوله جل ذكره : ﴿ هو اجتباكم ﴾

يحتمل أنه يقول مِنْ حَقِّ اجتبائه إياكم أنْ تُعَظِّموا أمْرَ مولاكم

ويحتمل أن يقال هو الذى اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لمَاَ جاَهَدْتُم ، فلاجتبائه إياك وَفَّقَكَ حتى جاهدتَ .

ويقال عَلِمَ ما كنت تفعله قبل أنْ خَلَقَكَ ولم يمنعه ذلك مِنْ أنْ يَجْتَبِيَكَ ، وكذلك إنْ رأى ما فَعَلْتَ فلا يمنعه ذلك أنْ يتجاوزَ عنك ولا يعاقبك

---

(١) ما بين قوسين موجود فى م وناقص فى ص .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) فمعناه التسهيل ، والقشيرى لا يرضى به غالباً لأرباب الطريق لأنهم ياخذون عن الأشق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهى جمع رفق وقد نهى القشيرى فى نهاية رسالته عن رفق النسوان والصبيان فهم الأنتان والجيف . . . إلخ . والسياق هنا بعيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جَعَلَ عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ ﴾ .

الشرع مبناه على السهولة ، والذى به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه ، وتتخلَّص بهمن أليم عقابه وامتحانه — يسيرٌ(١) من الأمر لا يستغرق كُنْهَ إمكانك؛ بمعنى أنك إنْ أَرَدْتَ فِعْلَه لَقَدَرْتَ عليه ، وإنْ لم توصَفْ فى الحال بأنَّك مستطيعٌ ما ليس بموجودٍ فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ مِلَّةَ أبيكم ابراهيم ﴾ .

أى اتَّبِعوا والزَمُوا مِلَّةَ أبيكم ابراهيم عليه السلام فى البَذْلِ والسخاء والجود والخلة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ هو سَمَّاكُم المسلمين مِن قَبْلُ وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم ﴾ .

اللهُ هو الذى اجتباكم ، وهو الذى بالإسلام والعرفان سَمَّاكم المسلمين . وقيل ابراهيم هو الذى سماكم المسلمين بقوله : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »(٢) .

قوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم ، نَصَبَ الرسولَ بالشهادة علينا ، وأمره بالشفاعة لأمته ، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقِى للشفاعة موضعاً ومحلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونُوا شُهَدَاء على الناسِ ﴾ .

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله ، ومَنْ كانت له شهادة عند أحد — وهو كريم — فلا يجرح شاهده ، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده .

قوله جل ذكره : ﴿ فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصِمُوا باللهِ هو مولاكم فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النصيرُ ﴾ .

---

(١) يسيرٌ خبر لاسم الموصول (والذى به ...) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ بحكم الإتمام، ونعت الاستدامة، وجميل الاستقامة.

والاعتصامُ بالله التبرى من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. ويقال الإعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة.

« هو مولاكم » : سيدكم وناصركم والذى لا خلف عنه.

« فنعم المولى ونعم النصير » نِعْمَ المولى : إخبارٌ عن عظمته، ونعم النصير : إخبارٌ عن رحمته.

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد »(١) ولسليمان « نعم العبد »(٢) فلقد قال لنا « نعم المولى ونعم النصير »، ومدحه لِنَفْسِه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك.

ويقال « نعم المولى » : بَدَأَكَ بالمحبة قبل أنْ أحببتَه، وقبل أن عَرَفْتَه أو طَلَبْتَه أو عَبَدْتَه.

« ونعم النصير » : إذا انصرف عنكَ جميع مَنْ لكَ فلا يدخل القبر معك أحدٌ كان ناصِرَك، ولا عند السؤال أو عند الصراط.

السورة التى يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو، وللمسمى بهذا الاسم استحقاقَ العلو، فالاسم اسم لسموه من القِدَم، والحقُّ حقٌّ لعلوه بحق القِدَم.

ويقال مَنْ عرف « بسم الله » سمت هِمَّتُه عن المرسومات، ومَنْ أحبَّ بسم الله صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات..

اسمٌ مَنْ طَلَبَه نَسِيَ من الدارين أَرَبَه، ومَنْ عَرَفَه وَجَدَ بقلبه مالا يعرف سَبَبَه.

---

(١) « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة ص.

(٢) « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة ص.

قوله جل ذكره : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾

ظَفِرَ بالبُغْيَةِ وفاز بالطِّلْبَةِ مَنْ آمَنْ بالله .

و « الفَلَاحُ » : الفوزُ بالمطلوبِ والظَّفَرُ بالمقصود .

والإيمانُ اتسامُ الحقِّ فى السريرة ، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةَ القلب ، واستمكانُ التحقيقِ من تأمور الفؤاد(١) .

والخشوعُ فى الصلاة إطراقُ السِّرِّ على بِساطِ النَّجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة ، والذوبان تحت سلطان الكشف ، والامتحاء عند غَلَبَاتِ التَّجلِّي .

ويقال أدْرَكَ ثَمَرَاتِ القُرْبِ وفَازَ بكمالِ الأُنْس مَنْ وَقَفَ على بِساط النجوى بنعت الهيبة ، ومراعاةِ آداب الحضرة . ولا يَكْمُلُ الأُنْسُ بلقاءِ المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب . وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النَّفْسُ ؛ فلا راحةَ للمُصَلِّى مع حضورِ نَفْسه ، (فإذا خنس عن نَفْسِهِ)(٢) وشاهدِهِ عَدِمَ إحساسَه بآفاتِ نَفْسِهِ ، وطابَ لهالعيشُ ، وتَمَّتْ له النُّعْمَى ، وتجلَّتْ له البُشْرى ، ووَجَدَ لَذَّةَ الحياةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون ﴾

ما يَشْغَلُ عن الله فهو سَهْوٌ ، وما ليس لله فهو حَشْوٌ ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمقولٍ مع الله فهو لَغْوٌ ، (وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ ، والتعريجُ على شىءٍ من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ)(٣) .

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومَدْحِه من كلام خَلْقِهِ فكل ذلك لغو .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم للزكاةِ فاعِلون ﴾

---

(١) يقال اجعل هذا الأمر فى تأمورك أى داخلَ قلبك (الوسيط : مادة أ م ر) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغيرُ موجود فى ص .

(٣) موجود فى م وغير موجود فى ص .

الزكاةُ النَّماء ، ومَنْ عَمَلُه للنساءِ فأمارةُ ذلك أنْ يكونَ بنقصانه فى نفْسِهِ عن شواهده ولا يبلغ العبدُ إلى كمالِ الوصفِ فى العبودية إلا بذوبانه عن شاهده .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لفُروجِهم حافظون * إلاَّ على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ أيْمَانُهم فإنَّهم غيرُ مَلُومِين ﴾

لفروجِهِم حافظون ابتغاء نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللهِ ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العَادُون ﴾

أى مَنْ جَاوزَ قَصْدَ إيثار الحقوق ، وجَنَحَ إلى جانب استيفاء الحظوظ . . فقد تَعَدَّى مَحَلَّ الأكابر ، وخالف طريقتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لِأَمَانَاتِهِم وعَهْدِهِم راعون ﴾

الأماناتُ مختلفةٌ ، وعند كلِّ أحدٍ أمانةٌ أخرى ، فقومٌ عندهم الوظائفُ بظواهرهم ، وآخرون عندهم اللطائفُ فى سرائرهم ، ولقومٍ معاملاتُهم ، ولآخرين منازلاتُهم ، ولآخرين مواصلاتُهم .

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم مَنْ عاهده ألا يَعْبُدَ سواه ، ومنهم مَنْ عَاهَدَه ألا يشهدَ فى الكونين سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافِظون ﴾

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدْعُوهم المنَادِى وهم ليسوا بالباب ، فهم فى الصف الأول بظواهرهم ، وكذلك فى الصف الأول بسرائرهم

قوله جل ذكره ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾

الإرث على حسب النَّسب ، وفى استحقاق الفردوس بوصف الإرث لِنَسَب الإيمان فى الأصل ، ثم الطاعات فى الفضل .

وكما فى استحقاق الإرث تفاوتٌ فى مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك فى الطاعات ؛ فمنهم مَنْ هم فى الفردوس بنفوسهم ، وفى الأحوال اللطيفة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (. . .)[1] عن حالات قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من سُلَالة مِّن طِينٍ ﴾

عَرَّفهم أصلَهم لئلا يُعْجَبُوا بفِعْلِهم .

ويقال نَسَبَهم لئلا يخرجوا عن حَدِّهم ، ولا يغلطوا فى نفوسهم .

ويقال خَلَقَهم من سُلالَةٍ سُلَّتْ من كل بقعه ؛ فمنهم مَنْ طينته من جَرْدَة[2] أو من سَبْخَةٍ[3] أو من سَهْلٍ ، أو من وَعْرٍ . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ عُذْرَهم عند الكافة ؛ فإنَّ المخلوقَ من سلالة من طين . . . ما الذى يُنْتَظَرُ منه ؟!

ويقال خلقهم من سلالة من طين ، والقَدْرُ للتربية لا للتربة .

ويقال خلقهم من سلالة ولكنَّ مَعْدِنْ المعرفةِ ومَرْتَع المحبةِ ومتعلق العناية منه لهم ؛ قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » .

ويقال خَلَقَهم ، ثم من حالٍ إلى حالٍ نَقَلَهم ، يُغَيِّر بهم ما شاء تغييره .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناه نُطْفَةً فى قَرارٍ مَّكِينٍ * ثم خَلَقْنا النطفَةَ عَلَقَةً فخلقنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فخلقنا المضغةَ عِظَاماً ، فكَسَوْنا العِظامَ لحماً ﴾

---

(١) مشتبهة فى ص ، م وربما كانت (ولا ينفكون) .

(٢) الأرض الجردة التى لا نبات فيها .

(٣) السَّبَخَةُ التى فيها ملح ونزٌّ ولا تكاد تنبت .

قطرةٌ أجزاؤُها متماثلةٌ ، ونُطْفَةٌ أبعاضُها متشاكِلة ، ثم جعل بعضها لحماً وبعضها عَظْماً ، وبعضَها شَعْراً ، وبعضها ظُفُراً ، وبعضها عَصَبَاً ، وبعضها جِلْدَاً ، وبعضها مُخَّاً ، وبعضها عِرقاً . ثم خَصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جُزْءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم الصفاتُ التى للإنسان خَلَقَها متفاوتةً ؛ من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلمِ والإرادةِ والشجاعةِ والحقد والجودِ والأوصافِ التى يتقاصر عنها الحَصْرُ والعَدُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ أنشأناه خَلْقاً آخَرَ فتبارَكَ الله أحسنُ الخالقين﴾

فى التفاسير أنه صورة الوجه ، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة ، واخْتُصَّ به من السَّمْعِ والبصر والعقل والتمييز ، وما تفرَّد به بعضٌ منهم بمزايا فى الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال « ثم أنشأناه خلقاً آخر » : وهو أنْ هَيَّأهم لأحوالٍ عزيزة يُظْهِرها عليهم بعد بلوغهم ، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال ؛ فلقومٍ تخصيصٌ بزينة العبودية ، ولقومٍ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تحقّقٌ بالصفاتِ الصمدية بامتحائهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التى هى أوصاف البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين﴾

خلق السمٰواتِ والأرضين بجملتها ، والعرشَ والكرسىَّ ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها — ثم لَمَّا أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذى ذكره بعد نعت خَلْقِه بنى آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً ، وإفراداً لهم من بين المخلوقات .

ويقال إنْ لم يَقُلْ لك إنَّكَ أحسنُ المخلوقاتِ فى هذه الآية فلقد قال فى آية أخرى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[1] .

---

(1) الآية ٤ سورة التين .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُثْنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثني عليك .

ويقال لما ذكر نعتَك ، وتاراتِ حالِكَ في ابتداء خَلْقك ، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق ، ولا بيانُ مدحٍ ينطلق . . نَابَ عنك في الثناء على نفسه ، فقال : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إِنَّكم بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُون ﴾

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى   القبر واللحد والثرى

وأنشدوا :

حياتُنا عندنا قروضٌ   ونحن بعد الموت في التقاضي
لابُدَّ مِنْ ردِّ ما اقترضنا   كلُّ غريمٍ بذاك راضي

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » وكلُّ ما هو آتٍ فقريب .

ويقال كسر على أهلِ الغفلة سطوةَ غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتِهم بقوله : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، وللجمادِ مُضاهون ، وعن المكنه والمقدرة والاستطاعة والقوة لَمُبْعَدُون ، وفي عِداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إِنَّكم يومَ القيامةِ تُبْعَثُون ﴾

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموصولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالَمَ حتى لو قيل للقيامة : ممن تخافين ؟ لقالت من القيامة . وفي القيامة ترى الناسَ سُكارَى حَيارَى لا يعرفون أحوالَهم ، ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم ، إلى أن يتبيَّنَ لكلِّ واحدٍ أمْرُه ؛ خَيْرُه وشَرُّه : فيثقل بالخيرات ميزانُه ، أو يخف

عن الطاعاتِ أو يخلو ديوانُه . وما بين الموت والقيامة : فإمّا راحاتٌ مُتّصِلَة ، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خَلَقنا فوقكم سَبْعَ طرائقَ وما كنّا عن الخلْقِ غافلين ﴾

الحقُّ — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مُدْرَكٌ ، ولا تخفى عليه — من مخلوقاته — خافية . وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْق وبصائرهم ؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِما وراء الحُجُبِ . وكذلك إذا حلّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول ، وانسدّت بصائرها ، وانتفت فهومها

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة ؛ ففي الظاهر السموات حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنْية والشهوة ، والإرادات الشاغلة ، والغفلات المتراكمة .

أمّا المريدون فإذا أظلّتْهم سحائب الفَتْرَةِ ، وسَكَنَ هيجانُ إرادتِهم فذلك من الطرائق التي عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرّكَ بهم عِرْقُ الرغبة انْفَلّتْ[1] قوة زهدهم ، وضَعُفَتْ دعائمُ صَبْرِهم ، فيترخّصون بالجنوحِ إلى بعضِ التأويلاتِ ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً ، وتختلُّ رتبةُ عزوفهم ، وتنهدُّ دعائم زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم .

وأما العارفون فربما تظلُّهم في بعض أحايينهم وَقفةٌ في تصاعد سرِّهم إلى ساحاتِ الحقائق . فيصيرون مُوقفِين ريثما يتفضّلُ الحقُّ — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً ، ويرفع عنهم ماعاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإنّ الحقّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ ، ولا تاركٍ للعِبادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزَلْنا مِنَ السماء ماء بِقَدَرٍ فأسكنّاه في الأرضِ وإنا على ذَهَابٍ به لقادرون ﴾ .

---

(١) انفلّ السيف = انثلم حدُّه ، وانفلّ القوم = انهزموا .

أنزل من السماء ماء المطر الذى هو سببُ حياةِ الأرضين ، وذلك بقدرٍ معلومٍ . ثم .. البلادُ مختلفةٌ فى السَّقْيِ: فبعضها خِصْبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسنَةٌ يزيد وسنَةٌ ينقص ، سنةٌ يفيض وسنةٌ يغيض .

كذلك أنزلنا من السماءِ ماء الرحمة فيحيي القلوب ، وهى مختلفة فى الشُّرْب : فمِنْ موسَّعٍ عليه رزقه منه ، ومِنْ مُضَيَّقٍ مُقَتَّرٍ عليه . ومِن وقتٍ هو وقت سحٍّ ، ومِنْ وقتٍ هو وقت حَبْسٍ .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرنَ العُصاةِ وآثارَ زلَّتِهم وأوضارَ عثرتِهم ، وماء هو سقى قلوبهم يزيل به عطشَ تحيرهم ، ويحيي به موات أحوالهم ؛ فتَنْبُت فى رياض قلوبهم فنونُ أزهار البسط ، وصنوف أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب ، فيزيل عنها به حشمة الوصف ، وَيسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز ، وَيحملها على التجاسر ببذلِ الرُّوح ؛ فإذا شربوا طَرِبوا ، وإذا طَرِبوا لم يُبالوا بما وَهَبوا [1].

قوله جل ذكره : ﴿ فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ وَأعنابٍ لكم فيها فواكهُ كثيرةٌ ومنها تأكلون ﴾ .

كما يحيي بماءِ السماءِ الغياضَ والرياض ، ويصنِّف فيها الأزهارَ والأنوارَ ، وتثمر الأشجارُ وتجرى الأنهار .. فكذلك يَسْقِى القلوبَ بماءِ العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر ، وتؤتى أُكلَها : من طيب عيش ، وكمالِ بسطٍ ، ثم وفورِ هيبة ثم رَوْحِ أُنسٍ ، ونتائجِ تَجَلٍّ ، وعوائد قُرْبٍ .. إلى ما تتقاصر العباراتُ عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات فى حَصْره .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لكم فى الأنعامِ لعِبْرَةً نُسقيكم مِمَّا فى بطونها ولكم فيها منافعُ كثيرةٌ ومنها تأكلون ﴾ .

الإشارات منه أنَّ الكدوراتِ الهاجمةَ لاعِبْرَةَ بها ولا مبالاة ؛ فإنَّ اللَّبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الأنعام من بين ماتنطوى حواياها عليه من الوحشة ، لكنه صافٍ لم يؤثر

---

(١) حتى لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحُكم الجوار ، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة ؛ إذ الحقيقة لايتعلق بها حقٌّ ولا باطل . ومَنْ أشرفَ على (سِرٍّ)[1] التوحيد تحقّقَ بأنّ ظهور جميع الحدثان من التقدير ، فتسقط عنه كلفة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو .

« ولكم فيها منافع » : لازمةٌ لكم ، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم :

إنِّى — على جَفَواتِها — برَّها ... وبكلِّ متَّصِلٍ بها متوسِّلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وعليها وعلى الفُلْكِ تُحمَلُون ﴾ .

يحفظهم فى السفينة فى بحار القطْرة ، ويحفظهم فى سفينة السلامة والعصمة فى بحار القُدْرة ، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها ، والناسُ فيها غَرْقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ — سبحانه — فى سفينة العناية .

وصفةُ أهل الفُلْكِ إذا مسَّهم شِدَّةُ خوفِ الغَرَقِ ماذكَر الله فى قوله : « فإذا ركبوا فى الفُلْكِ دعوا الله مخلصين له الدين[2] » كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ ، والتجأ إلى صِدْق الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ — سبحانه — من مخلوقات التقدير . ويقال إنَّ وَجهَ الأرضِ بحارُ الغفلة ، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارٌ مهلكةٌ والناس فيها غرقى ، وكما قال بعضهم :

النـاسُ بحـرٌ عميقٌ ... والبعـدُ عنهم سفينةْ
وقد نصحتُك فانظـر ... لِنفسِـكَ المسكينـةْ

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرْسَلْنا نوحاً إلى قومِهِ فقال ياقومِ اعبُدُوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُه أفلا تتقون ﴾ .

---

(١) موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٢) آية ٦٥ سورة العنكبوت .

كَرَّرَ قصةَ نوح لِمَا فيها من عظيمِ الآيات من طولِ مقامه فى قومه ، وشدةِ مقاساة البلاء منهمْ ، وتمام صبره على ما استقبله فى طول عمره ، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه ، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه ، ثم لم يغادرْ منهم أحداً ، ولم يبال — سبحانه — بأنْ أهلك جملتهم . ولقد ذكر فى القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ ، فَحَمَلَتْهُ وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان ، فلمَّا بلغ الماء إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها — قدْرَ ما أمكنها — إبقاء على وَلَدِها ، وإشفاقاً عليه من الهلاك ، إلى أن غَلَبَهَا الماء وتَلِفَتْ وولدها . فأوحى الله إلى نوح — عليه السلام — لو أنى كنتُ أرْحَمُ واحداً منهم لَرَحِمْتُ تلك المرأة وولدها .

وفى الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر ، ولكثرة ما كان يبكى أوحى الله إليه : يا نوح .. إلى كم تنوح ؟ فسمَّاه نوحاً . ويقال إنّ ذنبَه أنه مرَّ يوماً بكلبٍ فقال : ما أوحشه !

فأوحى الله إليه : اخلق أنت أحْسَنَ من هذا ! فكان يبكى معتذراً عن قالته تلك .

وكان قومُه يلاحظونه بعين الجنون ، وما زادَهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوة ، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة .

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان ، وأدخل فى السفينة أهْلَه ، تعرّض له إبليسُ — كما جاء فى القصة — وقال : إحمِلْنى معك فى السفينة ، فأبى نوح وقال : يا شقىُّ . . تطمع فى حملى إياك وأنت رأسُ الكفرَةِ ؟!

فقال إبليسُ : أمَا عَلِمْتَ — يا نوحُ — أنّ الله أنْظَرَنى إلى يوم القيامة ، وليس ينجو اليومَ أحدٌ إلاّ فى هذه السفينة ؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليسُ مع نوح فى السفينة ، ولم يكن لابنه معه مكانٌ فى السفينة . (وفى هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول)[1] لأنه إن كان المعنى فى أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِه فبإبليس يُشكل . . ولكنها أحكامٌ غيرُ معلولة ، وجاز له — سبحانه — أن يفعل ما يريد : يَصِلُ[2] مَنْ شاء ويَرُدُّ مَنْ شاء

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) وردت فى م (يضل) بالضاد ونحن نجد (يصل) أكثر انسجاماً مع المعنى لتقابل (يرد)

قوله جل ذكره : ﴿ وقل ربِّ أنزلنى مُنزَلا مُبارَكاً وأنتَ خير المُنزِلين ﴾ .

الإنزالُ المباركُ أن يكون بالله ولله ، وعلى شهودِ الله من غير غفلة عن الله ، ولا مخالفاً لأمر الله

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرْب عليك ، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلِّى حتى لا تبقى عين ولا أثر ، فإذا تَمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك ؛ لأنك بلا أنت . . بكليتك من غير بقيةٍ أو أثرٍ عنك .

قوله جل ذكره ﴿ ثم أنشأنا من بَعْدِهم قرنا آخَرِين ﴾

تتابعت القرونُ على طريقةٍ واحدةٍ فى التكذيب ، وغرَّهم طولُ الامهالِ ، وما مكَّنهم من رَفَهِ العيش وخَفْض الدَّعَةِ ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم ، ولم يَسْمُ لهم طَرْفٌ إلى مَنْ فوقهم فى الحال والمنزلة ، فقالوا : أنؤمن بمن يتردد فى الأسواق ، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لَسَلَكنا سبيلَ الغَىِّ ، وتنكبْنا سُنَّةَ الرُّشْدِ . فأجراهم اللهُ فى الإهانةِ وإحلال العقوبة بهم مجرىً واحداً ، وأذاقهم عذابَ الخِزْى . وأعظمُ ما داخَلَهم من الشُّبهةِ والاستبعادِ أمرُ الحشْرِ والنشر ، ولم يرتقوا للعلم بأنَّ الإعادة كالابتداء فى الجواز وعدم الاستحالة ، والله يهدى مَنْ يشاء ويغْوِى مَنْ يريد .

ثم إن اللهَ فى هذه السورة ذَكَرَ قصةَ موسى عليه السلام ، ثم بعده قصةَ عيسى عليه السلام، وخَصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً إنِّى بما تعملون عليم ﴾

كلوا من الطيبات مما أحلَّ لكم وأباح ، وما هو محكومٌ بأنه طيب — على شريطة مطابقة

---

(١) نلاحظ هنا أن القشيرى قد اختصر الكلام فقفز إلى الآية ٥٠ دون تمهل أمام كل آية كما تعودنا منه

رُخصةِ الشريعة — مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه . وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ هذه أمتُكم أمةً واحدةً

وأنا ربُّكم فاتقونِ ﴾ .

معبودكم واحدٌ، ونبيُّكم واحد ، وشرعكم واحد ؛ فأنتم في الأصول شرعٌ سواء ؛ فلا تسلكوا ثِنْيَاتِ الطرق(1) فتطيحوا في أودية الضلالة . وعليكم باتباع سَلَفكم ، واحذروا موافقة ابتداع خَلَفكم .

« وأنا ربكم فاتقون » خافوا مخالفةَ أمرى ، واعرفوا عظيمَ قَدْرِى ، واحفظوا في جريان التقدير سِرِّى ، واستديموا بقلوبكم ذكرى ، تجدوا في مآلكم غفرى ، وتحظَوْا بجميلِ بِرِّى .

قوله جل ذكره : ﴿ فتقطَّعوا أمرَهم بينهم زُبُراً كُلُّ

حزْبٍ بما لديهم فَرِحون ﴾ .

فمستقيم على حقِّه ، وتائه في غَيِّهِ ، ومُصِرٌّ على عصيانه وفِسْقِهِ ، ومقيمٌ على إحسانه وصِدْقه ، كُلٌّ مربوطٌ بحدِّه ، موقوفٌ بما قُسِمَ له في البداية من شأنه ، كلٌّ ينتحل طريقته ويَدَّعى بحسن طريقته حقيقةً ، وعند صحو سماء قلوبِ أربابِ التوحيدِ لا غُبارَ في الطريق ؛ وهم على يقين معارفهم ؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهة .

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهم ، وغبارِ جُحْدِهم ، وظلمة تقليدهم ، ومحنة شكهم . .

قوله جل ذكره ﴿ فَذَرْهم في غَمْرتهم حتى حين ﴾ .

إنَّ مدةَ أَخْذِهم لقريبةٌ ، والعقوبة عليهم — إذا أُخِذُوا — لشديدة ، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أيحْسَبُون أنَّما نُمِدُّهم به من

مالٍ وبنين * نسارعُ لهم في الخيراتِ

بل لا يَشْعُرون ﴾ .

---

(1) ثنية الطريق = مُنعطفه .

هذا فى شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتلبيس المِنْهاج ؛ رأوْ سَرَاباً فظنّوه شراباً ، ودَسّ لهم فى شَهْدِهم صاباً فتوهموه عذَاباً[1] ، وحين لقوا عَذَاباً عَلِموا أنهم لم يفعلوا صوابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الذين هم مِّنْ خَشْيَةِ ربِّهم مُّشْفِقُون ﴾

أمارةُ الإشفاقِ من الخشيةِ إطراقُ السريرةِ فى حال الوقوف بين يدى الله بشواهد الأدب ، ومحاذرةُ بَغَتَاتِ الطَّرْد ، لا يستقر بهم قرارٌ لِماَ داخَلَهم من الرُّعبِ ، واستولى عليهم من سلطان الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم بآياتِ ربِّهم يؤمِنون ﴾

تلك الآياتُ مختلفةٌ ؛ فمنها ما يُكاشَفون به فى الأقطار من اختلاف الأدوار ، وما فيه الناس من فنونِ الهَمّ وصنوفِ المُنى والإرادات، فإذا آمن العبدُ بها ، واعتبر بها اقتنع بما يرى نَفْسَهُ مطالبًا به .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم بِربِّهم لا يُشْرِكون ﴾

يَذَرُون جَلِيَّ الشِّرْكِ وخَفِيَّه ؛ والشِّرْكُ الخفىُّ ملاحظةُ الخَلْق فى أوانِ الطاعات ، والاستبشارُ بِمَدْحِ الخلْقِ وقبولهم ، والانكسارُ والذبولُ عند انقطاع رؤية الخلْق .

ويقال الشِّرْكُ الخفىُّ إحالةُ النادرِ من الحالات — فى المَسَارِّ والمَضَارِّ — على الأسباب كقول القائل : « لولا دعاء أبيك لهلكت » و « لولا هِمّةُ فلان لما أفلحت » . . . وأمثال هذا ؛ قال الله تعالى « وما يؤمن أكثرُهم بالله إلا وهم مشركون »[2] .

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفاء من شُرْب الدواء .

فإذا أيقن العبدُ بِسِرِّه ألا شىء من الحدثان ، ولم يتوهم ذلك ، وأيقن ألاَّ شىء إلاَّ من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشِّرْكِ[3] .

---

(١) العِذاب جمع عذْب وهو السائغ من الطعام والشراب ونحوهما (الوسيط) .
(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .
(٣) أى أن القشيرى لا ينكر الأسباب ولكن ينعى على من يتوهم أن من الحدثان شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يُؤْتُون ما آتوا وَّقلوبهم وَجِلةٌ أَنَّهم إلى ربهم راجعون ﴾

يُخلِصُون فى الطاعات من غيرِ إلمامٍ بتقصيرٍ ، أو تعريجٍ فى أوطانِ الكسل ، أو جنوح إلى الاسترواح بالرُّخَص . ثم يخافون كأنهم ألَمُّوا بالفواحش ، ويلاحظون أحوالَهم بعين الاستصغار ، والاستحقار ، ويخافون بغتاتِ التقدير ، وقضايا السخط ، وكما قيل :

يتجنَّب الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسَنَاتُه آثامُ

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك يسارِعون(1) فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾

مُسارِعٌ بِقَدَمِه من حيث الطاعات ، ومُسارِعٌ بِهِمَّتِه من حيث المواصلات ، ومُسارِعٌ بِنَدَمِه من حيث تجرُّع الحسرات ، والكلٌ مصيبٌ ، وللكلٌ من إقباله — على ما يليق بحاله — نصيب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ولدينا كتابٌ يَنطِقُ بالحقِّ وهم لا يُظْلَمون ﴾

المطالباتُ فى الشريعةِ مُضَمَّنَةٌ بالسهولة ، وأمَّا مطالباتُ الحقيقة فكما قالوا : ليس إلاَّ بَذْل الروح ، ولهذا فهم لا تشغلهم التُّرَّهَات(2) . قال لأهل الرخص والمستضعفين فى الحال : « وما جعل عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ »(3) ، وأمَّا أربابُ الحقائق ؛ فقال : « وإنْ تُبْدُوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »(4) وقال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم »(5) ، وقال : « وجاهِدوا فى الله حقَّ جهاده(6) » .

---

(1) فى س أخطأ الناسخ إذ زاد (لهم) بعد يسارعون .

(2) الترهات جمع تُرهة وهى القول الباطل الذى لا نفع فيه ، أو الطريق الصغيرة المتشعبة عن الطريق الأعظم .

(3) آية ٧٨ سورة الحج .

(4) آية ٢٨٤ سورة البقرة .

(5) آية ١٥ سورة النور .

(6) آية ٧٨ سورة الحج .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحقِّ وهم لا يظلَمون » : لولا غفلتُهم عن مواضع الحقيقة لما خوَّفهم بكتابة المَلَكِ ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوَّفهم باطلاعِ الملائكة ،وكتابَتِهم عليهم أعمالَم .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قُلوبُهم فى غَمْرةٍ مِّنْ هـذا ، ولهم أعمالٌ مِّن دونِ ذلك هم لها عامِلُون ﴾

لا يَصلُحُ لهذا الشأنِ[1] إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغلَ له فى الدنيا والآخرة ، فأمَّا مَنْ له شُغْلٌ بدنياه ، أو على قلبِه حديثُ عقباه ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفى الخبر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم ، وأرباب العُقْبى مشغولون بعُقباهم ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم ؛ وإن الذى له فى الدنيا والآخرة غير مولاه — حين الفراغ — عزيز ؛ قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغلٍ فاكهون »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ حتىٰ إذا أخَذْنا مُتْرَفيهم بالعذابِ إذا هُم يَجْـأرون ﴾

إنه — سبحانه — يُمْهِلُ ولكنَّه لا يُهْمِلُ ، فإذا أخَذَ فَبَطْشُه شديدٌ ، قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »[3] ... فإذا أخَذَ أصحابُ الكبائر — حين يحل بهم الانتقامُ — فى الجوابِ رُدُّوا فى الهوان ، ويقال لهم :

﴿ لا تجْـأَروا اليومَ إنَّكم مِّنَّا لا تُنصَرُون ﴾

فإذا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره .

---

(١) (هذا الشأن) يقصد به طريق أرباب الأحوال

(٢) آية ٥٥ سورة يس .

(٣) آية ١٢ سورة البروج .

ويقال للجناية سِراية ؛ فإذا أمسك الجانى عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية .

قوله جل ذكره : ﴿قد كانت آياتى تُتْلَى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تَنكِصُون * مستكبرين به سامِرًا تَهْجُرُون﴾

ذَكَّرَ هذا من باب إملاء العُذْرِ ، وإلزامِ الحجة ، والقطع بألا ينفعَ — الآنَ — الجزعُ ولا يُسْمَعُ العُذْرُ ؛ والملوكُ إذا أبرموا حُكْمًا ، فالاستغاثةُ غيرُ مؤثِّرةٍ فى الحاصل منهم ، قال قائلهم :

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجهٍ — آخِرَ الدهرِ — تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿أَفَلَمْ يدَّبَّرُوا القولَ أَمْ جاءهم ما لم يأْتِ آباءهُم الأولين﴾ .

يعنى أنهم لو أنعموا النظرَ ، وسلطوا على أحوالهم صائبَ الفِكْرِ لاستبصروا فى الحال ، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجامُ والإشكال ، ولكنهم استوطنوا مركبَ الكسل ، وعرَّجُوا فى أوطان التغافل ، فتعودوا الجهل ، وأيسوا من الاستبصار .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفوا رسولَهم فَهُمْ له مُنكِرُون﴾ .

ذَهلُوا عن التحقيق فتطوَّحُوا فى أودية المغاليط ، وتَرَجَّمَتْ بهم الظنونُ الخاطئةُ ، وملكتْهُم كواذبُ التقديرات(1) ، فأخبر اللهُ (الرسولَ)(2) عن أحوالهم ؛ فمرةً قابلوه بالتكذيب ، ومرةً رَمَوْه بالسِّحرِ ، ومرةً عابوه بتعاطيه أفعالَ العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب ، ومرةً قَدَحُوا فيه بما هو فيه من الفقر وقِلّةِ ذات اليدِ . . . فأخبر اللهُ عن تَشَتُّتِ أحوالِهم ، وتَقَسُّمِ أفكارهم .

---

(1) هكذا فى م أما فى ص فهى (التقدير) ونحن نرجح الأولى حتى يقتصر إطلاق (التقدير) بالمفرد على الفعل الإلهى أما هنا فهى (التقديرات الإنسانية) أى الظنون .

(2) السياق يتطلب وجود كلمة (الرسول) وهى غير موجودة فى النسختين ووضعناها من عندنا لينسجم الأسلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَوِ اتبعَ الحقُّ أهواءهم لَفَسَدَتِ السمٰواتُ والأرضُ ومَن فيهن بَلْ أتيناهم بِذِكْرِهِم فَهُمْ عن ذِكْرِهِم مُّعْرِضون ﴾

وذلك لتضادِّ مُنَاهم وأهوائهم؛ إذ هم متشاكسون فى السؤال والمراد، وتحصيلُ ذلك مُحالٌ تقديرُه فى الوجود. فَبَيَّنَ الله — سبحانه — أنه لو أجرى حُكْمَهُ على وفق مرادِهم لاختلَّ أمرُ السمواتِ والأرض، ولَخَرَجَ عن حَدِّ الإحكام والإتقان.

قوله جل ذكره : ﴿ أم تسألهم خَرْجاً فَخَرَاجُ ربِّك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين ﴾.

أى إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرٍ، ولا بإعطاءِ عِوَضٍ حتى تكونَ بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة. أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لك الرياسة. ثم قال: والذى لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنيك عن التصدِّى لنَيْلِ ما يكون فى حصوله منهم مطمع. وهذا كان سُنَّة الأنبياء والمرسلين؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله. والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء فسبيلُهم التوقِّى عن التَّدَنُّسِ بالأطماع، والأكل بالدِّين فإنه رِياء مُضِرٌّ بالإيمان؛ فإذا كان العملُ لله فالأجرُ مُنْتَظَرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَل الله [1].

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّكَ لَتَدْعوهم إلى صِراطٍ مستقيم ﴾

الصراطُ المستقيمُ شهودُ الربِّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء، وفى الإيجاد، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراهِ الحُكْم.

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ عَنِ الصِّراطِ لناكِبُون ﴾.

---

(١) القشيرى هنا يغمز بانحراف كثيرٍ من الوعاظ المحترفين الذين امتلأ بهم عصره، ومنذ عهد الحسن البصرى — الذى طالما نبه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسمع هذه الصيحة ناعية ما آل إليه أمر المحترفين إلى التهافت والتهالك على أطماع الدنيا الزائلة.

زاغوا عن الحجة المُثْلى بقلوبهم فوقعوا فى جحيم الفرقة ، وستميل وتزل أقدامُهم غداً عن الصراط ، فيقعون فى نار الحرقة ؛ فهم ناكبون فى دنياهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو رَحِمْناَهم وكَشَفْناَ مابهم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فى طغيانهم يَعْمهون ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حُكْمِه فيهم ، فقال : لو كشفنا عنهم فى الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان فى المآل ، ولقد عَلِمَ أنهم سيكفرون ، وحَكَمَ عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لايجوز أن يكون حُكْمُه فيهم بخلافِ عِلْمِهِ بهم(١)

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَخَذْناهم بالعذابِ فما استكانوا لربِّهم وما يَتَضَرَّعُون ﴾ .

أذقناهم مقدماتِ العذابِ دونَ شدائده . . تنبيهاً لهم ، فما انتبهوا وما انزجروا ، ولو أنهم إذ رأَوْا العذابَ فزعوا إلى التضرعِ والابتهالِ لأسرع اللهُ زوالَه عنهم ، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم ، لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْناَ عليهم باباً ذا عذابٍ شديدٍ إذا هم فيه مُبْلِسُون ﴾

لما أحللنا بهم أشدَّ العقوباتِ ضَعُفُوا عن تَحَمُّلِها ، وأُخِذُوا بغتةً ، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهال ، فَيَئِسُوا عن الإجابة ، وعَرَّجوا فى أوطان القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أَنْشَأَ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ ، قليلاً مَّا تشكرون ﴾

ذكر عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم بأن خَلَقَ لهم هذه الأعضاء ، وطالَبَهم بالشكر عليها .

وشُكْرُهُمْ عليها استعمالُها فى طاعته ؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ ألا تسمعَ إلا بالله ولله ، وشُكْرُ البَصَرِ ألا تنظرَ إلا بالله لله ، وشكرُ القلب ألاَّ تشهدَ غيرَ الله ، وألاَّ تحبَّ به غيرَ الله .

---

(١) هذا التمييز بين الحكم والعلم له أهميته الكبيرة فى قضية القَدَر .

قوله جل ذكره : ﴿وهو الذى ذَرَأَكُمْ فى الأرضِ وإليه تُحشَرُون﴾

الابتداء للحادثات من الله بدءاً ، والانتهاء إليه عوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المعانى ؛ فتعرف أنَّ الحادثاتِ بالله ظهوراً ، ولله مِلْكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿وهو الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وله اختلافُ الليلِ والنهارِ ، أفلاَ تَعقِلون﴾

يُحْيِي النفوسَ ويُميتُها والمعنى فى ذلك معلومٌ ، وكذلك يحيى القلوبَ ويميتها ؛ فموتُ القلب بالكُفْرِ والجُحد ، وحياةُ القلبِ بالإيمان والتوحيد ، وكما أنَّ للقلوبِ حياةً وموتاً فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ ، فحياةُ الأوقاتِ بيُمْنِ إقباله ، وموتُ الأوقاتِ بمحنة إعراضه ، وفى معناه أنشدوا :

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت

قوله : « وله اختلاف الليل والنهار » ؛ فليس كلُّ اختلافها فى ضيائها وظلمتها ، وطولها وقِصَرِها ، بل ليالى المحبين تختلف فى الطول والقِصَرِ ، وفى الروْح والنوْح ؛ فَمِنَ الليالى ما هو أضوأ من اللآلى ، ومن النهار ما هو أشدُّ من الحنادس ، يقول قائلهم : ليالىَّ بعد الظاعنين شُكُولُ .

ويقول قائلهم :

وكَمْ لظلامِ الليلِ عِنْدِىَ من تُخَبِّرُ أنَّ المانوية تَكْذِبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا :

ليالى وصالٍ قد مَضَيْن كأنَّها لآلى عقودٍ فى نحور الكواعبِ
وأيامُ هَجْرٍ أعقبتها كأنها بياضُ مَشيبٍ فى سواد الذوائبِ

قوله جل ذكره : ﴿ بل قالوا مِثْلَ ما قال الأولون * قالوا أئِذَا مِتْنا وكُنّا تُراباً وعِظاماً أئنا لمبعوثون * لقد وُعِدْنا نحن وآباؤُنَا هذا مِن قَبْلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾

سلكوا فى التكذيب مَسْلَكَ سَلَفِهم ، وأسرفوا فى العناد مثل سَرَفِهم ، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتَلَفِهم .

قوله : « لقد وعدنا . . . » لمَّا طال عليهم وقتُ الحشر ، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنَّشْر زَادَ ذلك فى ارتيابهم،وجعلوا ذلك حُجَّةً فى لَبْسِهم واضطرابهم ، فقالوا : لقد وُعِدْنا مثل هذا نحن وآباؤنا ، ثم لم يكن لذلك تحقيق ، فما نحن إلاَّ أمثالهم . فاحتجَّ اللهُ عليهم فى جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخَلْق :

فقال جل ذكره : ﴿ قُل لِمَنِ الأرضُ ومَن فيها إن كُنتُم تعلمون * سيقولون للهِ قُلْ أفلا تَذَكَّرون * قُلْ مَن ربُّ السمواتِ السَّبْعِ وربُّ العرشِ العظيم * سيقولون لله قُلْ أفلا تتقون * قُلْ مَنْ بيده ملكوتُ كُلِّ شىء ، وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون للهِ قُلْ فأنَّى تُسْحَرُون ﴾

أمَرَه — عليه السلام — أنْ يُلَوِّنَ عليهم الأسئلة ، وعقَّبَ كُلَّ واحدٍ من ذلك — مُخْبِراً عنهم — أنهم سيقولون : لله ، ثم لم يَكْتَفِ منهم بقالتهم تلك ، بل عاتَبَهم على

تجرُّدِ قولهم عن التَّذَكُّر والفَهْمِ والعلم ، تنبيهاً على أن القول — وإنْ كان فى نفسه صدقاً — فلم تكن فيه غنية ؛ إذ لم يصدر عن علمٍ ويقينٍ .

ثم نَبَّهَهُمْ على كمالِ قدرته ، وأنَّ القدرة القديمة إذا تعلَّقت بمقدورٍ له ضدٌّ تعلَّقت بضدِّه ، وبتعلق بمثل متعلقه .

والعَجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله ، ثم تجويزهم عبادةَ الأصنامِ التى هى جماداتٌ لا تحيا ، ولا تضرُّ ولا تنفع .

ويقال أولاً قال : «أفلا تذكرون» ، ثم قال بعده : «أفلا تتقون» ، فَقَدَّمَ التذكُّرَ على التقوى ؛ لأنهم بتذكرهم يَصِلُون إلى المعرفة ، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته . ثم بعد ذلك قال : « فأنَّى تُسْحَرُون » ؛ أى بعد وضوح الحجة فأىُّ شَكٍّ بَقِيَ حتى تنسبوه إلى السِّحْرِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ بلْ أَتَيْناهُم بالحقِّ وإنَّهم لَكَاذِبُون ﴾

بَيَّنَ أنهم أَصَرُّوا على جحودهم ، وأقاموا على عُتُوِّهم ونُبُوِّهم ، وبعدَ أن أُزيحت العِلَلُ فلات حين عذر ، وليس لتجويزِ المُساهَلَةِ موجِبٌ بَتَّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما اتَّخذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كان معه مِنْ إلهٍ ﴾

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك ، والأمران جميعاً داخلان فى حدِّ الاستحالة ، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة فى القَدْرِ ، والصمدية تتقدَّسُ عن جواز أن يكون له مِثْلٌ أو جنس .

قوله جل ذكره : ﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولَعَلَا بعضُهم على بعضٍ سبحان اللهِ عما يَصِفُون * عالمِ الغيبِ والشهادةِ فتعالى عمَّا يُشرِكون ﴾

كلُّ أمرٍ نيطَ باثنين فقد انتفى عنه النظامُ وصحةُ الترتيب ، وأدلة التمانع مذكور في مسائل الأصول .

« سبحان الله » تقديساً له ، وتنزيهاً عما وصفوه به . « عالم الغيب والشهادة » : تنَزَّهَ عن أوهامِ مَنْ أشرك ، وظنونِ مَنْ أَفِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾

يقول إن عجلت لهم ما تتوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم ، ولا توصل إليَّ سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقِّ أنْ يفعلَ ما يريد ، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً(1) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عَلِمَ ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك ، فَصحَّتْ القدرةُ على خلافِ المعلوم(2)

قوله جل ذكره : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

الهمزة في « أحسن » يجوز ألا تكون للمبالغة ؛ ويكون المعنى إدفع بالحسن السيئة . أو أن تكون للمبالغة ؛ فتكون المكافأة جائزةً والعفوُ عنها — في الحُسْنِ — أشدَّ مبالغةً .

ويقال ادفع الجفاء بالوفاء ، وجُرْمَ أهل العصيانِ بحكمِ الإحسان .

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له .

ويقال اسلكْ مسلكَ الكَرَم ، ولا تجنحْ إلى طريق المكافأة .

---

(1) لأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض ، إذ لا يعود عليه سبحانه من هذا أو ذاك مصلحة .

(2) في هذا ردٌّ ضمني على المعتزلة القائلين بإنكار الصفات ، إذ يتضح أن صفة العلم متميزة عن صفة القدرة . فالأشاعرة — ومنهم القشيري — حين يثبتون الصفات إنما يثبتون المعاني اللائقة بذاته ، وهي معان وإن تنوعت فليست طوارىء على الذات ، وإنما الذات قائمة بها .

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القَلبُ ، والسيئةُ ما تدعو إليه النَّفْسُ .

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة ، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائقِ ، والسيئةُ ظلمةُ الخلائق .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل ربِّ أعوذُ بِكَ من هَمَزَاتِ الشياطين * وأعوذُ بِكَ ربِّ أن يَحْضُرُونِ ﴾

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك منك »[1] ، ولكنه — سبحانه — أراد أن نَتَعبَّدَه بالاستعاذة به من الشيطان ، بل مِنْ كلِّ ما هو مُسَلَّطٌ علينا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بمجرى العادة . وإلاَّ . . فلو كان بالشيطان من إغواء الخَلْقِ شيء لكان يُمْسِكُ على الهداية نَفْسَه ! فَمَنْ عَجَزَ عن أنْ يحفَظَ نفسَه كان عن إغواء غيرِه أشدَّ عجزاً ، وأنشدوا :

جحودى فيك تلبيس وعقلى فيك تهويس
فَمَنْ آدم إلاَّكَ ومن فى (...)[2] ابليس

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أحدَهُم الموتُ قال رب ارْجِعُونِ * لعَلِّى أعملُ صالِحاً فيما تركْتُ كلاَّ إنَّها كلِمةٌ هو قائِلُها ومن ورائِهم بَرْزَخٌ إلى يومِ يُبعثُون ﴾ .

---

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك » . مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى .

(٢) فى م (البن) وفى ص (البن) ، والبيتان للحلاج فى الطواسين ص ٤٢ وفى ديوانه (المقطعة الثامنة والعشرون) جاءت البين ، والمعنى أن آدم الذى خلقته من طين هو سبب بلائى فسجودى له سجودٌ لغيرك . وفى البيتين بعض الغموض والشطح ، ولهذا نعجب من استشهاد القشيرى بهما . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب القشيرى فى رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يستشهد بأقواله شعراً ونثراً . . وقد عللنا لذلك فى كتابنا « الإمام القشيرى وتصوفه » ط مؤسسة الحلبى .

إذا أخذ البلاء بخناقهم ، واستمكن الضُّرُّ من أحوالهم ، وعلموا ألاّ محيصَ ولا محيدَ أخذوا فى التضرُّع والاستكانة ، ودون مايرومون خرطُ القتادِ ! ويقال لهم هلاّ كان عُشْرُ عشرِ هذا قبلَ هذا ؟ ولقد قيل :

قلتُ للنفسِ : إنْ أَرَدتِ رجوعاً ... فارجعى قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا نُفِخَ فى الصُّورِ فلا أَنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتَساءلُون ﴾ .

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطعُ الأسبابُ ، ولا ينفع النَّدم ، وسيلْقَى كلٌّ غِبَّ مااجترم؛ فمَنْ ثَقُلَتْ بالطيبات موازينُه لاحَ عليه تزيينُهُ . ومنْ ظهرَ مايشينه فله من البلاء فنونه ؛ تلفح وجوهَهم النار ، وتلمح من شواهدهم الآثار ، ويتوجه عليهم الحِجاج ، فلا جواب لهم يُسْمَع ، ولا عذْر منهم يُقْبل ، ولا عذاب عنهم يُرْفع ، ولا عقابُ عنهم يُقْطَع .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربَّنا غلَبَتْ علينا شِقْوَتُنا وكُنَّا قوماً ضالِّين ﴾ .

نطقوا بالحقِّ . . . ولكن فى يومٍ لا ينفع فيه الإقرار ، ولا يُقْبَلُ الاعتذار ، ثم يقولون :

﴿ ربَّنا أخرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنا ظالمون ﴾ .

والحقُّ يقول : لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. عَلِمَ أنَّ ردَّهم إلى الدنيا لا يكون ، ولكنه عَلِم أنَّه لو كان فكيف كان يكون.

قوله جل ذكره : ﴿قال اخسئوا فيها ولا تُكلِّمون﴾ .

عند ذلك يتمُّ عليهم البلاء ، ويشتدُّ عليهم العناء ، لأنهم ماداموا يذكرون الله لم يحصل الفراق بالكلية ، فإذا حِيلَ بينهم وبين ذكره تم لهم المحنة ، وهو أحدُ ما قيل فى قوله « لا يحزنهم الفزع الأكبر »[1] .

---

(١) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

وفى الخبر : أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواء كعواء الذئب . وبعض الناس تفار من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لهم : « اخسئوا فيها » ، فيقولون : ياليتنا يقول لنا ! أليس هو يخاطبنا بذلك ؟! وهؤلاء يقولون : قَدْحُ الأحباب ألذُّ من مَدْح الأجانب ، وينشدون فى هذا المعنى :

أتانى عنكِ سَبُّكِ لى .. فَسُبِّى أليس جرى بفيكِ اسمى ؟ فحَسْبِى

قوله جل ذكره : ﴿ إنه كان فريقٌ من عبادى يقولون
ربَّنا آمنَّا فاغفِر لنا وارحمنا وأنت
خيرُ الراحمين * فاتخذتموهم سِخْرِيّاً
حتى أنسَوْكم ذِكْرِى وكنتم منهم
تضحكون * إنى جزَيْتُهم اليومَ بما
صبَرُوا أنهم هم الفائزون ﴾ .

الحقُّ — سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيِّبُ به قلوبَ أوليائه ، وتلك خصومةُ الحق ، فيقول : قد كان قومٌ من أوليائى يُفْصِحون بمدحى وثنائى ، ويتصفون بمدحى وإطرائى ، فاتخذتموهم سخرياً ... فأنا اليوم أجازيهم ، وأنتقم ممن كان يناويهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال كم لَبِثتُم فى الأرضِ عددَ
سنين * قالوا لَبِثْناَ يوماً أو بعضَ
يومٍ فاسأل العادِّين * قال إن لَبِثْتُم
إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى مايوفى ويُرْبِى عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ إن كانوا فى الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحات التى يلقونها فى القيامة ، وإن كانت شدائد فتتلاشى في جنب مايرونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية .

قوله جل ذكره : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً
وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ .

العبثُ اللهو ، واللعبُ والاشتغالُ بما يُلْهِى عن الحقّ ، والله لم يأمر العبادَ بذلك ، ولم يَدْعُهم إلى ذلك ، ولم يندبهم إليه .

والعابثُ فى فِعْلِه مَنْ فِعْلُه على غير حدّ الاستقامة ، ويكون هازلاً مُسْتَجْلِباً بفعله أحكامَ اللهوِ إلى نَفْسه ، متمادياً فى سهوه ، مستلذَّ التفرقةِ فى قصده . وكلُّ هذا من صفات ذوى البشرية ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهُ النعت عن هذه الجملة ، فلا هو بِفِعْلٍ شىء عابث ، ولا بشىء منَ العَبَثِ آمِرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلهَ
إلا هو ربُّ العَرْشِ الكريمِ ﴾ .

الحقُّ — بنعوت جلاله — متوحِّدٌ ، وفى عزِّ آزاله وعلُو أوصافه متفرِّدٌ ، فذاتُه حقٌّ ، وصفاته حقٌّ ، وقولُه صِدْقٌ ، ولا يتوجَّهُ لمخلوق عليه حقٌّ ، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شىء منها بمستحق[1] .

« لا إله إلا هو رب العرش الكريم » : ما تجمَّل بالعرشِ ، ولكنْ تعزَّزَ العرشُ بأنْ أضافَه إلى نَفْسِه إضافةَ خصوصية .

والكريمُ الحسَنُ ، والكرمُ نَفْىُ الدناءة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ
لا بُرْهانَ له به فإنَّما حِسابُه عندَ
ربِّه إنَّه لا يُفْلِحُ الكافرون ﴾ .

حسابُه على الله فى آجلِهِ . وعذابُه من الله له فى عاجله ، وهو الجهل الذى أودعَ قلبَه حتى رَضِىَ بأنْ يَعْبُدَ معه غيرَه . وقولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » كلامٌ

---

(١) معنى هذه العبارة أنه لا يجب على الله شىء فى إحسانه لعباده ، فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ، وليس نتيجة وجوب على الله أو حق للعبد .

حاصلٌ من غير دليل عقل ، ولا شهادة خبرٍ أو نقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقولٌ ليس يساعده برهان .

قوله جل ذكره : ﴿وقُل رَّبِّ اغْفِرْ وارحَمْ وأنت خيرُ الراحمين﴾ .

اغفرْ الذنوبَ، واسترْ العيوبَ ، وأجْزِلْ الموهوب.وارحمْ حتى لا تستولى علينا هواجمُ التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة ، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز(١).

السورة التى يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُهُ ، اسم بشيرُ الحياة وصلته ، اسم سببُ الرَّوْح عرفانُه ، اسم راحةُ الرُّوح إحسانُه ، اسم كمالُ الأُنْسِ إقبالُه ، اسمٌ فتنةُ قلوبِ المُهَيَّمين جمالُه ، اسم مَنْ شَهِدَه دامت سلامته ، اسم مَنْ وَجَدَه قامت قيامتُه ، اسم لا إليه حظوة ، ولا بدونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها﴾ .

سورة هى شَرَفٌ لك — يامحمد— أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدى سورة(٢) ؛ فلكلِّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة ، بيّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيّنّا (فيها من الأحكام ما)(٣) لكم به اهتداء ، وللقلوب مِنْ غمرة الاستعجام شفاء .

أنزلنا فيها آياتٍ بينات ، ودلائلَ واضحاتٍ ، وحُجَجًا لائحات ؛ لتتذكروا تلك الآيات ، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبينات .

---

(١) لأن الرحمة — فى الأصل — وصف للذات ، والنعمة من صفات الفعل .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ، وإلى قوله تعالى فى سورة يونس : « قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » .

(٣) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

قوله جل ذكره : ﴿ الزَّانيةُ والزَّاني فاجلدوا كُلَّ واحدٍ منهما مِائةَ جَلْدَةٍ ﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جَعَلَ إثباتَ أمره وتقريرَ حُكْمِه والقطعَ بكونه على أكثر الناسِ خصلةً عسيرةً بعيدةً ؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقولَ : رأيتُ ذلك منه فى ذلك منها ! وذلك أمرٌ ليس بالهيِّن ، فسبحان مَنْ أَعْظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاءِ ، ثم جعل الأمر فى إثباتها بغاية الكدِّ والعناء ! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له صلى الله عليه وسلم : لعلَّك قَبَّلْتَ .. لعلَّك لا مسْتَ ، وقال لبعض أصحابه : «استنكهوه»(١) وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحدِّ عنه ، إلى أنْ ألحَّ وأصَرَّ على الاعتراف .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأخُذْكم بهما رأفة فى دِينِ اللهِ إن كنتُم تؤمنون بالله واليومِ الآخرِ ﴾

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع .

والرحمةُ من موجب الشرع وهو المحمود ، فأمّا ما يقتضيه الطَّبعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود . ونَهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ ، وتَرَكَ الأمرَ ، وأساء الأدبَ ، وانتصبَ فى مواطنِ المخالفة .

ويقال نَهانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بتلك الفَعْلة الفحشاء — رقمَ الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(٢) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلّةَ إيمانه مع قبيح جُرْمِه وعصيانه .

---

(١) وردت الإشارة إلى حادث « ماعز » فى هامش سبق ، وقوله « استنكهوه » اى ابحثوا هل فى فمه ريح الخمر ، وبعدها سأله النبى للمرة الأخيرة « أزنيت ؟ فقال نعم . فأمر به فرُجِمَ » صحيح مسلم ط أولى سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .

(٢) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب أنهما قالا : عن أبى هريرة أن النبى (ص) قال (لا يزنى . . . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى لِيَكُونَ عليهم أشدَّ ، وليكونَ تخويفاً لمتعاطى ذلك الفعل ، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضعَ أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مِثْله ، وكيف عَصَمَهم من ذلك . وإنْ جرى منهم شئ من ذلك يذكروا عظيمَ نعمَةِ اللهِ عليهم ؛ كيف سَتَرَ عليهم ولم يفضحهم ، ولم يُقِمْهم فى الموضع الذى أقام فيه هذا المُبْتَلَى به . وسبيلُ من يشهد ذلك الموضعَ ألا يُعَيِّرَ صاحبَه بذلك ، وألا ينسى حُكْمَ اللهِ تعالى فى إقدامه على جُرْمِه .

قوله جل ذكره : ﴿ الزانى لا يَنكِحُ إلَّا زانيةً أو مُشْرِكَةً والزانيةُ لا ينكِحُها إلَّا زانٍ أو مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين ﴾

الناسُ أشكالٌ ؛ فكلٌّ نظيرٍ [1] مع شكله ، وكلٌّ يُساكِنُ شكلَه ، وأنشدوا :

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقارَنِ يقتدى

فأهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم — وإنْ تَبَاعَدَ مزارُهم (وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم — وإن تناءت ديارهم)[2]

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَرْمُون المُحْصَنَاتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداء فاجلِدُوهم ثمانين جَلْدةً ولا تَقْبلوا لهم شهادةً أبداً وأولئكَ هُمُ الفاسِقون ﴾

لئلا يستبيحوا أعراضَ المسلمين ، ولئلا يهتكوا أستارَ الناسِ أمَرَ بتأديبهم ، وإقامة الحدِّ عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (وكل طير . .) وربما كانت (وكلٌّ يطير) أو (فكل طير) ، والمثل يقول : (الطيور على اشكالها تقع) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى س .

ثم بالَغَ في عدد الشهود ، وألاّ تُقْبَلَ تلك الشهادةُ إلّا بالتضرعِ التام ، ثم أكده بقوله « ولا تَقْبَلُوا لهم شهادةً أبداً » . وفي الخبر المسند قوله عليه السلام : « مَنْ أتى منكم بشيءٍ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، فإنَّ مَنْ أبدى لنا صفحته ، أقمنا عليه حدَّ الله »[1]

قوله جل ذكره ﴿ إلّا الذين تابوا مِنْ بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

جَعَلَ من شرطِ قبولِ شهادته صِحَّةَ توبتِه ، وجعل علامةَ صحةِ توبته إصلاحهَ ، فقال : « وأصلحوا » ، وهو أن تأتي على توبته مدةٌ تنتشر فيها بالصلاح صفتُه ، كما اشْتَهَرَتْ بِهَتْكِ أعراضِ المسلمين قالتُه . كلُّ هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَرْمُون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلّا أنفسُهم فشهادةُ أحدِهم أربَعُ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصادقين ﴾

لمّا ضاق الأمرُ على من رأى أهلَه على فاحشة ، إذ أن في ذلك قبول نسبٍ غير صحيح — فقد نهى الشرعُ عن استلحاقه ولداً مِنْ غيره . وكان أمراً محظوراً هتكُ عِرضِ المرأة والشهادةُ عليها بالفحشاء ، إذ يجوز أن يكون الأمر في المغيب ، أي بخلاف ما يدَّعيه الزوجُ . ولأن ذلك أمرٌ ذو خَطَرٍ شَرَعَ اللهُ حُكمَ اللّعان[2] ليكون للخصومة قاطعاً ، وللمُقْدِمِ على

---

(1) رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر بإسناد جيد بلفظ : « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله تعالى عنها ، فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله ، وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله » (ص ١٥٥ ج ١ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ) .

(2) اللعان في الشريعة أن يقسم الزوج أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنا ، والخامسة باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذباً وبذا يبرأ من حد القذف . ثم تقسم الزوجة أربع مرات على كذبه ، والخامسة باستحقاقها غضب الله إن كان صادقاً فتبرأ من حد الزنا . وقد نزلت آية اللعان في هلال بن أمية أو عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء فكذبته ، فلاعن النبي (ص) بينهما . فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا — وهما من أهل الشهادة — صح اللعان بينهما ، واختلف الفقهاء هل تقع الفرقة بينهما بالتلاعن أم بتفريق القاضي .

الفاحشةِ زاجراً ، ففى مثل هذه الأحوال عنها مَخْرَجَة[1] . ولولا أنَّ الله على كل شىء قدير وإلا ففى عادة الناس . مَن الذى يهتدى لِمِثْلِ هذا الحكم لولا تعريفٌ سماوى وأمر نبوى ، من الوحى مُتَلَقَّاهُ[2] ، ومِن اللهِ مُبْتَداهُ وإليه منتهاهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّ الله توّابٌ حكيم﴾ .

... لبقيتم فى هذه الواقعة المعضلة ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشكلة .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ الذين جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم . لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسبَ مِنَ الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عَذَابٌ عظيم﴾

هذه قصة عائشة رضى الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيَّنَ اللهُ — سبحانه — أنه لا يُخْلِى أحداً من المحنة والبلاء ، فى المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُمْتَحَنُ الرجلُ على قَدْرِ دينه » ، وقال: « أشدُّ الناسِ بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »[3].

ويقال إن الله — سبحانه — غيورٌ على قلوب خواصٍّ عباده ، فإذا حصلت مساكنةُ بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِى اللهُ ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه ، ويردُّه إلى نفسه ، وأنشدوا :

إذا عَلِقَتْ روحى بشىء ، تعلَّقتْ ... به غِيَرُ الأيام كى تَسْلُبَنِّيَا

وإن النبى — صلى الله عليه وسلم — لمَّا قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

---

(١) المخرجة هى الخروج والخلاص من أمر شديد .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (مستفاد) وكلاهما صحيح ، ولكن الأولى أقوى مراعاة للموسيقى اللفظية ، وربما كانت (مستقاه) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . . . وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فسما كُنّها .

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك » . . . فأجرى اللهُ حديثَ الافكِ حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إلى الله ، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله ، حيث قال — لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها : بحمد الله لا بحمدك كشف الله عنها به تلك المحنة ، وأزال الشكَّ ، وأظهر صِدْقَها وبراءةَ ساحتها .

ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسةَ المؤمن فإنَّ المؤمن ينظر بنور الله »[1]، فإذا كانت الفراسةُ صفةَ المؤمن فأَوْلى الناس بالفراسةِ كان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءةُ ساحتها ، حتى كان يقول : « إنْ فَعَلْتِ فتوبي » .

والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يَسُدُّ اللهُ على أوليائه عيونَ الفراسةِ إكمالاً للبلاء . وكذلك إبراهيم — عليه السلام — لم يميِّز ولم يعرف الملائكة حيث قدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيذ ، وتوهمهم أضيافاً . ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان — صلى الله عليه وسلم — يقول لعائشة : « يا حُمَيْراء » .

فلما كان زمان الإفك ، وأرسلها إلى بيت أبويها ، واستوحش الأبوان معها ، ومَرِضَتْ عائشةُ — رضي الله عنها — من الحزن والوجد ، كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول :

كيف بيتكم ؟ لا عائشة ولا حميراء ! فما كان يطيب بالتغافل عنها ، فتعبيره — إنْ لم يفهمْهُ بالتصريح — فيفْقَهُهُ بالتلويح .

ثم إنه — سبحانه — قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم » : فبمقدار جُرْمِهم احتمل كلٌّ واحدٍ ما يخصُّه من الوِزْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ المؤمنون

---

(1) الترمذي والطبراني ، الترمذي من حديث أبي سعد ، والطبراني وأبو نعيم بسند حسن عن أنس .

والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا
هذا إفكٌ مُبينٌ ﴾ .

عاتبهم على المبادرةِ إلى الاعتراضِ وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها ، وتَرْكهم الإعراض عن حُرَم النبي صلى الله عليه . ثم قال : وهلاَّ جاءوا على ما قالوا بالشهداء ؟ وإذا لم يجدوا ذلك فهلاَّ سكتُوا عن بَسْطِ اللسان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتهُ
في الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أفضتم
فيه عذابٌ عظيم ﴾ .

لأنه أخبر أن جُرْمَهم — وإنْ كان عظيماً — فإنه في عِلْمِ اللهِ عنهم غير مُؤَثِّر ، ولولا أن الله — سبحانه — ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعلَّه لم يذكُرْ هذه المبالغة في أمرهم ؛ فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُرْبي على كل سوء — ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرفاقهم ، ولكن ما تتعلّق به حقوقُ أوليائه — لا سيما حق الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك عظيمٌ عند الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتكم وتقولون
بأفواهكم ما ليس لكم به عِلْمٌ
وتحْسَبُونه هيِّناً وهو عِندَ اللهِ عظيم ﴾

بالَغَ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تأذَّى به قلبُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » : وسبيلُ المؤمنِ ألا يستصغرَ في الوفاق طاعةً ، ولا يستصغرَ في الخلافِ زَلَّةً ؛ فإنَّ تعظيمَ الأمْرِ تعظيمٌ للآمِرِ . وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون مَنْ الآمرُ به .

ويقال : يَسيرُ الزَّلةِ — يلاحِظُها العبدُ بعين الاستحقار — فتُحْبِط كثيراً من الأحوال ، وتكدِّر كثيراً من صافي للشارب .

واليسير من الطاعة — ربما يستقلها العبدُ — ثم فيها نجاتُه ونجاةُ عالمٍ معه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قُلتُم ما يكونُ لنا أن نتكلَّم بهذا سبحانك هذا بُهْتَانٌ عظيم ﴾

استماعُ الغيبةِ نوعٌ من الغيبة ، بل مستمعُ الغيبةِ شرٌّ للمغتابين ؛ إذ بسماعه يَتِمُّ قصدُ صاحبِه . وإذا سَمِع المؤمنُ ماهو سوء قالةٍ في المسلمين — مما لاصحَّةَ له في التحقيق — فالواجبُ الردُّ على قائله ، ولا يكفى في ذلك السكوتُ دون النكير ، ويجب ردُّ قائله بأحسنِ نصيحةٍ ، وأدقِّ موعظةٍ ، ونوعِ تشاغُلٍ عن إظهارِ المشاركةِ له فيما يستطيب من نَشْرِه من إخجالٍ لقائله موحشٍ ، فإنْ أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن ؛ لأنه إنْ لم يَستحِ قائلُه من قوله فلا ينبغى أن يستحى المستمعُ من الردِّ عليه[1] .

قوله جل ذكره ﴿ يَعِظُكم اللهُ أن تعودوا لِمِثْلِه أبداً إن كُنتُم مؤمنين ﴾

يتعلّق هذا بأنَّ مَنْ بَسَطَ لسانَه فى عائشة — رضى الله عنها — بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية ، (ولعمرى قائلُ ذلك مرتكبُ كبيرةٍ ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك)[2] ؛ أى ينبغى للمؤمن ألا يتكلمَ فى هذا ، وهذا كما يقول القائل : « إذا كُنْتَ أخى فواسِنى عند شِدَّتى ؛ فإنْ لم تواسِنى لم تخرج عن الأُخُوَّةِ بذلك » . . ومعنى هذا القول أنَّه ينبغى للأخ أن يواسِىَ أخاه فى حال عَثْرَتِه ، وتَرْكُ ذلك لا يُبطِلُ النَّسبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يُحبُّون أن تشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم فى

---

(1) فى هذه الوصية تتجلى نزعة القشيرى فيما يمكن أن نسميه (آداب السلوك) ونزمع بعون الله أن ننجز بحثاً شاملا عن « علم الأخلاق عند الصوفية » .

(2) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م ، والعبارة هامة فى توضيح الرأى فى مرتكب الكبيرة ، ورد على من يلصقون وصمة الكفر — دون حساب — بالكثير من الناس .

الدنيا والآخرة والله يَعْلَمُ وأنتم
لا تعلمون ﴾

هؤلاء فى استحقاق الذم أقبحُ منزلةً ، وأشدُّ وِزْرًا حيث أحبوا افتضاح للسلمين ، ومن أركان الدين مظاهرةُ المسلمين ، وإعانةُ أولى الدِّين ، وإرادةُ الخير لكافة المؤمنين . والذى يودُّ فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخَلْق ، والله لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤهله لمنالِ خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورَحْمَتَه وأنَّ
الله رءوفٌ رحيم ﴾ .

كرَّر قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . » لِيُبَيِّنَ للجميع أنَّ حُسْنَ الدفعِ عنهم كان بفضله ورحمته وجميل المنح لهم ، وكلٌّ يشهد حُسنَ المَنْحِ ويشكر عليه ، وعزيزٌ عبدٌ يشهد حُسْنَ الدفع عنه فيحمده على ذلك[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطواتِ
الشيطان ومَن يتّبِعْ خُطواتِ الشيطان
فإنه يأمر بالفحشاءِ والمنكرِ ﴾

إذا تَنَقَّى القلبُ عن الوساوس ، وصفا عن الهواجس بَدَتْ فيه أنوارُ الخواطر ، فإذا سما وقتُ العبدِ عن ذلك سَقَطَتْ الخواطر ، وبدت فيه أحاديث الحق — سبحانه — كما قال فى الخبر : « لقد كان فى الأمم محدَّثون فإن يكن فى أمتى فعُمَر » . وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد ، ولا يكون فيه احتمالٌ ولا إشكال ولا إزعاج ، وصاحبُه يجب أنْ يكون أميناً ، غيرَ مُظْهِرٍ لِسِرٍّ ما كُوشِفَ به[2]

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه ما زكَىٰ
منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله
يُزَكِّى من يشاء والله سميعٌ عليم ﴾

---

(١) أى يكثر فى الحياة من يشكر على نعمة المنح ويقل من يشكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجرى بأثر ملموس ، والثانية تجرى ولا يكاد يشعر بها المرء .

(٢) هنا نجد القشيرى يطالب بالكتمان دون الإفصاح فى الكتمان حفظ للأمانة .

رَدَّهم فى جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منَّ الحقُّ فى قسمى النفع والدفع ، وحالتى العسر واليسر ، والزَّكى[1] من الله ، والنُّعمى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم والسَّعَةِ
أن يؤتوا أولى القُرْبىٰ والمساكين
والمهاجرين فى سبيلِ الله وليعفوا
وليصفحوا﴾

تحرَّك فى أبى بكر عِرْقٌ من البشرية فى وصف الانتقام من مسطح[2] حين شرع وخاضَ فى ذلك الحديث ، وكان فى رفق أبى بكر فقطع عنه ذلك ، وأخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمرَ من الله فى ذلك ، فأنزل الله تعالى : « ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم . . » فلم يرضَ من الصديق رضى الله عنه أن يتحرك فيه عِرْقٌ من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله فى ماضى أيامه . والإحسان إلى المحسن مكافأة ، وإلى مَنْ لا يسىء ولا يحسن فضل ، وإلى الجانى فُتُوَّةٌ وكَرَمٌ[3] ، وفى معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن كلِّ زَلَّةٍ حتى أنالوا كَفَّهُ وأفادوا

قوله : « وليعفوا وليصفحوا » : العفو والصفح بمعنىً ، فكررها تأكيداً .

ويقال العفو فى الأفعال ، والصفح فى جنايات القلوب[4] .

---

(١) الزكى والزكاء = النماء والزيادة ، وزكى الشىء = أصلحه وطهره .

(٢) مسطح ابن خالة أبى بكر ، وكان مسكينا ، بدريا مهاجراً ، كان ينفق عليه أبو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن يغفر الله لى ، ورد إلى مسطح نفقته رغم ما خاض فى عائشة رضى الله عنها .

(٣) يمكن أن يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى عقده القشيرى « للفتوة » فى رسالته .

(٤) نعرف عن القشيرى أنه لا يتحمس كثيراً للقول بأن بالقرآن تكراراً ، لأجل ذلك نراه يسرع إلى التمييز بين العفو والصفح عقب ذكره أنهما بمعنى .

قوله جل ذكره: ﴿أَلا تُحِبون أن يَغْفِرَ اللهُ لكم
والله غفورٌ رحيم﴾

هذا من كمال تلطفه — سبحانه . وفى الخبر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر — رضى الله عنه : « بلى ، أُحِبُّ يارب » ، وعفا عن مسطح . وإن الله لا يغادر فى قلوب أوليائه كراهة من غيرهم ، وأنّى بالكراهة مِنَ الخَلْق والمتفرِّدُ بالإيجاد اللهُ ؟! وفى معناه أنشدوا :

رُبَّ رامٍ لى بأحجار الأذى لم أجِدْ بُدًّا من العطف عليه
فعسى أنْ يَطّلعَ اللهُ على قَدَحٍ القومِ فيُدْنِينى إليه

قوله جل ذكره: ﴿إنَّ الذين يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ
الْغَافِلاَتِ المؤمناتِ لُعِنُوا فى الدنيا
والآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾

بالغ فى توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة فى شأنهم .

ووَصَفَ المحصناتِ بالغفلة : أى بالغفلة عما يُنْسَبْنَ إليه ؛ فليس الوصف على جهة الذمِّ ، ولكن لبيان تباعدهن عمَّا قيل فيهن .

واستحقاقُ القَذَفَةِ لِلَعْنَةِ — فى الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشؤم زلتهم تتغير عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يوم تشهد عليهم أَلْسِنَتُهُم وأَيْدِيهم
وأَرْجُلُهم بما كانوا يعملون﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه نَظَرَ بى ، تشهد بأنه بكى بى .. وكذلك سائر الأعضاء .

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنه : من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة . وهذا تعظيم ومبالغة فى أمر الإفك .

ويقال شهادةُ الأعضاء في القيامة مُؤجَّلةٌ ، وشهادتها في المحبة اليومَ مُعَجَّلة ؛ من صُفْرَةِ الوجهِ إذا بدا المحبوب ، وشحوبِ اللون ، ونحافةِ الجسم ، وانسكابِ الدموع ، وخفقان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ يُوَفِّيهم اللهُ دينَهم الحقَّ ويعلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المُبين ﴾

يجازيهم على قَدْرِ استحقاقهم ؛ للعابدين بالجنان والمثوبة على توفيةِ أعمالِهم ، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفيةِ أحوالِهم ؛ فهؤلاء لهم عُلُوُّ الدرجات ، وهؤلاء لهم الأُنس بعزيزِ المشاهدات ودوام المناجاة .

« ويعلمون أن الله هو الحق المبين » : فتصيرُ المعرفةُ ضروريةً ؛ فيجدون المُعَافاةَ من النَّظَرِ وتَذَكُّرِهِ ، ويستريح القلبُ من وَصْفِ تَرَدُّدِهِ وتَغَيُّرِهِ : (لاستغنائه ببصائره عن تَبَصُّرِه)[1] .

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحقَّ ؛ فهم قائمونَ بالحق للحق مع الحق ، يبيِّن لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، ويكون القائمَ عنهم ، والآخذَ لهم منهم من غير أنْ يُرَدَّهم إليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الخبيثـاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ .

« الخبيثات » : من الأعمال وهي المحظورات « للخبيثين » : من الرجال المُؤْثِرِين لها طوعاً ، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلٌّ مربوطٌ بما يليق به ؛ فالفِعْلُ لائقٌ بفاعله ، والفاعلُ بِفِعْلِه في الطهارة والقذارة ، والنفاسة والخساسة ، والشرفِ والسَّرَفِ .

ويقال « الخبيثات » : من الأحوال ؛ وهي الحظوظُ والمُنَي والشهواتُ لأصحابها والساعين لها . والساعون لمثلها لها ، غيرَ ممنوعٍ أحَدُها من صاحبه ، فالصفةُ للموصوف مُلازِمة ، والموصوفُ لِصِفَتِه ملازِمٌ .

---

(1) هكذا في النسختين ، ويكون مراد القشيري أنه لم يعد مجال للتبصر فقد أصبح الشهود عيانا ، وتحققت لهم الرؤية البصرية التي لم ينالوها في الدنيا ، ونفهم أن القشيري لا يرى الرؤية العيانية إلا في الآخرة .

ويقال « الخبيثات » : من الأشياء للخبيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالنازل السحيقة . . . وإنَّ طعامَ الكلابِ الجِيَفُ .

ويقال « الخبيثاتُ » : من الأموال — وهى التى ليست بحلالٍ — لمن بها رتبته ، وعليها تعكف هِمَّتُه ، فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلاّ لمثل تلك الأموال ،وتلك الأموال لا تساعد إلا مثلَ أولئك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبـاتُ للطيبين والطيبون الطيباتِ ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال هى الطاعات والقُرَبُ للطيبين ، والطيبون هم المؤْثِرُون لها والساعون فى تحصيلها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهى تحقيق المواصلات بما هو حقُّ الحق ، مُجَرَّداً عن الحظوظ — « للطيبين» من الرجال ، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتهم عن كلِّ مُبتَذَلٍ خسيس ،ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالى ، وهى التجمُّلُ بالتذلل لِمَنْ له العِزَّةُ .

ويقال الطيبات من الأموال — وهى التى لا نكيرَ للشرع عليها، ولا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيها— للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلَّصوا من رِقِّ الكون .

ويقال «الطيبات» من الأشخاص وهن المُبَرَّآتُ من وهج الخطر، المتنقيات عن سفساف أخلاق البشرية ، وعن التعريج فى أوطان الشهوات — «للطيبين» من الرجال الذين هم قائمون بحقِّ الحقِّ، لا يصحبون الخَلْقَ إلا للتعففِ، دون استجلاب الشهوات .

﴿ لهم مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾

لهم مغفرةٌ فى المآل ، ورزقٌ كريم فى الحال وهو ما ينالون من غير استشرافٍ، ولا تطلب طمعٍ ، ولا ذلِّ مِنَّةٍ(١) ، ولا تقديم تَعَبٍ(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتدخُلُوا بيوتاً غير

---

(١) أى (مِنَّة) من مخلوق .

(٢) (التعب) الذى ينشأ عن الاستعجال وعدم التفويض ونقص الثقة .

بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا
على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم
تذكّرون ﴾

الخواصُ لا يرَوْنَ لأنفسهم ملْكاً يتفردون به ، لا مِنَ الأموال المنقولة ولا من المساكن التى تصلح لأن تكون مدخولة ، فمَنْ فاتحهم بشىء منها فلا يكون منهم مَنْعٌ ولا زَجْرٌ ، ولا حَجْبٌ لأحدٍ ولا حظْرٌ . هذا فيما نيط بهم . أمَّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرَّضون لمن هى فى أيديهم ، لا باستشرافِ طَمَعٍ ، ولا بطريقِ سؤالٍ ، ولا على وجهِ انبساطٍ[1] . فإنْ كان حكمُ الوقت يقتضى شيئاً من ذلك فالحقُّ يُلجىء مَنْ فى يده الشىء ليحيلَه إليه بحكم التواضع والتقرُّب، والولىُّ يأخذ ذلك بنعتِ التعزُّز، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة[2]، وأنشد بعضهم فى هذا المعنى :

وإنى لأستحى مِنَ الله أنْ أرَى   أسيرَ بحبلٍ ليس منه بعيرُ
وأنْ أسألَ المرءَ اللئيمَ بعيره   وبعرانُ ربّى فى البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره : ﴿ فإن لم تجدُوا فيها أحدًا
فلا تدخلوها حتى يؤْذَنَ لكم ﴾

فى هذا حِفْظُ أمْرِ الله وحِفْظُ حُرْمةِ صاحب الدارِ ، لأنَّ مَنْ دَخلها بغيرِ إذْنِ صاحبها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة ، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يَطَّلِعَ عليه غيرُه ، فلا ينبغى أن يدخل عليه من غير استئذان .

﴿ وَإن قيل لكم ارجعُوا فارْجِعُوا هو
أزْكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾.

---

(١) يقول السرى السقطى فى مثل هذا السياق : « أعرف طريقا مختصراً قصداً إلى الجنة . فقيل له ما هو ؟ فقال : لا تسأل من أحد شيئا . ولا تأخذ من أحد شيئا ، ولا يكن معك شىء تعطى منه أحداً » الرسالة ص ١١ » .

(٢) أى بأرباب الطريق الصوفى

إن قيل لكم : ارجعوا .. فارجعوا ؛ فقد تكون الأعذارُ قائمةً ، وصاحبُ المِلك بِملكِه أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جُناحٌ أن تدخلوا بيوتاً غيرَ مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم والله يَعْلمُ ما تُبْدون وما تَكْتُمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الجُناحَ والحَرَجَ في الانتفاعِ بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبُه بغيرِ إذْنِه ؛ كدخولِ أرضٍ للداخلِ فيها أغراضٌ لقضاءِ حاجته — ولا يجد طريقاً غير ذلك — إذا لم يكن في دخوله ضَرَرٌ على صاحبها ، وجرى هذا مجرى الاستظلال بظلِّ حائطٍ إذا لم يكن قاعداً في مِلكِه ، وكالنظر في المرآة المنصوبة في جدار غيره . . وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون قضية العقل — على ما توهمَّه قومٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لِلمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهِم ويَحْفَظوا فُرُوجَهم ذلك أزْكى لهم إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنعون ﴾ :

« يغضوا » : من أبصار الظواهر عن المُحَرَّمات ، ومن أبصار القلوب عن الفِكَرِ الرَّدِيَّة ، ومن تصوُّرِ الغائبات عن المعاينة(١) ، ولقد قالوا : إنَّ العينَ سببُ الحَيْن ، وفي معناه أنشدوا :

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائداً لقلبِك — يوماً — أتعبَتْكَ المناظرُ

وقالوا : مَنْ أرسل طَرْفَه اقتضى حَتْفَه .

وإن النظرَ إلى الأشياء بالبَصَرِ يوجِبُ تَفَرقَةَ القلوب .

ويقال إن العدوَّ إبليسَ يقول : قوسي القديمُ وسهمي الذي لا يخطىء النظرُ . وأرباب

(١) ربما يقصد القشيري أن ينهى عن إقحام فكرة النظر بالعين في الأمور الغيبية ، وبمعنى آخر النهي عن إخضاع كل شيء للحس ، فطبيعة الغيبيات تختلف عن ذلك ؛ وإلا كنت كمن يحاول عبور الماء فوق جواد ، أو يعبر اليابسة وهو في سفينة — على حد تعبير جلال الدين الرومي في سياق مماثل .

المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحَسَّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم فى المجاهدة فى أحوال الرياضة(١) .

ويقال قَرَنَ اللهُ النهى عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفَرْجِ فقال : « ويحفظوا فروجَهم » تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر ؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد ، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق — سبحانه — يكاشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرُّضٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل لِلمؤمناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارِهنِ ويَحْفَظْنَ فروجَهن ولا يُبْدِين زينتهن إلا ما ظَهَرَ منها ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهنَّ على جيوبِهنَّ ﴾

المطالَبةُ عليهن كالمطالبةُ على الرِّجال لشمولِ التكليفِ للجنسين ، فالواجبُ عليهن تركُ المحظوراتِ ، والندبُ والنَّفْلُ لهن صونُ القلب عن الشواغل والخواطر الردية ، ثم إنِ ارْتَقَيْنَ عن هذه الحالةِ فالتعامى بقلوبهن عن غيرِ المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » : ما أباح الله — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمُستثنىً من الحظرِ ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات فى الآجل ، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أولياءه عما يضرهم فى الدِّين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخَلْق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفى الجملةِ مافيه زينة العبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أنَّ للنساءِ عورةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك مَنْ أظهر للخَلْق ما هو زينة سرائره(٢) من صفاءِ أحواله ، وزكاء أعماله

---

(١) سقطت (الرياضة) من النسخة ص .

(٢) هنا يجدد القشيرى رأيه بدقة فى قضية الإفصاح والكتمان . فالأصل عنده الكتمان ، فإذا افصح العبد فلا يكون ذلك إلاَّ لاضطرار ويكون عندئذ غير مؤاخذ لأنه بعيد عن التعمل والتكلف.

انقلب زَيْنُهُ شَيْناً ، إلا إذا ظهر على أحدٍ شيء — لا بتعمله ولا بتكلُّفه — فذلك مستثنىً لأنه غير مُؤَاخَذٍ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه ، فذوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُسْتَثْنَى حُكْمُهن عن الحظرُ (١).

قوله جل ذكره : ﴿ أَوِ التابعين غيرِ أولى الإِرْبَةِ مِنَ الرجالِ أَوِ الطِّفْلِ الذين لم يَظْهروا على عوراتِ النساءِ ﴾

تُرَاعَى فى جميع ذلك آدابُ الشرع فى الإباحة والحظر .

قوله جل ذكره ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكم تُفْلحون ﴾

التوبةُ الرجوعُ عن المذموماتِ من الأفعال إلى أضدادها المحمودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزَّلَّة وهى توبة العوام ، وتوبة عن الغفلة وهى توبة الخواص . وتوبةٌ على محاذرة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أمَرَ الكافةَ بالتوبةِ ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصَّ الخاصِّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفِّق.

ويقال أمَرَ الكلَّ بالتوبةِ لئلا يخجلَ العاصى من الرجوع بانفراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رِفقاً بهم — من أمارات الكَرَمِ .

ويقال فى قوله : « لعلكم تفلحون » يتبين أنَّه أمَرَهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك ، لا ليكون للحقِّ — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم تجمُّلٌ .

ويقال أحوجُ الناس إلى التوبةِ مَنْ تَوَهَّمَ أنَّه ليس يحتاج إلى التوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنكِحُوا الأيامى منكم والصالحين

---

(١) يصلح هذا نموذجاً (للقياس) إن أردنا بحث ما اسميناه (الفقه الصوفى) .

مِنْ عِبادكم وإمائِكم إن يكونوا
فُقَراء يُغْنِهِمُ الله من فَضْله واللهُ
واسِعٌ عليم ﴾

إذا كان القصدُ فى المناكحة التأدبَ بآداب الشرع يكفى الله ببركاته مطالباتِ النفس والطبع ، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاء نسْلٍ يقوم بحقِّ الله(١) .

قوله : « إن يكونوا فقراء يُغْنِهم الله فى من فضله : يُغْنِيهمُ اللهُ فى الحال، أولاً بالنفس ثم غِنَى القلب ؛ وغِنىُ القلبِ غِنىٌ عن الشيء ، فالغِنىٌ عن الدنيا أَتَمُّ من الغنى بالدنيا .

ويقال إن يكونوا فقراء فى الحال يُغْنِهم الله فى المستأنف والمآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَستعفِفِ الذين لا يجدون نِكاحاً
حتى يُغْنِيَهُم الله من فَضْله ﴾

مَنْ تقاصر وسعُه عن الإنفاقِ على العيال فليصبر على مقاساة التحمل فى الحال ، فَعَنْ قريبٍ تجيبه نَفْسُه إلى سقوط الأَرَب ، أو الحق — سبحانه — يجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يَحْتَسِب ، ولا تخلو حالُ المتعفِّفِ عن هذه الوجوه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يبتغون الكتابَ مِمَّا مَلَكَتْ
أيمانُكم فكاتِبوهم إنْ عَلِمْتُمْ
فيهم خيراً وآتوهم من مالِ الله
الذى آتاكم ﴾

أى إنْ سَمَحَتْ نفوسكم بإزالة الرِّقِّ عن المماليك — الذين هم فى الدين إخوانكم — من غير عِوَضٍ تلاحظون منهم فلن تخسروا على الله فى صفقتكم . وإنْ أبيتم إلا العوض ودعوا إلى الكتابة، وعلمتم بغالب ظنكم صحةَ الوفاء بمال الكتابة من قِبَلِهم فكاتبوهم(٢) ،

---

(١) كذلك دعا الأنبياء ربهم حين طلبوا الذرية .

(٢) المكاتبة أن يقول لمملوكه : « كاتبتك على ألف درهم » مثلا ، فإن أداها عتق ، ومعناها كتبت عليك بالوفاء وكتبت على بالعتق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجهٍ ؛ من قدْرٍ يحط من مال الكتابة ، وإعانةٍ لهم من فروض الزكاة[1] ، وإمهالٍ بِقدْرٍ ما يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له .

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرِّفقِ حتى يصل المملوكَ المسكينُ إلى عتقه فبالحرىِّ أن يسموَ الرجاء إلى الله بجميل الظنِّ أن يُعْتِقَ العبدُ من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقدر وسعه — من عناءٍ قاساه ، وفضلٍ من الله — عن قديمٍ — رجاه[2] .

ثم في الخبر : « إن المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم » : والعبد يسعى بجهده ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكمال رِقِّه وليس في الحقيقة بِحُرٍّ .. فالمكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُكْرِهوا فتياتِكم على البغاء إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لتَبْتَغوا عَرَضَ الحياةِ الدنيا ، ومَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غفورٌ رحيم ﴾ .

حاملُ العاصى على زَلَّته ، والداعى له إلى عَثْرته ، والمُعينُ له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوِزْرِ أكثرُ مِنْ غيره ، وبعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أنزَلْنا إليكم آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ ومثلاً مِنَ الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين ﴾

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في أسهم الزكاة : (وفي الرقاب) وعند الشافعي — رحمه الله — حطوا من بدل الكتابة ربعاً .

(٢) للنسفي كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد القشيري حيث يقول : العابد كالعبد فهو يشترى نفسه من ربه بنجوم مرتبة ليسعى في فكاك رقبته خوفا من البقاء في ربقة العبودية وطمعا في فتح باب الحرية ليسرح في رياض الجنة ، فعليه في اليوم والليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي العمر زورة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً[1] ، ولم يترك الحقُّ — سبحانه — للإشكال محلاً ؛ بل أوْضَحَ المنهاجَ وأضاء السِّراجَ ، وأنار السبيلَ وألاح الدليل ، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ ، ولا يمسُّه تعب .

قوله جل ذكره : ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾

أى هادى أهل السمواتِ والأرض ، ومنه نورها . والذى منه الشيء يسمى باسمه الشيء . ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً ؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أى منوِّرها وخالقُ مافيها من الضياء والزينة ، وموجِدُ ما أودعها من الأدلة اللائحة .

ويقال نوَّر اللهُ السماء بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح »[2] فكذلك زينَ القلوب بأنوارٍ هى نورُ العقلِ ونورُ الفهم ونورُ العلمِ ونورُ اليقينِ ونورُ المعرفةِ ونورُ التوحيد[3] ، فلكلِّ شيءٍ من هذه الأنوار مطرحُ شعاعٍ بقدره فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ
المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها
كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ من شجرةٍ
مُباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولاغربيةٍ
يكاد زيتُها يضيء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى اللهُ لنورِه مَن
يشاء ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ
واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم ﴾ .

قوله « مثل نوره كمشكاة .. » : أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبَّهَ صدرَه

(١) الغبرة = لطخ الغبار .   (٢) آية ١٢ سورة فصلت .

(٣) نلفت النظر إلى أهمية هذا الترتيب فى توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهى تتدرج فى الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى شمس الشموس .

بالمشكاة ، وشبَّه قلبَه فى صدره بالقنديل فى المشكاة ، وشبَّه القنديل — الذى هو قلبه — بالكوكب الدرىّ ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافى الذى يمدّ السراج فى الاشتعال . ثم وصفَ الزيتَ بأنّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خللٍ مسَّه . ثم وصف ذلك الزيت — فى صفوته — بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسّه نار .

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الحنيفى ، فما كان يهودياً — وهم الذين قِبلتُهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً — وهم الذين قبلتهم فى ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونورُ معرفته موقدٌ من شجرةٍ هى إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالعشى دون الغداة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشى ، بل تصيبه الشمسُ طولَ النهارِ ليتمّ نضج زيتونه ، ويكمل صفاء زيته . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوفُ قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يعتدلان ؛ فلا يغلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيبتهم أُنسهم ، وقبضُهم بسطَهم ، وصحوُهم محوَهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامُهم بآداب الشريعة تحقّقَهم بجوامع الحقيقة [1] .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أى أن هِمَمَهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عَرْشاً ولا كرسياً ، سطعت [2] عن الأكوان ، ولم تجد سبيلا إلى الحقيقة ؛ لأن الحقّ مُنزّهٌ عن اللحوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالحق غير

---

(١) فالقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه بين طرفى الأحوال حتى يصفو له .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (شطحت) وربما قبلناها فالسياق لا يرفضها .

متصلة[1] ، وهذه صفة الغرباء . . وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرِّج في أقطار الكسل ، فيصل سَيْرَه بِسُراه في استعمال فِكْرِه ، والحقُّ يمده : بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارضِ الاجتهادِ شيء من حُبِّ رياسةٍ ، أو ميلٍ لسوء ، أو هوادة . فإذا أسفر صُبْحُ غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهْد ، وحصول الوَجْدِ عند أداء الوِرْد .

ثم بعده نور المعاملة ، ثم نور المنازلة ، ثم متوع نهار المواصلة . وشموس التوحيد مشرقة ، وليس في سماء أسرارِهم سحابٌ ولا في هوائها ضبابٌ ، قال تعالى : « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نظَرَ في ديوانه ، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرَّعُ كاساتِ نَدَمِهِ ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِه ، والتَّنَقِّي عما كان عليه في أوقات فترته . فإذا استقام في ذلك كُوشِفَ بنور المراقبة ، فيعلم أنَّه — سبحانه — مُطَّلِعٌ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلِّي الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلُه نهاراً ، ونجومُه أقماراً ، وأقمارُه بدوراً ، وبدورُه شموساً . . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم مالا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ ، فالعبارات — عند ذلك — خُرْسٌ ، والشواهد طُمْسٌ ، وشهود الغير عند ذلك محال[2] . عند ذلك : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العشار عطلت »[3] ، « وإذا السماء انشقت ، وانفطرت . . »

---

(١) هذا نموذج للتصوف الإسلامي الحق الذي لا تشوبه شائبة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، فالرب رب والعبد عبد ، ولا تداخل بينهما .

(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسوى ، فقد فني العبد عن نفسه وعن الغير الله تماما فناءً ذوقياشهوديا ، لا فناء طبيعيا كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .

(٣) سورة التكوير .

فهذه كلها أقسام السكون . وما من العَدَم لم صار إلى العدم . القائمُ عنهم غيرُهم ، والكائن عنهم سواهم . وجلّتْ الأحديةُ وعزّتْ الصمدية ، وتقدّستْ الديمومية ، وتنزهت الإلهية .

قوله جل ذكره : ﴿ فى بيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة ﴾

المساجدُ بيوتُه — سبحانه — وإنَّ اللهَ أَذِنَ أنْ تُرْفَعَ الحوائجُ فيها إليه فيقضيها ، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار . المساجدُ بيوتُ العبادةِ والقلوبُ بيوتُ الإرادة ، فالعابدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله ، والقاصدُ يصل بإرادته إلى الله .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مَشاهِدُ المحبة ، والأسرار محالُّ المشاهدة .

قوله : « يسبح له فيها بالغدو . . . . » لم يقل : لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون ، بل قال : لاتلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، فإنْ أمكن الجمع بينهما فلا بأسَ — ولكنه كالمتعذر — إلاَّ على الأكابر الذين تجرى عليهم الأمورُ وهم عنها مأخوذون[1] .

ويقال هم الذين يُؤْثِرون حقوقَ الحقِّ على حظوظ النَّفْس .

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن : حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ، وقاموا لأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم » عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عِوَضٍ أو مطالعة سبب .

قوله جل ذكره : ﴿ يخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأبصارُ ﴾

(١) هذا رأى حاسم فى مدى وجوب السعى من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير لموقف من يعجزون عن ذلك .

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤجَّلٌ لهم، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت ؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ ترَقُّبُ العقوباتِ مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يرزق مَن يشاء بغيرِ حسابٍ ﴾

مَنْ رَفَعَ الحسابَ من الوَسَطِ يَرْفَعْ معه الحسابَ[1] ، ومَنْ هو فى أسْرِ مطالباته فالوزنُ يومئذٍ الحقُّ .

والرزقُ بغير حسابٍ فى أرزاق الأرواح ، فأمّا أرزاقُ الأشباحِ فحصورةٌ معدودةٌ ؛ لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهى وجودُ أفضالٍ وفنونُ نوالٍ . وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أن يأتِىَ عليه العَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجلالِ فذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً ، ووَجَدَ اللهَ عِندَه فوفَّاه حِسَابَه ، واللهُ سريعُ الحسابِ ﴾

وقال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يُحْسِنُون صنعاً »[2] ، وقال : « وَيَحْسَبُونَ أنهم على شىء »[3] . ومَنْ أَمَّل السرابَ شراباً فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعلمَ أنَّه كان تخييلاً ؛ فالعَطَشُ يزداد ، والروح تدعو للخروج .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يغشاه

---

(١) وربما يقصد القشيرى من هذه العبارة أولئك الذين يعبدون الله لذاته دون حساب فى العلاقة لثواب أو عقاب ، ويتأيد ذلك بقوله فى العبارة التالية (ومن هو فى أسر مطالباته . .) أى من ابتغى العوض ؛ لأنه يكون على حد تعبير رابعة كالأجير السوء .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) آية ١٨ سورة المجادلة .

موجٌ مِن فوقِه موجٌ مِن فوقِه
سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بعضُها فوق
بَعْض إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ
يراها ومَن لَمْ يجعلِ اللهُ له نوراً
فمَا لَهُ مِن نورٍ ﴾

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفرقة ، وليالى الُجحْدِ ، وحنادسُ الشكِّ إذا اجتمعت فلا سِراجَ لصاحبِها ولا نجوم ، ولا أقمارَ ولا شموسَ .. فالويلُ ثم الويل !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لعبدٍ نورُ القسمة ، ولم يساعده تَعَلُّقٌ فجهدُه وكدُّه ، وسَعْيُه وجِدُّه عقيمٌ من ثمراته ، موئِسٌ من نَيْلِ بركاته . والبدايات غالبةٌ للنهايات ؛ فالقبولُ لأهلِه غيرُ مجتَلَبٍ ، والردُّ لأهله غير مكتَسبٍ . وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة فى عِلْمِه فى آزاله ، وأراد كونَ ما عَلِمَ من أفعاله يكون ، وأخبر أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلِمَ(1) .

وهكذا القول فى الشقاوة ؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ ، ولا تتوجهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّح له مَن
فى السمواتِ والأرضِ ، والطيرُ
صافَّاتٍ كُلٌ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحه
واللهُ عليمٌ بما يفعلون ﴾

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالة وخَلْق ؛ فتسبيحُ الخَلْقِ عام من كل مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحٌ خاصٌ بالحيوانات ، وتسبيحٌ خاصٌ بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير بصيرة ؛ فالذى قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذى تجرَّدَ عن العرفان مردود .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ
وإلى اللهِ المصيرُ ﴾

(1) هذا شرح جميل لفكرة القشيرى عن : «الله خالق أفعال العباد» التى هى إحدى أصول عقيدته الكلامية .

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْك ، والمالك القدرة على الإيجاد ؛ فالمقدورات — قبلَ وجودِها — للخالق مملوكة ، كذلك فى أحوال حدوثها بعد عدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه ، فمُلْكُه لا يحدث ولا يزول ولا يَحُولُ شىء منه إلى البطول .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَابًا ثم يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثم يجعله رُكامًا فترى الوَدْقَ يخرج مِنْ خِلالِهِ ويُنَزِّل مِنَ السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيُصِيب به مَن يشاء ويَصْرِفُهُ عن يشاء يكاد سنَا بَرْقِهِ يذهب بالأبصارِ * يُقَلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ إنَّ فى ذلك لَعِبْرَةً لأولى الأبصار ﴾ .

تعرَّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنْعِهِ فى بديع حكمه ، وبما يدل منها على كمال قدرته ، وشمول علمه وحكمه ، ونفوذ إرادته ومشيئته . فَمَنْ أنعم النظرَ وَصلَ إلى بَرْدِ اليقين ، ومَنْ أعرض بقى فى وَهْدَةِ الجحْدِ وظلمات الجهل .

ترتفع بقدرته بخاراتُ البحرِ ، وتصعد بتسييره[1] وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ، ثم يُديرها إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر قطرةً قطرةً ، ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْبٍ فيقلبه عَذْبًا ، ويُسِحُّه السحابُ سَكْبًا ، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْرًا يكون له مُرادًا معلومًا ، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسِكُ أو يُنَزِّلُ ، ولا بالحيلةِ يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذى لا يُمْطِره[2] .

« يُقَلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ » : وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار .. ذلك تقدير العزيز العليم .

---

(١) وربما كانت فى الأصل (بتيسيره) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٢) نفى الجهد والحيلة من أمارات الاعتماد على التقدير وإسقاط التدبير

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ خلَقَ كُلَّ دابةٍ من ماءٍ فمنهم مَّن يمشى على بَطْنِه ومنهم من يمشى على رِجْلين ومنهم من يمشى على أربع يَخْلُقُ اللهُ ما يشاء إنَّ الله على كلِّ شىء قدير ﴾ .

يريد خلقَ كُلَّ حيوانٍ من ماء ، يخرج من صُلْب الأب وتريبة[1] الأمِّ . ثم أجزاء الماء متساويةٌ متماثِلةٌ ، ثم ينقسم إلى جوارح فى الظاهر وجوارح فى الباطن ، فيختصُّ كلُّ عضو وينفرد كل شِلْوٍ[2] بنوع من الهيئة والصورة ، وضَرْبٍ من الشكلِ والبِنْيَةِ . ثم اختلاف هيئات الحيوانات فى الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ، ثم فى القامة والمنظر ، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجِلْدٍ وعَظْمٍ وسِنٍّ ومُخٍّ وعَصَب وعِرْقٍ وشَعْرٍ .

فالنظرُ فى هذا — مع العبرة به — يوجبُ سجودَ البصيرةَ وقوة التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ واللهُ يهدى مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾

الآيات بَيِّنةٌ ولكنَّ اللهَ يهدى إليها قوماً ويُلَبِّس على آخرين ، والذى سُدَّ بَصَرُه أنَّى ينفعه طلوعُ الشمسِ والنجوم ؟ وكذلك الذى سُدَّت بصيرته أنَّى تنفعه شواهدُ العلوم ودلائلُ الفهوم ؟ وقالوا فى معناه :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته ... اذا استَوَتْ عِنْدَه الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون آمَنَّا بالله وبالرسولِ وأطعنا ثم يَتَوَلَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

---

(١) وردت (تربة) والصواب أن تكون (تريبة) الأم وهى عظمة الصدر مما يلى الترقوتين والجمع ترائب .
(٢) الشلو = العضو .

يستسلمون فى الظاهر ويُقِرُّون باللسان ، ، ثم المخلص يبقى على صدقه .

والذى قال لخوفِ سيفِ المسلمين ، أو لِغَرَضٍ له آخر فاسد يتولى بعد ذلك ، وينحاز إلى جانب الكَفَرَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكُمَ بينهم إذا فريقٌ منهم مُعْرِضون ﴾

علموا أن افتضاحهم فى حكم نبيّهم ، فمن عَلِم أنه قاسط فى خصومته لم يَطِبْ نفساً بحُكْمِه . وكذلك المريبُ يَهْرُبُ من الحقِّ ، ويجتهد فى الفرار[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَكُن لهم الحقُّ يأتُوا إليه مُذْعِنين ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حُكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذى يميل بين الصحة والسقم ؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نَفْىٌ بالقطع ولا إثباتٌ بالعلم ، فهم متطوِّحون فى أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أفى قلوبهم مَرَضٌ أم ارتابوا أم يخافون أن يحيفَ اللهُ عليهم ورسولُه بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

فلمَّا انخرطوا فى سلك التجويز ما حصلوا إلا فى ظُلَمِ الشك ، ولما لم يكن لهم يقينٌ فى القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطَعْنا وأولئك هم المُفلِحون ﴾ .

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٢١ ان هذه الآية نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمدا يحيف علينا . . . إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنُهم قيامُهم بإظهار ماضمنوه من التحقيق ، ومنْ يُقَابِلْ أمرَ الله بالطاعة ، ويستقبلْ حُكمه بالاستخذاء .. فأولئك هم الصادقون فى الحقيقة ، السالكون فى الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِنْ أمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طاعةٌ معروفةٌ إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون ﴾ .

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج فى المستقبل ، فقال : لا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به ؛ فطاعةٌ فى الوقت أَوْلى من تسويفٍ بالوعد .

ثم قال : قُلْ يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .. فإن أجابوا سَعِدُوا فى الدارين ، وأحسنوا إلى أنفسهم . وإنْ تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أضَرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم فى المستقبل عليهم ، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم ، وليس على الرُسلِ إلا حُسْنُ البلاغ . ويومَ الحشرِ يُعْطَى كُلُّ أحدٍ كتابَه ، ويُعَامَلُ بمقتضى حساب نَفْسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الأرضِ كما استخلَفَ الذين من قَبْلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم ولَيُبَدِّلَنَّهُم منْ بعدِ خوْفِهم أمْناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومَن كَفَرَ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وَعْدُ الله حقٌ وكلامُه صدقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه — بالإجماع —

لم يتقدمهم فى الفضيلة — إلى يومنا — أحدٌ[1] ؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم ، وصدَّق وعدُ الله فيهم ، وهم على الدين المرضىِّ من قِبلِ الله ، ولقد أَمِنُوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبِّ عن حوزة الإسلام أحسنَ قيام .

وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلَّة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده، الهادون مَنْ يسترشِدُ فى الله ؛ إذ الخَلَلُ فى أمر المسلمين من الولاةِ الظَّلَمَة ضَرَرُه مقصورٌ على مايتعلَّق بأحكام الدنيا ، فأما حفَّاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قومٌ هم حفَّاظُ أخبار الرسول عليه السلام وحفَّاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزَنةِ ، وقوم هم علماء الأُصولِ الرادُّون على أهلِ العِناد وأصحابِ البِدَع بواضح الأدلة ، وهم بطارِقةُ الإسلام وشجعانُه .

وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم فى علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدِّيات ، وما فى معانى الأَيْمانِ والنذور والدعاوى ، وفصل الحُكم فى المنازعات وهم فى الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى المُلْك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم فى الدِّين كخواصِّ الملِك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالدين معمورٌ بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَحسبَنَّ الذين كفروا مُعْجِزِين فى الأرضِ ومأواهم النارُ ولَبِئسَ المصيرُ ﴾ .

إنَّ الباطلَ قد تكون له دولةٌ ولكنها تخييل —وما لذلك بقاء — وأفلُ لُبثاً من عارضٍ ينشأ عن الغيظ .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لِيَستأذِنكم الذين مَلَكتْ أيمانُكم والذين لم

---

(1) فى م بعدها (وما بعدم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منكم ثلاثَ مراتٍ من
قبل صلاة الفجر ... ﴾ (١)

ضيَّق الأمر من وجهٍ ووسَّعَه من وجهٍ ، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الْحُرَم ، والتحرز من مخاوف الفتنة ، وإذا كانت الجوانبُ محروسةً صارت المخاوفُ مأمونة.

قوله جل ذكره : ﴿ والقواعِدُ من النساء اللاتى لا يرجون
نِكاحا فليس عليهن جُنَاحٌ أن
يَضَعْنَ ثيابَهن غيرَ متبرجاتٍ بزينةٍ
وأن يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لهُنَّ والله
سميعٌ عليم ﴾ .

يحدث تأثيرٌ بالمضَرّة لبناتِ الصدور من دواعى الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة ؛ فإذا سَكَنَتْ تلك الثائرة سَهُل البابُ ، وأبيحت الرُّخَصُ وأمِنَتْ الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الأعمىٰ حَرَجٌ ولا على
الأعرجِ حرَجٌ ولا على المريضِ
حرَجٌ ولا على أنفُسِكم أن تأكلوا
مِنْ بيوتِكم أو بيوتِ آبائِكم ﴾.

إذا جاءت الأعذارُ سُهِّلَ الامتحانُ والاختبارُ ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة ، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية ؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة فى الارتفاق .

---

(١) ذكر ابن عباس أن الرسول (ص) وجَّه غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال : يا رسول الله : وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية .

وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد حين دخل عليها غلام كبير فى وقت كرهته فشكت إلى رسول الله . فأنزل الله هذه الآية .

(٢) بنات الصدور تعبير بالكناية عن الأسرار والخواطر .

ثم قال: « أو صديقكم »: وعزيزٌ مَنْ يصدُقُ في الصداقة؛ فيكون في الباطن كما يُرَى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرآة ومِنْ ورائك كالمقراض، وفي معناه ماقلت:

مَنْ لي بمن يثق الفؤاد بودِّه فإذا ترحَّلَ لم يزغ عن عهده

يا بؤس نفسي من أخٍ لي باذل حسنَ الوفاء بوعده لا نَقْدِه

يُولِي الصفاء بنُطْقِه لا خُلقه ويدسُّ صاباً في حلاوة شَهْدِه

فلسانُه يبدي جواهر عقده وجَنانُه تغلي مراجلُ حقده

لا هُمَّ إني لا أطيق مِراسَه بك أستعيذ من الحسود وكيده

(وقوله: « أو صديقكم » مَنْ تُؤْمَنُ منه هذه الخصال وأمثالها)[1].

قوله جل ذكره: ﴿ فإذا دَخَلْتُم بيوتاً فَسَلِّمُوا على أنفُسِكم تحيةً مِنْ عِندِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلكم تَعْقِلُون ﴾

السلامُ الأمانُ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللهِ على نَفْسِه؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسلَمَ نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله، إذ لا يحل لمُسلمٍ أنْ يفْتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه — سبحانه — ظِلَّ عِصْمَتِه؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ في الشرع[2].

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسولِه وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذِنُوه إن الذين يستأذِنُونك أولئك الذين يؤمنون باللهِ ورسولِه، فإذا استأذنوك

(١) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م.

(٢) في هذه الإشارة غمز بأصحاب البدع الذين يرتكبون ما يخالف الشرع بدعوى الوله والانمحاء

لِبَعْضِ شأنِهم فَأذَنْ لِمَن شِئْتَ
منهم واستَغْفِرْ لهم اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ
رحيم ﴾

شرطُ الاتباع موافقةُ المتبوعِ ، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى »[1] والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء ، والمريدون لشيوخهم كالأُمّةِ لنبيِّهم ؛ فَشَرْطُ المريدِ ألا يَتَنَفَّسَ بِنَفَسٍ إلا بإذن شيخه ، ومَنْ خالَفَ شيخَه فى نَفَسٍ — سِراً أو جَهْراً — فإنه يرى غِبَّه سريعاً فى غير ما يُحبُّه . ومخالفةُ الشيوخِ فيما يستسرونه[2] عنهم أشدُّ مِمّا يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالخيانة . ومَنْ خالَفَ شيخَه لا يَشُمُّ رائحةَ الصِّدْقِ ، فإن بَدَرَ منه شىء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذارِ والإفصاحِ عمّا حصلَ منه من المخالفة والخيانة ، لِيَهْدِيَه شيخُه إلى ما فيه كفّارةُ جُرْمِه ، ويلتزم فى الغرامة بما يحكم به عليه . وإذا رجع المريدُ إلى شيخه بالصدق وَجَبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهمته ؛ وإن المريدين عِيالٌ على الشيوخ ؛ فُرِضَ عليهم أن يُنْفِقُوا عليهم من قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تجعَلُوا دُعاءَ الرسولِ بَيْنَكم
كَدُعاءِ بعضِكم بَعْضاً قد يَعْلَمُ اللهُ
الذين يَتَسَلَّلُون منكم لِوَاذاً ﴾

أى عظِّموه فى الخطاب ، واحفظوا فى خدمته الأدبَ ، وعانِقوا طاعتَه على مراعاةِ الهيبة والتوقير .

قوله جل ذكره : ﴿ فليحذَرِ الذين يُخالِفون عن أمْرِه[3]
أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم
عذابٌ أليم ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الحشر .

(٢) فى س (يستبشرونه) وفى م (يستسترونه) ونحن نؤيد هذه حتى تتلاءم مع (ما يظهر بالجهر) فينتظم السياق بها .

(٣) يقال خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

سعادة الدارين فى متابعة السُّنَّة ، وشقاوة المنزلين فى مخالفة السُّنَّة . ومِنْ أيْسَرِ ما يُصيب مَنْ خالَفَ سُنتَه حرمانُ الموافقة ، وتعَذُّرُ المتابعة بعده ، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلا إنَّ للهِ ما فى السمٰوات والأرض قد يَعْلَمُ ما أنتم عليه ويومَ يُرْجَعُون[1] إليه فَيُنَبِّئُهم بما عَمِلُوا والله بكلِّ شىء عليم ﴾[2]

إنَّ لليوم غداً ، ولِمَا يفعلُ العبدُ حساباً ، وسيُطَالَبُ المكَلَّفُ بالصغيرِ والكبيرِ ، والنقيرِ والقطميرِ .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعالُه ، ونَطَقَتْ بجماله أفضالُه . دلَّتْ على إثباتِهِ آياتُه ، وأخْبَرَتْ عن صفاتِهِ مفعولاتُه .

بسم الله اسم عزيز عُرِفَتْ بفعله قدرتُه ، اسم كريم شَهِدَتْ بفضله نصرته .

بسم الله اسم عزيز عرَّفَه العقلاء بدلالات أفعاله ، وعَرَّفَه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله ؛ فبلطف جماله عرفوا جودَه ، وبكشف جلاله عرفوا وجودَه .

بسم الله اسم عزيز مَنْ دعاه لبَّاه ، ومَنْ توكل عليه كَفَاه ، ومَنْ تَوَسَّلَ إليه أكرمه وآواه ، ومن تَنَصَّلَ إليه[3] رَحِمَه وأدناه ، ومن شكا إليه أشكاه[4] ، ومن سأله خوَّله وأعطاه .

---

(١) وفى قراءة (يَرجعون) بفتح الياء وكسر الجيم .

(٢) يروى أن ابن عباس رضى الله عنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت

(٣) تنصل إليه هنا معناها تبرأ من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أى قبِلَ الشكاة وأعان الشاكى .

قوله جل ذكره : ﴿ تبارك الذى نَزَّلَ الفُرقانَ على عَبْدِه
ليكونَ للعالمين نذيراً ﴾

يقال بَرَكَ الطيرُ على الماء إذا دام وقوفُه على ظهر الماء . ومَبارِكُ الإبلِ مواضعُ إقامتها بالليل . وتبارك على وزن تَفاعَل تفيد دوامَ بقائه ، واستحقاقه لِقِدَم ثبوته وبقاء وجوده لا عن استفتاحٍ ولا إلى انقطاع .

وفى التفاسير « تبارك » أى تعظَّمَ وتكبَّر . وعند قومٍ أنه من البركة وهى الزيادة والنفع ، فدوامه وجودُه ، وتكبره ستحقاق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير إلى فَضْله وإحسانه ولُطْفِه .

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقِّه ، وثناء بذكر وصفه وعزِّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ فكلمةُ « تبارك » مجمعُ الثناء عليه — سبحانه .

« الذى نَزَّل الفرقان » وهو القرآن « على عبده » : فأكرمه بأن نَبَّاه وفَضَّلَه ، وإلى الخَلْق أرسله ، وبَيَّنَ مُعْجِزَتَه وأمارةَ صِدْقه بالقرآن الذى عليه أنزله ، وجعله بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى له مُلْكُ السموات والأرضِ ﴾

تَفَرَّدَ بالمُلْكِ فلا شريكَ يساهمه ، وتَوَحَّدَ بالجلالِ فلا نظيرَ يُقاسِمُه ؛ فهو الواحد بلا قسيمٍ فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاته ، ولا شبيهٍ فى حَقِّه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واتخذوا من دونه آلِهَةً لا يخلقون
شيئاً وهم يُخْلَقون ولا يَمْلِكُون
لأنفسِهِم ضَرًّا ولا نفعاً ولا يَمْلِكون
موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾

اتخذوا من دون الله آلهةً لا يملكون قطميراً ، ولا يخلقون نقيراً ، ولا يدفعون عنهم

كثيراً ولا يسيراً ، ولا ينفعونهم ولا يُسهِّلون عليهم عسيراً ، ولا يملكون لأحدٍ موتاً[1] ولا نُشوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاَّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخَرون فقد جاءوا ظُلْماً وزوراً * وقالوا أساطيرُ الأولين اكْتَتَبَهَا فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلاً * قُلْ أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السموات والأرضِ إنَّه كان غفوراً رحيماً ﴾

ظنُّوه كما كانوا ، ولمَّا كانوا بأمثالِهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورِهم ، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا — فقد قالوا من غيرِ حُجَّةٍ وتَقَوَّلُوا ، ولم يكن لقولهم تحصيل ، ولأساطيرُ الأولين تُرَّهاتُهم[2] التى لا يُدْرَى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت ومتى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتابَ — الذى أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السموات والأرض — لا يَقْدِر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا[3] من الوقت الذى أتى به أعداء الدين ، وهم على كثرتهم مجتهدون فى معارضته بما يوجب مساواته ، فادَّعوا تكذيبه . وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمار ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله ، فانتفى الرَّيْبُ عن صِدْقِه ، ووَجَبَ الإقرارُ بحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا ما لِهَذا الرسولِ يأكلُ الطَّعامَ

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (حياة ولا نشورا) والمعنى يتقبلهما أيضاً .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (برهانهم الذى ...) ولكننا آثرنا (ترهاتهم) بدليل التأنيث فى (كانت) مكرراً .
(٣) هكذا فى ص وهى فى س (ولو تسا عدوا) .

﴿ ويَمْشِي في الأسواقِ لولا أُنْزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلْقَى إليه كنْزٌ أو تكونُ لَهُ جَنَّةٌ يأكلُ منها وقال الظالمون إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * انظُرْ كيف ضربوا لَكَ الأمثالَ فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُون سبيلاً * تَبارَكَ[1] الذى إن شاء جَعَلَ لَكَ خيراً من ذلك جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ويجعل لَكَ قُصُوراً ﴾

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم يمشى فى الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلاَّ نُزِّلَ عليه الملائكةَ فيَرَوْنَ عياناً؟ وهلاَّ جعل له الكنوزَ فاستكثر مالاً؟ وهلاَّ خُصَّ بآياتٍ — اقترحوها — فتَقْطَعَ العُذْرَ وتُزِيلَ عنَّا إشكالا؟! وما هذا الرجلُ إلا بشرٌ تعتريه مِنْ دواعى الشهوات ما يعترى غيره! فأىُّ خصوصيةٍ له حتى تلْزَمَنَا متابَعَتُهُ ولن يُظْهِرَ لنا حجةً؟ فأجاب الله عنهم وقال: إنَّ الحقَّ قادرٌ على تمليكك ما قالوا وأضعافَ ذلك، وفى قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضعافُ ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخيير[2] بعد ما أُزيحَ العذرُ بإظهار معجزة واحدة، واقتراح ما يَهْوَوْنَ تحكُّمٌ على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافَه لم يؤمنوا؛ لأن حُكْمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

---

(١) يذكر ابن عباس أنه لما عير المشركون محمداً (ص) بالفاقة أقبل رضوان خازن الجنة عليه وقال: يا محمد، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة فقال النبى: يا رضوان لا حاجة لى فيها، لأحب إلى أن أكون عبداً صابراً شكوراً فقال رضوان: أصبت أصابك الله. ورفع الرسول بصره فإذا منازله فوق منازل الأنبياء وغرفهم فدعا النبى: اللهم اجعل ما أردت أن تعطينى فى الدنيا ذخيرة عندك فى الشفاعة يوم القيامة.

(٢) يمكن أن تكون (التعجيز) لتنسجم مع (ما اقترحوه) ومع (ما يهوون) ولكننا لا نستبعد أن تكون (التخيير) بالخاء لكثرة جدلهم حول ما ينبغى — فى تصورهم — للرسول.

﴿ بل كذَّبوا بالساعةِ وأعْتَدْنا لِمن
كذَّبَ بالساعةِ سعيراً ﴾ .

فهم فى حُكم الله من جملة الكفار ، والله أعدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيدَ الأبدِ . . فلا محالة يُمْتحنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلايستطيعون سبيلا » : دليلٌ على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبدُ فى الحالِ ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً ، وهم معاتبُون مُكَلَّفُون .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا رَأَتْهُم مِن مكانٍ بعيدٍ سَمِعُوا
لها تَغَيُّظاً وزَفيراً ﴾ .

فوحشةُ النارِ توجد من مسافة بعيدة قبل شهودِها والامتحان بها ، ونسيمُ الجنة يوجد قبل شهودِها والدخول فيها ، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قَبْلَ المستَمتِعين بها . وكذَبَ مَنْ أحال[1] وجودها قبل كون سكانهما وقطانهما من المنتفعين أو المعاقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التى لا تكون إلا بوجود حيث قال :
﴿ وإذا أُلقُوا مِنها مكاناً ضَيِّقاً
مُقَرَّنِين دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً *
لا تَدْعُوا اليومَ ثُبُوراً واحِداً
وادعوا ثُبُوراً كثيراً ﴾ .

راحةُ الجنة مقرونة بسعتها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيُضَيَّق عليهم مكانَهم ، ويضيِّق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتُهم تبطل وكانوا يتخلصون

---

(١) لهذا الرأى أهميته حيث يرى كثير من المعتزلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما يوجدان فى الآخرة عند الجزاء ، وأجمع المعتزلة — بخلاف جهم وحده — أنهما لا تفنيان ولا يفنى أهلهما ، وهم في هذا يتفقون مع الأشاعرة . أما مخالفة جهم لذلك فقد ذكرها الشهرستانى فى (الملل والنحل ج ١ ص ١١١ ط الخانجى) بدعوى أن تلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بجحيمها حركات تتناهى مع أن نصوص القرآن صريحة فى دوامهما . . والقشيرى الأشعرى يصرح بذلك فى الآيات التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتناهى، ومِحَنٌ لا تنقضى؛ كلما راموا فرجةً قيل لهم: فلن نزيدكم إلا عذاباً.

قوله جل ذكره ﴿قُلْ أذلِكَ خيرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ التى وُعِدَ المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً﴾

المتقون أبداً فى النعيم المقيم؛ حور وسرور وحبور، ورَوْحٌ وريحان، وبهجة وإحسان، ولطف جديد وفضل مزيد، وألذُّ شرابٍ وكاساتٌ محابٌ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ، وكمال أُنْسٍ ودوام طرب وتمام جَذَلٍ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق. والأسماء أسماء فى الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها[1]. ثم فيها ما يشاءون، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون، ولا هم عنها يخرجون.

قوله جل ذكره: ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾.

ولكن لا يخلق فى قلوبهم إلا إرادةَ ما عَلِمَ أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتُهم، ويمنع من قلوبهم مشيئتَه.

قوله جل ذكره: ﴿ويومَ يَحْشُرُهم وما يَعْبُدُون من دونِ اللهِ فيقولُ أأنتم أضْلَلْتُم عِبادِى هؤلاءِ أَمْ هُمْ ضلُّوا السبيل﴾.

اللهُ يحشرُ الكفارَ ويحشر الأصنامَ التى عبدوها من دون الله، فَيُحْيِيها ويقول لها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيتبرأون.. كلُّه تهويلٌ وتعظيمٌ للشأن، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن. فالأصنامُ تتبرأ منهم، وتقابلهم بالتكذيب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلالِ، فيُلْقَوْنَ فى النار، ويَبْقَوْنَ فى الوعيد إلى الأبد.

قوله جل ذكره: ﴿وما أرْسَلْنا قبلَكَ منَ المرسلين إلا إنَّهم لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ ويَمْشُون فى الأسواقِ﴾:

---

(1) هذا تنبيه هام جداً لتوضيح حقيقة النعم التى فى الآخرة.

أخبر أن الذين تقدَّموه من الرسل كانوا بَشَراً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهورَ المعجزات عليهم . وفى الجملة الفضائل بالمعانى لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بعضَكم لبعضٍ
فتنةً أتصبرون وكان ربك
بصيراً » .

(فضَّلَ بعضاً على بعض ، وأمر المفضولَ بالصبر والرضاء ، والفاضلَ بالشكر على العطاء)[1] وخصَّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصَّ قوماً بالعوافى ، وآخرين بالأسقام والآلام ، فلا لِمَن نَعَّمَه مناقب ، ولا لِمَنْ امتحنه معايب . . فبحُكمِه لا بجُرْمِهم ، وبفضله لا بفعلهم ، وبإرادته لا بعبادتهم ، وباختياره لا بأوضارهم ، وبأقداره لا بأوزارهم ، وبه لا بهم .

قوله : « أتصبرون ؟ » استفهام فى معنى الأمر ، فمَنْ ساعدَه التوفيقُ صبر وشكر ، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر .

قوله جل ذكره : ﴿وقال الذين لا يَرْجُون لقاءنا لولا
أُنْزِل علينا الملائكةُ أو نَرَى
ربَّنا لقدِ استكبروا فى أنفُسِهم وعَتَوْ
عُتُوّاً كبيراً﴾ .

« لا يرجون لقاءنا » : لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله فى القيامة من الدنيا . وكما كانوا لا يخافون العذابَ ، ولا ينتظرون الحشرَ كذلك كانوا لا يؤمنون لقاء الله . فمُنْكِرُ الرؤيةِ من أهل القبلةِ — ممن يؤمن بالقيامة والحشرِ — مُشارِكٌ لهؤلاء فى جُحْدِ ما وَرَدَ به الخبرُ والنقلُ ، لأن النقْلَ كما وَرَدَ بكونِ الحَشْرِ وَرَدَ بكونِ الرؤية لأهل الإيمان[2] .

فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول

---

(١) ما بين القوسين فى م وغير موجود فى ص .
(٢) يعود القشيرى بعد قليل إلى شرح موضوع الرؤية عند تفسيره الآية : « وكفى بربك هاديا ونصيراً »

الملائكة عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان فى القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ لا بُشْرَىٰ يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾ .

اقترحوا شيئين : رؤيةَ الملائكةِ ورؤيةَ اللهِ ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفِّى ، ولكن تقول الملائكةُ لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حجراً محجوراً » : أى حراماً ممنوعاً يعنى رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحَمْلُه على ذلك أَوْلى من حَمْلِه على الجنة ، ولم يجرِ لها هنا ذِكْرٌ . ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »[1] فكما لا تكون للكفار بشارةٌ بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤيةُ للكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَدِمنا إلى ما عمِلوا مِنْ عَمَلٍ فجعلناه هَبَاءً منثوراً ﴾ .

هذه آفة الكفار ، ضاع سعيُهم وخاب جُهْدُهم ، وضاع عمرُهم وخَسِرَتْ صفقتُهم وانقطع رجاؤهم ، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمالُ رَوْحِهم ، وتتأدَّى إلى قلوبهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحُهم ، ويتقاصر عن ثنائه نُطْقُهم ، حيث يسمعون قوله : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحقُّ لأجله : « وقدمنا إلى . . . » فَهُمْ إذا سمعوا ذلك وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله : « فجعلناه هباء منثوراً » ويقولون : ياليت

(١) آية ٣٠ سورة فصلت .

لنــا أعمال أهل الدارين ثم لاتُقْبَلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها : وقدمنا إلى ماعملوا من عمل . . . » ؛ لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدُّوا ذلك من أجلِّ ماينالون من الاحسان إليهم[1] ، وفي معناه أنشدوا :

سأرجع من حجٍّ عامِيَ مُخْجلاً لأنَّ الذى قد كان لا يُتَقَبَّلُ[2]

قوله جل ذكره : ﴿ أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً ﴾ .

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، والمُكتفون بوجدانها ، فحسُنَتْ لهم أوطانُهم ، وطابَ لهم مستقرُّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماء بالغمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾ .

يريد يومَ القيامة إذا بَدَتْ أهوالُها ، وظَهَرت للمبعوثين أحوالُها عَلِموا وتحققوا — ذلك اليومَ — أنَّ المُلْكَ للرحمن ، ولم يتخصص ملكُه بذلك اليوم ، وإنما علمُهم ويقينُهم حَصلَ لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعي الأغيار ، وتنتفي أوهامُ الخلْق فلا يتجدَّدُ له — سبحانه — وصف ولكن تتلاشى للخلْق أوصاف ، وذلك يومٌ على الكافرين عسير ، ودليلُ الخطابِ يقتضى أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرقُ ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاَّ وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْهِ[3]

(1) هذه إشارة دقيقة غاية الدقة ، نأمل أن يفطن إليها القارىء ويستمتع بها .

(2) معنى البيت مرتبط بالفكرة الصوفية أن عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله معقود على الفضل الإلهي ، فكلما استصغر العابد عبادته بجانب هذا الفضل شعر بقصوره وارتقى في التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة . . وفي هذا تقول رابعة بعد عبادة ليلة كاملة : إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار .

(3) قيل نزلت هذه الآية في أبي بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد في مبارزة ، وقيل نزلت في عقبة بن أبي معيط وكان محالفاً لأبيّ .

يقول ياليتنى اتخـذتُ مع الرسولِ
سبيلاً * ياَ وَيْلَتاَ ليتنى لم أتخذ فلاناً
خليلاً ﴾ .

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يقتضى سرورَ المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم فى الله ، وأمّا الكافر فيُضِلُّ صاحبَه فيقع معه فى الثبور ، ولكن المؤمن يهدى صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الرسولُ ياربِّ إنَّ قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنةَ المرسلين ، أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام — أنه قال : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » فَمَنْ شكا من الله فهو جاحد ، ومن شكا إلى الله فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخْلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلَّطَ عليه عَدُوًّا فى وقته ، إلا أنَّه لم يغادِرْ من أعدائهم أحداً ، وأذاقهم وبالَ ما استوجبوه على كفرهم وغَيِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكفى بربِّكَ هادياً ونصيراً ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ماورد فى الخبر : أن كل أمة ترى فى القيامة الصنم الذى عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار ، فيُلْقَوْن فيها ويبقى المؤمنون ، فيقال لهم : ماوقفكم ؟ فيقولون : إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نرَ معبودنا ! فيقال لهم : ولو رأيتموه . . فهل تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : بِمَ تعرفونه ؟

فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً فى صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم فيقولون : معاذ الله . . نعوذ بالله منك ! ماعبدناك . فيتجلَّى الحقُّ لهم فيسجدون له .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جُملةً واحدة كذلك لِنثبِّتَ به فؤادَك وَرَتَّلْناه ترتيلاً ﴾ .

أى إنما أنزلناه متفرقاً ليسهُل عليك حِفْظُه ، فإنه كان أمياً لايقرأ الكتب ، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه فى كل وقت وكل حين . . وكثرةُ نزوله كانت أوجبَ لسكون قلبه وكمال رَوْحه ودوام أُنْسه[1] ، فجبريل كان يأتى فى كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة ، وذلك أبلغُ فى كونه معجزةً ، وأبعدُ عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلا[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتونَك بِمَثَلٍ إلا جِئْناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾ .

كان الجوابُ لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحما ، ولفساد مايقولونه موضحاً ، ولكن الحقَّ — سبحانه — أجرى السُّنَة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شِفاء وبصيرةً ، ولهم إلا عمىً وشبهة .

ثم أخبر عن حالهم فى مآلهم فقال :

﴿ الذين يُحْشَرُون على وجُوهِهِم إلى جَهَنَّمَ أولئك شَرٌّ مكاناً وأَضَلُّ سبيلاً ﴾

يحشرون على وجوههم وذلك أمارة لإهانتهم ، وإن فى الخبر : « الذين أمْشاهم اليومَ

(١) لأنه كتاب يحمله رسول الحبيب من الحبيب إلى الحبيب .

(٢) أى أن اتصال القرآن الكريم بحياة الناس وواقع أمورهم آية كونه معجزة ، بعكس ما يتخرص به المضللون الملحدون الذين يدعون أن محمداً كاتب هذا القرآن ، وأنه أوتى ذكاء خارقا كان يجعله يكتب للناس ما يلبى احتياجهم ويحل مشاكلهم . . خرست ألسنتهم إن يقولون إلا زوراً .

على أقدامهم يُمشيهم غداً على وجوههم »(١) ، وهو على ذلك قادر ، وذلك منه غير مستحيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ
وجعلنا مَعَه أخاه هارونَ وزيراً ﴾

قلّما يجرى فى القرآن لنبينا — صلى الله عليه وسلم — ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عُقَيْبَه موسى عليه السلام . وتكررت قصته فى القرآن فى غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ؛ لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير فى الذكر يوجب التفصيل فى الوصف ؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت فى باب البلاغة أتمّ لا سيا إذا كانت فى كل مرة فائدةٌ زائدة(٢) .

ثم بيَّن أنه قال لهما :

﴿ فقلنا اذْهَبا إلى القَوْمِ الذين
كَذَّبُوا بآياتنا فَدَمَّرْناهم تدميراً ﴾

أى فذَهَبا فَجَحَدَ القومُ فدمرناهم تدميراً(٣) أى أهلكناهم إهلاكاً ، وفى ذلك تسليةٌ للنبى — صلى الله عليه وسلم — فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووَعْدٌ له بالجميل فى أنه سيُهْلِكُ أعداءه كُلَّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقومَ نوحٍ لَمَّا كَذَّبوا الرُّسُل
أغرقناهم وجعلناهم للناسِ آيةً
وأعْتَدْنا للظالمين عَذَاباً أليماً ﴾

أحْلَلْنا بهم العقوبة كما أحللنا بأمثالهم ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم . ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرَّسِّ ، ومَنْ ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك

(١) القسم الأول من الخبر على النحو التالى : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم » قيل يا رسول الله : كيف يمشون على وجوههم فقال عليه السلام : الذين أمشاهم . . . .

(٢) يضاف هذا إلى ما سبق أن نبهنا إليه عن موقف القشيرى من التكرار .

(٣) يلفت القشيرى نظرنا إلى ما يعرف فى البلاغة بإيجاز الحذف ، فقد اكتفى بذكر أول القصة وآخرها وقد أحسن القشيرى حين وطأ لذلك بكلام فى القصة الواحدة التى تعاد أكثر من مرة .

به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث . . . كل ذلك تطييباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً لسرِّه ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديه ، ويدمِّر مَنْ يناويه ، وقد فَعَلَ من ذلك الكثير في حال حياته ، والباقي بعد مُضيِّه — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رَأَوْكَ إن يتّخِذُونَكَ إلا هُزُواً أهذا الذى بَعَثَ الله رسولاً . . . ﴾

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته ، فإذا أخبر اللهُ وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أوْجَبَ للسَّلْوَةِ وأقربَ من الأُنس ، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلُهم :

يودُّ بأن يمشى سقيا لَعَلَّها إذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتزُّ للمعروفِ في طَلَبِ العلَى لتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بعين الازدراء والتصغير لشأنه ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَه ، قال تعالى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ أرأَيْتَ مَنِ اتخذ إلَهه هواه أَفأنتَ تكون عليه وكيلاً ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْن ، يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُون على مقتضى ما يقع لهم . والمؤمنُ بِحُكْمِ اللهِ لا بحكم نفسه ، وبهذا يتضح الفرقان[2] بين رجل وبين رجل . والذى يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه، وملتحِقٌ بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوءِ في هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرَهم يسمعون أو يَعْقِلُون إنْ هُم إلاَّ كالأَنعامِ بل هُمْ أَضَلُّ سبيلاً ﴾

---

(١) آية ١٩٨ سورة الأعراف

(٢) فرَّقَ بين الشيئين فرقاً وفرقانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل مافُرِّقَ به بين الحق والباطل

كالأنعام التي ليس لها هَمٌّ إلاَّ في أَكْلَةٍ وشَرْبَةٍ ، ومَنْ استجلب حظوظَ نَفْسِه فكالبهائم . وإنَّ اللهَ — سبحانه — خَلَقَ الملائكةَ وعلى العقلِ جَبَلَهم ، والبهائمَ وعلى الهوى فَطَرَهم ، وبنى آدم ورَكَّبَ فيهم الأمْرَيْن ؛ فَمَنْ غَلَبَ هواه عَقْلَه فهو شرٌّ من البهائم ، ومَنْ غَلَبَ عَقْلُه هواه فهو خير من الملائكة . . كذلك قال المشايخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى ربِّك كيف مَدَّ الظِّلَّ ولو شاء لَجَعَلَه ساكِناً ثم جَعَلْنَا الشمسَ عليه دليلاً * ثم قَبَضْنَاه إلينا قَبْضاً يسيراً ﴾

قيل نَزَلَ الرسول — صلى الله عليه وسلم — في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خَلْقاً كثيراً فمَدَّ اللهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعَهم وكانوا كثيرين ، فأنزل الله هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرضَ كلَّها ظلاً ، ثم إذا طلعت الشمسُ ، وانبسط على وجه الأرض شعاعُها فكلُّ شخصٍ يُبْسَطُ له ظِلٌّ ، ولا يُصيب ذلك الموضعَ شعاعُ الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال . وذلك من أماراتِ قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظلّ والضوء والفيء .

قوله : « ولو شاء لجعله ساكنا » : أي دائماً . « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ؛ أي حال ارتفاعِ الشمْسِ ونُقصانِ الظِّلِّ .

ويقال : ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه ؛ فقومٌ هم في ظل الحماية ، وآخرون في ظل الرعاية ، وآخرون في ظل العناية ، والفقراء في ظل الكفاية ، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية .

ظلٌّ هو ظل العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء ، والرحمة للمؤمنين ، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله للنبي صلى الله عليه وسلم : « ألم تر إلى ربك » ثم قوله : « كيف مدَّ الظِلَّ » ستراً لما كان كاشفة به أولاً ، إجراء للسُّنَّة

فى إخفاء الحال عن الرقيب . قال لموسى عليه السلام : « لَن تَرَانى » . وقال لنبينا عليه السلام : « ألم تر إلى ربك » وشتان ما هما !

ويقال أحيا قلبه بقوله : « ألم تر إلى ربك » إلى أن قال : « كيف مدَّ الظل » فجمل استقلاله بقوله : « ألم تر إلى ربك » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياه بقوله : « ألم تر إلى ربك » ثم أفناه بقوله : « كيف مَدَّ الظِلَّ » وكذا سُنَّتُه مع عباده ؛ يُرَدِّدُهم بين إفناء وإبقاء .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً والنومَ سُبَاتاً[1] وجعل النهارَ نُشُوراً﴾

جعل الليلَ وقتاً لسكون قومٍ ، ووقتاً لانزعاج آخرين ؛ فأربابُ الغفلة يسكنون فى ليلهم ، والمحبون يسهرون فى ليلهم إنْ كانوا فى رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لكمال أُنْسِهم ، وإن كانوا فى ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم ، فالسّهرُ للأحباب صِفَةٌ : إمّا لكمال السرور أو لهجوم الهموم . ويقال جعل النومَ للأحباب وقتَ التجلِّى بما لا سبيلَ إليه فى اليقظة ، فإذا رَأَوْا ربَّهم فى المنام يؤْثِرون النومَ على السّهر[2] ، قال قائلهم :

وإنى لَأستغفى ومابى نَعْسَةٌ ... لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وقال قائلهم :

رأيتُ سرورَ قلبى فى منامى ... فأحببتُ التَّنَعُّسَ والمناما

ويقال النوم لأهلِ الغفلة عقوبةٌ ولأهلِ الاجتهادِ رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ — سبحانه — يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المجاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رحمته وأَنْزَلْنا من السماءِ ماءً طَهُوراً﴾

---

(١) السبت = القطع . والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته . وقيل السبات = للموت ، والمسبوت للميت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » ، ويعضده ذكر النشور فى مقابلته .

(٢) ذكر القشيرى فى باب « رؤيا القوم » برسالته أمثلة كثيرة للكرامات التى تحققت للأولياء أثناء نومهم ، وكان بعضها ذا تأثير عظيم فى مجرى حياتهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَم فتهب على قلوب ذوى الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارّه ، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُسْكِنُ بالله لله ، ويرسِلُ رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاةِ فتحملهم على النَّدَمِ ، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة ، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات ، وتطهرها عن كل شىء إلا عن اللواعج فلا تستقِرُّ إلا بالكشف والتجلِّى .

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نسيمَ القُرْبِ هَامَ فى ملكوت الجلال ، وامتحى عن كل مرسومٍ ومعهود .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لِنُحْيِيَ به بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاماً وأَنَاسِيَّ كثيراً ولقد صَرَّفناه بينهم لِيَذَّكَّرُوا فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً ﴾ .

أنزل من السماء ماء المطرِ فأحيا به الغياضَ والرياضَ ، وأنبت به الأزهار والأنوار ، وأنزل من السماء ماء الرحمةِ فغسلَ العصاةُ ما تلطخوا به من الأوضار ، وما تدنَّسوا به من الأوزار .

و « الطَّهُور » هو الطاهرُ المُطَهِّرُ ، وماء الحياء يُطهِرُ قلوبَ العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها فى بعض الأحيانِ من الغفلات . وماء الرعاية يُحْيِي به قلوبَ المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلِّى حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال ، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع[1] الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات .

قوله جل ذكره ﴿ ولو شِئْنا لَبَعَثْنا فى كل قريةٍ نذيراً ﴾

(١) الباء فى (باتباع) معناها (بسبب) .

إنَّ اللهَ — سبحانه — خصَّ نبينا صلى الله عليه وسلم بأن فضّله على الكافة ، وأرسله إلى الجملة ، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُه إلى الأبد . وبهذه الآية أدَّبه بأدقِّ إشارة ، حيث قال : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً » وهذا كما قال : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك »[1] .

وقَصْدُ الحقِّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم .

وفى القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسْأل ، فأوحى الله فى ليلة واحدة إلى ألف نبى من بنى إسرائيل فأصبحوا رُسلاً ، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام ، فضاق قلبُ موسى وقال : يا رب ، إنى لا أطيق ذلك ! فقبض اللهُ أرواحهم فى ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تُطِعِ الكافرين وجاهِدْهُم به جهاداً كبيراً ﴾

أى كُنْ قائماً بحقنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بِمَنْ سوانا ، فإنَّا نَعْصِمُكَ بكلِّ وجهٍ ، ولا نرفع عنكَ ظِلَّ عنايتنا بحالٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجعل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً محجوراً ﴾ .

البحر المِلْح لا عذوبة فيه ، والعَذْبُ لا ملوحة فيه ، وهما فى الجوهرية واحد ، ولكنه سبحانه — بقدرته — غايَرَ بينهما فى الصفة ، كذلك خَلَقَ القلوبَ ؛ بعضُها مَعْدِنُ اليقينِ والعرفانِ ؛ وبعضُها مَحَلُّ الشكِّ والكفران .

ويقال أُثبت فى قلوب المؤمنين الخوف والرجاء ، فلا الخوف يغلب الرجاء ، ولا الرجاء يغلب الخوف .

(١) آية ٨٦ سورة الإسراء .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلب المؤمنِ مضيئاً (مشرقاً[1]) وقلب الكافر أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن ، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم .

ويقال قلوبُ العوام فى أَسْرِ المطالب وَرِغائب الحظوظ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالب ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ من الماءِ بشَرًا فجعله نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّكَ قديراً ﴾

الخَلْقُ متشاكلون فى أصل الخِلْقة ، متماثلون فى الجوهرية ، متباينون فى الصفة ، مختلفون فى الصورة ؛ فنفوسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة . والخَلْقُ بَشَرٌ . . ولكنْ ليس كلُّ بَشَرٍ كبشر ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يَسْعَى إلا فى مخالفته ، ولا يعيش إلا بنصيبه وحَظِّه ، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقى عن حدِّ الوقاحة والخساسة ، وواحدٌ ولىٌّ لا يَفْتَرُ عن طاعته ، ولا يَنْزِل عن هِمَّتِه ، فهو فى سماء تعززه بمعبوده .

وبينهما للناس مناهل ومشارب ؛ فواحِدٌ يكون كما قال :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُم ولا يَضُرُّهم وكان الكافِرُ على ربِّه ظهيرًا ﴾

يكتفى بالمنحوتِ من الخشب ، والمصنوعِ من الصَّخْرِ ، والمُتَّخَذِ من النحاس ، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرْش — وإنْ علا ، ولا ينقاد بقلبه لمخلوقٍ — وإنْ اتصف بمناقب لا تُحْصَى

---

(١) وردت فى م ولم ترد فى ص .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناكَ إلا مُبَشراً ونذيراً﴾ .

رسولاً مبيناً ، مأموراً بالإنذار والتبشير ، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ ، غيرَ طالبٍ منهم أجراً ، وغير طامعٍ فى أنْ تجد منهم حظّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاَّ مَن شاء أن يتَّخِذَ إلى ربِّهِ سبيلاً ﴾ .

« إلّا » أداة استثناء منقطع ؛ إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم ، فهو لِمَنْ أقْبَلَ بشيرٌ ، ولِمَنْ أعرض نذير .

قوله جل ذكره : ﴿ وتَوَكَّلْ على الحيِّ الذى لا يموت ﴾ .

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله . وحقُّه وأصْلُه عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصِلةٌ من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه .

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه — إذا عَلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله — حصل له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ فرْضٌ ، وهو من شرائط الايمان ، فإن الله تعالى يقول : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »[1] وما زاد على هذا القَدْرِ — وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار — فهى أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقرَّرَ هذا فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكلٍّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم : إمَّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفى بما فى يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له

---

(١) آية ٢٣ سورة المائدة .

والمطلوب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة هامة نبهنا إليها فى مدخل هذا الكتاب ، وهى أن القشيرى يحاول أولا استمداد المصطلح الصوفي من كتاب الله ، (فالتوكل) الذى هو ركن هام من أركان الطريق الصوفى له أصل فى القرآن . ثم تأتى من بعد ذلك مرحلة البحث فى تطور هذا الأصل ونموه فى بيئة المتصوفة .

فلا يستزيد. ثم اكتفاء كلٍّ أحدٍ يختلف فى القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء فى التخلص من الحِرص وإرادة الزيادة.

ثم بعد هذا سكونُ القلب فى حالة عَدَمِ وجود الأسباب، فيكون مجرداً عن الشىء، ويكون فى إرادته متوكلا على الله. وهؤلاء متباينون فى الرتبة، فواحد يكتفى بوعدِه لأنه صدَّقه فى ضمانه، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعد ربه.. ويسمى هذا توكلاً، ويقال على هذا: إن التوكل سكون القلب بضمان الربِّ، أو سكون الجأش فى طلب المعاش، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد.

وألطف من هذا أن يكتفى بِعِلْمِ أنه يعلم حالَه فيشتغل بما أمره الله، ويعمل على طاعته، ولا يراعى إنجاز ما وعَدَه، بل يَكِلُ أمرَه إلى الله.. وهذا هو التسليم.

وفوق هذا التفويض[1]، وهو أنْ يَكِلَ أمرَه إلى الله، ولا يقترح على مولاه بحالٍ، ولا يختار، ويستوى عنده وجودُ الأسباب وعَدَمُها، فيشتغل بأداء ما ألزمه الله، ولا يفكر فى حال نَفْسِه، ويعلم أنه مملوكٌ لمولاه، والسيدُ أَوْلَى بِعَبْدِه من العبد بنفسه[2].

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً فى المَنْعِ، واستعذب ما يستقبله من الرَّدِّ.. وتلك هى مرتبة الرضا[3]، ويحصل له فى هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه مالا يحصل لِمَنْ دونَه من الحلاوة فى وجود المقصود.

---

(١) الواقع أن القشيرى هنا متأثر بالآراء الكثيرة التى أدلى بها الشيوخ فى هذا الموضوع، وعلى وجه الخصوص بشيخه الدقاق، الذى يقول: التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. ويقول كذلك: التوكل بداية والتسليم واسطة، والتفويض نهاية. ويقول كذلك: التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين. (الرسالة ص ٨٥).

(٢) يروى فى هذا الباب أن جماعة سألوا الجنيد: أين نطلب الرزق؟

فقال: إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه. قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك.

فقال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه. فقالوا: ندخل البيت فنتوكل؟

فقال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟

فقال: ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها).

(٣) كذلك ربط السراج فى «لمعه» بين التوكل والرضا بوصفهما مقامين متتاليين فى مقامات الطريق (اللمع ص ٧٩ من أسفل).

وبعد هذا الموافقة ، وهي ألا يجد الراحة في المَنْع ، بل يجد بَدَلَ هذا عند نسيم القرب زوائدَ الأُنس بنسيان كلِّ أَرَبٍ ، ونسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب ، فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرْدِ الرضا — وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً — فكذلك أهل الأُنس بالله . . بنسيانِ كلِّ فَقْدٍ ووَجْدٍ ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزولَ إلى استلذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء . . وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فعند ذلك لا أُنسَ ولا هيبة ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشةَ ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم[1] . فأمّا ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين — على تباين شِرْبِهم — يختلف على حسب اختلاف محالِّهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد ، لا شئ مِنْ قِبَلِهِ إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضانته[2] .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من تعب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب ، ولا يقدح في توكله[3] .

ويقال عوامّ المتوكلين إذا أُعطُوا شكروا ، وإذا مُنعُوا صبروا . وخواصُّهم إذا أُعطُوا آثروا ، وإذا مُنِعُوا شكروا .

---

(1) هذا الترتيب الذى ذكره القشيرى على جانب كبير من الأهمية لأنه أولا يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات — التي هي جهود — إلى الأحوال التي هي من عين الجود . وواضح أن (الرضا) يحمل في طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد عالج القشيرى هذه الظاهرة في رسالته ص ٩٧ .

(2) القشيرى متأثر بأقوال الشيوخ في ذلك : يحو د للمتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ثدى أمه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال في حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩ .

(3) هذه نقطة هامة جداً توضح أن التوكل الصوفي الحق لا يتعارض مع الكسب ، ولا يتعارض معه الكسب . . وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتكاسل .

ويقال الحق يجود على الأولياء — إذا توكلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأَرَبُ فمتى يكون الطلب ؟

ويقال التوكل فى الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأمّا التوكل على الله فى إصلاحه — سبحانه — أمورَ آخرةِ العبد فهذا أشدُّ غموضاً ، وأكثرُ خفاء . فالواجبُ فى الأسباب الدنيوية أن يكونَ السكونُ عن طلبها غالباً ، والحركةُ تكون ضرورةً . فأمّا فى أمور الآخرة وما يتعلّقُ بالطاعةِ فالواجبُ البِدارُ والجِدُّ والانكماشُ ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوحِ إلى الفشل .

والذى يَتّصِفُ بالتوانى فى العبادات ، ويتباطؤ فى تلافى ما ضيّعه من إرضاء الخصوم والقيام بحقّ الواجبات ، ثم يعتقد فى نفسه أنه متوكِّلٌ على الله وأنه — سبحانه — يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ ، ممكورٌ مُسْتَدْرَجٌ ، بل يجب أن يبذل جهدَه ، ويستفرغ وسعَه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستنِدُ إلى سكونه وحركته ، ويتبرّأُ بِسِرِّه من حَوْلِه وقوّتِه . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغى أن يخلوَ من مخافته ؛ اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله فى الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة فى العواقب ؛ فإن ذلك — إذا حصَلَ — فالوقتُ غالِبٌ ، وهو أحد ما قيل فى معانى قولهم : الوقت سيف[1]

قوله جل ذكره : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرضَ
وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوى
على العرشِ ﴾

انتظم به الكونُ — والعرشُ من جملة الكون — ولم يتجمّل الحقُّ — سبحانه — بشىء

---

(١) فى هذا المعنى يقول القشيرى « أى كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب ، وكما أن السيف لين مسه قاطع حده فمن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار بريَّتِه ، فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته ، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن
قالوا وما الرحمنُ أنسجدُ لما تأمرنا
وزادهم نفوراً ﴾ .

أقبل الحقُّ — سبحانه — بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزه فلذلك جحدوه ؛ فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعْدِ ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصدِّ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد .

قوله جل ذكره : ﴿ تبارك الذى جَعَلَ فى السماء بروجاً
وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ .

زيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وخَلَق فيها البروجَ ، وبَثَّ فيها الكواكب ، وصان عن الفطورِ والتشويشِ أقطارَها ومناكبَها ، وأدار بقدرته أفلاكها ، وأدام على ما أراد إمساكها .

وكما أثبت فى السماء بروجاً (أثبت فى سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً)[2] ؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء (بيوتٌ)[3] شمسها وقمرها ونجومها ، وبروجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارقُ شموسها ونجومها . وتلك النجوم التى هى نجوم القلوب كالعقل والفهمِ والبصيرة والعلم ، وقمرُ القلوبِ المعرفةُ .

---

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لآراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومسألة تنزهه عن المكانية ، أو من ناحية خلق الله ما بين السموات والأرض وهل المقصود بذلك خلق أفعال الانسان . وقد ناقش الباقلانى فى كتابه (التمهيد فى أصول الدين) كلا الأمرين ، والواقع أن القشيرى — تلميذ الباقلانى — متأثر بآراء أستاذه إلى حد كبير ، وإن كان الباقلانى أقل تأويلا للصفات الخبرية منه .

(٢) غير موجودة فى ص وموجودة فى م .

(٣) فى ص (ثبوت) وفى م (بيوت) وقد رجحنا هذه لأن البرج (بيت يبنى على سور المدينة وفى أعلاها) كما جاء فى المعاجم .

قمرُ السماءِ له نقصان ومحاق ، وفى بعض الأحايين هو بَدْرٌ بوصف الكمال ، وقمر المعرفة أبداً له إشراق وليس له نقصان أو محاق ، ولذا قال قائلهم :

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لما بَدْرٌ تذلُّ له البدور

فأمّا شمسُ القلوب فهى التوحيد ، وشمسُ السماء تغرب ولكن شمسَ القلوب لا تغيب ولا تغرب ، وفى معناه قالوا :

إن شمس النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوبِ ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل ، وشمس القلوب سلطانُها فى الضوء والطلوع بالليل أتمُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أراد أن يذَّكَّرَ أو أراد شُكوراً ﴾ .

الأوقاتُ متجانِسةٌ ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة فى البعض أفضل والثوابُ عليها أكثر . والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليلِ ، فَمَنْ وقع له فى طاعة الليل خَلَلٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبْرَانه ، وإنْ حصل فى طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففى ذلك إتمامٌ لنقصانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعِبادُ الرحمنِ الذين يمشون على الأرضِ هَوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ .

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفِّقُوا للطاعات ، فبرحمتِه وصلوا إلى التوفيق للطاعة . وعِبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته ؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته . . هكذا بيان الحقيقة ، وبطاعتهم وصلوا إلى جنَّتِه . . هكذا لسان الشريعة .

ومعنى « هونا » متواضعين متخاشعين

ويقال شرطُ التواضع وحَدُّه ألا يستَحْسِنَ شيئاً من أحواله ، حتى قالوا[1] : إذا نَظَرَ إلى رِجْلِهِ لا يستحسن شِسْعَ نَعْلِهِ ، وعلى هذا القياس لا يُساكِنُ أعماله ، ولا يلاحظ أحواله .

قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » : قيل سداد المنطق ؛ ويقال مَنْ خاطبهم بالقَدْح فهم يجاوبونه بالمدح له .

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، الطاعنون فيهم ، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرِّفق ، وحُسْنِ الخُلُقِ ، والقولِ الحَسَنِ والكلام الطيب .

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم فى أمانٍ من المجافاة[2]

قوله جل ذكره ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾

يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا فى الخبر : « مَنْ كَثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار » أى عَظُم ماء وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياء ظاهِرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ .

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يقولون ربَّنا اصرِفْ عَنَّا عَذَابَ جهنَّم إنَّ عذابَها كان غراماً
* إنَّها ساءتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَاماً ﴾

يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطِبونَ بلسان التَّنَصُّل[3] كما قيل :

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

---

(١) هذا القول سمعه القشيرى من شيخه الدقاق (الرسالة ص ٧٤) .

(٢) وردت (المكافاة) والصواب أن تكون (المجافاة) بمعنى أنهم لا يقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عادام أمن من انتقامهم أو على معنى أن مجافاة الأعداء لا تصيبهم بأذى إذ ليس فى مقدور أحد أن يؤذى أولياء الله .

(٣) وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ».رواه احمد عن عائشة ، والترمذى وابن أبى حاتم ، وقال الحاكم:صحيح الإسناد .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَاماً ﴾ .

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النّفْس ، فأمّا ما كان لله فليس فيه إسراف ، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأمّا التضييقُ على النّفْس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتتعودَ الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المذموم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين لا يَدْعُون مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يقتلون النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقّ ولا يزنون ﴾[1]

« إلهاً آخر » : في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار .

وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبشارُ فكذلك توَهّمُ المبارّ والمضارّ من الأغيار شِرْكٌ .

« ولا يقتلون النفس ... » من النفوس المُحَرَّم قَتْلُها على العبد نَفْسه المسكينةُ ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم »[2] . وقَتْلُ النّفس من غير حقٍّ تمكينُك لها من اتباع ما فيه هلاكُها في الآخرة ؛ فإنَّ العبدَ إذا لم ينْهَ مأمورٌ .

---

(١) (عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت الآية : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر .... إلى قوله تعالى : غفوراً رحيما » رواه مسلم عن ابراهيم بن دينار عن حجاج . و (عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت ثم أى ؟

قال : أن تزانى حليلة جارك . فأنزل الله هذه الآية وما بعدها تصديقاً لذلك) رواه البخارى ومسلم عن عثمان بن أبى شيبة ، عن جرير .

و (عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، قال : أتى وحشى إلى النبى (ص) فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذ أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، فهل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية .. وأسلم وحشى) .

(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ الخطاب أن تقتلَها بالحق[1] ، وذلك بذَبْحِها بسكين المخالفات ، فما فَلاحُكَ إلا بقتل نَفْسِكَ التى بين جنبيك .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يفعلْ ذلك يَلْقَ أثاماً ﴾ .

يضاعَفُ لهم العذابُ يومَ القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة . وآخرون يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان . بل مَنْ كان مضاعَفَ العذاب فى عقباه فهو الذى يكون مضاعَفَ العذاب فى دنياه ؛ جاء فى الخبر : مَنْ كان بحالةٍ لقى الله بها .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً
فأولئك يُبَدِّل اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ
وكان اللهُ غفوراً رحيما ﴾ .

إلا من تاب من الذنب فى الحال ؛ وآمن فى المـآل .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحاً » لا ينقض توبتَه .

ويقال إنْ نقَض توبتَه عَمِلَ صالحاً أى جَدَّدَ توبتَه ؛ « فهولاء يبدِّل اللهُ سيئاتِهم حسنات » . ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان[2] .

ويقال يبدل الله سيئاتِهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يمحو ذِلةَ زَلاَّتِهم ، ويثبت بَدَلَها الخيراتِ والحسناتِ ، وفى معناه أنشدوا :

ولمَّا رضوا بالعفو عن ذى زَلةٍ   حتى أنالوا كفَّه وأفادوا

قوله جل ذكره : ﴿ والذين لا يشهدون الزُّورَ وإذا
مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ والذين

---

(1) تذكر كيف يفرق القشيرى بين حظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء هنا (قتل النفس إلا بالحق) أى ذبحها بسكين المجاهدات فى سبيل حق الله .

(2) واضح من هذا الرأى مدى اتساع صدور الصوفية للأمل فى الأخذ بيد العصاة ، فرحمة الله — فى نظرهم — أكثر رحابة من أن تضيق فى وجه من عثرت أقدامه .

إذا ذُكِّرُوا بآيات ربِّهم لم يَخِرُّوا
عليها صُمًّا وعُمْيانًا ﴾ .

يستمكنون فى مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلاً . وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضين لا يساكِنون أهل تلك الحالة .

ويقال نزلت الآية فى أقوام مرُّوا — لمَّا دخلوا مكة بأبواب البيوت التى كانوا يعبدون فيها الأصنام مرةً — متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللهُ لهم ذلك .

ثم قال فى صفتهم : « والذين إذا ذكروا بآيات ربِّهم لم يخروا عليها صُمّاً وعميانا » : بل قابلوها بالتفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا مِنْ
أزواجنا وذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُن
واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ .

قرة العين مَنْ به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقِّ الله قائماً .

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً ، ولمخالفة أمره مفارقاً .

« واجعلنا للمتقين إماماً » الإمام مَنْ يُقْتَدى به ولا يَبْتَدِع .

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدَّعوا فيها اختيارهم ؛ فالإمامَةُ بالدعاء لا بالدعوى ، فقالوا : « واجعلنا للمتقين إماماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بما صبروا
وَيُلَقَّوْنَ فيها تحيةً وسلاماً ﴾ .

يعطى — سبحانه — الكثيرَ من عطائه ويعده قليلاً ، ويقبل اليسيرَ من طاعة العبد ويعده كثيراً عظيماً ، يعطيهم الجنة ؛ قصوراً وحوراً ثم يقول : « أولئك يجزون الغرفة » ، ويقبل اليسيرَ من العبد فيقول : « فجاء بعجل سمين »[1] .

(١) آية ٢٢ سورة الذاريات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمعون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويتجلّى لهم ليرَوْه مِن غير تكلف نقل ، ولا تحمل قطع مسافة(۱)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »(۲) : اليومَ يحضر العبدُ بيتَه لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قَطعَ المسافة ، فهم على أرائكهم — فى مستقرٌ عِزِّهم — يسمعون كلامَ الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « بما صبروا » أى صبروا عمَّا نُهوا عنه ، وصبروا على الأحكام التى أجراها عليهم بِتَرْكِ اختيارهم ، وحُسْنِ الرضا بتقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومُقاماً ﴾

مقيمين لا يبرحون منازلهم(۳) ، وفى أحوالهم حَسُنَ مستقرهم مستقراً ، وحَسُن مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل ما يَعْبَأُ بكم ربِّى لولا دعاؤكم فقد كذَّبْتُم فسوف يكونُ لِزاماً ﴾ .

لولا عبادتكم الأصنامَ ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادةِ وتسميتكم لها آلهةً . . متى كان يخلدكم فى النار ؟ .

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذتُم فى الاستكانةِ والدعاء ، وتضرَّعتُم رحِمَكم وكَشَفَ الضرَّ عنكم .

---

(۱) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى موضوع الرؤية فى الآخرة

(۲) آية : ٦٠ سورة الرحمن .

(۳) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى تأبيد نعم أهل الجنة .

تم المجلد الثانى ويليه المجلد الثالث
وأوله سورة الشعراء

فهـــرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٦٩ / ٢٠٠٠

I.S.B N 977-01-6599-9

هذا هو المجلد الثاني من (لطائف الإشارات) للإمام القشيري رحمه الله الذي اعتمد فيه على إبراز الجانب الإلهي في تجليه على أصفيائه من خلقه وفي ذلك يقول: «أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفيّ رموزه، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون». فانظر عزيزي القارئ كيف خصّ الله خلّص عباده وأصفيائه من خلقه ـ وإلى الجزء الثالث.

١٣٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب